

تأثير الشيطان

كيف يتحول الأخيار إلى أشرار

فيليب زيمباردو



ترجمة : هشام سمير

مراجعة : هالة الجندي



تأثير الشيطان


بسم الله الرحمن الرحيم

تأثير الشيطان

كيف يتحوّل الأخيار إلى أشرار

فيليب زيمباردو

ترجمة: هشام سمير

مراجعة: هالة الجندي



تاثير الشيطان

كيف يتحوّل الأخيار الى اشرار

فيليب زيمباردو

الطبعة الأولى

١٤٤٠هـ/٢٠١٩م



Business center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith,
London W6 9DX, UK

www. Takween-center.com
info@Takween-center.com

تصميم الغلاف :



+966 5 03 802 799
المملكة العربية السعودية – الخبر
eyadmousa@gmail.com

هذه الترجمة الشرعية الكاملة لكتاب:

THE LUCIFER EFFECT

Understanding How Good People Turn Evil

By: Philip Zimbardo

Random House

New YorK

٢٠٠٧م

قالوا عن الكتاب

«سيغيّر تأثير الشيطان نظرتك لدوافع سلوكياتنا بالطريقة التي نمارسها وللأبد، وبخاصة طاقة الشرّ الكامنة في الإنسان. هذا كتاب مربك، لكنه ضروريٌّ على نحو استثنائي».

(مالكوم جلادويل، الكاتب والمؤلف المعروف)

«كتاب بالغ الأهمية... يجب على جميع السياسيين والنقّاد الاجتماعيين قراءته»

(التايمز اللندنية The Times)

«كتاب مؤثر... ويُمثّل إضافة ذات قيمة استثنائية لأدبيات علم نفس العنف أو (الشرّ)»

(مجلة بروسبيكت الأمريكية The American Prospect)

«كتاب ذكي... يتحدى زيمباردو قُرّاءه لينظروا إلى ما هو أبعد من الإدانة التلقائية لمرتكبي الشر ويدفعهم نحو التفكُّر في مسؤوليتنا الجماعيّة عن أمراض العالم، ويسعى إلى تحقيق ذلك من خلال عرضه لبحث مكثف في علم النفس الاجتماعي قدّمه بطريقة واضحة وجذّابة في معظم الوقت، وتّسم بحماس أخلاقي جادّ».

(مجلة پبليشرز ويكلي Publishers Weekly)

«الكتاب يضُم نقاشًا موسّعًا... يجمع فيه زيمباردو بين رواية كاملة لقصة تجربة سجن ستانفورد وبين تحليل الديناميكيات الاجتماعية التي أثّرت فيما وقع في سجن أبو غريب في العراق».

(بوكلِست Booklist)

«زيمباردو احتجز الشرّ في مُختبَر، والدروس التي خرج بها من تجربته تكشف لنا الجانب المظلم في طبيعةِ كلٍ منّا، ولكنها تملؤنا بالأمل إن اعتبرنا بها... تأثير الشيطان يُقرأ كما تُقرأ الرواية»

(أنتوني براتكانيس، أستاذ علم النفس الفخري، جامعة كاليفورنيا)

المحتويات

تمهيد

لم يكن من السهل نقل المعنى المتضمن في عنوان الكتاب الأصلي (Lucifer Effect)، فقد صاغه المؤلف على الطريقة المعهودة في سكّ المصطلحات داخل الحقول العلمية، ولإيضاح ذلك لا بد أن نشير هنا إلى بعض الأمثلة التي صيغت فيها المصطلحات على هذه الشاكلة (بالاقتران مع كلمة Effect تأثير)، وهي كثيرة جداً، فمنها مثلاً، ما يسمى «تأثير فلورنس نايتنجال» (The Florence Nightingale effect) والذي يعني حالة يشعر فيها الطبيب بمشاعر رومانسية تجاه مريضه، وتستمر هذه الحالة طالما كان المريض بحاجة لرعاية وتتلاشى بمجرد أن يتعافى المريض. وأيضاً «تأثير الهالة» (halo effect) ويشير هذا المصطلح إلى حالة التأثر المفرط بشخص آخر بسبب المبالغة في الإعجاب به. وكذلك «تأثير بارنوم» (The Barnum Effect) وهو يشير إلى ظاهرة نفسية شائعة تظهر عندما يُقدم للأفراد وصفٌ لشخصياتهم، ويقال لهم أنها معدّة لهم خصيصاً؛ فيتوهمون صدقها، بينما هي في الواقع ليست كذلك؛ بل هي أوصاف عامة ومبهمة وتصدق على معظم الناس، ويظهر هذا التأثير في قراءة الأبراج، والتنجيم، وتحليل الكتابة والتوقيع، وبعض الاختبارات الشخصية الالكترونية. ومن الأمثلة أيضاً «تأثير بجماليون» Pygmalion effect، و«تأثير رينجلمان» (The *Ringelmann effect*) و«تأثير الفراشة» (Butterfly effect)، وفي الفيزياء «تأثير تندال» (Tyndall effect)، و«تأثير جان - تيلّر» (Jahn-*Teller effect*).. إلخ.

نأتي الآن لـ(Lucifer Effect): تأثير لوسيفر[1]؛ ولوسيفر هو اسم الشيطان - في

---

(١) (Lucifer) لوسيفر: أصل الاسم يعود إلى سفر إشعياء (١٤/ ١٢) حيث جاءت الكلمة العبرية «הֵילֵל» [هيليل] التي ترجمت في الفولجاتا اللاتينية إلى «lucifer» بمعنى الذي يأتي بالنور. نص سفر إشعياء لا علاقة له بذكر الشيطان، لكن أقحم هذا المعنى في الأدبيات النصرانية منذ زمن الآباء. لا يؤمن اليهود بملَك اسمه «لوسيفر»، ولكن جاء في سفر أخنوخ الثاني أنّ الشيطان كان رئيس الملائكة، ولمّا عصى الله وتحداه سقط عن مرتبة الملائكية، وتحوّل إلى إغواء الناس.

الثقافة المسيحية ـ حين كان من الملائكة، فقد كان عابداً صالحاً، ثم انقلب شيطاناً مَريداً لما عصى وكفر؛ فالاسم «لوسيفر» يشير به المؤلف إلى التحول من الخير إلى الشر، من لوسيفر حامل النور إلى الشيطان الفاسق.

و«تأثير لوسيفر» مصطلح سكّه المؤلف ليدل على نظريته في تفسير التحوّل نحو ارتكاب الشرّ. وبرغم الدلالات غير المقصودة في مفردة «الشيطان» بالنسبة للقارئ العربي، لا سيما مع ارتباط الشيطان في العنوان بالتحوّل من الخير إلى الشرّ، مما قد يوهم البعض أن الكتاب يشير بشكل أو بآخر لدور «الشيطان» الإغوائي كما نفهمه في ثقافتنا الإسلامية، إلا أننا رأينا الإبقاء على ترجمة العنوان (**تأثير الشيطان**)؛ لكونه متداولاً في المصادر العربية، ولعدم ملاءمة الخيارات الترجمية الأخرى في رأينا. وسيظهر جلياً للقارئ أن الكتاب ـ برغم عنوانه ذي الإيحاءات اللاهوتية ـ لا يتناول أية مؤثرات غيبية في التحول لفعل الشرّ[1]، ويستند في تأسيس أطروحته على حجج «إمبريقية»، يمكن إخضاعها للقياس، والفحص المادي، اتساقًا مع الأساس الأبستمولوجي المعتمد في الأكاديميا الغربية.

❁ ❁ ❁

تتباين وجهات أنظار الباحثين في تفسير الظواهر الاجتماعية والسياسية المختلفة، وتمثّل الأطروحة الموقفية (situationism) والأطروحة النزوعية (dispositionism) أشهر الأطروحات في الحقول الاجتماعية. ويمكن تعريف «النزوعية» بأنها وجهة نظر واسعة تضم كل المقاربات التي تولي شخصية الفرد وميوله ومعتقداته وقيمه الأولوية في تفسير الظواهر الاجتماعية، أما الأطروحة «الموقفية» فتضع الأولوية للبيئة، وللموقف والظروف والسياقات المحيطة بالفرد، وترى أن الموقف الذي يواجهه الفرد يؤثر في سلوكه تأثيرًا يفوق تأثير سماته الشخصية إلى حدٍ أكبر مما يظنّه معظم الناس. وهذه الأطروحة «الموقفية» هي ما يتبناه أكثر الباحثين في علم النفس الاجتماعي، ويأتي فيليب زيمباردو ـ مؤلف هذا الكتاب ـ بوصفه أشهر «الموقفيين»، وكتابه **تأثير الشيطان** مكرّس بالكامل للاحتجاج لهذه الأطروحة؛ بل يصفه بعض الباحثين بأنه أبرز أنصار «الحتمية الموقفية» (situational determinism).

أصحاب النظرة «النزوعية» يحتجون لوجهة نظرهم بعمق أثر السمات الشخصية والنزعات الداخلية للإنسان؛ ففي نظرهم لا يولد الإنسان «صفحة بيضاء»؛ بل يأتي للعالم محملاً ببنية فطرية سابقة وبحمولة جينية وتركيبة داخلية محددة، يقولون: ولذلك نرى أن الأفراد المختلفين يستجيبون للموقف الخارجي الواحد بطرائق مختلفة، مما يدل على أن المؤثر ليس الموقف؛ بل طبيعة التلقي والتفاعل الشخصي مع الخارج. أما أصحاب النظرة

---

(١) كما يقصر مفهوم «الشرّ» في دراسته على الأذى المادي والنفسي الموجّه ضد الآخرين.

«الموقفية» فتجد أبرز حججهم في هذا الكتاب. وبعض الأبحاث الاجتماعية الحديثة تحاول تجاوز هذه النظرة الثنائية إلى رؤية تفصيلية؛ فتقدّم التفسير «الموقفي» في حالات معينة، والتفسير بـ«النوازع» الشخصية في حالات أخرى؛ كالظواهر التي تتم على انفراد وبعيداً عن ضغوط الجماعة. ويشير لهذه النظرة المزدوجة أحد الباحثين الاجتماعين بالقول:

«أن هناك قدرًا كبيرًا من الأدلة - يأتي معظمها من علم النفس الاجتماعي - على أن بعض المواقف تستدعي سلوكيات معيارية ومحددة، كما أن هناك قدرًا كبيرًا من الأدلة - يأتي معظمها من علم النفس المعرفي - على أن لنزعاتنا [الشخصية] أهمية خاصة في ظروف أخرى».

* * *

يناقش كتاب **تأثير الشيطان** موضوعين أساسيين: **الأول**: يتعلق بتجربة سجن ستانفورد (SPE)، والتي قام بها المؤلف في مطلع السبعينات، وهي تجربة محاكاة لدراسة تأثير السجن على السجناء والحراس. وقد حظيت هذه التجربة بشهرة واسعة منذ ذلك الحين، وأضحت تجربة أيقونية بامتياز في مجالها. وفي هذا الكتاب - وعلى مدى عدة فصول - يسرد المؤلف بالتفاصيل المسهبة ما حدث في هذه التجربة، والدروس التي استخلصها منها. ومن أبرزها ضخامة تأثير «الموقف» والظروف السياقية على تغيير سلوك الإنسان، ودفعه للوقوع في غواية الشرّ، وأن الموقف والسياقات تؤثر في التحول أكثر من أية عناصر ذاتية أو فردية أو مزاجية أخرى؛ فكل إنسان معرّض بقوة للانخراط في ارتكاب الجريمة حين يكون واقعاً تحت تأثير «الموقف» الضاغط.

وقد وجّه بعض النقاد العديد من الملاحظات بشأن تجربة سجن ستانفورد؛ فرأى بعضهم أن نتائج الدراسة غامضة ولا تتمتع بالوضوح التام؛ بل بعضهم شكّك في استحقاق أن تسمى بالـ«تجربة»؛ وذلك يعود جزئيًا إلى أنها لم تستكمل مهمتها، كما سيتضح للقارئ. كما أن الدراسة - بحسب هؤلاء النقاد - لم تقم باستقصاء أثر عوامل معينة في الموقف في سلوك المبحوثين (السجناء والحراس في التجربة)، وهذا يطرح عدة تساؤلات: ماذا لو لم يكن الحراس يرتدون الزي الرسمي؟ ماذا لو أن الأدوار جرى عكسها لاحقًا، أو أن فريق العاملين تغيّر بالكامل؟ ماذا لو تغيّر الموقع الذي جرت فيه التجربة (مكان غير ستانفورد)؟ ماذا لو أن الحارس الذي سمي «جون واين» مبتكر أساليب التحكم السادية لم يكن موجودًا؟ هل أدّت قيادته دورًا حاسمًا في نتائج التجربة؟ إلخ. وبناءً على ذلك؛ فهل النتيجة المستخلصة هي أن وضع أي شخص في دور معين يقوده لأن يسلك على هذه الشاكلة، أم أن الدرس الأساسي الذي نستخلصه هو أن غياب السلطة الواضحة بحدّ ذاته يقود الناس إلى السلوك على هذا النحو؟

الموضوع الثاني: يتعلق بالجرائم التي ارتكبت في سجن أبو غريب من قبل جنود الاحتلال الأمريكي، والمؤلف يرى أن ما حدث في أبو غريب يؤكد نتائج تجربة سجن ستانفورد بخصوص «تأثير الموقف» في التحول لارتكاب الشرّ، وقد شارك المؤلف فعلياً في الدفاع عن أحد الجنود الأمريكيين المشاركين في جرائم التعذيب في أبو غريب، والذي خضع للمحاكمة بعد تسريب صور التعذيب البشعة، ومع إقرار المؤلف بالجريمة إلا أنه يرى ضرورة أخذ السياق والموقف والظروف المحتقنة بحالة الجنود بعين الاعتبار، مما يعني تخفيف الأحكام الصادرة بحقهم، وتوسيع دائرة المسؤولية لتشمل تراتبية الجهاز العسكري التي قادت الجنود لارتكاب الجرائم بطرق مختلفة ـ يشرحها المؤلف بالتفصيل ـ، ولكن القضاء حينها لم يقبل حجة المؤلف.

وقد تعرضت هذه المقارنة بين ما حدث في أبو غريب وتجربة سجن ستانفورد للنقد أيضًا؛ فقد رأى البعض أن المقارنة تفتقر للدقة لوجود حزمة فروق جوهرية، منها أن سجناء سجن ستانفورد لم تطلب منهم سلطة عليا إخضاع السجناء، و«تليين» المستجوبين لاستخراج معلومات استخباراتية، ولم يلتقط سجناء ستانفورد صورًا تذكارية وهم يعذّبون ضحاياهم، ولم يكن السجناء في تجربة زيمباردو أعداءً «حقيقيين»، ولم تتوافر فروق عنصرية بين السجناء والحراس، وغير ذلك من الفروق الهامة والتي تجعل المقارنة قليلة الجدوى في نظر هؤلاء النقاد.

وأياً ما يكن؛ فهذه الانتقادات وغيرها لا تغيّر من حقيقة الأصالة والأهمية التي تتمتع بها دراسة زيمباردو، ولا تقلل من قوتها الإقناعية، بيْدَ أنه كان من الضروري اطّلاع القارئ على لمحة من هذا الجدل الذي أثير حول الدراسة.

❁ ❁ ❁

هذا، ونرجو أن يساهم هذا الكتاب في تقديم إضافة نوعية للمكتبة العربية، وأن يلبي رغبة الباحثين بالاطلاع على إحدى أهم الأطروحات الحديثة في علم النفس الاجتماعي، كما نأمل أن تساعد أفكاره في تطوير النقاشات والرؤى المطروحة حيال «الشرّ» العنيف الذي ترزح تحته بلداننا العربية.

والحمد لله رب العالمين

مركز تكوين للدراسات والأبحاث

تصدير المؤلف للترجمة العربية

أُرحّب بقرّاء كتابي **تأثير الشيطان** العرب ليشاركوني في رحلة نستكشف فيها أولاً الجانب المظلم لنطبيعة الإنسانية، سنقابل الشر في مختلف صوره؛ بشرٌ أشرار ومواقف شريرة وأنظمة شريرة. وبعد أن نجيل النظر في الأقنعة المختلفة التي يستتر خلفها الشر في حياتنا، وبعد أن نبحث في شر الفعل وشر التقاعس عن الفعل على حدٍ سواء سنختم رحلتنا بالجانب المشرق للطبيعة الإنسانية، وسنكتشف معًا ما يعنيه للإنسان العادي أن يصبح بطلاً.

إن واحدة من الأسئلة التي لطالما أوقعتني في الحيرة منذ طفولتي هي كيف أمكن حدوث الهولوكوست في مجتمع مثقف ومتحضر كما كان عليه الحال في ألمانيا في ثلاثينيات القرن الحالي؟ ويبقى السؤال نفسه قائمًا بالنسبة لأحفاد مرتكبي هذا الشرور؛ بل وللسواد الأعظم من المواطنين المذنبين بتهمة التقاعس الذين عرفوا بالشر الموجود في أوساطهم ثم لم يكترثوا له وأشاحوا ـ ببساطة ـ بعيدًا بأبصارهم، جاعلين من المذبحة التي قضى فيها ملايين اليهود في جميع أقطار أوروبا أمرًا غير ذي بال.

كتبتُ **تأثير الشيطان** منطلقًا من همٍّ مشابه ولكنه أكبر: ما الذي يجعل البشر العاديين، بل والصالحين يرتكبون أفعالاً شريرة؟ بالتأكيد كان محور تركيزي هو محاولة فهم جريمة إبادة يهود أوروبا بفعل آلة القتل الشامل التي صنعها هتلر، لكنني كنت مهتمًا بذات القدر بالأمثلة الكثيرة التي تتجاوز حدود ألمانيا، والمشابهة في الوحشية من جميع أنحاء العالم، ستالين (Stalin) والرئيس ماو (Chairman Mao)، المعروفين كليهما بإبداع «أنظمة إبادة» قضت على أكثر من عشرين مليون إنسان. حزب الخمير الحمر في كمبوديا عذّب وقتل مليونين من أبناء وطنه، وفي رواندا مؤخرًا أعلنت حكومة الهوتو أن المواطنين الروانديين المنتمين لقبيلة التونسي يستحقون الموت؛ فهم ليسوا إلا «صراصير». تسلّح الرجال بالمناجل والنساء بالهراوات وقتلوا بشكل ممنهج ٨٠٠,٠٠٠ من جيرانهم في ثمانية أشهر

فحسب بأسلحة «الدمار الشامل» البدائية خاصتهم. في البوسنة، ودارفور، وفي الكونغو، غدت الحياة مريعة بسبب الصراعات العرقية التي تتضمن التعذيب والتشويه والاغتصابات الجماعية للنساء والفتيات الصغيرات.

درستُ بشكل مباشر حالة أشخاص شاركوا في التعذيب وفي فرق القتل لصالح الحكومة العسكرية البرازيلية منذ نهاية الستينيات وحتى السبعينيات. كانوا جميعًا رجال شرطة مدنية «يؤدون الواجب» ويحمون الأمن الوطني من «الأعداء» الاشتراكيين والشيوعيين، هؤلاء الأعداء كانوا ثلّة من الطلبة ومن أساتذة الجامعة مثلي. كان الحكم في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية والجنوبية في يد أنظمة قمعية وفاشية، وكذلك كان الحال في اليونان في حقبة الاضطهاد العالمي للديمقراطية. وفي بعض الأحيان كانت حكومة الولايات المتحدة تدعم بعض هذه الديكتاتوريات الهمجية، خاصة وقت هوسها بحربها الباردة ضد الشيوعية السوفييتية. قام مواطنون أمريكيون كثر في وقت مبكر من القرن العشرين بتعذيب وانتهاك بل وإعدام وحرق السود أحياءً بتهمة ارتكاب جريمة ما ضد أبيضٍ ما.

يقوم الافتراض الأساسي لهذا الكتاب على أننا جميعًا أخطأنا في محاولة فهم السلوك الإنساني المعقد بتسليط أدواتنا التحليلية على السمات الشخصية للفرد الفاعل الذي ارتكب صورًا متنوعة من هذه الشرور؛ فنحن بهذا نتجاهل أو نقلل من أهمية المؤثرات الظرفية الخارجية في صناعة السلوك الإنساني وتشكيله والتحكم فيه. يتوفر للممثلين على مسرح الحياة - في أغلب الأحيان - جمهور وممثلين مشاركين وملابس ومعدات وأدوار محددة لتأديتها، وعادةً ما يؤدون الدور وفقًا لنصٍ معدٍ مسبقًا ملتزمين بقواعد اجتماعية مضمرة وغير واضحة في الغالب بالنسبة للأغراب. لن نتمكن من فهم كيف ولماذا قام الممثل بقول أو فعل شيء ما مالم نفهم بيئة المسرح وكافة خصائص السياق السلوكي الذي يحكم أداءه بطرق يمكن توقعها.

بعد ذلك يجب أن نسأل، من يصنع الظروف التي تعد هي الخصائص الأكثر أهمية في السياق السلوكي؟ معرفة مدير المسرح والمخرج لا تقل أهمية عن فهم طباع الممثلين الرئيسيين، وهنا تبرز الأنظمة في الصورة. المؤثرات النظامية في السلوك هي بمثابة القوة الأساسية التي تصنع الأوضاع الاجتماعية وتبررها وتحافظ على وجودها، إنها نتاج اجتماع القوى السياسية والدينية والقانونية لتصنع جميعها وعاءً جيدًا أو سيئًا توضع فيه التفاحات بشكل منفرد لتخرج منه بعد ذلك صالحة أو فاسدة بحسب الخصائص الظرفية لتلك الأوعية.

حتى نرجع لموضوعي الأساسي عن تحول البشر العاديين الذين عاشوا في ألمانيا في الثلاثينيات والأربعينيات إلى ارتكاب الشرور أو عدم الاكتراث للمأساة الإنسانية التي

عاشها جيرانهم اليهود؛ فيجب في رأيي أن نكفّ عن البحث في جينات وبنية شخصية هؤلاء الناس، وأن نكف عن التركيز على ميولهم وطباعهم، وبدلاً من هذا علينا أن ننظر في الظروف الخارجية في تلك الحقبة، وخاصة السياقات السلوكية التي تحرّك فيها هؤلاء وفقًا لروح عصرهم. الأكثر أهمية أن نكون على وعي بالأساليب الكثيرة التي سيطر بها الرايخ الثالث [الحزب النازي] على كل أنظمة التعليم والاتصال والدين والأعمال والقضاء، وكذلك على الإرادة السياسية للمنظومة الحاكمة. تشمل هذه السيطرة الهرمية الأساس الإيديولوجي للفاشية النازية واهتمامها بجعل شعبها يشعرون بأنهم ضحايا قوى عالمية متآمرة عليهم، وبالأخص اليهود الذين صُوّروا وكأنما يستنزفون طاقة وعافية الأمة الألمانية الصاعدة ببطء. الأنظمة تصنع ظروف ومواقف، وهذه بدورها تصنع ردود فعل سلوكية فردية. وكون معدلات الميول السلطوية مرتفعة لدى الألمان في هذه الحقبة أو لا؛ هو أمرٌ غير مرتبط بفهمنا لأسباب الهولوكوست، ما يعنينا أكثر هو فهم كيف انحرفت جميع أنظمة السيطرة الاجتماعية والتنشئة الاجتماعية لتصنع خرافة التفوق الجيني النازي وتسبقيها، وكذلك خرافة ضرورة غزو العالم وإبادة اليهود عرقيًا.

عندما كنتُ في آخر مرحلة من دراستي الثانوية كان الطالب الذي يجلس إلى جانبي حدثًا يهوديًا، وكان دائم التساؤل عما إذا كان حدوث الهولوكوست ممكنًا في أمريكا في الخمسينيات، وكان الجميع يؤكدون له استحالة هذا لأن الأمريكيون شعب محبّ للسلام ويخافون الله، وأن فظائع الهولوكوست إنما وقعت بسبب العقلية النازية والطاعة العمياء لهتلر، الزعيم. لاحقًا بعدما كَبُر هذا الولد ليصبح الأستاذ ستانلي ميلغرام (Stanley Milgram)، صاغ مخاوفه قائلاً: «هل يمكن أن تقتل شخصًا لا تعرفه صعقًا باستخدام الصدمة الكهربائية فقط لأن هتلر طلب منك القيام بهذا؟»، مجددًا قيل له بأنه من المستحيل أن يقوم الشعب الأمريكي الطيّب بهذا؛ لأنهم شعب ملتزم بالقانون وحرّ الفكر، لكنه أثبت خطأ المشككين. في دراسته الكلاسيكية، التي سنصفها بتفصيل كامل في أحد فصول كتابنا هذا، قام أغلبية المواطنين الأمريكيين العاديين بالفعل بصعق شخص غريب بصدمة كافية لقتله؛ بل إن أحد الاستنتاجات الثانوية لدراسته دللت على سهولة توفير معسكرات اعتقال يقوم عليها عدد كافٍ من الحراس الأمريكيين الذين سيطيعون أوامر السلطة طاعة عمياء. قدم بحث ميلغرام مفهوم التأثير الموقفي بوصفه قادرًا على تحطيم حرية الإرادة وتشويه الاختيار العقلاني عند أغلب الناس عندما يوجدون في بيئة سلوكية جديدة.

يوسع بحثي من نطاق التأثير الموقفي ليتجاوز تأثير السُلطة إلى تأثير المؤسسة، وذلك بسبب إدراكي أن أغلبنا يقضي معظم حياته في بيئات مؤسسية، الأسرة أو المدرسة أو الدين أو العمل أو الجيش وغيرها. نحن في البداية مجرد مؤدين لأدوار متنوعة في جميع هذه

البيئات، وهذه الأدوار إما تكون مسندة لنا أو نختارها بأنفسنا، لكن مع مرور الوقت نصبح نحن والدور الذي نلعبه شيئًا واحدًا. تندمج الشخصية بالهوية لنصبح مُمَثّلين جدد نسير وفقًا لنصوص ربما كانت أبعد ما تكون عن طبيعتنا أثناء وجودنا خارج هذه البيئات. في مساحات كبيرة من فصول كتابنا **تأثير الشيطان**، نُفَصِّل كيف أن الشباب الصالح الذين أسندت لهم أدوارهم بوصفهم حراس سجن سرعان ما تحولوا إلى ساديين[1] في تعذيب سجنائهم. أقوم بهذا بهدف جعل القارئ يفهم معنى «الشر الخلّاق» في الفعل، وكيف أن الكلمات وبعض القيود الظرفية فحسب كانت قادرة على تحويل الشباب الجامعي المعافى إلى أسرى مطيعين طاعة عمياء، تعرض كثير منهم لانهيار عاطفي في أقل من أسبوع.

سنتناول في عدد من الفصول أوجه الشبه بين تجربة سجن ستانفورد (SPE) وجرائم التعذيب التي ارتكبها حراس السجن الأمريكيون في حق السجناء العراقيين في أبو غريب في ٢٠٠٤م. كنت شاهد دفاع خبير لأحد هؤلاء الحراس مما أتاح لي الحصول على ما يكفي من معلومات لتحديد ما إذا كانت التفاحات هي الفاسدة أم الأوعية التي حفظت فيها تلك التفاحات. أقوم ببيان كيف خلقت أحوال السجن ظروفًا مستحيلة لهؤلاء الجنود الشبان، كان الوضع في أغلب جوانبه النفسية يشبه ما حدث في دراسة السجن التي أجريتها، لكنه كان أسوأ بأضعاف مضاعفة. بعد ذلك سأستمر في توضيح أن عبء التورط في هذه الأفعال الشريرة يمتد ليتجاوز حراس السجن أصحاب الرتب المنخفضة هؤلاء ويشمل صعودًا كل من يعلوهم في سلسلة القيادة العسكرية وصولاً إلى قمة السلسلة حيث إدارة جورج بوش (George W. Bush) المدنية.

يقودنا هذا التحليل إلى الاستنتاج الصعب، وهو أن الحياة في دولة ديمقراطية ليست ضمانًا كافيًا لحمايتنا من الهيمنة الديكتاتورية للقيادة المنتخبة. استخدم الرئيس بوش تهديد الإرهاب النووي لإخافة أغلب الأمريكيين واستدراجهم ليشعروا بأنهم مهددون للغاية إلى الحدّ الذي أصبحوا معه مستعدين لمنحه كامل الصلاحيات بوصفه قائدًا ميدانيًا للجيش في حربه «ضد الإرهاب». بهذا الدعم من القاعدة الانتخابية أعلن بوش وإدارته الحرب على صدام حسين ـ الذي كان في السابق حليفًا للولايات المتحدة في حربها على إيران ـ، الحرب التي قتلت الملايين من العراقيين والآلاف من الجنود الأمريكيين وكبّدت دافعي الضرائب تريليونات من الدولارات ثم اتضح الآن أنها كانت بأكملها مبنية على أكاذيب، وبعد سنوات من المعارك غير المجدية أصبح الوضع أكثر سوءًا، لم يتحسن عما كان عليه في وجود الديكتاتور في سدة الحكم. مُكْرَهًا أحثّ على الحذر من

---

(١) السادية تعني التلذذ المَرَضِي بإيلام الآخرين وإيذاءهم. (المحرر).

الأباطرة الذين يرتدون زي أنصار الديمقراطية وهم في حقيقتهم دعاة سلطة.

هذ الخط من التفكير يقودني إلى تعريفي السلوكي المركزي للشر: الاستخدام والإساءة المتعمدين للسلطة في إيذاء الآخرين وإيلامهم وتدميرهم والسيطرة عليهم. معنى هذا أن على المواطنين في جميع الديمقراطيات الحذر من قياداتهم المنتخبة التي تبحث على الدوام عن المزيد من النفوذ، وأن يتخذوا الإجراءات المناسبة لمنع هذا النفوذ من التوسع ثم الإساءة والتجاوز ثم الضعف ونهاية السلطة.

كغيري من المحبين للحرية حول العالم رحّبتُ بالثورة التي قادها الطلبة أثناء الربيع العربي ضد النظام الاستبدادي في القاهرة في (يناير ٢٠١١م)، لكن ما الذي حلّ بتلك اللحظة المتخمة بسعادة الحرية عندما ظهرت السلطة العسكرية لتملأ الفراغ الذي تركته السلطة السياسية البائدة؟

وقد شاهدنا حدثًا آخر يبدو أقل أهمية حيث حاولت الحكومة التركية إزالة المساحة الخضراء في وسط استانبول تحت سياسة إعادة الترميم، لكن فجأة ساء الموقف بشدة واندلعت الثورة! من المهم أن نلاحظ أن تلك الأحداث أظهرت الغضب المكبوت الهاجع في نفوس الملايين من أبناء الشعب الذين تبيّنوا فجأة أن اتحاد الجموع المقهورة في حد ذاته يُمثّل قوة، وذلك عندما تحركوا معًا ليعلنوا صوت الحرية الحقيقية، وقد أصبح هذا الوعي الواسع بالحرية يُعرف باسم «روح متنزه غيزي»، ومن ثمّ انتشر ليسري من الطلاب وأصحاب الياقات البيضاء إلى أصحاب الياقات الزرق والمزارعين والطبقة العاملة بشكل عام. اتحد الناس من مختلف الطبقات الاجتماعية والخلفيات بأجنداتهم المختلفة تمامًا ليحتجوا على سنوات من التلاعب من قبل حاكم سلطوي شرير، لكن من الصعب الحفاظ على هذا النضال في كل أرجاء البلد طيلة الوقت، ومن الصعب أن تستمر هذه الطاقة الأولى للثورة ضد الظلم لأن على الناس العودة إلى حياتهم العادية ومواصلة أدوارهم في الحياة.

وفقًا لطرحي الذي سأطوّره في الفصل الأخير من هذا الكتاب يجب أن نعدّ هؤلاء الثوار من الأبطال؛ هم أناس عاديون وقفوا ورفعوا صوتهم وتحركوا مُتحدّين جميع الظروف التي واجهتهم وهم على دراية كاملة بتكلفة ما يقومون به وبالمخاطر التي ستعترض طريقهم، لكن على الرغم من هذا واصلوا نضالهم ببسالة. يجب أن نحتفي بهم وأن نقتدي بهم كأبطال كل يوم (لا كأبطال الأساطير القديمة).

الآن حان وقت مرافقتك إلى قلب الظلام، إلى أن تخرج بعد انتهائك من قراءة الكتاب بتقدير أكبر لنور الخير في الإنسان وللتعاطف الذي يجعل البعض منا أبطالاً يواجهون القوى التي تحول آخرين مثلنا إلى أوغاد.

أتمنى أن تنير رحلتنا معًا بصيرتك وضميرك وفهمك للشجاعة الأخلاقية، كما أتمنى أن تكرر على نفسك سؤال: ماذا كنت سأفعل في هذا الموقف؟ وأرجو أن تكون الإجابة: سأحول تعاطفي إلى فعل بطولي لمساعدة الآخرين الذين هم في حاجة للمساعدة في حين أحاول في الوقت نفسه أن أجعل المؤسسات التي أعيش فيها، أسرتي ومدرستي وعملي وبلدي ترقى إلى الأفضل في كل يوم أعيشه.

الدكتور فيليب زيمباردو

(Dr. Philip Zimbardo, Ph.D.)

المقدمة

وددتُ لو قلت أن كتابة هذا العمل كان جهدًا بذلته باستمتاع، لم يكن الأمر كذلك ولو للحظة واحدة طوال عامين استغرقهما إتمامه. قبل كل شيء كانت إعادة الاستماع لتسجيلات تجربة سجن ستانفورد (SPE) وقراءة تفريغاتها النصية مرارًا وتكرارًا أمرًا مؤلمًا؛ فقد بهتت - بتعاقب الأيام - ذكرياتي عن الشرّ الخلاق الذي تورط فيه الحراس، وعن مدى معاناة العديد من السجناء، وعن مدى سلبيتي في السماح لتلك الاعتداءات بالاستمرار طيلة تلك المدة؛ إنه شر التقاعس.

نسيت أيضًا أن كتابة الجزء الأول من هذا الكتاب قد بدأت في الحقيقة منذ ثلاثين سنة مضت بالتعاقد مع ناشر آخر، لكنني توقفت بعد مدة قصيرة بسبب عدم استعدادي لعيش التجربة مجددًا لقرب عهدي منها. أنا سعيد لعدم إصراري على الاستمرار في الكتابة حينها؛ فالوقت المناسب هو الآن، أنا الآن أكثر حكمة وأقدر على إضافة أبعاد جديدة على هذه المهمة المعقدة بغية إثرائها. أضف إلى ذلك أن أوجه التشابه بين اعتداءات سجن أبو غريب وأحداث تجربة سجن ستانفورد أضفت على الأخيرة مصداقيةً تمكنها من إلقاء الضوء على الديناميكيات النفسية التي أسهمت في خلق تلك الاعتداءات المروعة في ذلك السجن الحقيقي، أبو غريب.

الحائل الثاني الذي استنزفني عاطفياً وحال بيني وبين الكتابة هو كوني أصبحت معنيّاً بشكل شخصي وبدرجة كبيرة بالتحقيق في الانتهاكات وعمليات التعذيب التي جرت في سجن أبو غريب؛ فبوصفي شاهدًا خبيرًا لأحد حراس السجن العسكري؛ تحولتُ إلى صحفي استقصائي أكثر من كوني مختصًا في علم النفس الاجتماعي، عملتُ على كشف كل ما استطعت كشفه مما يخص هذا الشاب، بدءًا من إجراء لقاءات مكثفة معه وحوارات ومراسلات مع أفراد عائلته؛ وصولاً إلى الاستعلام عن سوابقه في الإصلاحية والجيش، مرورًا بإجراء حوارات مع بعض أفراد الجيش الذين خدموا في تلك الزنزانة.

بدأتُ أشعر بما يعنيه أن تكون مكانه في الرصيف (A1)، في نوبة ليلية تمتد من الساعة الرابعة مساءً إلى الرابعة صباحًا مدة أربعين ليلة بلا انقطاع.

كشاهد خبير في المحاكمة يحاول عرض المؤثرات والضغوط الظرفية[1] التي أدّت إلى الانتهاكات التي ارتكبها هذا الشاب تحديدًا؛ أتيح لي كامل الاطلاع على مئات الصور الرقمية المسجلة لهذه الانحرافات، كانت مهمة بشعة، كما قُدِّمَت لي كافة التقارير التي كانت متاحة وقتها والتي أعدتها لجان التحقيق المختلفة، مدنية وعسكرية. ولمّا علمتُ بتعذر حيازتي لملاحظات تفصيلية أثناء المحاكمة اضطررت إلى حفظ أكبر قدر ممكن من التفاصيل الحاسمة والاستنتاجات. أُضيفَ هذا التحدي لقدرتي العقلية إلى الإجهاد النفسي المروّع الذي بدا عليّ عقب صدور حكم قاسٍ على الرقيب إيفان تشيب فريدريك (Ivan Frederick Chip)، ثم أصبحت المستشار النفسي غير الرسمي له ولزوجته مارثا (Martha)، وبمرور الوقت أصبحت العم فل (Uncle Phil).

كان إحباطي وغضبي مضاعفين لعدم ترحيب الجيش بأيٍّ مما فصّلت فيه القول من الظروف التي أسهمت بشكل مباشر في سلوك الرقيب فريدريك العدواني، والتي كان من شأنها أن تخفف من ذلك الحكم المشدّد بالسجن! رفض كلٌّ من النائب العام والقاضي النظر في أية فكرة تتعلق بكون الضغوط الظرفية قادرة على التأثير في سلوك الفرد، كان تصورهم هو التصور الفرداني المعتاد الذي يتشاركه معظم الناس في ثقافتنا، وهو أن الخطأ «نزوعي»[2] بشكل كامل، يعني ذلك أن الرقيب تشيب فريدريك اتخذ قرارًا بالتورّط في الشرّ وهو في كامل عقله وحريته، وفاقم من إحباطي أن الكثير من التقارير الاستقصائية «المستقلة» ألقت باللوم في شأن هذه الاعتداءات على تقاعس كبار القادة وغيابهم عن المتابعة على الأرض، تلك التقارير - المسؤول عنها القادة وبعض كبار المسؤولين السابقين في الحكومة - أظهرت أن تسلسل القيادة العسكرية والمدنية شكّل «وعاءً فاسدًا» تحول فيه عدد من الجنود الصالحين إلى «تفاحات فاسدة».

لو كنتُ كتبتُ هذا الكتاب بعد إنهاء تجربة سجن ستانفورد بمُدَّة قصيرة لكنت اكتفيت بالتفصيل في مدى قوة الضغوط الظرفية، وفي كونها أقدر مما نتصور أو نعترف على تشكيل سلوكنا في سياقات متنوعة، لكنني كنت سأفقد الصورة الكاملة ذاهلاً عن القوة الأكبر التي تخلق الشر من قلب الخير، إنها قوة النظام ومجموع القوى الفعالة التي تصنع الموقف. من

---

(١) (situational forces) الضغوط والقوى الظرفية: قدرة الموقف والمتغيرات الزمانية والمكانية على التأثير في سلوك الفرد. (المترجم).

(٢) (disiposition) النزوع: السلوك الناتج عن الطباع والميول والنزعات الأساسية للإنسان، وفي هذا الكتاب ستدل هذه الكلمات بمختلف تصريفاتها على الاصطلاح النفسي ذاته. (المترجم).

المُنفهَم أن تفوق قوة الموقف قوة الفرد في سياقات محددة، وهو مفهوم تؤيده أدلة كثيرة في علم النفس الاجتماعي واستشهدتُ بهذه الأدلة في العديد من الفصول، لكن مع ذلك لم يهتمّ أغلب علماء النفس بالروافد الأكثر عمقًا لهذه القوة الفعّالة التي تلازم منظومة السياسة والاقتصاد والدين والتاريخ والثقافة، والتي تصنع المواقف وتشرعن وجودها أو تلغي مشروعيتها.

يتطلب الفهم الكامل لديناميكيات السلوك الإنساني التعرف على امتداد وحدود قدرة كلٍ من الفرد والموقف والنظام. إن تغيير أو منع سلوك غير مرغوب فيه يقدم عليه فرد أو مجموعة يتطلب فهم نقاط القوة والضعف، والقيم التي تُستصحب في موقف معين، بعدها نحتاج إلى التعرف على المؤثرات الظرفية المتشابكة والفاعلة في بيئة سلوكية معينة بشكل أوسع. إن تعديل هذه المؤثرات أو تعلم كيفية تجنبها يمكن أن يكون أكبر أثرًا في الحدّ من ردود الفعل الفردية غير المرغوب فيها مقارنة بالإجراءات الإصلاحية التي تركز فقط على تبديل المشاركين في الموقف، مما يعني تبني نموذج الصحة العامة بدلاً من النموذج العلاجي العادي في معالجة المرضى والأخطاء، لكن ما لم نتزد من المعرفة بالقدرات الحقيقية للنظام الملتحف دومًا بالسرية، وما لم نفهم جيدًا مجموع قوانينه وقواعده التنظيمية؛ سيبقى تغيير السلوك مؤقتًا وسيبقى تغيير الموقف مجرد وهم. أكرر التأكيد بإلحاح طيلة هذا الكتاب على أن محاولة فهم دور الموقف والنظام في توجيه أي سلوك فردي لا تعذر الفرد أو تعفيه من مسؤوليته في التورط في أفعال شريرة، غير أخلاقية، وغير قانونية.

عند تأمل كوني قضيتُ الكثير من مسيرتي المهنية في دراسة علم نفس الشر والعنف والتغييب والعدوان والتخريب والتعذيب والإرهاب؛ فيجب أن آخذ في الاعتبار أيضًا دور القوى والمؤثرات الظرفية التي قامت بتشكيلي؛ فنشأتي في حي فقير في جنوب برونكس في مدينة نيويورك، جعلت نظرتي للحياة ولأولوياتي تشبه الغيتو، تتلخص حياة الغيتوهات المدنية في تطوير الاستراتيجيات اللازمة للتعامل مع مخاطر الشارع، يعني ذلك أن تعرف من يملك القوة التي يمكن استخدامها إما ضدك أو لصالحك، من عليك اجتنابه، ومن عليك تملّقه، يعني ذلك أن تفكّ شيفرات الإشارات المعقدة التي تلدها المواقف والتي تنبئك متى تراهن ومتى تضاعف الرهان، يعني ذلك صناعة التزامات متبادلة، كما يعني معرفة المطلوب في سبيل الانتقال من التبعية إلى القيادة.

في تلك الفترة، قبل ظهور الهيروين والكوكايين في برونكس، كانت حياة الغيتو تتمثل في بشر بلا أملاك، في أطفال كان أثمن ما يملكونه هو أطفال آخرون يشاركونهم اللهو في غياب الألعاب والتكنولوجيا. بعض هؤلاء الأطفال كان إما ضحية للعنف أو مرتكبًا له،

بعض الاطفال الذين ظننت أنهم صالحين انتهى بهم الأمر إلى القيام بأشياء سيئة حقًا، ثمة أحيانٌ يكون الدافع فيها وراء هذه الأفعال واضحًا، دونك والد دوني على سبيل المثال، كان يعاقبه على أي خطأ يظن أنه ارتكبه بتجريده من جميع ملابسه وجعله يجثو على ركبتيه فوق حبات الأرز في المغطس، هذا «الوالد المُعذِّب» كان رجلاً جذابًا في أوقاتٍ أخرى، خاصة بالقرب من النساء القاطنات في نفس البناية؛ فانتهى المطاف بـ«دوني» المُحطَم كمراهقٍ صغيرٍ بعد هذه التجربة في السجن. طفلٌ آخر هنالك كان يفرغ إحباطه في سلخ القطط وهي حيّة.

كان علينا - كإجراء من إجراءات الانضمام إلى العصابة - أن نسرق، أو أن نتعارك مع طفل آخر، أو أن نقوم ببعض الأفعال الجريئة مثل ترويع الفتيات والأطفال اليهود في طريقهم إلى الكنيس، لم تكن هذه الأعمال شريرةً أو سيئةً في نظرنا؛ كانت مجرد طاعة لأوامر قائد المجموعة وامتثالاً لقوانين العصابة.

بالنسبة لنا نحن الأطفال؛ كانت القوة النظامية تتمثل في حراس العقارات ضخام الجثث الفظاظ الغلاظ الذين كانوا يلقون بنا على أعتاب البيوت، وملّاك العقارات عديمي الرحمة الذين لم يترددوا في تشريد أسرٍ كاملةٍ باستدعائهم السلطات لتقذف بهم وبمقتنياتهم في الشارع إذا لم يفلحوا في تسديد الإيجار، ما زلت حتى الآن أشعر بالأسف كلما ذكرت الإحراج العام الذي كانوا يتعرضون له، لكن أسوأ أعدائنا كانوا رجال الشرطة الذين كانوا يباغتوننا أثناء لعبنا البيسبول في الشوارع بمضارب هي في الواقع عصي مكانس، وكرات سالدينج المطاطية. كانوا يصادرون عصينا بدون تقديم أية أسبابٍ ويجبروننا على التوقف عن اللعب في الشارع، والذي - وبسبب غياب الملاعب عن حيِّنا حتى مسافة ميل - كان كل ما نملك، وكراتٌ مطاطيةٌ وردية اللون لا يمكن أن تمثل خطرًا على أحد! أذكر مرةً أخفينا فيها العصي التي نستخدمها في اللعب عندما وصل رجال الشرطة، لكنهم اقتادوني جانبًا منفردين بي لإفشاء سرّ مكانها، وعندما رفضت قال أحد الضباط أنه سوف يعتقلني، وأثناء دفعه بي إلى داخل سيارة الدورية ارتطم رأسي بالباب، من وقتها لم أعد أثق بالكبار الذين يرتدون الزي الرسمي مطلقًا إلا إذا أثبتوا العكس.

مع ظروف نشأة كهذه، وفي غيابٍ تامٍّ لإشراف الوالدين؛ لأن الآباء والأبناء في تلك الفترة لم يجتمعوا في الشوارع قط، يمكن أن نرى من أين يأتي فضولي حيال الطبيعة الإنسانية، وحيال جانبها الأكثر ظلمة بشكل خاص. لذا؛ كان **تأثير الشيطان** كامنًا طيلة سنواتٍ في داخلي، منذ أيام اللعب في صندوق الرمال في الغيتو وحتى مرحلة تدريبي الرسمي في علم النفس، وقادني ذلك كله إلى طرح أسئلة كبيرة سعيت إلى الإجابة عنها متوسلاً بالأدلة التجريبية.

بنية هذا الكتاب غير معتادة إلى حدٍّ ما، تبدأ بفصلٍ افتتاحيٍّ مختصر عن تحوّل شخصية الإنسان، تحوّل الأخيار والملائكة إلى أشرار وشياطين. يثير هذا سؤالاً مركزيًا عن مدى معرفتنا بأنفسنا، ومدى إصابتنا في توقع ما قد نفعله أو لا نفعله في مواقف لم نتعرض لها من قبل. هل يمكن، كما حدث مع ملاك الرب المفضل «لوسيفر»، أن تقودنا الغواية إلى ارتكاب ما لا يخطر لنا على بالٍ ضد آخرين؟

تتكشف الفصول عن تفاصيل الدراسة الموسعة لتجربة سجن ستانفورد حيث يلعب المتطوعون من طلبة الجامعة أدوارًا موزعةً عشوائيًا بين سجناء، وحراسٍ في سجنٍ مقلّد انتهى به الأمر ليصبح حقيقيًا تمامًا. الترتيب الزمني للفصول مقدمٌ في صيغةٍ سينمائية كروايةٍ شخصيةٍ تروى في الزمن الحاضر بأقل قدر من التفسيرات، وفي ختام هذه الدراسة ـ والتي كان لا بد من إيقافها قبل تمامها ـ سنبدأ في النظر فيما تعلمناه منها.

إحدى الاستنتاجات الرئيسية من تجربة سجن ستانفورد هي أن هذه المجموعة من المتغيرات الظرفية البسيطة الشائعة قد تهيمن على رغبة الفرد في المقاومة، يصبح لهذا الاستنتاج ثقل أكبر عبر سلسلة من الفصول المنوطة بتفسير هذه الظاهرة من خلال مجموعة من الأبحاث الاجتماعية. نرى كيف أن مجموعة مختلفة من المتطوعين في التجربة، سواء أطلبة كلياتٍ أخرى كانوا أو مواطنين عاديين؛ أطاعوا، وامتثلوا؛ بل وغُرِّر بهم بسهولةٍ لفعل أشياء ما ظنوا يومًا أن يأتوا بمثلها حال كونهم في منأىً عن تلك المؤثرات الظرفية. نعرض بشكلٍ موجزٍ مجموعةً من الإجراءات النفسية القادرة على استدراج بشرٍ صالحين لفعل الشر، ومن بينها سلب الذاتية[1]، والانصياع للسلطة، والسلبية في مواجهة المخاطر، والتبرير للذات، والعقلنة. اللاأنسنة[2] هي إحدى الإجراءات الأساسية في تحويل الأفراد العاديين إلى عدم المبالاة بالشر أو بممارسته بوحشية، هي مثل مرض المياه البيضاء الذي يصيب العين، تشوش على الإنسان تفكيره وتغذي الإحساس بأن الآخر أقل إنسانية، تجعل بعض الناس يصنعون من الآخرين أعداء مستحقين للبلاء والعذاب والهلكة.

بهذه المجموعة من الأدوات التحليلية في حوزتنا؛ نتحول إلى التفكير في الأسباب التي أدت إلى تلك الانتهاكات في سجن أبو غريب في العراق على يد من «يحرسه»؛ الشرطة العسكرية الأمريكية. إن ادّعاء كون تلك الأفعال غير الأخلاقية عملاً ساديًا ارتكبته قلةٌ من الجنود المنحرفين أو من نسميهم التفاحات الفاسدة محجوجٌ بفحص أوجه التشابه

---

(١) (deindividuation) سلب الذاتية ـ الإمعية: الانقياد لأفراد المجتمع في أفعالهم ولو كانت خاطئة. (المترجم).

(٢) (dehumanization) اللاأنسنة / الحيونة: أن نتوقف عن النظر إلى جماعة معينة من البشر على أنهم بشرٌ مثلك، ولكن كحيواناتٍ مجرداً إياهم بالكامل من أية صفاتٍ إنسانية، ومن أهم الآليات التي تُحفِّز هذا السُلوك تسمية جماعةٍ من الناس بأسماء حيواناتٍ من قبيل (صراصير، خراف... إلخ). (المترجم).

بين المؤثرات الظرفية والعمليات النفسية التي جرت في هذا السجن ومثيلتها في سجن ستانفورد. نفحص المكان والشخص والموقف بعمق لنصل إلى استنتاجاتٍ عن القوى التي تسببت في خلق تلك السلوكيات العدوانية التي أظهرتها «الصور التذكارية» الشنيعة التي التقطها الجنود أثناء تعذيبهم سجناءهم.

بعد ذلك، أترقّى صعودًا في سلسلة التفسيرات من الفرد إلى الموقف ثم إلى النظام. وبالاعتماد على كثيرٍ من تقارير التحقيقات في تلك التجاوزات وكثيرٍ من الأدلة الأخرى حقوقية المصدر وقانونيته؛ أقف موقف المدعي العام لأطالب بمحاكمة النظام، وباستخدام نظامنا القانوني القاصر الذي يطالب بمحاكمة الأفراد على الجرائم لا الظروف ولا الأنظمة؛ أوجّه اتهامي لمجموعةٍ من كبار ضباط الجيش وأوسع طرحي المتعلق بتورط القيادة في الجريمة ليشمل القيادة المدنية في إدارة جورج بوش. سيقرر القارئ كمحلفٍ ما إذا كانت الأدلة تؤيد التهم الموجهة لهؤلاء أم لا.

تبلغ تلك الرحلة القاسية إلى قلب الظلام وعقله نهايتها في الفصل الأخير، حيث نعود القهقرى لتلقّي بعض الأخبار السارة عن الطبيعة الإنسانية، وعما يمكننا فعله بوصفنا أفرادًا لمواجهة المؤثرات الظرفية وقدرة النظام. في كل الأبحاث المذكورة وفي أمثلتنا الواقعية وُجِد دومًا من قاوموا الغواية ولم يخضعوا لها، لم يكن سبب نجاتهم من السقوط صلاحٌ فطريٌ ظهر داخلهم بطريقةٍ سحريةٍ غامضة؛ بل كان السبب على الأرجح معرفتهم الحدسية بالتكتيكات الذهنية والاجتماعية للمقاومة. أقدّم بشكلٍ موجزٍ بعض هذه الاستراتيجيات والأساليب بهدف مساعدة أي شخصٍ على أن يكون أكثر قدرةً على مقاومة التأثير الاجتماعي السيء، هذه النصائح مبنيةٌ على مزيج من خبراتي الشخصية وحكمة زملائي من متخصصي علم النفس الاجتماعي أصحاب الخبرة في مجالات التأثير والإقناع، مدعومةً وموسعةً في كتيبٍ متاحٍ على موقع هذا الكتاب (www.lucifereffect.com).

أخيرًا، عندما تستسلم الغالبية ويتمرّد القلّة؛ يمكن اعتبار أولئك المتمردين أبطالاً قاوموا المؤثرات القوية التي تدفع إلى الامتثال والانصياع والطاعة. نفكر في الأبطال على أنهم استثنائيون، لا يمتّون بصلةٍ لنا نحن الفَانِينَ العاديين بأفعالهم الجريئة أو تضحياتهم التي تمتد أبد الدهر. هؤلاء المميزين موجودون ولكنهم صنفٌ مختلفٌ من الأبطال، من القلة القادرة على تقديم مثل تلك التضحيات، سلالةٌ فريدةٌ، حياتهم - مثلاً - وقفٌ لخدمة الإنسانية، في حين نجد أن أغلب الذين نصنفهم كأبطال هم أبطال اللحظة والموقف الذين يتصرفون بحسم عند سماعهم نداء الواجب. لذلك؛ فإن **تأثير الشيطان** هو رحلة نحو نهايةٍ مشرقة، نهايةٍ تحتفي بالبطل العادي الذي يعيش في كل منا. وعلى النقيض من فكرة «عادية الشرّ» التي تفترض أن البشر العاديين مسؤولون عن أقذر الأفعال الإجرامية وعن انحطاط

رفاقهم؛ أقدم أنا فكرة «عاديّة البطولة»، التي تمنح وسام البطولة لكل رجلٍ وكل امرأةٍ يلبون نداء الإنسانية، وعندما يحين وقت الفعل ويُدقُّ الناقوس؛ سيعلمون أنه يدقّ من أجلهم. يبدو نداءً للتمسك بأفضل ما في الطبيعة الإنسانية، يتعالى على الضغط القاسي للموقف والنظام كأعمق تأكيد على شرف الإنسانية في مواجهة الشر.

شكر وتقدير:

لم يكن إتمام هذا العمل ممكنًا دون يد العون التي مدها لي كثرٌ منذ بدء هذه الرحلة الطويلة وحتى منتهاها، منذ أن كان مجرد فكرة وحتى تمامه واستوائه على سوقه.

البحث التجريبي:

بدأ كل شيءٍ بتخطيط وتنفيذ وتحليل التجربة التي قمنا بها في جامعة ستانفورد (Stanford)، في أغسطس عام ١٩٧١م كان السبب المباشر لهذا البحث مشروعَ طالبٍ في المرحلة الأولى من الدراسة الجامعية عن علم نفس السجن رَأسه ديفيد جافي (David Jaffe)، والذي أصبح لاحقًا مديرًا لتجربتنا، تجربة سجن ستانفورد.

في التحضير قبل الشروع في التجربة ومن أجل فهم أفضل لعقلية السجين والفريق الإصلاحي وكذلك لما يتعلق بأية خصائص دقيقة ذات أهمية في الطبيعة النفسية لأي تجربة سجن؛ قمت بتدريس فصلٍ صيفي في جامعة ستانفورد يغطّي هذه الموضوعات. كان أندرو كارلو بريسكوت (Andrew Carlo Prescott) الأستاذ الذي زاملني، وقد أفرج عنه مؤخرًا إفراجًا مشروطًا بعد سلسلةٍ من الاحتجازات الطويلة في سجون كاليفورنيا. عمل كارلو (Carlo) مستشارًا بارزًا ورئيسًا نشيطًا «للجنة الإفراج المشروط» (Adult Authority Parole Board).

ويليام كورتيسبانكس (William Curtis Banks) وكريج هاني (Craig Haney)، طالبان من طلبة الدراسات العليا اشتركا بشكلٍ كاملٍ في كافة مراحل إخراج هذا المشروع البحثي غير المألوف. استفاد كريج من هذه التجربة ليبدأ مسيرة مهنيةً ناجحةً في علم النفس والقانون، وأصبح في مقدمة المناصرين لحقوق السجناء، كما ألف بالاشتراك معي عددًا من المقالات والفصول التي عالجت الكثير من الموضوعات المتعلقة بمؤسسة السجن، أشكر كلًا منهما على إسهاماته في هذه الدراسة وعلى نتائجها الفكرية والعملية. بالإضافة إلى ذلك أتوجه بشكري إلى جميع طلبة الجامعة الذين تطوعوا لهذه التجربة والتي ما زال بعضهم غير قادرٍ على نسيانها مهما تعاقبت عليها الأيام، وأعتذر لهم مجددًا ـ كما أذكر في النص ـ على أي ألمٍ لحق بهم أثناء هذا البحث وبعده.

بحث ثانوي:

قام بمهمة تجميع تسجيلات الفيديو المؤرشفة لتجربة السجن في صيغة (DVD) والتي يمكن أخذ التفريغ النصي منها شين برويك (Sean Bruich) وسكوت طومسون (Scott Thompson)، وهما طالبان استثنائيان في جامعة ستانفورد. ساعد شين وسكوت في جمع حزمةٍ واسعةٍ من المواد الأساسية المتعلقة بمختلف جوانب الدراسة بالإضافة إلى إبراز أهم أحداث هذه المواد.

ساعدت تانيا زيمباردو (Tanya Zimbardo) وماريسا ألين (Marissa Allen) في المهمة التالية بالمشاركة في تنظيم وتجميع مواد أساسيةٍ موسعةٍ من لقطات الميديا وملحوظاتي وتصنيف المقالات. قام فريقٌ من طلبة آخرين بجامعة ستانفورد، بالأخص كيران أوكونور (Kieran O'Connor) ومات إسترادا (Matt Estrada)، بفحص المراجع بخبرة، وقام مات أيضًا بتحويل الحوار الذي دار مع الرقيب تشيب فريدريك (Chip Frederick) إلى نصٍّ مفهوم.

أقدر كل الاستدراكات التي تلقيتها عن فصولٍ مختلفةٍ في المُسَوَّدتين الأولى والثانية من الزملاء والطلبة كذلك، ومن بينهم آدم بريكينريدج (Adam Breckenridge) وستيفين بينكي (Stephen Behnke)، توم بلاس (Tom Blass)، روز ماك ديرموت (Rose McDermott)، وجيسون ويفر (Jeason Weaver). وأقدم شكرًا خاصًا لكلٍ من أنثوني براتكانيس (Anthony Pratkanis) وسيندي وانج (Cindy Wang) على مساعدتهما في ذلك القسم من الفصل الأخير الذي يتناول مقاومة التأثير غير المرغوب فيه، وكذلك لزينو فرانكو (Zeno Franco) لإسهامه في الرؤية الجديدة حول سيكولوجية البطولة.

استفدت في فهمي للموقف العسكري في سجن أبو غريب وبعض مسارح الحرب الأخرى من حصافة ضابط الصف مارسي درووري (Marci Drewry) والعقيد لاري جيمس (Larry James)، وهو أيضًا مختص علم نفس عسكري، أمدني داج برازويل (Doug Bracewell) باستمرارٍ بمصادر مفيدةٍ على شبكة الإنترنت بخصوص معلوماتٍ حول مجموعةٍ من المواضيع التي أعالجها في فصليّ هذا الكتاب اللذين يتناولان سجن أبو غريب. جاري مايرز (Garry Mayers)، المستشار القانوني للرقيب فريدريك، أسهم في هذه الحالة لا لمدة ليست بالقصيرة ودون مقابلٍ فحسب؛ ولكنه أمدني أيضًا بكل المصادر والمعلومات التي لزمتني لفهم مثل هذا الوضع المعقّد. وقدم آدم زيمباردو (Adam Zimbardo) تحليلاتٍ متبصرةٍ عن الطبيعة الجنسية «للصور التذكارية» التي انتشرت من أجل «المرح واللعب» على الرصيف (A1) في الوردية المسائية.

نصيبٌ كبيرٌ من التقدير والامتنان لبوب جونسون (Bob Johnson) مختص علم النفس

وشريكي في كتابنا التمهيدي عن علم النفس (Core Concepts). قرأ بوب النص كاملاً وقدم اقتراحاتٍ قيمةً للغاية بغرض تحسينه، كما فعلت ساشا لوبوميرسكي (Sasha Lubomirsky) التي ساعدت في تنسيق إضافة بوب (Bob Johnson) مع تلك التي قدمتها روز زيمباردو (Rose Zimbardo). وروز (Rose Zimbardo) هي أستاذةٌ متميزةٌ في الأدب الإنجليزي وقد حرصت على التأكد من أداء كل جملةٍ في هذا الكتاب دورها في إيصال رسالتي إلى القراء جميعًا. أشكرهم جميعًا على مباشرة هذا العمل الروتيني بحبٍ وأريحية.

الشكر أيضًا للمحرر ويل ميرفي (Will Murphy) من دار (Random House) للنشر على تحريره شديد الدقة - وهو فنٌ يفتقده الكثير من المحررين - وعلى محاولته الشجاعة لتقليم النص وقَصْره على الموضوعات الرئيسة. كذلك قد عملت لين أندرسون (Lynn Anderson) على نحوٍ رائعٍ وبذكاءٍ كبيرٍ بصفتها محرِّرة النسخة، والتي أضافت مع فينسينت لا سكالا (Vincent La Scala) إلى رسالتي التناسق والوضوح. وكان جون بروكمان (John Brockman) هو الملاك الحارس لهذا الكتاب ودعايته.

أخيرًا وبعد الكتابة لساعات طويلة كل يوم وليلة قُرْب الانتهاء، يعد جيري هوبر (Jerry Huber) معالج المساج من شركة هيلينج وينجز للمساج بسان فرنسيسكو (Healing Wings Massage) جدي المنهك للجولة التالية، وأيضًا آن هولينجورث (Ann Hollingsworth) من (Guala Sea Spa)، طيلة مدة عملي في مخبئي في المزرعة المطلّة على البحر.

ولكل من ساعدني من العائلة والأصدقاء، والزملاء والطلبة الذين مكنوني من تحويل أفكاري إلى كلماتٍ ثم إلى نصٍ مكتوبٍ ثم إلى هذا الكتاب، فضلاً تقبلوا خالص شكري.

تحياتي،،

فل زيمباردو (Phil Zimbardo)

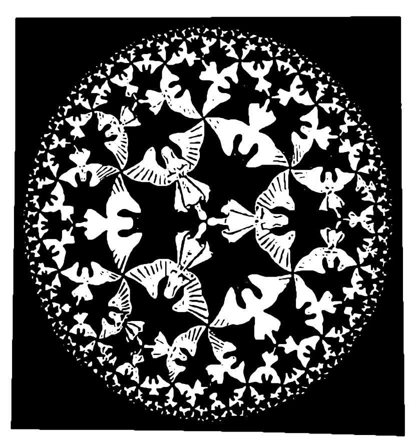
الفصل الأول

سيكولوجيا الشر: تحولات الشخصية وَفْقًا للوضع القائم

«العقل هو صانع مصيره، يمكنه أن يجعل من الجحيم جنةً، ومن الجنة جحيمًا».

جون ميلتون، الفردوس المفقود

(Paradise Lost, John Milton)



M. C. Escher's "Circle Limit IV" 2006 The M. C. Escher Company-Holland.

أنْعِم النظر في هذه الصورة الاستثنائية للحظة، الآن أغلق عينيك وحاول استدعاءها في ذاكرتك.

هل تبصر ملائكة بيضاء تتراقص حول الجنان المُعتِمة؟ أم أن ما تراه هو صورة الشياطين السود ذات القرون تسكن مساحات الجحيم البيضاء؟

في هذه الخدعة البصرية للفنان موريتس كورنيليس إيشر (M. C. Escher)؛ يمكن قبول كلا الرؤيتين بنفس الدرجة، بمجرد أن نعي الائتلاف بين الخير والشر لن تعود قادرًا على رؤية أحدهما دون الآخر.

لن أسمح لك فيما يلي من سطور بالعودة إلى ذلك الفصل المريح بين جانبك الخيِّر الذي لا يُخطِئ وجانبهم الشرير الأثيم. «هل أنا قادر على فعل الشر؟» هذا هو السؤال الذي أريد منك أن تطرحه على نفسك مرارًا وتكرارًا طوال رحلتنا التي سنسبر فيها أغوار عوالم غريبة.

ثمة حقائق نفسية ثلاث تظهرها صورة إشير، الأولى: هي أن العالم مليء بالخير والشر؛ كذلك كان، وما يزال، وسيظل دائمًا. الثانية: هي أن الحد الفاصل بين الخير والشر حدٌّ قابلٌ للاختراق وضبابي. والأخيرة: هي أن بإمكان الملائكة التحول إلى شياطين، وبإمكان الشياطين - وربما كان هذا أصعب في التخيل - أن تتحول إلى ملائكة.

ربما تذكرك هذه الصورة بأكثر التحولات من الخير إلى الشر جذرية، تحوّل لوسيفر (Lucifer) إلى الشيطان، لوسيفر «حامل النور»، والذي كان ملاك الرب المفضل حتى تجرأ على تحدي سلطته؛ فأُلقي في الجحيم مع جماعته من الملائكة العصاة. يقول الشيطان، خصيم الرب في فردوس ميلتون المفقود، متباهيًا: «السيادة في الجحيم أفضل من الخدمة في الجنة».

في الجحيم صار الشيطان لوسيفر كذابًا دعيًا فارغًا يستخدم المفاخر والرماح والأبواق والشعارات، مثلما يفعل بعض الزعماء القوميِّين في أيامنا هذه. في المجلس الشيطاني في الجحيم حيث يجتمع كبار الشياطين؛ أكد الشيطان الأكبر على أنه لن يقدر على استعادة الجنة عبر أية مواجهة مباشرة[1]، لكن رجل لوسيفر المحنك، بعل زبوب (Beelzebub)[2]، خرج بأكثر الحلول شرًا عندما اقترح أن يكون انتقامهم من الرب عن طريق إفساد أعظم مخلوقاته. وعلى الرغم من نجاح الشيطان في إغواء آدم وحواء واستدراجهما إلى عصيان الرب؛ إلا أن الرب أعلن أنه سيغفر لهما في الوقت الملائم. وإلى أن يحين هذا الوقت؛ سيسمح للشيطان بالسعي في تحقيق هذا الذي كرّس له نفسه، وتجنيد السحرة لاستدراج البشر نحو ارتكاب الشرور. بعد ذلك، سيصبح وسطاء الشيطان هدفًا للمفتشين الذين يريدون تخليص العالم من الشر، لكن أساليبهم المُروِّعة في تحقيق هذه الغاية ستصنع صورة جديدة من الشر الممنهج التي لم يعرف العالم لها مثيلًا من قبل.

---

(١) John Milton, *Paradise Lost*, in *John Milton: Completer Poems and Major Prose*, ed. M. Y. Hughes (New York: Odyssey Press, 1667/1957) quote in Book 1, p. 254; Description of Satan's Demonic Conference in Book 2, ll. 44-389.

(٢) مستشار الشيطان في قصيدة جون ميلتون، الفردوس المفقود، ترجمة حنا عبود. (المترجم).

كانت خطيئة إبليس هي ما أسماه مفكرو العصور الوسطى بـ«الجشع»[١]. بالنسبة لدانتي (Dante Aleghieri) فإن الخطيئة التي تَنْبُت من هذا الأصل (الجشع) هي الخطيئة الأعظم، «خطيئة الذنب»، الحالةُ الروحيةُ المتمثلة في تكوّن ثقبٍ أسودٍ داخلي بالغ العمق في النفس فلا يكفيها أبدًا أي قدر من السلطة أو المال. بالنسبة لمن يعانون من هذا المرض الذي يصيب البشر المعرضين للفناء؛ فإن قيمة الأشياء تكمن في استحواذهم عليها واستئثارهم بها. في جحيم دانتي يُساق المذنبون بهذه الخطيئة إلى الدائرة التاسعة ويُجمّدون في بحيرة الجليد؛ ولأنهم لم يكترثوا لشيء في الحياة سوى لذواتهم؛ كانت العقوبة هي الاحتجاز في ذات جليدية إلى الأبد. إن الذي يحققه الشيطان وأتباعه بجعل الناس منغمسين في أنفسهم هو صرفهم عن الحب الذي يوحد جميع المخلوقات الحية في تناغم.

تمحق خطايا الذنب البركة من حياة الإنسان وتوهمه أن نفسه هي مصدر الخير الوحيد بقدر ما تجعل منها سجنه أيضًا. يتجمد العصاة الذين تلبّستهم روح ذئبية نهمة في الدائرة التاسعة من الجحيم في سجن اختاروه لأنفسهم يجتمع فيه الحارس والسجان معًا في واقع مغرق في الأنانية.

في بحث أكاديمي عن أصل الشيطان، قَدّمَت المؤرخة إلين باجلز أطروحة مثيرة عن وجه اعتبار الشيطان انعكاسًا للإنسانية من الناحية السيكولوجية:

«ما يدهشنا في الشيطان هو الطريقة التي يعكس بها سمات تتجاوز ما نُعرّفه في الغالب على أنه إنساني. يذكرنا الشيطان بأمور تفوق الطمع، والحسد، والشهوانية، والغضب التي نعتبرها أسوأ دوافعنا، ويذكرنا كذلك بما هو أكثر من الوحشية التي تُلْصِق بالإنسان الشبه بالحيوانات («البهائم»). . . فالشر إذن في أبشع صوره يتمثل في ذلك المخلوق الغيبي الذي نُعَرِّفُه على أنه النقيض الشيطاني الشرير للرب الذي وصفه مارتن بوبر (Martin Buber) بكونه «الآخر الكامل»»[٢].

نخاف من الشر لكننا مفتونون به. نحيك الخرافات عن مؤامرات شيطانية ويبلغ بنا تصديقنا لهذه الأكاذيب التي صنعناها بأنفسنا حدّ تحريك الجيوش ضدها. نرفض «الآخر»

---

(١) (Cupiditas) الجشع: ومعناه البخل، الطمع، الرغبة العارمة في جمع الثروة والسلطة بلا نهاية. معنى الجشع هو رغبة الفرد في أن يستحوذ لنفسه على كل شيء «آخر». على سبيل المثال، الشهوانية والاغتصاب من صور الجشع، لأنها سلوكيات تشهد استخدام شخص آخر كوسيلة لإشباع رغبة ذاتية، القتل من أجل الربح هو من الجشع كذلك، هو نقيض العطاء الذي يعني رؤية الذات كجزء من حلقة من الحب، لكل فرد فيها قيمة في نفسه لكنه مرتبط أيضاً بالذوات الأخرى. «اصنع للآخرين ما تحب أن يُصنع لنفسك» هذا تعبير ضعيف للعطاء. التعبير اللاتيني «Caritas et amor, Deus ibiest» هو الأفضل، «أينما يوجد العطاء والحب، يوجد الرب».

(٢) Elaine Pagels, *The Origin of Satan* (New York: Random House, 1995), p. xvii.

ونعتبره شاذًا وخطيرًا لمجرد كونه مجهولاً بالنسبة لنا، لكننا مع ذلك نشعر بالمتعة عندما نتأمل الاعتداءات الجنسية وانتهاكات القوانين الأخلاقية التي يرتكبها هؤلاء الذين لا يشبهوننا. يختم أستاذ الدراسات الدينية دافيد فرانكفورتر بحثه «تجسد الشر» بالتركيز على كيفية البناء الاجتماعي لذلك الآخر الشرير:

«عملية تكوين صورة الآخر في المجتمع على إنه همجي آكل للحوم البشر... شيطان، ساحر، مصاص دماء، أو مزيج من هذا كله؛ تستخدم مخزونًا ثابتًا من الرموز التي تقلب المعنى والصورة؛ كتلك الحكايات التي نتناقلها عن شعوب تعيش في مناطق نائية منعزلة تمرح بهمجية ومجون وتوحش. في الوقت نفسه فإن مزيج الرعب والمتعة الذي يثيره التفكير في هؤلاء الأغيار والذي غذّى وحشية المستعمرين والمبشرين والجيوش عند دخولهم أراضي هؤلاء «الأغيار»؛ تؤثر فينا بلا شك على مستوى الخيال الفردي أيضًا»[1].

تحولات: ملائكة، شياطين، وبقيتنا مجرد كائنات فانية

تأثير الشيطان هو محاولتي لفهم كيفية تحول البشر العاديين أو الأخيار إلى القيام بأفعال سيئة أو حتى شريرة، سنعالج السؤال الأساسي «ما الذي يجعل الناس يخطئون؟»، لكن بدلاً من الاستعانة بالثنائية الدينية التقليدية للخير والشر، الطبيعة المُصلحة ضد الطبيعة المفسدة، سننظر إلى بشر حقيقيّين منشغلين بمهام حياتهم اليومية، منهمكين في شؤونهم، منغمسين في بوتقة الطبيعة الإنسانية المؤّارة، سنسعى إلى فهم طبيعة التحولات الطارئة عليهم عند مواجهتهم للضغوط الظرفية.

فلنبدأ بتعريف الشر، تعريفي هو تعريف بسيط سيكولوجي الطابع: يقوم الشر على تعمد التصرف بطرق تؤذي، أو تعتدي على، أو تحقر، أو تسلب الإنسانية عن الآخر البريء أو تدمره، ويقوم أيضًا على استغلال الفرد لصلاحياته وسلطاته النظامية في تشجيع الآخرين على ذلك أو في السماح لهم بالقيام به نيابة عنه. باختصار؛ هو «معرفة الأفضل مع القيام بالأسوأ»[2].

---

(١) D. Frankfurter *Evil Incarnate: Rumors of Demonic Conspiracy and Satanic Abuse in History* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2006), pp. 208-9.

(٢) بعض الكتب التي تقدم وجهات نظر سيكولوجية أخرى عن الشرّ تشمل:

R. F. Baumeister, *Evil: Inside Human Cruelty and Violence*(New York: Freeman, 1997); A. G. Miller, *The Social Psychology of Good and Evil* (New York: Guilford Press, 2004); M. Shermer, *The Science of Good & Evil: Why People Cheat, Gossip, Care, Share and Follow the Golden Rule* (New York Holt, 2004); E. Staub, *The Roots of Evil: The Origins of Genocide and other Group Violence* (New York: Campbridge University Press, 1989); J. Waller, *Becoming Evil: How Ordinary People Commit Genocide and Mass Killing* (New York: Oxford University Press, 2002).

ما الذي يُفعِّل السلوك الإنساني؟ ما الذي يحدد فكر الإنسان وفعله؟ ما الذي يجعل البعض منا يتبنى حياة أخلاقية صالحة، بينما ينزلق آخرون بسهولة في اللاأخلاقية والجريمة؟ هل معتقداتنا عن الطبيعة الإنسانية مبنية بشكل أساسي على افتراض أن المحددات الداخلية هي التي ترتقي بنا في معارج الصلاح أو تهوي بنا في دركات الفساد؟ أترانا لا نولي المحددات الخارجية من أفكارنا ومشاعرنا وأفعالنا الاهتمام الكافي؟ إلى أي مدى تُرانا مخلوقات الموقف، اللحظة، أو الفوضى؟ وهل هناك فعل قام به شخصٌ ما تثق تمامًا أنك لن تضطر أبدًا إلى القيام بمثله؟

أغلبنا يتخفّى خلف تحيّزات أنانية تولّد الوهم بأننا مميزون، تلك الدروع الواقية الخادمة للذات[1] تتيح لكل منا أن يؤمن بكون قدرته على مواجهة أي اختبار لاستقامة النفس؛ هي في مستوى أعلى من العادي. كثيرًا ما نصبو إلى المعالي ونلحظها بعين قوتنا ومنعتنا في حين يجب أن ننظر كذلك أسفل منا حتى نرى المنحدر الزلق تحت أقدامنا. تشيع هذه التحيّزات الأنانية في المجتمعات التي ترعى التوجهات نحو الحرية والاستقلالية، مثل الثقافات الأوروبية والأمريكية، بينما تقل في المجتمعات ذات التوجهات الجماعاتية، مثل آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط[2].

في رحلتنا التي سنستكشف فيها الخير والشر، أريد منك التفكير في ثلاث مسائل؛ ما مدى معرفتك بنفسك، نقاط قوتك ونقاط ضعفك؟ وهل معرفتك هذه نتيجة تقييم سلوكك في مواقف اعتيادية، أم كانت نتيجة مواجهة مواقف جديدة تمامًا تتحدى عاداتك القديمة؟ في نفس الإطار؛ ما مدى معرفتك بمن تتعامل معهم يوميًّا؟ عائلتك، أصدقاؤك، زملاء العمل، أو حبيبك؟

إحدى أطروحات هذا الكتاب هي أن معرفتنا بأنفسنا تتبلور بشكل أساسي من تجارب محدودة نمُرّ بها في مواقف متكررة تحدّها قواعد وقوانين وسياسات وضغوط ثابتة على نحو يُحَجِّم من التصرفات المُحتمل صدورها عنا، نذهب إلى المدرسة أو العمل، إلى عطلة أو إلى حفلة، ندفع الفواتير والضرائب يومًا ونتغافل عنها عامًا، لكن ما الذي قد يحدث إن

---

(١) (self-servingbiases) تحيزات خادمة للذات: ميل الإنسان إلى إرجاع الفضل في الأحداث الإيجابية لشخصه وسماته وقدراته، وإلقاء اللوم في الأحداث السلبية على عوامل خارجية. (المترجم).

(٢) هناك عدد متزايد من الأعمال التي تظهر في مجال علم النفس الثقافي تقارن بين الفوارق السلوكية والقيمية في المجتمعات التي يمكن وصفها بأنها مستقلة وفردانية التوجه وتلك الأكثر تكاتفاً وجماعية. يمكن أن نبدأ في فهم كيفية تأثير تلك الفوارق في مفهوم الذات من:

Hazel Markus and ShinbouKitayama, "Models of Agency: Sociocultural Diversity in The Construction of Action," in *Nebraska Symposium Motivation*, ed V. Murphy Berman and J. Berman, *Cross-Cultural Differences in Perspective of Self*. (Lincoln: University of Nebraska Press, 2003)

وجدنا في بيئة غير مألوفة على الإطلاق فلا تعود عاداتنا القديمة مجدية؛ كأن تبدأ وظيفة جديدة، أو تذهب إلى أول موعد غرامي مع شخص جمعك به موقع إلكتروني للتعارف، أو تنضم إلى أخوية[1]، أو تعتقلك الشرطة، أو تُستدعى للجيش، أو تنضم إلى طائفة، أو تتطوع في تجربة؟ قد لا تعمل ذاتك القديمة بالطريقة التي تتوقعها عندما تتغير القواعد الأساسية.

عبر رحلتنا أريدك أن تطرح باستمرار سؤال «أنا أيضًا؟» كلما قابلنا صورة جديدة من صور الشر. سوف نتفحص القتل الجماعي في رواندا، الانتحار الجماعي وقتل أتباع «معبد الشعب» في غابات غيانا، مجزرة ماي لاي (My Lai) في فيتنام؛ فظائع معسكرات الاعتقال النازية، التعذيب من قبل الشرطة العسكرية والمدنية في كل أرجاء العالم، والاعتداءات الجنسية للقساوسة الكاثوليك، وسنبحث عن الخيوط التي تربط جميع السلوكيات المشينة والاحتيالية التي اقترفها مديرون تنفيذيون في شركتي إنرون (Enron) وورلدكوم (World-com)، وأخيرًا؛ سنرى كيف أن بعض هذه الخيوط معقودة أيضًا حول الاعتداءات على سجناء أبو غريب في العراق، والمكتشفة مؤخرًا. سنجد واحدًا من أهم تلك الخيوط عبر مجموعة من الأبحاث في علم النفس الاجتماعي التجريبي، خاصة الدراسة التي تعرف باسم تجربة سجن ستانفورد (SPE).

الشر: ثابت وداخلي أم متغير وخارجي؟

تبعث فكرة وجود هوّةٍ لا يمكن وصلها تفصل بين الأخيار والأشرار ببساطة لسببين على الأقل: الأول أنها تخلق منطقًا ثنائيًا حيث الشرُّ ركنٌ أساسيٌّ فيه. يتصور معظمنا الشر على أنه كيان، فطرةٌ ملازمة لبعض الناس دون غيرهم؛ ثم تنتج البذور الفاسدة ثمارًا فاسدة في النهاية مع تكشّف الأقدار. نعرّف الشرّ بالإشارة إلى الطغاة السيئين حقًّا في عصرنا أمثال هتلر، وستالين، وبول بوت (Pol Pot)، وإيدي أمين (Idi Amin)، وصدام حسين، وبعض القادة السياسيين الآخرين الذين هندسوا جرائم قتل جماعي. لا بد أن نعترف أيضاً بالمجرمين الأكثر اعتدالاً والأقل شرًا، مثل تجار المُخدِّرات، المغتصبين، مهربي تجارة الجنس، ومرتكبي جرائم الاحتيال ضد كبار السن، وأولئك الذين يقضي تنمّرهم على النشأة السويّة لأطفالنا.

يجعل تبنّي ثنائية الخير والشر «الأخيار» بمنأىً عن أصابع الاتهام بالمسؤولية،

---

(١) (fraternity) أخوية: جماعات تتحد على معتقدات وأهداف دينية وعلمانية، في أغلب الأحيان يكون لهم شعار أو تميمة وطقوس على الأعضاء الجدد أن يخضعوا لها من أجل قبولهم في الأخوية، ومن أشهر وأكبر الأخويات في العالم البناؤون الأحرار المعروفون باسم «الماسونية». (المترجم).

يتحررون من النظر في دورهم المحتمل في خلق أو دعم أو الحفاظ على أو إبقاء أو حتى الاستسلام للظروف التي تسهم في خرق القانون، الجريمة، التخريب، التسبب في الألم، التنمر، الاغتصاب، التعذيب، الإرهاب، والعنف. هذه طبيعة العالم، وليس هناك الكثير مما يمكن فعله لتغييره، بالتأكيد ليس عن طريقي.

أحد المفاهيم البديلة يتناول فعل الشر بشكل تدريجي على أساس أننا جميعًا قادرون على ذلك بحسب الظروف المحيطة، يمكن للإنسان في أية لحظة أن يكتسب سمة خاصة (لنقل الذكاء، أو الفخر، أو الأمانة، أو الشر) بدرجة تزيد أو تقل، ومن الممكن أن ننتقل إلى الجانب الصالح الخيِّر أو الآخر الفاسد الشرير من الطبيعة الإنسانية على حدٍ سواء. تثبت هذه المقاربة التدرّجية إمكان اكتساب السمات عبر التجربة أو التدريب المكثف أو حتى بفعل تدخل خارجي؛ كأن تتاح لذلك فرصة مميزة. باختصار، بإمكاننا أن نتعلم كيف نصير أخيارًا أو أشرارًا بغض النظر عن موروثنا الجيني أو شخصيتنا أو تاريخ عائلتنا[1].

أفهام بديلة: نزوعية، وظرْفية، ونظامية

بالتوازي مع ثنائية السلوك الأصيل والسلوك المكتسب في الإنسان؛ نجد التباين بين دوافع السلوكين النزوعي والظَّرفي. عند مواجهة سلوك غير معتاد، أو حدث غير متوقع، أو شذوذ غير مفهوم، فما هي الطريقة التي نسعى بها إلى فهمه؟ النهج التقليدي هو تحديد السمات الشخصية الفطرية التي تقود إلى الفعل، مثل البنية الجينية، والسمات الشخصية، والشخصية ذاتها، والإرادة الحرة، وبعض النوازع الأخرى، في حالة السلوك العنيف سنبحث عن ميول سادية، أما في حالة العمل البطولي فسنركّز بحثنا على جينات مُعدّةٍ سلفًا لحملنا على الإيثار.

تعصف بمجتمعات الضواحي في الولايات المتحدة حوادثُ إطلاق نار كثيرة يقوم فيها طلبة المدارس الثانوية بقتل وإصابة أعداد كبيرة من التلاميذ والمدرسين[2]. في إنكلترا، قام طفلان في العاشرة من عمرهما بخطف جيمي بيلجر (Jamie Bulger) ذي

---

(١) أحد المراجع الأساسية في مفهوم الماهوية حسب استخدام علماء النفس له نجده في:

Susan Gelman, *The Essential Child: Origins of Essentialism in Everyday Life* (New York: Oxford University Press, 2003).

(٢) من الأعمال البناءة في التعامل مع العنف المدرسي عمل زميلي في علم النفس إليوت أرونسون (Elliot Aronson) يمكن أن يوفرها علم النفس الاجتماعي ليقدم خارطة طريق لتغيير المناخ الاجتماعي للمدارس بحيث يحل التعاطف والتعاون مكان التنافس والرفض:

E. Aronson, *Nobody Left to Hate: Teaching Compassion After Columbine* (New York: Worth, 2000)

العامين من المركز التجاري وقتله بكل وحشية ودم بارد. في فلسطين والعراق، شباب ونساء صغار يتحولون إلى انتحاريين. قام الكثير من الناس في أغلب الدول الأوروبية أثناء الحرب العالمية بحماية اليهود من الاعتقال على يد النازيين على الرغم من معرفتهم أنهم حال افتضاح أمرهم سيتعرضون وعائلاتهم للقتل. كذلك كان «فاضحو الفساد» معرضين للمخاطر بكشفهم ما يقع من ظلم «الكبار» وأفعالهم الخاطئة في العديد من البلاد، لماذا؟

الرؤية التقليدية (الشائعة بين من نشؤوا على ثقافات تُؤكد على الفردانية) هي النظر في دواخلهم بحثًا عن إجابات، بحثًا عن المرض أو عن البطولة. الطبّ النفسي الحديث نزوعيّ التوجه، ومثله علم النفس السريري وعلم نفس الشخصية والتقييم. تعتمد أغلب مؤسساتنا على هذه الرؤية، ويشمل ذلك مؤسسات القانون والطب والدين، تفترض وجود الذنب والمرض والخطيئة عند الطرف المُدان أو الشخص المريض أو العاصي، تبدأ محاولتها للفهم بطرح عدد من أسئلة الـ«من؟»: من المسؤول؟ من المتسبب؟ من الملوم؟ على من تعود المنفعة؟

يميل علماء النفس الاجتماعيون (أمثالي) في محاولتهم فهم الدوافع التي تقف خلف سلوك غير معتاد؛ إلى تجنب الاندفاع خلف المقاربات النزوعية للأحكام، يفضلون بدأ بحثهم عن المعنى بفرض سؤال «أيّ؟» أي: الظروف يمكن أن تسهم في ردود فعل معينة؟ أية بيئة يمكن أن تسهم في خلق سلوك ما؟ كيف كان الموقف من وجهة نظر الفاعلين؟ يتساءل علماء النفس الاجتماعيون عن المدى الذي يمكن معه إرجاع أفعال الفرد إلى عوامل خارجة عنه مثل المتغيرات الظرفية والعمليات البيئية الخاصة بمحيط معين.

المقارنة بين المقاربة النزوعية في الطب النفسي وأختها الظرفية هي كالمقارنة بين نموذج الرعاية الطبية للمرضى ونموذج الصحة العامة؛ فنموذج الرعاية الطبية يبحث عن مصدر المرض أو الإعاقة عند الشخص المصاب، بينما يفترض الباحثون في الصحة العامة أن البيئة هي التي تأتي بنواقل المرض، هي التي تخلق الظروف ـ المواقف التي ترعى المرض. في بعض الأحيان ـ وبغض النظر عن محاولات تحسين الحالة الصحية للفرد - يكون المريض هو المنتج النهائي لمسببات المرض الموجودة في البيئة، والتي إن لم تُواجه؛ ستستمر في الإضرار بآخرين. على سبيل المثال، وفق المقاربة النزوعية سنقدّم للطفل الذي يظهر ضعفًا في قدرته على التعلم علاجات طبية وسلوكية مختلفة لمساعدته على تجاوز إعاقته، في حين أن سبب المشكلة في بعض الحالات وخاصة بين الفقراء هو استنشاق الرصاص الموجود في الدهانات المتقشرة من حوائط منازلهم، وهو الأمر الذي يزداد سوءًا حالة الفقر الشديد؛ فهكذا تكون المقاربة الظرفية. هذه المنظورات البديلة ليست

مجرد اختلافات في التحليلات التصورية، لكنها تؤدي إلى طرق شديدة الاختلاف في معالجة المشكلات الشخصية والاجتماعية.

تتعاظم أهمية مثل هذه التحليلات لتشملنا جميعًا بوصفنا علماء نفس نعتمد على الحدس، نمضي حياتنا اليومية محاولين اكتشاف الأسباب التي تجعل الناس يفعلون ما يفعلون وكيف يمكن تغييرهم إلى الأفضل، لكن في الثقافة الفردانية يندر وجود ذلك الشخص الذي لم يصب بداء التحيّز للنوازع، الذي يبدأ دائمًا بالنظر إلى الدوافع والسمات والجينات والأمراض الشخصية؛ فأغلبنا عند محاولة فهم دوافع سلوك الآخرين؛ يميل إلى المبالغة في تقدير أهمية النزعات والتقليل من أهمية الظروف.

في الفصل التالي سأقدم مجموعة من الأدلة التي ستعدّل من كفة الرؤية النزوعية للعالم، سنوسع بؤرة التركيز لتشمل الكيفية التي يمكن أن تتحول بها شخصية الإنسان بانغماسه في مواقف قادرة على إطلاق عنان ضغوط ظرفية قوية التأثير. عادةً ما يكون الإنسان والموقف في حالة تفاعل ديناميكي، ربما اعتقدت أنك صاحب شخصية ثابتة حتى مع تغيّر الزمن والمكان، لكن هذا - على الأرجح - غير صحيح، عندما تعمل بمفردك لن تكون الشخص نفسه الذي يعمل في مجموعة، لن تكون في موقف رومانسي الشخص نفسه في موقف آخر تربوي، ولن تكون بين أصدقائك المقربين كما تكون في قلب زحام لا تعرف فيه أحداً، ولن تكون عند سفرك للخارج أنت نفسك حال وجودك في وطنك.

مطرقة السحرة ومحاكم التفتيش
(Malleus Maleficarum, WID Program)

نجد أولى المصادر التي سجّلت لنا الاستخدام الموسع للمنهج النزوعي في فهم الشر وتخليص العالم من تأثيره الفاتك في نص أصبح بمثابة الكتاب المقدس لمحاكم التفتيش؛ (Malleus Maleficarum)، أو «مطرقة السحرة»[1]. كان نصًا يُلزم قضاة محاكم التفتيش بقراءته ويبدأ بأحجية واجبة الحل؛ كيف يمكن للشر أن يوجد في عالم يحكمه إله كامل الخير والقوة؟ إحدى الإجابات أن الرب سمح به اختبارًا لأرواح البشر؛ فمن يخضع لغوايته يذهب إلى الجحيم؛ ومن يقاومها يُدعى إلى الجنة. لكن الرب قد حدّ من تأثير

---

(١) Heinrich Kramer and Jakob Sprenger, *The Malleus Maleficarum of Kramer and Sprenger ("The Withes' Hammer")*, edited and translated by Rev. Montague Summers (New York: Dover, 1486/1948)

كتبه الرهبان الدومينيكان الألمان. موجز مهم موجود على الإنترنت بتعليق ستيفاني دو باري (Stephanie du Barry)، ١٩٩٤م:

http://users.bigpond.net.au/greywing/Malleus.htm

الشيطان في البشر بسبب إغوائه لآدم وحواء؛ فكان الحلّ الذي لجأ إليه الشيطان هو توسيط من ينوب عنه في تنفيذ مساعيه الشريرة، أولئك هم السحرة، وسيلة اتصاله غير المباشرة مع البشر والذين سيتولون مهمة إفسادهم.

كان المُقترح لتقليل الشر في البلاد الكاثوليكية هو العثور على السحرة وإبادتهم، وكان المطلوب هو إيجاد وسيلةٍ لتمييزهم وجعلهم يعترفون بالهرطقة ومن ثم القضاء عليهم. كانت آلية التعرف على الساحر وتدميره (المعروفة في زمننا الحاضر باسم خُطة تعريف السحرة (Witch Identification Program) وتختصر بـ(WID) بسيطة ومباشرة، وتتلخص في بث الجواسيس لإيجاد المشتبه بممارستهم السحر، ثم اختبارهم كسحرة وإجبارهم على الاعتراف باستخدام مختلف وسائل التعذيب، يلي ذلك قتل من يفشل في الاختبار.

ومع أن غايتي ليست منصبّة على ذكر تفاصيل ما أصبح في النهاية نظامًا مصممًا بعناية للإرهاب الجماعي وتعذيب وإبادة الآلاف من البشر الذين لا يُعرَف شيء عنهم؛ إلا أن هذا الاختزال المخلّ للمسائل المعقّدة المتعلقة بالشرّ كان الشرارة التي اشعلت نيران محاكم التفتيش؛ فتحويل «السحرة» ليصبحوا الفئة التي يبغضها المزاج العام أعطى حلًّا سهلاً لمشكلة الشّر المجتمعي؛ وهو تدمير أكبر عدد ممكن من وكلاء الشيطان الذين يمكن إيجادهم وتعذيبهم وغليهم بالزيت وحرقهم على العامود.

بما أن الكنيسة وحلفاءها في الدولة كانت تُدار من قبل الرجال فليس من المستغرب إذًا كون المتهمات من النساء بممارسة السحر أكبر من نظرائهن من الرجال[1]. كان المشتبه بهم غالبًا من المهمشين أو كانوا مصدرًا للخطر بطريقة أو بأخرى، أرامل ربما، أو فقراء، أو بوجوه دميمة أو مشوهين، وكانوا في بعض الأحيان من ذوي الاعتداد الشديد بأنفسهم أو من ذوي النفوذ. كان التناقض المروّع الذي وقعت فيه محاكم التفتيش هو أن تلك الرغبة المُتّقِدَة - الصادقة غالبًا - في محاربة الشر قد وَلّدت شرًّا أكبر من أي شيء شهدته الإنسانية من قبل، كما كانت سببًا في استخدام الدولة والكنيسة لوسائل تعذيب لا يمكن أن تمت للكمال الإنساني بصلة. تلك الطبيعة المذهلة للعقل البشري القادر على خلق أعظم الأعمال في الفن والعلم والفلسفة؛ انحرفت لتتورط في أفعال «مبدعة في التوحش» صُمّمت خصيصًا لسحق الإرادة، وما زالت وسائل عمل محاكم التفتيش تستخدم في السجون حول

(١) يجب أن ننسب هذه الأعمال المشؤومة التي كانت نتاج المُخيِّلة اللاهوتية [المسيحية] لذلك العصر إلى موروث العُنف ضد المرأة. تقول المؤرخة آن بارتسو أن آثار الاستخدام المنهجي والقبول الواسع لعنف الرجل ضد المرأة كان بسبب تبني هذا الفكر من قبل سلطات ذكورية في الكنيسة والدولة والتي بدأت «بجنون الساحرات» في كتاب:

Anne L. Barstow, *Witchcraze: A New History of European Witch Hunts* (San Francisco: Harper Collins, 1995)

العالم وفي مراكز التحقيق العسكرية والمدنية، حيث أمسى التعذيب إجراءً اعتياديًا (كما سنرى لاحقًا في زيارتنا لسجن أبو غريب).

منظومات السلطة تمارس سيطرة شاملة من أعلى لأسفل

بدأتُ أدرك مدى قوة الأنظمة عندما بدأت أعي كيف تترجم المؤسسات أيديولوجيتها - ولتكن القضاء على أسباب الشر مثلاً - إلى إجراءات فاعلة مثل اصطياد السحرة من قبل محاكم التفتيش. بكلمات أخرى؛ اتسعت بؤرة تركيزي بشكل كبير بسبب زيادة إدراكي لأهمية الأساليب المتبعة في صناعة الضغوط الظرفية وتشكيلها من قبل عوامل أعلى؛ أي أنظمة السلطة. لو أردنا فهم الأنماط السلوكية المُركَّبة فيجب أن نأخذ هذه الأنظمة أيضًا في عين الاعتبار، لا النوازع والظروف فحسب.

عادةً ما يسمى السلوك المنحرف غير القانوني أو غير الأخلاقي للعاملين في الخدمة العامة مثل رجال الشرطة أو ضباط المؤسسات الإصلاحية أو الجنود بأخطاء «قلة من التفاحات الفاسدة». وهو ما يعني ضمنيًا أنهم استثناء نادر ينبغي وضعه في أحد جانبي الحاجز المنيع الفاصل بين الخير والشر؛ في حين تقبع الأغلبية من التفاحات الصالحة في الجانب الآخر، لكن من الذي يقوم بهذا الفصل؟ في الغالب حماة النظام، أولئك الذين يريدون تحييد المشكلة بغية تشتيت الانتباه وصرف اللوم بعيدًا عن المتربعين على قمة هرم السلطة، والذين ربما كانوا المتسببين في صناعة ظروف عمل متردية أو في غياب الرقابة والإشراف. مجددًا فإن منطق «التفاحة الفاسدة» القائم على المقاربة النزوعية للموقف يتجاهل الوعاء الفاسد والضغوط الظرفية التي يصنعها، والتي من شأنها أن تفسد ما بداخله، يركّز تحليل الأنظمة على صُنّاع الوعاء، على أولئك الذين يملكون السلطة التي تُمكّنهم من تصميمه.

هم «نخبة السلطة»، صُنّاع الوعاء، والعاملون من خلف الستار، الذين يصممون الأوضاع المعيشية للبقية المجبرين على قضاء أوقاتهم في البيئات المؤسسية التي صنعها هؤلاء. أنار عالم الاجتماع تشارلز رايت ميلز ثقب السلطة الأسود هذا:

> «تقوم نخبة السلطة على ثلّة ممن تسمح لهم مناصبهم بتجاوز البيئة الاعتيادية للرجال والنساء العاديين؛ هم يشغلون مواقع اتخاذ قرارات خطيرة التبعات، لكن شغلهم لهذه المناصب المحورية يفوق في أهميته اتخاذهم لهذه القرارات من عدمه؛ ففشلهم في الفعل وفي صنع القرار أكثر خطورة في حد ذاته من نوعية القرارات التي يتخذونها، ذلك لأنهم في موضع قيادة التنظيمات والمؤسسات الكبرى للمجتمع الحديث، يحكمون شركات كبيرة، يحركون آلة الدولة ويطالبون بامتيازاتها، يديرون المؤسسة العسكرية، ويشغلون مواقع قيادة استراتيجية للبنية المجتمعية التي تتركز فيها

الآن وسائل النفوذ المؤثرة والثروة والشهرة التي يتمتعون بها»[1].

مع تلافي مصالح سماسرة السلطة يبدؤون في صياغة واقعنا بطرق تنبأ بها جورج أورويل في روايته ١٩٨٤م. تركيبة (الجيش - الشركات - الدين) هي النظام النهائي الكبير الذي يحكم الكثير من مصادر دخل الأمريكيين ومستوى معيشتهم في وقتنا الحاضر.

«الوقت الذي تقترن فيه السلطة بالخوف المزمن

هو الوقت الذي ينبغي أن تُطلق فيه صفارات الإنذار»

إريك هوفر

Eric Hoffer (The Passionate State of Mind The Power to Create "The Enemy")

القدرة على صناعة «العدو»

لا يقوم أصحاب النفوذ والسلطة عادةً بتنفيذ الأعمال القذرة بأنفسهم، لكن - كسادة المافيا - يتركون الأعمال الكبيرة لمرؤوسيهم. تخلق الأنظمة هرميات للسيطرة بخط نفوذ واتصال نازل، ونادرًا بالعكس. عندما يرغب أحد أفراد نخبة السلطة في تدمير دولة عدوٍ ما؛ فإنه يلجأ إلى خبراء الدعاية ليصنعوا خطة كراهية، ما المطلوب لجعل مواطني مجتمع ما يكرهون مواطني مجتمع آخر إلى الحد الذي يجعلهم راغبين في الانفصال عنهم أو في تعذيبهم بل وفي قتلهم؟ يتطلب الأمر «مخيّلة عدائية» وبناءً نفسيًّا مدمجًا بعمق في عقولهم عن طريق الدعاية التي تحوّل هذا الآخر إلى «العدو». هذه الصورة هي أكبر دافع للجندي الذي يذخّر سلاحه الناري أول ما يذخّره بالكراهية والخوف. صورة العدّو المخيف الذي يُهَدِّد سعادة الفرد ويهدّد الأمن القومي للمجتمع، تدفع الآباء والأمهات إلى الزجّ بأبنائهم في أتون الحرب ودعم الحكومات في إعادة ترتيب الأولويات وتحويل أبسط الأدوات إلى آلات للقتل.

كل هذا يتم إنجازه بالكلمات والصور، وبتصرف في أحد الأقوال المأثورة نقول: «قد تكسر العصي والحجارة عظامك، لكن التسميات يمكن أن تقتلك في بعض الأحيان». تبدأ العملية بتنميط الآخر، تجريده من إنسانيته (حَيْوَنَتُه)؛ فالآخر لا قيمة له، الآخر بالغ القوة، الآخر شيطاني، الآخر مطلق التوحش، الآخر خطر رئيسٍ يُهدِّد قيمنا ومعتقداتنا الغالية، ومع تصاعد الرُّهاب العام واقتراب خطر العدو يتصرّف العقلانيون بلا عقل ويذعن أصحاب التفكير المستقل ويتصرف المسالمون كما لو كانوا مُحاربين. نجد صورًا درامية للعدو على الملصقات وفي التلفاز وعلى أغلفة المجلات وفي الأفلام والإنترنت، حيث تغرس عميقاً مشاعر الخوف والكراهية في أعماق الدماغ.

(١) C. Wright Mills, *The Power Elite*, (New York: Oxford University Press, 1956), p. 3-4.

وصف الفيلسوف الاجتماعي سام كين ببراعة كيف تُصنع هذه الصور العدائية فعليًا وتروّج من قبل كل أمّةٍ مقبلةٍ على الحرب، ويكشف القوى التحويلية «لهذه الصور للعدو»[١] على نفسية الإنسان. أما التبرير للقضاء على تلك التهديدات فيأتي لاحقًا، ولا يزيد على كونه مجرد تفسيرات مقترحة بغرض التوثيق الرسمي، وليس بغرض التحليل النقدي للدمار الذي سيحدث أو يحدث بالفعل.

أكثر الأمثلة تطرفًا لهذه المخيلة العدائية حين تعمل هو ما قاد إلى القتل الجماعي بالطبع، تخطيط شعب من الشعوب لإبادة كل من يُصوّر على أنه عدو له. نعرف بعض الوسائل التي وظفتها آلةُ هتلر الدّعائيةُ لتحويل اليهود جيرانًا وزملاءَ عمل بل وأصدقاء إلى أعداء مُحتقَرين للدولة يستحقون «الحل النهائي»[٢]. مُهِّد لتلك العمليةُ في كتب المدارس الابتدائية باستخدام الصور والنصوص التي صوّرت كل اليهود على أنهم من الخسّة بمكان عظيم ولا يستحقون التعاطف الإنساني.

أريد هنا أن أمرّ باختصار على مثال قريب لواقعة قتل جماعي صاحبها استخدام الاغتصاب كسلاح لا إنساني، ثم سأعرض كيف يمكن دراسة أحد مكونات هذه العملية النفسية المعقدة، وهو مكوّن سلب الإنسانية - الحَيوَنة، في بحث تجريبي محكم يعزل الخصائص الأساسية من أجل تحليل منهجي.

جرائم ضد الإنسانية: قتل جماعي، اغتصاب، وإرهاب

علّمنا الأدب الممتد لثلاثة آلاف عام أن لا أحد يعجز عن الشرّ أفرادًا كان أو دولة. في تبرير هومير (Homer) لحرب طروادة؛ قال أجاميمنون قائد القوات اليونانية لرجاله قبل أن يشتبكوا مع عدوهم: «لن نترك واحدًا من أهل طروادة على قيد الحياة، ولا حتى الأطفال في أرحام أمهاتهم، يجب محو هذا الشعب بأكمله من الوجود...». أتت هذه الكلمات الشريرة من مواطن نبيل ينتمي لإحدى أكثر الدول تحضرًا في ذلك الزمان، موطن الفلسفة والقانون والدراما الكلاسيكية.

نعيش «عصر القتل الجماعي»، قُتل أكثر من ٥٠ مليونًا من البشر قتلاً ممنهجًا بأوامر حكومية نفذها جنود ومدنيون رحبوا بمثل هذه الأوامر. بدءًا من سنة ١٩١٥م ذبح الأتراك

(١) Sam Keen. *Faces of the Enemy: Reflection on the Hostile Imagination* (enlarged ed.) (New York: Harper & Row, 1986/2004).

انظر أيضاً أسطوانة DVD القوية التي أنتجها بيل جيرسي (*Bill Jersey*) وسام كين (Sam Keen). مزيد من المعلومات على www.samkeen.com

(٢) مصطلح استخدمه قيادات الحزب النازي، ويعني إبادة اليهود. (المحرر).

العثمانيون ١,٥ مليون من الأرمن، وفي منتصف القرن العشرين قام النازيون بإبادة ٦ مليون يهودي و٣ مليون من أسرى الحرب السوفيت ومليوني بولندي ومئات الآلاف من الشعوب «غير المرغوب بها»، كما قتلت إمبراطورية ستالين السوفيتية ٢٠ مليون روسي، وأسفرت سياسات حكومة ماو زيدونج (Mao Zedong) عن عدد أكبر يصل إلى ٣٠ مليون من مواطني الدولة. قتل نظام حزب الخمير الحمر في كمبوديا ١,٧ مليونًا من مواطني شعبه، واتُّهم حزب البعث الذي رأسه صدام حسين بقتل ١٠٠,٠٠٠ من الأكراد في العراق، واكتسح القتل الجماعي السودان سنة ٢٠٠٦م، في مقاطعة دارفور، الأمر الذي تجاهله العالم تمامًا[١].

لاحظ أن نفس الكلمات تقريبًا التي استخدمها أجاميمنون منذ ثلاثة آلاف عام مضت ما زالت تستخدم في زمننا الحاضر. في دولة رواندا الأفريقية تورطت جماعة الهوتو الحاكمة في عمليات إبادة جيرانهم السابقين؛ أقلية التوتسي. تتذكر إحدى الضحايا ما قاله أحد الذين شاركوا في تعذيبها: «سنقتل كل التوتسي، وسيكون على أطفال الهوتو يومًا ما أن يتساءلوا عن شكل أطفال التوتسي».

الاغتصاب في رواندا

عرف شعب التوتسي المسالم في أفريقيا الوسطى أن سلاح الدمار الشامل يمكن أن يكون مجرد سكين بسيطة تستخدم في قتلهم بفعالية. اكتسح الذبح الممنهج للتوتسي من قِبَل جيرانهم السابقين الهوتو الدولة بأسرها في شهور قليلة في ربيع ١٩٩٤م عندما قامت فرق الموت بقتل آلاف الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال بمناجلَ وهراوات مُطَعَّمة بمسامير. قدّر تقرير للأمم المتحدة القتلى بما يتراوح ما بين ٨٠٠,٠٠٠ والمليون من أهل رواندا قتلوا خلال ثلاثة أشهر، مما يجعلها أكثر المذابح ضراوة في التاريخ الموثق، لقد أبيد ثلاثة أرباع شعب التوتسي.

كان الهوتو يذبحون أصدقاءهم السابقين وجيرانهم بالأمر المباشر. قال أحد قتلة الهوتو في لقاء بعد حوالي عقد من الزمن أن «أسوأ ما في المذبحة هو قتل جيراني؛ اعتدنا أن نشرب معًا، مواشيهم كانت ترعى في أرضي، كان مثل قريبي». تصف لنا إحدى أمهات الهوتو كيف ضربت حتى الموت أطفال المنزل المجاور الذين كانوا ينظرون إليها بعين

---

(١) L. W. Simons, "Genocide and the Science of Proof," *National Geographic*, January 2006, 26-35

وانظر أيضاً التحليلات المفصلة عن القتل الجماعي في فصل:

D. G. Dutton, E. O. Doyankowski, and M. H. Bond, "Extreme Mass Homicide: From Military Massacre to Genocide", *Aggression and Violent Behavior*, vol. 10 (May June, 2005): 437-473.

ملؤها الذهول؛ فلطالما كانوا جيرانًا وأصدقاء. قالت: أن أحد أعضاء الحكومة أخبرها بأن التوتسي هم أعداؤهم وأعطوها عصاة وأعطوا زوجها منجلاً لمواجهة هذا التهديد. برّرت جريمتها بكونها أسدت «معروفًا» لهؤلاء الأطفال الذين كانوا سيصبحون أيتامًا بائسين؛ فأبويهم قد قُتلا بالفعل.

حتى وقت قريب لم يكن هناك كبير إقرار بالاستخدام الممنهج للاغتصاب ضد الرونديات كأسلوب للإرهاب والتحطيم المعنوي. وَفْقًا لبعض الآراء فقد بدأ الأمر حين اغتصب أحد قادة الهوتو، العمدة سيلفستر كاكومبيبي (Silvester Cacumbibi) ابنة صديقه السابق ثم تركها لرجال آخرين يغتصبونها، وقد صرّحت مؤخرًا بأنه قال لها: «لن نهدر عليك الرصاصات؛ سوف نغتصبك، وسيكون ذلك أكثر سوءًا بالنسبة لك».

على العكس من اغتصاب النساء الصينيات من قبل الجنود اليابانيِّين في نانكينج (سنتعرض له لاحقًا)، حيث تم التشويش على تفاصيل هذا الكابوس بفعل التلكؤ في الإبلاغ عما جرى وممانعة الصينيِّين لإعادة إحياء التجربة بمشاركتها مع أغراب؛ لدينا الكثير من المعلومات حول الديناميكيات النفسية لاغتصاب النساء الرونديات[1].

عندما دافع مواطنو قرية بوتار عن حدودها في مواجهة الهوتو؛ أوفدت الحكومة المؤقتة مبعوثًا خاصًا للتعامل مع ما اعتبرته تمردًا، كانت الوزيرة الوطنية لشؤون المرأة والأسرة وابنة بوتار المحببة التي نشأت في المنطقة باولين نيراماسوهوكو (Pauline Nyiramasuhuko) الناشطة الاجتماعية السابقة من بنات الهوتو والتي كانت تحاضر حول تمكين النساء، كانت الأمل الوحيد لهذه القرية، الأمل الذي سرعان ما انطفأ. أشرفت باولين (Pauline) على خدعة رهيبة؛ فقد وعدت الناس بأن الصليب الأحمر سيوفر الطعام والمأوى في إستاد محلي، في حين كانت عصابات الهوتو المسلحة (the Interahamwe) بانتظار الخصوم، وقد قاموا في نهاية المطاف بقتل هؤلاء الأبرياء الباحثين عن الحماية. كانوا مسلحين ببنادق وقنابل يدوية تُلقى وسط الحشود الذاهلة عن هذا كله، ومن أسعفه الحظ ونجا؛ فالتقطيع بالمناجل في انتظاره.

أعطت باولين أوامرها: «ينبغي اغتصاب النساء قبل قتلهن»، وأمرت مجموعة أخرى من هذه العصابات بإحراق سبعين من النساء والبنات أحياءً وقد كنّ تحت حراستهم، كما أعطتهم بنزينًا من سيارتها ليقوموا بذلك، ومجددًا دعت الرجال إلى اغتصاب الضحايا قبل

---

(١) بعض الروايات المؤسفة عن استخدام الاغتصاب كسلاح ترهيب تدور حول امرأة واحدة سميت باسم «وزيرة الاغتصاب» من قبل المحقق بيتر لانديسمان (PeterLandesman) في تقريره الشامل الذي نشر في: *New York Times Magazine*, September 15, pp. 82-ff. 131 (جميع الاقتباسات مأخوذة من هذا التقرير).

قتلهن. قال أحد الشباب الصغار بأنهم لم يستطيعوا اغتصابهن «لأننا كنا مشغولين بالقتل طوال اليوم ومُنْهَكِينَ، فقمنا بتفريغ زجاجات البنزين فحسب وبعثرناها بين النساء، ثم أضرمنا النار».

امرأة صغيرة اسمها روز (Rose)، اغتصبها ابن باولين، شالوم (Shalom)، الذي أعلن أن والدته منحته «تصريحًا» باغتصاب المرأة التوتسية، كانت التوتسية الوحيدة التي سُمح لها بالبقاء على قيد الحياة لترفع تقريرًا إلى الرب كشاهدة على المذبحة، وقد أجبرت بعدها على مشاهدة أمها تغتصب وعشرين من أقاربها يذبحون.

قدّر تقرير للأمم المتحدة عدد النساء اللاتي تعرضن للاغتصاب في تلك الفترة القصيرة من الرعب بمائتي ألف، قتلت كثيرات منهن بعد ذلك. «طعن بعضهن بالرماح والبنادق والزجاجات أو جذوع أشجار الموز. شوّهت الأعضاء التناسلية باستخدام المناجل والماء المغلي والأحماض الكاوية؛ وقُطّعت أثداء النساء» (ص٨٥) «لجعل الأمر أكثر سوءًا، كانت أغلب الاغتصابات يقوم بها الرجال بالتتابع، وفي كثير من الأحيان كانت تصاحبها صور أخرى من التعذيب الجسدي، وغالبًا ما كانت تقدم كعرض عام لمضاعفة الرعب والإذلال» (ص٨٩). كما إن الاغتصابات الجماعية كانت طريقة لدعم الروابط الاجتماعية بين قتلة الهوتو، تلك الصداقات المتينة الناشئة كانت نتيجة المشاركة في مجموعات الرجال الموكلة بالاغتصاب على الأغلب.

لم يكن من حدود لانعدام إنسانيتهم، «امرأة رواندية في الخامسة والأربعين من عمرها اغتصبها أمام زوجها ابنها ذو الاثني عشر عامًا تحت تهديد فأس وضعت على عنقه يمسك بها أحد أعضاء جماعة الـ«انتراهاموي»، بينما أجبر أبناؤهم الخمسة الآخرون على الإبقاء على فخذيها منفرجين» (ص١١٦)، وقد ازدادت الأمور سوءًا في رواندا بتفشي الإيدز بين ضحايا الاغتصاب. «باستخدام المرض والوباء كوسيلة للرعب الشامل وكوسيلة حرب بيولوجية؛ فأنت تبيد من سينسلون مُخلِّدًا الموت عبر الأجيال»، وَفقًا لتشارلز ستروزير(Charles Strozier)، أستاذ التاريخ في جامعة جون جاي للعدالة الجنائية في نيويورك (ص١١٦) (John Jay College of Criminal Justice).

لا أدري كيف يمكن أن نبدأ حتى في محاولة فهم المؤثرات التي عملت على جعل باولين نوعًا جديدًا من المجرمين، امرأة واحدة ضد نساء عدوات؟ يمكن أن يقدم لنا الجمع بين التاريخ وعلم النفس الاجتماعي إطارًا مبنيًا على الفروقات في النفوذ والمكانة، أولاً، كان يحركها الشعور العام بدنو منزلة نساء الهوتو مقارنة بجمال وغرور نساء التوتسي؛ فقد كُنّ أطول قامة وأفتح بشرة ويملكن ملامح قوقازية، مما جعلهن مرغوبات بصورة أكبر من قبل رجال الهوتو.

خلق المستعمرون البلجيكيون والألمان في بدايات القرن العشرين فصلاً عرقيًا تعسفيًا بين أبناء شعب كان يتزاوج ويتحدث لغة واحدة ويعتنق دينًا واحدًا لعدة قرون. أُجبر كل الروانديين على حمل بطاقات هُوِيَّة توضح ما إن كانوا من الأغلبية الهوتو أم من الأقلية التوتسي، مع مزايا تعليم أعلى ومناصب إدارية يحظى بها التوتسي، وهو ما كان سببًا آخر لرغبة باولين المكبوتة في الانتقام. صحيح أيضًا أنها كانت شخصية انتهازية في إدارةٍ يسيطر عليها الرجال؛ تريد إثبات ولائها وطاعتها وحماسها الوطني لسادتها بالتخطيط لهذه الجرائم التي لم ترتكبها امرأة ضد عدو من قبل، كما أن التشجيع على القتل الجماعي وعلى اغتصاب نساء التوتسي أصبح أكثر سهولة من ذي قبل بسبب النظر إليهم على أنهم مجرد صور تجريدية، لا أنهم بشر، ولتسميتهم بما يجردهم من إنسانيتهم (يُحَيوِنَهُم): «الصراصير» التي يجب «إبادتها». لدينا هنا توثيق حيّ لمخيلة عدائية تلون وجوه الأعداء بألوان الكراهية ثم تدمّر اللوحة.

في حين يعد تشجيع أحدهم لمثل هذه الجرائم الوحشية عامدًا أمرًا مستحيل التصور؛ تذكّرنا نيكول بيرجيفين (Nicole Bergevin) محامية باولين خلال محاكمتها بتهمة ارتكاب جرائم قتل جماعي قائلة:

> «عندما ترافع في محاكمات جرائم قتل، يتبين لك أننا جميعاً موضع اشتباه، لن تفكّر في تورطك في مثل هذا الفعل على أنه شيءٌ خيالي كالحلم؛ بل تدرك أن كل شخص هو محلّ اشتباه، يمكن لهذا أن يحدث لي، أو لابنتي، أو لك» (ص١٣٠).

يبرز الرأي المعتبر لأليسون دي فورج (Alison Des Forges) من منظمة مراقبة حقوق الإنسان (HRW) والتي حققت في العديد من الجرائم الهمجية إحدى أهم أطروحات هذا الكتاب بوضوح، حيث تُجبرنا على رؤية انعكاسنا في مرآة تلك الفظائع:

> «هذا السلوك كامن داخل أيٍّ منا، هذه الاعتبارات المُبَسّطة للقتل الجماعي تسمح بمسافة بيننا وبين مرتكبي جرائم القتل، هم أشرار جدًا إلى حدّ استحالة أن نشبههم أو نفعل فعلتهم، لكن إذا أخذنا في الاعتبار الضغط الرهيب الذي عمل تحته هؤلاء الناس عندها قد نعيد بتلقائية التأكيد على إنسانيتهم؛ فيصبح هذا نذير خطر، أنت مجبر على النظر في الموقف ثم التساؤل، «ما كنت سأفعل أنا؟»، ولا تكون الإجابة مشجّعة في بعض الأحيان». (ص١٣٢)

حاور الصحفي الفرنسي جان هاتسفيلد عشرة من أعضاء ميليشيات الهوتو المسجونين الآن لذبحهم آلافًا من المدنيين التوتسي بالمناجل[1]. شهادات هؤلاء الأشخاص العاديين،

---

(١) Jean Hatzfeld, *Machete Season: The Killers in Rwanda Speak*, (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2005).

وأغلبهم مزارعون أو نشطاء في الكنيسة أو معلمون سابقون؛ تثير القشعريرة من حيث تصويرها القاسي لهذه الوحشية التي بصعب تخيلها على أنها أمر واقع، تجبرنا كلماتهم على مواجهة ما لا يخطر لنا ببال مرة تلو الأخرى. الجنس البشري قادر على هجر إنسانيته تمامًا راحلاً إلى أيديولوجيا مجنونة اتباعًا لأوامر سلطات دوغمائية بتدمير كل ما يسمونه «العدو»، ثم تجاوز هذه الأوامر إلى اقتراف شرّ أكبر. دعنا نتفكر في بعض هذه الاعتبارات التي قارن بينها ترومان كابوت (Truman Capote) في كتابه، دماء باردة (*Cold Blood*).

«بدأت أشعر أن الأمر لا يعنيني حيث أني كنت كثير القتل، أريد أن أوضح أنني لم آسف على أحد قط، من أول شخص قتلته وحتى الأخير».

«كنا ننفذ الأوامر، كنا نصطفّ خلف حماس الجميع، نتجمع في فرق داخل ملاعب كرة القدم ثم نذهب للصيد كأرواح متآلفة».

«أي شخص كان يتردد في القتل لشعوره بالحزن كان عليه بالتأكيد أن يراقب كلماته، ألا يتفوه بشيء عن سبب تحفظه خشية أن يتهم بالتواطؤ».

«قتلنا كل شخص تتبعناه يتخفى وسط نبت البردي، لم يكن لدينا سببٌ للاختيار، لتوقع أو خشية أي شخص بعينه. كنا نقطّع المعارف والجيران، كنا مجرد آلات تقطيع».

«جيراننا التوتسي، كنا نعرف أنهم لم برتكبوا أي خطأ، لكننا اعتقدنا أنهم جميعهم مسؤولون عن مشكلاتنا المستمرة، لم نعد ننظر إليهم فردًا فردًا، لم نعد نتعرف عليهم كما لطالما فعلنا، ليس حتى باعتبارنا زملاء. أصبحوا خطرًا أكبر من كل ما قد اختبرناه مجتمعين، الأكثر أهمية من طريقتنا في النظر إلى كيفية سير الأمور في مجتمعنا هي الكيفية التي فكرنا بها وقتلنا بها في الوقت نفسه».

«توقفنا عن رؤية التوتسي باعتبارهم بشرًا عندما كنا نمسك بهم في المستنقعات، أقصد رؤيتهم كأشخاص مثلنا، يشاركوننا نفس الأفكار والمشاعر، كان الصيد وحشيًا، وكان الصيادون متوحشين، وكانت الفريسة متوحشة، لقد هيمنت الوحشية على العقل».

أحد ردود الفعل المُحرِّكة بشكل خاص لعمليات القتل والاغتصاب الوحشية تلك، والتي تعبر عن موضوع سوف نعود إليه، يصدر عن واحدة من نساء التوتسي الناجيات، بيرثي (Berthe):

«من قبل، كنا نعرف أن الإنسان يمكن أن يقتل إنسانًا آخر لأن الأمر يحدث طوال الوقت. الآن صرت أعرف أن حتى من شاركك طعامك أو بات في منزلك يمكن أن يقتلك بلا أدنى مشكلة، أقرب الجيران يمكن أن يقتلك بأسنانه، هذا ما تعلّمته منذ

عمليات الإبادة، فما عادت عينيّ ترى العالم على النحو الذي اعتادته قبلاً».

كتب الفريق روميو دالاير في كتابه «مصافحة الشيطان» شهادة قوية حول تجربته باعتباره قائد قوات بعثة الأمم المتحدة للإغاثة[1]، وعلى الرغم من تمكنه من إنقاذ أرواح آلاف من البشر بإبداعه البطولي؛ فإن هذا القائد العسكري قد أفجعه عجزه عن طلب مساعدة أكبر من الأمم المتحدة لمنع الكثير من الفظائع الأخرى، وقد انتهى إلى حالة شديدة من «كرب ما بعد الصدمة» كنتيجة نفسية لهذه المذبحة[2].

اغتصابات نانكينج، الصين

مفهوم الاغتصاب مرعب من حيث البيانات الإحصائية ومع ذلك يمكن تخيله بسهولة، حتى إننا نستخدم المصطلح بصورةٍ مجازيةٍ في وصف جرائم حرب أخرى يكاد يستحيل تخيلها، قام الجنود اليابانيون بذبح ما يتراوح بين ٢٦٠,٠٠٠ إلى ٣٥٠,٠٠٠ من المدنيين الصينيين في أشهر دموية قليلة سنة ١٩٣٧م، تلك الأرقام تمثل أعدادًا من القتلى تفوق أرقام ضحايا القنبلة الذرية في اليابان وجميع القتلى في أغلب الدول الأوروبية أثناء الحرب العالمية الثانية.

بعيدًا عن الأرقام الضخمة للصينيين الذين ذُبحوا؛ من المهم أن نتعرّف على وسائل «الشرّ الخلّاق» التي ابتكرها أولئك الذين تورّطوا في تعذيبهم ليجعلوا من الموت مرغوبًا أكثر من ملاقاة مثل هذا العذاب. كشفت تحقيقات الكاتب إريس تشانج حول هذا الرعب عن أن الصينيين كانوا يُستَخدمون للتدريب على الطعن بالحراب وفي مسابقات قطع الرؤوس، اغتُصب من النسوة عدد يقدر بعشرين إلى ثمانين ألف امرأة؛ بل ذهب كثير من الجنود إلى ما هو أبعد من الاغتصاب ونزعوا أحشاء النساء، وقطعوا أثداءهن، وسمروهن على الحوائط أحياءً. كان الآباء يُجبرون على اغتصاب بناتهم، والأبناء على اغتصاب أمهاتهم على مرأى من بقية أفراد الأسرة[3].

---

(١) R. Dallaire with B. Beardsley, *Shake Hands with the Devil: The Failure of Humanity in Rwanda* (New York: Carroll and Graf, 2004).

(٢) طرح عالم النفس روبيرت جاي ليفتون (*Robert Jay Lifton*)، كاتب [*The Nazi Doctors*]، رأياً بأن الاغتصاب كان في الغالب متعمداً كأداة حرب بغية خلق معاناة مستمرة وإهانة قصوى تؤثر لا على الضحية فحسب، ولكن على جميع من حولها. «ينظر للمرأة كرمز للنقاء، تدور العائلة حول هذا الرمز ثم يحدث الهجوم الوحشي على هذا الرمز مما يشوه سمعتهم جميعاً، كل هذا يخلد الإهانة المدويّة لدى الناجين وعائلتهم. بهذا، فإن الاغتصاب أسوء من الموت». لاندسمان (*Landesman*) ص. ١٢٥. وانظر أيضاً:

A. Siglmayer, ed *Mass Rape: The War Against Women in Bosnia-Herzegovina* (Lincold: University of Nebraska Press, 1994).

(٣) Iris Chang, *The Rape of Nanking: The Forgotten Holocaust of World War II*, (New York: Basic Books, 1997), p. 6.

الحرب تولّد الوحشية والسلوك الهمجي تجاه أي شخص يُعَدُّ عدوًّا باعتباره الآخر المُحَيْوَن، والمُشَيطَن. كان اغتصاب نانكنج مريعًا وفقًا للتفصيل المصور للتجاوزات المروّعة التي ذهب إليها الجنود في إذلالهم وإبادتهم المدنيين الأبرياء، «أعداء غير مسلحين». لكنها كانت على كل حادثة منفردة وليست مجرد جزء آخر من النسيج التاريخي لمثل هذه الأعمال الوحشية ضد المدنيين، ربما نراها حالة شاذة. كانت القوات البريطانية تعدم وتغتصب المدنيين أثناء حرب الاستقلال الأمريكية، واغتصب الجيش الأحمر السوفييتي عددًا يقدّر بمائة ألف من نساء برلين قرب نهاية الحرب العالمية الثانية في الفترة ما بين ١٩٤٥ و١٩٤٨م. بالإضافة إلى اغتصاب وقتل أكثر من ٥٠٠ مدني في مذبحة ماي لاي سنة ١٩٦٨م؛ سرّب البنتاجون مؤخرًا أدلة تصف ٣٢٠ حادثة لجرائم أمريكية ضد المدنيين في فيتنام وكمبوديا[١].

اللاأنسنة وعدم الالتزام الأخلاقي داخل المختبر

من الممكن افتراض أن أغلب الناس وفي معظم الأوقات هم كائنات أخلاقية، لكن تخيل أن هذه الفضائل الأخلاقية هي مثل ناقل السرعات الذي يمكن دفعه في بعض الأحيان إلى وضع اللاتعشيق (neutral gear)، حينها تُعطَّل الأخلاق. إذا تصادف وجود السيارة على منحدر فإنها ستتحرك وقائدها بتسارع نحو الأسفل. إذًا فطبيعة الظروف هي التي تحدد النتائج، لا مهارة السائق ونواياه فحسب. أعتقد أن هذا التشبيه البسيط يمسك بأحد المفاصل الرئيسية لنظرية التعطيل الأخلاقي التي طورها زميلي في ستانفورد ألبرت باندورا، سنرجع إلى نظريته في واحد من الفصول القادمة، وهو ما سيساعدنا على تفسير الأسباب التي قد تؤدي بالصالحين إلى القيام بأفعال سيئة. هنا أريد أن أتحول إلى البحث التجريبي الذي قام به باندورا ومساعده، والذي يوضح مدى سهولة التحرر من الالتزام الأخلاقي باستخدام أسلوب حيونة - لاأنسنة الضحية المحتملة[٢]. في تجربة أنيقة تظهر قوة الأسلوب المذكور آنفاً؛ ثبت أن كلمة واحدة يمكن أن تزيد من شدة العنف تجاه المستهدف، لنرَ كيف جرت التجربة.

تخيل أنك طالب جامعي تطوع لإجراء دراسة حول «حل مشاكل المجموعة» بصفتك

---

(١) A. Badkhen, "Atrocities Are a Fact of All Wars, Even Ours," *San Francisco Chronicle*, August 13, 2006, pp. E1-E6, and D. Nelson and N. Turse, "A Tortured Past," *Los Angeles Times*, august 20, 2006, pp. A1, ff.

(٢) A. Bandura, B. Underwood, and E. M. Fromson, "Disinhibition of Aggression Through Diffusion of Responsibility and Dehumanization of Victims," *Journal of Research in Personality* 9 (1975): 254-69.

اعتقد المشاركون أن الطلبة المُدّعى وجودهم في الغرفة المجاورة يتعرضون للصعق فعلياً عندما يضغطون على الزر؛ لم تتعرض «الحيوانات» الخيالية للصعق أو أي شخص آخر.

عضوٌ من فريق مكون من ثلاثة من طلاب كليتك، مهمتك هي مساعدة طلبة جامعة أخرى على تحسين مهاراتهم في حل مشكلات المجموعة، وذلك عن طريق معاقبتهم على أخطائهم بتوجيه صدمات كهربائية يمكن زيادة شدتها مع تكرار المحاولات، بعد تدوين أسمائكم وأسماء طلبة المجموعات الأخرى يترك المساعد المكان ليعلن بدأ التجربة، ستكون هناك عشرة محاولات يمكنك أن تحدد فيها مستوى الصدمة الكهربائية الموجهة لمجموعة الطلبة الأخرى في الغرفة المجاورة.

تسمع «بالصدفة» ـ وأنت لا تدري أن هذا جزء من سيناريو التجربة ـ المساعد عبر جهاز الاتصال الداخلي يشكي للقائم بالتجربة من أن الطلبة الآخرين «يبدون كالحيوانات». أنت لا تدري أيضًا أن هناك حالتين تم فيهما اختيار الطالبين القائمين على التجربة عشوائيًا مثلما تم اختيارك، حيث يصف المساعد الطلبة الآخرين بكونهم «شبان لطفاء» في واحدة، ولا يذكرهم على الإطلاق في الأخرى.

هل تُحدِث هذه المسميات البسيطة أي تأثير؟ لا يبدو الأمر كذلك في البداية، في المحاولة الأولى يستجيب الجميع بنفس الطريقة بتوجيه صدمات منخفضة الشدة ويستمر هذا في المحاولة الثانية، لكن سرعان ما يظهر أثر ما سمعته كل مجموعة عن الآخرين المجهولين فإن كنت لا تعرف شيئًا عنهم فستوجه لهم جرعات متوسطة تصل إلى المستوى [٥]، وإذا كنت تعتبرهم «شبانًا لطفاء» فستعاملهم بطريقة أكثر إنسانية بإعطائهم جرعات مخفضة جدًا بالكاد تصل إلى المستوى [٣]، لكن تَخيُّلهم «كحيوانات» سيطفئ أي شعور لديك بالتعاطف معهم، وعندما يخطئون فستبدأ بصعقهم بجرعات متزايدة الشدة مقارنة بالحالتين الباقيتين، حيث تصعد بثبات لتصل إلى المستوى [٨].

فكِّر مليًا للحظة في الإجراءات النفسية التي تمكنت عبرها تسميات بسيطة من استخراج أسوأ ما في عقلك، سمعتَ شخصًا لا تعرفه بشكل شخصيّ، لم تلقه قطّ، يخبر مسؤولاً ما أن الطلبة الآخرين يبدون «كالحيوانات»، وهذا الاصطلاح الوصفي وحده كافٍ في تغيير بنيتك العقلية تجاه هؤلاء الآخرين، يُبعِد عنك صور شبان الجامعة الطيبين الذين يشبهونك بالتأكيد أكثر مما يختلفون عنك. هذا التَهَيُّؤ العقلي[١] الجديد له تأثير قوي على سلوكك. عمليات العقلنة بعد انتهاء التجربة والتي حاول الطلبة من خلالها تبرير اندفاعهم لتوجيه صدمات عالية الشدة لطلبة «بيت الحيوانات» في عملية «تلقينهم درسًا جيدًا» كانت مذهلة بذات القدر. هذا المثال عن استخدام بحث تجريبي محكم لفحص العمليات النفسية الخفية التي تبدأ بالعمل في كثير من حالات العنف في العالم الحقيقي هو أمر سنتوسع فيه

(١) (mental set) تهيؤ عقلي أو تهيؤ ذهني: في علم النفس هو تأثُر الفرد بمُثير يُسَبِب ردة فعل مُعيّنة. (المترجم).

في الفصلين الثاني عشر والثالث عشر عندما نبدأ في النظر في الأساليب التي استخدمها علماء السلوكيات في بحث الجوانب المختلفة لسيكولوجية الشر.

«قدرتنا على تفعيل أو تعطيل معاييرنا الأخلاقية.. يمكن أن تساعدنا في تفسير الكيفية التي أصبح بها الناس متوحشين بصورة همجية في لحظة، ورحيمين في اللحظة التي تليها»

ألبير باندورا[1]

صور مريعة للاعتداءات في سجن أبو غريب

كان الحافز الرئيسي لكتابة هذا الكتاب هو الحاجة إلى فهم أفضلٍ لكيفية وأسباب حدوث تلك الاعتداءات الجسدية والنفسية التي مورست ضد السجناء من قبل الشرطة العسكرية الأمريكية في سجن أبو غريب بالعراق. مع انتشار الأدلة المصورة لهذه الاعتداءات حول العالم في مايو ٢٠٠٤م، رأينا جميعًا للمرة الأولى في التاريخ المسجل صورًا حية لشبان وشابات أمريكيين صغار متورطين في صور من التعذيب لا يمكن تخيلها ضد المدنيين الذين كانت حراستهم منوطةً بهم. التقطت صور من يقومون بالتعذيب ومن يقع عليهم التعذيب في عرض موسع من الانحرافات المسجلة والتي صورها الجنود أنفسهم أثناء مغامراتهم الطائشة، ما هو سبب تسجيلهم أدلة مصورة لهذه الأفعال غير المشروعة التي إن وجدت فبالتأكيد ستوقعهم في المشاكل؟ في تلك «الصور التذكارية»، التي تشبه الصور التي يلتقطها الصيادون المزهوون مع الوحوش التي قاموا باصطيادها. في العام السابق، رأينا رجالاً ونساءً يبتسمون أثناء اعتدائهم على كائنات حيوانية أدنى منهم. صور لكمات وصفع وركل للمعتقلين والقفز على أقدامهم، إجبارهم وهم عراة معصوبو العيون على التكوم فوق بعضهم البعض فيما يشبه الهرم، إجبارهم عراة على وضع ملابس نسائية داخلية على رؤوسهم، إجبار السجناء الذكور على الاستمناء، أو استثارة السجناء الآخرين أو تصويرهم بالفيديو مع مجندات يضحكن أو يقمن بتشجيع ذلك، تعليق السجناء في العوارض الخشبية لفترات طويلة، جرّ السجين حول المكان بوثاق حول عنقه، واستخدام هجمات كلاب غير مكمّمة لإخافة السجناء.

تلك الصورة الأيقونية التي انطلقت من تلك الزنزانة إلى شوارع العراق وكل مكان في

---

(١) مقتبس في (*New York Times*) في مقال عن دراستنا عن التعطل الأخلاقي لدى جميع أفراد السجن والذي يصاحب عمليات الإعدام:

Benedict Casey, "In the Execution Chamber the Moral Compass Wavers," *The New York Times*, February 7, 2006.

وانظر:

M. J. Osofsky, A. Bandura & P. G. Zimbardo, "The Role of Disengagement in the Execution Process," *Law and Human Behavior*, 29 (2005): 371-91.

العالم، كانت صورة «الرجل المثلث»، معتقل مغطى الوجه يقف على صندوق خشبي في وضع مجهد وذراعاه ممدودتان من تحت غطاء قماشي كشف عن وجود أسلاك كهربائية موصلّة بأصابعه وقد قيل له أنه سيتعرض لصعقة كهربائية إذا ما خارت قواه وسقط من على الصندوق، لا يهمنا أن الأسلاك كانت موصولة بالهواء لكن يهمنا كونه صدّق الكذبة وعانى بالتأكيد من ضغط عصبي كبير. كانت هناك صور صادمة أكثر فضّلت حكومة الولايات المتحدة عدم الكشف عنها بسبب الضرر الكبير الذي كانت ستلحقه بمصداقية الجيش الأمريكي وصورته الأخلاقية وقيادة الرئيس بوش. رأيت المئات من تلك الصور، وهي مريعة بالفعل.

حزنتُ بشدة لمشاهدة مثل تلك المعاناة، حزنتُ لاستعراض الغرور بهذا الشكل، بهذا القدر من اللامبالاة تجاه إذلال السجناء الذين لا حول لهم ولا قوة. ذُهِلْتُ أيضًا عندما علمت بأن أحد هؤلاء المعتدين، امرأة مجنّدة بلغت للتو الحادية والعشرين من عمرها؛ وصفت الاعتداء بأنه «مجرد مرح ولعب».

صدمتُ ولكن لم أتفاجأ، تساءل الإعلام و«رجل الشارع» أن كيف يمكن أن يقوم سبعة من الرجال والنساء، والذين وصفهم قادتهم في الجيش بأنهم «جنود فاسدون» أو «قلة من التفاحات الفاسدة»، بارتكاب هذه الأفعال الدنيئة. بدلاً من هذا فكرت في نوعية الظروف التي وُجِدَت في ذلك السجن والتي أدت إلى إخلال التوازن وقادت الجنود الصالحين إلى التحوّل إلى مثل هذا السوء. حتى نكون على بيّنة فإن تقديم تحليلات للظروف المحيطة بمثل هذه الجرائم لا يعفيهم من المسؤولية أو يجعلها مقبولة أخلاقيًا، لكنني كنت في حاجة لإيجاد المعنى في قلب هذا الجنون، أردت أن أفهم كيف استطاع هؤلاء البشر اليافعون أن يقدموا في هذه الفترة القصيرة على مثل هذه الأفعال التي لا تخطر على بال.

اوجه التشابه بين سجن ابو غريب وسجن ستانفورد

السبب الذي جعلني مصدومًا ولكن غير متفاجئ من صور الاعتداءات في أبو غريب، «متجر الرعب الصغير»، هو أنني قد رأيت شيئًا مماثلاً فيما مضى قبل ثلاثين عقدًا من الزمن. حينها شهدت عن قرب أمورًا مماثلة أثناء حدوثها في مشروع أَدَرْتُه بنفسي، ومن تصميمي الخاص، شاهدتُ سجناء عرايا، مقيدين ورؤوسهم مغطاة بحقائب تسوق ورقية، وحراس يدهسون ظهور السجناء أثناء ممارسة تمارين الضغط، وآخرين يتحرشون بالسجناء جنسيًا، وسجناء يعانون من ضغط نفسي شديد. بعض الصور من تجربتي كان يمكن عمليًا استبدالها بصور الحراس والسجناء في هذا السجن البعيد في العراق، سجن أبو غريب سيئ السمعة.

أدوار الحراس والسجناء في تجربة السجن التخيلي التي أجريت في جامعة ستانفورد في صيف سنة ١٩٧١م عاودت الظهور في ذلك السجن الحقيقي في العراق سنة ٢٠٠٣م. لم يكن الأمر فقط أني شاهدت أحداث مماثلة؛ بل كنت مسؤولاً بشكل مباشر عن صناعة المواقف والظروف التي سمحت بظهور مثل هذه الاعتداءات. وبصفتي الباحث الرئيسي للمشروع صممت التجربة بحيث يقوم طلبة جامعيون عاديون أصحاء وأذكياء وفقًا لتوزيع عشوائي؛ بأدوار الحراس والسجناء في سجن مُقلّد حيث كان عليهم العيش والعمل لأسابيع عديدة. أنا وشركائي في البحث من الطلبة؛ كريج هاني، وكيرت بانكس، وديفيد جافي، أردنا أن نفهم بعض الديناميكيات الفاعلة في علم نفس السجن.

كيف يمكن للناس العاديين أن يتكيفوا مع مثل هذا الإطار المؤسسي؟ كيف يمكن لفوارق السلطة بين الحراس والسجناء أن تؤثر في تفاعلاتهم اليومية؟ إذا وضعت أناسًا صالحين في مكان فاسد سيئ، هل سينتصر الناس أم سيفسدهم المكان؟ هل سيغيب العنف المرضي المتفشي في معظم السجون الحقيقية عن سجن مليء بشباب طيبين ينتمون للطبقة المتوسطة؟ كانت هذه بعض القضايا الاستكشافية التي سنقوم بفحصها فيما بدأناه بدراسة بسيطة حول حياة السجن.

استكشاف الجانب المظلم للطبيعة الإنسانية

ستكون رحلتنا معًا هي رحلة قد يقول عنها الشاعر ميلتون أنها تقود إلى «الظلام المرئي». ستأخذنا إلى أماكن انتعش فيها الشر بكل تعريفاته. سنلتقي جموعًا من الناس ارتكبوا أفعالاً شديدة السوء بحق آخرين غالبًا بدافع القضية العليا أو الأيديولوجيا الأفضل أو الواجب الأخلاقي. سيتم تحذيرك من الشياطين طيلة الطريق، لكن ستحبطك تفاهتهم وتشابههم مع أقرب جيرانك. إن تأذن لي باعتباري دليلك في هذه المغامرة؛ سوف أدعوك إلى وضع نفسك مكانهم والنظر بعيونهم حتى ترى الشرّ رؤية قريبة وشخصية. في بعض الأحيان سيكون المشهد شديد القبح، لكن بفحص أسباب مثل هذا الشر واستيعابها سنمتلك القدرة على تغييرها واحتوائها بل وقلبها عبر قرارات حكيمة وأعمال جماعية مبتكرة.

قبو قاعة جوردان بجامعة ستانفورد هو المكان الخلفي الذي سأستخدمه من أجل مساعدتك في فهم ما يعنيه أن تكون حارساً أو مشرفاً على سجين. على الرغم من اشتهار البحث بسبب بعض المقاطع الصوتية، وبعض منشوراتنا البحثية لكن القصة الكاملة لم تعلن أبدًا. سأروي الأحداث بترتيبها بصيغة المتكلم وفي الزمن الحاضر، وسأعيد صنع أهم أحداث الأيام والليالي بتتابع زمني، وبعد أن نأخذ في الاعتبار كل ما تضمنته تجربة سجن

ستانفورد أخلاقيًا ونظريًا وعمليًا؛ سوف نوّسع أسس الدراسة السيكولوجية للشرّ باستكشاف نطاقات من أبحاث تجريبية وميدانية أجراها علماء نفس توضح قوة تأثير الضغوط الظرفية على سلوك الفرد، سوف نعاين ببعض التفصيل الامتثال والطاعة، سلب الذاتية، اللاأنسنة، التعطيل الأخلاقي، وشر التقاعس.

«البشر ليسوا سجناء القدر، لكنهم سجناء عقولهم فحسب»، كما يقول الرئيس فرانكلين روزفلت. السجون هي مجاز يعبر عن قيود تُضرب على الحرية، حرفيًا ورمزيًا. تحولت تجربة سجن ستانفورد من كونها مجرد سجن رمزي في البداية إلى سجن حقيقي تمامًا في عقول سجنائه وحراسه. ما هي إذًا السجون الأخرى التي نفرضها على أنفسنا والتي تقيّد حرياتنا الأساسية؟ الاضطرابات العصبية، احتقار الذات، الخجل، الأحكام المسبقة، الشعور بالخزي، الخوف المبالغ فيه من الإرهاب، هذه هي بعض الأوهام التي تحول بيننا وبين الحرية والسعادة، وتعمينا عن احترام العالم المحيط بنا بشكل كامل[1].

مع وضع هذه المعرفة في الاعتبار، يعود سجن أبو غريب لجذب انتباهنا، لكن دعونا الآن نذهب لما هو أبعد من عناوين الأخبار والصور التي عرضت في التلفاز حتى نصل إلى معرفة أكمل لما يعنيه أن تكون حارسًا أو سجينًا في هذا السجن المريع وقت حدوث هذه الاعتداءات. من بعد محاكم التفتيش يفرض التعذيب نفسه على بحثنا بحلّته الجديدة، سآخذك إلى قلب المحاكمة العسكرية لأحد رجال الشرطة العسكرية هؤلاء، وسنشهد معًا بعض التداعيات السلبية لأفعال الجنود. سوف نسخّر طوال الطريق كل ما نعرفه عن المكونات الثلاثية [الفرد، والموقف، والنظام] لفهمنا النفسي الاجتماعي، وسنركز بشكل خاص على الفاعلين في مواقف معينة صنعتها وحافظت على وجودها قوى النظام. سنضع بنية قيادة جيش الولايات المتحدة قيد الاختبار، وكذلك مسؤولي إدارة السي آي إي وبعض كبار القادة في الحكومة لمسؤوليتهم المشتركة في خلق نظام مختل فرّخ التعذيب والاعتداء في أبو غريب.

سيقدم الجزء الأول من الفصل الأخير بعض الإرشادات العامة حول كيفية مقاومة التأثير الاجتماعي غير المرغوب فيه، وكيفية بناء القدرة على مقاومة غواية محترفي التأثير. نريد أن نعرف كيف نقاوم تكتيكات التحكم بالعقول التي تستخدم في جعلنا نتنازل عن

---

(١) مؤخراً بدأت في الاطلاع على تلك الموضوعات في خطاب قبولي لجائزة (Havel Foundation Vison 97 Award) التي حصلت عليها في ٥ أكتوبر ٢٠٠٥م، في يوم ميلاد فاكلاف هافيل (*Vaclav Havel*) الرئيس السابق لجمهورية التشيك وقائدها الثوري البطل. انظر:

Philip G. Zimbardo "Liberation Psychology in a Time of Terrore," Prague: Havel Foundation, 2005. Online: http://pdf.prisonexp.org/havelprize.pdf

حريتنا في الاختيار لصالح استبداد الامتثال والانصياع والطاعة والمخاوف التي تشككنا في ذواتنا، وعلى الرغم من تحذيري من قوة الظروف يبقى إيماني قويًا بقدرة البشر على التصرف بوعي كامل ونقد عالٍ عندما يحاول الوكلاء المدرَّبون توجيه سلوكياتهم عن عمد. إن فهم كيفية عمل التأثير الاجتماعي وإدراك أننا جميعًا معرضون للخضوع لمؤثراته الدقيقة النافذة؛ يجعلنا نتحول إلى مستهلكين أصحاب وعي وذكاء لا يتأثرون بسهولة بالسلطة والديناميكيات الجماعية والنداءات الإقناعية واستراتيجيات الانصياع.

أريد أن أختم بنقيض السؤال الذي انطلقنا منه، بدلاً من أن تسأل نفسك عما إذا كنت قادرًا على فعل الشر، أريد منك أن تسأل نفسك ما إذا كنت قادرًا على أن تصبح بطلاً. أطروحتي الأخيرة تقدّم مفهوم «عاديّة البطولة». أؤمن أن أيًا منا قادر على أن يكون بطلاً محتملاً ينتظر الظرف المناسب ليتخذ القرار بمساعدة الآخرين على الرغم من المخاطرة الشخصية والتضحية، لكن علينا أن نقطع مسافة طويلة قبل أن نصل إلى هذه النهاية السعيدة؛ فلنمضِ إذًا!

قالت السُّلطة للعالم: «أنت ملكي»
فأبقاها العالم سجينة على عرشها
قال الحب للعالم: «أنا ملكك»
فأعطاه العالم الحرية في بيته

رابيندرات طاغور، الطيور الضالة[1]

(١) Rabindranath Tagore, *Stray Birds* (London: Macmillan, 1916), p. 24.

الفصل الثاني

يوم الأحد وفجأة الاعتقالات

لم تُدرك هذه المجموعة من الشبان الذين لم يلق بعضهم بعضًا قبلاً أن أجراس كنيسة بالو ألتو (Palo Alto) كانت تدقّ من أجلهم، وأن حياتهم على وشك أن تشهد تحولاً غير متوقع بالمرة.

في صباح يوم الأحد، ١٤ أغسطس ١٩٧١م، وفي تمام الساعة ٩:٥٥، كانت درجة الحرارة حوالي سبعين فهرنهايت [٢٢ درجة مئوية] ومعدلات الرطوبة في الجو منخفضة للغاية. وكعادة هذه المدينة، كانت الرؤية واضحة والسماء لازوردية صافية من فوقنا، بداية جديدة ليوم صيفيّ مثاليّ في بالو ألتو، كاليفورنيا. لم تكن الغرفة التجارية لتحظى بأفضل من هذا اليوم لنجاح سير الأعمال. لا تهاون في هذه الجنة الغربية تجاه أي خلل أو نشوز، لا يسمح حتى بأبسط الأشياء مثل بعض الركام في الشارع أو نمو الأعشاب في حديقة منزل أحد الجيران.

هذه هي الجنة التي يتحقق على أرضها الحلم الأمريكي حيث نهاية المدى.

يُقدّر تعداد سكان بالو ألتو بحوالي ٦٠ ألف نسمة، لكن ما يميّزها بشكل رئيسي هو وجود أحد عشر ألف طالب يقيمون ويدرسون على بعد ميل واحد من منطقة بالم درايف (Palm Drive) المكتظة بالمئات من أشجار النخيل الممتدة على طول المدخل المؤدي إلى جامعة ستانفورد. ستانفورد هي أقرب ما تكون إلى مدينة صغيرة مترامية الأطراف تغطي مساحة تصل إلى ثمانية آلاف فدان. لها شرطتها الخاصة وإدارة مكافحة حرائق خاصة بها، ومكتب بريد خاص أيضًا.

على بعد ساعة بالسيارة جهة الشمال تقع سان فرنسيسكو، بالو ألتو - على النقيض منها - أكثر أمانًا ونظافةً وهدوءًا، وغالبية سكانها من البيض. يعيش أغلب السود على طول طريق ١٠١ السريع الذي يمتد عبر الطرف الغربي للمدينة، وبالمقارنة مع المباني السكنية المتهالكة متعددة الشقق التي اعتدتها؛ فإن بيوت شرق بالو ألتو المُصَمّمَة بحيث تكفي عائلة أو عائلتين تشبه إلى حدّ كبير ضاحية قريبة من مدرستي الثانوية كان مدرّسي يحلم بالانتقال إليها إذا تمكن من جمع المال الكافي من خلال عمله المسائي على سيارة أجرة.

بدأت المشاكل مؤخرًا في التفاقم في كل مكان حول هذه الواحة الهادئة، في أوكلاند مثلاً يروّج حزب الفهود السود (Black Panther Party) لمجد السود (Black Pride) مدعومًا من لوبي من أصحاب النفوذ من السود بغرض مقاومة الممارسات العنصرية «بكل الوسائل الضرورية»، تتحول السجون إلى مراكز لتجنيد نوع جديد من السجناء السياسيين ممن مصدر إلهامهم هو جورج جاكسون (George Jackson) الذي يوشك أن يحاكم مع «إخوة سجن سوليداد» (Soledad Brothers) بدعوى قتل أحد حراس السجن، من ناحية أخرى تحرز حركة تحرير النساء نجاحًا سريعًا وهي الحركة التي كرست نفسها لوضع نهاية لاعتبار المرأة مواطنة من الدرجة الثانية في المجتمع ولتوفير فُرَص جديدة لها، كما تُمثّل الحرب غير المرحب بها الدائرة في فيتنام عبئًا ثقيلاً بسبب أعداد القتلى التي تزداد يوميًا، وزادت تلك المأساة سوءًا عندما رَدَّت إدارة نيكسون (Nixon) وكيسنجر (Kissinger) على النشطاء المعارضين للحرب بزيادة التفجيرات. «التكوين الصناعي العسكري» هو عدو هذا الجيل الجديد الذي يشكك بشكل مُعلن في قِيَم العنف والاستغلال والانتهازية لذلك التكوين، وبالنسبة لأي شخص يرغب في العيش في عصر ديناميكي، فإن روح العصر هذه لا مثيل لها ولم يشهده أي تاريخ قريب.

الشر الجماعي، الخير الجماعي

من منطلق شغفي بالفارق بين الشعور بالتهميش الذي عشته في مدينة نيويورك وإحساسي بهُويَّتي الشخصية والمجتمعية الذي ملأني في بالو ألتو؛ قرّرت إجراء تجربة ميدانية بسيطة بهدف اختبار حقيقة هذا الفرق. أصبحت مهتمًا بالتأثير المضاد للمجتمع[١] الذي يسببه التهميش عندما يشعر الناس أنهم في مأمن من أن يتعرف إليهم أحد حال كونهم في ظروف تشجع العنف. واعتمادًا على مفهوم رواية أمير الذباب (Lord of the Flies) عن الأقنعة التي تتسبب في إخراج نزعات عدائية؛ أجريتُ بحثًا أظهر أن المشاركين الذين فقدوا الإحساس بذاتيتهم - فرديتهم كانوا أقدر على إلحاق الألم بالآخرين من أولئك الواعين بها[٢].

---

(١) (antisocial) مضاد للمجتمع: رافض لقوانين وقواعد المجتمع بطريقة تسبب الإزعاج للمحيطين به. (المترجم).

(٢) أوجزت البحث السابق عن نظرية سلب الذاتية في الفصل الذي كتبته سنة ١٩٧٠م:

"The Human Choice: Individuation, Reason, and Order Versus Deindividuation, Impulse, and Chaos," *1969 Nebraska Symposium on Motivation*, ed. W. J. Arnold and D. Levine (Lincoln: Nebraska University Press, 1990). Pp. 237-307.

يمكن أن نجد مقالاً أحدث عن التخريب في:

P. G. Zimbardo, "Urban Decay, Crime and Civic Engagement," in *Schrumpfende Städt/Shrinking Cities*, ed. F. Bolenius (Berlin: Philipp Oswalt, 2005).

بناءً على هذا أردت أن أرى كيف سيستجيب مواطنو بالو ألتو الصالحون للدعوة إلى إغرائهم بالتخريب. صممت دراسة ميدانية باستخدام كاميرا خفية، وكان ترك سيارتين على قارعة الطريق جزءًا من التجربة، واحدة في بالو ألتو والأخرى على بعد ثلاثة آلاف ميل في برونكس بغرض المقارنة. وضعت سيارات جميلة في الطريق المؤدي إلى الحرم الجماعي لجامعتي نيويورك ببرونكس وجامعة ستانفورد، كما رفعنا أغطية المحركات وأزلنا اللوحات المعدنية، وهي جميعها إشارات لاستدراج المواطنين للتحول إلى مخربين. وقد تابع فريقي الأحداث في برونكس وصوّرها فوتوغرافيًّا بينما سجلها في بالو ألتو بالفيديو من مواقع مراقبة مخفية[1].

لم نكن قد جهزنا بعد معدات التسجيل في برونكس حتى ظهر أول المخربين وبدؤوا بتجريد السيارة من محتوياتها، يوجّه الأب صارخًا أوامره للأم بإفراغ حقيبة السيارة الخلفية وللابن بتفقد صندوق التابلوه؛ في حين يستخرج هو بطارية السيارة. يتوقف المارّة مشاة وسائقين لسلب سيارتنا البائسة من جميع محتوياتها ذات القيمة قبل أن تبدأ مسابقة التخريب والتي تلتها جوقة من المخربين الذين استكملوا عملية سلب وتحطيم سيارة نيويورك التي لا حول لها ولا قوة.

نقلت مجلة التايم هذه القصة الحزينة عما يتسبب به التهميش تحت عنوان «يوميات سيارة مهجورة»[2] في غضون أيام قلائل سجّلنا ثلاثًا وعشرين عملية تخريب للسيارات تعيسة الحظ التي وضعناها في برونكس. تبين لنا أن المخربين مواطنون عاديون؛ بل كانوا جميعًا من البيض ويرتدون ملابس جيدة، ربما في ظروف أخرى كانوا هم أنفسهم سيطالبون الشرطة بتوفير حماية أكبر وبعدم التساهل مع المجرمين، وإذا أجرينا استطلاع رأي حول ضرورة زيادة تفعيل القانون والنظام في الشارع كانوا «سيوافقون بالتأكيد». وعلى عكس المتوقع لم نرصد سوى واقعة واحدة قام بها أطفال يستمتعون بالتخريب. والمفاجأة الأكبر هي أن كل هذا التخريب حدث في وضح النهار، مما أغنانا عن الفيلم الذي صورناه باستخدام الأشعة تحت الحمراء. فهذا الشعور الداخلي بالتهميش ليس في حاجة إلى الظلام لكي يظهر.

لكن ما مصير سيارتنا المهجورة في بالو ألتو والتي جعلناها معرضة للانتهاك بشكل واضح؟ بعد أسبوع كامل لم نرصد واقعة اعتداء واحدة! مرّ الناس بها رجالاً وركباناً

---

(١) قاد طالب الدراسات العليا سكوت فريزر (*Scott Fraser*) فريق برونكس (*Bronx*) البحثي، وقاد نظيره إيبي إيبسن (*Ebbe Ebbesen*)، فريق بالو ألتو (*Palo Alto*).

(٢) Diary of an Abandoned Automobile. *Time*, October, 1968.

ونظروا إليها، لكنها لم تتعرض حتى للّمس؛ حسنًا، ليس تمامًا، أمطرت السماء يومًا فقام رجل خلوق بإغلاق غطاء محركها طيبةً منه (نعوذ بالله أن يبتلّ المحرك!). عندما قدت السيارة بعيدًا عائدًا إلى حرم ستانفورد الجامعي قام ثلاثة من الجيران بإبلاغ الشرطة عن حادث سرقة محتمل تتعرض له سيارة مهجورة[١]. هذا هو تعريفي الإجرائي «للمجتمع»، أناس يهتمون بما يكفي لجعلهم يأخذون زمام المبادرة عند وقوع حدث غير مألوف أو غير قانوني في نواحيهم. أؤمن بأن هذا السلوك الاجتماعي نابع من توقعهم لإيثار متبادل، سيتصرف الآخرون على نفس النحو من أجل حماية أملاكهم أو معارفهم.

الرسالة التي أردنا إيصالها من هذه التجربة البسيطة هي أن الظروف التي تجعلنا نشعر بأننا مجاهيل لا يعرفنا أحد ولا يكترث لشأننا أحد يمكن أن تغذي سلوكيات مضادة للمجتمع وأنانية. سلّط بحثي السابق الضوء تجاه قدرة عملية حجب هوية الفرد على إطلاق العنان لتصرفات عنيفة ضد الآخرين في المواقف التي تسمح بانتهاك ما يتعارف على كونه من التابوهات، وَسَّعَت تجربة السيارة المهجورة من هذا المفهوم ليشمل كون بيئة التهميش - الحجب مؤشرًا على خرق العقد الاجتماعي.

من اللافت أن هذه التجربة أصبحت الدليل التجريبي الوحيد المستخدم لدعم «نظرية النوافذ المُحطَّمة» في علم الجريمة، وهي النظرية التي تفترض أن الفوضى العامة تُعدّ محفِّزًا ظرفيًا للجريمة (مع وجود المُجرمين بالطبع)[٢]. أية بيئة تسدل ستار الحجب والتهميش على الناس تُضعِف من شعورهم بمحاسبة الذات وبالمسؤولية المدنية عن أفعالهم، وهو ما نراه في كثير من البيئات المؤسسية كالمدارس والوظائف وفي الجيش وفي السجون. يقول أنصار نظرية النوافذ المحطمة أن تخفيف معالم الفوضى الظاهرة وإزالة السيارات المهجورة من الشوارع ومسح الجرافيتي وإصلاح النوافذ المحطمة؛ يمكن أن يقلل من الجرائم والاضطرابات في الشوارع. هناك أدلة على أن هذه المعايير الاستباقية تعمل بشكل فعّال في بعض المدن مثل نيويورك، ولكن لا تعمل على نفس النحو في مدن أخرى.

تزدهر روح المجتمع في أماكن مثل بالو ألتو حيث يهتم الناس بالجودة المادية والاجتماعية لحياتهم كما يمتلكون الموارد اللازمة لتحسينهما. يوجد هنا إحساس بالعدالة

---

(١) كان علينا الحصول على موافقة الشرطة المحلية لنجري تلك الدراسة الميدانية، فلذلك أبلغوني بتخوف الجيران من محاولة سرقة سيارة مهجورة - من قِبلي -.

(٢) نظرية النوافذ المكسورة لتقليل الجريمة عن طريق استعادة النظام في الحي السكني قدمها لأول مرة:
James Q. Welson and George L. Kelling, "The Police and Neighborhood Safety," *The Atlantic Monthly*, March 1982, pp. 22-38.

والثقة يضادّ مشاعر الظلم والسوداوية التي تُفسِد الناس في أماكن أخرى. هنا على سبيل المثال، يثق الناس في قدرة الشرطة على التحكم بالجريمة وتحجيم الشر، وهم مُحقّون في هذا؛ لأن رجال الشرطة هنا يتلقون تدريبًا جيدًا كما أنهم ودودون وأمناء. تسير الشرطة «كما يقول الكتاب»، مما يجعلهم يتصرفون بعدل، حتى - إن نسي الناس، ونادرًا ما يفعلون - أن رجال الشرطة هم مجرد موظّفين يرتدون زيًا رسميًا أزرق اللون وربما تعرضوا للتسريح إذا أفلست المدينة. لكن في مرات نادرة قد يسمح حتى أمثلهم لإحساسه بالسُلْطة أن يتغلب على إنسانيته، وهو أمر لا يحدث عادةً في أماكن مثل بالو ألتو، لكنه حدث على نحو مثير للفضول وشكّل محور القصة التي جعلت تجربة سجن ستانفورد تبدأ بانفجار كبير.

مواجهات بين «النخبة الأكاديمية وأهل البلدة» في ستانفورد وغيرها

كانت السيئة الوحيدة في سجل الخدمات والمواطنة لخيرة بالو ألتو هي فقدهم لثباتهم وهدوئهم في مواجهات خاضوها مع متطرفين من طلبة ستانفورد أثناء الاحتجاج الذي نظموه سنة ١٩٧٠م بسبب تورط الولايات المتحدة في الحرب ضد الصين الهندية. عندما بدأ هؤلاء الطلبة في «تحطيم» مباني الجامعة ساعَدْتُ في تنظيم بضعة آلاف من الطلاب في أنشطة إعمار مناهضة للحرب لأبلغ رسالة مفادها أن العنف والتخريب لم يتسببا سوى في إثارة آراء سلبية في الإعلام ولم يكن لهما أي تأثير على مسار الحرب، خلافًا لأساليبنا الداعمة للسلام والتي يمكن أن تحقق هذا[1]. بكل أسف أصيب رئيس الجامعة الجديد كينيث بيتسر (Kenneth Pitzer) بالهلع وفقد السيطرة مما دفعه لطلب تدخُّل الشرطة، وكما هو متوقع في هذه المواجهات في كل أرجاء أمريكا؛ فَقَدَ العديد من رجال الشرطة اتزانهم المهني وضربوا الشبان الذين كانت حمايتهم من قبل واجبًا من واجباتهم. كانت قوات الشرطة أكثر عنفًا في المواجهات التي وقعت في جامعة ويسكنسون (Wisconsin University) أكتوبر ١٩٦٧م، وجامعة كينت الحكومية (Kent State University) في أوهايو مايو ١٩٧٠م، وجامعة جاكسون (Jackson State University) في مسيسبي أيضًا في مايو ١٩٧٠م. أُطلقت النيران على طلبة الجامعة مما أوقع بينهم جرحى وقتلى على يد الشرطة المحلية والحرس الوطني الذين كانوا في أوقات أخرى هم القائمين على حماية الطلاب.

---

(١) ساعدت في تطوير برنامج لتدريب النشطاء المناهضين للحرب لأخلق دعمًا للمرشحين الداعين للسلام من قبل المواطنين في الانتخابات المقبلة، وكان ذلك باستخدام استراتيجيات نفسية اجتماعية وتكتيكات إقناع وانصياع. وضعتُ وبوب أبيلسون (*Bob Abelsonn*)، أستاذي السباق في جامعة يال (*Yale*)، تلك الأفكار معًا في كتيب تنفيذي:

R. P. Abelson and P. G. Zimbardo, *Canvassingg for Pease: A Manual for Volunteers* (Ann Arbor, Mich Society for the Psychological study of Social Issues, 1970).

(انظر: الهامش[1] للتفاصيل).

(1) حدثت أولى تلك المواجهات العنيفة بين الشرطة والطلبة في الحرم الجامعي في جامعة ويسكنسين (Wisconsin University) في أكتوبر ١٩٦٧م، عندما تظاهر الطلبة ضد تعيين داو كيميكال (Dow Chemical)، صانع قنابل النابالم الشهيرة التي كانت تحرق الأرض والمدنيين في فيتنام. هناك أيضًا تسرع رئيس الجامعة واعتمد على شرطة المدينة لاحتواء مظاهرات الطلبة، فقاموا بدلًا من ذلك بتهييجهم بقنابل الغاز المسيل للدموع وضربهم بالعصي وكل أنواع الأذى. أذكر على وجه الخصوص صورة لمجموعة من أفراد الشرطة يضربون طالبًا كان يزحف على الأرض بمفرده، وكان أغلبهم يخفي هويته خلف قناع الغاز أو يخلع السترة التي تعرّف به، وضفة الكارثة هي التنكر ممزوجًا بالسلطة. كان دافع هذه الحادثة هو تحرك الطلبة في جميع أنحاء الولايات المتحدة. كان أغلبهم طلبة غير مسيسين ولم يشتركوا في أية أنشطة مشابهة من قبل على العكس من نظرائهم الأوروبيين الذين هاجوا حرفيًا في تحدٍّ للقيود التي وضعتها حكوماتهم على حق التعليم المجاني وبعض الشكاوى الأخرى من الظلم.

في أحد أيام مايو ١٩٧٠م في جامعة كينت (Kent University)، بدأ الطلبة في الاحتجاج على تصعيد حرب فيتنام التي شنّها الرئيس ريتشارد نيكسون وهنري كيسنجر. قام بعض الطلبة بإحراق مركز تدريب ضباط الاحتياط. أصدرت الأوامر إلى ألف من جنود الحرس الوطني باحتلال الحرم الجامعي، وأطلقوا قنابل الغاز على الطلبة. حاكم أوهايو، جيمس رودز (James Rhodes) قال في التلفاز: «سنزيل المشكلة، لن نعالج العرض». مهدت تلك العبارة المؤسفة الطريق أمام ردود فعل عنيفة من قبل الحرس تجاه الطلبة الذين صنعوا المشكلة التي يجب «إزالتها»، دون أي تفاوض أو تفاهم.

عندما قامت مجموعة من الطلبة غير المسلحين بالتجمع في يوم ٤ مايو والتحرك تجاه مجموعة من سبعين حارس مسلحين بحراب على رؤوس بنادقهم، ارتعد أحد الحراس وأطلق النار عليهم مباشرة، وفي غمضة عين كانت هناك ردة فعل مفاجئة من بقية الحرس الذين استكملوا إطلاق النار على الطلبة. في ثلاث ثواني، أطلقت سبعة وستون طلقة! قتل أربعة من الطلبة وأصيب ثمانية كانت إصابات بعضهم خطيرة. من بين القتلى أشخاص لم يكونوا حتى في مشهد المواجهة، كانوا في طريقهم إلى دروسهم لكنهم كانوا في مرمى النيران، مثل ساندرا شوير (Sandra Schewer)، التي قتلت من مسافة ٤٠٠ قدم، وبيل شرودير (Bill Schroeder) والذي كان للمفارقة أحد طلبة كلية ضباط الاحتياط وقد أصيب هو الآخر بعيار ناري، لم يكن يحتج، لكنه مجرد ضحية «الأضرار الجانبية».

قال أحد الجنود لاحقًا، «كان عقلي يخبرني بأننا لا نفعل الشيء الصحيح، لكنني أطلقت النار على شخص فقط»، لم يُدن أي شخص في عمليات القتل تلك. ظهرت في صورة أيقونية لذلك الحدث شابة تصرخ في رعب فوق جثمان طالب قتيل مما حرك المشاعر المناهضة للحرب أكثر في الولايات المتحدة.

وقعت حادثة أقل شهرة من مذبحة جامعة كينت بعدها بعشر أيام فقط في جامعة جاكسون في مسيسيبي، حيث قتل ثلاثة من الطلبة وجرح اثنا عشر بعشرات من الطلقات التي انهمرت على الطلبة السود من قبل الحرس الوطني الذي احتل الحرم الجامعي.

على النقيض من تلك المواجهات المميتة كانت أغلب الأنشطة أثناء الإضراب الطلابي الواسع سنة ١٩٧٠م سلمية إلى حد كبير على الرغم من وجود بعض حالات الاضطراب والعنف. في العديد من الحالات كانت سلطات الولايات تأخذ احتياطاتها لتفادي العنف. في كاليفورنيا، أغلق المحافظ رونالد ريجان (Ronald Reagan) ثمانية وعشرين مقرًا جامعيًا وأنظمة جامعة الولاية لمدة أربعة أيام. أرسل الحرس الوطني إلى الحرم الجامعي لجامعات [كنتاكي Kentucky؛ ساوث كارولينا Souch Carolina؛ إلينوي Illinois في أوربانا؛ وويسكنسون في ماديسون Madison]. كانت هناك بعض المواجهات في بيركلي *Berkley*، في جامعة ماريلاند *University of Maryland*، وأماكن أخرى. في كلية فريسنو *Fesno College* كاليفورنيا، دمّرت القنابل مركز كمبيوتر بلغت تكلفة إنشائه مليون دولار.

من مجلة نيويورك تايمز ٢ مايو، ١٩٧٠ (ص١، ٩):

بالأمس تصاعدت المشاعر المناهضة للحرب داخل مقر الحرم الجامعي في أكثر من صورة، وكانت تطورات الأوضاع في كامبوديا هي القضية الأساسية وكانت الأحداث التالية:

جعل العمدة ميرفين ماندل وحدتين للحرس الوطني على أهبة الاستعداد وذلك على خلفية اشتباك الطلبة في جامعة ماريلاند مع الشرطة على إثر هجوم متبادل وكرٍّ وفر على مقرات جهاز تدريب ضباط الاحتياط (R.O.T.C)، داخل حرم الجامعة.

صوَّت حوالي ٢٣٠٠ من طلبة جامعة برينستون وأعضاء هيئتها لصالح الإضراب حتى ظهر يوم الاثنين على الأقل، وذلك عقب انتهاء اجتماع حضروه جميعًا انتهوا فيه إلى مقاطعة الأنشطة الاجتماعية... تطور إضراب الطلبة في جامعة ستانفورد ليتحوّل إلى معركة إلقاء حجارة في الحرم الجامعي «كاليفورنيا» مما دفع الشرطة لاستخدام الغاز المسيل للدموع من أجل تفرقة المتظاهرين.

وقد وصف أحد التقارير الآتية من ستانفورد مستوى العنف بأنه غير مسبوق في هذا الحرم الجامعي الهادئ. استُدْعِيَت الشرطة إلى داخل الحرم الجامعي ثلاث عشرة مرة على الأقل ونفّذت عمليات اعتقال تزيد على الأربعين. حدثت أكثر الاحتجاجات خطورة في ٢٩ و٣٠ إبريل من سنة ١٩٧٠م على خلفية الأخبار المتداولة عن غزو الولايات المتحدة لكمبوديا. في هاتين الليلتين اللتين وصفهما الرئيس بينسر بأنهما «مأساويَّتان» اسْتُدْعِيَت الشرطة من أماكن بعيدة بُعد سان فرنسيسكو، كما شهدتا إلقاء الحجارة واستخدام الغاز المسيل للدموع لأول مرة داخل الحرم الجامعي، وأصيب حوالي خمسة وستين شخصًا من بينهم رجال شرطة.

ظهرت المشاعر العدائية بين المُجتمَع الجامعي في ستانفورد من ناحية؛ وشرطة بالو ألتو وجماعة «الصقور» المتشددة من سُكّان المدينة من ناحية أخرى. كان صراعًا غريبًا، لم تكن مشاعر الحب والكراهية هذه التي جاشت بين المجتمع الأكاديمي وأهل البلدة موجودة بين سكان نيو هافن وطلبة جامعة يال عندما كنت طالب دراسات عليا هناك.

كان رئيس الشرطة الجديد، النقيب جيمس زيرتشر الذي نُصِّب في فبراير ١٩٧١م، متحمسًا لإزالة أية عداوة مترسبة من الأيام التي مزقتها أحداث الشغب في عهد سابقه، ولهذا قبل طلبي بالتعاون في برنامج يهدف إلى «إزالة الاستقطاب» بين شرطة المدينة وطلبة ستانفورد[1]. نظّم رجال شرطة صغار السن يحسنون التحدث بلباقة رحلات للطلبة إلى

---

(١) بدأ البرنامج عن طريق جامعة ستانفورد ومجموعات من الطلبة مدعوًا من مجلس مدينة بالو ألتو الذين مثلت أمامهم في اجتماع للحث على التوصل إلى تسوية.

مرفق إدارة الشرطة الجديد المبهر، وبادلهم الطلبة بدعوتهم لمشاركتهم الوجبات التي تقدمها المدينة الجامعية وحضور المحاضرات، ومن ناحيتي قدّمت اقتراحًا إضافيًا بأن يشاركنا البحث بعض أفراد الشرطة الجدد. كانت دلالة أخرى على أن العقلاء قادرون على الوصول إلى حلول معقولة حتى للمشكلات الاجتماعية التي تبدو مستعصية على الحل. لكن في هذا السياق أسهمت بسذاجة في خلق جيب جديد من جيوب الشرّ في بالو ألتو.

وافقني القائد زيرتشر على أن دراسة كيفية تأقلم الفرد مع دوره الجديد كشرطي ودراسة ما يحدث خلال عملية تحويل المبتدئ إلى «شرطي جيد» هو أمر مثير للاهتمام. «فكرة عظيمة»، هذا كان ردّي، لكنها كانت تحتاج إلى إمكانيات كبيرة لم أكن أمتلكها، كانت لدي منحة صغيرة بغرض دراسة ما يحدث في عملية تكوين حارس السجن، فهو دور أصغر من حيث المهام المكلف بها الحارس ومن حيث المساحة التي يعمل فيها. ماذا عن بناء سجن صغير يصبح فيه بعض رجال الشرطة الجدد حراسًا مُزيّفين ويصبح الطلبة سجناء مُزيّفين كذلك؟ رحّب القائد بهذه الفكرة؛ فبالإضافة إلى ما قد أتعلمه أنا من هذه التجربة رأى القائد أن هذا قد يكون تدريبًا جيدًا لبعض رجاله، ولذلك وافق على إشراك بعض المستجدين منهم في تجربة السجن المزيف. كنت سعيدًا لمعرفتي أنني بهذه الخطوة أستطيع أن أطلب منه أن يقوم أفراد الشرطة بعمليات اعتقال مزيفة للطلبة الذين سيصبحون سجناء عما قريب.

أخلف الرئيس وعده باستخدام رجاله كحراس سجن مزيفين قبل أن نصبح مستعدين لبدء التجربة بأيام قليلة، وبرّر ذلك بعدم وجود إمكانية لاستبدال غيرهم بهم في الأسبوعين المقبلين، لكنه كان متحمسًا وتطوع لتقديم المساعدة بأية طريقة أخرى ممكنة.

اقترحت عليه أن الطريقة الأمثل لبَدْء الدراسة بأكبر قدر من الواقعية والحذاقة هي أن ينفذ ضباطه عمليات اعتقال للطلبة الذين سيصبحون بعدها سجناء مزيفين. لن يأخذ الأمر أكثر من ساعات قليلة من وقت راحتهم صباح يوم أحد، وبالتأكيد سيكون لسلب المتطوعين حريتهم على حين غرّة كما لو كانت اعتقالات حقيقية أثرٌ كبيرٌ في نجاح البحث بدلاً من أن يأتوا إلى ستانفورد بإرادتهم ويتخلوا عن حريتهم طواعية كجزء من التجربة. قَبِل القائد هذا على مضض ووعدني بأن الرقيب المنوطة به الخدمة سيُكلّف فريقًا واحدًا لهذا الغرض صباح يوم الأحد.

كارثة: المهمة على وشك أن تحبط من قبل أن تبدأ

كان الخطأ الذي وقعتُ فيه هو عدم حصولي على هذا التأكيد مكتوباً، يحتاج الواقع إلى وثائق مكتوبة (إذا لم تصوّر أو تُسجَّل صوتيًا). عندما تيقنت من هذه الحقيقة يوم

السبت واتصلت بالقسم للحصول على تأكيد مكتوب؛ كان القائد زيرتشير في إجازة بالفعل لمدة أسبوع، وكان هذا نذير سوء.

يوم الأحد، وكما توقعتُ، لم يكن لدى الرقيب أية نية لإلزام إدارة شرطة بالو ألتو باعتقال جماعي مفاجئ لمجموعة الطلبة على خلفية انتهاكات مزعومة للقانون الجنائي، بالتأكيد ليس بدون تصريح مكتوب من القائد. لم يكن هناك من سبيل لجعل هذا الرجل عتيق الطراز يشترك في أية تجربة يجربها شخص مثلي وصفه نائب رئيسه، سير أجنيو، بأنه «مزهو بعقله عديم الفائدة». بالتأكيد هناك أشياء يمكن أن يقوم بها ضباطه أكثر أهمية من لعب «شرطي - حرامي» كجزء من تجربة غبيّة ما؛ فمن وجهة نظره تعني التجارب النفسية التدخل في شؤون الآخرين وإماطة اللثام عن أشياء تخصهم. لعلّه ظن أن علماء النفس يستطيعون قراءة عقول الأشخاص بمجرد النظر في عيونهم فلهذا كان يتجنب النظر إليَّ حين قال: «أعتذر عن هذا يا بروفيسور، كنت أود مساعدتك لكن القواعد هي القواعد؛ فليس من صلاحياتي إعادة تعيين الأفراد في مهمة جديدة بدون تصريح رسمي».

قبل أن يستدرك بقوله: «غدٌ يوم الاثنين، سيكون الرئيس هنا»؛ شعرت أن هذه الدراسة المعدّة جيداً سوف تنتهي قبل أن تبدأ. كل شيء كان جاهزًا، أعددنا سجننا المزيّف بعنايّة شديدة في قبو قسم علم النفس في ستانفورد، واختار الحراس زيّهم الرسمي وكانوا ينتظرون استقبال أول السجناء بشغف، كما قمنا بالفعل بشراء وجبة الغداء المخصّصة لليوم الأول، كافة ملابس السجناء حاكتها يدويًّا ابنة مساعدتي، وزودنا المنشآت بآلات التصوير وزرعنا الميكروفونات في زنازين السجناء، قمنا أيضاً بإخطار إدارة الصحة بالجامعة والإدارة القانونية وقسم مكافحة الحرائق وشرطة الحرم الجامعي، وانتهينا كذلك من ترتيبات استئجار الأسرة، عمل كبير تم إنجازه من أجل تغطية اللوجستيات الضخمة المطلوبة للتعامل مع ما لا يقل عن دزينتين من المتطوعين لمدة أسبوعين، نصفهم يعيش في سجننا طوال الليل والنهار بينما يعمل الآخرون وفقًا لنوبات عمل تمتد ثماني ساعات، لم يسبق لي أبدًا أن قمت بتجربة استمرت لأكثر من ساعة بالنسبة للمتطوع والجلسة، وبعد كل ما قمنا به يمكن لكلمة «لا» يقولها أحدهم أن تقضي على كل شيء.

ولأنني تعلّمت أن الحذر هو الجزء الأفضل في المعرفة العلمية وأن وضع الخطط البديلة هو أفضل سمات الشاب الحكيم الآتي من برونكس؛ فقد توقعت هذا السيناريو بمجرد علمي أن النقيب زيتشير ابتعد عن المشهد، ولهذا الغرض نجحت في إقناع مخرج من تليفزيون سان فرنسيسكو من محطة (KRON) بتصوير الاعتقالات المفاجئة لتصبح أحد العناوين البارزة في النشرة المسائية. اعتمدت على قوة الإعلام في تخفيف الممانعة الرسمية وعلى غواية الاستعراض التليفزيوني لضمّ الضباط الذين نفذوا الاعتقال أمام الكاميرا إلى صفي:

«من المؤسف أننا لن نتمكن من إمضاء اليوم على النحو الذي يتوقعه منا القائد. لدينا مصور تليفزيوني هنا من القناة الرابعة مستعدّ لتصوير الاعتقالات لعرضها الليلة في النشرة المسائية، قد تكون هذه دعاية جيدة للإدارة أمام الجمهور لكن ربما لن يغضب القائد كثيرًا من ممانعتك لسيرنا وفقًا للخطة».

«اسمع، لم أقل بأني ضدها، كل ما في الأمر هو أني غير واثق من قبول رجالنا لهذه الخطة، فلا يمكننا ببساطة أن نقطعهم عن عملهم، أنت تعرف هذا».

يا للعجب، اسمك في نشرة الأخبار

«لماذا لا نترك الأمر للضباط الموجودين هنا معنا ليقرروا بأنفسهم؟ فإن لم يمانعوا الظهور على شاشة التلفاز أثناء قيامهم باعتقالات روتينية سنستمر بالطريقة التي كان القائد ليوافق عليها».

«ليس بالأمر الكبير أيها الرقيب»، قال الضابط الصغير جو سباراكو وهو منهمك في تصفيف شعره الأسود المموج بينما كان ينظر إلى المُصَوِّر وكاميرته الضخمة المسترخية على كتفه. «إنه صباح أحد ثقيل، ويبدو الأمر مشوقًا».

«حسنًا، لا بد أن الرئيس يعلم ما يفعله؛ لا أريد أن أكون سبب المشكلة طالما أن كل شيء مُعدٌّ بالفعل. لكن اسمع، يجب أن تكون مستعدًا للرد على أية مكالمات وإنهاء التجربة بسرعة إذا احتجت إليك».

قاطعت حديثهما: «أيها السادة الضباط، هل يمكنكم تهجئة أسمائكم للمذيع حتى يتمكن من نطقها بشكل صحيح أثناء عرض تقرير الأخبار الليلة؟» كنت بحاجة للتأكد من تعاونهم معنا حتى اعتقال كافة السجناء ومرورهم بإجراءات الاحتجاز الرسمية هنا في المقر الرئيسي مهما حدث في بالو ألتو.

«هي بالتأكيد تجربة مُهِمّة حتى تحظى بتغطية تلفزيونية، أليس كذلك يا بروفيسور؟» سأل الضابط بوب (Bob) وهو يعدّل من ربطة عنقه ويتحسس مسدسه بتلقائية.

«أعتقد أن هذا ما يظنه العاملون بمحطة التلفاز»، رددت عليه بحذر بسبب إدراكي لضعف موقفي.

«ما الخطب في الاعتقالات المفاجئة على يد الشرطة، إنها بالأحرى تجربة غير مألوفة يمكن أن تكون مهمة التبعات، وربما هذا هو السبب الذي جعل القائد يتيح لنا مثل هذه الفرصة. ها هي أسماء التسعة المشتبه بهم الواجب اعتقالهم، سأقود سيارتي خلف سيارة فريقكم بصحبة كريج هاني مساعدي طالب الدراسات العليا. قودوا ببطء حتى يتسنى للمصور تسجيل كافة تحركاتكم، يجب أن نعتقل متطوعًا

واحدًا كل مرة وقوموا بإجراءاتكم المعتادة، اقرَؤوا عليهم قواعد ميراندا[١] وقوموا بتفتيشهم وتقييدهم بنفس الطريقة المتبعة مع أي مشتبه به قد يمثل خطرًا. بالنسبة لأول خمسة ستكون التهمة هي السرقة وانتهاك المادة ٤٥٩ من القانون الجنائي، ثم لتكن السرقة تحت تهديد السلاح هي التهمة الموجهة للأربعة الباقين وفقًا للقِسْم ٢١١ من القانون، ثم عودوا بهم إلى المقر الرئيسي من أجل القيد وأخذ البصمات وملء بطاقات التعريف الجنائية وأي إجراء اعتيادي بالنسبة لكم».

«بعد ذلك ضعوا كل واحد في غرفة احتجاز ريثما تعتقلون المشتبه به التالي في القائمة، ثم سننقل السجين من مقركم إلى السجن الذي قمنا بصنعه. الإجراء الوحيد غير المعتاد المطلوب منكم هو تعصيب عيني كل سجين أثناء وضعه في غرفة الحجز بواحدة من هذه العُصَابات؛ فلسنا نرغب في أن يرانا أي سجين أو أن يعرف وجهته أثناء نقله. سينفذ كريج عملية النقل مع مساعدي الآخر كيرت بانكس ومعهم فاندي أحد حراسنا».

«يبدو الأمر جيدًا يا بروفيسور، بإمكاني أن أتدبر هذا أنا وبوب، لا مشكلة».

نأتي الآن إلى القصة الأساسية[٢]

نترك مكتب الرقيب وننزل الدرجات لفحص غرفة التسجيل، جو وبوب وكريج والمُصَوِّر وبيل وأنا. كل شيء جديد، كانت هذه الوحدة جديدة تمامًا، وقد أنشئت للتو داخل تجمع المباني الإدارية لبالو ألتو على مسافة قريبة من السجن القديم لكن لا تشبهه في شيء؛ فمبنى السجن القديم قد أصبح متهالكًا تمامًا، لا بسبب كثرة استخدامه ولكن لقِدَمه. أردت الإبقاء على مشاركة الضباط والمصور في الإجراءات من أول عملية اعتقال إلى آخرها بغية الحفاظ على تقليدية العمليات إلى أقصى قدر ممكن. كنت قد أوجزت بعض المعلومات لمراسل التليفزيون في وقت سابق حول الغاية من الدراسة ولكن فعلت

---

(١) (Miranda Rights): الحقوق التي تُلقيها الشرطة الأمريكية على أي مشتبه به عند اعتقاله. (المترجم).

(٢) وصف التجهيز لاعتقالات يوم الأحد من قبل شرطة بالو ألتو ليس مبنيًا على وثائق مسجلة لما حدث في هذا الوقت، ولكن على ذاكرتي مع نية خلق قصة متسقة. بجمع تصويري للإجراءات التجريبية مع المنطق النظري ما فسرته سابقًا للنقيب زيرشر وأخبرت به معدّ محطة (KRON) لأحظى بتعاونه في تصوير عمليات التوقيف، وما قلته للمصور قبل وصولنا إلى قسم الشرطة، كذلك ما أتذكر أنني قلته لضابط التوقيف في هذا الصباح. إنها محاولة لتوصيل معلومات شديدة الأهمية للقارئ بدون إهدار وقت في التفصيل. كان الدافع الأساسي لهذه التجربة مبنيًا على أساس نظري، وهو فحص التأثير النسبي للنزعات المزاجية أو العوامل الشخصية مقابل الضغوط الظرفية من أجل فهم التحولات السلوكية التي تحدث داخل سياقات سلوكية جديدة. سيتضح هذا في الفصل التالي.

ذلك بشكل سريع لأن تركيزي كان منصبًّا على تجاوز المعارضة المتوقعة من الضابط الرقيب المسؤول وقتئذ. تبيّنتُ ضرورة أن أوضح لهم جميعًا بعض التفاصيل الإجرائية لهذه الدراسة وكذلك بعض الأسباب الدافعة إلى القيام بمثل هذه التجربة، قد يساعد هذا على خلق الإحساس بروح الفريق وإظهار اهتمامي بالإجابة على أسئلتهم.

«هل يعرف هؤلاء الفتية أنهم سيُعتقلون؟ هل نخبرهم أن هذا جزء من التجربة أم ماذا نفعل؟».

«جو، لقد تطوعوا جميعًا لدراسةٍ عن حياة السجن، وجاؤوا بناءً على الإعلان الذي وضعناه في الجرائد بحثًا عن طلبة جامعيين يرغبون في تقاضي خمسة عشر دولار يوميًا للمشاركة في تجربة تستمر مدة أسبوعين عن علم نفس السجن، و. . .».

«أتريد أن تقول أن هؤلاء الفتية سيتقاضون خمسة عشر دولارًا يوميًا نظير لا شيء سوى بقائهم داخل غرفة الاحتجاز لمدة أسبوعين؟ ربما نتطوع أنا وجو لهذا العمل، يبدو مالاً سهل الجني».

«ربما تكون أموالاً سهلة الجني وربما - إن ظهر لنا ما يثير الاهتمام - أعدنا التجربة مرة أخرى مستعينين ببعض الضباط ليقوموا بدور الحراس والسجناء، هذا ما قلته لرئيسك».

«حسنًا، يمكنك الاعتماد علينا حال قيامك بهذا».

«كما سبق وقلت، الطلبة التسعة الذين توشكون على اعتقالهم كانوا جزءًا من مجموعة كبيرة يصل عددها إلى مائة شاب استجابوا لإعلاناتنا في بالو ألتو تايمز وكذلك ستانفورد دايلي. استبعدنا غريبي الأطوار ومن لهم سوابق جنائية من أي نوع، وكذلك من لديه مشاكل طبية أو عقلية. وبعد تقييم نفسي يستمر لمدة ساعة وكذلك لقاءات مُرَكَّزَة قام بها مساعداي كريج هاني وكيرت بانكس؛ اخترنا أربعة وعشرين من هؤلاء المتطوعين ليكونوا موضوع بحثنا».

«حاصل ضرب أربعة وعشرين في خمسة عشر دولارًا في أربعة عشر يومًا، هذه أموال كثيرة ستدفعها، لن تكون من مالك الخاص، أليس كذلك يا دكتور؟».

«المبلغ يصل إلى ٥٠٤٠$، لكن الدراسة يدعمها مكتب الأبحاث البحرية (Office of Naval Research) لدراسة السلوكيات المضادة للمجتمع، ولذا لن يكون عليّ دفع الرواتب نقدًا بنفسي».

«هل أراد جميع الطلاب المشاركين أن يكونوا حراسًا؟».

«حسنًا، في الحقيقة لا، لم يرغب أي منهم في أن يكون حارسًا، على العكس جميعهم فضّلوا دور السجين».

«كيف هذا؟ أرى أن دور حارس السجن أكثر مرحًا وأقل إزعاجًا، على الأقل بالنسبة

[illegible] خمسة عشر دولارًا للعمل كسجين لمدة أربعة وعشرين ساعة هي لا شيء. الأفضل هو الدفع للحراس أثناء قيامهم بنوبات عملهم المعتادة».

«هذا صحيح، ينوي الحراس العمل نوبات تمتد لثماني ساعات منقسمين إلى ثلاثة أطقم حراسة، كل فريق منهم مكون من ثلاثة حراس يعملون على مدار الساعة لتغطية تسعة سجناء، لكن سبب تفضيل هؤلاء الطلبة لدور السجناء هو إمكانية أن يصبحوا سجناء يومًا ما على خلفية التهرب من التجنيد أو القيادة تحت تأثير الكحول مثلاً، أو الاعتقال على خلفية التظاهر للمطالبة بحقوق مدنية أو التظاهر ضد الحرب. أغلبهم قالوا أنهم لم يتخيلوا أنفسهم أبدًا في دور حارس السجن، فلم يرتادوا الجامعة لينتهي بهم الأمر حراس سجون، وعلى الرغم من أنهم جميعًا شاركوا في المقام الأول من أجل المال؛ إلا أن بعضهم توقع أن يتعلم أيضًا أشياء ربما تفيده من خلال تعامله مع وضع السجن الجديد هذا».

«كيف اخترت الحراس؟ أراهن أنك اخترت ضخام البنية».

«لا يا جو، كان توزيع جميع المتطوعين على الدورين عشوائيًا، أقرعنا بينهم باستخدام العملة المعدنية، إذا وقعت العملة على الصورة كان حارسًا، وإذا وقعت على الكتابة كان سجينًا. أخبرنا الحراس أمس أن قرعتهم أصابت الصورة، أتوا إلى سجننا الصغير في قبو قسم علم النفس بجامعة ستانفورد لمساعدتنا في وضع اللمسات النهائية حتى يشعر كل منهم أنه في مكانه، اختار كل منهم زيًا من متجر بواقي مستلزمات الجيش، والآن ينتظرون بداية المهمة».

«هل تلقوا أي تدريب من أي نوع ليكونوا حراسًا؟».

«تمنيتُ أن يكون لدينا الوقت الكافي لهذا لكن كل ما فعلناه هو إعطاؤهم توجيهًا موجزًا بالأمس ولم يتلقوا أي تدريب خاص حول كيفية تأدية مهمتهم الجديدة. الشيء الأساسي بالنسبة لهم هو الحفاظ على القانون والنظام وعدم استخدام العنف ضد السجناء، وكذلك عدم السماح لهم بالهروب. حاولت أيضًا أن أعلمهم بنوعية النفسية التي نريد خلقها في السجناء، نريد السجناء الذين لا حول لهم ولا قوة».

«قيل للفتيان الذين ستقومون باعتقالهم أن ينتظروا في المنزل أو في المهجع أو في أي منزل قريب حال سكنهم في أماكن بعيدة وأننا سنتواصل معهم هذا الصباح».

«وهذا ما سيحدث قريبًا، أليس كذلك، جو؟ سنريهم شيئًا حقيقيًا تمامًا».

«في الحقيقة، هناك بعض الأشياء غير الواضحة بالنسبة لي».

«طبعًا، قل يا جو وأنت أيضًا يا بيل، إذا كان هناك ما تريد معرفته لننقله لاحقًا لمن سينتجون عرض الليلة الذي ستظهر فيه».

«سؤالي يا دكتور هو: ما هو الهدف من المرور بكل تلك المصاعب المصاحبة لإعداد سجن خاص في ستانفورد واعتقال هؤلاء الطلبة ودفع كل تلك الأموال بينما نحن بالفعل لدينا من السجون ما يكفي وكذلك من المجرمين؟ لماذا لا نكتفي بمراقبة ما يحدث في سجن البلدة أو ما يجري في سانت كوينتين؟ ألن يكون هذا كافيًا لكي تحصل على المعلومات التي تريد عن الحرس والمساجين في سجن حقيقي؟»

أصاب جو صلب الموضوع؛ فوجدتني وقد عدتُ على الفور لممارسة دوري كأستاذ جامعي شغوف بمحاضرة المستمعين الفضوليين فقلت له:

«ما أهتم به حقيقة هو اكتشاف معنى أن تكون سجينًا أو حارس سجن من الناحية السيكولوجية، ما هي التغيرات التي يمر بها الشخص أثناء التَكَيُّف مع دوره الجديد؟ هل من الممكن أن يكتسب هوية جديدة مختلفة عن شخصيته المعتادة في وقت قصير يمتد لأسابيع قليلة فحسب؟»

«هناك دراسات حول حياة السجن الفعلية قام بها علماء اجتماع وعلماء جريمة، لكنهم يعانون من بعض المعوقات الحقيقية. لم يحصل هؤلاء الباحثون أبدًا على كامل الحرية في مراقبة كل مجريات الحياة في السجن، غالبًا ما يكون نطاق ما يرصدونه محدودًا وتكون قدرتهم على الوصول إلى السجناء محدودة وقدرتهم على الوصول إلى الحراس أكثر محدودية بعد. هنالك صنفان فقط من البشر يشغلون السجون؛ طاقم العمل والسجناء، أما الباحثين فجميعهم يعاملون بوصفهم غرباء ينظر لهم جميع عاملي السجن بشيء من الارتياب إن لم يكن انعدام الثقة. لا يُطْلَعون إلا على ما يُسمح لهم برؤيته في جولات منظمة يندر أن تجاوز السطح من حياة السجن. نريد أن ننظر بعمق أكبر في بنية علاقة السجين ـ السجان عن طريق إعادة خلق البيئة النفسية للسجن مع الوجود في مكان يسمح لنا برصد وتسجيل وتوثيق كامل عملية تمكين عقلية السجين والحارس».

قال بيل مقاطعًا:

«نعم، أرى أن كلامك منطقيّ، لكن الاختلاف الواضح بين سجنك في ستانفورد والسجون الحقيقية يكمن في نوعية السجناء والحراس الذين تبدأ معهم. في سجن حقيقي؛ نتعامل مع جنائيين وشباب عنيف لا يتردد في خرق القانون أو مهاجمة الحراس، وعليك أن تأتي بحراس شديدي الصرامة من أجل إبقائهم تحت السيطرة، حراس مستعدين لدق الرؤوس إذا استلزم الأمر، أما أولاد ستانفورد اللطاف فلا يملكون وضاعة ولا قسوة ولا قوة الحراس أو السجناء الحقيقيين».

قال بوب:

«دعني ألقي قنبلة، كيف نتوقع من فتيان صغار في الجامعة يعرفون أنهم سيتقاضون خمسة عشر دولارًا ألا يكتفوا بالراحة لأسبوعين والاستمتاع واللعب على حسابك يا دكتور؟».

«أولاً، يجب أن أذكر أن المتطوعين ليسوا جميعًا من طلبة ستانفورد، وإنما قليل منهم فقط. الباقون يأتون من كل أنحاء البلدة بل ومن كندا أيضًا، فكما تعلم يأتي الكثير من الشباب إلى منطقة الخليج وقت الصيف، وقد قمنا بتعيين من كانوا يُنْهُون الدورة الدراسية الصيفية في ستانفورد أو بيركلي، لكنك محقّ في أن سجن بلدية ستانفورد لن تسكنه النوعية المعتادة من السجناء، خرجنا عن المألوف وقمنا باختيار الشباب الأصحاء العاديين الذين يُبْدُوْن سلوكًا طبيعيًا في جميع النواحي النفسية التي اختبرناها. وفي وجود كريج وطالب دراسات عليا آخر هو كيرت بانكس؛ اخترت عيّنتنا الأخيرة بحرص شديد من بين كل أولئك الذين عقدنا معهم اللقاءات».

كان كريج الذي كان ينتظر بفارغ الصبر إشارة من مشرفه ليحصل على كلمة جانبية متأهبًا لإضافة الطرح الأساسي:

«عندما نرصد بعض الأحداث في سجن حقيقي، على سبيل المثال حادثة طعن بين سجناء أو قيام أحد الحراس بضرب سجين ما، لا نتمكن من تحديد قدر مسؤولية كلاً من الشخص أو الظرف الخاص. بالتأكيد هناك من بين السجناء من هو مصاب بعلة العنف الاجتماعي، وهناك بعض الحراس الساديين، لكن هل شخصياتهم هي المسؤولة عن كل أو حتى معظم ما يجري في السجن؟ أشك في هذا، علينا أن نأخذ الموقف في الاعتبار».

جعلني طرح كريج البليغ ابتسم ابتسامة عريضة، فقد كان لدي نفس الشك، لكن أكّده لي ما تقدم به كريج إلى الضباط بشكل مرتّب للغاية، بنيتُ على ما قاله بأفضل أسلوب أتّبعه عند إلقائي لمحاضرات قصيرة:

«المنطق هو ما يلي: سنسعى في بحثنا إلى التفريق بين ما يصدر عن الناس حال وجودهم في السجن، وبين ما يحدثه السجن من تغيرات في الموجودين فيه، وعن طريق الانتقاء الاستباقي اخترنا شبابًا متعلمًا من الطبقة المتوسطة، مجموعة متجانسة من الطلاب المتشابهين فيما بينهم من عدة جوانب، وبتوزيعهم عشوائيًا على الدورين نبدأ مع «حراس» و«سجناء» متشابهين إلى حدّ إمكان تبديل الأدوار بينهم؛ فالسجناء ليسوا أكثر عنفًا أو عدائية أو تمردًا من الحراس، ولا الحراس أكثر تسلطًا وبحثًا عن السلطة. حتى هذه اللحظة؛ الحراس والسجناء متشابهون، لم يرغب أي منهم في أن

يكون حارسًا ولم يرتكب أحد منهم أية جريمة يمكن أن تبرر وجوده في السجن أو معاقبته. هل سيستمر غياب الفوارق بين هؤلاء الفتية مدة أسبوعين؟ هل سيغير الدور الذي سيؤدونه من شخصياتهم؟ هل سنشاهد أية تحولات في سماتهم الشخصية؟ هذا ما نسعى لاكتشافه».

أضاف كريج:

«هناك منظور آخر، وهو أنك تضع أشخاصًا صالحين في وضع فاسد لترى لمن ستكون الغلبة»

«شكرًا كريج، لقد أعجبني هذا الرأي»

قال المصور بيل متحمسًا:

«أعتقد أن المخرج سَيُحب هذا في عرض الليلة لإحداث نوع من التشويق. لم يكن لدى المحطة مُعِدّ إذاعة متاح هذا الصباح، فكان عليّ أن أقوم بتجهيز الزوايا المناسبة لتسجيل عملية الاعتقال إلى جانب عملي كمصور. بروفيسور، الوقت يمر وأنا جاهز، هل يمكن أن نبدأ الآن؟»

«بالطبع بيل، لكنني لم أُجِب بعد على سؤالك الأول عن التجربة يا جو».

«وما كان السؤال؟»

«إذا ما كان السجناء على علم بأنهم سيعتقلون كجزء من التجربة، والجواب هو لا، كل ما قلناه لهم هو أن يتأهبوا لبدء التجربة هذا الصباح، من الممكن أن يظنوا أن الاعتقال هو جزء من البحث حيث أنهم لم يرتكبوا أيًا من الجرائم التي سيتهمون بها، وإذا سألك أي منهم عن التجربة فاجعل إجابتك مبهمة فلا تقل نعم أو لا، ربما تكتفي بقول أنك تؤدي واجبك وكأن الاعتقال حقيقي وتجاهل أية أسئلة أو اعتراضات».

لم يتمكّن كريج من كتم إضافته:

«أي مثل أي شيء آخر سيمرون به خلال التجربة، يمزج الواقع بالوهم، والادعاء بالمصداقية».

كان كلامًا مُنمّقًا نوعًا ما، ولكن يستحق أن يقال بكل تأكيد، وقبل أن يُطلِق جو سارينة الإنذار الموجودة أعلى سيارة الشرطة البيضاء وجدته يضع نظارته الشمسية الفضية العاكسة للضوء، ذلك النوع الذي كان يرتديه الحارس في فيلم لوك الشجاع (Cool Hand Luke) والذي يجعل من رؤية عينيك أمرًا متعذرًا. ابتسمت ابتسامة عريضة وكذلك فعل كريج لأن حرّاسنا في السجن سيرتدون نفس النظارات التي تحجب الشخصية كجزء من

محاولتنا خلق حالة من سلب الذاتية. ها قد بدأ الفن والحياة والبحث العلمي بالتمازج معًا.



اعتقال الشرطة لأحد المشاركين في التجربة

هناك شرطي يقرع جرس الباب!

«أمي، أمي، هناك شرطي على الباب وسوف يعتقل هابي (Hubbie)» صرخت الفتاة الصغيرة ابنة السيد ويتلو (Wittlow).

لم تسمع السيدة دكستر ويتلو (Dexter Wittlow) الرسالة بشكل جيد، لكن صراخ ابنتها أكد لها وجود مشكلة تستدعي تدخل الأب. «من فضلك سلي أباك أن ينظر في الأمر». كانت السيدة ويتلو منهمكة في مسألة ضميرها، فقد كانت لديها العديد من الشكوك حيال التغيرات الطارئة على خدمات الكنيسة التي عادت منها لتوها. كانت كثيرة التفكير في هابي مؤخرًا، فقد كانت تُهيئ نفسها لحياة يقتصر فيها مقدم فتاها الوسيم أجعد الشعر أزرق العينين لزيارتهم على مرتين سنويًا. كانت تصلي سرًا من أجل أن تخفّ غلواء العاطفة المتقدة بين هابي وفتاته في ثانوية بالو ألتو وهي إحدى مزايا ذهابه إلى الجامعة، «فالبعيد عن العين بعيد عن القلب». فيما يتعلق بالرجال فينبغي الحصول على مسيرة عملية جيدة قبل خطط الزواج المتسرعة، هذا ما كانت تقوله له باستمرار.

العيب الوحيد الذي كانت تجده في هذا الفتى الجدير بالحب هو تماديه في بعض الأحيان، خاصة عندما يكون مع أصدقائه. في الشهر الماضي مثلاً قاموا بتلوين البلاط في سطح المدرسة الثانوية كنوع من المقالب، وفي مرة أخرى قاموا بنزع إشارات الطريق

ووضعها في اتجاهات معاكسة. «هابي، إنه أمر سخيف وغير ناضج، وقد تعرض نفسك للمتاعب بسببه».

«أمي، والدي ليس في المنزل، لقد ذهب إلى تدريب الجولف مع السيد ماردسين، والشرطة تعتقل هابي الآن في الأسفل».

«هابي ويتلو، أنت مطلوب على خلفية انتهاكك للقانون الجنائي رقم ٤٥٩ بسرقة مقر سكن. سآخذك إلى مقر الشرطة الرئيسي من أجل تسجيل قيدك كسجين، وقبل أن أضع الأصفاد في يديك يجب اطلاعك على حقوقك كمواطن».

كان جو منتبهًا لوجود كاميرا التلفاز التي تسجل تلك الاعتقالات التقليدية للأجيال القادمة، وكان شرطيًا مثاليًا يتصرف على نحو هادئ مثل شخصية جو فريداي في مسلسل (Dragnet).

«دعني أوضح بعض الحقائق، لديك حق البقاء صامتًا ولست مطالبًا بالإجابة عن أية أسئلة، أي شيء ستقوله يمكن أن يستخدم ضدك في المحكمة، لديك حق استشارة محامٍ قبل الإجابة عن أية أسئلة، ومن الممكن أن يحضر المحامي أثناء الاستجواب، وإذا لم يكن لديك موارد مالية كافية لتعيين محامٍ سيوفر لك مكتب المدعي العام محاميًا لتمثيلك خلال كافة الإجراءات، هل استوعبت حقوقك؟ حسنًا، أما وقد عرفت حقوقك فسآخذك الآن إلى قسم الشرطة المركزي من أجل تسجيل الاعتقال على خلفية الجريمة المتهم بها. الآن تعال معي بهدوء إلى سيارة الدورية».

صُعقت السيدة ويتلو لرؤية صغيرها يخضع للتفتيش الذاتي والتقييد والدفع تجاه سيارة الشرطة مثله مثل المجرمين الذين تشاهدهم في نشرة الأخبار. استجمعت رباطة جأشها وتوجهت إلى الضابط وسألته بوقار: «فيم كل هذا يا حضرة الضابط؟».

«سيدتي، لدي أوامر باعتقال هابي ويتلو لاتهامه بالسرقة، هو...».

«أعرف حضرة الضابط، أخبرته ألا ينتزع إشارات الطريق وألا يسلك مسلك أولاد أسرة جينينجز».

«أمي، أنت لا تفهمين هذا جزء من...».

«حضرة الضابط، هابي ولد طيب، سيسعدني أنا ووالده أن ندفع تكاليف استبدال أي شيء قد أُخذ من مكانه، كان مجرد مزاح ولم يكن ينوي أي سوء».

تجمّع الآن حشد قليل من الجيران على مسافة تحترم خصوصية جيرانهم، ما جاء بهم هو مشهد تتعرض فيه سلامة شخص وأمنه للتهديد. بذلت السيدة ويتلو مجهودًا في تجاهلهم

حتى لا يشتتها هذا عن مهمتها الأساسية في تملق رجل الشرطة ليكون أكثر لطفًا مع ولدها. «لو كان جورج هنا كان سيعرف كيف يتعامل مع الموقف». (هذا ما جال بخاطرها) «هذا ما يحدث عندما يأتي الجولف قبل الرب يوم الأحد».

قال جو أثناء توجهه مع المشتبه به تجاه سيارة الشرطة: «حسنًا؛ فلنتحرك، لدينا جدول مزدحم وما زالت أمامنا اعتقالات كثيرة لتتمها هذا الصباح»،

«أمي، أبي يعرف كل شيء. سلبه فقد وقّع على الموافقة، كل شيء على ما يرام لا تقلقي، هو مجرد جزء من. .».

اجتذب صوت سارينة دورية الشرطة وأضواؤها المزيد من الجيران الفضوليين لمواساة السيدة ويتلو التي يبدو ابنها ولدًا لطيفًا.

لأول مرة يغيب عن هابي الشعور بالارتياح بعد أن رأى توتّر أمّه، وشعر بالذنب لجلوسه وحيدًا مقيدًا في المقعد الخلفي لسيارة الشرطة خلف الستارة الشبكية التي تفصل بينه وبين الشرطي. «إذًا هذا هو ما تشعر به عندما تكون مجرمًا»، هذا ما كان يجول في خاطره حين تورّدت وجنتاه فجأة بسبب شعوره بالخزي عندما أشار جاره «بالمر» ناحيته متعجبًا مع ابنه، «ما الذي يحدث في هذا العالم؟ الآن ابن ويتلو هو من يرتكب الجرائم».

وفي قسم الشُرطة استُكمِلَت إجراءات التسجيل بالطريقة المعتادة بسبب تعاون المشتبه به. اهتم الضابط بوب بإنهاء إجراءات قيد هابي بينما كان جو يناقشنا حول سير عملية الاعتقال. أعتقد أنها أخذت وقتًا طويلاً إلى حد ما إذا أخذنا في الاعتبار أنه ما زالت أمامنا ثمانية اعتقالات أخرى لتنفيذها. مع ذلك كان المصور يرغب في أن تسير العملية بصورة أكثر بطئًا بحيث يتمكن من الحصول على لقطات أفضل، فكل ما يحتاجه هو تصوير جيد لعدد قليل من الاعتقالات حتى ينقل الحدث. اتفقنا على تخطيط الاعتقال التالي حتى نحصل على لقطات جيدة، لكن لن نهتم بجودة التصوير بعدها، ستأتي التجربة في المقام الأول وسنلزم أنفسنا بتسريع عملية الاعتقال. ويتلو وحده استغرق منا ثلاثين دقيقة، هذا المعدل سيجعلنا نُمضي معظم اليوم في الاعتقالات فقط.

كنتُ مدركًا أن تعاون الشرطة مرتبط بوجود التغطية الإعلامية ولهذا كنت متخوفًا من عزوفهم عن إتمام بقية الاعتقالات بمجرد انتهاء التصوير. على أهمية مراقبة هذا الجزء من الدراسة؛ إلا أنني كنت أعلم أن نجاحه ليس بيدي. من الوارد ألا تسير كثير من الأشياء كما خُطط لها، وهو أمرٌ توقعته وعملتُ على تجنبه، ولكن هناك دائمًا بلا شك أحداث مفاجئة يمكن أن تطيح بأفضل الخطط. فعالم الواقع[1] أو «الميدان» كما يسميه علماء

(١) اي خارج الأجواء التجريبية المُحكمة داخل المعمل أو المختبر. (المترجم).

الاجتماع بشهد العديد من المتغيرات العصيّة على السيطرة. تبقى التجارب المعملية مريحة لأمور عدة، منها أن القائم بالتجربة مسؤول عن كل شيء، العملية برمتها مُحكمَة لأقصى درجة، والخاضع للتجربة موجود في مكان يسيطر عليه الباحث، وكلها أمور شبيهة بالتحذيرات الموجودة في كتيب تعليمات الاستجواب الخاص بالشرطة: «لا تستجوب مشتبها بهم أو شهودًا داخل المنزل أبدًا؛ بل اذهب بهم إلى القسم حيث يمكنك الاعتماد على جدة الوضع بالنسبة لهم وانتهاز فرصة غياب أي دعم من المعارف، كما أنك لن تقلق حيال أية مقاطعة أثناء الاستجواب».

حاولتُ بلطف أن أحثّ الشرطي على الإسراع لكن بيل استمر في التدخل وطلب تصوير لقطات أخرى من عدة زوايا، وضع جو (Joe) العصابة على عيني هابي. استوفينا البيانات المطلوبة لملأ النموذج (CII-6) الخاصة بالتعريف والتحقيق الجنائي (Bureau of Criminal Identification and Investigation) وملأناه بكافة المعلومات المطلوبة وبصمات الأصابع، وبقيت الصورة الفوتوغرافية التي ستضاف إلى الملف الجنائي والتي سنلتقطها باستخدام كاميرا التصوير الفوري الموجودة في سجننا توفيرًا للوقت بعدما يرتدي جميع السجناء زيهم الجديد.

مرّ هابي بعملية التسجيل دون أن يبدي أي تعليق أو تأثر بعد أن أحبط جُوْ أول محاولاته للمزاح بقوله: «من تظن نفسك؟ أحد الحُكماء أو شيء من هذا القبيل؟». هو الآن جالس في زنزانة اعتقال صغيرة في القسم المركزي معصوب العينين، وحيدًا بائسًا، يسأل نفسه عن السبب الذي دفعه إلى التورط في هذه الفوضى وعما إذا كان الأمر يستحق. لكن هدّأ من روعه علمه بأنه يستطيع الاعتماد على أبيه وعمه المحامي العام لينهيا العقد إذا ما ساءت الأمور إلى حدٍ يعجز عن احتماله.

«أُوينك، أُوينك!».. الخنازير هنا

جرى سيناريو الاعتقال التالي في شقة صغيرة في بالو ألتو.

«داج (Doug)، استيقظ، اللعنة، إنها الشرطة، دقيقة واحدة من فضلك، سيأتي حالاً، هلا ارتديت سروالك؟».

«ماذا تقصدين بالشرطة؟ ماذا يريدون منا؟ اسمعي يا سوزي، لا تتصرفي بعصبية، تصرفي بهدوء، لم نرتكب أي شيء يمكنهم إثباته. دعيني أتحدث إلى الخنازير، أعرف حقوقي؛ فليس للفاشين أن يفرضوا علينا أوامرهم».

شعر الضابط بوب أنه أمام شخص مشاغب؛ فاستخدم أسلوبه المقنع الودود:

«هل أنت السيد داج كارلسون؟»

«نعم، ماذا في ذلك؟»

«آسف، ولكنك مشتبه به في قضية خرق القانون الجنائي رقم ٤٥٩، قضية سرقة، وسآخذك إلى القسم الكائن في مركز المدينة من أجل التسجيل، لديك الحق بالتزام الصمت، ولديك...».

«توقف، أعرف حقوقي، لم أحصل على شهادتي الجامعية عبثًا، أين أمر الاعتقال؟».

بينما كان بوب يفكر في كيفية التعامل مع الموقف بلباقة؛ سمع داج قرع أجراس الكنيسة القريبة، «إنه يوم الأحد!»، لقد نسي أنه يوم الأحد! قال لنفسه:

«سألعب دور السجين إذًا، هذه هي اللعبة هاه؟ نعم أُفضّل هذا؛ فلم أذهب إلى الجامعة لكي أصبح خنزيرًا (يقصد شرطيًا)، لكن من الوارد أن تعتقلني الشرطة يومًا ما مثلما كاد يحدث لي العام الماضي أثناء مشاركتي في المظاهرات المناهضة للحرب بكاليفورنيا، وكما قلت لمن عقد معي اللقاء، هاني؟ أعتقد أن هذا كان اسمه، لا أريد هذا من أجل المال ولا التجربة؛ لأن الفكرة برمتها تبدو سخيفة، ولا أظن أنها ستنجح، لكن أحب أن أعرف كيف سأتدبّر الأمر حال اضطهادي كسجين سياسي».

«لا أتمالك نفسي من الضحك عندما أفكر في سؤالهم السخيف «ما هو تقييمك لإمكانية استمرارك في تجربة السجن لمدة أسبوعين، من ٠ إلى ١٠٠؟»، بالنسبة لي؛ مائة بالمائة؛ بلا تردد. فهو مجرد سجن مُقلّد وليس بسجن حقيقي، وإن لم يعجبني الحال فسأقطع التجربة وأغادر. أتساءل ما كان رد فعلهم حيال إجابتي عن سؤالهم: «ما الذي تحب أن تكونه بعد عشر سنوات من الآن؟» العمل المثالي بالنسبة لي والذي أتمنى أن يشكل جزءًا مهمًا في مستقبل العالم هو الثورة».

«من أنا؟ ما هو الشيء المميز فيَّ؟، ما رأيهم في إجابتي المُباشرة: من منظور ديني أنا ملحد، ومن منظور «عُرفي» أنا متعصب، من منظور سياسي أنا اشتراكي، من ناحية صحتي العقلية فأنا سويّ، ومن الناحية الاجتماعية فأنا منبتّ الصلة عما حولي، منزوع الإنسانية؛ ولا أبكي كثيرًا».

أثناء جلوسه بنفسية ملؤها التحدي في المقعد الخلفي لسيارة الدورية خلال رحلته السريعة إلى مقر القسم؛ كان داج يُفكّر في اضطهاد الفقراء والحاجة إلى استرجاع السُلطة من حكام هذه البلد العسكر الرأسماليين. «من الجيد أن تكون سجينًا»، هذا ما كان يجول في خاطره، «كل الأفكار الثورية المثيرة خرجت من قلب السجن». شعر وكأن رابطة دم من نوع ما كانت تجمعه بعضو «أخوية سوليداد» جورج جاكسون، أعجب برسائله، وكان يُدرِك

أن انتصار الثورة يكمُن في اتحاد جميع المضطهدين، وربما كانت هذه التجربة الصغيرة هي خطوته الأولى في طريق تدريب عقله وجسده على الصراع القادم مع الحكم الفاشي لأمريكا.

نجاهل ضابط التسجيل تعليقات داج الوقحة أثناء تسجيله لبياناتٍ من قبيل الطول والوزن وأخذ بصمات الأصابع بكفاءة تامة، كان منهمكًا تمامًا في عمله. حرك جو (Joe) وبسهولة تامة كل أصبع من أصابع داج ليحصل على أفضل بصمة على الرغم من تعمد داج جعل يده أكثر تصلبًا. كان داج متعجبًا شيئًا ما من مدى قوة الخنزير، أو لعله كان منهكًا لعدم تناوله وجبة الإفطار حتى ذلك الوقت. ومن قلب هذه الإجراءات الكئيبة بدأت تلوح له بعض الشكوك: «من المحتمل أن تكون تلك الجرذان الواشية في ستانفورد قد سلمتني إلى الشرطة فعليًا؛ أي: أحمق كنت؟ لقد أعطيتهم الكثير من المعلومات الشخصية عني وبإمكانهم استخدامها ضدي».

«كوبر!» داج مناديًا بصوته المرتفع «أخبرني مرة أخرى، ما هي تهمتي؟»

«تهمتك هي السرقة وربما حُكم عليك بالسجن لعامين من أول جلسة».

مستعدٌ للاعتقال سيدي

حدث السيناريو التالي في المكان المحدد لاعتقال توم تومسون (Tom Thompson) وهو الرواق الخاص بمنزل مساعدتي روزان. كان توم أشبه بثور صغير، طوله ٥,٨ قدمًا ووزنه ١٧٠ رطلاً من العضلات الصلبة، تعلو رأسه قَصّة شعر عسكرية، إن كان هنالك شخص لا يعرف المزاح فهو هذا الجندي ذو الثمانية عشر ربيعًا. عندما سألناه أثناء اللقاء الذي عقدناه معه «ما الذي تود فعله بعد عشر سنوات من الآن؟» كانت إجابته مفاجأة: «لا يهمني أين سأعمل أو ماذا سأفعل، المهم هو أن تتسم نوعية العمل بالتنظيم والكفاءة الإنتاجية في القطاعات غير المنظمة وغير الفعالة من حكومتنا».

خطط الزواج: «أخطط للزواج عندما أستقر ماديًا».

أية علاجات أو عقارات أو مهدئات أو سوابق جنائية؟ «لم أرتكب أية جريمة قط، ما زلتُ أتذكر عندما كنت في عمر الخامسة أو السادسة ورأيت والدي يأخذ قطعة حلوى ليأكلها في المتجر أثناء التسوق وكنت أشعر بالخزي بسبب هذا الفعل».

كان توم تومسون ينام في المقعد الخلفي لسيارته حتى يوفر ثمن الإيجار. كان سكنًا غير مريح وغير مناسب مطلقًا للمذاكرة، ومؤخرًا كان عليه: «أن أقتُل عنكبوتًا لدغني مرتين، مرة في عيني وأخرى في شفتي»، لكنه أكمل دورة دراسية صيفية ليدعم رصيده الجامعي، وكان يعمل لخمس وأربعين ساعة أسبوعيًا في وظائف متنوعة ويأكل بواقي

الطعام من مطعم الطلبة ليوفر المال الكافي لمصروفات الفصل الدراسي المقبل. وبسبب عناده وبخله، خطط توم لإنهاء دراسته قبل ميعادها الطبيعي بستة أشهر. كانت عضلات جسده آخذة في التضخم بسبب التدرّب بجدية في ساعات فراغه الطويلة لابتعاده التام عن المواعدة والأصدقاء المقربين.

كانت المشاركة - مدفوعة الأجر - في دراسة عن السجن وظيفة مثالية بالنسبة لتوم، خاصة بعد انتهاء الدراسة وفوات موسم الوظائف الصيفية في وقتٍ كان فيه بأمس الحاجة إلى المال. ثلاث وجبات في اليوم وسرير حقيقي وربما حمام ساخن كانت بمثابة الفوز بجائزة اليانصيب الكبرى بالنسبة له، كان يتخيل الأسبوعين المقبلين كإجازة مدفوعة الأجر أكثر من كونها أي شيء آخر.

بسبب وقوفه في ٤٥٠ شارع كينجسلي لم يقم بتدريبات رفع الأثقال لفترة طويلة حيث كان ينتظر بدء دوره في التجربة قبل أن تعتقله سيارة الدورية من أمام شاحنته الصغيرة. كان هاني يقف على مسافة منه بسيارته الفيات مع المصور الجريء الذي كان يصور لقطات خارجية لآخر عملية اعتقال، بعدها سيكون أغلب التصوير داخليًا من مقر قسم الشرطة ثم من سجننا المزيف. كان بيل متلهفًا للعودة إلى محطة (KRON) ببعض اللقطات المصورة حتى تعرض في نشرة ليلة الأحد والتي غالبًا ما تكون خالية من الإثارة.

«أنا توم تومسون سيدي. أنا مستعد للاعتقال بدون أية مقاومة».

كان بوب متشككًا هذه المرة، ربما يكون مجنونًا لديه ما يريد استعراضه من دروس الكاراتيه التي تلقّاها، قام بتصفيده مباشرة من قبل أن يقرأ عليه حقوقه، ثم فتّشه بحثًا عن أية أسلحة مُخبّأة بتحرٍّ أكبر مما كان مع الآخرين، كان لديه شعور ساخر تجاه من يبدون ذلك النوع من الاستسلام، وكان ذلك غرورًا شديدًا وثقةً مبالغًا فيها من شخص يتعرض للاعتقال، وغالبًا ما يعني هذا السلوك وجود مصيدة من نوعٍ ما؛ فربما يحمل مسدسًا أو يرتّب لاختلاق تهمة مزيفة تبرر اعتقاله أو أي شيء آخر غيرِ معتاد. «لستُ طبيبًا نفسيًا، لكن هناك شيء غير معتاد حيال هذا الشاب تومسون، يشبه ضباط المناورات العسكرية، أو رقيبًا مجندًا في صفوف الأعداء». هذا ما قاله لي جو لاحقًا.

لحسن الحظ لم تُرتكب أية جرائم في بالو ألتو هذا الأحد، ولا وجود لقطط عالقة فوق الأشجار يُمكِن أن تُثنيت بوب وجُوْ عن استكمال عمليات الاعتقال التي تزداد كفاءة. مع بدايات الظهيرة كنا قد سجلنا جميع السجناء وأخذناهم إلى السجن، وكان الحراس المتلهفون بانتظارهم لبدء العمل. سيترك هؤلاء الشبان جنة بالو ألتو المشمسة لينزلوا الدرجات الإسمنتية للقبو المحوّل في قسم علم النفس في قاعة جوردان، شارع سيرا، وهو الأمر الذي سيمسي بالنسبة للبعض بمثابة النزول إلى قعر الجحيم.

الفصل الثالث

فلتبدأ طقوس الإذلال الخاصة بيوم الأحد

أثناء مرافقة السجناء معصوبي العينين إلى الأسفل عبر درجات قاعة جوردان ووصولاً إلى مقر سجننا الصغير يأمرهم حراسنا بخلع ملابسهم والوقوف عراة وقد مدوا أذرعهم باتجاه الحائط مع إبقاء مسافة بين القدمين.

يستمر وقوفهم بهذه الوضعية المتعبة فترة طويلة من الزمن والحراس يتجاهلونهم لانشغالهم بإتمام بعض الإجراءات الاعتيادية كتجميع مقتنيات النزلاء لوضعها في الأمانات وإعداد أماكن الحراس وترتيب الأسرّة داخل الزنازين الثلاثة. يُرَشّ جسد كل سجين قبل إعطائه ملابس السجن ببودرة يُقال إنها تزيل القمل خشية تلويث سجننا. وبدون أي توجيه منّا بدأ بعض حرّاسنا في السخرية من الأعضاء التناسلية للسجناء.. مسألة ذكورية!

يُعطى كُلّ واحد منهم زيًا وهم على هذا الحال وأعينهم ما زالت معصوبة، ليس بالشيء الفاخر، مجرد ثوب أبيض مائل للصفرة يشبه فستانًا من القطن عليه أرقام تعريف السجناء من جهة الصدر والظهر، كانت مجموعة أرقام اشتريناها من متجر مستلزمات الكشافة، ونستخدم كذلك الجوارب النسائية لتغطية رؤوس أصحاب الشعر الطويل من السجناء كبديل عن تقليد حلق رؤوس المُستَجدّين المتّبع في الجيش وبعض السجون، كما أن حلق الرأس هو علامة على إزالة الخصوصية، وحجب الذاتية بين مجموعة السجناء. وأخيرًا، يرتدي كل سجين زوجًا من سدادات الأذن المطاطية، ثم تُحكم سلسلة حول كاحله لكي يبقى على ذُكُر من كونه سجيناً؛ حتى في نومه ستُذكره السلسلة دائمًا عندما تضرب قدمه حال تقلبه بوضعه الجديد، كما لا يُسمح للسجناء بارتداء ملابس داخلية.

بعد تجهيز السجناء بشكل كامل يُزيل الحراس العصابات من على عيونهم ليتمكنوا من مشاهدة هيئتهم الجديدة في المرآة المُسندة إلى الحائط. تُلتقط صور لجميع السجناء باستخدام كاميرا التصوير الفوري حتى نضع الصورة في ملف القيد الرسمي الذي تحلّ فيه

أرقام التعريف محل «الأسماء»، ومن هنا تبدأ إهانة السُجناء كما يحدث في العديد من المؤسسات بالطريقة ذاتها، بدءًا من مُعسكرات الجيش إلى السجون والمستشفيات والوظائف المتدنية.

يصيح الحارس أرنيت (Arnett) في أول مظاهر استعراض النفوذ: «لا تحرك رأسك، لا تحرك فمك، لا تحرك يديك، لا تحرك قدميك، لا تحرّك شيئاً، من الآن الزم الصمت والزم مكانك»[1]. يبدأ بالفعل هو وزميلاه اللذان يشاركانه نوبة الحراسة هذه، ج. لاندري (J. Landry) وماركوس (Markus) في التلويح بهراوات الشرطة مهددين أثناء قيامهم بخلع ملابس السجناء وتجهيزهم. يصطف أول أربعة سجناء وتُقرأ عليهم القواعد الأساسية التي صاغها الحراس مع آمر السجن أثناء التأهيل الذي تلقوه بالأمس. يصيح أرنيت: «لا أحب أن يصحّح آمر السجن ما أقوم به، ولهذا سأجعلكم تتمنون ألا يحدث هذا، الآن انصتوا إلى القواعد جيدًا. عليكم أن تخاطبوا السجناء بأرقامهم، بالأرقام فحسب، وأن تنادوا الحراس باسم «السيد الضابط الإصلاحي».

مع دخول المزيد من السجناء إلى الساحة بأجسادهم المُغطاة بالمسحوق مرتدين ملابس السجن؛ يقوم الحراس بضمهم إلى زملائهم الواقفين قبالة الحائط من أجل التلقين. يحاول الحراس التصرّف بجديّة. «بعضكم أيها السجناء يعرف القواعد بالفعل، لكن البعض الآخر ما زال لا يدري كيف يتصرف داخل السجن، ولذلك يجب أن تقوموا بتعليمهم». تُقرأ كل قاعدة على حدة بجدية وتمهل وحزم، يتحرك السجناء متباطئين يجرون أقدامهم وهم يتأملون هذا العالم الجديد الغريب. «قف منتصبًا يا ٧٢٥٨، ضعوا أيديكم إلى جانبكم أيها السجناء».

بدأ أرنيت في اختبار حفظ السجناء للقواعد، إنه شخص لحوح ومتعب ويعمل جاهدًا للحفاظ على نبرته جادة، وعلى أسلوبه عسكريًا رسميًا، تبدو طريقته في الحديث طريقة

---

(١) ما لم نشر إلى خلاف ذلك فجميع النقاشات التي دارت بين السجناء والحراس مقتبسة من تفريغ نصي حرفي للقطات فيديو سُجّلت أثناء التجربة. عدلنا أسماء السجناء والحراس لإخفاء هوياتهم الحقيقية. جميع مواد تجربة سجن ستانفورد المشار إليها في هذا الكتاب، وكافة البيانات والتحليلات الأصلية، محفوظة في سجلات [History of American Psychology, Arkon, Ohio]. سنتبرع أيضًا بمواد أخرى في المستقبل وستحفظ في السجلات باسم أوراق زيمباردو (Zimbardo Papers). وسيخصص أول أقسامها لتجربة سجن ستانفورد. معلومات الاتصال بالسجلات موجودة على [www.uarkon.com-ahap@uarkon.com]. كانت تجربة سجن ستانفورد مادة نقاش موسع في وسائل الإعلام، واختار بعض المشاركين الكشف عن هوياتهم، لكن هذه هي المرة الأولى التي أكتب فيها عن التجربة بهذا التفصيل للجمهور، لذلك قررت تغيير أسماء جميع السجناء والحراس لإخفاء هوياتهم الحقيقية.

شخص يؤدي عمله بمهنية دون وجود شيء شخصي بينه وبين أي من السجناء، لكن السجناء لا يتعاملون مع الأمر بجدية مطلقًا، فهم يقهقهون ويضحكون ولا يأخذونه على محمل الجد، ما زالوا يجدون صعوبة في تأدية أدوارهم كسجناء حتى هذه اللحظة.



حارس من تجربة سجن ستانفورد يرتدي الزي الموحد

«أوقفوا الضحك»! ج. لاندري آمرًا السجناء، كان ممتلئ الجسم، أشقر الشعر طويله ومشعثه، كما أنه أقصر بحوالي ست بوصات من أرنيت طويل القامة نحيف الجسد، ذي الملامح النسرية والشعر البني المموج والشفتين المنطبقتين.

فجأة يدخل آمر السجن ديفيد جافي. يقول أرنيت: «قفوا في وضع انتباه ووجوهكم إلى الحائط استعدادًا لقراءة القواعد كاملة». جافي وهو في الحقيقة أحد طلبتي في ستانفورد، صغير البنية، يصل طوله تقريبًا إلى خمسة أقدام وخمسة بوصات، لكنه يبدو الآن أطول قامة من المعتاد لوقوفه منتصبًا بشدة مرفوع الرأس وكتفيه مشدودين إلى الخلف، كان يعيش شخصية آمر السجن بالفعل.

كنت أتابع الأحداث من خلف شباك صغير مُغطى بقطعة قماش خلف الجزء الذي يخفي كاميرا التصوير وجهاز أمبكس (Ampex) للتسجيل الصوتي، وثمة مساحة صغيرة للرؤية في الطرف الجنوبي للساحة. من خلف قطعة القماش هذه سيقوم كيرت بانكس وأعضاء آخرون من فريقنا البحثي بتسجيل سلسلة انتقائية من الأحداث على مدار الأسبوعين

المقبلين، مثل أوقات تناول الوجبات وعدّ السجناء وزيارات الآباء والأصدقاء وزيارة قس السجن، وأية مشاكل قد تحدث، ذلك أننا لا نملك الدعم المالي الذي يسمح لنا بالتسجيل على مدار الساعة بلا توقف، لذا نفعل ذلك بحكمة. هذه المساحة هي ذاتها التي يُمكن للباحثين والمراقبين الآخرين أن يتابعوا منها ما يجري بدون أية مقاطعات وبدون أن يدرك أحد متى نشاهد ومتى نصور. لا يمكننا مراقبة وتصوير أي أحداث إلا تلك التي تجري أمامنا في الساحة، وعلى الرغم من عدم تمكننا من مشاهدة ما يحدث داخل الزنازين إلا أننا نستطيع سماع الأحاديث التي تدور داخلها، فقد زرعناها بأجهزة صوتية تسمح لنا بالتجسس على السجناء الذين لا يعلمون بوجود هذه الأجهزة مخبّأة ومخفيّة داخل لوحات الإضاءة. تفيدنا هذه المعلومات في التعرف على ما يدور في أذهانهم وما يشعرون به حال انفرادهم بأنفسهم، وما هي الأمور التي يشاركون بعضهم إياها في الحديث، وقد تفيدنا أيضًا في تحديد أي السجناء قد يحتاج إلى مزيد انتباه بسبب تفاقم توتره.

أذهلتني خطابيّة آمر السجن ديفيد جافي، وأذهلتني أكثر رؤيته مرتديًا معطفًا وربطة عنق، فهذه الأزياء ليست معتادة في حقبة الهيبيز هذه، يلف جافي شاربه الكبير بعصبية إذ يندمج أكثر في دوره، أخبرته بأن عليه هذه المرّة أن يُقدّم نفسه لهذه المجموعة الجديدة من السجناء بصفته آمر السجن لكنه متردّدٌ قليلاً، فهو ليس من النوع الاستعراضي؛ هو هادئ مسكين.

لم يشارك جافي في خطط التجهيز المكثف بسبب وجوده خارج المدينة، فلم يصل إلا البارحة بالتزامن مع بدأ تأهيل الحراس. شعر جافي أنه بعيد قليلاً عن الأحداث خاصة وأن كريج وكيرت كانا في مرحلة الدراسات العليا بينما هو ما زال في مرحلة الدراسة الجامعية. ربما شعر أيضًا بالتوتر لأنه الأصغر حجمًا بين مجموعة لا يقل طول الواحد منهم عن ستة أقدام، لكنه شدّ عوده، ودخل بقوّة وجديّة.

«كما تعرفون أنا آمر سجنكم. لسبب أو لآخر فقد أظهرتم جميعاً عدم قدرتكم على الاندماج مع العالم الخارجي، وتفتقدون بطريقة ما الشعور بالمسؤولية الذي يملكه مواطنو هذا البلد العظيم الصالحون. سنساعدكم، باعتبارنا فريق العمل الإصلاحي لهذا السجن، على تعلم مسؤولياتكم تجاه هذه الدولة كمواطنين. لقد استمعتم إلى القواعد، وقريبًا سنعلّق نسخة منها داخل كل زنزانة. نتوقع منكم حفظها والقدرة على سردها بالترتيب. إذا اتبعتم هذه القواعد جميعها وحافظتم على نظافة أياديكم وتبتم عن جرائمكم ونطقت بذلك سلوكياتكم؛ فسنقضي وقتًا جيدًا معًا. أتمنى ألا تستدعي الحاجة الإكثار من رؤيتكم».

كان ارتجالاً مذهلاً، تبعه أمر الحارس ماركوس الذي تحدث للمرة الأولى: «الآن

وجهوا شكركم إلى آمر السجن على خطابه الطيب». وفي صوت واحد وجّه السجناء شكرهم غير الصادق إلى آمر السجن.



سجناء تجربة سجن ستانفورد مصطفّين لعملية الإحصاء

قواعد الحياة الجديدة

حان وقت إضفاء بعض الرسمية على الموقف عبر إلقاء مجموعة القواعد التي ستحكم سلوك السجناء على مدار الأسبوعين المقبلين. عمل جافي بشكل مكثف وبمشاركة جميع الحراس على إنهاء تلك القواعد بالأمس عند انتهاء تدريب الحراس[1].

(١) كانت القواعد التي استخدمت في التجربة امتدادًا لتلك التي طورها جافي وزملاؤه الطلبة لمشروعهم الخاص بعلم النفس الاجتماعي في دورتي عن «الفعل» في الربيع الماضي، حيث صنعوا سجنًا وهميًا في مهجعهم، ومن أجل الدورة اختار الطلبة من مجموعة من عشر مشاريع تجريبية اقترحتها عليهم، يبحث كل منها جوانب من الأفراد داخل المؤسسات مثل العجائز في دور المسنين، أولئك الذين ينضمون إلى طوائف دينية، والتكيف في أدوار حراس وسجناء، فاختار جافي وقرابة الاثني عشر طالبًا آخرين موضوع السجن، وكجزء من البحث صمموا سجنًا وهميًا وأداروه في مهجعهم في عطلة نهاية الأسبوع، وكانت له نتائج قوية حثتنا على إجراء التجربة الرسمية الحالية.

في السجن الوهمي الذي أداره هؤلاء الطلبة قدمت لهم بعض النصائح لكن لم أعرف ما قاموا به حتى قدموا مشروعهم بعد انتهاء عطلة نهاية الأسبوع، ذهلت من قوة مشاعرهم التي عبروا عنها علانية أمام جمع كبير من الطلبة المشاركين في المحاضرة، غضب، إحباط، خزي، وارتباك تجاه سلوكياتهم وسلوكيات أصدقائهم في أدوارهم الجديدة، ثم اتبعت هذا بإجراء استجواب لهم جميعًا حتى بات واضحًا أن الظرف كان عنيفًا، لكن بسبب اختيار الطلبة بأنفسهم لهذا الموضوع، فلم يكن من الواضح ما إذا كان هناك شيء غير معتاد بخصوصهم =

تحدّث الحارس أرنيت مع آمر السجن جافي، وقررا أن يتلو الأول القواعد كاملة على الملأ، كانت هذه أولى خطواته نحو السيطرة على نوبة النهار، بدأ قراءة القواعد بوضوح، القواعد السبعة عشر هي:

١ ـ يلتزم السجناء الصمت أثناء فترات الراحة، وبعد إطفاء الإضاءة، وأثناء تناول الوجبات، وأثناء وجودهم في ساحة السجن.

٢ ـ يلتزم السجناء بتناول الطعام في الأوقات المخصصة للأكل، وفي الأوقات المخصصة للأكل فحسب.

٣ ـ يلتزم السجناء بالمشاركة في كل أنشطة السجن.

٤ ـ يلتزم السجناء بالمحافظة على نظافة الزنزانات. يجب أن ترتب الأسِرّة وأن تبقى الممتلكات الشخصية نظيفة ومرتبة وأن تبقى الأرضية نظيفة.

٥ ـ يلتزم السجناء بعدم نقل، أو تشويه أو إفساد الحوائط، أو الأسقف، أو النوافذ، أو الأبواب، أو أي من ممتلكات السجن.

٦ ـ يلتزم السجناء بعدم تشغيل ضوء الزنزانة أبدًا.

٧ ـ يلتزم السجناء بمناداة بعضهم بالأرقام فقط.

٨ ـ يلتزم السجناء بمناداة أفراد الحراسة بإضافة لقب «السيد الضابط الإصلاحي»، وآمر السجن باسم «السيد الرئيس الضابط الإصلاحي».

٩ ـ يلتزم السجناء بعدم الإشارة إلى وضعهم على أنه «تجربة» أو «محاكاة»، هم سجناء حتى يفرج عنهم.

«قرأنا نصف القواعد تقريبًا. أتمنى أن تكونوا متبهين لأنكم ملزمون بحفظها كلها، وسوف نختبركم في أوقات مفاجئة»

هكذا قال الحارس مطلقًا تحذيرًا جديدًا.

١٠ ـ سيُسمح للسجناء بخمس دقائق في المرحاض. لن يسمح لأي سجين بالعودة إلى المرحاض قبل ساعة من كل فترة مقررة لاستخدامه، استخدام المرحاض تحت سيطرة الحراس.

١١ ـ التدخين من الامتيازات. سيسمح بالتدخين بعد الوجبات أو وفقًا لتقدير

= أو بخصوص مناخ السجن الذي قلدوه. لا يمكن أن تفصل بين السمات الشخصية والعوامل الظرفية إلا تجربة محكمة بتوزيع عشوائي للأدوار، وكان هذا هو أحد دوافع تصميم التجربة التي نفذناها في الصيف.

كان تقرير جافي النهائي عن دراسة المجموعة في ١٥ ـ ١٦ مايو، ١٩٧١م، بعنوان «سجن مُقلّد Simulated Prison»، «تقرير غير منشور، جامعة ستانفورد، ربيع ١٩٧١م».

الحراس. لا يحق للسجناء التدخين داخل الزنازين، أيّ انتهاك لقواعد التدخين سيؤدي إلى الحرمان من هذا الامتياز نهائيًا.

١٢ ـ المراسلات البريدية من الامتيازات. أية خطابات خارجة من السجن أو داخلة إليه ستخضع للرقابة والفحص.

١٣ ـ الزيارات من الامتيازات. يجب على السجين الذي يسمح له بزيارةٍ أن يقابل زائره عند باب الساحة. سيشرف الحراس على الزيارات، ويحق للحارس إنهاء الزيارة وفقًا لتقديره.

١٤ ـ يلتزم السجناء في كل الزنازين بالوقوف عند مرور آمر السجن أو مراقب السجن أو أي زوار آخرين لتفقد سير العمل. سينتظر السجناء الأوامر سواء بالجلوس مجددًا أو بمواصلة النشاطات.

١٥ ـ يلتزم السجناء بطاعة كل الأوامر التي يصدرها الحراس في جميع الأوقات. يلغي أمرُ الحارس أي أمر مكتوب. يلغي أمرُ آمر السجن أوامر الحراس والأوامر المكتوبة، وتعدّ أوامر رئيس السجن أوامر عليا.

١٦ ـ يلتزم السجناء بإبلاغ الحراس عن أية انتهاكات للقواعد.

«القاعدة الأخيرة، ولكنها الأهم، قاعدة يجب عليكم تذكرها دائمًا وهي القاعدة رقم سبعة عشر»، يضيف أرنيت بلهجة تحذيرية تنذر بسوء:

١٧ ـ يمكن أن يؤدي الإخفاق في الالتزام بأي من القواعد المذكورة أعلاه إلى العقاب.

يقرر الحارس ج. لاندري في وقت لاحق من النوبة أنه يريد بعض الحركة وإعادة قراءة القواعد مع وضع بصمته عليها: «السجناء هم جزء من مجتمع إصلاحي، ومن أجل الحفاظ على سلامة عمل هذا المجتمع؛ يجب على السجناء طاعة الأوامر».

أومأ جافي برأسه موافقًا؛ كان بالفعل ينظر إلى هذا المكان على أنه مُجتمع سجن يستطيع المتعقلون فيه سواء من واضعي القواعد كانوا أو من الملتزمين بها أن يعيشوا سويًا في تناغم.

الإحصاء الأول في هذا المكان الغريب

وفقًا للخطة التي وضعها الحراس أثناء اجتماعهم التجهيزي في اليوم السابق؛ استمر الحارس ج. لاندري في عملية تعزيز سلطة الحراس بتوجيهه تعليمات الإحصاء للسجناء: «حسنًا، حتى تعتادوا على أرقامكم يجب أن نجعلكم تقومون بالعدّ من اليسار إلى اليمين، وبسرعة». صاح السجناء بأرقامهم التي كانت عبارة عن مجموعة جُزافية من الأعداد

المكوّنة من أربعة أو ثلاثة أرقام مكتوبة على صدر ثوب السجن. «كان هذا جيدًا، لكن أحب أن أراهم في وضع الانتباه». وقف السجناء في وضع الانتباه بشيء من التململ، «أنتم بطيؤون في الوقوف منتصبين، اجعلهم يؤدون عشرة تدريبات ضغط». (سرعان ما أصبحت تمارين الضغط أساسيّة في أساليب العقاب التي يستخدمها الحراس).

«هل ألمح ابتسامة؟»، سأل جافي. «أرى ابتسامتكم من هنا، لا يوجد ما يدعو للمرح، هذا عمل جاد ورطتم أنفسكم فيه». سرعان ما يغادر جافي الساحة إلى المنطقة الخلفية ليحدثنا عن أدائه في المشهد الافتتاحي، وبشبه إجماع امتدحناه أنا وكريج وكيرت وقلنا: «أحسنت جيف، كان هذا رائعًا!».

في البداية كان الإحصاء كما في كل السجون ضرورة إدارية للتأكد من وجود جميع السجناء وعدم هروب أي منهم أو بقائه في زنزانته مريضًا في حاجة إلى رعاية، أمّا في حالتنا هذه فقد كانت الغاية الثانية له هي أن يعتاد السجناء على هويتهم الرقمية الجديدة، نريد من كل منهم أن يبدأ في رؤية نفسه والآخرين على أنهم مجرد أرقام، لا بشرًا بأسماء. الأمر المذهل هو الكيفيّة التي تحوّلت بها طبيعة إجراءات الإحصاء من تحفيظ روتيني وقراءة هوية السجناء بغرض التأكد من وجودهم؛ إلى منتدى مفتوح يستعرض فيه الحراس سلطتهم المطلقة.

مع اندماج مجموعتيْ الطلبة المشاركين في البحث والذين كان تبادل أدوارهم ممكنًا وبشدة في البداية؛ بدأت عمليات الإحصاء تمثّل عرضًا عامًا لكيفية تمايز شخصيات الحراس والسجناء على حدّ السواء. أخيرًا؛ أُرسل السجناء إلى الزنزانات ليحصلوا على وقت كافٍ لحفظ القواعد والتعرّف على شركاء الزنزانة. صممنا الزنازين بحيث تؤكد على بيئة حجب الهوية التي فرضناها على كل ظروف الحياة داخل هذا السجن. هذه الزنازين هي في الأصل مكاتب صغيرة أعدنا تصميمها تمتد على مساحة عشر أقدام في اثني عشر قدمًا لكل منها. استبدلنا بأثاث المكتب ثلاثة أسرّة مصطفة إلى جانب بعضها، كما جردنا المكاتب من جميع الأثاث عدا الزنزانة (٣) التي كان فيها حوض وصنبور قمنا بإغلاقه، ولكن بإمكان الحراس فتحه لمكافأة السجناء الصالحين الذين سيقيمون في هذه الزنزانة. استبدلنا بأبواب المكاتب أبوابًا سوداء مجهزة خصيصًا بصف من القضبان المعدنية أسفل نافذة تتوسط الباب، وكُتبت أرقام الزنازين بوضوح على الأبواب.

تشغل الزنازين الحائط أيمن الساحة وفقًا لما يظهر لنا من موقعنا خلف شاشة المراقبة التي تطل على اتجاه واحد. الساحة هي ممر طويل ضيق بعرض تسعة أقدام وطول ثمانية وثلاثين قدمًا، لا توجد نوافذ، ومصابيح النيون هي مصدر الضوء الوحيد. المدخل - والمخرج - موجود في الطرف الشمالي للممر المقابل لموقع المراقبة. وبسبب وجود مخرج

واحد احتفظنا بعدد من مطافئ الحريق بأمر من لجنة التجارب البشرية بجامعة ستانفورد (Stanford University Human Subjects Committee)، والتي سبق وراجعت بحثنا ووافقت عليه. (مع ذلك فإن مطافئ الحريق يمكن استخدامها أيضًا كأسلحة).

بالأمس علّق الحراس لوحات على حوائط الساحة كتب على واحدة منها: «سجن بلدية ستانفورد»، وعلى الثانية علامة دالة على منع التدخين بدون تصريح، وأخرى تشير محذرة إلى مكان العزل الانفرادي، «الحفرة». كانت زنزانة الاحتجاز الانفرادي عبارة عن خزانة حائط صغيرة كانت تستخدم للتخزين في الجهة المقابلة للزنازين، ولم تترك صناديق الملفّات والأوراق الموجودة فيها إلا مساحة لا تزيد عن ياردة واحدة مربعة. في هذه المساحة الضيقة سيقف السجناء أو يجلسون أو يقرفصون في ظلام تام مدة من الزمن يقررها الحراس، سيسمعون كل ما يجري في الساحة، وسيسمعون كذلك طرق أي شخص على أبواب الحفرة.

السجناء موجودون في زنزاناتهم التي وُزعوا عليها توزيعًا عشوائيًا: الزنزانة (١) مخصصة لأرقام ٣٤٠١، ٥٧٠٤، و٧٢٥٨؛ الزنزانة (٢) مخصصة للأرقام ٨١٩، ١٠٣٧، و٨٦١٢؛ بينما تستضيف الزنزانة (٣) أرقام ٢٠٩٣، ٤٣٢٥، و٥٤٨٦. من ناحية يشبه هذا حال أسرى الحرب؛ حيث يؤسر عدد من الأعداء، ويوضعون في وحدة عسكرية أكثر من كونها سجنًا مدنيًا، ويكوّن فيها السجناء الجدد الصداقات، ويدخلونه ثم يخرج عنهم بشكل مستمر.

إجمالاً فإن سجننا أكثر إنسانية بكثير من أغلب معسكرات أسرى الحرب، وهو بكل تأكيد أكثر راحةً ونظافةً وتنظيمًا مقارنة بقسوة سجن أبو غريب (الذي جعله صدام بشعًا لغاية التعذيب والقتل قبل أن يتفوّق عليه في ذلك الجنود الأمريكيون لاحقًا). وعلى الرغم من الراحة النسبية المتوفرة فيه فإن هذا السجن قد تحوّل إلى موقع اعتداءات أنذرت مبكرًا بما سيقع من انتهاكات في سجن أبو غريب والتي ارتكبها احتياط الشرطة العسكرية بعد سنوات من ذلك التاريخ.

التكيّف على الأدوار

أخذ الحراس وقتًا للاعتياد على أدوارهم الجديدة. عرفنا من تقارير تبادل النوبات التي يكتبها الحراس بعد انتهاء كل نوبة أن الحارس فاندي لم يشعر بالارتياح، ليس واثقًا مما يتطلبه الأمر منه ليكون حارسًا جيدًا، كان يتمنى الحصول على بعض التدريب لكنه يرى أن المبالغة في حسن معاملة السجناء ليست بالأمر الصحيح. كتب الحارس جيوف لاندري، الشقيق الأصغر للحارس جون لاندري، أنه يشعر بالذنب أثناء ممارسات إهانة وإذلال السجناء بإبقائهم عراة لفترات طويلة في أوضاع غير مريحة، كان يشعر بالأسف

لعدم تدخله لإيقاف بعض الأمور التي استهجنها، لكنه بدلاً من الاعتراض يترك الساحة قدر المستطاع لئلا يستمر في مقاساة هذه المماحكات المزعجة بين الحراس والسجناء. الحارس أرنيت، طالب دراسات عليا في علم الاجتماع، وهو أصغر سنًا من الباقين بسنوات قليلة كان يشكّك في النتيجة المرجوة من عملية تهيئة السجناء، ويعتقد أن مستوى الأمن سيء في نوبته وأن الحراس الآخرين مهذبون للغاية، فقد تمكّن بعد لقاءاته القليلة مع السجناء في يومه الأول من تحديد مثيري الشغب من بينهم وتحديد المسالمين، كما لفت النظر إلى شيء لم نلاحظه أثناء مراقبتنا ولكن انتبه إليه الضابط جو أثناء اعتقاله نوم تومسون؛ فقد كان لديه تخوف تجاه السجين رقم ٢٠٩٣.

لا يحب أرنيت حقيقة كون السجين ٢٠٩٣ نوم «مطيعًا أكثر مما ينبغي» في «التزامه التام بكافة الأوامر والقواعد»[1]. (وبالفعل، سيطلق بقية السجناء على زميلهم رقم ٢٠٩٣ لقب «الرقيب» للسخرية من أسلوبه العسكري في التزام الأوامر، لقد قام بتبني قيم صارمة يمكن أن تصطدم مع قيم الحراس وهو ما يجب أن نراقبه أثناء مواصلتنا قُدُماً، تَذكّر أنه شيء لاحظه من قبلُ الضابطُ الذي قام باعتقال نوم).

وعلى النقيض فإن رقم ٨١٩ يعتبر أن الموقف بأسره «ممتع»[2]، وأبدى استمتاعه بعمليات الإحصاء الأولى، فهي «مجرد مزحة»، وقد شعر بأن بعض الحراس يأخذونها على هذا النحو أيضًا. أما السجين رقم ١٠٣٧ فيرى أن الباقين جميعًا يخضعون لنفس المعاملة المهينة التي يتعرض لها لكنه مع ذلك يرفض أن يأخذ أيًا من هذا على محمل الجد، ما يشغل باله أكثر هو الجوع الشديد الذي يقرصه بسبب تناوله إفطارًا لا يسد الرمق؛ وكان بانتظار وجبة الغداء التي لم تأتِ أبدًا؛ فافترضَ أنه عقاب آخر فرضه الحراس. أغلب السجناء في الحقيقة قد تصرفوا بصورة لائقة ولكننا نسينا الغداء لأن الاعتقالات أخذت منا وقتًا طويلاً وكان أمامنا الكثير من الأمور لننجزها، من بينها أن أحد الطلبة الذين وقع عليهم الاختيار لأداء دور الحارس قد قرر أن يُلغي عقده في آخر لحظة، لكن لحسن الحظ حصلنا على بديل من مجموع المتقدمين الذين احتفظنا بهم لنوبة الليل، إنه الحارس بوردان (Burdan).

بدء نوبة الليل

وصل حراس نوبة الليل قبل ميعادها حيث تبدأ في الساعة السادسة مساءً وذلك ليرتدوا أزياءهم الجديدة، ويجربوا النظارات الشمسية الفضية العاكسة، ويجهزوا أنفسهم

---

(١) تقارير حراس النوبات.

(٢) تقييم نهائي مسجل للسجين.

بالصفارات والأصفاد والهراوات، ثم قاموا بتسجيل حضورهم في مكتب الحراس الموجود في الأسفل على بعد خطوات قليلة من مدخل الساحة في ممر يستضيف أيضًا مكتبي آمر السجن ورئيس السجن، حيث توجد لوحة على باب مكتب كل منهم. يتبادل حراس نوبة النهار التحية مع زملائهم ويخبرونهم بأن كل شيء على ما يرام، لكن يضيفون أن بعض السجناء لم يندمجوا تمامًا في البرنامج بعد، ولذا تجدر مراقبتهم والضغط عليهم من أجل ضبطهم. قال أحد الحراس الجدد متفاخرًا: «سنقوم بهذا على أكمل وجه، ستراهم منضبطين عند عودتك غدًا».

أخيرًا قدّمنا وجبة الغداء في تمام الساعة السابعة، وهي وجبة بسيطة مقدمة بأسلوب الكافيتريات على طاولة مجهزة في الساحة[1]. لدينا مكان لستة أفراد فقط، وحالما ينتهون يأتي الثلاثة الباقون ليأكلوا ما تبقى. حاول السجين رقم ٨٦١٢ مباشرةً أن يقنع الآخرين بالإضراب جالسين احتجاجًا على الأوضاع «غير المقبولة» للسجن، ولكنهم يشعرون جميعًا بجوع شديد وعليهم أن يتدبروا أمرهم الآن. ٨٦١٢ هو الشاب الحكيم داج كارلسون، الأناركي الذي كلّم الضباط الذين قاموا باعتقاله بقحة وغلظة.

أُمر السجناء بالتزام الصمت مع عودتهم إلى الزنازين، لكن الرقمين ٨١٩ و٩٦١٢ لم ينصاعا للأمر، تحدثا وضحكا بصوت عال دون أن يحل بهم عقاب حتى الآن. إلى هذه اللحظة والسجين ٥٧٠٤ الأطول قامة صامت، ولكن غلبه إدمانه للتبغ وطالب بإعادة سجائره؛ فقيل له أن عليه أن يكون سجينًا صالحًا حتى يفوز بامتياز التدخين؛ فاعترض على هذا القانون باعتباره يخرق القواعد ولكن بلا طائل. وفقًا لقوانين التجربة يمكن لأي سجين أن يترك المكان في أي وقت، لكن يبدو أن السجناء نسوا هذا وسط سخطهم على الوضع، كان بإمكانهم التهديد بالرحيل كوسيلة لتحسين أوضاعهم أو حسم هذا الجدل، لكنهم لم يفعلوا لأنهم اندمجوا في أدوارهم بعمق وببطء.

كانت آخر مهام آمر السجن جافي الرسمية في اليوم الأول هي إعلام السجناء بأيام الزيارات المرتقبة، على أي سجين يرغب في رؤية أصدقاء له أو أقارب في الجوار أن يكتب لهم لزيارته. أخذ يشرح إجراءات كتابة الخطاب، ويعطي كل من يرغب في هذا الأمر قلمًا وورقة عليها شعار سجن بلدية ستانفورد، وظرف قد أُلصق عليه طابع. وكان

(١) جدول وجبات الأسبوع الأول: يوم الأحد: لحم مطهو. يوم الاثنين: فاصوليا حارة. يوم الثلاثاء: شطيرة الدجاج. يوم الأربعاء: ديك رومي آلا كينج. يوم الخميس: شطيرة الذرة مع شرائح الباكون. يوم الجمعة: سباجيتي بكرات اللحم المفروم. الإفطار: ٥ أونصات من العصير، حبوب قمح أو بيض مسلوق، وتفاحة. الغداء: شريحتين من الخبز مع واحدة من الأطعمة الباردة التالية: نقانق، لحم خنزير مدخن، نقانق الكبد. تفاحة، قطعة بسكويت، لبن أو مياه.

عليهم إعادة كل ما تسلموه بعد انتهاء المدة الوجيزة المخصصة للكتابة. وقد تم إعلامهم بأن من صلاحيات الحراس رفض كتابة أي فرد للخطاب إذا لم يلتزم بالقواعد أو فشل في نطق رقم تعريفه في السجن أو لأي سبب آخر يراه الحراس. بمجرد الانتهاء من كتابة الخطابات وتسليمها للحراس أُمر السجناء بالخروج من الزنازين لأول إحصاء ليلي، وبكل تأكيد يقرأ فريق العمل جميع الخطابات لدواعٍ أمنية، ويحتفظون بنسخ منها في ملفاتنا قبل إرسالها. أصبحت الزيارات وكتابة الخطابات لاحقًا هي الأداة التي يستخدمها الحراس بفعالية لإحكام سيطرتهم على السجناء.

المعنى الجديد للإحصاء

على حد علمي فإن لعملية الإحصاء وظيفتين: اعتياد السجناء على أرقامهم، والتأكد من وجود جميع السجناء مع بداية كل نوبة حراسة، كما يستخدم الإحصاء في كثير من السجون كوسيلة لمعاقبة السجناء. وعلى الرغم من أن الإحصاء الأول بدأ بنيّة صالحة إلا أن عمليات الإحصاء الليلية ومثيلتها النهارية ستتحول مع مرور الوقت إلى تجارب مريعة.

«حسنًا يا شباب، سنجري الآن إحصاءً صغيرًا! سنحظى بالكثير من المرح»، قالها الحارس هيلمان (Hellman) وابتسامة عريضة تعلو وجهه، وسرعان ما أضاف الحارس جيوف لاندري «بقدر ما يحسن أداؤكم؛ ننتهي من الأمر بصورة أسرع». يخرج السجناء المنهكون إلى الساحة في صمت ولا ينظرون إلى بعضهم. كان يومًا طويلاً بالفعل، ومن يدري ما يُخبأ لهم قبل أن يتمكنوا من الحصول على قسط جيد من النوم.

يمسك جيوف لاندري بزمام الأمور: «استديروا وضعوا أيديكم على الحائط! الكلام ممنوع، أتريدون الاستمرار في هذا طيلة الليل؟ لن نتوقف حتى تنجزوا هذا الأمر بصورة صحيحة، والآن ابدؤوا العد كلٌ على حدة». قال هيلمان مضيفًا: «أريدكم أن تؤدوا هذا بسرعة، وبصوت مرتفع». ينفذ السجناء الأمر. «لم أسمع جيدًا، سنعيدها مرة أخرى لقد كان هذا شديد البُطء يا شباب، لنكرره مرة أخرى»، «هذا جيد». يتدخَّل لاندري قائلاً: «سنعيدها مرة أخرى». لكن بعد قيام عدد قليل فقط بترديد أرقامهم يصيح هيلمان قائلاً: «توقفوا! هل تعتبرون هذا الصوت مرتفعًا؟ ربما لم تسمعوني جيدًا، لقد قلت أريد صوتًا مرتفعًا، وواضحًا». «لنرى إن كنتم قادرين على العد بالعكس؛ فلنبدأ من الطرف الآخر»، يقول لاندري بشيء من الهزل: «ما خطبكم؟ لا أريد أن أرى أحدًا يضحك!» قال هيلمان بلهجة خشنة: «سنظل هنا طوال الليل حتى تنجزوا الأمر بطريقة صحيحة».

تنبّه بعض السجناء لوجود صراع سيطرة بين هيلمان ولاندري الصغير. بدأ السجين ٨١٩ الذي لم يحمل أيًا من هذا على محمل الجد يضحك بصوت شديد الارتفاع بسبب

تنافس لاندري وهيلمان على حساب راحة السجناء. قال هيلمان بنبرة غاضبة للمرة الأولى: «هاي، هل أخبرتك أن الضحك جائز، ٨١٩؟ ربما لم تنصت إليّ جيدًا»، ثم وقف أمام السجين مباشرة ودفعه إلى الخلف بهراوته، ليأتي لاندري ويدفع زميله بعيدًا ويأمر السجين بتأدية تمرين الضغط عشرين مرّة، وهو ما ينفّذه السجين دون أي تعليق على ما يجري.

رجع هيلمان إلى منتصف الساحة: «الآن، غنّوها». ومع بدأ السجناء الغناء مرةً أخرى قاطعهم: «ألم أقل «غنّوها»؟ ربما كانت تلك الجوارب ضيقة على رؤوسكم إلى الحدّ الذي يجعلكم عاجزين عن سماع ما أقول». يصبح هيلمان أكثر إبداعًا في أساليب السيطرة والخطاب. يتحول إلى السجين ١٠٣٧ بسبب نشاز غنائه ويطلب منه أن يؤدي تمرين القفز عشرين مرة، ثم بعدما انتهى بادره هيلمان: «هلّا قمت بعشرة إضافية من أجلي؟ لكن بدون أن تصدر السلسلة المعلقة في قدمك أي صوت». كانت أوامر تعسّفية لكن الحراس كانوا مستمتعين بإصدار الأوامر وإجبار السجناء على تنفيذها.

على الرغم من كون غناء السجناء أمرًا طريفًا، إلا أن الحارسين يتحدثان فيما بينهما قائلين: «لا أجد أي شيء طريف في هذا الأمر»، وقالا بتذمر: «هذا مروّع، سيئ للغاية»، «الآن مرة أخرى». قال لهم هيلمان: «أرغب في سماعكم تغنونها، أريدها عذبة». يستمر الحراس في إجبار السجناء على تأدية تمارين الضغط إما بسبب التباطؤ أو لخشونة الصوت.

ومع دخول الحارس البديل بوردان بصحبة آمر السجن؛ يتحول الثنائي المتجانس هيلمان ولاندري مباشرة إلى جعل السجناء يرددون أرقامهم التعريفية، لا الأرقام بحسب ترتيب وقوفهم في الصف كما كانوا يفعلون، وبالطبع لم يكن لهذا أي معنى رسمي. بعد ذلك يُصّر هيلمان على عدم السماح لهم بالنظر إلى أرقامهم التعريفية أثناء العدّ؛ إذ ينبغي أن يكونوا قد استظهروها الآن. وإذا أخطأ أي سجين في رقمه فسيعاقب الجميع باثني عشر تدريب ضغط. مع استمرار الصراع الدائر بينه وبين لاندري على احتلال موقع الصدارة؛ يزداد هيلمان استبدادًا: «لا يعجبني العد التنازلي الذي تقومون به، أريد عدًا تصاعديًا، قم بعشر تمارين ضغط أخرى من أجلي، هل ستفعل، ٥٤٨٦؟». نرى بوضوح ارتفاع مستوى انصياع السجناء للأوامر، وهو الأمر الذي يدفع الحراس للتمادي فيما يطلبونه منهم. قال هيلمان: «حسنًا، كان هذا عظيمًا، لماذا لا تغنونها هذه المرة؟ أنتم لا تحسنون الغناء يا رجال، لم يبدُ هذا رقيقًا بالنسبة لي». «لا أعتقد أنهم يستمتعون بما يفعلون، اجعلوها ناعمة ورقيقة، اجعلوها تطرب الآذان» يقول لاندري. استمر ٨١٩ و٥٤٨٦ في السخرية من الوضع في حين يمتثلان بشكل يثير الاستغراب لأوامر الحراس بتأدية تمارين القفز كعقوبة.

اندمج الحارس الجديد بوردان في الأجواء بسرعة تفوق زميليه السابقين، لكنه حصل على تدريب عملي بمشاهدة زميليه يتفاخران بما يقومان به. «أوه، لقد كان أداءً جميلاً الآن، هذا ما أريده منك ٣٤٠١، تعالَ إلى هنا وغنِّ وحدك، أخبرنا ما رقمك!» يتمادى بوردان أكثر من زميليه ليبدأ يجذب السجناء خارج الصف من أجل الغناء المنفرد أمام الباقين.

أصبح السجين ستو ٨١٩ معروفًا، فقد جعلوه يغني منفردًا مرارًا وتكرارًا، لكن لم يقل أحد أن غناءه «رقيقٌ بما يكفي»، لم يحدث هذا أبدًا. تبادل الحراس المزاح: «بالتأكيد لا يبدو صوته رقيقًا!»، «لا، لا يبدو رقيقًا على الإطلاق». «عشرة مرات أخرى». أعجب هيلمان باندماج بوردان الذي بدأ يتصرف كما لو كان حارسًا حقيقيًا، لكنه غير مستعد لترك السيطرة له أو للاندري. طلب هيلمان من كل سجين أن يُردد رقم السجين الذي يليه في الصف، وكلما فشل أحدهم في هذا - وهو ما حدث مع أغلبهم - قاموا جميعاً بتأدية تمرين الضغط مجددًا.

«٥٤٨٦، تبدو منهكًا فعلاً، ألا يمكنك أن تأتي بأفضل من هذا؟ خمسة إضافية». أتى هيلمان بخطة مبتكرة حتى يُعلّم جيري ٥٤٨٦ رقمه بحيث لا ينساه: «أولاً تأتي بتمرين الضغط خمس مرات، ثم تقفز أربع قفزات، ثم تأتي بثمانية تمرينات ضغط ثم بست قفزات حتى تتذكر هذا الرقم، ٥٤٨٦». إنه يزداد إبداعًا في تصميم عقوبات جديدة، وهو أول علامات الشرّ الخلّاق.

انسحب لاندري بعيدًا عن الساحة، يبدو أنه تخلّى عن القيادة لهيلمان، وبينما هو على هذه الحال كان بوردان يتحرك في كل مكان من الساحة، لكن لا على سبيل التنافس مع هيلمان؛ بل على سبيل الدعم إما بإضافة أوامر جديدة إلى أوامره أو بالتأكد من تنفيذ أوامره بدقة، لكن لاندري لم يكتفِ بعدُ فعاد وأمر بإحصاء جديد. لم يعجبه الإحصاء الأول، أمر السجناء التسعة المنهكين بالعد في مجموعات من اثنين، ثم ثلاثة، ثم أعلى فأعلى. بالتأكيد هو ليس في إبداع هيلمان، لكنه قادر على المنافسة. تشوش ٥٤٨٦، مما جعله يؤدي تمارين ضغط أكثر، أوقفه هيلمان قائلاً: «كان عليّ أن أجعلك تؤدي تمارين الضغط سبع مرات، لكن أعرف أنك لست شديد الذكاء، تعالَ وخذ بطانيتك». حاول لاندري المواصلة: «انتظر، انظر، توقف، يداك إلى الحائط». لكن هيلمان لم ينصت له، وبأسلوب شديد التسلط تجاهل أمر لاندري الأخير وأمر السجناء بالانصراف وأخذ الملاءات والأغطية وتجهيز الأسرّة حتى إشعار آخر، ثم أغلق هيلمان الذي أصبح مسؤولاً عن المفاتيح أبواب الزنازين.

اولى علامات التمرد

في نهاية النوبة وعند مغادرته الساحة صاح هيلمان بالسجناء: «حسنًا أيها السادة، هل استمتعتم بالإحصاء الذي قمنا به؟»، «لا يا سيدي!»، «من قال هذا؟»، اعترف السجين ٨٦١٢ معللاً ذلك بأنه نُشّئ على ألا يكذب. هرع جميع الحراس إلى الزنزانة رقم (٢)، وأتوا بالسجين ٨٦١٢ الذي رفع قبضته المحكمة محيًا التحية التي تميّز الأصوليين المنشقين وهو يصيح: «السُلطة للشعب!»، ثم ألقي في «الحفرة» ليصبح أول نزلائها. أبدى الحراس اتفاقهم على مبدأ واحد؛ لن يسمحوا بأي انشقاق. كرر لاندري سؤال هيلمان السابق للسجناء: «حسنًا، هل استمتعتم بالإحصاء؟»، «نعم سيدي». «سيدي، ماذا؟»، «نعم سيدي الضابط الإصلاحي». «نعم، هذا أقرب للصيغة الصحيحة». ولعدم وجود من ينوي تحدي سلطتهم بشكل صريح ومعلن؛ نزل الفرسان الثلاثة إلى الساحة في تشكيل أشبه ما يكون بالعروض العسكرية، وقبل الذهاب إلى مقر الحراس دخل هيلمان إلى الزنزانة (٢) ليُذكّر النزلاء: «أريد هذه الأسرّة مُرتبة كما لو كانت شطيرة تُفاح»، لاحقًا، ذكر السجين ٥٤٨٦ أنه شعر بالاكتئاب عندما اقتيد السجين ٨٦١٢ إلى الحفرة، وشعر أيضًا بالذنب لأنه لم يفعل شيئاً لمساعدته، لكنه برر موقفه بأنه لم يرغب في التضحية براحته أو بإلقائه في الحبس الانفرادي، كما ذكّر نفسه بأنها «مجرد تجربة»[1].

قبل إطفاء الأنوار بحلول الساعة العاشرة مساءً سُمح للسجناء بالذهاب إلى دورة المياه للمرة الأخيرة هذه الليلة، يتطلّب الذهاب إليها تصريحًا، ويُدخلون واحدًا أو اثنين في المرة الواحدة، تُعصّب أعينهم ويُخرجون من بوابة السجن ثم يسير بهم الحراس حول الممر بشكل دائري مرورًا بغرفة غلّايات التدفئة المزعجة بغرض التشويش عليهم؛ فلا يتمكنون من تحديد مكانها أو تحديد مكانهم. بعد ذلك ستُختصر هذه الإجراءات غير الفعالة بسبب اعتياد السجناء على المرور من هذا الطريق الذي كان يشمل استخدام المصعد في بعض الأحيان لزيادة التشويش.

في البداية، يقول السجين توم ٢٠٩٣ أنه يحتاج إلى وقت أطول من المخصص له، فهو لا يستطيع التبول بسبب توتره، ومع رفض الحرّاس اتّحد السجناء على رأي واحد وأصروا على منحه الوقت الكافي. قال ٥٤٨٦ بنبرة تحدٍّ: «إنها مسألة تأكيد أن هناك أمورًا نحتاجها»[2]. تلك الأحداث البسيطة مجتمعة يمكن أن تشكل هوية جماعية للسجناء وهو أمر يفوق مجرد وجودهم كمجموعة من الأفراد الذين يحاول كل منهم أن يتعايش بمفرده.

---

(١) مذكرات السجين.

(٢) مذكرات السجين.

يشعر السجين المتمرد داج ٨٦١٢ أن الحراس يُمثّلون الدور وأن سلوكهم هو نوع من المزاح، لكنهم «يتمادون»، سيواصل جهوده في تنظيم السجناء الآخرين حتى تكون لهم قوة أكبر. وعلى النقيض فإن سجيننا جميل الشعر، هابي ٧٢٥٨، قال: «مع مرور اليوم، تمنيت لو كنت حارسًا»[1]. ولم يكن مفاجئًا أنه لم يوجد بين الحراس من تمنّى أن يكون سجينًا.

سجين متمرد آخر، ٨١٩، عرض مشكلته في رسالته لعائلته، وطلب منهم أن يأتوا لزيارته، وذيّل الرسالة بقوله: «كل السلطة للأخوة المضطهدين. النصر قادم لا محالة. أنا لا أمزح، أنا سعيد هنا قدر ما يسع السجين من سعادة»[2]. اتفق آمر السجن وحراس نوبة الليل أثناء لعب الورق في مقرهم على خطة لأول إحصاء في نوبة الصباح، خطة ستسبب توترًا للسجناء. بعد وقت قصير من بداية النوبة سيقف الحراس بالقرب من أبواب الزنازين لإيقاظ السجناء باستخدام صفّارات مزعجة، سيساعد هذا حراس النوبة الجديدة على التماهي مع أدوارهم بسرعة، ويُقلق نوم السجناء في الوقت نفسه. أعجب لاندري وبوردان وهيلمان بهذه الخطة، وبينما هم مستمرون في اللعب كانوا يناقشون كيف يمكن أن يصبحوا حراسًا أفضل في الليلة التالية. كان هيلمان ينظر إلى الأمر برمته على أنه «مرح ولعب»، وقد قرّر أن يبدو وغدًا من الآن فصاعدًا، «أن يلعب دورًا أكثر استبدادًا» كما يحدث في الأخويات السرية أو الأفلام عن السجون، مثل فيلم (لوك الشجاع)[3].

كان بوردان في وضع حسّاس بين زميليه، بدأ جيوف لاندري بقوة لكن مع حلول الليل أذعن لحلول هيلمان الخلاقة واستسلم أخيرًا لقوة أسلوبه. لاحقًا، سيتحول لاندري إلى دور «الحارس الصالح» وسيعامل السجناء بود ولن يشارك في إهانتهم. إذا أخذ بوردان صف لاندري؛ سيتمكنان معًا من كبح سطوة هيلمان، لكن إذا أخذ بوردان صف الفتى القاسي سيصبح لاندري هو الغريب في هذه النوبة وسيكون في وضع سيئ. كتب بوردان في مذكراته أنه شعر بالتوتر عند تَلَقّيه تلك المكالمة المفاجئة في الساعة السادسة مساءً والتي تدعوه إلى الذهاب إلى مقر العمل بأقصى سرعة.

الهيئة العسكرية التي اتخذها جعلته يبدو سخيفًا خاصة مع الشعر المتناثر على وجهه، كان تناقضًا جعله يخشى سخرية السجناء منه فتعمد ألا يبادلهم النظرات وألا يبتسم وألا يحمل الأمر على كونه مجرد لعبة. لم يكن حاله شبيهًا بحال هيلمان ولاندري اللذين بدت عليهما الثقة في الأداء. كان ينظر إليهما على أنهما «أعضاء نظاميون» على الرغم من

---

(١) مذكرات السجين.

(٢) رسالة السجين المؤرشفة.

(٣) ما قاله الحارس في لقاء محطة NBC، الذي أذيع في نوفمبر ١٩٧١م.

وصولهما قبله بساعات قليلة. بالنسبة له فإن الشيء الأكثر إمتاعًا هو حمله للهراوة التي تعطيه إحساسًا بالقوة والأمن لدى تهديده باستخدامها، والتي كان يمرّها على قضبان أبواب الزنازين أو يقرع بها على باب «الحفرة» أو يضرب بها على يده، وصارت جميعها إشاراته الروتينية بعد ذلك، جعله فاصل غناء الراب في نهاية نوبته أكثر قربًا من صورته القديمة وأكثر تنائيًا عن صورة الحارس الذي أسكرته السلطة، مع ذلك فقد ألقى لاندري خطابًا حماسيًّا حول ضرورة العمل جميعًا كفريق من أجل السيطرة على السجناء وعدم السماح بأي تمرّد.

إطلاق الصافرات في الساعة ٢،٣٠ صباحًا

تبدأ نوبة الصباح في تمام الساعة ٣٠: ٢ ص، وتنتهي في تمام الساعة ١٠ص. أعضاء النوبة هم أندري سيروس (Andre Ceros)، وشاب آخر طويل الشعر واللحية، وانضم إليه كارل فاندي (Karl Vandy). هل تذكرون فاندي الذي ساعد حراس نوبة النهار في نقل السجناء من سجن البلدة إلى سجننا؟ من أجل ذلك بدأ عمله منهكًا. كان شعره طويلاً ناعمًا كشعر بوردان. الحارس الثالث، مايك فارنيش (Mike Varnish)، تشبه بنيته في قوتها بنية لاعب الهجوم في كرة القدم الأمريكية، ولكنه أقصر قامة من زميليه. عندما أخبرهم آمر السجن بأنهم سيعلنون بدء نوبتهم بإيقاظ السجناء بصورة مفاجئة؛ اغتبط ثلاثتهم لبدئهم النوبة بكثير من الإثارة.

بينما يغطّ السجناء في نوم عميق وكان بعضهم يشخر في زنزانته المظلمة؛ إذ بصفارات عالية تشق الصمت فجأة مصحوبة بصراخ الحراس: «قوموا، تحركوا»، «استيقظوا واخرجوا إلى هنا من أجل الإحصاء!»، «حسنًا، أيتها الجميلات النائمات، الآن حان وقت التأكد من إتقانكم لعملية الإحصاء». اصطف السجناء مترنحين أمام الحائط وبدؤوا في العدّ بلا تركيز بينما يختلق الحراس الثلاثة أساليب مختلفة وجديدة للعدّ. استمر الإحصاء وتدريبات الضغط والقفز لمدة ساعة مُنهكة، وأخيرًا أمر السجناء بالذهاب إلى النوم حتى وقت الاستيقاظ بعد ساعات قليلة. ذكر بعض السجناء أنهم شعروا بأولى علامات التشوش والمفاجأة والإرهاق والغضب، وأقرّ آخرون لاحقًا بأنهم فكروا في الانسحاب ها هنا.

أصبح الحارس سيروس الذي لم يكن مرتاحًا في زيّه أول الأمر معجبًا بتأثير ارتداء نظارة شمسية فضية عاكسة، فهي تجعله يبدو «من أصحاب السلطة»، لكن الصافرة التي يتردد صداها عبر الغرفة المظلمة ترعبه قليلاً. يشعر سيروس بأنه أكثر رقة من أن يكون حارسًا جيدًا، لذلك حاول تحويل رغبته في الضحك إلى «ابتسامة سادية»[1]. بدأ يتخلى

(١) مذكرات الحارس.

عن فكرة رفضه للتجربة وهنّأ آمر السجن على أساليبه السادية التي كان يقترحها والهادفة لتحسين عملية الإحصاء. أقرّ فارنيش لاحقًا بعلمه أن التحول إلى حارس صارم سيكون مرهقًا بالنسبة له، ولذلك كان يراقب الآخرين ليستلهم منهم كيفية التصرف في هذا الوضع غير المألوف كما يفعل غالبيتنا عندما نجد أنفسنا في موقف غريب. كان يشعر بأن المهمة الأساسية للحراس هي خلق ظروف تُنسي السجناء هوياتهم القديمة وتجعلهم يتبنون هويات جديدة.

بعض الملحوظات والمخاوف المبدئية

أثارت ملحوظاتي هذه المرة عددًا من الأسئلة التي ستصبح مدار اهتمامي في القابل من الأيام: هل ستستمر الوحشية الاستبدادية للحراس في الازدياد، أم أنها ستصل إلى نقطة توازن؟ هل نتوقع منهم أن يتراجعوا إذا ما عادوا إلى منازلهم واسترجعوا ما فعلوه هنا؟ هل يشعرون بالخجل إزاء تجاوزاتهم ومن ثم يعمدون إلى التصرف بطيبة أكثر؟ هل من الممكن أن يتصاعد العنف اللفظي ليتحول إلى إيذاء جسدي؟ الملل الذي ينتابهم جرّاء طول ساعات النوبة والتي تصل إلى ثماني ساعات قد دفع الحراس بالفعل إلى اتخاذ السجناء وسيلة للتسلية، كيف سيتصرفون مع هذا الملل باستمرار التجربة؟ وبالنسبة للسجناء؛ كيف سيتصرفون مع ملل العيش كسجناء على مدار الساعة؟ هل سيتمكنون من الحفاظ على أية كرامة أو حقوق بالتوحّد في مواقفهم، أم أنهم سيتركون أنفسهم خاضعين تمامًا لما يطلبه منهم الحراس؟ كم سيمضي من الوقت قبل أن يقرر أحد السجناء أنه قد اكتفى فيترك التجربة، وهل سيدفع هذا الآخرين إلى الاقتداء به؟ رأينا شدة اختلاف الأساليب بين نوبتي النهار والليل، فكيف سيكون شكل نوبة النهار؟

كان واضحًا أن هؤلاء الطلبة احتاجوا بعض الوقت ليتقمصوا أدوارهم الجديدة والذي فعلوه بكثيرٍ من التردد وبعض الارتباك، ما زال إحساسهم بكونها تجربة عن حياة السجن أقوى من إحساسهم بكونها سجنًا حقيقيًا، وربما لا يتمكنون أبدًا من تجاوز ذلك الحاجز النفسي الذي يمنعهم من الإحساس بأنهم مسجونون بالفعل في مكان لا يملكون فيه قرار المغادرة بإرادتهم، كيف يمكننا انتظار مثل هذه النتيجة في مكان يرون فيه بوضوح أنها مجرد تجربة على الرغم من الواقعية الشديدة لاعتقالات الشرطة؟

في توجيهي للحراس يوم السبت حاولت حثّهم على النظر إلى هذا المكان كسجن حقيقي من حيث محاكاته لطريقة عمل السجون الحقيقية، وحاولت أن أشرح لهم حالة التهيؤ الوجداني الذي يُميّز العلاقة بين الحراس والسجناء في السجون الحقيقية، والتي علمت عنها من خلال حديثي مع مستشاري المتخصص في السجون، المعتقل السابق كارلو

بريسكوت، ومن الدورة الصيفية التي أتممناها لتوّنا عن علم نفس السجن. تخوفت من كوني قد أعطيتهم الكثير من التوجيهات بما يجعلهم منفذين بدلاً من اندماجهم التدريجي في أدوارهم الجديدة والذي سيتم عبر الخبرات التي سيكتسبونها من خلال أدائهم للمهمة. حتى الآن، كان واضحًا أن الحراس متباينون في تصرفاتهم ولا يتحركون وفق مخطط معدّ سلفًا، دعونا نراجع ما حدث في عملية تأهيل الحراس.

تأهيل الحراس يوم السبت

التقى فريقنا خلال تجهيزنا للتجربة مع اثني عشر من الحراس لمناقشة أهدافها وإعلامهم بالواجبات واقتراح وسائل لإبقاء السجناء تحت السيطرة دون استخدام أية عقوبات جسدية. وزعنا تسعة حراس عشوائيًا على ثلاث نوبات، والثلاثة الآخرين أبقيناهم للدعم أو لإراحة الأساسيين أو لحالات الطوارئ. بعد أن قدمت لهم نظرة عامة عن سبب اهتمامنا بدراسة حياة السجن، شرح آمر السجن ديفيد جافي بعض أعمال وواجبات الحراس، بينما قدم كلاً من كريج هاني وكيرت بانكس باعتبارهما مستشارين نفسيين معلومات تفصيلية عما ينبغي أن تكون عليه اعتقالات يوم الأحد وإدخال السجناء الجدد في سجننا.

أخبرتهم خلال مراجعة أهداف التجربة أنني أعتقد أن جميع السجون هي مجازات مادية تعبر عن فقد الحرية الذي نشعر به جميعًا بطرق مختلفة ولأسباب مختلفة، باعتبارنا علماء في علم النفس الاجتماعي نريد أن نفهم الحواجز النفسية التي تصنعها السجون بين البشر. بالطبع كانت هناك حدود لما يمكننا فعله في هذه التجربة باستخدام «سجن مزيف»، فمن ناحية يعرف السجناء أنهم موجودون هنا لمدة قصيرة نسبيًا تصل لأسبوعين، بخلاف السنوات الطويلة التي يقضيها معظم السجناء الحقيقيون، ومن ناحية أخرى كانوا يعرفون أن هناك حدودًا لما قد يُفعل بهم بخلاف السجن الحقيقي حيث يتعرض السجناء للضرب والصعق والاغتصاب؛ بل والقتل في بعض الأحيان. أوضحت لهم أن التعدي «جسديًا» على السجناء بأية صورة ممنوع.

أوضحت كذلك أننا ـ وعلى الرغم من العوائق ـ أردنا أن نخلق مناخًا نفسيًا يحاكي بعض الخصائص الأساسية للعديد من السجون، والتي علمت عنها مؤخرًا.

قلت: «لا يمكننا الاعتداء عليهم جسديًا أو تعذيبهم»، «بإمكاننا صناعة حالة من الملل، أن نخلق شعورًا بالإحباط، يمكن أن نزرع فيهم الخوف إلى حدٍّ ما، وأن نخلق استبدادًا يحكم حياتهم ويخضعهم لسيطرتنا بشكل كامل، لسيطرة النظام، أنتم وأنا وجافي. لن تكون لهم أية خصوصية على الإطلاق وسيخضعون لمراقبة مستمرة، لن يأتوا بأي شيء

لا يمكننا ملاحظته، ولن تكون لهم أية حرية في التصرّف، ولن يكونوا قادرين على فعل أو قول ما لا نسمح به. سنسلبهم استقلاليتهم بطرق عديدة، مثلاً، سيرتدون زيًّا موحدًا، ولن ينادَوْا بأسمائهم أبدًا، ستكون لهم أرقام، وسينادون فقط بأرقامهم. بشكل عام يجب أن بخلق هذا فيهم الإحساس بالعجز، لدينا السلطة المطلقة في هذا الموقف وهم لا يملكون شيئًا. سؤال الدراسة هو: ما الذي سيفعلونه لمحاولة كسب السلطة، لاستعادة بعض الاستقلالية، لاكتساب بعض الحرية، واكتساب بعض الخصوصية؟ هل سيتعاون السجناء ضدنا أثناء تحركهم بحرية خارج السجن لاستعادة بعضٍ مما يمتلكون في هذه اللحظة؟»[1].

أوضحتُ للحراس المبتدئين أن السجناء على الأرجح سينظرون إلى كل هذا على أنه «مرح ولعب»، لكن الأمر عائد لنا جميعًا كطاقم عمل السجن في إنتاج الحالة النفسية المطلوبة للسجناء طوال مدة الدراسة، علينا أن نجعلهم يشعرون وكأنهم في السجن، لا يجب أن نأتي مطلقًا على ذكر كونهم في تجربة. بعد الإجابة على العديد من أسئلة الحراس المستقبليين شرحتُ لهم باختصار كيفية الاختيار من بين النوبات الثلاثة وفقًا لتفضيلاتهم على أن يكونوا في مجموعات من ثلاثة أفراد، ثم أوضحت أن نوبة الليل المزهود فيها ظاهريًّا ستكون الأسهل؛ لأن السجناء نائمون نصف الوقت على الأقل. «نسبيًّا سيكون أمامكم القليل لتقوموا به، لكن يجب ألا تناموا، عليكم أن تكونوا متيقظين تحسبًا أن يخططوا لشيء»، وعلى الرغم من افتراضي أن نوبة الليل لن تشهد الكثير من العمل، إلا أن ما اتضح بعد ذلك هو أن تلك النوبة شهدت القدر الأكبر منه، وشهدت كذلك المعاملة الأكثر قسوة تجاه السجناء.

من الضروري أن أذكر مرة أخرى أن تركيزي المبدئي كان منصبًّا بصورةٍ أكبر على السجناء وتكيّفهم مع الظرف المشابه للسجن أكثر من تركيزي على الحرّاس الذين كانوا مجرد مجموعة مؤدية تساعد على خلق التهيؤ الوجداني لدى السجناء والذي يشعرهم أنهم مسجونون. كان هذا فيما أظن بسبب خلفيتي الاجتماعية المتواضعة والتي جعلتني أقرب للسجناء مني للحراس، وقد ساهم في تشكيلها بلا شك تواصلي الشخصي المكثف مع بريسكوت والسجناء السابقين الذين تعرفت عليهم مؤخرًا، لذلك كان حديثي التأهيلي مع الحراس يركّز على جعلهم يستوعبون الوضع عن طريق شرح بعض العمليات الظرفية والنفسية التي تحدث في سجن نمطي. تبين مع مرور الوقت أن سلوك الحراس لا يقل أهمية عن سلوك السجناء؛ بل ربما فاقه. هل كنا لنصل إلى نفس النتيجة بدون هذا التأهيل وبالاكتفاء بترك السياق السلوكي والأدوار يعملان عملهما؟ كما سترون، على الرغم من

---

(١) تفريغ نصي حرفي للقطة فيديو للقاء الحراس. انظر فيلم (Quiet Rage: The Stanford Prison Experiment)

هذه الإرشادات المتحيزة لم يبذل الحراس في بادئ الأمر الجهد المطلوب لصنع المواقف والسلوكيات المطلوبة لخلق التهيؤ السلبي عند السجناء، تطلب الأمر بعض الوقت حتى يخضعوا للضغوط الظرفية ولأدوارهم التي يقومون بها بطرق دفعتهم تدريجيًا إلى ارتكاب انتهاكات في حق السجناء، وهو الشرّ الذي كنتُ في النهاية مسؤولاً عن صناعته في سجن بلدية ستانفورد.

من زاوية أخرى، قيل لهؤلاء الحراس الذين لم يتلقوا أي تدريب رسمي أن عليهم في المقام الأول المحافظة على القانون والنظام، وألا يسمحوا للسجناء بالهروب، وألا يستخدموا العنف الجسدي مع السجناء مطلقًا، وأعطوا توجيهًا عامًا حول الجوانب السلبية لعلم نفس السجن. كانت الإجراءات تشبه أنظمة إدخال الحراس في الخدمة الإصلاحية بتدريب محدود، حيث يسمح لهم باستخدام القوة أيًا ما كانت في حالات الخطر فحسب. تمثل مجموعة القواعد التي أعطاها آمر السجن والحراس للسجناء إضافة إلى تعليماتي التوجيهية للحراس؛ إسهامات النظام في خلق مجموعة من الظروف التي يمكن أن تتحدى القيم والسلوكيات والنوازع الشخصية التي أتى بها هؤلاء المشاركون في التجربة إلى هذا الوضع الفريد. قريبًا سنرى كيف سينتهي الصراع بين قوة الظرف وقوة النفس.

الحرّاس	السجناء
نوبة النهار: ١٠ ص - ٦م أرنيت، ماركوس؛ لاندري (جون)	الزنزانة (١) ٣٤٠١: جلين ٥٧٠٤: بول ٧٢٥٨: هابي
نوبة الليل: ٦م - ٢ص هيلمان، بوردان؛ لاندري (جيوف)	الزنزانة (٢) ٨١٩: ستيوارت ١٠٣٧: رينش ٨٦١٢: داج
نوبة الصباح: ٢ص - ١٠ص فاندي، سيروس، فارنيش الحراس الاحتياطيون موريسو، بيتيرس	الزنزانة (٣) ٢٠٩٣: توم «الرقيب» ٤٢٣٥: جيم ٥٤٨٦: جيري

الفصل الرابع

اثنين تمرّد السجناء

الاثنين، الاثنين، سيكون يومًا كئيبًا ومُرهقًا لنا جميعًا، خاصة بعد اليوم الأول الطويل والليلة التي بدت وكأنما ستستمر أبد الدهر، وها هي الصافرة المزعجة تنطلق مجددًا لتستفز السجناء وتوقظهم على الفور في تمام السادسة صباحًا؛ فيخرجون من الزنازين متثاقلين بعيونٍ يملؤها العمش، يعدلون جوارب الرؤوس والقمصان، ويحلّون عقد السلاسل في أرجلهم، وجوههم في غاية العبوس. أخبرنا ٥٧٠٤ لاحقًا بأنه كان محبطًا من فكرة بدء هذا اليوم الجديد عالمًا أنه سيمُر «بذات المواقف القذرة مرة أُخرى، وربما أسوأ»[١].

يرفع الحارس سيروس الرؤوس المطأطئة، خاصة للسجين ١٠٣٧ الذي يبدو كأنما يمشي نائمًا، وأثناء انهماكه في تعديل وضعية وقوف السجناء المتراخين يقوم بدفع أكتافهم إلى الخلف حتى يقفوا منتصبي القامة، يشبه أُماً تجهِّز أطفالها الكسالى لأول يوم من العام الدراسي الجديد، لكنه أكثر عنفًا بقليل. حان الآن وقت تعلُّم المزيد من القواعد وأداء المزيد من التدريبات قبل تقديم الإفطار، أمسك فاندي زمام المبادرة: «حسنًا، سنستمر في تعليمكم هذه القواعد حتى تحفظوها عن ظهر قلب»[٢]. كانت طاقته مُعدية وجعلت سيروس

(١) الاقتباسات الموجودة في هذا الفصل وفي الفصول الأخرى عن تجربة سجن ستانفورد قادمة من مصادر بيانات متنوعة أحاول تحديدها عندما تكون قريبة الصلة بالموضوع. من بين تلك البيانات الأرشيفية نجد التفريغ النصي الحرفي للقطات فيديو صُورت في أوقات مختلفة من التجربة؛ تقارير حراس النوبات التي كان بعض الحراس يكتبها في نهاية كل نوبة؛ اللقاءات النهائية التي عقدت في نهاية الدراسة؛ تقارير التقييم النهائية التي كتبت بعدما عاد المشاركون إلى منازلهم ثم عودتهم في الغالب في غضون أسابيع قليلة؛ المذكرات التي أرسل لنا بعض منها في أوقات مختلفة بعد إنهاء الدراسة؛ لقاءات مسجلة صوتيًا؛ لقاءات في برنامج في محطة *NBC*، (*Chronolog, 1971*)، الذي أذيع في نوفمبر١٩٧١م؛ مشاهدات شخصية، وكذلك ذكريات أخرى كتبتها أنا وكريج هاني، وكريستينا ماسلاش في فصل منشور. هذا الاقتباس من التقييم النهائي.

(٢) ما لم ننص على خلاف ذلك، فإن حوارات الحراس والسجناء هذه مأخوذة من تفريغ نصي للقطات فيديو صُورت أثناء التجربة.

بمشي ذهابًا وإيابًا أمام صف السجناء مُلَوِّحًا بهراوته بلا توقف. يفقد سيروس صبره بسرعة عندما يفشلون في ترديد القواعد بسرعة كافية ويصيح فيهم: «هيا، هيا!»، يضرب بهراوته على كفه المنبسطة مصدرًا صوتًا يُنذر بالعدوانية التي يكبحها.

بدأ فاندي بقراءة قواعد استخدام دورة المياه لعدة دقائق وكررها عِدّة مرات حتى يصل بالسجناء إلى مستوى الأداء الذي يريد؛ فأعاد عليهم التعليمات المتعلّقة بكيفية ومدة الاستخدام والتزام الصمت أثناء ذلك. «يظن ٨١٩ أن الأمر مضحك، ربما لدينا شيءٌ مميزٌ من أجل ٨١٩». يقف الحارس فارنيش بعيدًا ولا يشارك فعليًا فيما يجري. يتبادل فاندي وسيروس الأدوار، والسجين ٨١٩ يستمر في التبسم بل ويضحك من سخف الموقف، «ليس هناك ما يضحك يا ٨١٩».

يتناوب الحارسان ماركوس وسيروس على قراءة القواعد على السجناء. قال سيروس: «رددوا هذه بصوتٍ أعلى! يلتزم السجناء بإبلاغ الحراس عن أية انتهاكات للقواعد». أُجبِر السُجناء على غناء القواعد، وكان واضحًا أنهم حفظوها كُلّها عن ظهر قلب بعدما أكثروا من ترديدها جدًا. يأتي الآن دور القواعد الخاصة بترتيب الأسِرّة وفق النظام العسكري، قال فاندي: «من الآن فصاعدًا ستلفّون ناشفكم وتضعونها بترتيب على طرف السرير. بترتيب، لا تلقوا بها كيفما اتفق، فهمتم؟»

بدأ السجين ٨١٩ يسيئ التصرف، فقد امتنع عن تأدية التمارين ورفض المواصلة، توقف الآخرون أيضًا إلى أن ينضم إليهم زميلهم. طلب منه الحارس أن يعود إلى استكمال التمارين وهو ما أذعن له من أجل رفاقه. أمره فاندي: «مبادرة لطيفة يا ٨١٩، الآن خذ مكانك في الحفرة»، وهو ما امتثل له ٨١٩ ولكن بعجرفة لا تخلو من المقاومة.

بتحركه بشكل منتظم وسريع جيئةً وذهابًا أمام السجناء؛ بدأ الحارس طويل القامة كارل فاندي يُعجب بإحساسه بالسيطرة.

«حسنًا؛ أي: نوع من الأيام هذا؟» يسمع همهمات.

«ارفعوا صوتكم، هل أنتم سعداء؟».

«نعم، سيدي الضابط الإصلاحي».

حاول فارنيش المشاركة في الأحداث والنظارف، سأل: «هل نحن جميعًا سعداء؟ لم أسمع صوتيكما».

«نعم سيدي الضابط الإصلاحي».

«٤٣٢٥، أي نوع من الأيام هو هذا!».

«يوم جيد سيدي الضابط الإصلاحي».

«لا، إنه يوم رائع!».

«نعم سيدي الضابط الإصلاحي».

بدؤوا بالتنغيم: «إنه يوم رائع سيدي الضابط الإصلاحي».

«٤٣٢٥، أي نوع من الأيام هو هذا».

«إنه يوم جيّد».

فاندي: «خطأ، إنه يوم رائع!».

«أجل سيدي، إنه يوم رائع».

«وأنت يا ١٠٣٧؟».

أضفى ١٠٣٧ على إجابته نبرة مفعمة بالحيويّة والسخرية: «إنه يوم رائع».

فاندي: «أعتقد أنكم ستكونون بخير. حسنًا، الآن عودوا إلى زنازينكم ورتبوها في ظرف ثلاث دقائق، ثم قفوا أمام الأسِرّة»، ثم أصدر توجيهاته لفارنيش حول كيفية تفتيش الزنازين، وبعد ثلاث دقائق دخل الحراس الزنزانات في حين يقف السجناء أمام الأسِرّة مثلما يحدث في التفتيش العسكري.

بدء التمرد

لا شك في أن الإحباط بدأ يتسلل إلى السجناء بسبب اضطرارهم لتحمل ما يفعله بهم الحراس. علاوة على ذلك هم جياع وما يزالون منهكين بسبب عدم حصولهم على القسط الكافي من الراحة في الليلة السابقة، لكن هم مستمرون مع ذلك في تأدية العرض ويبلون بلاء حسنًا في ترتيب أسِرّتهم، لكنه ليس حسنًا بما يكفي لإرضاء فاندي.

«أتسمي هذا ترتيبًا يا ٨٦١٢؟ هذا عبث، أعد ترتيبه بطريقة صحيحة»، ثم نَزَع البطانيات والملاءات وألقاها على الأرض مما جعل ٨٦١٢ يثب نحوه دون تفكير وينفجر في وجهه صارخًا: «لا يمكنك فعل هذا، لقد انتهيت من ترتيبه للتو!».

مأخوذًا بهول الصدمة؛ دفع فاندي السجين وضربه في صدره بقبضة يده وهو يصرخ طالبًا الدعم: «أيها الحراس، حالة طوارئ في الزنزانة (٢)!».

حاصر الحراس السجين ٨٦١٢ وألقوه في الحفرة بعنف حيث انضم إلى ٨١٩ الذي كان يجلس هناك بهدوء. بدأ المتمردان في التخطيط لثورتهم من داخل هذا المعتقل الضيّق المظلم، لكنهم فوتوا فرصة دخول دورة المياه التي اقتيد إليها الآخرون أزواجًا، وسرعان ما أصبحت مقاومتهما الحاجة إلى التبول مصدر ألم لهما مما جعلهما يؤجلان بدء المشاكل، لكن ليس لوقتٍ طويل. من المثير للاهتمام أن الحارس سيروس أخبرنا لاحقًا

بأنه كان يجد صعوبة في الثبات على شخصية الحارس عندما ينفرد بالسجناء أثناء اقتيادهم من وإلى دورة المياه، وذلك بسبب غياب الخصائص الشكلية لبيئة السجن والتي يعتمد عليها في مثل ذلك، وذكر ـ وكذلك أغلب الحراس ـ أنهم بدؤوا يتصرفون بصورة أكثر قسوة وتطلبًا أثناء اقتيادهم السجناء إلى دورة المياه لكبح ميلهم إلى التساهل أثناء وجودهم خارج موقع السجن، وكان الأصعب من ذلك بعد هو تمثيل دور الحارس القاسي عند الانفراد بالسجين واحدًا لواحد. كان ثمة شعور بالخزي أيضًا أن يختزل دور بالغين مثلهم في توصيل السجناء إلى دورة المياه[1].

فوّت ثنائي الحفرة المتمرد وجبة الإفطار التي قدمت طازجة في الموعد المحدد في تمام الثامنة صباحًا في الساحة. يتناول البعض وجبتهم وهم جلوس على الأرض في حين يتناولها آخرون وقوفًا. انتهكوا قاعدة «ممنوع الكلام» بسبب مناقشتهم أمر الإضراب عن الطعام لإظهار توحّد السجناء، كما اتفقوا على البدء بالمطالبة بالكثير من الأشياء بهدف اختبار مدى قوتهم؛ كاستعادة نظاراتهم الطبية وأدويتهم وكتبهم وكذلك عدم تأدية التمارين. أصبح السجناء الذين كانوا يلتزمون الصمت فيما سبق ومن ضمنهم السجين ٣٤٠١ الأمريكي الوحيد من أصل آسيوي؛ أكثر حماسة الآن في ظل الدعم المعلن من باقي الزملاء.

بعد الإفطار اختبر كل من ٧٢٥٨ و٥٤٨٦ الخطة برفض أمر العودة إلى الزنزانة مما أجبر الحراس على دفعهم إلى الزنازين. في العادة كان عصيان كهذا سيقذف بهما في الحفرة، لكن الحفرة كانت مكتظة باثنين هما أقصى طاقتها الاستيعابية. وسط هذا الضجيج المتصاعد كنت مذهولاً لسماع السجناء في الزنزانة (٣) يتطوعون لتنظيف الأطباق، كان هذا متماشيًا مع السلوك المتعاون لزميلهم في الزنزانة توم ٢٠٩٣، لكنه كان متناقضًا مع سلوك بقية زملائهم الذين يخططون للتمرد، ربما كانوا يأملون في تهدئة الأجواء وتخفيف حِدّة التوتر المتصاعد.

خلاف الاستثناء الملفت للانتباه لأولئك في الزنزانة (٣)؛ كان بقية السجناء يفلتون من زمام السيطرة. قرر ثلاثي النوبة الصباحية أن السجناء بالتأكيد يرون الحراس على قدر من اللين وهو ما يدفعهم إلى مثل هذا الشغب، ومن ثم قرروا أن وقت استخدام الشدّة قد حان. أولاً: ثبتوا فترة عمل صباحية للسجناء، وكان مقررًا عليهم اليوم تنظيف الجدران والأرضيات، ثم وفي أول ضربة انتقام جماعي مُبتكرة؛ أخذوا بطانيات سجناء الزنزانتين (١) و(٢) وحملوها إلى خارج المبنى وقاموا بجرها بين الشجيرات حتى امتلأت بالأشواك

---

(١) تقرير حراس النوبة.

الصغيرة، وكان على السجناء قضاء حوالي ساعة أو أكثر في تنقية البطانيات من هذه الشوائب ليتمكنوا من استخدامها إلا إن لم يمانعوا أن تخزهم الأشواك الحادة. جنّ جنون السجين ٥٧٠٤ وبدأ يصرخ مستنكرًا هذه الغباوة عديمة المعنى لكن هذا هو مربط الفرس؛ فتلك الأفعال الغبية والاستبدادية التي لا معنى لها هي الخلطة الرئيسية لسلطة الحراس. يريد الحراس معاقبة المتمردين وفرض حالة من الامتثال لا تُقابَل بأي اعتراض من أي نوع. أعاد ٥٧٠٤ التفكير في الأمر بعد أن كان رافضًا في البداية وقدر أن هذا سيجعله يحظى بثقة الحارس سيروس ومن ثم سيحظى منه بسيجارة، فبدأ في تخليص بطانيته مما تعلق بها من مئات ومئات الأشواك. ترتبط هذه الأفعال كلها بالأوامر والتحكم والسلطة، من يمتلكها ومن يريدها.

قال الحارس سيروس: «ليس ثمة إلا الأفضل في هذا السجن، ألا توافقونني جميعًا؟»

صدرت من السجناء همهمات تعلن الموافقة.

رد أحد سجناء الزنزانة (٣): «الأفضل بحقّ، سيدي الضابط الإصلاحي».

إلا أن ٨٦١٢ الذي أطلق سراحه من الحفرة للتو وأعيد إلى الزنزانة (٢)؛ كان لديه رأي مختلف: «أوه، تبًا لك، سيدي الضابط الإصلاحي». أُمر ٨٦١٢ بإغلاق فمه القذر.

كانت هذه أول بذاءة يُتلفظ بها في هذا المكان، توقعتُ أن يردّ الحراس بالكثير من السباب كتأكيد على دورهم السلطوي لكنهم لم يفعلوا بعدُ، ولم يكفّ داج ٨٦١٢ عن إطلاق الشتائم من حوله.

قال الحارس سيروس: «كان إحساسًا غريبًا أن تكون في موقع القيادة، شعرت بأنني أريد أن أصرخ فيهم قائلاً أن الجميع سواء؛ بدلاً من ذلك جعلت السجناء يصرخون في وجوه بعضهم البعض: «أنتم مجموعة من الحمقى!»، لم أصدق نفسي عندما رددوها مرات ومرات بأمر مني»[(١)].

أضاف فاندي: «وجدت نفسي أتقمص شخصية الحارس، لم أعتذر عن هذا، في الحقيقة أصبحت أكثر تسلطًا، كان السجناء يزدادون تمردًا وأردت معاقبتهم على خرق النظام»[(٢)].

أتت ثاني أمارات التمرد من مجموعة صغيرة من السجناء، ستو ٨١٩ وبول ٥٧٠٤ وللمرة الأولى ٧٢٥٨، هابي المطيع سابقًا، حيث قاموا بالاحتجاج بصوت عالٍ على

---

(١) مذكرات الحارس.

(٢) مذكرات الحارس.

أوضاعهم المعيشية غير المقبولة ونزعوا أرقام الهوية من على صدورهم؛ فاستجاب الحراس على الفور بتجريدهم من ملابسهم تمامًا إلى حين استبدال الأرقام. رجع الحراس إلى مقرهم وقد اهتز شعورهم بالتفوق، وخيّم على الساحة صمت غريب أثناء انتظارهم بشغف انتهاء أولى نوبات عملهم بالغة الطول.

مرحبًا بالتمرد، نوبة النهار

عندما وصل أفراد نوبة النهار وارتدوا ملابس العمل قبل بدء نوبتهم في الساعة العاشرة صباحًا؛ اكتشفوا أن الأمور ليست تحت السيطرة كما كانت عليه أمس وقت مغادرتهم، فقد اعتصم سجناء الزنزانة (١) داخلها وهم يرفضون الخروج. تدخل الحارس أرنيت سريعًا وطلب من حراس نوبة الصباح البقاء حتى تُحل هذه المشكلة، كانت نبرته تدل على تحميله إياهم مسؤولية خروج الأمور عن السيطرة بطريقة أو بأخرى.

بول ٥٧٠٤ هو قائد الثورة الذي جمع رفاقه في الزنزانة (١) هابي ٧٢٥٨ وجلين ٣٤٠١ ليتفقوا على أن وقت الردّ على خرق العقد الأصلي الذي عقدوه مع السُلطة (أنا) قد حان، دفعوا بالأسِرّة تجاه باب الزنزانة وسدوا فتحة الباب باستخدام البطانيات وأطفؤوا الأنوار، ولعدم تمكن الحراس من فتح الباب صبوا جام غضبهم على أفراد الزنزانة (٢) التي تضم أكبر مثيري الشغب، داج ٨٦١٢ ومعه ستو ٨١٩ أقدم سجناء الحفرة وريتش ١٠٣٧، ففي هجمة مضادة مفاجئة اندفع الحراس داخل الزنزانة وقاموا بسحب الأسِرّة الثلاثة وجرها بالقوة إلى الساحة بينما يقاوم ٨٦١٢ بشراسة، كانت تلك الزنزانة طافحة بالصراخ والشد والجذب وصولاً إلى الساحة.

«قفوا قبالة الحائط!».

«أعطني الأصفاد!».

«خذوا كل شيء، هاتوا كل شيء!».

صرخ فيهم ٨١٩: «لا، لا، لا! هذه مجرد تجربة! دعوني وشأني! اللعنة، اتركوني، أيها الملاعين! لن تأخذوا أسرّتنا اللعينة!»

قال ٨٦١٢: «محاكاة قذرة، إنها تجربة محاكاة لعينة، ليست سجنًا، واللعنة على دكتور زيمبارجو (Zimbargo)!

عقّب أرنيت بصوت واضح الهدوء: «عندما يبدأ سجناء الزنزانة (١) في التصرف بشكل لائق ستعود إليكم أسِرَّتكم، بإمكانكم التأثير فيهم بأية وسيلة ترون وعلى النحو الذي يجعلهم يحسنون التصرف».

«هذه أسرّتنا، ويجب ألا تأخذوها يلحّ أحد السجناء بنبرة أكثر هدوءًا».

باضطراب تام وصوت حزين قال ٨٦١٢: «لقد أخذوا ملابسنا، وأخذوا أسرّتنا! هذا لا يصدق! لقد أخذوا ملابسنا، وأخذوا أسرّتنا، لا يفعلون هذا في سجن حقيقي!»، فردّ عليه أحد السجناء: «بل يفعلون»[1]؛ فانفجر الحراس ضاحكين. دفع ٨٦١٢ بيديه من بين قضبان باب الزنزانة وبسط كفيه متوَسّلاً وعلامات الذهول تعلو وجهه ونبرة غريبة تمازج صوته، أمره الحارس ج. لاندري بإدخال يديه بعيداً عن الباب، لكن سيروس كان أكثر مباشرة وضرب بهراوته القضبان فسحب ٨٦١٢ يديه بسرعة هذه المرة ليتّقي سحق أصابعه؛ فضحك الحراس.

انتقل الحراس الآن إلى الزنزانة ٣ في حين يصرخ السجينان ٨٦١٢ و١٠٣٧ لحث زملائهم في الزنزانة (٣) على الاعتصام داخلها: «ضعوا أسرّتكم أمام الباب!»، «واحد رأسيًّا والآخر أفقيًّا! لا تدعوهم يدخلون! سيأخذون أسرّتكم!» «لقد أخذوا أسرّتنا! اللعنة!».

بالغ ١٠٣٧ وطالبهم بالمقاومة العنيفة: «حاربوهم! قاوموهم بعنف! حان وقت الثورة العنيفة!».

عاد الحارس لاندري مسلحًا بمطفأة حريق وأطلق دفعات من ثاني أكسيد الكربون الحارق للجلد داخل الزنزانة (٢) مما أجبر السجناء على التراجع للخلف، «اخرسوا وابقوا بعيدًا عن الباب!» (من المفارقات أنها مطفأة الحريق ذاتها التي أصرّت لجنة التجارب البشرية على وجودها تحسبًا لحالات الطوارئ!)، لكن وأثناء جرّ الأسِرّة من الزنزانة (٣) إلى الممر، شعر متمردو الزنزانة (٢) بالخذلان.

«زنزانة (٣)، ما الذي يحدث؟ قلنا لكم أن تتحصنوا خلف الباب!».

«أي نوع من التضامن هو هذا؟ أكان «الرقيب»؟ أيها الرقيب ٢٠٩٣، إن كان هذا خطؤك فلا بأس؛ لأننا جميعاً نعلم أنك غير معقول».

---

(١) هذا الرد من السجين ٨٦١٢ هو واحد من أهم أحداث الدراسة بأسرها. من أجل إنجاح المحاكاة، كان على الجميع الموافقة على التصرّف كما لو كنا في سجن، لا أننا في تجربة محاكاةٍ للسجن. بمعنى أن ثمّة رقابة ذاتية عامة صنعت توافقًا ضمنيًا على وضع كافة الأحداث في إطار جريانها في سجن حقيقي لا في إطار كونها تجربة، فالجميع يدركون أنها مجرد تجربة لكن الجميع يتصرفون كما لو كانت سجنًا حقيقيًا. خرق ٨٦١٢ هذا الإطار عندما صاح قائلاً بأنه ليس سجنًا وأنها مجرد محاكاة، وضرب عندها مثالًا محددًا ولكنه غريب، مفسرًا سبب كون هذا السجن سجنًا تجريبيًا بقوله أن السجن الحقيقي لا يأخذون فيه الملابس والأسرّة من السجناء، ليسود صمت مفاجئ وسط الفوضى التي اكتنفت تلك اللحظة حين رد عليه سجين آخر متحديًا ببساطة، «بل يفعلون»، وبذا أعيد تثبيت قاعدة الرقابة الذاتية، واستمر الحراس والسجناء وفريق العمل ضمن حدود وضعوها لأنفسهم تعبيرًا عن تلك الحقيقة الواضحة، انظر الكتاب الذي صدر مؤخرًا:

Dale Miller, *An Invitation to Social Psychology: Expressing and Censoring the Self* (Belmont, CA: Thomson Wadsworth, 2006).

«لكن أفراد الزنزانة (١)، حافظوا على أسرّتكم في هذا الوضع، لا تدعوهم يدخلون».

تبيّن للحراس أن ستة منهم يستطيعون إخماد تمرد السجناء هذه المرة، لكن في المستقبل سيواجهون هذا بثلاثة أفراد فقط مقابل تسعة سجناء مما قد يتسبب بالمتاعب، لكن لا داعي للقلق، فقد استخدم أرنيت التكتيك النفسي المعروف بـ «فرّق تسُد» بجعل الحظوة للزنزانة (٣)، ومنح أفرادها مميزات خاصة مثل غسل الملابس وتنظيف الأسنان وإعادة الأسرّة ومستلزماتها وتوصيل المياه بالزنزانة.

أعلن الحارس أرنيت بصوت مرتفع أن حسن تصرف أفراد الزنزانة (٣) سبب في أن «أعلم إفساد أسرّتهم وسنعاد إليهم عندما يعود النظام إلى زنزانة (١)».

يحاول الحراس استمالة (السجناء الصالحين) لإقناع الآخرين بالتصرف بشكل جيد. قال أحد (السجناء الصالحين) متعجبًا: «حسنًا، لو عرفنا ما الخطأ الذي ارتكبوه لأخبرناهم!»، ردّ فاندي: «لستم بحاجة لمعرفة الخطأ، تستطيعون إخبارهم بأن يحسنوا التصرف فحسب».

صاح ٨٦١٢، «زنزانة (١)، نحن معكم، ثلاثتنا»، ثم أرسل تهديدًا مبهمًا إلى الحراس حينما كانوا يجرّونه مجددًا إلى الحبس الانفرادي مرتديًا منشفة فحسب: «المؤسف هو اعتقادكم أننا لعبنا بكل أوراقنا!».

ثم وقد فرغوا الآن من هذه المهمة؛ أخذ الحراس وقتًا مستقطعًا قصير الأمد للتدخين والتخطيط لتولي أمر اعتصام أفراد الزنزانة (١).

عندما رفض ريتش ١٠٣٧ الخروج من الزنزانة (٢)؛ أخرجه ثلاثة حراس بالقوة وألقوا به أرضًا وقيدوا قدميه وجرّوه منهما إلى الساحة، بدأ هو والمتمرد ٨٦١٢ يتبادلان الصياح فيما بين الحفرة والساحة متحدثين عن أوضاعهم مستجدين دعم باقي السجناء لمواصلة التمرد. يحاول بعض الحراس أن يفسحوا مكانًا في خزانة الساحة لإيجاد حفرة أخرى يضعون ١٠٣٧ فيها، وفي حين ينقلون الصناديق لإيجاد مساحة إضافية؛ قاموا بإدخاله إلى زنزانته جرًا على الأرض مرة أخرى وقدماه مقيدتان.

اجتمع الحارسان أرنيت ولاندري واتفقا على طريقة بسيطة لإعادة بعض النظام إلى هذه الفوضى، اتفقا على بدء الإحصاء، الإحصاء يضفي النظام على الفوضى. حتى مع وجود أربعة سجناء فقط في الصف يقفون في وضع الانتباه؛ بدأ الحراس بجعلهم يرددون أرقامهم.

«رقمي هو ٥٣٢٥، سيدي الضابط الإصلاحي».

«رقمي هو ٢٠٩٣، سيدي الضابط الإصلاحي».

بدأ العد من أول الصف إلى آخره المكون من ثلاثة سجناء (صالحين) من الزنزانة (٣) ومعهم ٧٢٥٨ عاريًا إلا من منشفة حول خصره، وكان لافتًا قيام ٨٦١٢ بترديد رقمه من داخل الحفرة لكن بطريقة ساخرة.

يجرّ الحراس الآن ١٠٣٧ من قدميه إلى الحفرة واضعين إياه في ركن بعيد في خزانة الغرفة التي أصبحت حفرة ثانية مؤقتة، وفي الوقت نفسه استمر ٨٦١٢ في الصراخ مناديًا رئيس السجن: «هاي، زيمباردو، تعال إلى هنا!»، قررت ألا أتدخل الآن لأشاهد المواجهة ومحاولة استعادة القانون والنظام.

ذكر السجناء بعض التعليقات المهمة في مذكراتهم (التي أتمّوها بعد انتهاء الدراسة).

تحدث بول ٥٧٠٤ عن التأثيرات الأولى للتشوش الزمني الذي بدأ يؤثر على تفكير الجميع: «بعد أن قمنا بتحصين أنفسنا هذا الصباح غفوت قليلاً، ما زلت مرهقًا بسبب قلة النوم ليلة أمس، عندما استيقظت كنت أحسب نهار اليوم التالي قد حلّ، لكن في الحقيقة حتى وقت الغداء لم يحن!»، لقد غفا مرة أخرى في الظهيرة، واعتقد عندما استيقظ أن الليل قد خيم، لكنها كانت الخامسة مساءً فقط. أثّر التشوش الزمني على ٣٤٠١ أيضًا الذي شعر بجوع شديد وكان غاضبًا لأن العشاء لم يقدم بعد، كان يظن أنها التاسعة أو العاشرة مساءً لكن الساعة في الحقيقة لم تبلغ الخامسة مساءً.

وعلى الرغم من أن الحراس لاحقًا تمكنوا من قمع التمرد واستخدموه لتبرير المزيد من التسلط والسيطرة على من أصبحوا الآن «سجناء خطرين»؛ إلا أن شعور العديد من السجناء كان إيجابيًا لما رأوه من امتلاكهم الشجاعة لتحدّي النظام. كتب ٥٤٨٦ أن «الروح المعنوية مرتفعة للغاية، الشباب مُتَّحِدُون ومستعدون لإحالة المكان إلى جحيم. لقد رتبنا لـ«تمرد الأحزمة الرجالية الواقية». لا مزيد من النِكات، لا تدريبات قفز، لا تلاعب بنا». أضاف بأنه كان مقيدًا بما يتفق زملاؤه في «الزنزانة الصالحة» على دعمه فيه، لو كان في الزنزانة (١) أو (٢) لفعل مثلهم وتمرد بعنف. كان أصغر سجنائنا وأضعفهم بنية، جلين ٣٤٠١، الطالب الأمريكي الآسيوي يمرّ بلحظات كشف روحي أثناء التمرد: «اقترحت تحريك الأسِرّة باتجاه الباب لإبقاء الحراس في الخارج، وعلى الرغم من هدوئي في العادة لكنني لا أحب أن يسيء أحد إليّ بهذه الطريقة. كانت المساعدة في تنظيم التمرد والمشاركة فيه أمرًا مهمًا بالنسبة لي. بدأت في بناء ذاتي من هناك، شعرتُ بأن هذا هو الجزء الأفضل في تجربتي كلها، كان نوعًا من إثبات نفسي بعدما جعلتني عملية الاعتصام أكثر معرفة بذاتي»[1].

---

(١) مذكرات السجين.

هروب بعد الغداء ربما

مع استمرار الزنزانة (١) في الاعتصام واحتجاز بعض المتمردين في الحبس الانفرادي؛ أُعِدَّت وجبة الغداء لقلّة، أعد الحراس وجبة غداء مميزة لـ«الزنزانة (٣) الصالحة» ليتناولوها أمام زملائهم الأقل صلاحًا، لكنهم فاجؤونا مرةً أخرى ورفضوا تناول الوجبة. حاول الحراس إقناعهم بتذوق الوجبة اللذيذة، لكنهم لم يوافقوا على التصرف كخونة، «كفئران واشية»، على الرغم من شعورهم بالجوع الشديد بعد إفطار الشوفان وعشاءهم الفقير بالأمس. ساد الساحة صمت غريب في الساعة التالية، لكن رجال الزنزانة (٣) كانوا متعاونين تمامًا أثناء فترات العمل التي تضمنت أحيانًا المزيد من تخليص بطانياتهم مما علق بها من أشواك. عُرِضت على السجين ريتش ١٠٣٧ فرصة مغادرة الانفرادية والانضمام إلى فريق العمل ولكنه رفض، أصبح يفضّل الهدوء النسبي في العتمة. تنصّ القواعد على أن أقصى مدة يقضيها السجين في الحفرة هي ساعة واحدة، لكنها امتدت الآن لتصل إلى ساعتين للسجين ١٠٣٧، وأيضًا ٨٦١٢.

في تلك الأثناء في الزنزانة (١)؛ بدأ اثنان من السجناء ينفذان بهدوء أول مراحل خطة الهروب الجديدة، سيستخدم بول ٥٧٠٤ أظافره التي يطيلها لعزف الجيتار في حلّ براغي غطاء منفذ الطاقة الكهربائية. بمجرد أن يتم هذا سيستخدمون الغطاء كمفك لفتح قفل الباب. سيتظاهر أحدهم بالمرض، وأثناء مرافقة الحارس له إلى دورة المياه سيُفتح الباب الرئيسي للقاعة ثم سيطلق صافرة كإشارة لزميله في الزنزانة لينطلق خارجًا؛ سيصرعون الحارس ويفرون إلى الحرية! يمكن للسجناء - كما يحدث في السجون الحقيقية - أن يظهروا إبداعًا لافتًا في صنع الأسلحة من أي شيء تقريبًا وتصميم خطط هروب مبتكرة، الوقت والقمع هما أبوا ابتكارات التمرد، لكن لسوء الحظ وأثناء قيام الحارس جون لاندري بجولته الروتينية؛ أدار مقبض الباب في الزنزانة (١) ليسقط على الأرض محدثًا دويًا عالياً. سادت حالة من الذعر، «النجدة!» صاح لاندري، «محاولة هروب!»، هرع أرنيت وماركوس إلى الداخل وأغلقا الباب، وأحضرا الأصفاد لتكبيل من كانوا على وشك الهروب معًا على أرض زنزانتهم. بالطبع، كان ٨٦١٢ واحدًا من مثيري الشغب فأُعيد إلى الحفرة مرة أخرى.

إحصاء لطيف لتهدئة الجموع الغاضبة

مرّت عدة ساعات عصيبة مذ بدأت نوبة النهار، حان وقت تهدئة هذه الوحوش البرية قبل تفاقم المشاكل. «السلوك الجيد سيكافأ، والسلوك السيئ لن يكافأ». أصبح هذا الصوت الهادئ الآمر معروفًا، إنه صوت أرنيت، انضم هو ولاندري إلى فرقة الحراس

مجددًا ليحملا على عاتقهما عبء إتمام إحصاء آخر، تولى أرنيت المسؤولية وقد بدا كما لو كان قائد نوبة النهار. «أيديكم نحو الحائط، هذا الحائط هنا. الآن دعونا نرى مدى استظهار كل منكم لرقمه، كما في السابق، قولوا أرقامكم، بدءًا من هذا الطرف».

بدأ الرقيب بسرعة وصوت عالٍ استجاب له السجناء الآخرون بدرجات مختلفة، كان ٤٣٢٥ و٧٢٥٨ سريعَين ومطيعَين، لم نسمع جيم ٤٣٢٥ بوضوح، شاب ضخم يصل طوله إلى ستة أقدام، من شأنه أن يسبب الكثير من المتاعب للحراس إذا ما قرر الاشتباك معهم جسديًا. على النقيض، كان جلين ٣٤٠١ وستو ٨١٩ أكثر بطئًا وممانعة لمبدأ الطاعة العمياء على الدوام. جعلهم أرنيت يرددون أرقامهم بطرق مبتكرة وهو ممتعض وقد فرض أسلوبه في التحكم والسيطرة. يقوم كل ثلاثة أفراد بالعدّ أو يعدّون بشكل معكوس، أو بأية طريقة أخرى يخترعها تزيد من صعوبة العدّ بلا أدنى ضرورة. يستعرض أرنيت أيضًا إبداعه لجميع المتابعين كما فعل الحارس هيلمان، لكن لا يبدو على أرنيت أنه مستمتع بأدائه قدر استمتاع قائد النوبة الأخرى، بالنسبة له هو عمل يجب أن يؤدّى بكفاءة.

اقترح لاندري أن يُغنّي السجناء أرقامهم، سأل أرنيت: «هل حظي الأمر بشعبية بالأمس؟ هل أحبّ الناس الغناء؟»، قال لاندري: «اعتقد أنهم أحبوه في الليلة الماضية»، لكن أجاب عدد قليل من السجناء بالنفي، قال أرنيت: «أوه، حسنًا، عليكم تعلّم فعل الأشياء التي لا تحبون؛ فهذا جزءٌ من عملية الاندماج في المجتمع».

قال ٨١٩ متذمرًا: «لا يُنادى الناس في الشوارع بالأرقام»، فردّ عليه أرنيت: «لا يجب على الناس في الشوارع أن يحصلوا على الأرقام، أما أنتم فعليكم الحصول على أرقام بسبب وضعكم هنا!».

أعطى لاندري تعليمات محددة عن كيفية الغناء: تصاعديًا كما السلم الموسيقي، مثل «دو ري مي». امتثل كل السجناء وغنوا تصاعديًا بأفضل ما يستطيعون، ثم تنازليًا، باستثناء ٨١٩ الذي لم يؤدِ بأي نغم نهائيًا. «٨١٩ لا يعرف كيف يغنّي، دعونا نسمع مرة أخرى»، بدأ ٨١٩ يشرح سبب عدم قدرته على الغناء، لكن أرنيت يوضح الغرض من هذا التدريب قائلاً: «أنا لم أسألك لم لا تستطيع الغناء، فمهمتك هي تعلّم الغناء». انتقد أرنيت السجناء بسبب سوء أدائهم، لكن السجناء المنهكين كانوا يقهقهون ويضحكون عندما يرتكبون الأخطاء.

على العكس من زملاء نوبته بدا الحارس جون ماركوس غائبًا، كان نادر المشاركة في الأنشطة الرئيسية في الساحة، بدلاً من هذا كان يتطوع لأداء المهام البعيدة عن المكان مثل جلب الطعام من مطعم الجامعة. توحي لغة جسده بأنه لا ينتحل دور الحارس المسيطر؛ كان متراخيًا متهدل الكتفين منخفض الرأس. طلبتُ من آمر السجن جافي أن

يحدّثه بخصوص مدى فعاليته في الوظيفة التي يتقاضى أجرًا نظير القيام بها، فأخذه آمر السجن إلى مكتبه وقام بتأنيبه.

«يجب على جميع الحرّاس الالتزام بصورة (الحارس القاسي). يعتمد نجاح هذه التجربة على سلوك الحراس الذي يجب أن يجعل منها تجربة واقعية قدر المستطاع». فقال ماركوس متحديًا: «علّمتني خبرات الحياة الواقعية أن السلوك الخشن العنيف غير مثمر». أصبح جافي دفاعيًا: «ليست غاية هذه الدراسة إصلاح السجناء، ولكن فهم الكيفية التي تغير بها السجون الناس عندما يمرون بمواقف يواجهون فيها حراسًا شديدي القوة».

«لكن هذا الظرف يؤثر فينا أيضًا، مجرد ارتداء زي الحارس هذا ثقيل عليّ»، هنا يحاول جافي أن يطمئنه: «أنا مقدر لموقفك، لكننا نريد منك أن تتصرف بطريقة معينة، في الوقت الحالي نريد منك أن تلعب دور الحارس القاسي، نريدك أن تتصرف كما تتخيّل أن «الخنازير»[1] ستفعل. نحاول إعداد الحارس النمطي، ونمطك الخاص فيه شيءٌ من اللين».

«حسنًا، سأحاول أن أتكيف شيئًا ما».

«جيد، أعرف أن بإمكاننا الاعتماد عليك»[2].

في تلك الأثناء كان ٨٦١٢ و١٠٣٧ ما يزالان في السجن الانفرادي، لكنهما بدآ الآن في التذمر بصوت مرتفع من انتهاك القواعد، لا أحد يعيرهم أي انتباه. قال كل منهما منفردًا أنه يريد أن يعرض على طبيب. قال ٨٦١٢ أنه يشعر بالمرض، يشعر بشيء غريب، وذكر أنه يشعر بوجود الجورب على رأسه وهو يعرف يقينًا أنه غير موجود، لاحقًا سيُنفَّذ طلبه برؤية آمر السجن.

في تمام الساعة الرابعة أعيدت الأسِرّة إلى الزنزانة (٣) الصالحة في حين أصبح انتباه الحراس مركزًا على أعضاء الزنزانة (١) التي ما زالت في حالة تمرد. قيل لحراس نوبة الليل أن يأتوا مبكرًا، وبالتعاون مع حراس نوبة النهار اقتحموا الزنزانة وأطلقوا مطافئ الحريق عند فتحة الباب ليُبقوا السجناء بعيدًا، ثم جرّدوا السجناء الثلاثة من ملابسهم وأخذوا الأسِرّة وهددوهم بالحرمان من العشاء إذا ما بدرت منهم أية علامات عصيان أخرى. ولأنهم كانوا يتضورون جوعًا بالفعل لتضييع وجبة الغذاء؛ دخل السجناء في حالة من البؤس والصمت التام.

---

(١) يقصد رجال الشرطة. (المترجم).

(٢) لقاء مسجل مع السجين.

لجنة شكاوى السجناء التابعة لسجن بلدية ستانفورد

تبيَّن لي أن الموقف قد يصبح أكثر توترًا؛ فجعلت آمر السجن يعلن في المذياع أنه على السجناء اختيار ثلاثة منهم لـ«لجنة شكاوى السجناء التابعة لسجن بلدية ستانفورد» المكونة حديثًا والذين سيلتقون برئيس السجن زيمباردو بمجرد أن يتفقوا على الشكاوى التي يريدون مناقشتها ومعالجتها. علمنا لاحقًا من رسالة بول ٥٧٠٤ التي بعث بها لفتاته أنه كان فخورًا لاختيار رفاقه له رئيسًا للجنة، كان بيانًا مثيرًا للاهتمام إذ يرينا كيف نسي السجناء رقعة حياتهم الممتدة واستغرقوا في عيش اللحظة.

أخبرتني (لجنة الشكاوى) المكونة من الأعضاء المنتخبين بول ٥٧٠٤ وجيم ٤٣٢٥ وريتش ١٠٣٧ بأن العقد قد خُرِق بعدة طرق، ضمت قائمتهم المجهزة ما يلي: الحراس يقومون بالاعتداء الجسديّ واللفظيّ، المضايقات تصل لمستوى غير ضروري، الطعام غير كافٍ، يريدون استعادة كتبهم ونظاراتهم وإعادة الأقراص والأدوية المختلفة، يريدون أكثر من زيارة ليلية واحدة، ويريد بعضهم خدمات دينية، ثم جادلوا عن كون تلك الظروف جميعها تبرر حاجتهم للتمرد المفتوح كما فعلوا على مدار اليوم.



لجنة شكاوى سجن ستانفورد مع رئيس السجن د. زيمباردو

اندمجتُ من خلف نظارتي الشمسية الفضية العاكسة بشكل تلقائي في دور رئيس السجن، بدأت بقول أنني واثق من قدرتنا على حل أية خلافات بطريقة ودية ترضي جميع الأطراف، وبينت أن (لجنة الشكاوى) هي خطوة أولى في هذا الاتجاه، وأنني أرحب بالعمل معهم بشكل مباشر طالما يُمثلون رغبة الآخرين.

«لكن يجب أن تتفهموا أن أغلب الاشتباكات والعنف الجسدي كان بسبب سلوككم السيء، أنتم تسببتم بهذا لأنفسكم عندما أفسدتم الجدول الزمني المخطط للعمل وأثرتم حالة من الذعر بين الحراس المبتدئين في هذا النوع من العمل، لقد سلبوكم الكثير من الامتيازات بدلاً من الاعتداء جسديًا على السجناء المتمردين».

أومأ أعضاء لجنة الشكاوى بالموافقة.

«أعدكم بأنني سأذهب بهذه القائمة إلى فريق العمل الليلة، وسوف أصحح أكبر قدر ممكن من الأوضاع السلبية، وأبادر بتنفيذ بعض الأشياء الإيجابية التي اقترحتموها، وكذلك سأدعو قسيس السجن غدًا، وأمنحكم ليلة زيارة ثانية هذا الأسبوع كبداية».

قال رئيس اللجنة بول ٥٧٠٤: «هذا عظيم، شكرًا لك»، وأومأ الآخرون بالموافقة على أن ثمة تقدمًا باتجاه سجن أكثر تحضرًا.

ثم قمنا وتصافحنا، وتركوا المكان وهم يشعرون بالرضى، أتمنى أن يطلبوا من رفاقهم تهدئة الأمور حتى نتجنّب المواجهات.

السجين ٨٦١٢ بدأ بالانهيار

داج ٨٦١٢ ليس في مزاج يسمح له بالتعاون، لم يقتنع برسالة حسن النية التي حملها شباب لجنة الشكاوى، مزيد من التمرد جعله يقضي فترات أطول في الحفرة ويداه مقيدتان على الدوام. قال أنه يشعر بالمرض وطلب رؤية آمر السجن. قابله آمر السجن جافي لاحقًا في مكتبه واستمع إلى شكوى السجين من السلوك الاستبدادي «السادي» للحراس. أخبره جافي بأن سلوكه هو الذي يُسبّب ردود الفعل هذه، إن أصبح أكثر تعاونًا فسيحرص جافي على أن يخفف الحراس من قسوتهم معه. قال ٨٦١٢ أن هذا يجب أن يحدث سريعًا وإلا فإنه يريد الخروج من هذا المكان. كان جافي مهتمًا أيضًا بشكايته الصحية وسأله عمّا إذا كان يرغب بالعرض على طبيب وهو ما رفضه ٨٦١٢ في الوقت الراهن، ثم يُقتاد إلى زنزانته التي ينادي منها على رفيقه ريتش ١٠٣٧ الذي كان بدوره ما زال جالسًا في الحبس الانفرادي متذمرًا بسبب الأوضاع غير المحتملة وبسبب رغبته في العرَض على الطبيب كذلك.

وعلى الرغم من أن الارتياح كان باديًا على وجهه أثناء حواره مع آمر السجن إلا أن السجين ٨٦١٢ بدأ يصرخ في غضب مصرًا على رؤية «اللعين دكتور زيمباردو، أبها المشرف». وافقت على رؤيته مباشرة.

مستشار السجن لدينا يسخر من السجين المزيّف

في تلك الظهيرة كنت قد رتَّبت لأول زيارة للسجن لمستشاري كارلو بريسكوت الذي ساعدني في تصميم التجربة بما يجعلها تحاكي ظروف الاعتقال في سجن حقيقي. أُطلق سراح كارلو مؤخرًا من سجن سان كوينتين بعد أن أمضى سبعة عشر عامًا هناك، إضافةً إلى الوقت الذي أمضاه في سجني فولسوم (Folsom) وفاكافيل (Vacaville) بتهم ارتكاب جرائم سطو مسلح في الأغلب. التقيته قبل شهور قليلة أثناء إحدى مشروعات الدورة الدراسية التي نظمها طلبتي في علم النفس الاجتماعي فيما يخص موضوع الأفراد في البيئات المؤسسية. دُعي كارلو من قبل أحد الطلبة ليُريهم واقع حياة السجون من الداخل.

لم يكن قد مر على إطلاق سراح كارلو سوى أربعة أشهر وكان ممتلئًا بالغضب على منظومة السجن الظالمة. أدان الرأسمالية الأمريكية والعنصرية والرجل الأسود الذي يعمل مع الحكومة ضد أخوته وأيّد الحروب وأكثر، لكن كانت لديه رؤية واضحة حول التفاعلات الاجتماعية، وكان بليغًا أيضًا بصورة استثنائية، وله صوت عميق جهوري، وقدرة على استرسالٍ في السرد لا ينتهي. أُعجبتُ بشدة بآراء هذا الرجل، خاصة وأننا في نفس العمر تقريبًا، أنا في الثامنة والثلاثين وهو في الأربعين، وكلانا نشأ في غيتو الساحل الشرقي أو الغربي، لكن في حين كنت أذهب إلى الجامعة كان كارلو يذهب إلى السجن، أصبحنا أصدقاء بسرعة، أصبحت موضع ثقته والمستمع الصبور إلى أحاديثه الطويلة ومستشاره النفسي؛ بل ومُمثّله في التفاوض على الوظائف وإلقاء المحاضرات. كانت وظيفته الأولى هي مشاركتي في التدريس في دورة صيفية في جامعة ستانفورد عن علم نفس السجن. لم يكتفِ كارلو بنقل أكثر التفاصيل خصوصية من تجاربه الشخصية في السجن للطلبة؛ بل رتَّب لحضور معتقلين سابقين رجالاً ونساءً ليشاركوا تجاربهم أيضًا. أتينا كذلك بحراس السجن ومحاميه وآخرين من ذوي الخبرة بنظام السجن الأمريكي. تلك التجربة مع التوجيه المكثف من كارلو ساعدت على إكساب تجربتنا الصغيرة نوعًا من إدراك للموقف غير مسبوق في أي بحث مشابه في علم الاجتماع.

كانت الساعة حوالي السابعة مساء عندما كنا أنا وكارلو نشاهد إحدى عمليات الإحصاء عبر الشاشة التي تسجّل أهم أحداث اليوم، رجعنا بعد ذلك إلى مكتبي في السجن لمناقشة كيفية سير الأمور وكيف سنتولى أمر زيارة الغد الليلية، لكن فجأة دخل عليّ آمر السجن جافي ليبلغني بأن ٨٦١٢ مضطرب بشدة ويريد الخروج ويصر على رؤيتي. جافي ليس واثقًا تمامًا ما إذا كان ٨٦١٢ يتصنّع هذا حتى يتمكن من المغادرة فيتسبب لنا بالمتاعب أم أنه كان مريضًا بالفعل، وكان يُصرّ على أن تحديد ذلك يرجع لي لا له.

قلت موجهًا كلامي لجافي: «بالتأكيد، أحضره إلى هنا كي يتسنّى لي تقييم المشكلة».

دخل المكتب شاب عابس عنيد غاضب ومضطرب، «ما هي المشكلة أيها الشاب؟».

«لا أستطيع التحمل أكثر من هذا، الحراس يضايقونني ويتنمرون علي، يضعونني في الحفرة طوال الوقت، و. . .».

«حسنًا، وفقًا لما رأيته وقد رأيت كل شيء؛ أنت تسببت بكل هذا لنفسك، فأنت السجين الأكثر تمردًا وعصيانًا في السجن بأسره».

«لم أعد أهتم لهذا، لقد انتهكتم جميعًا بنود العقد، لم أتوقع أن ألقى مثل هذه المعاملة، أنت. . .»[1].

«توقف هنا، أيها المخنث!» صاح كارلو في ٨٦١٢ بلهجة هجومية عنيفة:

«ما الذي لا يمكنك تحمله؟ تدريبات الضغط؟ القفز؟ أن يُطلق عليك الحراس ألقابًا ساخرة ويصرخوا في وجهك؟ أهذا ما تسميه مضايقة؟ لا تقاطعني! أتبكي لوجودك في الغرفة الصغيرة لساعات قليلة؟ دعني أعود بك لرشدك أيها الولد الأبيض، أنت لن تصمد يومًا واحدًا في سجن سانت كوينتين، سوف نَشْتَمُّ جميعًا رائحة خوفك وضعفك، سيضربك الحراس على أمّ رأسك، وقبل أن يزجوا بك في غرفة الحبس الانفرادي الحقيقية الإسمنتية التي احتملتُ بقائي فيها ذات مرة لأسابيع؛ سيلقون بك إلينا نحن السجناء، بين السكارى أو رؤساء العصابات القذرة الذين كانوا سيشترونك مقابل علبتين أو ربما ثلاثة من السجائر، وستنزف من مؤخرتك، وستكون هذه بداية تحولك إلى مُخَنَّث».

تجمّد ٨٦١٢ في مكانه من عنف خطاب كارلو، يجب أن أنقذه إذ بإمكاني الإحساس أن كارلو على وشك الانفجار، فقد أعادت له رؤية سجننا المُقلّد سنوات من الألم التي لم يمر على انتهائها إلا شهور قليلة.

«كارلو، أشكرك على تزويدنا بهذا التصوير الواقعي، لكنني أحتاج إلى معرفة بعض الأمور من هذا السجين قبل أن نستطيع المتابعة بالشكل الملائم. ٨٦١٢، أنت تعرف أنني أملك صلاحية منع الحراس من مضايقتك إذا اخترت الاستمرار والتعاون، هل تحتاج المال؟ بقية المال الذي ستخسره إذا انسحبت مبكرًا؟».

«نعم، بالتأكيد، لكن. . .».

«حسنًا، هذا هو عرضي لك، لن يتعرض لك الحراس مجددًا على أن تستمر

---

(١) ليس معنى «العقد» واضحًا في هذه الحالة. انظر معلومات موقع دراسة السجن على www.prisonexp.org من أجل المواد التجريبية التالية: وصف البحث المقدم للمشاركين؛ وصيغة القبول التي وقعوا عليها؛ والتقديم لدى لجنة التجارب البشرية في ستانفورد.

وتتقاضى أجرك كاملاً، وعليك في المقابل من وقت لآخر أن تبدي تعاونك معنا، أن تشاركني بين الفينة والأخرى بعض المعلومات التي قد تساعدني في إدارة السجن».

«لست واثقًا من هذا. . .».

«اسمع، فكّر في عرضي، وإذا قررت بعد ذلك ـ وبعد عشاء جيد ـ أنك ما زلت ترغب في المغادرة؛ فلا بأس وستتقاضى أجرك نظير الأيام التي أمضيتها معنا، أما إذا اخترت الاستمرار وتقاضي كامل أجرك وألا يتعرض لك أحد وأن تتعاون معي؛ فسوف نلقي بمشاكل أول يوم خلف ظهورنا ونبدأ من جديد، موافق؟».

«ربما، لكن. .».

«لست مضطرًا للرد الآن، فكّر في عرضي وقرر لاحقًا هذه الليلة، موافق؟».

في حين يجيب ٨٦١٢ بهدوء قائلاً «حسنًا، وهو كذلك» اقتدته خارجًا إلى مكتب آمر السجن المجاور لمكتبي ليعود به إلى الساحة. أخبرت جافي أنه يحتاج بعض الوقت ليقرر ما إذا كان يرغب بالبقاء، وسوف يردّ علينا لاحقًا في هذا اليوم.

لقد ابتكرت هذه الصفقة الفاوستية للتو، لقد تصرفتُ كمدير سجن شرير، لا كأستاذ طيّب القلب كما أحب أن أرى نفسي. لم أرغب بصفتي رئيسًا للسجن في ذهاب ٨٦١٢ لأن ذلك قد يؤثر بشكل سلبي على بقية السجناء، ولاعتقادي بأننا نستطيع أن نجعله أكثر تعاونًا إذا ما جعلنا الحراس يتراجعون عن سلوكهم العدواني تجاهه، لكنني وفي الوقت نفسه دعوت ٨٦١٢ قائد التمرد ليصبح «واشيًا»، مخبرًا، يشاركني المعلومات مقابل الحصول على امتيازات خاصة. الواشي في قانون السجناء هو أكثر أشكال الحياة الحيوانية وضاعةً، وغالبًا ما تبقيه السلطات في عزلة لأنه قد يتعرض للقتل إذا ما انكشف دوره. ذهبت مع كارلو لاحقًا إلى مطعم ريكي (Ricky)، أردت الرمي بهذه الصورة القبيحة خلف ظهري لبعض الوقت لأستمتع بحكايات كارلو الجديدة مع طبق من اللازانيا.

السجين يخبر الجميع ان ليس بإمكان أحد أن يغادر

كان الحارسان أرنيت وجون لاندري في الساحة يقومان بصف السجناء أمام الحائط لإحصاء أخير قبل انتهاء نوبة النهار المطولة، ومرة أخرى يسخر الحراس من ستو ٨١٩ بسبب تخلفه عن زملائه الذين يصيحون بصوت واحد: «أشكرك سيدي الضابط الإصلاحي على هذا اليوم الجميل!».

يُفتح باب السجن مصدرًا صوتًا مزعجًا، يصوب السجناء أنظارهم باتجاه البهو ليجدوا ٨٦١٢ عائدًا من اجتماعه مع إدارة السجن وكان قد أخبرهم قبل أن يلتقي بي أنه لقاء الوداع، كان قد قرر إنهاء تجربته ولم يعد بإمكانهم فعل أي شيء لثنيه عن هذا القرار.

شق داج ٨٦١٢ طريقه عبر صف الأصدقاء ليصل إلى الزنزانة (٢) ملقيًا بنفسه على سريره.

قال أرنيت: «٨٦١٢، تعال هنا قف أمام الحائط».

«تبًا لك»، ردّ بعنف.

«أمام الحائط يا ٨٦١٢».

«تبًا لك!» رد ٨٦١٢.

أرنيت: «فليساعده أحدكم».

«ألديك مفتاح الأصفاد سيدي؟»؛ لاندري يسأل أرنيت.

يصيح ٨٦١٢ من داخل الزنزانة: «إن كان عليّ البقاء هنا فلن أستجيب لهرائكم».

بينما يمشي متباطئًا باتجاه الساحة ونصف السجناء مصطفون على جانبي الزنزانة ٢؛ إذ بداج ٨٦١٢ يعلن لهم حقيقة جديدة مرعبة: «أعني، تعرفون، حقًا. أقصد، لم أتمكن من الخروج! طوال هذا الوقت كنت أتحدث إلى أطباء ومحامين و...».

كان صوته مضطربًا ولم يكن ما يقصده واضحًا، كان باقي السجناء يضحكون منه. صدم ٨٦١٢ زملاءه برفضه الأمر بالوقوف أمام الحائط، واصل التذمر بصوته المرتفع: «لم أتمكن من الخروج! لم يتركوني أخرج! لا يمكنكم الخروج من هنا!».

تحولت قهقهات السجناء إلى ضحك عصبي، تجاهل الحراس ٨٦١٢ واستمروا في البحث عن مفاتيح الأصفاد مفترضين أنهم سيقيدونه ويعيدون الزجّ به في الحفرة إن استمر في هذا.

أحد السجناء يسأله: «أتعني أنك لم تتمكن من إلغاء العقد؟».

سجين آخر يستفسر بيأس: «أيمكنني إلغاء عقدي؟».

قال أرنيت بصرامة: «لا كلام في الصف. سيكون ٨٦١٢ معكم جميعًا لاحقًا لتتحدثوا معه». كان هذا الإعلان الذي صدر عن واحد من أقوى قياداتهم بمثابة ضربة موجعة لثبات ومقاومة السجناء. كتب جلين ٣٤٠١ عن تأثير ما قاله ٨٦١٢: «قال لا يمكنكم الخروج، يشعرك هذا بأنك سجين حقيقي، ربما كنتَ سجين تجربة زيمباردو وربما كان يدفع لك مقابل وجودك في هذا المكان، لكن، اللعنة، أنت سجين، سجين حقًّا»[1].

بدأ يتخيل أسوأ السيناريوهات: «فكرة أننا قد بعنا حياتنا لمدة أسبوعين، جسدًا وروحًا، كانت مرعبة بشكل استثنائي، الشعور بأننا الآن سجناء كان حقيقيًا، لن نتمكن من الهروب إلا بعد فعل عنيف متبوع بعواقب لا يمكن التنبؤ بها، هل ستأتي شرطة بالو ألتو

---

(١) مذكرات السجين.

لتلقي القبض علينا مرة أخرى؟ هل سيدفعون لنا؟ كيف سأسترد حافظة نقودي؟»[1].

ريتش ١٠٣٧ الذي تسبب للحرس بالمتاعب طيلة اليوم؛ صدمه الواقع الجديد هو الآخر. ذكر لاحقًا: «قيل لي أنه ليس بإمكاني الانسحاب، شعرت هنا أنه سجن حقًا، لا كلمات تصف ما شعرت به في تلك اللحظة، شعرت بعجز تام، أكثر من أي وقت مضى»[2].

كان واضحًا لي أن ٨٦١٢ أوقع نفسه في أكثر من مشكلة، أراد أن يكون الشاب القاسي قائد التمرد ولكن دون أن يتحمّل إساءة الحراس، أراد أن يستمر ويتقاضى المال الذي يحتاجه ولكن لم يرد أن يكون بمثابة مصدر للمعلومات، كان على الأغلب يخطط ليصبح عميلاً مزدوجًا يكذب عليّ ويضللني حيال ما يقوم به السجناء، لكنه ليس واثقًا من قدرته على النجاح في خداعي. كان عليه أن يرفض عرضي بمقايضة بعضٍ من الراحة بكونه الواشي الرسمي، لكنه لم يفعل. لو كان أصرّ في تلك اللحظة على إطلاق سراحه كنت سأضطر للموافقة. ربما أخجله استهزاء كارلو به فرغب عن الظهور كالمستسلم أمامه. كانت كل هذه خدعًا عقلية محتملة أنهاها بتأكيده للآخرين على أن رفض إطلاق سراحه كان قرارنا الرسمي، ملقيًا باللوم على النظام.

لم يكن هناك ما يمكن أن يحدث أثرًا تحويليًا عند السجناء أكثر من خبر مفاجئ مفاده أنهم قد فقدوا حرية الانسحاب وقتما يطالبون به، فقدوا القدرة على الذهاب وقتما يريدون، تحولت تجربة سجن ستانفورد في تلك اللحظة لتصبح (سجن ستانفورد)، لا بإعلان رسمي من طاقم العمل؛ لكن بإعلان من واحد من السجناء أنفسهم، وكما غيرت محاولة التمرد الطريقة التي ينظر بها الحراس إلى السجناء فجعلت منهم مصدر خطر؛ غيّر تأكيد السجين على أن الرحيل ليس ممكنًا شعور جميع السجناء المزيّفين حيال وضعهم الجديد بصفتهم سجناء قد عدموا الحول والقوة.

ها قد عدنا، حان وقت نوبة الليل

حان موعد نوبة الليل مرةً أخرى كما لو أن الأمور لم تكن سيئة بما يكفي للسجناء. كان هيلمان وبوردان يمشيان في الساحة منتظرين خروج حراس نوبة النهار. كانا يلوحان بهراوتيهما ويصرخان في الزنزانة (٢)، كانا يؤكدان على بقاء السجناء بعيدًا عن الباب ويشيران إلى الزنزانة بمطفأة الحريق سائلَيْن السجناء عما إذا كانوا يريدون المزيد من رش ثاني أكسيد الكربون البارد في وجوههم.

---

(١) مذكرات السجين.

(٢) مذكرات السجين.

سأل أحد السجناء الحارس جيوف «سيدي الضابط الإصلاحي، لدي طلب، إنه عيد ميلاد أحدهم الليلة، هل يمكننا أن نغني (عيد ميلاد سعيد؟)»، وقبل أن يجيب لاندري رد هيلمان من الخلف: «سوف نغني (عيد ميلاد سعيد) وقت الإحصاء، الآن وقت العشاء، ثلاثة في الدفعة الواحدة». السجناء جالسون الآن حول مائدة موضوعة في منتصف الساحة لتناول عشاءهم الفقير، غير مسموح بالكلام.

مع إعادة مشاهدة تسجيلات هذه النوبة رأيت بوردان يدخل بأحد السجناء عبر المدخل الرئيسي. السجين الذي حاول الهروب يقف في وضع انتباه بالردهة تمامًا خلف مائدة العشاء وعيناه معصوبتان. سأل لاندري السجين عن كيفية إزالته للقفل الموجود على الباب لكنه يرفض الإجابة. عندما أزيحت العصابة عن عين الهارب هدّدهُ جيوف قائلاً: «إذا رأينا يديك تقتربان من هذا القفل يا ٨٦١٢ فسنجهّز لك شيئًا جميلاً بالفعل». كان داج ٨٦١٢ هو من جرّب خطة الهروب! دفعه لاندري مرة أخرى داخل زنزانته ليبدأ صارخًا بالتلفظ بالبذاءات وبصوت أعلى من ذي قبل، واندفع سيل من اللعنات من فمه ليغرق الساحة. قال له هيلمان بكثير من الضجر: «العبتك قديمة يا ٨٦١٢، قديمة جدًا ولم تعد ممتعة على الإطلاق».

هرع الحراس إلى مائدة العشاء لمنع ٥٤٨٦ من تبادل الحديث مع زملائه الممنوعين من التواصل. صاح جيوف لاندري في السجين ٥٤٨٦: «هاي، هاي! لا نستطيع حرمانك من العشاء لكن بإمكاننا أخذ ما تبقى، لقد حصلت على شيء منه. قال لنا آمر السجن أننا لا نملك حرمانكم من الوجبات لكنك حصلت على وجبتك بالفعل، على الأقل جزء منها، لذلك يمكننا أخذ ما تبقى»، ثم أصدر حكمًا عامًا للجميع: «يبدو أنكم نسيتم الامتيازات التي نستطيع منحكم إياها»، يلمح إلى وقت الزيارة غدًا، والتي يمكن إلغاؤها بالطبع إن حدثت أية مشكلة تستدعي منع الدخول والخروج من المكان. قال بعض السجناء أنهم لم ينسوا زيارات الساعة السابعة من يوم الثلاثاء وأنهم يتطلّعون إليها.

أصر جيوف لاندري على أن يعيد ٨٦١٢ ارتداء الجورب الذي خلعه أثناء العشاء: «لا نريدك أن تسقط شيئًا من رأسك في طعامك فتمرض».

كان رد ٨٦١٢ غريبًا، كما لو أنه فقد الاتصال بالواقع: «لا أستطيع وضعه على رأسي، إنه شديد الضيق، سأصاب بصداع. ماذا؟ أعرف أنه أمر غريب حقًا، لهذا أسعى إلى الخروج من هنا... يستمرون في الرفض قائلين لا لن تصاب بصداع، لكنني أعرف أنني سأصاب بصداع».

يحين الآن دور ريتش ١٠٣٧ للتحول إلى القنوط والذهول عما يجري من حوله، عيناه جامدتان ويتحدث ببطء. يستمر بالسعال ممددًا على أرضية زنزانته، ويصر على رؤية

المشرف. (التقيته بعد عودتي من العشاء وأعطيته نقاطًا للسعال وأخبرته أنه يستطيع الرحيل إن كان عاجزًا عن المواصلة، ولكن الأمور ستتحسن إذا لم يهدر الكثير من وقته وجهده على التمرد، أبلغني بأنه يشعر بتحسن وأنه سيبذل أفضل ما لديه).

حوّل الحراس انتباههم تجاه بول ٥٧٠٤ الذي يصبح الآن أكثر حزمًا كأنما ليحل محل قائد التمرد السابق داج ٨٦١٢. قال لاندري: «لا تبدو سعيدًا جداً يا ٥٧٩٤»، في حين كان هيلمان يمرّ بهراوته على قضبان الباب محدثًا صوتًا مزعجًا. أضاف بوردان: «أتظن أنهم سيحبون هذا (يقصد صوت الهراوة على القضبان) بعد أن تطفأ الأنوار، الليلة ربما؟».

حاول ٥٧٠٤ ممازحة الحراس لكنهم لم يضحكوا على الرغم من ضحك بعض السجناء. قال لاندري: «أوه، هذا جيد، جيد حقًا. استمر، نحن مستمتعون الآن، لم أسمع مزاح الأطفال هذا منذ عشر سنوات».

وقف الحراس في صف واحد محدقين في ٨٦١٢ الذي كان يأكل ببطء وحده، ثم شكّلوا جبهة واحدة حيث وقفوا جميعًا بيد على الوسط والأخرى تلوح بالهراوة في تهديد واضح: «لدينا مجموعة من المقاومين الثوريين هنا!» يقول جيوف لاندري متعجبًا!

تحرك ٨٦١٢ بسرعة كبيرة نحو الحائط الخلفي ونزع القماشة الداكنة التي تخفي كاميرا التصوير، أمسك به الحراس وجروه إلى الحفرة مرة أخرى، قال ساخرًا: «آسف يا شباب!».

يرد عليه أحدهم: «آسف ها، سوف نحضر لك شيئًا عما قليل يجعلك تأسف بحق».

عندما بدأ كل من هيلمان وبوردان بالطرق على باب الحفرة بهراوتيهما صرخ ٨٦١٢ وقال أن هذا يصمّ أذنه ويزيد من سوء صداعه.

يصرخ داج: «اللعنة، لا تفعل هذا يا رجل، إنه يؤذي أذنيّ!».

بوردان: «ربما ستفكر في هذا قبل أن تقدم على ما من شأنه أن يلقي بك في الحفرة مستقبلاً يا ٨٦١٢».

«كلا، بإمكانك أن تغرب عن وجهي يا رفيقي! فسوف أحطم الباب في المرة القادمة، أنا أعني ما أقول» (كان يهدّد بتحطيم باب زنزانته، أو باب الدخول، أو ربما يقصد الحائط حيث كاميرا المراقبة).

سأل أحد السجناء ما إذا كانوا سيشاهدون فيلمًا الليلة كما كانوا يتوقعون عندما وُصفت لهم تفاصيل السجن في البداية، فرد عليه أحد الحراس قائلاً: «لا أعرف إن كان هذا سيحدث من الأساس».

ناقش الحراس بشكل معلن عواقب إتلاف ممتلكات السجن، أخذ هيلمان نسخة من القواعد التنظيمية للسجن وقرأ بصوت مرتفع القاعدة الخاصة بإتلاف ممتلكات السجن وهو مستند إلى إطار باب الزنزانة (١) ملوحًا بهراوته، كان يتنفس ثقة وسيطرة لحظة تلو أخرى.

بدلاً من مشاهدة الأفلام سيقرر عليهم أن يعملوا أو أن يقضوا بعض الوقت في الاسترخاء.

«حسنًا، انتبهوا من فضلكم، لدينا بعض المتعة للجميع اليوم. الزنزانة (٣)، أنتم في راحة واستجمام، يمكنكم فعل ما يحلو لكم لأنكم غسلتم أطباقكم وأديتم واجباتكم بشكل جيد. الزنزانة (٢)، ما زال عليكم إنهاء القليل من الأعمال بعد. والزنزانة (١)، لدينا العديد من البطانيات لتنزعوا منها الأشواك. حسنًا، اجلبهم إلى هنا أيها الضابط، دعهم يرون، سيكون هذا العمل كافيًا للزنزانة (١) إن أرادوا بطانية خالية من الأشواك للنوم».

أعطى لاندري هيلمان بعض البطانيات الممتلئة بمجموعة جديدة من الأشواك. «أوه، أليس هذا جميلاً؟» ثم واصل قائلاً: «فقط انظروا إلى هذه البطانية سيداتي سادتي، انظروا إلى البطانية! أليست قطعة فنية فريدة؟ أريدكم أن تنزعوا جميع الأشواك من هذه البطانيات لأن هذا ما لديكم للنوم». قال أحد السجناء: «سننام على الأرض»، فرد عليه لاندري ببساطة: «افعل ما يحلو لك، افعل ما يحلو لك».

كانت متابعة مراوحة جيوف لاندري بين دوري الحارس القاسي والحارس الطيب مثيرة للاهتمام، لم يتخلَّ بعدُ عن القيادة لهيلمان الذي يصبح أسلوبه في السيطرة مصدر إلهام له بعض الأحيان؛ في حين يبدو أكثر قدرة على التعاطف مع السجناء من هيلمان. (في لقاء لاحق وصف السجين المتأمِّل جيم ٤٣٢٥ الحارس هيلمان بأنه واحد من الحراس الأشرار مطلقًا عليه لقب: «جون واين (John Wayne)»، ووصف الأخوين لاندري بأنهما «حارسان صالحان»، واتفق معظم السجناء الآخرين على أن جيوف لاندري كان حارسًا صالحًا أكثر منه حارسًا سيئًا).

سأل أحد سجناء الزنزانة (٣) عما إذا كان بإمكانهم الحصول على بعض الكتب للقراءة، اقترح هيلمان إعطاءهم جميعًا نسختين من القواعد كمادة للقراءة قبل النوم. الآن حان وقت إحصاء آخر، قال هيلمان: «حسنًا، لن يكون هناك تحامقٌ الليلة، أتذكرون؟ دعونا نبدأ من عند ٢٠٩٣ ثم نواصل بحيث نستمر في التدريب».

انضم بوردان إلى الجوقة وجعل يمشي أمام السجناء مباشرة ويقول: «لم نعلمكم العد بهذه الطريقة، أعلى، أوضح، وأسرع! ٥٧٠٤، أنت بطيء بما يكفي لجعلك تبدأ بتدريب القفز مباشرة».

تصبح العقوبات التي يفرضها الحراس اعتباطية، لم يعد هناك من سبب محدد لمعاقبة السجناء، لكن ٥٧٠٣ لم يعد يهتم، ردّ قائلاً: «لن أفعل».

أجبره بوردان على ذلك فنزل بجسده لكن ليس بالقدر الكافي على ما يبدو، «إلى الأسفل يا رجل، إلى الأسفل!» دافعًا إياه بالضغط على ظهره بهراوته.

«لا تدفعني يا رجل».

قال بنبرة ساخرة: «ماذا تقصد بلا تدفعني؟».

«ما قلته! لا تدفعني»

«أكمل تدريبات الضغط!»، قال بلهجة آمرة، «الآن عد إلى الصف».

أصبح بوردان أكثر تعبيرًا عن نفسه واندماجًا مما كان عليه قبلاً، لكن ما زال هيلمان ذَكَر القطيع المسيطر، وفي الأوقات التي يندمج فيها الثنائي بوردان وهيلمان ينسحب جيوف لاندري تلقائيًا إلى الخلفية أو يختفي عن الساحة تمامًا.

حتى ٢٠٩٣، السجين الأفضل، «الرقيب»، أُجبر على أداء تدريبات الضغط والقفز بلا سبب واضح. قال هيلمان: «أوه، هذا جميل! انظر كيف يؤدي تلك التدريبات؟ إنه مفعم بالطاقة الليلة»، ثم تحول إلى ٣٤٠١: «أتبتسم؟ ما الذي يجعلك تبتسم؟» يتقحّم مساعده بوردان الحوار قائلا: «أتبتسم ٣٤٠١؟ أتعتقد أن الأمر مضحك؟ أترغب بالنوم الليلة؟».

عقّب هيلمان مؤكدًا على كلامه: «لا أريد رؤية أحد يبتسم! هذه ليست غرفة تبديل الثياب، إذا رأيت أحدًا يضحك سأجعلكم جميعًا تواصلون القفز لمدة طويلة!».

تطلّب مراقبة السجناء التخفيف من قسوة البيئة المحيطة بهم، ألقى هيلمان مزحة على بوردان بغرض التخفيف عن السجناء المتجهمين: «حضرة الضابط، هل سمعت تلك النكتة عن كلب لا أرجل له؟ يخرج به مالكه كل ليلة ليجره على الأرض»، ضحك هو وبوردان ولكن لاحظا أن السجناء لم يضحكوا، أنّبه بوردان قائلاً: «لم تعجبهم مزحتك أيها الضابط».

«هل أعجبتك نكتتي يا ٥٤٨٦؟».

أجاب جيري ٥٤٨٦ بصدق: «لا».

«تعال إلى هنا وقم بعشر تمارين ضغط لعدم إعجابك بمزاحي، وخمسة أخرى للضحك بإجمالي خمسة عشر».

هيلمان ناجح تمامًا فيما يقوم به حيث جعل كل السجناء يواجهون الحائط؛ ثم عندما استداروا كان قد اتخذ هيئة مضحكة وأمر السجناء بعدم الضحك، لكن بعضهم فعل وأُجبر

بعدها على أداء تدريبات الضغط أو القرفصاء. قال ٣٤٠١ أنه لا يعتقد الأمر مضحكًا، فكان عليه هو الآخر أن يؤدي تدريبات الضغط لصراحته. بعدها يأتي وقت غناء الأرقام، سأل هيلمان الرقيب ٢٠٩٣ إذا كان ما سمعه يشبه الغناء.

«لقد بدى لي كالغناء، سيدي الضابط الإصلاحي».

جعله هيلمان يؤدي تدريبات الضغط لعدم اتفاقه معه، وعلى غير المتوقع قال الرقيب: «هل يمكنني تأدية المزيد سيدي؟».

«يمكنك أن تقوم بعشرة أخرى إن كنت راغبًا في هذا».

ثم تحداه الرقيب مرة أخرى بإصرار أكبر: «هل يمكنني المواصلة حتى السقوط؟».

«نعم، أيًا يكن». هيلمان وبوردان حائران في كيفية الاستجابة لهذا التهكم، أما بقية السجناء فكانوا يتبادلون النظرات في قلق لإدراكهم أن تصرفات الرقيب قد تتسبب في وضع معيار جديد للعقاب سيفرض عليهم لاحقًا، إنه يتحول إلى مزحة مزعجة بالنسبة إليهم جميعًا.

عندما طُلِب من السجناء بعد ذلك أن يرددوا أرقامهم بطريقة مُعقّدة قال بوردان بسخرية: «من المفترض ألا يجد فتيان بهذا المستوى من التعليم هذا القدر من الصعوبة!»، كان يشير بطريقةٍ ما إلى السخرية التقليدية الشائعة من شباب الجامعة باعتبارهم (مثقفين مغرورين عديمي الفائدة) حتى وإن كان هو نفسه طالبًا جامعيًا بالطبع.

سئل السجناء عما إذا كانوا بحاجة بطانياتهم وأسرّتهم، أجابوا جميعًا بالإيجاب. «وماذا بعد؟ هل فعلتم شيئًا لتستحقوا الحصول عليها يا شباب؟»، يسأل هيلمان. قال أحدهم: «لقد أزلنا ذيول الثعالب[1] من بطانياتنا»، أمرهم ألا يستخدموا كلمة «ذيول الثعالب» مطلقًا، وأن يستبدلوا بها كلمة «أشواك»، ها هو مثالٌ بسيطٌ عن السُلطة حين نُحدد كيفية استخدام اللغة والتي بدورها تخلق واقعًا محددًا، قال بوردان أن السجين الذي يطلق عليها اسم «أشواك» يستطيع الحصول على الوسائد والبطانيات. عاد هيلمان بالوسائد والبطانيات تحت ذراعه ثم وزعها على الجميع عدا السجين ٥٧٠٤، سأله عن سبب استغراقه وقتًا طويلاً في إنهاء عمله: «أتشعر بحاجتك إلى الوسادة؟ لماذا عليّ أن أعطيك الوسادة وأنت لا ترغب في العمل؟»، «لقد نلت مني!» أجاب ٥٧٠٤ وقد شعر برغبة في المزاح.

«سأسألك مرة أخرى، ما الذي يجعلني أعطيك الوسادة؟».

«لأنني أطلب منك ذلك سيدي الضابط الإصلاحي».

---

(١) (Foxtails) ذيول الثعالب: وهي طريقة عامية أخرى لقول حشائش. (المترجم).

قال هيلمان: «لكنك لم تبدأ العمل إلا بعد عشرة دقائق من الجميع»، وأضاف: «احرص في المستقبل على إنهاء عملك في الوقت المحدد»، وعلى الرغم من سوء التصرف هذا إلا أن هيلمان تساهل أخيرًا وأعطاه الوسادة. وحتى لا يتقدم عليه هيلمان، قال بوردان للسجين ٥٧٠٤: «أشكره بلطف».

«شكرًا لك».

«قلها ثانية، فل بوركت سيدي الضابط الإصلاحي»، بدت سخريته واضحة.

نجح هيلمان في عزل ٥٧٠٤ عن رفاقه من الثوّار بجعله يتوسل من أجل وسادة، مصلحة شخصية بسيطة تغلّبت على وحدة السجناء.

عيد ميلاد سعيد ٥٧٠٤

ذكّر السجين جيري ٥٤٨٦ الحراس بطلبه غناء «عيد ميلاد سعيد» للسجين ٥٧٠٤، كان طلبًا غريبًا في هذا التوقيت نظرًا لكون السجناء في حالة إرهاق شديد وكون الحراس على وشك السماح لهم بالعودة إلى الزنزانات ليخلدوا إلى النوم، ربما كان هذا قياسًا لمدى اتصالهم بالطقوس العادية للعالم الخارجي، أو ربما كانت طريقة بسيطة لجعل هذا الوضع الذي يأخذ سريعًا منحىً غير طبيعي؛ يصبح طبيعيًا شيئًا ما.

قال بوردان محدثًا هيلمان: «لدينا طلبٌ من السجين ٥٤٨٦ يا حضرة الضابط، يريد أن يغني أغنية عيد ميلاد سعيد». انزعج هيلمان عندما عرف أن الأغنية ستكون للسجين ٥٧٠٤: «إنه عيد ميلادك، ولم تعمل!».

ردّ السجين بأنه لا يجب أن يعمل في يوم ذكرى ميلاده. مرّ الحراس على صف السجناء، وطلبوا إلى كلٍّ منهم أن يقول بصوت عالٍ ما إذا كان يريد أن يغني أغنية عيد الميلاد أم لا، واتفق الجميع على أنه من الواجب أن يغنوا أغنية عيد الميلاد للسجين ٥٧٠٤ الليلة. أمر السجين هابي ٧٢٥٨ بقيادة الآخرين في غناء «عيد ميلاد سعيد»، كان الصوت الوحيد المبهج الذي تردد في هذا المكان طوال النهار والليل. في أول مرة غنوا فيها تداخلت الأصوات بسبب عدم اتفاقهم على تسمية صاحب عيد الميلاد في الأغنية؛ فغناها البعض «عيد ميلاد سعيد يا رفيق» والآخرون قالوا «عيد ميلاد سعيد يا ٥٧٠٤»، وبمجرد أن حدث هذا صرخ فيهم هيلمان وبوردان.

ذكّرهم بوردان: «هذا السيد اسمه ٥٧٠٤، الآن أعيدوا من البداية».

هنّأ هيلمان ٧٢٥٨ على غنائه: «لقد أعطيتهم إيقاعًا متأرجحًا ثم التزمت أنت إيقاعًا مستقيمًا»، كان يتحدث عن موسيقى الإيقاع القصير مستعرضًا بعض معرفته بالموسيقى، لكنه طلب إليهم بعد ذلك أن يغنوا الأغنية مجددًا بالأسلوب المألوف وقد فعلوا، لكن أداءهم

لم يكن جيدًا بما يكفي، لذلك قيل لهم: «دعونا نضفي بعض الحماس! عيد ميلاد أحدهم لا يكون إلا مرةً كل عام». تحولت مبادرة السجين لكسر الروتين ونشر بعض المشاعر الإيجابية فيما بينهم إلى مناسبة جديدة للتدريب على السيطرة والإخضاع.

الانهيار الأخير وإطلاق سراح ٨٦١٢

بعد إطفاء الأنوار وخروج داج ٨٦١٢ أخيرًا من غرفة الحبس الانفرادي بعد سجنه عددًا غير معلوم من المرات، انفجر قائلاً: «أقصد، بحق الرب، إنني أحترق من الداخل! ألا ترى؟».

يصيح السجين بشدة معبرًا عن غضبه ومعاناته في زيارته الثانية لآمر السجن جافي: «أريد الخروج! هذا الأمر برمته فاشل تمامًا! لا أستطيع الصمود لليلة أخرى! لا أستطيع التحمل أكثر من هذا! أريد محاميًا! هل لديّ الحق في طلب محامي؟ اتصلوا بأمي!».

حاول تذكير نفسه بأنها مجرد تجربة، استمر في الهذيان: «أنتم تعبثون برأسي يا رجل، رأسي! هذه تجربة، ذلك العقد ليس استعبادًا! لا تملكون حق العبث برأسي!».

هدد بأنه سيفعل أي شيء ليخرج من هذا المكان، حتى لو وصل الأمر إلى قطع شرايينه: «سأفعل أي شيء لأخرج! سأحطم كاميرات التصوير، وسوف أؤذي الحراس!».

بذل آمر السجن أقصى ما في وسعه لتهدئته لكن ٨٦١٢ لم يستجب على الإطلاق؛ كان صوت صياحه يزداد ارتفاعًا بلا توقف. أكد جافي للسجين ٨٦١٢ أنه بمجرد أن يتمكن من الاتصال بأحد المستشارين النفسيين فسينظر في طلبه بجديّة.

بعد فترة قصيرة عاد كريج هاني من عشاء متأخر، وبعد أن استمع إلى تسجيل جافي الدرامي التقى بالسجين ٨٦١٢ ليقرر ما إذا كان ينبغي إطلاق سراحه مباشرة بفعل إجهاد عاطفي حاد. في تلك الأثناء لم نكن متأكدين من مصداقية ردود فعل ٨٦١٢ فربما كان يدّعي ذلك فحسب. بالرجوع إلى تاريخه وجدنا أنه كان من أهم النشطاء المناهضين للحرب في جامعته العام الماضي، كيف يمكن أن «ينهار» بهذا الشكل في غضون ست وثلاثين ساعة فقط؟

كان ٨٦١٢ مشوشًا بالفعل حسبما كشف لاحقًا: «لم أتمكن من تحديد ما إذا كانت تجربة السجن قد أرعبتني بالفعل، أم أنني افتعلت ردود الفعل هذه [عن عمد]».

كان كريج هاني مجبرًا على خوض صراع حسم الأمر بمفرده بينما كنت أتناول عشائي خارجًا، وهو الأمر الذي عبّر عنه بوضوح تام في تحليله اللاحق قائلاً:

«على الرغم من أننا ربما وجدناه قرارًا سهلاً إذا ما عدنا قليلاً إلى الوراء؛ إلا أنه كان قرارًا كبيرًا وقتئذ. كنت في السنة الثانية من دراستي العليا وقد بذلنا الكثير من

الوقت والجهد والمال لهذا المشروع، وكنت أعرف أن إطلاق السراح المبكر لأحد المشاركين قد يؤثر بشكل سلبي على التجربة التي صممناها ونفذناها بعناية، لم يتوقع أي منا مثل هذا الحدث بوصفنا القائمين على التجربة، وبالطبع لم تكن لدينا أية خطة طوارئ لتغطية الأمر. من ناحية أخرى كان واضحًا أن هذا الشاب قد أزعجته تجربته القصيرة في سجن ستانفورد إلى درجة لم يتوقع أي منا أن تصدر عن أي من السجناء حتى بعد قضائهم مدة الأسبوعين، لذلك قررت إطلاق سراح ٨٦١٢ مرجّحًا القرار الأخلاقي - الإنساني على مصلحة التجربة»[1].

اتصل كريج بصديقة ٨٦١٢ التي أتت بسرعة لتصحبه وتستلم جميع متعلقاته، وحرص كريج على تذكيرهما بإمكانية التوجه إلى مركز الرعاية الصحية للطلبة في الصباح حال استمر هذا الاضطراب لوجود اتفاق مع المركز بخصوص تولي أمر مثل هذه الحالات.

لحسن الحظ اتخذ كريج القرار الصحيح بناء على اعتبارات إنسانية وقانونية، وبسبب التأثير السلبي المحتمل على الحراس والسجناء إذا ما استمر ٨٦١٢ سجينًا وهو على هذه الحالة من الاضطراب، غير أن كريج عندما أخبرني وزميله كيرت بقراره إطلاق سراح ٨٦١٢ كنا متشككيْن واعتقدنا أنه خُدِع بعملية تمثيل متقنة، لكننا وبعد نقاش طويل لجميع الأدلة اتفقنا على أنه اتخذ القرار الصحيح، وكان علينا بعد ذلك تفسير رد الفعل العنيف الذي حدث فجأة وفي بداية الرحلة التي يفترض أن تستمر أسبوعين، ومع أن اختبارات الشخصية لم تظهر أثرًا لأي اضطراب عقلي؛ أقنعنا أنفسنا بأن الاضطراب العاطفي الذي تعرض له ٨٦١٢ كان بسبب حساسيته المفرطة وردّ فعله المبالغ فيه تجاه ظروف سجننا المُقلّد. فكرنا جميعًا كريج وكيرت وأنا في أننا لا بد قد وقعنا في خللٍ ما أثناء عملية الاختيار مما جعل شخصا «مُحَطَّما» ينزلق من عملية الفرز وقد تجاهلنا احتمالية كون الضغوط الظرفية الفاعلة في هذا السجن مما يفوق قدرته على الاحتمال.

فكّر معي للحظة في معنى حُكمنا هذا، كنا وسط دراسة صُممت لإثبات تَفوّق الضغوطات الظرفية على الميول الشخصية، لكننا مع ذلك قمنا بعزو انهياره إلى طباعه وميوله وتجاهلنا شدّة الظروف.

بالعودة إلى الوراء كان كريج موفّقًا في التعبير عن الخطأ الذي وقعنا فيه قائلاً: «لم ندرك هذه المفارقة الواضحة إلا في وقت لاحق، فقد فسّرنا أول تبلور حقيقي غير متوقع

(١) مقتبس من الفصل الذي كتباه عن مقتطفات من أحداث سجن ستانفورد:

P. G. Zimbardo, C. Maslach, and Craig Haney, "Reflections on the Stanford Prison Experiment: Genesis, Transformations, Consequences," in ed. T. Blass, *Obedience to Authority: Current Perspectives on the Milgram Paradigm.* (Mahwah, NJ: Erlbaum, 1999), pp. 193-237.

وغير اعتيادي لمدى قوة الضغوط الظرفية باللجوء إلى نوعية التفكير التي أجرينا هذه الدراسة لنقدها ودحضها ابتداءً»[1].

استمرت حيرتنا حول الدوافع الخفية للسجين ٨٦١٢. من ناحية تساءلنا، هل كان فعلاً خارجًا عن السيطرة ويعاني من ردود فعل عصبية عنيفة مما يجعلنا بالطبع ملزمين بإطلاق سراحه؟ أم أنه بدأ يدّعي «الجنون» مدركًا أنه إن أتقن أداء الدور فسنطلق سراحه؟ ومن المحتمل أن يكون قد مرّ بحالة جنون مؤقت رغمًا عنه بسبب مبالغته في التمثيل. في تقرير لاحق زاد ٨٦١٢ من تعقيد أية محاولة لتفسير ردود فعله بتفسيرات بسيطة:

«لقد تركت المكان وقتما كان عليّ أن أبقى، كان هذا سيئًا للغاية، لن تكون الثورة ممتعة هكذا، وعليّ أن أراها حين تبدأ. كان عليّ البقاء لأن إدراك الفاشيين أن القيادات [الثورية] ستفرّ حالما تزداد قساوة الموقف وأنهم مجرد مخادعين؛ يصب في مصلحتهم، وكان عليّ أن أحارب في سبيل الحق، دون تفكير في مصالحي الشخصية»[2].

بعد فترة قصيرة من إطلاق سراح داج سمع أحد الحراس السجناء في الزنزانة (٢) يتحدثون عن خطة داج للعودة في اليوم التالي مع مجموعة من رفاقه لتحطيم السجن وتحرير السجناء. اعتقدت إنها مجرد إشاعة غير محتملة إلى أن قال أحد الحراس أنه شاهد ٨٦١٢ يحوم حول مدخل قسم علم النفس في صباح اليوم التالي لخروجه. أمرتُ الحراس أن يقبضوا عليه ويعيدوه إلى السجن حيث أُطلق سراحه لادعاءات كاذبة؛ فهو ليس مريضًا، كان يخدعنا. فهمت الآن أنني يجب أن أستعد لهجوم شامل على سجني، كيف سأتجنب حدوث مواجهة عنيفة؟ ما الذي يمكننا فعله للحفاظ على سير عمل السجن، والأهم من ذلك؛ على استمرار تجربتنا؟

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٢٩.

(٢) اللقاءات الختامية مع السجناء.

الفصل الخامس

اضطرابات يوم الثلاثاء: زوّار ومشاغبون

هيئة سجنائنا مزرية وأعينهم يملؤها العمش، كما أن رائحة سجننا الصغير بدأت بالتغيّر كما لو كانت رائحة دورة مياه الرجال في محطة قطار الأنفاق في مدينة نيويورك. يبدو أن بعض الحراس جعلوا من زيارة دورة المياه امتيازًا لا يتكرر كثيرًا ولا يمنح بعد إطفاء الأنوار مطلقًا مما أجبر السجناء على التبوّل والتبرّز في دِلاء موجودة داخل الزنازين، ولا يُسمح لهم بتفريغها إلا في الصباح. انهالت علينا الشكاوى الغاضبة من السجناء، من الواضح أنّ انهيار ٨٦١٢ بالأمس تسبب في خلق حالة من السخط بينهم فبدؤوا يتحدثون عن عدم قدرتهم على تحمّل المزيد وفقًا لما رصدناه من خلال أجهزة التَنَصُّت التي زرعناها داخل الزنازين.

مجبرون نحن على إضفاء بعض الألوان الزاهية على لوحتنا هذه بغرض تجميلها أمام أولياء الأمور والأصدقاء ورفيقات السجناء الذين يُحتمل أن يزورونا الليلة. إن كنتُ أبًا ووجدت ابني في حالة من الإعياء والتوتر بعد مرور ثلاثة أيام فقط فلن أتركه بالتأكيد في مكان كهذا. اضطررت لتأجيل التفكير في كيفية التعامل مع هذا التحدّي المنتظر لأتفرغ للمشكلة الأخرى الأكثر خطورة؛ أي الاختراق المزعوم من قبل المحتجّين الذين قد يأتي بهم ٨٦١٢ في أية لحظة، ربما اليوم، وربما بالتزامن مع ساعات الزيارة حيث نكون مُهددين بشكل أكبر.

نحن بالكاد في بداية نوبة الصباح في تمام الساعة الثانية صباحًا ومن الواضح أن حراس نوبة الليل لم يغادروا، الحراس الستة في الساحة الآن بعد انتهاء اجتماعهم الذي عقدوه في غرفتهم لمناقشة الحاجة إلى قواعد أكثر صرامة بغية فرض السيطرة على السجناء ومنعهم من أي تمرُّد جديد.

رؤيتهم معًا بيّنت بوضوح أن البنية الجسدية كانت عاملاً مهمًا في تحديد من سيتولى زمام قيادة النوبة؛ فالقادة كانوا الأطول قامة بين الحراس، هيلمان قائد نوبة الليل، فاندي سيتولى القيادة في نوبة الصباح؛ وأرنيت قائد نوبة النهار، في حين كان الحراس الأقصر

قامة بوردان وسيروس من الأتباع المخلصين لقادة نوبانهم، كلاهما شديد التسلُّط وشرس النبرات وقت الصياح في وجوه السجناء، وكانا بلا شك الأكثر احتكاكًا بالسجناء، يقومان بدفعهم ووكزهم وجذبهم بعنف خارج الصف، وهما أيضًا المسؤولان عن أخذ السجناء المتمردين إلى الحبس الانفرادي؛ بل وتصلنا تقارير تفيد بأنهما في بعض الأحيان كانا يجعلان السجناء يتعثرون أثناء نزولهم الدرجات في طريقهم إلى دورة المياه أو يدفعانهم تجاه المبولة الجدارية لدى الاختلاء بهم في المرحاض، يبدو أيضًا أنهما يحبان هراواتهما حيث يبقيانها دائمًا بالقرب من صدريهما، ويضربان بها على القضبان والأبواب أو على الطاولة ليعلنا عن حضورهما. قد يقول بعض المحللين أنهما يستخدمان سلاحيهما للتعويض عن بنيتهما الضئيلة، لكن أيًا تكن الآلية النفسية الفاعلة في هذا السلوك؛ فمن الواضح أنهما يصبحان من الحُرّاس الأكثر حقارة.



صورة حية من ساحة سجن ستانفورد

أما ماركوس وفارنيش وهما من أصحاب القامات القصيرة أيضًا؛ فقد كانا يتصرفان بطريقة انسحابية نسبيًا وكانا أخفض صوتًا وأقل نشاطًا من الباقين، طلبت من آمر السجن أن يجعلهما أكثر صرامة. كان الأخوان لاندري ثُنائيًا مثيرًا للاهتمام، جيوف لاندري كان أطول قليلاً من هيلمان ونافسه على السيطرة في نوبة الليل لكنه لم يقدر على مجاراته في التدريبات المبتكرة التي ما زال «جون واين» الصغير يختلقها باستمرار، بدلاً من ذلك تجده يوجه الأوامر السجناء ويمارس بعض التحكم ثم يخرج ويختفي عن المشهد، ويكرر هذا مرات كثيرة في حالة من التذبذب لم يُرصد مثلها عند أي حارس آخر. لم يمسك هراوته

هذه الليلة، ولاحقًا أزال نظارته الشمسية العاكسة للضوء، وهو أمر ممنوع منعًا باتًا وفقًا لبروتوكولات تجربتنا، في حين كان أخوه جون الأقصر منه قامة قاسيًا مع السجناء لكنه كان ملتزمًا تمامًا بقواعدنا، لم يكن مُفرِطًا في عدوانيته مثل أرنيت لكنه عادةً ما يدعم القائد بقوة في أوامره التعسفيّة.

متوسط أطوال السجناء متقارب ويتراوح بين خمسة أقدام وثماني بوصات إلى خمسة أقدام وعشر بوصات باستثناء جلين ٣٤٠١ الأقصر قامة بين الجميع حيث يبلغ طوله حوالي خمسة أقدام وبوصتين، وطويل القامة بول ٥٧٠٤ الذي يبلغ طوله تقريبًا ستة أقدام وبوصتين. ومن اللافت للنظر أن ٥٧٠٤ (الأطول قامة) قد بدأ يأخذ موقع القيادة بين السجناء، يبدو أكثر ثقةً مؤخرًا كما يبدو مصرًا على تمرده، وقد لاحظ زملاؤه هذا التغيّر عليه وهو الأمر الذي انعكس على اختيارهم له كمتحدث رسمي في لجنة شكاوى سجن بلدية ستانفورد التي سبق وتفاوضت معي على سلسلة من الامتيازات والحقوق.

قواعد جديدة، لكن الإحصاء القديم يستمر

غدت الساحة ممتلئة بسبب وجود إحصاء جديد في الساعة ٢:٣٠ صباحًا؛ فثمة ستة حراس وسبعة سجناء مصطفين أمام الحائط، وعلى الرغم من عدم وجود سبب يستدعي بقاء حراس نوبة الليل إلا أنهم قرروا البقاء من تلقاء أنفسهم. ربما أرادوا مشاهدة كيفية تأدية حراس نوبة النهار عملهم. لم يعد ٨٦١٢ موجودًا وهناك فرد آخر ناقص، يُخرج فاندي السجين الناعس غير المتعاون ٨١٩ من الزنزانة (٢) ليكمل الصف، يوبخ الحراس بعض السجناء لعدم ارتدائهم جوارب الرؤوس مذكّرينهم بأنها جزء أساسي من زي السجن.

فاندي: «ها نحن الآن، حان وقت الإحصاء، كيف تجدون الأمر؟».

رد أحد السجناء: «جيد سيدي الضابط الإصلاحي».

«ماذا عن بقيتكم؟».

الرقيب: «رائع سيدي الضابط الإصلاحي!».

«دعونا نسمعها منكم جميعًا، هيا، بإمكانكم أن تؤدوها بطريقة أفضل! أعلى!»

«جيد، سيدي الضابط الإصلاحي!».

«أعلى!».

«أي وقت هذا؟».

ردّ سجين واحد بصوت واهن: «وقت الإحصاء سيدي الضابط الإصلاحي»[1].

---

(١) ما لم ننص على خلاف هذا، فإن جميع حوارات الحراس والسجناء مأخوذة من تفريغ نصي حرفي للقطات فيديو سجلناها أثناء التجربة.

السجناء مصطفون أمام الحائط وأياديهم ممدودة وأرجلهم منفرجة، كانوا يعدّون بخمول لعدم حصولهم على قسط كافٍ من النوم والوقت لا يزال مبكرًا.

كان بوردان شديد الصرامة على الرغم من انتهاء نوبة عمله، كان يروح ويجيء غاضبًا صارخًا بالأوامر في أرجاء المكان ملوحًا بهراوته الكبيرة وقام بجذب أحد السجناء خارج الصف عشوائيًا ثم صاح في وجهه: «حسنًا أيها الشاب، ستؤدي بعض تدريبات الضغط من أجلي!»

يتحدث فارنيش للمرة الأولى: «حسنًا، دعونا نسمع أرقامكم بدءًا من اليمين، الآن!» ربما يشعر بالثقة أكثر وسط مجموعة أكبر من الحراس.

ثم يتدخل جيوف لاندري في المشهد: «انتظروا دقيقة، هذا الشاب هناك، ٧٢٥٨، لا يعرف كيف ينطق رقمه بطريقة معكوسة!»، لكن لماذا يعمل جيوف في غير نوبته؟ يتجول في المكان ويداه في جيبيه وكأنه زائر غير معني بالأمر أكثر من كونه حارس سجن. ما الذي يُبقي جميع حراس نوبة الليل في المكان بعد ليلة طويلة؟ من المفترض أن يكونوا في طريقهم إلى النوم الآن؛ فوجودهم يسبب ارتباكًا حول من يُفترض به إصدار الأوامر. استمر الجمع بنفس الأساليب التي كانت ذكية في السابق لتصبح الآن مملة، كل اثنين، أو بأرقام التعريف، أو بشكل معكوس، أو بتنويعات غنائية. قرّر هيلمان أنه غير مهتم لما يجري، لم يقل شيئًا، مكث يراقب برهة ثم خرج بهدوء. يجب أن يرددوا القواعد القديمة مع غنائها، ومع استمرار ذلك كان فاندي يحث السجناء على رفع الصوت وزيادة السرعة والوضوح، والسجناء المُجهَدون يمتثلون لهذه الأوامر وأصواتهم تتداخل في نشاز، حان وقت تعلّم بعض القواعد الجديدة، وهكذا أضاف الحراس قواعد جديدة من تلقاء أنفسهم:

«يلتزم السجناء بالمشاركة في كافة أنشطة السجن، وهذا يشمل عمليات الإحصاء!»

«يجب ترتيب الأسِرّة وبقاء المستلزمات الشخصية نظيفة ومرتبة!»

«يجب أن تبقى الأرضية نظيفة!»

«يلتزم السجناء بالحفاظ على الحوائط والأسقف والنوافذ والأبواب وكافة ممتلكات السجن بعدم تشويهها أو طمسها أو نقلها من مكانها!».

جهّز فارنيش تدريبًا يحمل فيه السجناء على تكرار القواعد باستمرار حتى يتأكد من استيعابهم لها بشكل كامل من حيث موضوعها أو أسلوب صياغتها، وإذا فعلوا ذلك بتململ فسيجعلهم يكررون القواعد مرات ومرات بتنويعات جديدة تُنهِك عقولهم.

فارنيش: «يلتزم السجناء بعدم تشغيل ضوء الزنزانة أبدًا!»

السجناء: «يلتزم السجناء بعدم تشغيل ضوء الزنزانة أبدًا!»

فاندي: «متى يجب على السجناء تشغيل ضوء الزنازين؟»

السجناء (في صوت موحّد الآن): «لا يحدث أبدًا»

الإرهاق بادٍ عليهم لكنهم يستجيبون بصوت أكثر وضوحًا وارتفاعًا مقارنة بليلة أمس.

تحوّل فارنيش بصورة مفاجئة إلى قائد؛ فهو يقود عملية قراءة القواعد، ويصرّ على أن يُتقنها السجناء، يبسط نفوذه ويختال عليهم، وقد أعلن عن قاعدة جديدة كان واضحًا أنها صيغت خصيصًا لاستفزاز بول ٥٧٠٤، مدمن النيكوتين.

فارنيش: «التدخين من الامتيازات».

السجناء: «التدخين من الامتيازات».

«ما هو التدخين؟»

«امتياز»

«ماذا؟»

«امتياز»

«يسمح بالتدخين بعد الوجبات فقط أو بتصريح من الحارس»

فارنيش: «لا تعجبني هذه النغمة؛ فلنعلُ بالطبقة».

يمتثل السجناء للأوامر ويعيدون الكلمات بطبقة صوتية أعلى.

«أقترح أن تبدؤوا الغناء من طبقة منخفضة حتى تتمكنوا من الصعود إلى طبقات صوتية أعلى».

يريد من السجناء أن يُغنوا بشكل تصاعدي، ويوضح لهم فاندي الكيفية.

فارنيش: «هذا جميل!»

يقرأ عليهم فارنيش القواعد الجديدة من ورقة يمسكها بيدٍ في حين يمسك بيده الأخرى الهراوة، ويتحسس بقية الحراس كذلك هراواتهم باستثناء جيوف لاندري الذي أصبح وجوده المستمر غير منطقي على الإطلاق. أثناء قيادة فارنيش السجناء في عملية ترديد القواعد يتحرك فاندي وسيروس وبوردان دخولاً وخروجًا من الزنازين وبين السجناء وحولهم بحثًا عن مفتاح الأصفاد الناقص أو عن أية أسلحة أو أي شيء مريب.

جذب سيروس السجين «الرقيب» عنوة من الصف وجعله يقف ويداه ممدودتان تجاه الحائط المقابل وساقاه منفرجتان، ثم قام بتعصيب عينيه وتقييده بالأصفاد ثم أمره أن يحمل دلو الفَضَلات واقتاده بعدها ليفرغه في المرحاض خارج السجن.

بدأ السجناء يصيحون واحدًا تلو الآخر: «رئيس السجن!» إجابةً على سؤال فارنيش: «من هو صاحب الأوامر العُليا؟». كان دوري في النوبة الصباحية تسجيل الأحداث المهمة حتى يستريح كلٌّ من كريج وكيرت قليلاً. بدا غريبًا سماع هذا التأكيد على أن أوامري

«أوامر عليا». من مبادئي الأساسية في حياتي الأخرى خارج السجن عدم توجيه أية أوامر حيث أكتفي بتقديم اقتراحات أو تلميحات عمّا أريده أو أحتاجه.

كان فارنيش يصيح فيهم مُجبِرًا إياهم على غناء كلمة «العقاب» جاعلاً منها الكلمة الأخيرة في القاعدة الخاصة بما سيحدث حال عدم طاعة باقي القواعد، عليهم أن يغنوا تلك الكلمة المخيفة بأعلى صوت مرارًا وتكرارًا ليشعروا بالسخرية والمهانة.

استمر هذا لحوالي أربعين دقيقة، السجناء متعبون وقد تخشّبت أقدامهم وظهورهم تؤلمهم، وعلى الرغم من هذا لم يشتكِ واحد منهم. أمر بوردان السجناء بالدوران إلى الخلف لتفتيش الزي.

ثم سأل فاندي السجين ١٠٣٧ عن سبب عدم ارتدائه لجورب الرأس.

«أخذه مني أحد الحراس سيدي»

فاندي: «لا أدري أي ضابط إصلاحي أخذه منك! أتريد القول أن الضباط الإصلاحيون لا يعرفون ما يجري؟»

«لا، أنا لا أقول هذا سيدي الضابط الإصلاحي»

فاندي: «إذًا أنت من أضعت غطاء رأسك»

١٠٣٧: «نعم، فعلت، سيدي الضابط الإصلاحي»

فاندي: «خمسة عشر تدريب ضغط»

«أتريدني أن أقوم بالعد؟»

أعلن فاندي أن السجين ٣٤٠١ يشتكي لأنه يشعر بالإعياء.

أجاب فارنيش: «لا نحب السجناء المرضى، لم لا تؤدي عشرين تدريب قرفصاء الآن لكي تتحسن حالتك؟»، ثم اتهم ٣٤٠١ بأنه طفل بكّاء وأخذ منه وسادته.

«حسنًا، أولئك الذين يضعون أغطية رؤوسهم؛ عودوا إلى غرفكم، أما الآخرون فقفوا هناك، يمكنكم الجلوس على أسِرَّتكم، لكن لا تستلقوا؛ بل رتبوا الأسِرّة حتى أراها ملساء مستوية».

ثم أمر فارنيش السجناء الثلاثة مكشوفي الرؤوس بالبدء في تدريبات الضغط وقفز من على الطاولة التي كان يجلس عليها وهو يضرب بهراوته في نوع من التأكيد ثم وقف أمام السجناء أثناء تأديتهم طقوس العقاب صارخًا: «أسفل، أعلى!». توقف بول ٥٧٠٤ محتجًا لعدم قدرته على تحمل المزيد. تساهل فارنيش وسمح للسجناء بالوقوف أمام الحائط.

«حسنًا، قفوا جميعًا إلى جانب أسِرَّتكم ريثما تعثرون على ثلاثة جوارب تضعونها على رؤوسكم، وإن لم تفعلوا فعليكم بالمناشف بدلاً».

«أي نوع من الأيام هذا يا ٨١٩؟»

«يوم رائع سيدي الضابط الإصلاحي»

«حسنا، رتبوا الأسرّة بدون أية ثنيات على الإطلاق ثم اجلسوا عليها»

في هذا الوقت كان الحراس الآخرين قد غادروا المكان جميعهم ولم يبق إلا حراس نوبة الصباح ومعهم الحارس الاحتياطي موريسون الذي كان يراقب هذه الإساءات الاستبدادية بهدوء ثم أخبر السجناء أن بإمكانهم الاستلقاء إن أرادوا، ففعلوا ذلك على الفور وسرعان ما غطوا في نوم عميق.

بعد قرابة ساعة مرّ آمر السجن متأنقًا مرتديًا معطفًا من الصوف وربطة عنق، يبدو كأنما يزداد طولاً كل يوم، أو ربما كان يقف متصبًا أكثر مما رأيته عليه آخر مرة.

نادى بصوت مرتفع: «انتباه، انتباه، عندما يصبح السجناء في كامل جاهزيتهم ينبغي عليهم الاصطفاف في الساحة من أجل التفتيش».

ذهب الحراس إلى الزنزانتين (٢) و(٣) وأمروا السجناء بالنهوض والخروج إلى الساحة، قُطعت القيلولة الوجيزة مجددًا وخرج أفراد الزنزانتين (٢) و(٣) مرة أخرى، وجد سنو ٨١٩ جورب رأسه وارتدى ريتش ١٠٣٧ منشفته على شكل عمامة في حين يرتدي بول ٥٧٠٤ منشفته على شكل قبعة المعطف الصغيرة مسترخية على خصل شعره الطويل الأسود.

سأل فارنيش الرقيب: «كيف كان نومك؟»

«كان نومًا رائعًا سيدي الضابط الإصلاحي».

لم يبلغ ٥٧٠٤ هذا الحد واكتفى بقوله: «جيد»، أداره فارنيش تجاه الحائط أثناء قراءة حارس آخر لإحدى القواعد الأساسية:

«يلتزم السجناء بمناداة أفراد الحراسة بإضافة لقب (السيد الضابط الإصلاحي)».

أدى ٥٧٠٤ تدريبات الضغط لكذبته الفاترة، «جيد»، التي أوحت بعدم الاحترام.

مشى آمر السجن بتؤدة أمام صف السجناء وكأنه قائد عسكري يتفقد جنوده: «يبدو أن لدى هذا السجين مشكلة مع شعره وكذلك مع رقم هويته، يجب أن تُحلّ مشكلة رقم الهوية قبل أي عمل آخر». ثم واصل سيره وجعل يقيّم السجناء الذين يتسببون بالمتاعب طالبًا من الحراس اتخاذ الإجراءات الإصلاحية المناسبة. «شعر هذا السجين ظاهر من تحت منشفته»، كما أصرّ على إعادة حياكة أرقام التعريف أو استبدال أرقام مكتوبة بقلم ملوّن بها.

«غدًا يوم الزيارات، يعني هذا أن الزوّار يجب أن يروا الهيئة الرائعة لسجنائنا، أليس كذلك؟ ويعني هذا أن السجين ٨١٩ يجب أن يتعلم كيفية ارتداء جورب الرأس، اقترح

مستقبلاً أن يتعلم كل من ٣٤٠١ و٥٧٠٤ كيفية ارتداء المناشف على رؤوسهم كما يفعل السجين ١٠٣٧، الآن عودوا إلى الزنازين».

خلد جميع السجناء للنوم حتى حان موعد إيقاظهم لتناول وجبة الإفطار، إنه يوم جديد، وها قد بدأت نوبة النهار. بدأ إحصاء جديد وبطريقة مشجعي الفرق الرياضية هذه المرة حيث يهتف كل سجين برقمه:

«قُل خمسة.. قُل سبعة.. قُل صِفر.. قُل أربعة! ماذا يكون؟ خمسة سبعة صفر أربعة» عاد إليهم أرنيت وجون لاندري وماركوس بهذا البلاء الجديد، كل سجين يتقدم خطوة أمام الصف ويهتف برقم تعريفه بهذه الطريقة ثم يعود إلى الصف ويتقدم التالي، وهكذا..

الحدود الفاصلة بين الهوية الشخصية والدور الجديد تصبح قابلة للاختراق

بعد أقل من ثلاثة أيام في هذا الوضع الغريب ذهب بعض الطلبة القائمين بأدوار حراس السجن إلى ما هو أبعد من الأداء التمثيلي، لقد تقمصوا العدوانية والمشاعر السلبية والهيئة الوجدانية لحراس السجن الحقيقيين وفقًا لما ظهر في تقارير النوبات والمذكرات والتأملات الشخصية.

كان سيروس فخورًا بطريقة عمل الحراس اليوم حيث قال: «كُنّا أكثر تنظيمًا، وحققنا نتائج رائعة مع السجناء»، لكنه ما زال قلقًا من خطر محتمل: «الذي تخوف من هدوء قد يكون خادعًا، ربما التخطيط للهروب جارٍ على قدم وساق»[1].

أبدى فارنيش ممانعة لأداء دور الحارس في البداية وهو الأمر الذي كان ظاهرًا إلى الحد الذي دفعني لأطلب من آمر السجن تقويمه. «لم أجبر نفسي على التعامل مع هذا الأمر بجدية كاملة إلا ثاني أيام العمل، كان عليّ كبت أية مشاعر داخلي تجاه السجناء، كان عليّ أن أفقد تعاطفي واحترامي لأي منهم، بدأت أعاملهم بأقصى قدر ممكن من البرود والقسوة اللفظية، لم أسمح لنفسي بإظهار أية مشاعر ربما أحبّوا أن تبدو عليّ مثل الغضب أو اليأس». أصبح أشدّ انتماءً لمجموعة الحراس، «رأيت في الحراس مجموعة لطيفة من الشباب أوكلت إليهم مهمة حفظ النظام وسط أشخاص لا يستحقون الثقة أو التعاطف؛ أعني السجناء». ذكر أيضًا أن قسوة الحراس بلغت ذروتها في إحصاء الساعة الثانية والنصف صباحًا وأن الأمر راقه[2].

---

(١) تقرير حارس النوبة.

(٢) لقاء مع محطة (NBC)، برنامج [Chronolog]، سنة ١٩٧١.

لم يكن فاندي الذي بدأ يشارك فارنيش القيادة أثناء نوبة الصباح في نشاطه المعتاد في ذلك اليوم، كان مُتعبًا للغاية وقد أنهكته قلة ساعات نومه، لكنه كان سعيدًا برؤية السجناء متماهين تمامًا مع أدوارهم: «هم لا يرونها تجربة، إنه أمر حقيقي وهم يجاهدون للحفاظ على كرامتهم، لكننا حاضرون دائمًا لنريهم من صاحب الكلمة في هذا المكان».

ذكر أنه كان يشعر بتعاظم إحساسه بالزعامة وأنه كان ينسى أنها مجرد تجربة، كان كل ما يريده هو: «معاقبة أولئك الذين لا يطيعون الأوامر حتى يتعظ باقي السجناء ويحسنوا التصرف».

ضياع شخصية[1] السجناء وسلبهم إنسانيتهم بدآ يؤثران فيه كذلك: «كنت أزداد غضبًا، لكنني لم أتوقف مع الأسباب الكامنة خلف هذا السلوك كثيرًا، لم أكن لأدعه يؤثر فيّ، فبدأت أتوارى أكثر خلف دوري الذي أؤديه، كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لتجنب الأذية، كنت غير قادر بالفعل على فهم ما يجري من حولي لكنني لم أفكر أبدًا في الانسحاب».

أصبح لوم الضحايا على ظروفهم المؤسفة نتيجة فشلنا في توفير مكان ملائم للاستحمام ومستلزمات النظافة الشخصية أمرًا مُعتادًا بين الحراس، نرى لوم الضحية هذا في تذمّر فاندي قائلاً: «لقد تعبت من رؤية السجناء مرتدين خرقًا بالية، سيئي الرائحة، وكذلك السجن عفن الرائحة»[2].

حراسة أمن مؤسستي

بدوري كرئيس للسجن أصبح تركيزي منصبًا على أهم قضية تواجه رئيس أية مؤسسة، ماذا أفعل لضمان سلامة وأمن المؤسسة المسؤول عنها؟ نحّيت شخصيتي كباحث جانبًا مقدّمًا عليها شخصيتي كرئيس للسجن بسبب الخطر الذي يُهدد سجننا من شائعات الهجوم المزمع تنفيذه. كيف سأتعامل هنا والآن مع الاختراق الوشيك من قِبَل رفاق ٨٦١٢؟

في اجتماع فريق العمل الذي يعقد في الصباح راجعنا العديد من الخيارات واتفقنا على نقل التجربة إلى سجن البلدة القديم الذي أصبح مهجورًا بعد إتمام بناء قسم الشرطة المركزي الجديد؛ ذلك الذي اقتدنا السجناء إليه لتقييد بياناتهم بعد عملية الاعتقال يوم الأحد الماضي. تذكرت أن الضابط المسؤول سألنا ذلك الصباح عن أسباب عدم

---

(١) (depersonalisation) ضياع أو تبدّد الشخصية: اضطراب يشعر فيه الشخص أن إحساسه وأفكاره ورغباته غريبة عنه. (المترجم).

(٢) مذكرات الحارس.

استخدامنا السجن القديم خاصةً وأنه فارغ وبه زنازين كبيرة، لو كنت فكرت في هذا مُسبقًا كنت سأجعله مكان التجربة بالتأكيد، لكننا كُنّا قد زرعنا أجهزة التنصُّت وأبرمنا اتفاقنا مع الجامعة فيما يخص خدمة تقديم الوجبات وأمورًا لوجستية أخرى سيكون تدبرها أسهل بوجودنا في مبنى قسم علم النفس، هذا البديل الجديد كان كل ما نحتاج إليه.

سيتولى كيرت بانكس أثناء انشغالي بترتيبات المكان الجديد مسؤولية اجتماع لجنة شكاوى السجناء الثاني، وسوف يشرف كريج هاني على تجهيزات فترة الزيارة، وسيتابع ديفيد جافي سير الأعمال اليومية المعتادة لضباطه الإصلاحيين.

كنتُ سعيدًا بإمكانية أن ألتقي بالضابط بسرعة، التقينا في السجن القديم في وسط البلدة بشارع رامونا. شرحتُ له المأزق الذي نحن فيه ورغبتنا في تجنُّب حدوث صدامات جسدية شبيهة بتلك التي وقعت في العام الماضي بين الطلبة ورجال الشرطة في مقر الجامعة، وحثثته على التعاون. تفقدنا الموقع معًا كما لو كنت مشترٍ محتمل، كان مكانًا مثاليًا لإتمام ما بقي من الدراسة بل وسيضفي أجواء السجن الحقيقية على التجربة.

عدنا إلى مقر الشرطة لاستكمال بعض الأوراق الرسمية وتقديم طلب بكون السجن جاهزًا للاستخدام بحلول الساعة التاسعة من هذه الليلة (بعد انتهاء الزيارات)، وعدت أيضًا بأننا سنبقي السجن نظيفًا على مدار الأيام العشرة القادمة، سيعمل السجناء على هذا، وسأتحمل أنا كلفة أية أضرار قد تحدث، ثم تصافحنا بقوة وشكرته بحرارة على إنقاذ الموقف، يا للراحة! كان الأمر أيسر مما تخيَّلت.

تنفست الصعداء بعد ضربة الحظ هذه وكنت فخورًا بسرعة بديهتي، كافأت نفسي بكوب من الإسبرسّو والكانولي واستمتعت بأشعة الشمس في هذا المقهى المفتوح في يوم صيفي منعش آخر، ما نزال بالو ألتو جنّة من الجنان، لم يتغير شيءٌ منذ يوم الأحد.

بعد فترة قصيرة من شرح خطط الانتقال لفريق العمل جاءت مكالمة محبطة من قسم الشرطة: «لا انتقال!». مدير البلدة متخوفٌ من الملاحقة القضائية إذا ما تعرض أحدهم للأذى أثناء وجوده في ممتلكات تعود للبلدة وأثيرت أيضًا قضية الاعتقال المزيف. توسلت إلى الضابط حتى يسمح لي بمحاولة إقناع مدير البلدة بأن مخاوفه لا أساس لها، حثثته على التعاون المؤسسي وذكّرته بعلاقتي برئيسه زيرتشر، وأكدتُ على أن احتمالية تعرض أحدهم للأذى ستكون أكبر إذا ما تعرضت وحدتنا غير المؤمنّة بما يكفي للاختراق، «من فضلك، هل يمكننا حل هذه المسألة؟»، رد عليّ: «أعتذر حقًا، لكن الإجابة هي لا، يؤسفني أن أخذلك، لكنه عمل». خسرتُ فكرتي الذكية بخصوص نقل السُجناء والذي كان صائبًا تمامًا، كما يبدو أنني بدأت أضطرب.

ما الذي قد يظنُّه هذا الضابط بأستاذ علم نفس يعتقد نفسه رئيس سجن تملؤه

المخاوف بخصوص هجوم مُحتمل على «سجنه»؟ «مجنون» ربما؟ «بالغ الجنون»، على الأرجح، أو ربما يراني «عالم نفس مختلٌ نفسيًا».

«أتدري؟»، قلت لنفسي، «من يكترث لرأيه؟ يجب أن أتحرك فالوقت يداهمنا. سنتخلى عن هذه الخطة وننتقل لأخرى: أولاً، ندسّ مُخبرًا بين السجناء حتى نحصل على معلومات أفضل حول أحداث الشغب الوشيكة، ثم نحبط العملية بادعاء انتهاء الدراسة عندما يقتحم المشاغبون المكان، سنفكك الزنازين بحيث يبدو المشهد وكأن الجميع عادوا إلى منازلهم، وسأخبرهم بأننا قررنا عدم استكمال البحث، لذا لا داعي للأعمال البطولية، فقط عودوا من حيث أتيتم».

بعد ذهابهم سيصبح لدينا وقتٌ كافٍ لتعزيز أمن السجن وإيجاد خيارات أفضل. وجدنا غرفة تخزين كبيرة في الدور العلوي من المبنى حيث يمكننا تسكين السجناء فيها بعد انتهاء ساعات الزيارة؛ هذا إن افترضنا أن الاختراق لن يحدث أثناء الزيارة نفسها، ثم سنعيدهم لاحقًا في نفس الليلة ونعزّز أمن السجن بحيث يغدو أكثر مقاومة للهجمات. بدأ الفنّي المسؤول عن المكان لدينا بالعمل على تعزيز حماية أبواب المداخل ووضع كاميرات مراقبة في الخارج ودعم أمن السجن بطرق أخرى. يبدو أنها خُطة بديلة جيدة، أليس كذلك؟

واضحٌ أنني كنت مهووسًا بالهجوم المُتخيَّل على «سجني».

دسّ مخبر

نرغب في الحصول على معلومات أكثر دقة عن الهجوم الوشيك لذلك قررت دسّ واشٍ في السجن، ادعيّت إيجاد بديل للسجين الذي أطلقنا سراحه؛ ديفيد ج. (David G.)؛ أحد طلابي الذي كان يملك العقلية التحليلية التي نحتاجها. بالتأكيد ستسهل لحيته الكثيفة المشعثة ومظهره غير المرتب من قبول السجناء له باعتباره واحدًا منهم، لقد ساعد سابقًا في تسجيل لقطات الفيديو أثناء المراحل الأولى من الدراسة للتخفيف عن كيرت، فهو على معرفة بالمكان وبما يجري فيه. وافق ديفيد على المشاركة لأيام قليلة وعلى تزويدنا بأية معلومات يستخلصها من شأنها أن تساعدنا، سنقتاده بعدها إلى واحد من مكاتب فريق العمل تحت أية ذريعة ليدلي بما عنده.

سرعان ما اكتشف ديفيد عقيدة الحراس الجديدة التي عبّر عنها واحد منهم بوضوح: «لن يحظى السجناء الصالحون بالاهتمام، ولن ينعم المشاغبون بالراحة». غالبية السجناء بدؤوا يؤمنون بعدم جدوى نزاعهم المستمر مع الحراس أثناء أداء دورهم، بدؤوا يتقبّلون مصيرهم ويتعايشون يومًا بعد يوم مع كل ما يُفعَل بهم لأن «فكرة قضاء أسبوعين من

المشاحنات حول النوم والوجبات والأسِرّة والبطانيات كانت تفوق الاحتمال». لكن ديفيد لاحظ مِزاجًا جديدًا لم يكن موجودًا في السابق، «الأجواء هنا مثقلة بالارتياب»، وتحدث لاحقًا عن شائعات عن الهروب[1].

لم يعارض أحد إقحام ديفيد في التجربة، كان يشعر أن الحراس يعرفون أنه مختلف عن الباقين لكنهم غير متأكدين من طبيعة وجوده هنا، هم لا يعرفون هويته وببساطة يعاملونه مثل الآخرين؛ بطريقة سيئة. سرعان ما أتعب نظام دورة المياه ديفيد: «كان عليّ أن أتغوط في خمس دقائق، وأن أتبول مرتديًا حقيبة تسوق في رأسي وأحدهم يخبرني أين المرحاض. لم أنجح في هذا، في الحقيقة لم أتمكن من التبوُّل في المكان المخصص لذلك، كان عليّ التوجه ناحية المرحاض وإغلاق الباب، والتأكد من أن أحدهم لن يقفز فوقي!»[2].

أصبح صديقًا لريتش ١٠٣٧ حيث زامله في الزنزانة (٢) وسرعان ما تقاربا. في غضون ساعات تغيَّر حال جاسوسنا الموثوق ديفيد، وقد ارتدى الثوب القديم للسجين داج ٨٦١٢. كتب ديفيد: «شعرت بالذنب لسعيي للوشاية بهؤلاء الفتية الرائعين، وشعرت بالراحة عندما لم أجد ما يستحق أن أنقله عنهم»[3]، لكن أحقًا لم تكن هناك أية معلومات تستحق أن ينقلها لنا؟

قال السجين ١٠٣٧ لديفيد أن السجناء لا يستطيعون المغادرة وقتما يشاؤون، ونصحه ألا يتمرد مثلما فعل هو في أول إحصاء، فليس هذا بأفضل ما يمكن أن يفعلوه لأنفسهم الآن. باح له ١٠٣٧ بسره، طريق التخطيط للهروب هو أن «يظهر السجناء التعاون مع الحراس حتى نتال من نقطة ضعفهم».

أخبرنا ديفيد لاحقًا أن ٨٦١٢ لم يخطط مطلقًا للهجوم! ولكننا كنا قد أضعنا الكثير من الوقت والجهد في التحضير لإحباط هذا الهجوم، قال: «بالتأكيد كان بعض هؤلاء الفتية يحلمون بعودة صديقهم أثناء ساعات الزيارة ليخرجهم أو بالهروب أثناء فترات الاستحمام، لكن كان واضحًا أن كل هذا مجرد حلم»، كان أملاً يمنّون به أنفسهم حتى يتمكنوا من المواصلة[4].

بالتدريج أدركنا أن ديفيد قد خرق عقده الشفهي معنا والذي يقضي بأداء دور الواشي

---

(١) مذكرات السجين.

(٢) اللقاء الأخير المُسَجَّل للواشي مع الدكتور زيمباردو.

(٣) مذكرات السجين.

(٤) مذكرات السجين.

المشاحنات حول النوم والوجبات والأسِرّة والبطانيات كانت تفوق الاحتمال». لكن ديفيد لاحظ مِزاجًا جديدًا لم يكن موجودًا في السابق، «الأجواء هنا مثقلة بالارتياب»، وتحدث لاحقًا عن شائعات عن الهروب[١].

لم يعارض أحد إقحام ديفيد في التجربة، كان يشعر أن الحراس يعرفون أنه مختلف عن الباقين لكنهم غير متأكدين من طبيعة وجوده هنا، هم لا يعرفون هويته وببساطة يعاملونه مثل الآخرين؛ بطريقة سيئة. سرعان ما أتعب نظام دورة المياه ديفيد: «كان عليّ أن أتغوط في خمس دقائق، وأن أتبول مرتديًا حقيبة تسوق في رأسي وأحدهم يخبرني أين المرحاض. لم أنجح في هذا، في الحقيقة لم أتمكن من التبوُّل في المكان المخصص لذلك، كان عليّ التوجه ناحية المرحاض وإغلاق الباب، والتأكد من أن أحدهم لن يقفز فوقي!»[٢].

أصبح صديقًا لريتش ١٠٣٧ حيث زامله في الزنزانة (٢) وسرعان ما تقاربا. في غضون ساعات تغيَّر حال جاسوسنا الموثوق ديفيد، وقد ارتدى الثوب القديم للسجين داج ٨٦١٢. كتب ديفيد: «شعرت بالذنب لسعيي للوشاية بهؤلاء الفتية الرائعين، وشعرت بالراحة عندما لم أجد ما يستحق أن أنقله عنهم»[٣]، لكن أحقًا لم تكن هناك أية معلومات تستحق أن ينقلها لنا؟

قال السجين ١٠٣٧ لديفيد أن السجناء لا يستطيعون المغادرة وقتما يشاؤون، ونصحه ألا يتمرد مثلما فعل هو في أول إحصاء، فليس هذا بأفضل ما يمكن أن يفعلوه لأنفسهم الآن. باح له ١٠٣٧ بسره، طريق التخطيط للهروب هو أن «يظهر السجناء التعاون مع الحراس حتى تنال من نقطة ضعفهم».

أخبرنا ديفيد لاحقًا أن ٨٦١٢ لم يخطط مطلقًا للهجوم! ولكننا كنا قد أضعنا الكثير من الوقت والجهد في التحضير لإحباط هذا الهجوم، قال: «بالتأكيد كان بعض هؤلاء الفتية يحلمون بعودة صديقهم أثناء ساعات الزيارة ليخرجهم أو بالهروب أثناء فترات الاستحمام، لكن كان واضحًا أن كل هذا مجرد حلم»، كان أملاً يمنّون به أنفسهم حتى يتمكنوا من المواصلة[٤].

بالتدريج أدركنا أن ديفيد قد خرق عقده الشفهي معنا والذي يقضي بأداء دور الواشي

---

(١) مذكرات السجين.

(٢) اللقاء الأخير المُسجَّل للواشي مع الدكتور زيمباردو.

(٣) مذكرات السجين.

(٤) مذكرات السجين.

في هذا الظرف الطارئ. ومن ثم، عندما سَرقَ أحدهم مفاتيح الأصفاد في وقت لاحق من هذا اليوم، قال لنا ديفيد أن لا علم لديه على الإطلاق بمكان وجودها، كان يكذب، عرفت ذلك من خلال تقارير مذكراته في نهاية التجربة: «كنت أعرف مكان مفتاح الأصفاد، لكن لم أقل شيئًا إلا بعد أن صار الأمر برمته غير ذي أهمية. ربما كنت سأشي، لكنني لن أخون هؤلاء الفتية على مرأىً منهم ومسمع».

هذا التحول المفاجئ المذهل إلى حالة السجين كان أكثر وضوحًا في بعض تقارير ديفيد الأخرى. شعر خلال اليومين اللذين قضاهما في السجن أنه لم يكن مختلفًا عن الآخرين: «باستثناء أنني كنت أعرف موعد خروجي، لكن حتى ثقتي في ذلك كانت تتضاءل بسبب اعتمادي على أشخاص سيأتون من الخارج ليخرجوني، أصبحت أكره هذا الوضع بالفعل». وبعد انقضاء يومه الأول في سجن بلدية ستانفورد قال لنا ديفيد الواشي: «نمت هذه الليلة يملؤني الشعور بالقذارة والذنب، والخوف».

بثّ الشكاوى

جاءت اللجنة نفسها والأشخاص أنفسهم الذين التقيتهم سابقًا ومعهم قائمة طويلة من الشكاوى إلى كيرت بانكس أثناء تفاوضي مع شرطة البلدة. السجناء الثلاثة أنفسهم برئاسة ٥٧٠٤ ومعه كل من ٤٣٢٥ و١٠٣٧ الذين انتخبهم السجناء جميعهم. استمع كيرت بإنصات إلى شكاويهم وكان من بينها: الظروف غير الصحية بسبب القيود المفروضة على استخدام المرحاض، لا مياه نظيفة لغسل الأيدي قبل الوجبات، لا أماكن مخصصة للاستحمام، الخوف من الأمراض المعدية، أصفاد اليد وكذلك أصفاد القدم ضيّقة للغاية بما يسبّب تورّمات وسحَجَات[1]، أرادوا كذلك خدمة دينية يوم الأحد، وطلبوا بالإضافة إلى ذلك خيار نقل السلسلة من قدم إلى الأخرى، وفرصًا لأداء التمارين الرياضية، ووقتًا للراحة، والحصول على ملابس نظيفة، والسماح للسجناء بالتواصل بين الزنازين، وراتبًا إضافيًا لعملهم يوم الأحد، بشكل عام طالبوا بفرصة لفعل شيءٍ أكثر فائدة من مجرد المكث هنا أو هناك.

أنصت كيرت باهتمام كما يفعل دائمًا لكن بدون إبداء أية مشاعر. ويليام كيرت بانكس (William Curt Baks) أمريكي من أصل أفريقي في أواخر العشرينات من عمره، أب لطفلين، طالب في السنة الثانية من دراسته العليا، فخور بدخوله أعظم أقسام علم النفس في العالم، كان طالبًا مجتهدًا ومتفوقًا مثل جميع الطلبة الذين عملت معهم، لا وقت لديه

---

(١) جروح طفيفة على الجلد. (المترجم).

للهو أو التجاوزات أو الضعف أو الأعذار أو الحماقات. احتفظ كيرت بمشاعره لنفسه مستترًا وراء واجهةٍ صلبة.

ربما فسّر جيم ٤٣٢٥ الذي كان صاحب طبع متحفظ هو الآخر جمود كيرت بأنه عدم رضى، لذا بادر بالقول: «ليست هذه شكاوى بقدر ما هي اقتراحات»، شكرهم كيرت بكياسة على اقتراحاتهم ووعد بنقلها إلى رؤسائه من أجل النظر فيها. أتساءل ما إذا لاحظوا أنه لم يدوِّن أيًا من شكاويهم وأنهم لم يفلحوا في إعطائه قائمة مكتوبة بهذه الشكاوى.

من الأهمية بمكان في النظام الذي صنعناه أن نعطي إيحاءً بالديمقراطية في هذه البيئة السُلطويّة؛ فاحتجاجات الجماهير تتطلب إحداث تغييرات في الأنظمة، فإن قوبلت بحكمة منعنا العصيان والتمرُّد، وإن كان النظام حياديًا حيالها فإن العصيان يُحجّم والتمرُّد يُنحّى. إن فرصة تحقيق اللجنة لأي من أهدافها ضئيلةٌ للغاية ما لم ينالوا أية ضمانات بالتعامل الجدي والمسؤول مع متطلباتهم. لقد فشلت لجنة الشكاوى في مهمتها الرئيسية في صنع ثغرة في بنيان هذا النظام، لكنهم خرجوا مع ذلك بحال جيدة لمجرد الاعتراض علنًا وحيازة شيء من السلطة - وإن في أدنى مستوياتها - ممثّلة في الإعلان عن شكاواهم.

السجناء يتواصلون مع العالم الخارجي

كانت أولى رسائل السجناء عبارة عن دعوات للزوار المحتملين، بعضهم قد يأتي الليلة في هذا اليوم الثالث للتجربة. الجولة الثانية من الخطابات ستكون للزوار المدعوين لليلة الزيارة الثانية أو لأيٍّ من الأصدقاء أو أفراد العائلة المقيمين في نواحٍ أبعد الأمر الذي يزيد من صعوبة قدومهم للزيارة. بعدما انتهى السجناء من كتابة الدعوات وفقًا للصيغة الرسمية جمعها الحراس بغية إرسالها وبالطبع، وكما هو موضح في القواعد، روجعت كافة الخطابات لدواعٍ أمنية. النماذج التالية تقدم لنا فكرةً عمّا كان يشعر به السجناء حيث كانت هناك على الأقلّ حالة واحدة مثّلت لنا مفاجأة كبيرة.

اقترح الأمريكي الخالص، الوسيم هابي ٧٢٥٨، على فتاته أن تأتي له بـ: «بعض ملصقات الحائط والصور المبهجة لكسر ملل الجلوس على السرير والتحديق في حوائط فارغة».

عبّر الشاب الصلب صاحب الشارب الكثيف ريتش ١٠٣٧ عن غضبه لصديقه: «لم يعد الأمر مجرد عمل، أنا مُحطّم لأنني لا أستطيع الخروج من هنا».

ستو ٨١٩، الذي كانت شكاويه في ازدياد، أرسل رسائل مشوشة إلى صديقه: «الطعام هنا جيد ووفير كما في اليوم الثالث لرحلة إيبنزر الثانية إلى تايلاند. لا توجد الكثير من الأحداث المثيرة هنا، أخلد للنوم بشكل أساسي، أهتف برقمي، وأتعرض للمضايقات، سيكون الخروج من هنا أمرًا عظيمًا».

السجين الأسيوي الأمريكي ضئيل البنية، جلين ٣٤٠١؛ عبَّر بوضوح عن ازدرائه لهذا المكان: «أقضي وقتًا مريعًا، أرجوك قم بتفجير قاعة جوردان كتكتيك مضلّل، أنا ورفاقي محبطون للغاية، ننوي الهروب بمجرد ما تسنح لنا الفرصة، لكنني أقسمت أولاً على سحق بعض الرؤوس في طريقي للخروج من هنا». ثم أضاف ملحوظة محيّرة: «كن حذرًا ولا تدع الحمقى يعرفون أنك حقيقي. . »، حقيقي؟

أتت المفاجأة من رسالة مدمن النيكوتين بول ٥٧٠٤، القائد الجديد للسجناء. في هذه الرسالة قام ٥٧٠٤ بفعل أحمق بالنسبة لرجل يتقلّد الدور الثوري، لقد أخبر فتاته - في خطاب غير مؤمَّن - أنه ينوي كتابة قصة حول تجربته هذه لجريدة محلية مغمورة عندما يخرج، فقد اكتشف أن مكتب الأبحاث البحرية التابع لوزارة الدفاع يدعم البحث[1]، وبالنتيجة فقد خرج بمؤامرة مفادها أننا نسعى إلى إيجاد أفضل الطرق لسجن الطلبة المعارضين لحرب فيتنام! من الواضح أنه ليس بالثوريّ الخبير إذ ليس من الذكاء في شيء أن يفصح عن خططه في خطاب سنطّلع عليه على الأرجح.

لم يعرف الكثير عن كوني أستاذًا راديكاليًا وناشطًا ضد حرب فيتنام منذ ١٩٦٦م، حيث نظّمت واحدًا من أوائل اللقاءات المفتوحة مع الطلبة والتي استمرّت طوال الليل في جامعة نيويورك، كما نظّمت مسيرة ضخمة في حفل التخرج بجامعة نيويورك احتجاجًا على منح الجامعة لوزير الدفاع روبرت مكنامارا درجة فخرية، وفي السنة الأخيرة في ستانفورد نظّمت آلاف الطلبة في تحديات بنّاءة ضد الحرب المستمرة، كنت مُفعمًا بروح السياسة لا بروح الثورة الطائشة.

بدأ خطابه على هذا النحو: «لقد رتبت مع جريدة (The Tribe and the Berkely Barb) [جريدة راديكالية مستقلّة] لنشر القصة عند خروجي»، ثم تباهى بوضعه الجديد في مجتمعنا الصغير في السجن: «جمعت اليوم لجنة الشكاوى التي أرأسها، غدًا سوف أنظم اتحادًا ائتمانيًا لجمع رواتبنا». ثم واصل مبيِّنًا كيف يستفيد من هذه التجربة: «أتعلَّم الكثير عن التكتيكات الثورية لمقاومة الاعتقال، لا يحقق الحراس شيئًا يُذكر لأنهم غير قادرين على خفض معنوياتي العالية، أغلبنا هنا غير عادي ولا أعتقد أن أيًّا منا سينهار قبل انتهاء هذا الأمر. قليل منا بدؤوا يرضخون، لكنهم لن يؤثروا في بقيتنا»، كما ذيل خطابه بتوقيع كبير «سجينك، ٥٧٠٤».

قررتُ ألا أطلع الحراس على هذا حتى لا يعتدوا عليه بشكل انتقامي، لكن أزعجتني

(١) قدم مكتب الأبحاث البحرية (O.N.R) دعمًا ماليًا لبحثي (انظر: الفصل الثالث عشر)، ثم ازداد الدعم ليشمل التجربة. كانت منحة مكتب الأبحاث البحرية: N001447-A-0112-0041

فكرة اتهام بحثي بأنه أداة لآلة الحرب التي تديرها الدولة، خاصة وأني بذلت جهدًا كبيرًا في تشجيع الطلبة على التمرّد الإيجابي. هذه المنحة كانت في الأساس لدعم الأبحاث التجريبية والنظرية عن تأثير الحجب والأوضاع التي تهدر فيها الذاتية والعنف المتبادل، وعندما خطرت لي فكرة تجربة السجن تمكنت من الحصول على موافقة الوكالة المانحة لزيادة الدعم المالي حتى يشمل هذا البحث أيضًا بدون أية مصروفات إضافية بعد ذلك. يثير غضبي أن ينشر بول وربما رفاقه في بيركلي هذا الزيف عني.

سواءٌ كان مدفوعاً بتقلباته المزاجية أو بحاجته الماسة للنيكوتين أو برغبته في خلق مادة مثيرة لكشفه الصحفي؛ فإن ٥٧٠٤ قد خلق لنا جميعًا المزيد من الصعوبات اليوم، وهو اليوم الذي كانت لدينا فيه بالفعل أمور كثيرة لننجزها. تمكن بمساعدة زملائه في الزنزانة (١) من ثني قضبان الباب ليقضي بعض الوقت في الحفرة، وأثناء وجوده في الحفرة رفس الحائط الفاصل بين الغرفتين بقدمه محطمًا إياه ليُحرم من وجبة الغداء ويقضي وقتًا إضافيًا في الحبس الانفرادي. استمر في سلوكه غير المتعاون أثناء العشاء وكان مستاءً بوضوح لعدم وجود من يأتي لزيارته. لحسن الحظ فقد تحسّن سلوكه كما لاحظنا عقب لقائه بعد العشاء بآمر السجن الذي وبّخه بشدّة.

الاستعداد للزوار: حفلة النفاق التنكرية

تمنيت أن يأتي كارلو من أوكلاند ليعمل معي على كيفية الاستعداد لجحافل الآباء القادمة للزيارة. لكن كما العادة؛ كانت سيارته معطلة وفي الصيانة على أمل أن يحضر في اليوم التالي وفق الخطة المرسومة بوصفه رئيس لجنة الإفراج المشروط. بعد نقاش طويل على الهاتف وُضعت الخطة، سنقوم بما تقوم به جميع السجون عند مَقْدم زوّار غير مرحّب بهم مستعدين لتدوين الانتهاكات ومواجهة النظام بمطالب تهدف إلى تحسين الأوضاع؛ فيغطّي مسؤولو السجن بقع الدم بالمناديل، ويُخفون الأجساد بإبعاد مثيري الشغب عن العيون، ويجعلون المنظر يبدو جميلاً.

قدّم كارلو نصيحة حكيمة بخصوص ما يمكن فعله في الوقت القصير المتاح بحيث نخلق أمام أولياء الأمور مظهرًا يشي بفعالية النظام وحسن نيته حيث يرعى أبناءهم طيلة وجودهم تحت مسؤوليته. أوضح لنا أننا يجب أن نُقنع أولياء الأمور البيض المنتمين للطبقة المتوسطة هؤلاء بأننا نقوم بعمل صالح متوسلين بهذه الدراسة، وأن نجعلهم - كما فعلنا بأبنائهم من قبل - يمتثلون لاحتياجات السلطة. ضحك كارلو وهو يقول: «أنتم معشر البيض بالتأكيد تُحِبُّون فكرة الخضوع للإنسان، سيعرفون أنهم يقومون بالشيء الصحيح عندما يفعلون ما يفعله الجميع من حولهم».

بدأ العمل الرئيسي: ينظِّف السجناء الأرضيات والزنازين، أزيلت لافتة الحفرة، واستخدمنا مُطَيِّرًا برائحة الكينا لإخفاء رائحة البول. هذَّب السجناء لحاهم واغتسلوا وتجمَّلوا قدر المستطاع، وأُخفيت جوارب الرؤوس والمناشف. أخيرًا، أخبر آمر السجن الجميع أن أية شكوى ستؤدي إلى إلغاء الزيارة. طلبنا من حراس نوبة النهار العمل لوقت إضافي حتى التاسعة مساءً للتعامل مع الزوّار من جهة، وللمساعدة حال حدوث ذلك الشغب المتوقع من جهة أخرى. ولمزيد اطمئنان طلبتُ حضور جميع أفراد الدعم الاحتياطي أيضًا.

ثم قدمنا لسجانانا أفضل وجبة ساخنة حصلوا عليها منذ دخلوا السجن، شطيرة دجاج تلاها طبقًا تحلية للنهمين منهم، صدحت الموسيقى بلطف في أرجاء المكان أثناء تناولهم الطعام، قدَّم حرَّاس نوبة النهار العشاء في حين كان حراس نوبة الليل يراقبون، وغاب الضحك والقرقرة اللذان عادةً ما يصاحبان أوقات تناول الوجبات، كان المناخ العام متحضرًا ومنظَّمًا بشكل غريب.

يجلس هيلمان على رأس المنضدة مائلاً قليلاً إلى الخلف، لكن ما زال يلوح بهراوته: «لم تحظ بوجبة جيدة كهذه من قبل يا ٢٠٩٣، أليس كذلك؟»

ردّ ٢٠٩٣: «لا يا سيدي الضابط الإصلاحي»

«لم تقدم لك أمك طبقًا ثانٍ[1] من قبل، هل فعلت؟»

يرد الرقيب بخضوع: «لا، لم تفعل يا سيدي الضابط الإصلاحي»

«أترى كم المكان جيدٌ هنا يا ٢٠٩٣؟»

«نعم، أفعل سيدي الضابط الإصلاحي». التقط هيلمان بعض الطعام من طبق الرقيب ثم ابتعد مُستهزئًا به، مما تسبّب بشحن الأجواء بينهما.

في تلك الأثناء وفي الممر الخارجي أمام البوابة الرئيسية للسجن كنا نستكمل التجهيزات النهائية لاستقبال الزوار الذين نخشى من إثارتهم المشاكل. عند الحائط المقابل لمكاتبنا أنا والحراس وآمر السجن وضعنا عددًا من الكراسي القابلة للطيّ ليجلس عليها الزوّار بانتظار دورهم في الدخول. أثناء نزولهم إلى القبو مفعمين بالمشاعر الإيجابية حيال ما بدا لهم تجربة فريدة وممتعة؛ قصدنا وبشكل ممنهج أن نجعل سلوكهم محكومًا بالظرف كما خططنا، يجب أن يفهموا أنهم زوّارُنا الذين منحناهم امتياز زيارة أبنائهم وإخوتهم وأحبائهم.

---

(١) في بعض عادات تقديم الوجبات في الغرب يقدم الطعام على مراحل؛ طبق أوّل، طبق ثانٍ، ثم الحلوى، وأخيرًا المشروبات. (المترجم).

رحّبَت عاملة الاستقبال الجذابة سوزي فيليبس بالزائرين بحرارة، كانت تجلس خلف مكتب وضعت عليه جانبًا ورود حمراء عطرة. سوزي هي أيضًا واحدة من طالباتي، مُجازة في علم النفس، وهي إحدى عضوات فريق مشجعات ستانفورد، اختيرت لمظهرها الجميل وقدراتها الرياضية. كانت تقيّد بيانات كل زائر وتكتب وقت الوصول وترتيبه، واسم ورقم السجين المطلوب زيارته، ثم تُعلمهم بالإجراءات الواجب اتباعها هذه الليلة. أولاً، سيلتقي كل زائر أو مجموعة بآمر السجن لتزويدهم ببعض التوجيهات، ثم يمكنهم بعدها الدخول إلى السجن حين ينتهي السجين من تناول عشائه، وفي طريق الخروج سيلتقون برئيس السجن لمناقشة أية مخاوف لديهم أو لمعرفة انطباعهم. وافقوا على هذه الشروط ثم جلسوا أثناء الانتظار يستمعون إلى الموسيقى المبثوثة عبر جهاز الاتصال الداخلي.

اعتذرت سوزي عن طول مدة الانتظار، لكن من الواضح أن السجناء قد أخذوا وقتًا أطول من المعتاد في تناول العشاء لاستمتاعهم بكميّة الحلوى المضاعفة التي قدّمت لهم اليوم، لكن لم يعجب هذا بعض الزوار الذين كانت لديهم أمور أخرى ينجزونها وقد بدأ ينفد صبرهم عن رؤية سجنائهم وهذا المكان غير المعتاد.

بعد التشاور مع آمر السجن أخبرتُ عاملة الاستقبال زوّارنا أن السجناء أخذوا وقتًا أطول من المعتاد في إنهاء طعامهم مما سيضطرهم إلى تقليص وقت الزيارة إلى عشرة دقائق والسماح بزائرين فقط لكل سجين. تذمّر الزوار، إنهم منزعجون من عدم اكتراث أولادهم وأصدقائهم بهم وتساءلوا: «لماذا اثنان فقط؟».

ردت سوزي بأن المكان في الداخل ضيق للغاية وأن ثمَّ قانونٌ للحرائق يقضي بتحديد عدد الأفراد المسموح به، ثم أضافت: «ألم يخبركم ابنكم أو صديقكم عن العدد المسموح به من الزوار حين دعوتكم للزيارة؟»

«اللعنة! لا لم يفعل»

«أعتذر عن هذا، أعتقد أنه كان سهوًا منه، لكنكم الآن تعرفون كيف ستسير الأمور في الزيارة التالية».

حاول الزوار تجاوز الموقف وتناقشوا فيما بينهم عن هذه الدراسة المثيرة للاهتمام، اشتكى البعض من القواعد التعسفية لكن كان واضحًا أنهم يمْتَثِلُون بسهولة كما يجب أن يفعل الزوار الصالحون. أعددنا المكان بحيث يصدّقون أن ما يرونه في هذا المكان الجميل هو الوضع المعتاد، ويشككون في ما قد يُلقى على مسامعهم من أولادهم وأصدقائهم الأنانيين عديمي الإحساس بالمسؤولية والذين سيتذمرون على الأرجح، وبذلك أصبحوا مشاركين بغير قصد منهم في إعداد مسرحية السجن.

زيارات كاشفة وموضوعيّة

كان والدا السجين ٨١٩ أول الداخلين إلى الساحة، كانا ينظران حولهما بفضول إلى أن لاحظا أن ابنهما جالس في نهاية الطاولة الموضوعة في منتصف الممر.

سأل الأب الحارس: «هل بإمكاني مصافحته باليد؟»

أجابه وقد فاجأه السؤال: «بالتأكيد، لم لا؟»

ثم صافحت الأم ابنها! مصافحة فحسب دون العناق التلقائي بين الأبوين وابنهما؟

(هذا التواصل غير المريح مع أدنى قدر من الاتصال الجسدي هو ما يحدث في السجون شديدة الحراسة، لكننا لم نضع مثل هذا الشرط مطلقًا لزيارة سجننا؛ بل كان تلاعُبنا بتوقعات الزوّار قبيل بدء الزيارة هو السبب في حيرتهم بخصوص السلوكيات الواجب اتباعها في هذا المكان الغريب، وعندما ينتابك الشك حيال ما يجب فعله فائتِ بالحد الأدنى).

كان بوردان يقف مع السجين ووالديه ثم أتى هيلمان متعمدًا اقتحام خصوصية ٨١٩ مع عائلته في هيئة توحي بالتهديد؛ في حين تظاهر هذا الثلاثي العائلي بتجاهله مستكملين حوارهم العادي، لكن كان ٨١٩ يعلم أنه لا يملك أية فرصة لينبس ببنت شفة عن السجن وإلا فسيعاني لاحقًا. قلّص والداه وقت زيارتهما إلى خمس دقائق فقط حتى يتمكن أخوه وأخته من مشاركتهم بعضًا من وقت الزيارة المحدود ثم تصافحوا مرة أخرى وتبادلوا التحية.

قال ستو ٨١٩ محدثًا إخوته: «نعم الأمور جيدة هنا إلى حدٍّ كبير».

كانا وأصدقاء السجناء الآخرين يتصرفون بطريقة مختلفة عن أولياء الأمور مشدودي الأعصاب، كانوا أكثر تحررًا واستمتاعًا ولم يخضعوا لرهبة الموقف مثل أولياء الأمور، لكن الحراس كانوا يحومون حول الجميع.

واصل ٨١٩: «نحظى ببعض الحوارات الجيدة مع الضباط الإصلاحيين»، ويصف «عقاب الحفرة» وهو يشير نحوها لكن بوردان قاطعه قائلاً: «لا مزيد من الحديث عن الحفرة يا ٨١٩».

سألته أخته عن الرقم الموجود على ثوبه وأرادت معرفة الأنشطة التي يقومون بها على مدار اليوم، أجاب ٨١٩ عن أسئلتها ووصف أيضًا أثر اعتقال الشرطة فيه، لكن ما إن بدأ بالحديث عن المشاكل التي بينه وبين حارس نوبة الليل حتى أسكته بوردان ببرود.

٨١٩: «يوقظونا في ساعة مبكرة.. بعض الحراس طيبون فعلاً، ضباط إصلاحيون على أعلى مستوى، لا يعتدون علينا جسديًا، لديهم هراوات لكن..»

سأله أخوه عما سيفعل إذا استطاع الخروج من هذا المكان؛ فأجاب ٨١٩ كما يجب أي سجين صالح: «لا أستطيع أن أكون في الخارج، أنا في هذا المكان الرائع».

أنهى بوردان الزيارة بعد خمس دقائق تمامًا، كان سيروس جالسًا إلى الطاولة طوال الوقت وفارنيش يقف خلفها، فاق الحراسُ الزوارَ عددًا! ثم انقلب وجه ٨١٩ عابسًا وهو يودّع ضيوفه المبتسمين.

جاء والدا رينش ١٠٣٧ وبسرعة جلس بوردان إلى الطاولة محدِّقًا فيهم بتجهّم. (لاحظت للمرة الأولى أن بوردان يشبه في حاله هذا تشي جفارا).

١٠٣٧: «يوم أمس كان غريبًا نوعًا ما، اليوم قمنا بتنظيف هذه الحوائط ونظفنا الزنازين التي هناك.. إحساسنا بالزمن معدوم، لم نخرج لنرى نور الشمس».

سأله والده عما إذا كانوا سيمكثون في الداخل طيلة مدة الأسبوعين، لم يكن الابن متأكدًا لكنه يتصور أن الأمور ستسير على هذا النحو، بدت هذه الزيارة جيدة، كان النقاش حيويًا، لكن الأم أبدت قلقها من مظهر ابنها، كان جون لاندري يمشي ببطء ليتحدث مع بوردان في حين يقف كلاهما بالقرب حتى يتمكنا من سماع ما يدور بين الزوار والسجناء، لم يذكر ١٠٣٧ أن الحراس أخذوا سريره ولذا فهو ينام على الأرض.

قال ١٠٣٧ صادقًا: «أشكركما على المجيء»، ردت الأم: «أنا سعيدة لأنني أتيت... سأراك قريبًا، بعد غد، بالتأكيد»، لكنها عادت إليه بعد أن طلب منها ١٠٣٧ أن تتصل مع أحدهم نيابة عنه.

ثم شجعته قائلة: «الآن، كن صالحًا والتزم بالقواعد».

أرشدها الوالد برفق إلى الخارج حتى لا يأخذا من وقت الباقين ويحرماهم الاستمتاع بامتياز الزيارة.

مدّ جميع الحراس أعناقهم حين لمحوا رفيقة هابي ٧٢٥٨ الجذابة أثناء دخولها الساحة، كانت تحمل صندوقًا من الكعك اقتسمته معهم في لفتة ذكية منها، تناولها الحراس في نَهَم مصدرين أصواتًا تعبر عن سعادتهم بما حصلوا عليه وسمحوا للسجين ٧٢٥٨ بتناول كعكة واحدة أثناء نقاشه الحيوي مع محبوبته، كانا يحاولان جاهدين تناسي أنفاس الحراس التي تلامس عنقيهما وبوردان الذي يحوم حولهما طيلة الوقت ويضرب بعصاه على الطاولة في إيقاع متقطع.

كانت الموسيقى التي يبثها جهاز الاتصال الداخلي هي أغنية فريق رولينج ستونز (Rolling Stones) الناجحة، «الوقت معي» (Time Is on My Side). لم ينتبه أحد لهذه المفارقة حيث كان الزوار يدخلون ويخرجون في لقاءات قصيرة للغاية.

الأم تعرف أكثر، لكن انا والأب قمنا بتشتيتها

شكرتُ جميع الزوار على اقتطاعهم من أوقاتهم المزدحمة بالمشاغل لهذه الزيارة. حاولت أن أكون ودودًا قدر المستطاع مثل آمر السجن، وأضفتُ بأنني أتمنى أن يقدروا ما سنحققه بدراسة حياة السجن بأسلوب واقعي قدر المستطاع ضمن حدود التجربة، أجبت عن أسئلتهم حول الزيارات المستقبلية وإرسال الهدايا، واستجبت لإلحاحهم في أحاديثهم الجانبية التي يطلبون مني فيها أن أولي ابنهم اهتمامًا خاصًا، كان كل شيء يسير كما هو مرتّب له، بقي القليل من الزوار قبل تحويل كامل تركيزي للتهديد المتوقع لسجننا، وبينما أفكر في لعبتي التالية فوجئتُ بأم السجين ١٠٣٧! لم أكن مستعدًا للتعامل مع قلقها الشديد.

بمجرد دخولها هي والأب إلى مكتبي قالت بصوت مرتعش: «لا أقصد إثارة أية متاعب سيّدي، لكني قلقة على ابني، فلم أره مُنهكًا إلى هذه الدرجة من قبل».

إنذار! من الممكن أن تثير هذه المرأة المتاعب في السجن! وهي محقة، كان مظهر ١٠٣٧ مريعًا، لم يكن منهكًا جسديًا فحسب لكنه كان مكتئبًا أيضًا. كانت هيئته مزرية وكان من بين أسوأ الفتية حالاً في المكان كله.

«ما هي مشكلة ابنك بالتحديد؟»

كان رد فعلي مباشرًا وتلقائيًا؛ كالذي يصدر عن أي مسؤول حين تعرضه لتحدٍ يؤثر على منظومة عمله، ومثل كل مرتكبي التجاوزات داخل المؤسسات أرجعت مشكلة ابنها إلى طباعه، كما لو كانت مشكلته هو.

لم يخدعها هذا التكتيك وواصلت حديثها قائلةً أنه يبدو شاحبًا، لم ينم طوال الليل، و...

«هل يعاني من اضطرابات النوم؟»

«لا، لقد قال أن الحراس يوقظونهم من أجل شيء يسمى بالإحصاء»

«نعم، بالطبع، الإحصاء. عند بدأ عمل كل نوبة يجب أن يتأكد الحراس من وجود الجميع، لذلك يقومون بعدّهم وفقًا لأرقامهم».

«لكن في منتصف الليل؟»

«يعمل حراسنا في نوبات تمتد ثمانية ساعات، وحيث أن واحدة من المجموعات تبدأ عملها في الساعة الثانية صباحًا كان عليهم أن يوقظوا السجناء ليتأكدوا من وجود الجميع ومن أن أحدهم لم يهرب، هل أصبح الأمر معقولاً لديك الآن؟»

«نعم، لكنني لست متأكدة من أن...»

لا تزال مُصِرّة على إثارة المتاعب، لذلك انتقلت إلى تكتيك أقوى وأشركتُ الأب، نظرت إليه مباشرة في عينيه واضعًا كبرياءه كرجل على المحك.

«معذرةً سيدي، ألا تظن أن ابنك يستطيع التحمل؟»

«بالتأكيد يستطيع، فهو قائد حقيقي، كما تعلم.. هو قائد...»

كنت شبه مستمعٍ لكلماته لكنني فهمت ما يريد من خلال النبرة والإيماءات، قلت موافقًا: «أنا معك، يبدو لي أن ولدك لديه من القوة ما يكفي لتحمل مثل هذا الموقف الصعب»، ثم عدت إلى الأم حتى أطمئنها: «كوني مطمئنة بأنني سأتابع ابنك بنفسي، أشكركم على المجيء، أتمنى أن أراكما قريبًا مجددًا».

شدّ الوالد على يدي في مصافحة رجولية وغمزتُ له بدوري لأطمئنه أنني الزعيم الذي يقف في صفه، وفي صمت أقررنا بأننا «سنتحمل مبالغة السيدة»، يا لوضاعتنا، ونفعل ذلك كله بتلقائية ذكورية.

وكملحق لحلقة التملق هذه تلقيت خطابًا رقيقًا من السيدة ي. في الليلة ذاتها، كل ما رَصَدَتْهُ وشَعرَت به حيال تجربتنا كان دقيقًا تمامًا:

> «زرنا أنا وزوجي ابننا «في سجن بلدية ستانفورد». بدا لي حقيقيًا تمامًا، لم أتوقع شيئًا بمثل هذه القسوة وكذلك ولدي عندما تطوع للتجربة، أنا واثقة من هذا. ترك في داخلي شعورًا كئيبًا عندما رأيته، رأيته في حالةٍ مزرية، وكانت شكواه الرئيسة أنه لم يرَ الشمس منذ وقت طويل. سألته ما إذا ندم على التطوع؛ فأجاب بأن هذا كان حاله في البداية، لكنه مرّ بحالات مزاجية مختلفة وأصبح أكثر استسلامًا. ستكون هذه أصعب أموال سيتقاضاها في حياته، أنا متأكدة».
>
> **والدة ١٠٣٧**
>
> ملحوظة: نتمنى أن يحقّق هذا المشروع نجاحًا كبيرًا.

على الرغم من أنني أستبق الأحداث لكن يجب أن أذكر هنا أن ابنها ريتش ١٠٣٧ - وهو أحد أشد أفراد عصابة المتمردين - قد أُطلق سراحه بعد أيام قليلة لمعاناته من ردود أفعال نفسية حادة وشديدة، لقد شعرت والدته بأن ثمة تغيرًا يطرأ عليه.

تمويه المكان لخداع المشاغبين

ما إن غادرَنا آخر زائر حتى تنفسنا جميعًا الصعداء لكون المشاغبين لم يقتحموا حفلنا في وقت نحن أضعف ما نكون فيه، لكن التهديد لم ينتهِ! كان علينا الآن التحول إلى خطة مكافحة التمرد، كانت خطتنا تعتمد على تفكيك بعض الحراس لمحتويات السجن للإيحاء بأن ثمة ارتباكًا هنا، وسيقيد حراس آخرون أقدام السجناء معًا ويغطّون رؤوسهم بحقائب التسوق الورقية، ثم سيقتادونهم في المصعد من القبو إلى غرفة التخزين الكبيرة الموجودة في الطابق الخامس والآمنة من الغزو. حين يقتحم المتآمرون السجن لتحريره سأكون جالسًا

هناك بمفردي وسأخبرهم أن التجربة انتهت، أنهيناها مبكرًا وأرسلنا الجميع إلى بيوتهم، وبذا يكونون قد تأخروا في تحريرهم المزعوم، وبعد تفحصهم المكان ثم المغادرة؛ سنعيد السجناء إلى الأسفل وقد أتيح لنا المزيد من الوقت لمضاعفة أمن السجن؛ بل إننا قد فكرنا في طريقة لنمسك بـ٨٦١٢ ونعيده إلى السجن مرة أخرى إن وُجد بين المتآمرين لأن سراحه قد أُطلق بُناءً على ادّعاءات كاذبة.

تصوروا المشهد، أنا جالس وحدي في ممر خالٍ كان يُعرف سابقًا باسم «الساحة»، وبقايا سجن ستانفورد مبعثرة في الأرجاء بصورة فوضوية، أبواب الزنازين منزوعة، اللافتات على الأرض، والباب الأمامي مفتوح على مصراعيه، أنا متحمس للبدء على الفور فيما أدعوه خطتنا الميكافيليّة اللامعة لإحباط المؤامرة. بدلاً من المشاغبين ظهر أحد زملائي في قسم علم النفس، صديق قديم وباحث شديد الجدية وكان زميل الغرفة أثناء دراستي العليا. سألني جوردون عما يجري هنا، رأى هو وزوجته مجموعة السجناء في الطابق الخامس وشعروا بالأسف لحالهم، خرجوا واشتروا لهم صندوقًا من حلوى الدونات لأن حالهم جميعًا بدا مزريًا.

وصفت لهم البحث بأخصر وأعجل ما يمكن وأنا أرتقب الاقتحام المفاجئ، ثم سألني ذلك العالِم المتطفل سؤالاً سهلاً: «قل لي، ما هو المتغير المستقل في دراستك؟»، كان عليّ الإجابة بأن المتغيِّر هو توزيع العينة المُختَرة من الطلبة المتطوعين على أدوار الحراس والسجناء والذي كان عشوائيًا بالطبع؛ لكن بدلاً من ذلك وجدتني أغضب.

لدي هنا اقتحامٌ وشيك وأمن رجالي واستقرار سجني على حافة الخطر؛ ثم يأتي لمساجلتي هذا الأكاديمي صاحب القلب الجريح، الليبرالي، الأكاديمي، الأستاذ المغرور عديم الفائدة الذي لم يشغل باله إلا أسخف الأشياء كالمتغير المستقل! قلت لنفسي أن الشيء التالي الذي سيسألني عنه هو ما إذا شاركت في برنامج إعادة تأهيل! هذا الأحمق، تخلصت منه بدهاء ثم عدت إلى انتظار الهجوم المُتوقع، انتظرت وانتظرت..

أدركت أخيرًا أن الأمر كله كان عبارة عن شائعة لا أساس لها من الصحة، لقد أنفقنا الكثير من الوقت والجهد في التخطيط لإحباط الهجوم المزعوم، وبحماقة ذهبت أستجدي الدعم من الشرطة، ونظّفنا غرفة التخزين القذرة في الأعلى، وفككنا السجن، ونقلنا السجناء، والأهم من ذلك كله أننا أهدرنا وقتًا ثمينًا. كانت أكبر خطايانا بصفتنا باحثين هي أننا لم نجمع أية بيانات منهجية طيلة اليوم، وكل هذا بسببي، بسبب رجل يُفترض أنه خبير بترويج الشائعات وما تحدثه من تشتيت ولطالما قام بتدريس هذه الظاهرة. من الممكن أن نتحوّل نحن المحكومون بالفناء إلى حمقى، خاصة عندما تسيطر المشاعر على العقلانية الهادئة.

أعدنا بعث السجن من جديد وأعدنا نقل السجناء من ذلك المخزن الحارّ عديم النوافذ حيث تركناهم لثلاث ساعات من الجنون. أي إحراج هذا الذي عرضت نفسي له. كنتُ وكريج وكيرت وديف نتحاشى النظر إلى بعضنا بقية الأمسية، واتفقنا ضمنيًا على إبقاء الأمر بيننا وعدم الإعلان عن (حماقة الدكتور زي).

تصرفنا بحماقة، لكن من سيدفع الثمن؟

كان واضحًا أننا جميعًا شعرنا بإحباط كبير وانتابنا توتر تسبب به ما يدعى بالتنافر المعرفي[1]، ذلك أننا صدقنا أكذوبة من الأكاذيب بسهولة تامة وألزمنا أنفسنا بالكثير من الأعمال التي لا داعي لها دون وجود مبرر كافٍ[2]. جربنا أيضًا «التفكير الجمعي»؛ فبمجرد أنني وبوصفي القائد صدقتُ إحدى الشائعات؛ قبلها الجميع كما لو كانت حقيقة، لم يحاول أحدهم لعب دور «محامي الشيطان» في المرافعة عن وجهة نظر مغايرة، هذه الشخصية التي تحتاجها كل مجموعة لتجنب قرارات غبية أو حتى مدمرة كهذه. ذكّرنا هذا بقرار الرئيس جون كينيدي الكارثي بغزو كوبا وفشله الذريع في خليج الخنازير[3].

كان جليًا لي أيضًا أننا نفقد موضوعيتنا العلمية الضرورية لإتمام أي بحث بدون تحيّز، كنت في طريقي للتحول إلى رئيس سجن بدلاً من كوني باحثًا أول، كان عليّ أن أرى هذا بوضوح بعد لقائي السابق بالسيدة ي وزوجها، هذا دون ذكر سورات غضبي من ضابط الشرطة. على كلٍّ علماء النفس هم في النهاية بشر يخضعون لنفس العمليات الديناميكية التي يدرّسونها على المستوى المهني.

خيم شعورنا العام بالإحباط والخزي على ساحة السجن في صمت. باسترجاع ما حدث كان علينا الإقرار بخطئنا ومواصلة العمل، لكن الإقرار بالخطأ من أصعب الأشياء التي يمكن لأي إنسان أن يقوم بها، فقط قلها «لقد أخطأتُ.. أنا آسف»، بدلاً من ذلك ظللنا نبحث بلا وعي عن كبش فداء لنبرئ أنفسنا، وما كان علينا أن نذهب بعيدًا؛ فالمكان يعجّ بالسجناء الذين سيدفعون ثمن فشلنا وإحساسنا بالعار.

---

(١) التنافر المعرفي (cognitive dissonance): حالة من الانزعاج يقاسيها الفرد لوجود تعارضات بين سلوكه وقيمه ومعتقداته. (المراجعة).

(٢) انظر:

Leon Festinger, *A Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957)

وانظر أيضًا نسختي المحررة للبحث من قبل طلبة جامعة نيويورك، أنا وزملائي:

Philip G. Zimbardo, ed., *The Cognitive Control of Motivation* (Glenview, IL: Scott, Foresman, 1969)

(٣) انظر:

Irving Janis and Leon Mann, *Decision Making: A Psychological Analysis of Conflict, Choice, and Commitment* (New York: Free Press, 1977).

الفصل السادس

يوم الأربعاء يخرج عن السيطرة

أتطلّع رابع أيام التجربة إلى قضاء وقت أكثر هدوءا بعد يوم الثلاثاء المُتخم بالمشكلات. برنامج عملنا هذا اليوم مليء بالأحداث المُهمّة التي من شأنها أن تحتوي التقلبات الكثيرة التي عصفت بالمكان. سيزورنا هذا الصباح قِسّيسٌ سبق له العمل في أحد السجون ليطلعني على رأيه بمدى واقعية المحاكاة التي صنعناها، وعن طبيعة الحياة في السجون الحقيقية التي يجب أن نضع معايير تقييم أدائنا وفقاً لها، كان يقوم بهذا على سبيل ردّ الجميل الذي أسديته له في الماضي عندما زودته ببعض المراجع من أجل ورقة بحثية كان يكتبها عن السجون كانت مطلوبة في إحدى الدورات الدراسية الصيفية. وعلى الرغم من إعداد زيارته من قبل بدأ دراستنا إلا أنها الآن ستؤدي مهمة مزدوجة، حيث ستلبّي كذلك مطلب لجنة الشكاوى بوجود خدمة كَنَسية. بعدها ستنعقِد لجنة الإفراج المشروط لأول مرة لتلتقي بالسجناء الذين تقدموا بطلبات الإفراج. سيرأس اللجنة مستشارنا كارلو بريسكوت، أشعر بالفضول لرؤية كيفية تعامله مع انقلاب دوره من سجين في السابق طالب مراراً بالإفراج عنه ورفضت مطالباته؛ ليصبح الآن رئيسًا للجنة الإفراج المشروط.

ربما سيساعد الوعد بتكرار ليلة الزيارة بعد العشاء في التخفيف من حدّة توتر بعض السجناء، أسعى كذلك إلى إيجاد سجين بديل برقم ٤١٦ ليحل محل مثير الشغب داج ٨٦١٢. قائمة أعمال اليوم مزدحمة للغاية، لكنه مع ذلك يوم عمل جيد لرئيس سجن بلدية ستانفورد وفريقه.

لغز كهنوتي

الأب مكديرموت (McDermott) رجل ضخم يصل طوله إلى حوالي ستة أقدام وبوصتين، جسمه رشيق ومتناسق، يبدو أنه منتظم الحضور في إحدى صالات الألعاب الرياضية، كما أن انحسار شعره عن جبهته يوفر مساحة كافية لإبراز ابتسامته العريضة وأنفه الجميل وبشرته المتوردة. كانت وقفته مستقيمة وجلسته معتدلة كما أن حس دعابته جيد.

مكديرموت هو قس كاثوليكي أيرلندي في أواخر أربعينياته وقد سبق له العمل كمستشار ديني في سجن الساحل الشرقي[1]. ياقة قميصه المنشّاة وثوبه الأسود المكويّ بعناية يجعلانه يشبه قساوسة الأفلام الذين يتّسمون بالمرح والحزم. أبهرتني قدرته على التلبّس بشخصية الكاهن والانفكاك عنها بمرونة عالية، فتارة هو الباحث الجاد وتارة ثانية هو القِسّ المهتم وأخرى هو الشخص الذي يتواصل معك بأسلوب مِهَني وعملي، لكنه دائمًا ما يعود إلى دوره الرئيسي «كقِسّيس».

في مكتبي بصفتي رئيس السجن راجعنا قائمة طويلة من المراجع مضافًا إليها بعض التعليقات من أجل تقرير يعمل عليه عن العنف بين الأشخاص. كان سعيدًا بالوقت الطويل الذي أعطيته إياه وكذلك بقائمة المراجع فلذلك سأل: «هل من شيء يمكنني مساعدتك به؟».

فكان ردي: «كل ما أرغب أن تقوم به هو أن تتحدث إلى أكبر عدد من الطلبة المتطوعين في التجربة بحسب ما يتوفر لك من وقت، وبعد ذلك أرغب في الاستماع إلى تقييمك لمدى واقعية تجربة السجن من وجهة نظرك على أساس ما ستسمعه منهم وما ستراه».

الأب: «بالتأكيد، يسعدني رد الجميل، سأقارن وفقًا لخبرتي مع السجناء الذين عملت معهم في مؤسسة واشنطن الإصلاحية التي عملت بها لسنوات عديدة».

أنا: «عظيم، أقدر مساعدتك بشدة».

قد حان الآن وقت تبادل الأدوار، «دعا آمر السجن السجناء الراغبين في التحدث مع قِسّيس إلى التسجيل لهذا الغرض، بعضهم يريد التكلُّم معك والبعض الآخر يريد أن نُعقد الجلسة الدينية هنا في نهاية الأسبوع، واحد فقط، السجين ٨١٩، يشعر بأنه مريض ويريد النوم، لهذا لن يتحدث إليك».

رد الأب مكديرموت: «حسنًا فلنذهب، يبدو الأمر مثيرًا».

وضع آمر السجن مقعدين أمام الحائط بين الزنزانتين (٢) و(٣)، واحد من أجل القسيس والآخر من أجل السجين الذي سيكلمه. أتيت بمقعد آخر لأجلس إلى جانب القسيس وجافي يقف إلى جانبي، يبدو جادًّا للغاية حيث يصطحب بنفسه كل سجين من زنزانته للقاء القِس. بدا بوضوح أن جافي كان مستمتعًا بواقعية هذا السيناريو المزيّف فثمة قِسيس حقيقي يقوم بدوره الرعائي مع سجنائنا المزيفين. لدي تخوّف من شكاوى السُجناء المُحتملة ومن الكيفية التي سيحاول بها الأب الصالح حلّها. طلبت من جافي التأكد من أن

(١) جميع الحوارات الدائرة بين الحراس والسجناء وفريق العمل والقسيس هي من تفريغ نصي حرفي من اللقطات المصورة في هذا الوقت، مدعومة بالملحوظات المأخوذة سجل مذكراتي. بدلنا اسم القسيس لإخفاء هويته، لكن كل شيء آخر فيما يخصه ويخص الحوارات مع السجناء كان على أدق قدر ممكن.

كيرت بانكس يسجل هذه اللحظات بالفيديو مع تقريب الصورة بأكبر قدر ممكن، لكن الجودة المنخفضة للكاميرا التي نستخدمها لا تتيح لنا تقريب الصورة بالطريقة التي أريد.

أغلب الحوارات بين القِسيس والسجناء كانت تأخذ نفس الصيغة:

يقدم القسيس نفسه: «أنا الأب مكديرموت يا بُنَّي، وأنت؟»

ويرد السجين: «أنا ٥٤٨٦ يا سيدي»، أو «أنا ٧٢٥٨ يا أبي»، قليل منهم عرّفوا أنفسهم بأسمائهم، والبقيّة أجابوا بأرقامهم بدلاً من الأسماء، وقد استرعى انتباهي أن القسيس لم يبد أية ردة فعل في كلتا الحالين، أنا في غاية التعجّب. التكيف مع دور السجن كان بادي الوضوح:

«ما هي تهمتك؟»

«سرقة» أو «سطو مسلح» أو «اقتحام منزل» أو «انتهاك القانون ٤٥٩»، كانت تلك هي الردود المعتادة.

أضاف البعض: «أنا بريء»، أو «كنت متهمًا بكذا، لكنني لم أرتكب هذه الجريمة يا سيدي».

ثم يرد القسيس: «سعيد برؤيتك أيها الشاب»، أو يذكر اسم السجين الأول، كان يسأل عن مكان سكنه وعن عائلته وعمن قاموا بزيارته.

يسأل الأب مكديرموت أحد السجناء: «ما سبب وجود السلسلة حول قدمك؟»

فرد عليه: «أعتقد أنها لمنعنا من التحرك بأريحية».

كما سَأل القِسيس بعض السجناء عن كيفية معاملتهم وما يشعرون به وما إذا كانت لديهم أية شكاوى وما إذا كان يستطيع تقديم أية مساعدة، ثم ذهب قسيسنا إلى أبعد مما تصورت بأسئلة بسيطة عن جوانب قانونية تخص الاحتجاز:

سأل أحدَ السجناء: «هل ثمة من يدفع لك كفالة؟»، وسأل السجين ٤٣٢٥ بجدية: «ما هو شعور محاميك حيال قضيتك؟»

ومن أجل التنوع سأل آخرين: «هل أخبرت عائلتك بالتهم الموجهة إليك»، أو «هل رأيت المدعي العام أم ليس بعد؟»

فجأة أصبحنا جميعًا في «عالم السحر»، حتى الأب مكديرموت نفسه اندمج بشدة في دور قسيس السجن، من الواضح أن سجننا خلق موقفًا شديد الواقعية وقد أحكم حول القسيس قبضته تمامًا كما حدث مع السجناء والحراس ومعي شخصيًا.

«لم يُسمَح لنا باستخدام الهاتف ولم نُقدَّم للمحاكمة، لم يذكر لنا أحد شيئًا عن ميعاد محاكمةِ سيدي».

قال القس: «حسنًا، على أحدهم أن يتولى قضيتك، أقصد، بإمكانك البدء من هنا، لكن ما الفارق الذي سنحدثه مُكاتَبة رئيس قضاة المحكمة الجنائية؟ سيأخذ الرد وقتًا طويلاً للغاية، ما تحتاجه هو أن تطلب إلى عائلتك الاتصال بأي محامٍ لأنك لا تملك أي عون في وضعك هذا».

قال السجين رينش ١٠٣٧ بأنه يخطط: «لأن أرافع عن نفسي، سأصبح محاميًا قريبًا بمجرد أن أنهي دراستي في كلية القانون في غضون سنوات قليلة».

ابتسم القس بشيء من السخرية: «في رأيي الخاص؛ فالمحامي الذي يرافع عن نفسه في قضيته الخاصة يتورط عاطفيًا أكثر من اللازم. تعرف المقولة القديمة (كل من يمثل نفسه لديه حماقة المحامي)».

أخبرت ١٠٣٧ أن وقته قد انتهى ثم أشرتُ إلى آمر السجن ليأتي بالسجين التالي.

فوجئ القس من رسمية «الرقيب» الصارمة ورفضه الحصول على استشارة قانونية لأنه «من العدل أن أقضي مدة عقوبة الجريمة المزعومة التي حُكِم عليّ فيها». سأل الأب مكديرموت: «هل هناك آخرون مثله أم أنه حالة خاصة؟»، رددت عليه: «هو حالة خاصة أيها الأب». من الصعب أن تجد من يُعجب بالرقيب، حتى القِس نفسه عامله بطريقة رسمية.

استغل السجين بول ٥٧٠٤ هذه الفرصة ببراعة ليحصل على سيجارة من القس مع علمه بأن التدخين ممنوع، وفي حين يشعل السيجارة ويأخذ نفسًا عميقًا نظر إلي وعلى وجهه ابتسامة المنتصر، ولسان حاله يقول «نِلت منك». استغل رئيس لجنة الشكاوى هذه المهلة أحسن استغلال حيث لا روتين سجن. توقعت أن يطلب سيجارة أخرى ليدخنها لاحقًا كما لاحظت أن الحارس أرنيت سجّل هذه الإهانة وعرفت أنه سيجعل السجين يدفع ثمن تلك السيجارة المخالفة وثمن تحاذقه.

يزداد توتّري مع استمرار اللقاءات واحدًا بعد الآخر في صورة حوارات قصيرة حيث بعض الشكاوى عن سوء المعاملة أو الحديث عن انتهاك القواعد.

سجين واحد فقط لم يقبل هذا السيناريو، ٥٤٨٦، بمعنى أنه رفض التصرف وكأنه سجين حقيقي يحتاج إلى مساعدة من القِس لاستعادة حريته، هو الوحيد الذي يصف الموقف برمته بكونه «تجربة»، تجربة تخرج عن السيطرة. كان جيري ٥٤٨٦ هو الأكثر تعقلاً بين الجميع والأخفت ظهورًا، لاحظت أنه ما زال في الظل حتى هذه اللحظة، فلّما يُستدعى من قبل الحراس لأي سبب من الأسباب في أية نوبة من النوبات ونادرًا ما يلاحظه أحد في أي إحصاء أو تمرد أو اضطرابات، هذا هو الحال حتى الآن؛ سأرقبه من الآن فصاعدًا.

السجين التالي - وعلى النقيض من سابقه - كان متلهفًا لتلقي مساعدة قانونية من القسيس، لكن صدمته التكلفة الكبيرة. «حسنًا؛ فلنفترض أن محاميك طلب خمسمائة دولار كعربون الآن، هل تملك هذا المبلغ؟ إذا لم تكن تملكه فسيضطر والداك إلى دفع هذا المبلغ وزيادة، وفوريًا».

قبل السجين هابي ٧٢٥٨ عرض القسيس ومساعدته وأعطاه اسم أمه ورقم هاتفها بحيث ترتب له مساعدة قانونية، قال: إن قريبًا له يعمل في مكتب المدعي العام وقد يكون مستعدًا ليطلق سراحه. وعده الأب مكديرموت بمتابعة حالته بناء على طلبه، ابتهج هابي كما لو أن سانتا كلوز أهداه سيارة جديدة، كانت الأمور تزداد غرابة.

قبل الذهاب وبعد أن تحدث بجدية مع سبعة من سجنائنا؛ سأل القسيس عن السجين الممتنع الذي قد يكون في حاجة لمساعدته؛ فطلبت من الحارس أرنيت أن يحثّ ٨١٩ على الحديث إلى القسيس لدقائق قليلة؛ فقد يشعره هذا بتحسن.

ساد جو من الهدوء، وأثناء استعداد ٨١٩ للقائه مع المستشار الكنسي؛ صارحني الأب مكديرموت قائلاً:

> «جميعهم سُذّج، لا يعرفون شيئًا عن طبيعة السجون وما صُنعت له، هذا هو النموذج المعتاد للأشخاص المُتعلّمين الذين أصادفهم، هذه هي النوعية التي قد تحتاجها لتغيير منظومة عمل السجون، هؤلاء هم قادة الغد وأصحاب الأصوات الانتخابية اليوم، هم من سيشكّلون وجه التعليم في المجتمع، هم لا يملكون القدر الكافي من المعرفة عن السجون وعن كيفية تأثيرها في الشخص، لكنك تقوم بعمل جيد في هذا المكان، سيتعلمون».

أعطاني كلامه دفعة من الثقة وكأنه أسداني الموعظة الدينية لهذا اليوم، لكنني ما زلت مرتبكًا.

بدا السجين ٨١٩ في حالة مزرية، هذا أقل ما يقال، دوائر سوداء تحت عينيه، شعره مشعث قد اتخذ من جميع الجهات وجهة له إلا الأسفل. قام ستيو ٨١٩ هذا الصباح بفعل سيء، فقد أثار الفوضى في زنزانته حيث اعترته نوبة غضب جعلته يقطع وسادته وينثر ريشها في كل مكان؛ فأُلقي في الحفرة واضطر زملاؤه إلى تنظيف هذه الفوضى التي خلّفها، كما أنه دخل في حالة اكتئاب بعد زيارة والديه ليلة أمس. ذكر أحد زملائه للحارس أنه وعلى الرغم من شعور والديه بأنهم قضوا وقتا جيدًا معًا إلا أن شعوره هو كان مختلفًا. لم يستمعا إلى شكاويه ولم يهتما بحالته التي حاول أن يشرحها لهما، لكنهما كانا يتحدثان ويسهبان في الحديث عن مسرحية لعينة كانا قد شاهداها للتو.

القس: «كنت أتساءل ما إن كنت حدثت والديك بشأن إمكانية تعيين محامٍ لك».

٨١٩: «يعرفان أنني مسجون، وقد حدثتهما عما أفعله هنا وعن الأرقام والقواعد والمشاجرات».

القس: «كيف تشعر الآن؟»

٨١٩: «لدي صداع شديد وأحتاج طبيًا».

تدخلت محاولاً معرفة أسباب صداعه، سألته ما إذا كان صداعًا نصفيًا طبيعيًا أو بسبب الإرهاق الشديد أو الجوع، أو ارتفاع الحرارة أو التوتر، أو الإمساك أو مشاكل في الرؤية.

٨١٩: «أشعر بأنني منهك ومضطرب».

ثم انهار وبدأ في البكاء، دموع غزيرة وأنفاس حارة متهدجة، ناوله القس بهدوء منديلاً ليجفف دموعه.

«مهلك الآن، لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء، منذ متى وأنت في هذا المكان؟»

«ثلاثة أيام فقط!».

«يجب أن تكون أقل انفعالية».

أردت تهدئة ٨١٩، عرضت عليه أن يأخذ وقتًا مستقطعًا في غرفة الاستراحة بعيدًا عن الساحة، خلف القسم الذي نضع فيه أجهزة التسجيل، طلبت إليه أن يرتاح وأخبرته أني سآتي له بطعام جيد، ثم سنرى بعدها ما إن كان الصداع قد زال بحلول الظهيرة وإلا فسأذهب به إلى العيادة الطبية الخاصة بالطلبة، ثم أنهيت حديثي معه بوعد منه ألا يحاول الهروب لأنني سأذهب به إلى منطقة لا حراسة فيها، ثم سألته إن كان مريضًا فعلاً إلى هذا الحد بحيث يطلق سراحه الآن، لكنه أصر على أنه يريد الاستمرار ووافق على ألا يقوم بشيء من الألاعيب.

قال القسيس لـ٨١٩: «ربما يكون ما تعانيه بسبب رائحة المكان، الهواء هنا ثقيل، وهناك رائحة بغيضة تحتاج بعض الوقت حتى تعتاد عليها، على الرغم من هذا فهي موجودة ومؤذية، ربما كان الأمر قاسيًا لكن هذه الرائحة النتنة تعطيك إحساسًا بالسجون الحقيقية. [يشمّ القس مكديرموت رائحة البول والبراز التي اعتدنا عليها في سجننا ولا نلاحظها إلا إذا لفت أحدهم انتباهنا] عليك أن تحتفظ باتزانك، العديد من السجناء يتعلمون كيف يتجاوزون الأمر».

أثناء خروجنا من الساحة مرورًا بالقاعة الموصلة إلى مكتبي أخبرني القسيس أن دراستنا تعمل كالسجون الحقيقية، خاصة وأنه يلاحظ على السجين الأعراض النمطية

لمتلازمة «التهمة الأولى»[1]، وهو شخص مرتبك بشدة، مفرط التهيّج والغضب والاكتئاب والانفعال، وأكد لي أن ردود الفعل هذه تتبدل بعد أسبوع أو نحوه لأن ذلك السلوك المخنث لن يساعد السجين على التعايش مع الحياة داخل السجن، وأضاف بأن حالة ٨١٩ أكثر واقعية من استعداده للاعتراف، واتفقنا على أنه يحتاج إلى إرشاد نفسي، لاحظت أن ٨١٩ غير قادر على الاعتراف بعجزه عن تحمُّل المكان وبرغبته في الخروج على الرغم من أن شفتيه ترتجفان ويديه ترتعشان وعينيه تذرفان الدموع، أعتقد أنه عاجز عن تقبل كونه مصابًا بالهلع وأن رجولته مهددة، لذلك يريدنا، يريد مني بالتحديد، أن نلح عليه بالمغادرة لكي يحفظ ماء وجهه. أضاف الأب مكديرموت مفكرًا فيما قلته للتو: «ربما كان الأمر كذلك، هذا احتمال مثير».

وأثناء توديعي له قلت عَرَضًا أن الأب الصالح لن يتصل بوالِدَي السجين فعلاً، أليس كذلك؟، «بالطبع سأفعل، هذا واجبي».

«بالتأكيد، يا لغبائي، إنه واجبك، هذا صحيح». (هذا ما ينقصني! التعامل مع والدي أحد السجناء ومحاميه فقط لأن القس قطع وعدًا عليه أن يفي به كما القس الحقيقي على الرغم من معرفته بأن هذا السجن ليس حقيقيًا وبأنهم ليسوا سجناء حقيقيين، لكن اللعنة، على العرض أن يستمر).

أبرزتْ زيارة القسيس الخلط المتزايد بين الواقع والوهم، بين لعب الدور والهوية الفِعلية. إنه قسّ حقيقي في العالم الحقيقي وله خبرات شخصية في سجون حقيقية، وعلى الرغم من إدراكه التام لزيف سجننا؛ إلا أنه أدى دوره المفترض بجدية تامة ليسهم في تحويل عرضنا إلى واقع. لقد جلس منتصبًا مثبّتًا يديه بطريقة محددة ويؤدي الإشارات كذلك، يميل إلى الأمام إذا أراد إعطاء نصيحة، ويومئ برأسه موافقة للسجين، يربّت على أكتافهم، ويعبس في وجوههم إن تلفظوا بالحماقات. نبرة صوته وإيقاع الكلام ذكرتني بطفولتي في مدارس الأحد في كنيسة القديس أنسلم (Saint Anselm) الكاثوليكية، ربما لو أرْسَلَتْهُ لجنة اختبارات الممثلين الرئيسية لم نكن لنحظى بمثل هذا الأداء، وفي الحقيقة وعلى الرغم من أنه كان يقوم بعمل القساوسة المعتاد؛ إلا أنني شعرت بأننا نشاهد إعدادًا غريبًا لفيلم ما وقد أعجبتني طريقة تأدية البطل لدوره. إن كان هناك من شيء يُذكر فإن زيارة القسيس حولت تجربتنا إلى سجن أكثر واقعية من ذي قبل، خاصةً بالنسبة للسجناء الذين ما يزالون محافظين على إدراكهم للأمر على أنه «مجرد تجربة». جعل القس من

(١) (First-Offender-Syndrome) وهي الأعراض النفسية التي تظهر على الشخص عند تعرضه للإهانة للأول مرة على يد غرباء في ظل ظروف قهرية مثل الخدمة العسكرية، أو في حالة الاعتقال لأول مرة. (المترجم).

رسالته وسيلة جديدة، هل سيصبح سيناريو قصتنا الآن في يد فرانز كافكا أو لويجي بيرانديللو؟

وفي هذه اللحظة، سمعنا دويًا آتيًا من الساحة، السجناء يصرخون، كانوا يهتفون بصوتٍ عالٍ حول شيء يخص٨١٩.

أرنيت: «قام ٨١٩ بشيء سيء. قولوها عشر مرات بصوت مرتفع».

السجناء: «قام ٨١٩ بشيء سيء» (مرارًا وتكرارًا).

أرنيت: «ماذا الذي سيحدث للسجين ٨١٩ بسبب الشيء السيئ الذي قام به أيها السجين ٣٤٠١؟».

٣٤٠١: «سيخضع السجين ٨١٩ للعقاب».

أرنيت: «ما الذي سيحدث للسجين ٨١٩ يا ١٠٣٧؟».

١٠٣٧ : «لست متأكدًا سيدي الضابط الإصلاحي».

أرنيت: «يعاقب بأوامر عليا يا ٣٤٠١».

يكرر٣٤٠١ الأنشودة بينما يرفع ١٠٣٧ صوته أكثر: «سيخضع السجين ٨١٩ للعقاب سيدي الضابط الإصلاحي».

سئل ١٠٣٧ وباقي السجناء واحدًا تلو الآخر السؤال نفسه وكانت ردودهم جميعًا متطابقة، كأفراد أولاً ثم كمجموعة.

أرنيت: «دعونا نسمعها خمس مرات لنتأكد من أنكم ستتذكرون هذا. بسبب الفعل السيئ الذي قام به ٨١٩ فزنزاناتكم عبارة عن فوضى؛ فلنسمعها عشرة مرات».

كان السجناء ينشدون الجملة مرارًا، لكن ١٠٣٧الذي يخطط لأن يكون محاميًا توقف عن المشاركة؛ فأشار إليه الحارس جون لاندري بهراوته مهددًا حتى يشارك في الأداء. أوقف أرنيت الإنشاد ليستفسر عما يجري فأخبره لاندري بعصيان ١٠٣٧.

قال السجين ١٠٣٧ مُتحديًا أرنيت: «لدي سؤال سيدي الضابط الإصلاحي، هل يُفترض بنا ألا نكذب مطلقًا؟»

ردّ أرنيت بأسلوبه بالغ الرسمية والثقة: «لسنا مهتمين بأسئلتك الآن، لقد حددنا المهمة؛ فلنستمع، «بسبب ما فعله السجين ٨١٩ زنزانتي في فوضى (عشر مرات)».

صاح السجناء بالعبارة لكنهم فقدوا الاتساق فلذلك أعادوها إحدى عشرة مرة.

أرنيت: «كم مرة طُلب إليكم ترديدها سيد ٣٤٠١؟».

٣٤٠١: «عشرة مرات».

أرنيت: «كم مرة ردّدتموها سيد ٣٤٠١؟»

٣٤٠١: «عشرة مرات سيدي الضابط الإصلاحي».

أرنيت: «خطأ، لقد رددتموها جميعًا إحدى عشرة مرة. كرروها مرة أخرى، كرروها بصورة صحيحة، كرروها عشرة مرات كما أمرتكم: «بسبب ما اقترف السجين ٨١٩ زنزانتي في فوضى، عشرة مرات».

صرخوا بها بدقة عشرة مرات بالضبط.

أرنيت: «فليلزم كلٌ وضعيته».

بلا تردد نزل الجميع إلى الأرض ليؤدوا تدريبات الضغط.

«أسفل، أعلى، أسفل، أعلى ٥٤٨٦، لسنا نرقص، إنها تدريبات ضغط، أبقوا ظهوركم مستقيمة. أسفل، أعلى، أسفل، أعلى، أسفل، ابقوا في الأسفل، انقلبوا على ظهوركم لرفع أقدامكم».

أرنيت: «ست بوصات هي أهم ما في الأمر يا شباب، ارفعوا أرجلكم مقدار ست بوصات، وستبقون كذلك حتى يرفع الجميع أقدامه قدر ست بوصات».

سيقيس الحارس لاندري المسافة ليقرر ما إذا كانت أقدام جميع السجناء مرفوعة قدر ست بوصات.

أرنيت: «الآن رددوا جميعًا عشرة مرات «لن أرتكب خطأ ٨١٩ سيدي الضابط الإصلاحي!»، «الآن رددوا بأعلى صوت، لن أرتكب أية أخطاء سيدي الضابط الإصلاحي!».

امتثل الجميع في تناغم تام، رفض السجين ١٠٣٧ الصياح لكنه استمر في الأداء في الوقت الذي كان فيه الرقيب يستمتع بفرصة الصياح طاعة للسلطة، ثم غنّى الجميع بصورة مهذبة تلبية لأمر القائد الأخير: «نشكرك بشدة على هذا الإحصاء الجميل، سيدي الضابط الإصلاحي».

حدّثتُ نفسي بأن هذا التناغم الكامل بين السجناء من شأنه أن يثير حسد أي مايسترو أو قائد من قادة فرق شباب هتلر. بالإضافة إلى ذلك انظر إلى الشوط الذي قطعوه؛ بل الذي قطعناه منذ الإحصاء الهزلي الذي جرى يوم الأحد.

أنت لست ٨١٩، حان وقت الذهاب إلى المنزل يا ستيوارت

عندما أدركت أن ٨١٩ ربما كان يستمع الآن لكل هذا من مكانه في غرفة الاستراحة الموجودة على الجانب الآخر من هذا القِسم الصغير من القاعة؛ هرعتُ لتفقدّه؛ فوجدته محدودبًا وفي حالة هستيرية مزرية، احتضنته محاولاً تهدئته وأكدت له أنه سيكون بخير بمجرد أن يترك المكان ويعود إلى المنزل، لكن لدهشتي رفض الذهاب معي للطبيب ثم

للمنزل. «لا، لا يمكنني الذهاب، يجب أن أعود إلى هناك»، أصرّ بدموع منهمرة. لا يمكنه المغادرة وقد أطلق عليه السجناء لقب «السجين السيئ» وقد جلب عليه إفساد زنزانه هذا القدر من المضايقات. وعلى الرغم من حالة الكرب الواضحة عليه ما يزال مستعدًا للعودة إلى السجن لإثبات أنه ليس بالشخص السيئ كما يقولون.

«اسمعني جيدًا، أنت الآن لست ٨١٩؛ بل أنت ستيوارت، وأنا الدكتور زيمباردو، أنا عالم نفس ولست مدير سجن، وهذا ليس سجنًا حقيقيًا بل مجرد تجربة، وهؤلاء الفتية هم مجرد طلاب مثلك، لذا قد حان وقت العودة إلى المنزل يا ستيوارت، تعال معي الآن؛ فلنذهب».

توقف ستيوارت عن النشيج وجفف دموعه، ثم وقف ونظر إلي مباشرة في عيني، بدا كما لو كان طفلاً صغيرًا استيقظ لتوه من كابوس ووالده يطمئنه بأن الوحش الذي رآه ليس حقيقيًا وأن كل شيء سيكون على ما يرام بمجرد أن يقتنع أن لا شيء مما رآه حقيقي. «حسنًا، ستو، دعنا نذهب». (تمكنت من اقتحام أوهامه، لكن وهمي أنا ما زال قائمًا).



«ستيوارت» أحد سجناء تجربة سجن ستانفورد يعاني من انهيار عاطفي

وأنا في طريقي للحصول على ملابس ستو المدنية تمهيدًا لإخراجه من الخدمة تذكرت أن يومه بدأ بكثير من المصاعب التي مهدت لانهياره العاطفي.

فوضى ٨١٩ بدأت مبكرًا

سجلت تقارير أمر السجن أن ٨١٩ رفض الاستيقاظ في الساعة السادسة وعشرة دقائق صباحًا، فقُذف في الحفرة ثم سُمح له بنصف مدة استخدام المرحاض التي حصل عليها الآخرون. الجميع، بما فيهم ٨١٩ حضر الإحصاء الذي استمر لخمسة عشر دقيقة في تمام الساعة السابعة والنصف صباحًا ورددوا أرقامهم بترتيب صحيح تارة ومعكوس أخرى، لكن ٨١٩ رفض المشاركة أثناء فترة التدريبات؛ فأتى أحد الحراس بعقاب جماعي حيث جَعَل جميع السجناء يقفون وأياديهم ممدودة إلى أن يمتثل ٨١٩.

لم يخضع ٨١٩ وخارت قوى السجناء الآخرين حتى سقطت أياديهم إلى جانبهم مما جعل الحراس يلقون به مجددًا في الحفرة حيث تناول إفطاره في الظلام لكنه رفض أكل البيضة، ثم أخرجوه ليعمل حيث طلبوا إليه تنظيف المراحيض بيدين عاريتين وتحريك الصناديق إلى الأمام والخلف مرارًا وتكرارًا بلا نهاية وبلا سبب مع باقي السجناء. عندما عاد إلى زنزانته حبس ٨١٩ نفسه في الداخل ورفض استخراج الحشائش من البطانية التي أُلقيت في زنزانته، فكان أن أجبر الحراس زميليه في الزنزانة ٤٣٢٥ والبديل ٨٦١٢ على أداء عمل إضافي إلى أن يذعن؛ فنقلا الصناديق مرارًا من خزانة إلى أخرى لكنه لم يخضع؛ بل طلب زيارة طبيب، لقد بدؤوا يشعرون بالغضب بسبب عصيانه الذي أرهقهم.

ذَكَرَت تقارير النوبة التي كتبها الحارس سيروس أن: «أحد السجناء حبس نفسه في زنزانته، أخذنا هراوتنا وحاولنا إخراجه لكنه لم يخرج، جعلنا جميع السجناء يقفون أمام الحائط وأياديهم ممدودة، لكنه ظل مستلقيًا في زنزانته يضحك، لم يخطر ببالي أنه سيفعل هذا، استسلمنا، وكرهَنا بقية السجناء لهذا، لكنني اكتفيت بالابتسام وواصلت عملي».

سجّل الحارس فارنيش في تقريره الأهمية النفسية لسلوك هذا السجين: «لامبالاة ٨١٩ الواضحة تجاه معاناة زملائه أغضبتهم»، ثم واصل تقريره متذمرًا من غياب الإرشادات الخاصة بكيفية التعامل مع السجناء، «شعرت بأنني غير متأكد من مقدار العنف المسموح به في الحقيقة، وقد أزعجني هذا حيث أنني شعرت بأن الحدود المسموح بها في هذه الحالة لم تكن واضحة»[1].

سجل فاندي رد فعل مختلف: «واصلتُ الاندماج أكثر مما فعلت في الأيام السالفة، استمتعت بإزعاج السجناء في الساعة الثانية والنصف صباحًا، فقد لبّت إثارة مشاعر الحنق

(١) سترى ردة الفعل نفسها في الفصل الرابع عشر حيث ستصدر عن حارس سجن حقيقي هو الرقيب فريدريك تشيب (Frederick Chip) في سجن أبو غريب، إذ سيشكي من نقص التوجيهات الخاصة بما يسمح بفعله مع السجناء.

بيننا وبين السجناء نزعاتي السادية». كانت هذه عبارة لافتة لا أشك أنه ما كان ليقولها قبل أربعة أيام عندما بدأت التجربة.

أضاف الحارس الصارم أرنيت في تقريره: «الوقت الوحيد الذي شعرت فيه بأنني غير قادر على أداء دوري على النحو الأمثل كان مع ٨١٩ و١٠٣٧ عندما كانوا يمرّون ببعض المصاعب في بعض الأوقات، ففي تلك الفترات لم أكن معهما على الدرجة من الصرامة التي يجب أن أكون عليها»[١].

لاحقًا أخبرني ستو: «كان القمع الحقيقي في تجربة السجن بشكل أساسي هو كونك تحت رحمة آخرين يجتهدون في زيادة صعوبة الأمور ومرارتها قدر الإمكان»، وواصل قائلاً: «ببساطة لا أستطيع احتمال إساءة آخرين إليّ، أصبحت شديد النقمة على الحراس الفاشيّين، وشديد الحب للرُحَماء منهم، كنت سعيدًا بتمرد بعض السجناء وغاضبًا بسبب الامتثال والطاعة المطلقة لآخرين. تأثر إحساسي بالوقت بشدة حيث بدت كل لحظة عذاب أطول مما كانت لتكون عليه حال استمتاعي بوقتي. أسوأ ما في هذه التجربة هو الاكتئاب التام الذي استحوذ عليّ بسبب المضايقات المستمرة وحقيقة أنه لم يكن هناك من سبيل للخروج، أفضل ما في الأمر كان تحريري أخيرًا»[٢].

خيانة من قبل جاسوسنا الخاص

هل تذكرون ديفيد الذي أخذ مكان ٨٦١٢ ليكون جاسوسنا في السجن؟ للأسف، لم يقدم لنا أية معلومات مفيدة بسبب تعاطفه مع قضية السجناء وتحوله إلى صفوفهم في غمضة عين تقريبًا. أطلقت سراحه ذلك الصباح بغية استجوابه والحصول على تقييمه لما يجري. في لقائه مع آمر السجن ومعي عبَّر مخبرنا الذي خذَلنا عن احتقاره للحراس وإحباطه لعجزه عن حمل السجناء على العصيان. قال إن أحد الحُراس أمره صباح ذلك اليوم بملء وعاء القهوة بماء ساخن من دورة المياه لكن حارسًا آخر قام بإفراغ الوعاء وجعله يملأه بماء بارد عقوبة له على عدم الإذعان، لقد كره هذا الإذلال غير المبرر، حدثنا كذلك عن اضطراب إحساسه بالزمن الذي أدى به إلى الشعور باستطالة بعض الأحداث وقِصَر أخرى، ومما أصابه بالارتباك إيقاظه عدة مرات في الليل لأجل عمليات إحصاء لا تنتهي، ونقل لنا كذلك إحساسه بالإجهاد الذهني وكأنما كان الضباب يلفّ كل شيء.

«يزعجك تعسُّف الحراس وتصرفاتهم الغبية». في دوره الجديد كمخبر تحوّل إلى

---

(١) تقرير الحارس لنهاية نوبة الحراسة.

(٢) مذكرات السجين.

سجين ثوري؛ أخبرنا عن خطته لتحفيز زملائه على التحرك. «قررت اليوم أن أكون سجينًا سيئًا، أردت بث روح المقاومة بين السجناء؛ فعقوبة جعل الآخرين يقومون بأعمال إضافية حال رفض أي سجين العمل أو رفضه الخروج من زنزانته تنجح فقط إن قَبِل الآخرون بهذا، حاولت أن أحثهم على الممانعة لكن الجميع كانوا مستعدين لفعل ما يُملى عليهم حتى إن كان عملاً مهينًا مثل نقل المحتويات من خزانة إلى أخرى وإعادتها أو تنظيف المراحيض بأيدٍ عارية».

كما قال ديفيد أنه لا يوجد بين السجناء من هو غاضب مني أو من آمر السجن الذي كان في الغالب مجرد صوت مُشوَّش عبر المذياع، لكنه والآخرين كانوا غاضبين من الحراس. قال لأحدهم هذا الصباح: «سيدي الضابط الإصلاحي، هل تعتقد أنك بعد انتهاء هذا العمل ستحظى بالوقت الكافي لتعود إنسانًا مرة أخرى؟» وهو ما جعله يُلقى في الحفرة بالطبع.

في العقاب الجماعي الذي وقع عليهم بسبب خطأ ٨١٩ حيث أمروا بإبقاء أياديهم ممدودة؛ أحزنه فشله في حثهم على رفض العقوبة. لقد سقطت أياديهم لاحقًا، ولكن من التعب لا عصيانًا، إحباط ديفيد بسبب فشله في القيام بعمل مؤثر كان واضحًا في تقريره لنا:

«كان التواصل يتأثر بشدة عندما يصرخ الجميع بصوت مرتفع، لا يمكنك إيقاف هذا. فكنت أثناء فترات الصمت أحاول الحديث مع زملاء الزنزانة، لكن ٨١٩ كان دائمًا في الحفرة، والفتى الآخر ٤٣٢٥ جيم هو شخص ممل ليس ممن ترغب في التحدث إليهم. وكما تعلم الكلام أثناء الوجبات ممنوع وهي الفترة المناسبة للحديث عن عدم الاستسلام للحراس. الأمر شبيه بطاقة تبقى بداخلك ولا تتحول أبدًا إلى فعل منظم، أحبطني أحد الفتية حين قال لي: «أريد الإفراج، كُفَّ عن إزعاجي، إن كنت تريدهم أن يسحقوا عُنقك؛ فهذا جيد، لكنني لا أرغب أن يُفعل بي هذا!»»[1].

لم يعطنا ديفيد «معلومات يمكن التصرف على أساسها» مثل خطط هروب أو مكان إخفاء مفاتيح الأصفاد، إلا أن أفكاره الشخصية جعلتنا نرى بوضوح وجود قوة شديدة تؤثر على عقول السجناء بحيث تمنع أي فعل جماعي احتجاجي ضد قمعهم، بدؤوا يركزون في دواخلهم فأصبح كلٌ منهم يفكر بأنانية فيما يمكن أن يفعله للنجاة أو للحصول على إفراج مبكر.

---

(١) اللقاء الأخير المُسجل للجاسوس مع الدكتور زيمباردو.

رحّبوا بالسجين الجديد

لسد العجز في عدد السجناء أتينا ببديل. سجين جديد برقم ٤١٦، سيلعب هذا القادم الجديد قريبًا دورًا بارزًا. رأيناه أولاً في الفيديو في زاوية الساحة، وصل إلى السجن بحقيبة تسوّق موضوعة على رأسه وبمجرد دخوله جرده الحارس أرنيت من ملابسه بحرص، إنه نحيل حقًا. «جلد على عظم» كما كانت تقول أمي، بإمكانك أن تعد جميع أضلاعه من مسافة عشرة أقدام، يبدو مثيرًا للشفقة، ولم يكن قد بدأ بعد في إدراك ما سيحدث له.

رشّ أرنيت بهدوء المسحوق المطهر فوق جسد ٤١٦ بالكامل، في أول أيام التجربة كان الحراس يعملون بسرعة كبيرة لأنهم كانوا مضطرين لتولي أمر عدد كبير من السجناء. الآن ومع وجود متسع من الوقت حوّل أرنيت الأمر إلى طقوس تطهير خاصة، ألبس ٤١٦ سترته من رأسه، ثم وضع الأغلال حول كاحله، وألبسه جوربًا جديدًا في رأسه، وها نحن ذا! السجين الجديد جاهز الآن. بخلاف الآخرين الذين تأقلموا تدريجيًّا مع التصاعد اليومي لتعسف وعدائية سلوك الحراس؛ دُفِع بـ٤١٦ إلى قلب هذا الجنون من اللحظة الأولى بلا أية فرصة للتكيّف مع ما يجري.

«صدمتني إجراءات الاعتقال؛ كسجين احتياط لم أُحتجز من قبل الشرطة كما حدث مع الآخرين، اتصلت بي السكرتارية للحصول على أوراقي والمجيء إلى ردهة قسم علم النفس قبل الظهيرة، كنت سعيدًا حقًا لحصولي على الوظيفة، سعيدًا لحصولي على الفرصة. [تذكروا أن هؤلاء المتطوعين سيحصلون على مقابل لعملهم مدة أسبوعين]. أثناء الانتظار أتى أحد الحراس وبعد أن أخبرته باسمي قيّدني مباشرة ثم وضع حقيبة على رأسي وقادني أسفل الدرجات، وكان عليّ الوقوف لفترة ويداي ممدودتان على الحائط، لم تكن لديّ أدنى فكرة عما يجري، أظنني قَبِلت بهذا البؤس لكن الأمر أسوأ بكثير مما توقعت، لم أتوقع أن أدخل ثم أجرّد من ملابسي مباشرة وأرشّ ببودرة التطهير وأضرب على قدمي بهراوة. قررت أن أبتعد ذهنيًا عن الحراس قدر المستطاع بينما أشاهد بقية السجناء يقومون بهذه الألاعيب، قلت لنفسي أنني سأبذل ما بوسعي لأبقى بعيدًا عن هذا، لكن مع مرور الوقت نسيت أسباب وجودي هنا، كانت أسبابي في البداية هي الحصول على المال، ثم على حين غرّة، تحول ٤١٦ إلى سجين، سجين تائه ومضطرب بشدة»[1].

(١) محطة (NBC)، برنامج (Chronolog)، سنة ١٩٧١م.

اغنية «الهبة الجميلة»[1]، على انغام السخرية

وصل السجين في الوقت المناسب تمامًا ليسمع أرنيت وهو يملي على السجناء الخطاب الذي سيبعثون به إلى زوّارهم المتوقعين في يوم الزيارة التالي، كانوا يكتبون أثناء قراءة الحارس للنص باستخدام قرطاسية قُدمت لهم من السجن، ثم طلب إليهم قراءة أجزاء منه بصوت مرتفع، خطاب موحّد يقول:

أمي الحبيبة

أقضي وقتًا رائعًا، الطعام رائع ونقوم بالكثير من ألعاب التسلية. يعاملني الضباط معاملة طيبة للغاية، جميعهم أشخاص رائعون، ستحبينهم يا أمي. لا داعي للزيارة، أنا في أعالي الجنان، (ثم ضع اسمك هنا، أيًا كان).

المخلص لك
ابنك المحب

جمع الحارس ماركوس جميع الخطابات لإرسالها، وبالطبع بعد مراجعتها لمنع تسريب معلومات أو شكاوى تحريضية. رضخ السجناء لهذا الهراء لأن الزيارات أصبحت بالنسبة لهم أمرًا في غاية الأهمية بعد أيام من دون رؤية الأهل والأصدقاء، عليهم الحفاظ على صلتهم بالعالم الآخر كتأكيد على أن هذا القبو ليس كل العالم.

بدأت مشكلة جديدة تخص قفل باب الزنزانة (١). استمر الفتى المتحاذق ٥٧٠٤ الذي قام بلا استحياء بطلب سيجارة من القسيس في وقت سابق من هذا اليوم؛ في فتح الباب ليريهم أنه يمتلك حرية الخروج وقتما شاء. بكل سهولة وسلاسة قام الحارس أرنيت بربط حبل حول القضبان ومدّه عبر الحائط ليربط بطرفه الآخر باب الزنزانة (٢)، فعل هذا بطريقة احترافية رائعة وكأنه فتى كشافة يسعى للحصول على شارة رابط العقد، وكان يصفر بموسيقى «الدانوب الأزرق» وهو يلف الحبل حول قضبان واحدة من الزنزانتين وصولاً إلى الأخرى ليحول دون فتحهما من الداخل، صفير أرنيت جميل، ثم ظهر جون لاندري وباستخدام هراوته لفّ عقدة الحبل، ثم ابتسم الحارسان تأكيدًا على أنهما أدّيا عملهما بشكل جيد، لن يتمكن أحد من الدخول أو الخروج من هاتين الزنزانتين إلا بعد أن يصلح الحراس القفل المعيب الذي قام ٥٧٠٤ بكسره على الأرجح.

«لا سجائر لك يا ٥٧٠٤ طوال فترة إغلاق باب الزنزانة، وعندما تخرج سنضعك في الحبس الانفرادي».

---

(١) أغنية (Amazing Grace) أغنية دينية مسيحية: وكلماتها المنقولة في النص ليست دقيقة ولذلك تبدو ترجمتها غريبة نوعًا ما. (المترجم).

صرخ ريتش ١٠٣٧ مهددًا من داخل الزنزانة (٢): «أمتلك سلاحًا!».

تحداه أرنيت: «لا تملك أية أسلحة، يمكننا فتح هذه الزنزانة في أي وقت نريد».

نادى أحدهم: «لديه إبرة!».

«ليس هذا بالشيء الذي يجدر به إبقاءه معه، سنصادرها ثم سنعاقبه». دقّ لاندري بهراوته بقوة على أبواب الزنازين جميعها ليُذكّرهم بأنه صاحب الكلمة هنا، ثم دقّ أرنيت بهراوته على قضبان الزنزانة (٢) مصدرًا صوتًا أعلى وقد كاد يسحق يد أحد السجناء الذي سحبها في الوقت المناسب تمامًا، ثم وكما حدث في تمرد صباح اليوم الثاني؛ بدأ جون لاندري في رش ثاني أكسيد الكربون الحارق للجلد عبر مطفأة الحريق داخل الزنزانة (٢)، ودفع ماركوس ولاندري بهراواتهما عبر قضبان الزنزانة لإبقاء السجناء بعيدًا، لكن أحد سجناء الزنزانة (٢) تمكن من الاستحواذ على واحدة من الهرواتان، بدؤوا جميعًا بالسخرية من الحراس، بدأت فوضى جديدة الآن على إثر امتلاك السجناء أسلحة.

حافظ أرنيت على سلوكه الهادئ، وبعد فترة من النقاش قرر الحراس أخذ قفل أحد المكاتب غير المستخدمة وتركيبه في الزنزانة (١)، ثم قال لهم بهدوء: «في الحقيقة يا رجال، إنه طريق باتجاه واحد في النهاية، كل ما هنالك هو كَمْ سيطول».

لاحقًا انتصر الحراس مرة أخرى حيث تمكنوا من الدخول إلى الزنزانتين ونقل الفتى السيئ ٥٧٠٤ إلى الحبس الانفرادي، لم يتركوا شيئًا للصدفة هذه المرة، قيدوا يديه وقدميه باستخدام شريط كهربائي أخذوه من أبواب الزنازين، قبل أن يلقوا به في الحفرة.

تسبب التمرد في منع وجبة الغداء عن جميع السجناء، كان أمرًا سيئًا للغاية بالنسبة للسجين ٤١٦، الشاب الجديد، ذلك أنه لم يتناول للإفطار إلا فنجانًا من القهوة وقطعة بسكويت، كان جائعًا ولم يفعل شيئًا إلا مشاهدة هذه الأحداث الغريبة التي تتكشف أمامه بذهول، سيكون من الرائع أن يأكل شيئًا دافئًا، هكذا كان يفكّر. بدلاً من الغداء اصطف جميع السجناء قبالة الحائط، أُخرج بول ٥٧٠٤ من الحبس الانفرادي ولكنه بقي مقيدًا مُلقىً على أرض الساحة لا حول له ولا قوة، كان يُقدّم كدرس لكل من تسول له نفسه بالتفكير في التمرد.

أمر الحارس ماركوس الجميع بالغناء وهم يؤدون تدريبات القفز، بأغنية (Row, Row, Row your boat)[1].

قال لهم أرنيت: «بما أنكم تحسنون الغناء يا شباب، سنغني أغنية «الهبة الجميلة»»، ثم قال: «ستؤدي مقطعًا واحدًا، لن أضع إيماني بالله قيد اختبار». أثناء لزوم بقية السجناء

---

(١) أغنية للأطفال الصغار. (المترجم).

وضعية أداء تدريبات الضغط على الأرض؛ اختير ٤١٦ لأول ظهور عام له: «فلتبدأ أنت، يجدر بك تذكر الكلمات يا ٤١٦. «الأعطية الباهرة! كم هو رائع ذلك الصوت، ليخلّص متسكعًا مثلي، كنت يومًا أعمى، لكنني الآن أرى، لأول مرة منذ الرب؛ أنا حر».

رفض أرنيت تصويب بول ٥٧٠٤ لعبارة «لأول مرة منذ الرب» من مكانه وهو مقيد على الأرض ورد عليه: «هكذا ستؤدونها، ربما لا تكون صحيحة هكذا لكن ستؤدونها هكذا!»، ثم لسبب غير مفهوم غيّر البيت الأخير إلى: «منذ أول مرة رأيت فيها الرب؛ أنا حرّ».

بدأ أرنيت الذي كان يُدرك أنه يجيد الأمر بتصفير أغنية «الهبة الجميلة»، ثم قام بتصفيرها بلحن رائع مرة أخرى؛ فصفّق له السجناء في لفتة جميلة وتلقائية تقديرًا لموهبته على الرغم من بغضهم له بسبب موقفه منهم وقسوته المُتعمدة عليهم. بدأ السجناء يرددون الأغنية أثناء جلوس كل من ماركوس ولاندري مستندين إلى الطاولة لكنهم كانوا ينشزون؛ فأغضب هذا أرنيت وقال: «هل التقطنا هذه المجموعة من الشارع السادس من جيتو سان فرانسيسكو أم ماذا؟ دعونا نسمعها مرة أخرى». حاول المشاغب بول ٥٧٠٤ تصويب الكلمات مرة أخرى، لكن أرنيت استغلّ الموقف ليقول بوضوح: «بالطبع هناك اختلاف؛ فأنتم تؤدون نسخة السجن لأغنية «الهبة الجميلة»، ولا يهمّ إذا كانت خاطئة لأن الحراس دائمًا على حق، قِف يا ٤١٦، الباقون جميعًا في وضع تدريب الضغط، وبينما يؤدون التدريبات ستغني «الهبة الجميلة» كما أمليتها عليك».

بعد ساعات قليلة فقط من سجنه نقل أرنيت السجين الجديد ٤١٦ إلى دور مركزي حيث عزله عن بقية السجناء وأجبره على القيام بعمل أحمق. سجّل الفيديو لحظات محزنة للغاية يغني فيها سجين هزيل البنية بصوت مرتفع أغنية عن التحرر الروحي. كتفاه المرخيتان وعيناه المصوبتان إلى أسفل تشير بوضوح إلى انزعاج كبير، وكان الأمر يزداد سوءًا عندما يصححون له ويجعلونه يكرر الأغنية في حين يُجبر الآخرون على الاستمرار في أداء تدريبات الضغط... أعلى، أسفل، أعلى، أسفل، و.. المفارقة هي أن يؤمر بأداء أغنية عن التحرر الروحي في مناخ قمعي يؤدي فيه زملاؤه السجناء على وقع غنائه تدريبات الضغط، لكن هذا لم يؤثر في ٤١٦ الذي قطع على نفسه وعدًا بألا يسمح لأرنيت أو لأي حارس آخر بتحطيم معنوياته.

لم يكن سبب اختيار أرنيت له واضحًا، ربما كانت مجرد طريقة لوضعه تحت الضغط بصورة أسرع، وربما هناك شيء حيال مظهر ٤١٦ الرث والهزيل يستفز الحارس الشديد العناية بالتفاصيل والحسن الهندام على الدوام.

«الآن، ولكونكم في مزاج جيد؛ سيغني ٤١٦ (Row, Row, Row your boat)

والباقون على ظهورهم وأقدامهم مرفوعة في الهواء، أريد غناءً عاليًا يسمعه ريتشارد نيكسون [الرئيس الأمريكي حينها] الذي يحبه السجين ٥٧٠٤ حيثما كان. الأقدام إلى أعلى! أعلى! فلأسمعها عدة مرات، خصوصًا ذلك السطر الأخير «الحياة ليست سوى حلم»».

يسأل السجين هابي ٧٢٥٨ ما إذا كان بإمكانهم أن يغنوا «حياة السجن ليست سوى حلم». يصرخ السجناء الآن بأعلى صوتهم مرددين كلمات هذه الأغنية وصدورهم تخفق مع كل كلمة، تزداد الحياة غرابة في هذا المكان.

عودة مصور التليفزيون

في وقتٍ ما بعد الظهيرة سيزورنا مصور التلفاز من محطة سان فرانسيسكو المحلية (KRON). لقد أُرسل لتصوير ملحق موجز ليوم الأحد والذي أثار بعض الاهتمام في القناة. ألزمته بالتصوير من خلف نافذة المراقبة خاصتنا وأن يتحدث إليّ وإلى آمر السجن فقط عن تقدّم الدراسة، لم أرغب بأي تدخل خارجي من شأنه أن يفسد الديناميكية المتصاعدة بين السجناء والحراس. لم أتمكن من مشاهدة التغطية التليفزيونية التي قام بها في تلك الليلة لأننا جميعًا شغلنا بالكثير من الأمور الطارئة التي استحوذت على كامل انتباهنا، وأمور أخرى شغلتنا جزئيًا لاحقًا[1].

الوداع يا نوبة النهار، مرحبًا بنوبة المساء

أرنيت للسجناء: «حان وقت الاستعداد لأشغال يوم الأحد» على الرغم من أنه يوم الأربعاء ما يزال. «إلى الجميع، قفوا في دائرة وأمسكوا بأيدي بعضكم كما في الطقوس الدينية ثم قولوا: «مرحبًا ٤١٦، أنا رفيقك ٥٧٠٤، سيرحب كل منكم برفيقه الجديد بالطريقة ذاتها».

---

(١) معلومة ثانوية، رآني محامي السجين السياسي الأسود الأصولي المشهور جورج جاكسون (George Jackson) أتحدث عن قضايا حيونة - نزع إنسانية السجناء وقوة الحراس. وصلني خطاب منه مساء السبت (٢١ أغسطس ١٩٧١م) يدعوني فيه لأن أكون شاهدًا خبيرًا لموكله الذي كان سيحاكم قريبًا في دعوى قتل أحد الحراس في قضية إخوة سوليداد. أرادني أن ألتقي بموكله الذي كان في محبسه بالقرب من سجن سان كوينتين في العزل الانفرادي، والذي كان اسمه للمفارقة «مركز التأهيل الأقصى» (ربما يستعيرون من رواية جورج أورويل 1984). تآمرت عليّ الأحداث يوم السبت لتمنعني من قبول دعوته، فقد قتل جاكسون على إثر هروب مزعوم، لكنني اشتركت بعد ذلك في محاكمات أخرى. واجهت إحدى المحاكمات الفدرالية مركز التأهيل كمكان «العقوبات وحشية غير مألوفة»، إضافةً إلى ذلك كنت شاهدًا خبيرًا أيضًا في المحاكمة التي عرفت بعد ذلك باسم مؤامرة (سجناء سان كوينتين الستة) على القتل والتي عقدت في دار قضاء مارين كاونتي (Marin County Courthouse) بتصميمها الفخم الذي قام به فرانك لويد رايت (Frank Lloyd Wright) ليقدم تناقضًا مضحكًا مع تصميم مركز التأهيل الأقصى هذا.

استمروا في الترحيب بزميلهم فيما بدا احتفالية في غاية الرقة، وقد فوجئت بتفكير أرنيت في إدراج مثل هذا النشاط الاجتماعي اللطيف، لكنه عاد وأفسد كل شيء بجعل الجميع يقفزون على قدم واحدة وهم يدورون ويغنون «حلقة حول الزهرة [Ring Around the Rosy]» و٤١٦ يقف في مركز تلك الدائرة البائسة.

وقبل انتهاء العمل قام أرنيت بإحصاء إضافي تولى فيه جون لاندري إملاء الكيفية التي سيتم بها الغناء، إنه أول إحصاء للسجين ٤١٦، وكان يهز رأسه غير مصدقٍ درجة امتثال الآخرين لجميع الأوامر في تناغم لافت، واستمر أرنيت في معاملته المهينة حتى آخر دقيقة في نوبته.

«لقد مللت من هذا، عودوا إلى أقفاصكم، نظفوا زنازينكم كي لا يصاب الزوار حين يأتون بالغثيان من منظرها»، ثم غادر وهو يصفّر «الهبة الجميلة»، وكمشهد ختامي أضاف: «أراكم لاحقًا يا رفاق، أراكم غدًا يا جمهوري الحبيب».

أضاف لاندري جملتين: «أريدكم أن تشكروا الضباط الإصلاحيين على الوقت الذي أمضوه معكم اليوم»؛ فقالوا متثاقلين: «أشكرك سيدي الضابط الإصلاحي»، لم يُعجَب جون لاندري بهذا الشكر المقرف؛ فجعلهم يكررونه بصوت مرتفع وهو يمشي بخطوات واسعة ومعه ماركوس وأرنيت، وفي طريق خروجهم من المكان دخل حراس نوبة الليل كما لو كانوا «جون واين» وفريقه المتحمس.

أخبرنا السجين ٤١٦ لاحقًا عن خوفه من الحراس:

«كنت أخشى حراس كل نوبة، عرفتُ منذ الليلة الأولى أنني ارتكبتُ فعلةً حمقاء بتطوعي في هذه الدراسة. كانت أهم أولوياتي هي الخروج حالما تسنح لي الفرصة، هذا ما تفعله في السجن مهما بدت فرصتك ضئيلة، وكان هذا سجنًا حقيقيًا، لكن من يديره هو عالم نفس وليس حكومة الولاية. قابلت هذا التحدي بالإضراب عن الطعام، رفضت أكل أي شيء حتى أمرض فيضطرون إلى إطلاق سراح ٤١٦، هذه هي الخطة التي تمسّكتُ بها مهما كانت العواقب»[1].

عند العشاء وعلى الرغم من الجوع الشديد الذي يشعر به؛ التزم ٤١٦ بخطته برفض تناول أي شيء.

هيلمان: «مرحبًا يا شباب، أتينا بنقانق لذيذة وساخنة لعشائكم الليلة».

٤١٦ (عفويًا): «ليس لي يا سيدي، أرفض أكل أي طعام تقدمونه لي».

هيلمان: «هذا انتهاك للقواعد ستعاقب عليه بما يناسبه».

---

(١) التقييم النهائي للسجين.

٤١٦: «لا بهم، لن آكل أية نقانق».

عوقب ٤١٦ بالزج به في الحفرة للمرة الأولى من زيارات كثيرة متلاحقة فيما بعد، وأصر عليه بوردان أن يمسك قطعة نقانق في كل يد، وبعد أن انتهى الجميع من تناول عشائهم كان على ٤١٦ أن يجلس ويحدق في طعامه، طبق فيه قطعتين باردتين من النقانق. أغضب هذا الفعل المتمرد غير المتوقع حراس نوبة الليل وبالأخص هيلمان الذي ظنَّ أن كل شيء سيكون تحت السيطرة تمامًا وسيمضي بسلاسة بعدما حُلّت جميع مشاكل ليلة الأمس، لكن يأتي هذا «كشوكة في الحلق» ليسبب المتاعب، وربما حفز آخرين على التمرد في وقت هم خاضعون فيه تمامًا لسيطرة الحراس.

هيلمان: «لا تريد أن تأكل قطعتي نقانق عفنتين؟ تريدني أن أقحمهما في مؤخرتك؟ أهذا ما تريد؟ أتريدني أن أقحمهما في مؤخرتك؟»

ظل ٤١٦ هادئًا محدقًا بوجه جامد في طبق النقانق.

أدرك هيلمان أنه وقت إعمال تكتيك فرّق تسُد: «الآن، اسمعني ٤١٦، إذا كنت لا ترغب في أكل النقانق، فهذا عصيان سيؤدي إلى حرمان الجميع من الزيارة الليلة، أسمعت هذا؟»

ردّ ٤١٦ بتعجرف: «آسف لسماع هذا، يجب ألا يتحمل الآخرون عواقب أفعالي الشخصية».

صرخ هيلمان: «هذه ليست ردود فعل شخصية ولكن ردود فعل سجين، وأنا من يحدد العواقب!»

أتى بوردان بالسجين هابي ٧٢٥٨ ليحاول إقناع ٤١٦ بأكل النقانق. قال ٧٢٥٨: «فقط كُلْ النقانق، حسنًا؟» أضاف بوردان: «أخبره لِمَ»؛ فواصل ٧٢٥٨ متوسلاً أن السجناء لن يحصلوا على ساعات الزيارة إن لم يأكل النقانق.

«ألا تكترث لهذا؟ ألمجرد أن لا أصدقاء لديك... كُلْها من أجل السجناء، لا الحراس، حسنًا؟» وجّه بوردان ضربته القاضية بوضع ٤١٦ في مواجهة مع بقية السجناء.

استمر ٧٢٥٨ في الحديث مع ٤١٦ برفق في محاولة لإقناعه بأكل النقانق لأن حبيبته ماري آن على وشك زيارته قريبًا، وهو لا يريد أن يحرم من هذا الامتياز بسبب بضعة قطع نقانق رديئة. استمر بوردان في تقليد سلوك هيلمان من حيث الأسلوب والجوهر الاستبداديين: «٤١٦، ما هي مشكلتك؟ أجبني يا فتى! نعم ما هي مشكلتك؟»

بدأ ٤١٦ بالشرح وأنه في إضراب عن الطعام احتجاجًا على سوء المعاملة وخرق العقد.

«ما علاقة هذا بالنقانق؟ أخبرني!»، بوردان في حالة هيجان وهو يضرب بهراوته على المنضدة بعنف محدثًا دويًا شديدًا يتردد في أرجاء الساحة.

«أجب سؤالي، لماذا لا تأكل النقانق؟»

بصوت واهن بالكاد يُسمع يستمر ٤١٦ باحتجاجه السلمي على طريقة مهاتما غاندي. لم يسمع بوردان عن المهاتما غاندي مطلقًا، وأصرّ على سماع سبب أكثر إقناعًا: «ستخبرني عن الرابط بين هذين الأمرين، فأنا لا أراه»، فكسر ٤١٦ حاجز الوهم مذكرًا كل أولئك الذين يمكنهم سماعه بأن الحراس ينتهكون قواعد العقد الذي وقعه عند التطوع لهذه «التجربة». (وقد أذهلني تجاهلهم جميعًا لهذا التذكير، والحراس الآن مستغرقون تمامًا في سجنهم الوهمي).

يصرخ بوردان: «لا يعنيني العقد اللعين، أنت هنا لأنك تستحق هذا يا ٤١٦، أنت هنا في المقام الأول لأنك خرقت القانون، هذه ليست حضانة، ما زلت لا أفهم سبب عدم أكلك لتلك النقانق اللعينة، هل توقعت أن تكون في حضانة ٤١٦؟ هل توقعت أن تمضي الوقت متسكعًا تخرق القانون ثم ينتهي بك المطاف في حضانة؟» صاح قائلاً أن ٤١٦ لن يكون سعيدًا عندما يضطر زملاء زنزانته إلى النوم على الأرض بلا أسِرّة الليلة، وبينما كان شكل بوردان يوحي بأنه على وشك توجيه لكمة للسجين ٤١٦ إذا به يستدير غاضبًا، وبدلاً من ذلك هوى بهراوته على كف يده وبلهجة آمرة قال لـ٤١٦: «عُدْ إلى الحفرة». الآن ٤١٦ يعرف طريقه.

ضرب بوردان بقبضته باب الحفرة محدثًا دويًا يصم الآذان ويتردد صداه داخل تلك الغرفة المظلمة. «الآن على كل منكم أن يتوجه بالشكر إلى ٤١٦ لحرمانكم من الزيارة بالضرب على باب الحفرة مع قول «شكرًا لك»».

ففعل جميع السجناء ذلك باستمتاع ما عدا جيري ٥٤٨٦ الذي فعل ذلك كارهًا. هابي ٧٢٥٨ كان غاضبًا بشدة من هذا التحول غير المتوقع لما كان ينتظره.

وللتأكيد على الأمر أتى هيلمان بالسجين ٤١٦ من الحفرة وهو ما يزال ممسكًا بقطعتي النقانق ثم بدأ إحصاءً تعذيبيًا مرة أخرى أداره وحده ولم يسمح لبوردان بأية فرصة للمشاركة، والحارس الصالح لاندري في نطاق الرؤية.

هذه فرصة هيلمان لكسر أية احتمالية تضامن يقوم بها السجناء ولإحباط ظهور ٤١٦ كبطل متمرد: «ستعانون جميعكم الآن بسبب رفض هذا السجين فعل شيء بسيط كأن يتناول عشاءه دون أي سبب مقنع، كان الأمر سيختلف لو كان نباتيًا، قولوا له في وجهه رأيكم فيه». قال البعض: «لا تكن غبيًا»، وآخرون اتهموه بأنه يتصرف كالأطفال.

لم يكتفِ «جون واين» بهذا، «أخبروه أنه مخنث».

أطاعه البعض منهم، لكن ليس الرقيب. رفض الرقيب ـ باعتبارها مسألة مبدأ ـ

استخدام أية ألفاظ بذيئة، والآن مع اثنين من السجناء يعصيان أمر هيلمان في الوقت نفسه؛ حوّل هيلمان غضبه نحو الرقيب وأساء إليه بلا شفقة صارخًا فيه بأقذع الشتائم، وأصر عليه أن ينادي ٤١٦ بـ«ابن الزنى».

استمر الإحصاء القاسي لأكثر من ساعة بلا هوادة، ولم يتوقف إلا عندما أصبح الزوار أمام الأبواب، نزلتُ إلى الساحة وأوضحت للحراس أن ساعات الزيارة لن تُلغى، لم يعجبهم التدخل في نطاق صلاحياتهم لكنهم وافقوا على مضض، فما زال هناك وقت ما بعد انتهاء الزيارة لمواصلة كسر مقاومة السجناء.

السجناء المطيعون سيحصلون على الزيارة

سُمح لاثنين من أكثر السجناء طاعة، هابي ٧٢٥٨ والرقيب ٢٠٩٣، والذيْن كان لهما أقارب وأصدقاء في الجوار بالزيارة لوقت قصير هذا المساء. كانت سعادة ٧٢٥٨ بالغة عندما وصلت حبيبته الجميلة لزيارته، حدثته عن أصدقائهم الآخرين، وأنصت لها باهتمام مسندًا رأسه إلى يديه. كان بوردان جالسًا على الطاولة بالقرب منهما طيلة الوقت ويضرب بهراوته البيضاء بانتظام. (كان علينا إعادة الهراوات السوداء الكبيرة التي كنا استعرناها من إدارة الشرطة المحلية). كان واضحًا أن بوردان مأخوذ بجمالها وكان يكثر من التدخل في الحوار بأسئلة وتعليقات.

أخبر هابي حبيبته ماري آن أنه من المهم «أن يحافظ الشخص على معنوياته، ليس سيئًا أن تتعاون».

قالت حبيبته: «هل تتعاون؟»

٧٢٥٨ (ضاحكًا): «نعم، يجعلونني أقوم بذلك».

يتدخل بوردان: «حسنًا، لقد قاموا بمحاولة هروب بسيطة».

الفتاة: «لقد سمعت بهذا».

٧٢٥٨: «لم أستمتع ببقية اليوم على الإطلاق، لم يبق لدينا أي شيء؛ لا سرير، لا شيء». أخبرها أنه تعيّن عليهم إزالة الحشائش من البطانيات المتسخة وكذلك القيام ببعض الأعمال القذرة الأخرى، لكن على الرغم من ذلك بقي متفائلاً مبتسمًا ممسكًا يدها لعشرة دقائق كاملة هي مدة الزيارة، ثم اصطحبها بوردان إلى الخارج أثناء عودة السجين وحيدًا إلى الزنزانة.

كان الرقيب هو السجين الآخر الذي أتى من يزوره، فقد جاء والده، كان الرقيب يتباهى بحفظه كامل القواعد، «هناك سبع عشرة قاعدة. . . أحفظها كلها عن ظهر قلب، القاعدة الأكثر أهمية هي طاعة الحراس».

الأب: «هل يسمح لهم بأن يأمروك بأي شيء؟».

الرقيب: «نعم. حسنًا، تقريبًا أي شيء».

الأب: «وأي حق يملكونه لفعل هذا؟»، كان يفرك جبهته في توتر واضح بسبب المأزق الذي وقع فيه ابنه، كان الزائر الثاني الذي بدا عليه الانزعاج الشديد، يبدو مثل أم السجين ريتش ١٠٣٧ التي كانت محقّة في قلقها، خاصة وأنه انهار في اليوم التالي، على الرغم من ذلك كان الرقيب ذا معدنٍ أكثر صلابة.

الرقيب: «هم مسؤولون عن إدارة السجن».

سأل الأب عن الحقوق المدنية فتدخل بوردان بنبرة شديدة القسوة: «لا يملك أي حقوق مدنية».

الأب: «حسنًا، أعتقد أن لديهم حقوق مدنية، ربما. . .» (لم نتمكن من الاستماع إلى الحجة التي قدمها لبوردان الذي لم يبدُ خائفًا من هذا المدني).

بوردان: «لا يملك الناس في السجن أي حقوق مدنية».

الأب (بانزعاج بالغ): «على أية حال، كم لدينا من الوقت لنتحدث هنا؟».

رد بوردان: «عشرة دقائق فقط».

جادل الأب حول المدة المتاحة؛ لأن بوردان منحهم خمس دقائق إضافية. يريد الأب المزيد من الخصوصية، فيرد بوردان بأن هذا ليس مسموحًا للزوار في هذا السجن، فازداد انزعاج الأب لكن - وبصورة لافتة - التزم هو أيضًا بالقواعد وقبل هذا التعدي على حقوقه من قبل شاب صغير يلعب دور حارس!

طرح الأب أسئلة أكثر عن القواعد، تحدث الرقيب عن الإحصاء، عن «التدريبات»، عن الأعمال الرتيبة، وعن إطفاء الأنوار.

الأب: «هل هذا ما توقعته؟».

الرقيب: «لقد توقعته أسوأ».

تعجب الأب غير مصدق: «أسوأ! لماذا أسوأ؟».

أقحم بوردان نفسه مرة أخرى في الحوار وأصبح انزعاج الأب من وجود بوردان غير المرغوب فيه واضحًا، أخبره الحارس أنه كان هناك تسعة سجناء ولكنهم الآن خمسة، سأل الأب عن السبب.

الرقيب: «أفرج عن اثنين والآخران تحت الرقابة المشددة»[1].

---

(١) كانت لدينا جلسة استماع للجنة إطلاق السراح يوم الأربعاء المنصرم سنتحدث عنها بتفصيل كامل في الفصل =

الأب: «رقابة مشددة أين؟»

هو لا يعرف بالفعل، سأل الأب عن سبب وجود رقابة مشددة.

الرقيب: «كانت هناك مشاكل في الانضباط، بسبب نوازع السجين».

رد بوردان في الوقت نفسه: «لقد كانا سيئين للغاية».

الأب: «هل تشعر أنك في سجن؟»

الرقيب (ضاحكًا، متجنبًا الإجابة المباشرة): «حسنًا، لم يبق لي الوجود في السجن من قبل» (ضحك الأب).

أصبح الأب والابن بمفردهما عندما هرع بوردان خارجًا بسبب صوت ضوضاء مرتفعة في الخارج.

تحدثا أثناء غيابه عن حصول الرقيب على إفراج، وقد كان واثقًا من ذلك لأنه أكثر السجناء إذعانًا حتى اللحظة، لكنه كان متخوفاً مع ذلك: «لا أعرف ما معايير الحصول على إفراج».

«انتهى الوقت»، أعلن جيوف لاندري. وقف الأب والابن وكانا على وشك تبادل الأحضان، لكن بدلاً من ذلك تصافحا بطريقة رجولية، «أراك قريبًا».

الهوموفوبيا[1] تطلّ براسها القبيح

بعد عودتي من عشاء سريع في كافتيريا الطلبة وجدت مثير المتاعب ٥٧٠٤ واقفًا في منتصف الساحة يحمل كرسيًا فوق رأسه. كرسي فوق رأسه؟! وهيلمان يصرخ في وجه الرقيب وبوردان يجاريه. يقف السجين الصالح جيري ٥٤٨٦ الذي كان شبه غائب غير مبالٍ مقابل الحائط أثناء تأدية ٧٢٥٨ تدريبات الضغط، ومن الواضح أن ٤١٦ عاد إلى الحبس الانفرادي. سأل هيلمان السجين ٥٧٩٤ عن سبب حمله الكرسي فوق رأسه ـ وكان هو من أمره بحمله ليبدو كالقبعة ـ فأجاب السجين بخنوع أنه يتبع الأوامر، كان يبدو مكتئبًا وقد استنزفت شجاعته القديمة تمامًا ثم طلب إليه بوردان ألا يبدو كالأحمق وأن يضع الكرسي بعيدًا، ثم ضرب على باب الحفرة بهراوته، «هل تستمتع بوقتك يا ٤١٦؟»

= القادم، لكن وجيث أنه لم يفرج عن أي سجين فلست واثقًا مما كان الرقيب يشير إليه، فليس هنالك إلا السجينين اللذين أفرج عنهما بسبب الكرب الشديد الذي تعرضوا له. ربما أخبر الحراس بقية السجناء بأنهما قد أفرج عنهما لمنحهم شيئًا من الأمل. لا بد أن «الحراسة المشددة» تعني أنهم في الحفرة.

(١) (Homophobia) أصل مفردة (phobia) تعني الرهاب، ومعنى المصطلح: الرهاب / الخوف من الشذوذ الجنسي وأصحابه، وهو يستعمل من قِبل الشواذ وأنصارهم والمتعاطفين معهم لرد أي ممارسة نقدية موجهة لهم، وسعيًا لتطبيع هذه الفواحش المحرمة. (المحرر).

حان الوقت ليأخذ هيلمان دور مخرج مسرحية الليلة، لقد أزاح بوردان حرفيًا. (لا أثر للحارس الصالح جيوف لاندري في الساحة بعد الزيارة).

«بينما تبقي يديك معلقتين في الهواء أمامك ٧٢٥٨ لم لا تؤدي دور فرانكنشتاين؟ ويمكنك يا ٢٠٩٣ أن تؤدي دور عروس فرانكنشتاين، قف هنا».

«أنت اذهب إلى هناك» مخاطبًا الرقيب.

سأل الرقيب ما إذا كان ملزمًا بالتمثيل.

«بالطبع أنت ملزم بالتمثيل، ستكون عروس فرانكنشتاين، ٧٢٥٨ ستكون فرانكنشتاين، أريدك أن تمشي هنا مشية فرانكنشتاين، وأن تقول أنك تحب ٢٠٩٣».

بمجرد أن بدأ ٧٢٥٨ يمشي تجاه عروسه أوقفه بوردان.

«هذه ليست مشية فرانكنشتاين، لم نطلب منك أن تمشي مشيتك».

سحب هيلمان السجين هابي ٧٢٥٨ من ذراعه بعنف شديد ثم جذبه إلى الخلف، وجعله يمشي مشية فرانكنشتاين بصورة صحيحة.

٧٢٥٨: «أحبك يا ٢٠٩٣».

يصيح بوردان: «اقتربا! اقتربا!»

٧٢٥٨ الآن على بعد بوصات قليلة من الرقيب: «أحبك يا ٢٠٩٣».

دفعهما هيلمان ويديه على ظهريهما حتى تلامسا.

مرة أخرى يقول هابي فرانكنشتاين ٧٢٥٨: «أحبك يا ٢٠٩٣»، عنّف هيلمان الرقيب لأنه ابتسم. «لم أطلب منك أن تبتسم، هذا ليس مضحكًا، انزل وأدِّ عشر تدريبات ضغط!».

بينما كانت يدا السجين ٧٢٥٨ ممدودتين أمامه وهو عائدٌ إلى الحائط انكشف ثوبه عن بعض عورته، أُمِر الرقيب أن يقول للسجين الآخر جيري ٥٤٨٦ أنه يحبه؛ فامتثل على مضض.

قال بوردان بسخرية: «حسنًا، أليس هذا جميلاً؟ أليس جميلاً؟»

يقف هيلمان الآن في وجه ٥٤٨٦.

«هل تبتسم؟ ربما تحبه أنت أيضًا. هلا ذهبت إليه لتخبره بذلك؟»

كذلك فعل جيري ٥٤٨٦ بدون أي تردد لكن قال بهدوء: «يا ٢٠٩٣، أحبك».

كان هيلمان ينقّل عنفه اللفظي من سجين لآخر.

«اخفض ذراعيك يا ٧٢٥٨، هذا هو سبب رائحتك النتنة».

«الآن جميعكم أيها السجناء المنتنون اهبطوا إلى الأرض، ستلعبون لعبة الوثب».

بدؤوا باللعب ولكنهم عانوا بشدة بسبب سقوط نعالهم وانكشاف ثيابهم عن عوراتهم أثناء القفز فوق أجساد زملائهم المحنيّة إلى الأمام، لا يقدرون على تأدية هذا بطريقة صحيحة وقد بدا على بوردان عدم الارتياح لهذه اللعبة، ربما وجد الأمر شديد الانحراف من الناحية الجنسية بالنسبة إلى ميوله. بسَّط هيلمان اللعبة فأمر ٢٠٩٣ و٥٧٠٤ فقط بمواصلة اللعب معًا، وقد استمرا في الوثب في الوقت الذي كان بوردان يصدر متذمرًا أصواتًا تعبر عن ضيقه.

كان لهذه اللعبة ذات الإيحاءات الجنسية المنحرفة تأثيرًا سيئًا على هيلمان.

«هذه هي الوضعية التي يتخذها الكلاب، أليس كذلك؟ ألا يفعلونها بهذه الطريقة؟ لم لا تفعلون مثل الكلاب؟»

عندما اشتكى لنا السجين طويل القامة بول ٥٧٠٤ من مضايقات الحراس؛ أراهن أنه بصفته رئيس لجنة شكاوى سجن بلدية ستانفورد لم يتصور مطلقًا أن تبلغ إهانات الحراس هذا المستوى من التدني. كان منزعجًا بوضوح وقال موجهًا حديثه إلى «جون وين» أن ما طلبه منه «فاحش قليلاً».

اعتبر هيلمان الملحوظة كصفعة على وجهه: «أعتقد أن وجهك فاحش قليلاً أيضًا، لم لا تلعب في صمت؟»

ظهر جيوف لاندري في المشهد، وقف تمامًا خلف ٥٧٠٤ وقد شاهد كل شيء، كان مهتمًا بشكل واضح بهذا التحول في الأحداث، لكنه أبقى يديه في جيبيه ليحافظ على حياده ويظهر اللامبالاة، لم يكن مرتديًا نظارته الشمسية المطلوبة لحجب هويته على الرغم من تأكيد آمر السجن عليه أن يفعل.

قال هيلمان ساخرًا: «أعتذر عن إهانة الطبيعة الراقية لهذا السجين!»

نجح بوردان في إنهاء اللعبة التي وجدها ماسخة منذ البداية: «لقد سئمت من هذه اللعبة، هذا سخيف»، ثم عادوا إلى لعبتهم التقليدية، الإحصاء.

الرقيب يكشف عن هوية أخلاقية جديدة

هيلمان يشعر بالملل، سار أمام صف السجناء المنهكين وفجأة استدار ليصب جام غضبه على الرقيب: «لم أنت متملق؟».

«لا أعرف سيدي».

«لم تحاول أن تكون مطيعًا إلى أقصى حد؟»

لم يخشه الرقيب وأكمل اللعبة: «إنها طبيعتي أن أكون مطيعًا سيدي الضابط الإصلاحي»

«أنت كذاب، كذاب نتن».

«إن كان هذا ما تراه سيدي الضابط الإصلاحي».

أصبح هيلمان أكثر فحشًا، ربما كان مُستثارًا بسبب الألعاب الجنسية التي أجبر السجناء على أدائها قبل قليل: «ماذا لو قلت لك أن تنزل وتضاجع الأرض، ماذا ستفعل حينها؟».

«سأقول لك أنني لا أعرف كيف أقوم بهذا سيدي الضابط الإصلاحي».

«ماذا لو قلت لك أن تذهب إلى هناك وتلكم صديقك ٥٧٠٤ في وجهه بكل قوتك؟»

ثبت الرقيب على موقفه: «أخشى أنني لن أتمكن من فعل هذا سيدي الضابط الإصلاحي».

سخر منه هيلمان ثم استدار ليتحول ناحية ضحية جديدة، وأثناء فتح باب الحفرة تحدث بطريقة مذيعي الحفلات بصوت مرتفع: «الدينا شيء للجميع هنا، لم لا تلقون نظرة على هذا الرجل؟ ٤١٦، لا تتحرك من مكانك!».

من قلب العتمة حدق ٤١٦ في السجناء والحراس المتجمهرين وينظرون جميعًا إليه وهو ممسك بقطعة نقانق في كل يد!

بوردان: «لِمَ تمسك بقطعتي النقانق يا ٤١٦؟»

قال هيلمان: «لم يأكل لا نقانق بعد»، هو عادة ما يسقط قواعد اللغة عندما تغلبه العاطفة، «وتعرفون معنى هذا بالنسبة لبقيتكم؟»

رد السجناء بصيغة النفي: «لا بطانيات الليلة».

«هذا صحيح، لا بطانيات الليلة لكم جميعًا! تعالوا هنا كلٌّ على حدة لتقولوا شيئًا للسجين ٤١٦ علّكم تقنعونه بأكل تلك النقانق؛ فلنبدأ بك، ٥٤٨٦».

اتجه السجين نحو الباب، نظر في عيني ٤١٦ وأخبره برفق: «كُل تلك النقانق إن شئت ٤١٦».

بوردان معاتبًا: «تلك الطريقة المائعة لن تحمله على فعل أي شيء يا ٥٤٨٦، أعتقد أنك لا تريد بطانيتك الليلة، التالي، ٧٢٥٨، أخبره».

في تناقض واضح مع السجين السابق؛ صاح ٧٢٥٨ في وجه السجين المتمرد: «كُل تلك النقانق وإلا ركلت مؤخرتك!»

أسعدت عدائية السجين بوردان ورسمت على وجهه ابتسامة واسعة، «الآن، هذا ما نريد ٥٤٨٦، تعال إلى هنا وقم بهذا مرة أخرى، قل له أنك ستركل مؤخرته إذا لم يأكل النقانق»؛ فامتثل الآن بخنوع. «٢٠٩٣، تعال إلى هنا وأخبره أنك ستركل مؤخرته».

قال الرقيب كلمة مؤثرة: «أنا آسف سيدي، لن أستخدم كلمة بذيئة مع إنسان آخر».

«ما الذي تعترض عليه؟»

«أعترض على الكلمة التي استخدمتها».

حاول هيلمان إجباره على قول «مؤخرة»، لكن حيله لم تنجح.

«أية كلمة؟ ركل؟ لا تريد أن تقول «أركل»، أتلك هي الكلمة؟ ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟»

حاول الرقيب توضيح موقفه لكن هيلمان قاطعه: «لقد أمرتك!».

يشعر هيلمان بالإحباط بسبب رفض الرقيب اتباع أوامره، لأول مرة يبدي هذا الإنسان الآلي أنه يملك عظمًا صلبًا وروحًا.

«الآن، اذهب إلى هناك وأخبره بما أمرتك».

استمر الرقيب في الاعتذار لكن بقي ثابتًا على موقفه «آسف سيدي الضابط الإصلاحي، لا أستطيع القيام بهذا».

«حسنًا، لا تستطيع الحصول على سرير الليلة، أهذا ما تريد قوله؟»

استمر الرقيب في الثبات على موقفه وقيمه: «أفضل النوم بلا سرير على أن أقول هذا سيدي الضابط الإصلاحي».

هيلمان يغلي من الغضب، خطا بسرعة مبتعدًا خطوات قليلة ثم عاد متوجهًا إلى الرقيب كما لو كان سيصفعه أمام الجميع لعدم إذعانه للأوامر.

شعر جيوف لاندري بتكهرب الأجواء فعرض حلًا وسطًا: «اذهب وقل له أنك ستركله في النهاية إذًا».

قال الرقيب: «نعم سيدي الضابط الإصلاحي»، ثم توجه نحو ٤١٦: «كُل النقانق وإلا سأركلك في النهاية».

سأله لاندري: «أتعني ما تقول؟»

«نعم. . لا سيدي الضابط الإصلاحي، أعتذر، لم أعنِ ما قلت».

سأله بوردان عن سبب كذبه.

«فعلت ما أمرني به الضابط الإصلاحي سيدي».

دافع هيلمان عن زميله الضابط: «لم يقل لك أن تكذب».

يدرك بوردان أن للرقيب اليد العليا بتمسكه بمعياره الأخلاقي مما قد يؤثر في الآخرين، كان يقلب الموقف بدهاء: «لا يوجد هنا من يريدك أن تكذب ٢٠٩٣. لذا لم لا تستلقي على الأرض؟»

استلقى الرقيب على الأرض على بطنه ويداه ممدودتان.

«الآن قم بتدريب الضغط من وضعك هذا».

انضم له هيلمان: «٥٧٠٤، اذهب واجلس على ظهره».

بعد تعليمات إضافية من هيلمان عن كيفية أداء تدريبات الضغط هذا الوضع؛ كان الرقيب قويًا بما يكفي ليؤدي المطلوب.

«لا تساعده، الآن ابدأ بالتدريب، ٥٤٨٦ اجلس على ظهره أنت أيضًا ووجهك للناحية الأخرى»، تردد قليلاً؛ فبادره هيلمان: «نفِّذ الأمر، فوق ظهره، الآن!»؛ فامتثل في النهاية.

تعاون الحراس في إجبار الرقيب على أداء تدريبات الضغط مع وجود السجينين ٥٤٨٦ و٥٧٠٤ فوق ظهره (فعلوا هذا بلا تردد)، عانى الرقيب محاولاً بكل كبريائه وعزة نفسه إكمال دورة من تمارين الضغط.

جاهد نفسه ليرفع جسده عن الأرض ولكنه سقط بهذا الحمل البشري فوق ظهره؛ فانفجر الثنائي الشيطاني ضاحكيْن ساخريْن من الرقيب. لم ينتهوا بعد من إهانته، لكن مقاومة ٤١٦ العنيدة لأكل قطعتي النقانق كان لها التأثير الأكبر على هذين الحارسين. قال هيلمان: «لا أفهم مسألة النقانق ٤١٦. لا أفهم كيف يمكن أن نؤدي الإحصاء ونحظى بالكثير من الأوقات الممتعة، ثم ينهار كل شيء الليلة، لم كل هذا؟»

بينما يبحث هيلمان عن إجابة بسيطة كان بوردان يتحدث بهدوء إلى ٤١٦ حول تلك النقانق مجربًا تكتيكات ناعمة أخرى: «ما هو طعمها؟ مممم؛ أعرف أنه سيعجبك بمجرد تذوقه».

أعاد هيلمان سؤاله بصوت مرتفع ليتأكد من أن الجميع قد سمعوه: «لم قمنا بعمليات إحصاء كثيرة جيدة ثم تحاول هدم كل ذلك الليلة؟»

وأثناء توجه هيلمان إلى آخر الصف بحثًا عن إجابات واضحة، ردّ ٧٢٥٨: «لا أدري، أعتقد أننا مجرد أولاد زنَى سيدي الضابط الإصلاحي».

أجاب الرقيب: «حقًا لا أدري سيدي الضابط الإصلاحي».

استغل هيلمان الفرصة ليعود إلى الرقيب بعد انتصاره عليه قبل قليل: «هل أنت ابن زنىً؟».

«إذا كان هذا ما تراه سيدي الضابط الإصلاحي».

«إذا كان الأمر على هذا النحو؟ أريدك أن تقولها بنفسك».

بقي الرقيب ثابتًا: «آسف سيدي، أحتج على استخدام هذه اللغة سيدي. لا يمكنني أن أتلفظ بها».

تدخل بوردان: «قلت لتوّك أنك لا يمكن أن تتلفظ بمثل هذا تجاه إنسان آخر ٢٠٩٣، لكن الآن السؤال مختلف، ألا يمكنك أن تقولها لنفسك؟».

رد الرقيب: «أعدّ نفسي إنسانًا سيدي».

بوردان: «هل تعد نفسك إنسانًا آخر».

الرقيب: «صدر عني القول بأنني لا أستطيع قول هذا لإنسان آخر».

بوردان: «وهذا يشملك؟».

ردّ الرقيب بأسلوب منظم وموزون وبكلمات مصاغة بعناية وكأنه في مناظرة جامعية وفي هذا الموقف حيث هو المستهدف بالاعتداء فقال: «في البداية لم يكن ما قلته يشملني يا سيدي لأنني لم أفكر في توجيه هذه الكلمات لنفسي، والسبب هو أنني يمكن أن أكون..» تنهد وبدأ ينهار، جعل يهمهم، وبدا عليه التأثر الشديد.

هيلمان: «إذًا هذا يعني أنك قد تكون ابن زنى، أليس كذلك؟».

الرقيب: «لا سيدي»

هيلمان: «بلى، قد تكون!»

الرقيب: «نعم، إذا كنت ترى هذا سيدي الضابط الإصلاحي».

بوردان: «ربما كنت تتفوه بألفاظ شديدة البذاءة تجاه أمك، هذا ما كنت تفعله ٢٠٩٣».

كان واضحًا على بوردان أنه يريد المشاركة في صنع الأحداث، لكن هيلمان يرغب في الانفراد بإدارة اللعبة ولم يعجبه تدخل رفيقه.

هيلمان: «ما الذي قد تكونه؟ ما الذي قد تكونه؟ أتكون ابن زنى؟».

الرقيب: «نعم، سيدي الضابط الإصلاحي».

هيلمان: «حسنًا، دعنا نسمعها منك».

الرقيب: «آسف سيدي، لن أقول هذا».

هيلمان: «لم بحق الجحيم لن تقولها؟».

الرقيب: «لأنني لا أتفوه بألفاظ بذيئة يا سيدي».

هيلمان: «حسنًا، لماذا قبلت هذا على نفسك؟ ماذا تكون؟»

الرقيب: «أنا ما تريدني أن أكونه سيدي الضابط الإصلاحي».

هيلمان: «حسنًا، إذا كان هذا ما تراه، إذا كنت ترى أنك ابن زنى، أتدري، لقد أثبت وجهة نظري. أنك ابن زنى، أنت من قلت هذا، لم لا تقولها إذًا؟»

الرقيب: «آسف سيدي، لن أقول هذا».

أحس هيلمان بأنه خسر مواجهة أخرى، فعاد إلى تكتيك فرّق تسُد الذي أثبت نجاحه

سابقًا: «الآن يا شباب، تريدون الحصول على نوم جيد الليلة، أليس كذلك؟»

قالوا جميعًا: «نعم سيدي!».

هيلمان: «حسنًا، أعتقد أنكم ستضطرون للانتظار قليلاً، لنترك ٢٠٩٣ يفكر في كونه ابن زنى، ربما حينئذٍ سيخبر البقية أنه يعتقد أنه كذلك».

(كان هذا صراعًا غير متوقعًا بين الحارس الأكثر استبدادًا وشراهةً للسلطة وبين سجين كان حتى الآن سجينًا مطيعًا تمامًا، مطيعًا لدرجة أنهم يسخرون منه بتسميته «الرقيب» الذي لا يحبه أغلب الحراس والسجناء لأنهم يعتبرونه مجرد روبوت عسكري. لقد أثبت أن لديه وجهًا آخر مثيرًا للإعجاب؛ فهو رجل المبادئ).

الرقيب: «أعتقد أنك مصيب تمامًا في اتهامك لي سيدي الضابط الإصلاحي».

هيلمان: «أوه، أعرف هذا».

الرقيب: «لكن لا يمكنني أن أنطق الكلمة سيدي الضابط الإصلاحي».

هيلمان: «تنطق بماذا؟».

الرقيب: «لا أستطيع أن أنطق، بأي معنى لكلمة «ابن زنى»».

(أجراس، صفارات، أصوات مدافع، وموسيقى استعراض عسكري)

صاح بوردان باستمتاع كبير: «لقد قالها!».

هيلمان: «سُبّوح قدّوس! هل قال هذا لتوه ٥٧٠٤؟».

٥٧٠٤: «نعم، فعل سيدي الضابط الإصلاحي».

هيلمان: «لدينا رابح هنا فيما أظن».

بوردان: «ربما سيتمكن الشباب من الحصول على سرير الليلة، من يدري؟».

لم يكتف هيلمان بتحقيق انتصار جزئي، فكان عليه أن يثبت القوة التعسفية لأوامره: «لأنك تلفظت بلفظ فاحش ٢٠٩٣ ستنزل إلى الأرض وتؤدي عشر تدريبات ضغط».

الرقيب: «أشكرك سيدي الضابط الإصلاحي»، قالها وهو ينفذ تدريب الضغط بصورة رائعة على الرغم من إرهاقه الواضح.

بوردان المنزعج من كون الرقيب متمكنًا ما يزال من تأدية تدريبات الضغط بهذه الكفاءة؛ قال له هازئًا: «٢٠٩٣، أين تظن نفسك؟ مركز تدريب؟».

ثم تدخل جيوف لاندري الذي كان جالسًا طوال الساعة الفائتة: «قم بعشرة أخرى»، ثم قال للمتابعين: «هل تعتقدون أن أداءه جيد؟»

أجابوا «نعم، جيد». قام لاندري الضخم باستعراض غريب للسلطة ليبدو أمام السجناء وكأنه ما زال يملك بعضًا منها.

«حسنًا، جميعكم مخطئون، ٢٠٩٣ خمسة أخرى».

كان اعتبار الرقيب غير الشخصي لهذه المواجهة أمرًا مثيرًا للاهتمام:

«أمرني الحارس بتسمية سجين آخر بـ«ابن الزنى» وبإطلاق الكلمة ذاتها على نفسي. لا يمكنني فعل الأولى أبدًا، أما الثانية فيمكن أن تسفر عن تناقض منطقي يلغي صلاحية الأولى. بدأ بذات الطريقة التي اعتاد عليها في كل «العقوبات» السابقة، ملمحًا في نبرة صوته إلى أن الآخرين يمكن أن يعاقبوا نتيجة لأفعالي، ولكي أتجنب تعريضهم للعقاب وأتجنب كذلك تنفيذ الأمر؛ خرجتُ بردّ فعل يحلّ المعضلتين، «لن أستخدم كلمة ابن زنا عن عمد»، مانحًا له ولنفسي مخرجاً»[1].

بدا الرقيب كرجل ذي مبادئ نحترم، لا المتملّق ذي الطاعة العمياء كما لطالما بدا عليه في البداية، أخبرنا لاحقًا بشيء مثير عن العقلية التي تبناها كسجين في هذه الظروف:

«عندما دخلتُ إلى السجن عقدتُ العزم على أن أستمر قدر استطاعتي محافظًا على ذاتي كما أعرفها، كانت فلسفتي الخاصة بالسجن هي ألا أتسبّب أو أزيد من تدهور شخصيتي أو شخصية زملائي من المساجين، وأن أتجنّب التسبّب في معاقبة أي شخص بسبب أفعالي».

القوة الرمزية للنقانق

لماذا أصبحت قطعتا النقانق القذرتان بتلك الأهمية؟ تمثل النقانق بالنسبة للسجين ٤١٦ تحدّيًا لنظام شرير عن طريق فعل ما يمكنه فعله ولا يمكن أن يُجبر على تركه، وبفعله هذا أربك هيمنة الحراس. بالنسبة للحراس فإن رفض ٤١٦ أكل النقانق يمثل انتهاكًا صارخًا للقاعدة القائلة بأن على السجناء أن يأكلوا في الأوقات المخصصة للأكل فقط. وُضعت هذه القاعدة بحيث لا يطلب السجناء طعامًا خارج الأوقات الثلاثة المخصصة له، لكن يُعاد تشكيل هذه القاعدة لتمكن الحراس من إجبار السجناء على أكل الطعام في أي وقت يُقدم فيه. رفْضُ تناول الطعام هو عصيان لن يتهاونوا فيه لأن مثل هذا الرفض قد يقود لاحقًا إلى تحديات لسلطتهم من قبل الآخرين الذين كانوا حتى الآن يقابضون التمرّد بالإذعان.

كان على باقي السجناء أن يروا رفض ٤١٦ الخضوع عملاً بطوليًا، ربما كان هذا العمل سيوحّدهم حوله ليتخذوا موقفًا جماعيًا من تعسّف الحراس المستمر والمتزايد، المشكلة الاستراتيجية هي أن ٤١٦ لم يشارك الآخرين خطته في البداية ليكسبهم في صفه

(١) التقييم النهائي للسجين.

حين يدركون أهمية تمرده، كان قراره بالإضراب عن الطعام قرارًا خاصًا، لذا لم يشاركه أقرانه. شرع الحراس في تصوير السجين ٤١٦ في أعين زملائه على «مثير المتاعب» الذي لن يؤدي تعنته إلا إلى إيقاع العقوبات بهم وحرمانهم امتيازاتهم مستغلّين هشاشة وضعه الاجتماعي الجديد في السجن بوصفه حديث عهد به لم يعاني قدر ما عانى زملاؤه، وصوّروا كذلك إضرابه عن الطعام على أنه فعل أناني لأنه لم يعبأ باحتمالية منع الزيارة عن السجناء الآخرين، لكن كان على السجناء أن يروا أن الحراس هم من يصنعون هذا الربط المتعسف غير المنطقي بين أكله النقانق وحصولهم على امتياز الزيارة.

بعد توليه أمر الرقيب عاد هيلمان إلى عدوه النحيف، السجين ٤١٦، وأمره بالخروج من الحبس الانفرادي وتأدية خمسة عشر تدريب ضغط: «قم بهذا من أجلي، وبسرعة».

نزل ٤١٦ إلى الأرض وبدأ في تأدية تدريبات الضغط، لكنه كان ضعيفًا للغاية ومشوشًا حتى إنه ليصعب وصف ما قام به بكونه تدريبات ضغط، كان بالكاد يرفع مؤخرته.

لم يصدق هيلمان ما يراه: «ماذا يفعل؟» صاح بصوت مرتاب.

قال بوردان: «يحرك مؤخرته».

استيقظ لاندري من سباته وأضاف: «لقد قلنا له أن يقوم بتدريبات الضغط».

صرخ هيلمان: «هل هذه تدريبات ضغط، ٥٤٨٦؟»

أجاب السجين: «أعتقد هذا، سيدي الضابط الإصلاحي».

«محال، تلك ليست بتدريبات ضغط».

وافقه جيري ٥٤٨٦: «إن كان هذا ما تراه فهي ليست تدريبات ضغط سيدي الضابط الإصلاحي».

تدخل بوردان: «إنه يهز مؤخرته، أليس كذلك ٢٠٩٣؟».

وافق الرقيب بخنوع: «إذا كان هذا ما تراه سيدي الضابط الإصلاحي».

بوردان: «ما الذي يفعله؟».

امتثل ٥٤٨٦ وقال: «إنه يهز مؤخرته».

جعل هيلمان السجين بول ٥٧٠٤ يؤدي تدريب الضغط لكي يتعلم ٤١٦ منه.

«أترى هذا ٤١٦؟ إنه لا يحرّك مؤخرته، الآن قم بهذا بشكل صحيح!».

حاول ٤١٦ تقليد ٥٧٠٤ لكنه لم يمتلك القوة الكافية لذلك. أضاف بوردان ملحوظته اللئيمة: «ألا تستطيع إبقاء جسدك مستقيمًا أثناء تأديتك لهذا ٤١٦؟ تبدو مثل أفعوانية الملاهي أو شيء من هذا القبيل».

نادرًا ما يستخدم هيلمان الاعتداء الجسدي، كان يفضل السيطرة اللفظية باستخدام

السخرية والألعاب الساديّة المبتكرة، كان مدركًا لمقدار الحرية المتاح له في دوره كحارس، بإمكانه أن يرتجل لكن يجب ألا يفقد تحكّمه في نفسه، إلا أن تحديات تلك الليلة نالت منه، وقف إلى جانب ٤١٦ الذي كان مستلقيًا على بطنه في وضعية تدريب الضغط، وأمره أن يؤدي التدريب ببطء، ثم وضع قدمه على ظهر ٤١٦ أثناء تأديته التدريب وكان يدفعه بقوة وهو ينزل، بدت على الجميع الدهشة بسبب هذا الاعتداء، بعد بضعة تمارين رفع الحارس القاسي قدمه وأمر السجين بالعودة إلى الحفرة، ثم صفق الباب بعنف وأغلقه.

أثناء مشاهدتي تذكرت بعض الرسومات التي تركها السجناء عن الحراس النازين في معسكرات أوشفيتز وهم يفعلون نفس الشيء، الوقوف على ظهر السجين أثناء تأديته تدريبات الضغط.

احمق مستقيم، يحسب نفسه أفضل أخلاقًا من الآخرين

صاح بوردان في ٤١٦ عبر باب الحفرة: «إذا لم تأكل، لن تكون لديك طاقة كافية يا ٤١٦». (شكّكت في أن بوردان بدأ يرقّ لمعاناة هذا الفتى الصغير).

إنه وقت سيطرة الحارس هيلمان، قدم عظة بسيطة: «أتمنى منكم أن تتعظوا، ليس هناك من داعٍ لعصيان الأوامر، فأنا لا أطلب منكم ما لا تستطيعون القيام به. لا سبب عندي لإهانة أي شخص. أنتم لستم هنا لأنكم مواطنون صالحون كما تعلمون، هراء ادّعاء الفضيلة هذا يدفعني للتقيؤ، وبإمكانكم التوقف عن هذا كله الآن».

طلب من الرقيب تقييمًا لخطابه؛ فأجابه الرقيب: «أعتقد أنك قدمت خطبة جيدة سيدي الضابط الإصلاحي».

اقترب هيلمان من وجهه وعاد إلى استهدافه: «هل تظن أنك أفضل أخلاقًا منا، أيها التقي الأحمق؟».

أجاب الرقيب: «إن أردت أن ترى الأمور على هذا النحو».

«حسنًا، فكر في هذا، أنت تظن أنك أحسن خلقًا من الآخرين أيها التقي الأحمق».

عدنا إلى تلك الحلقة التعيسة مرة أخرى، فرد الرقيب: «سأكون من تريدني أن أكون سيدي الضابط الإصلاحي».

«لا أريدك أن تكون، أنت كذلك».

«كما تشاء سيدي الضابط الإصلاحي».

عاد هيلمان إلى التحرك بيأس بحثًا عن الموافقة، واتفق معه جميع السجناء.

«إنه تقي أحمق، يظن نفسه أرقى أخلاقًا من الجميع».

«تقي أحمق، يظن نفسه أرقى أخلاقًا من الجميع سيدي الضابط الإصلاحي».

«نعم، تقي أحمق، يظن نفسه أرقى أخلاقًا من الجميع».

قال هيلمان للرقيب مبتهجًا بأن هذا العالم الصغير على الأقل يرى الأمور بطريقته:

«آسف، أربعة لواحد، أنت تخسر».

ردّ الرقيب بأن ما يهم هو كيف ينظر هو إلى نفسه.

«حسنًا، إذا كان لك رأي آخر فأعتقد أنك واقع في مشكلة حقيقية؛ لأنك بهذا بعيد عن الحقيقة، عن الواقع، وحياتك ليست سوى كذبة، هذا ما تفعله، لقد سئمت منك يا ٢٠٩٣».

«آسف سيدي الضابط الإصلاحي».

«أنت ابن زنى تقيّ أحمق يحسب نفسه أرقى من الآخرين، تدفعني إلى التقيؤ».

«أعتذر لتسببي في هذا الشعور لديك سيدي الضابط الإصلاحي». جعل بوردان الرقيب ينحني إلى الأمام ليلامس أصابع قدمه في وضع ثابت، حتى لا يضطر لرؤية وجهه مرة أخرى.

قولوا شكرًا لك ٤١٦!

الأمر الأخير الذي لا يزال على هيلمان تحقيقه في معركته ضد أولئك المحاربين هو سحق أي تعاطف يمكن أن يبديه السجناء لحالة ٤١٦ المؤسفة.

«من سوء الحظ أننا يجب أن نعاني جميعًا لمجرد أن البعض يفقد صوابه. لديكم صديق جيد هنا - بينما يطرق على باب الحفرة - سيعمل على عدم حصولكم على بطانيات الليلة».

وضع هيلمان أزمته مع أزمة السجناء في سلة واحدة ضد عدوهم المشترك ٤١٦ الذي يوشك أن يؤذيهم بسبب إضرابه الأحمق عن الطعام.

جعل بوردان وهيلمان السجناء الأربعة يصطفون وشجعاهم على توجيه الشكر لزميلهم السجين ٤١٦ الذي يقبع في الحفرة الضيقة المظلمة؛ ففعلوا ذلك واحدًا تلو الآخر.

«لماذا لا تشكرون ٤١٦ جميعًا على هذا؟»

قالوا جميعًا: «شكرًا لك يا ٤١٦».

لم يقنع الثنائي الشرير بكل هذا؛ فأمرهم هيلمان قائلاً: «الآن اذهبوا إلى هناك، إلى جانب الباب، أريد منكم أن تشكروه، لكن بقبضتكم، على الباب».

وقد فعلوا هذا، واحدًا بعد الآخر وقرعوا الباب وهم يصيحون: «شكرًا لك ٤١٦!»

بأصوات عالية رنانة تدوي في الحفرة لتزيد من رعب ٤١٦ الجدير بالشفقة، الجالس هناك وحيدًا.

بوردان: «هكذا، هذه الروح التي أريد».

(من الصعب تحديد ما إذا كان باقي السجناء يفعلون هذا بسبب غضبهم من ٤١٦ لتسبّبه في تعريضهم إلى معاناة لا حاجة لهم بها أم أنهم يمتثلون للأوامر فحسب، أو لعلهم ينفّسون عن إحباطهم وغضبهم من اعتداءات الحراس المستمرة عليهم).

أراهم هيلمان طريقة قرع الباب بقوة وكرر التجربة عدة مرات حتى يتأكد من استيعابهم لها، كان الرقيب هو الأخير ولكن كانت المفاجأة أنه امتثل بخنوع، وعندما انتهى قام بوردان بجذب الرقيب من كتفيه بقوة ودفعه نحو الحائط، ثم أمر السجناء بالعودة إلى الزنازين وقال لرئيسه هيلمان: «الجميع جاهزون لإطفاء الأنوار، حضرة الضابط».

صفقة البطانيات المتسخة

هل تذكرون فيلم (لوك الشجاع) القديم الذي استعرت منه فكرة ارتداء الحراس لنظاراتٍ شمسيةٍ عاكسة لخلق الشعور بحجب الشخصية؟ في هذه الليلة ارتجل الحارس هيلمان نصًا يمكن أن ينافس أعمال أفضل المؤلفين في التعبير عن سلطة السجن، لقد أبدع مشهدًا شريرًا يجسد فيه قدرة السلطة على خلق واقعٍ قهريّ يوهم فيه السجناء بأنهم يمتلكون سُلطة معاقبة زميلهم.

خفتت الأنوار، السجناء في زنازينهم، ٤١٦ في الحبس الانفرادي، خيّم على الساحة صمت غريب. انزلق هيلمان على الطاولة الموجودة بين الحفرة وموقع المراقبة الخاص بنا والذي نقوم بالتسجيل منه، مما سمح لنا بمشاهدة الأحداث التالية عن قرب. مال رئيس نوبة الليل بظهره إلى الحائط وقد جلس متربعًا فيما يشبه جلسة بوذا، وأحد ذراعيه بين قدميه والأخرى على الطاولة، كانت هيئة هيلمان لوحة فنيّة بعنوان «القوة حين تسكين»، حرك رأسه ببطء من جانب لآخر، لاحظنا طول فوْدَيه، كان يلعق شفتيه الغليظتين وهو يختار كلماته بعناية ويطلقها بلهجة جنوبية خالصة.

ابتكر الرجل خطة مكيافيللية جديدة، كان يضع شروط إخراج ٤١٦ من الحبس الانفرادي، لم يعد ترك السجين المشاغب في الحفرة طوال الليل قراره وحده، بدلاً من ذلك دعا الجميع إلى اتخاذ القرار: «هل يجب أن نفرج عن ٤١٦ الآن، أم نتركه يتن في الحفرة طوال الليل؟»

دخل جيوف لاندري في تلك اللحظة إلى الساحة بطوله البالغ ستة أقدام ووزنه البالغ ١٨٥ رطلاً، هو أضخم حراس السجن على الإطلاق، وكما هو معتاد، يمسك بسيجارة في

يد واحدة ويده الأخرى في جيبه ولا يرتدي نظارته. مشى إلى مركز الأحداث، توقف، يبدو عليه التوتر، ثم عبس، وبدا أنه على وشك التدخل، ولكنه لم يفعل شيئًا سوى متابعة «جون واين» وهو يواصل استعراضه.

«لدينا الآن عدة طرق لإنهاء الأمر اعتمادًا على ما تريدون، الآن؛ إذا لم تكن لدى ٤١٦ رغبة في أكل النقانق؛ فستعطوني بطانياتكم وتنامون على مراتب مكشوفة، أو يمكنكم الاحتفاظ ببطانياتكم مقابل استمرار ٤١٦ في الحفرة ليوم آخر، ماذا قررتم؟»

أجاب ٧٢٥٨ مباشرة: «سأحتفظ ببطانيتي سيدي الضابط الإصلاحي»، (يبدو أن هابي ليست به حاجة إلى ٤١٦).

«ماذا عنكم هناك؟».

قال بول ٥٧٠٤ قائد التمرد السابق: «سأحتفظ ببطانيتي».

«ماذا عن ٥٤٨٦؟».

أظهر ٥٤٨٦ تعاطفه مع ٤١٦ البائس رافضًا الخضوع للضغط المجتمعي، وعرض تقديم بطانيته حتى لا يضطر ٤١٦ إلى البقاء في عزلته ليوم آخر.

صرخ فيه بوردان: «لا نحتاج بطانيتك!».

«الآن، عليكم التوصل إلى قرار هنا يا شباب».

مشى بوردان واضعًا يديه على وركيه ومبالغًا في التلويح بهراوته مختالاً في صورة متسلط صغير وقد ذرع جميع الزنزانات جيئة وذهابًا ثم تحول نحو الرقيب في زنزانته وسأله: «ما هو شعورك حيال ذلك؟».

وللمفاجأة فقد تنازل الرقيب عن معياره الأخلاقي المرتفع والذي يبدو الآن مقتصرًا على عدم التلفظ بالفحش، قال: «إذا كان الآخران يرغبان في الاحتفاظ ببطانياتهما فسأحتفظ ببطانيتي». كان هذا هو التصويت الأهم.

بوردان متعجبًا: «لدينا ثلاثة ضد واحد».

كرر هيلمان هذه الرسالة بوضوح، بحيث يسمعها الجميع: «لدينا ثلاثة ضد واحد»، وأثناء نزوله من على الطاولة صاح الزعيم بالحفرة: «٤١٦، ستبقى هناك لبعض الوقت، حاول أن تعتاد هذا»[١].

---

(١) عندما أعيد ذلك المشهد المسجل مرة أخرى، اتبين فجأة أن هذا الحارس الذي يمثل نسخته الخاصة من الدور الذي أداه ستروثر مارتين (*Strother Martin*) بوصفه آمر السجن القاسي في فيلم (لوك الشجاع Cool Hand Luke)؛ كان في الحقيقة يتحرك ويتصرف مثل الممثل باورز بوث (*Powers Boothe*) وهو يؤدي دوره الشهير جيم جونز (*Jim Jones*) في فيلم مأساة غيانا (*Guyana Tragedy*)، وقد حدثت المأساة الوحشية بعد ست سنوات فقط. فيلم =

غادر هيلمان الساحة مُختالاً، وتبعه المخلص بوردان، ثم لحق بهم لاندري. نصر مؤزّر أحرزه الحراس في هذا الصراع المستمر بين قوتهم وبين المقاومة المنظمة للسجناء. كانت ليلة عصيبة بالتأكيد لأولئك الحراس، لكن يمكنهم الآن الاستمتاع بمذاق النصر الحلو في معركة القوة والذكاء هذه.

= (لوك الشجاع) من بطولة دون بيرس (*Donn Pearce*)، وإخراج ستيوارت روزينبيرج (*Stuart Rosenberg*)، واشترك معه بول نيومان (Paul Newman) في دور لوك جاكسون (Luke Jackson). فيلم (مأساة غيانا Guyana Tragedy)، من إنتاج عام ١٩٨٠م، وإخراج ويليام جراهام (*William Graham*).

الفصل السابع

سلطة الإفراج المشروط

كان سجن ستانفورد الذي صنعناه أشبه عمليًا بسجن بلدة تملؤه مجموعة من المراهقين المحتجزين لحين عرضهم على المحكمة بعد اعتقالات صباح يوم الأحد التي نفذتها شرطة بالو ألتو. من الواضح تمامًا أن موعد جلسة المحاكمة لم يحدد بعد لأي من الشبان الذين يؤدون أدوار السُجناء والمفتقدين للتمثيل القانوني، لكن بناءً على نصيحة قسيس السجن الأب مكديرموت أوشكت والدة أحد السجناء على تعيين مستشار قانوني لابنها. بعد اجتماع مطول مع آمر السجن ديفيد جافي و"المستشارين النفسيين" كريج هاني وكيرت بانكس قررنا تحديد جلسة استماع أمام لجنة الإفراج المشروط على الرغم من أن هذا الإجراء لا يحدث عادةً في هذه المرحلة المبكرة من إجراءات القضاء الجنائي.

سيوفر لنا هذا فرصة مراقبة كيفية تصرف كل سجين حيال وجود فرصة غير متوقعة للخروج من السجن. يؤدي كل سجين دوره حتى هذه اللحظة وكأنما هو ممثل وحيد بين طاقم من الممثلين. عَقْد الجلسة في غرفة بعيدة عن نطاق السجن سيكون بمثابة متنفس للسجناء بعيدًا عن المناخ القمعي الذي تفرضه المساحة الضيقة للقبو، ربما سيشعرون بحرية أكبر في التعبير عن مشاعرهم ومواقفهم في بيئة جديدة قد تضم بعض الأشخاص غير المرتبطين بشكل مباشر بشؤون السجن، كما أن هذا الإجراء سيضيف المزيد من الرسمية لتجربتنا. جلسة استماع لجنة الإفراج المشروط، وأيام الزيارة، وزيارة قسيس السجن، والزيارة المنتظرة من قبل المدعي العام، كل هذا يدعم مصداقية تجربة السجن. وأخيرًا أردتُ متابعة كيفية تصرف مستشار السجن كارلو بريسكوت حين يشغل منصب رئيس لجنة الإفراج المشروط لسجن بلدية ستانفورد. كما سبق وذكرت؛ فشل كارلو في جلسات استماع لجان الإفراج المشروط في السبعة عشر عامًا الماضية، ولم يفرج عنه إلا مؤخرًا بعدما قضى فترة كبيرة من العقوبة التي حُكِم عليه بها إثر إدانته بتهمة السطو المسلح، هل سيكون عطوفًا ويقف مع مطالب السجناء باعتباره كان يومًا في موقفهم يتوسل للإفراج عنه؟.



سجناء تجربة سجن ستانفورد مغطاة رؤوسهم ومقيدين بالسلاسل في انتظار جلسة استماع لجنة إطلاق السراح المشروط

عُقِدت جلسة استماع لجنة الإفراج المشروط في الدور الأول من قسم علم النفس داخل معملي، وهو عبارة عن غرفة كبيرة مفروشة بالسجاد ومزودة بكاميرات مخبأة للتصوير والمراقبة من خلف نافذة مصممة خصيصًا لهذا الغرض. جلس أعضاء اللجنة الأربعة حول طاولة سداسية الشكل وجلس كارلو على رأس الطاولة إلى جانب كريج هاني وعلى الجانب الآخر جلس طالب دراسات عليا وسكرتيرة، كان لكليهما قدر ضئيل من المعرفة المسبقة بدراستنا ووافقا على مساعدتنا اليوم، سيؤدي كيرت بانكس دور الرقيب المسلح[1] ليقوم باستلام كل متقدم بطلب إفراج من الحراس ثم تسليمه إلى سلطة لجنة الإفراج المشروط، وسأقوم أنا بتسجيل العملية من غرفة مجاورة.

من بين السجناء الثمانية الموجودين صباح يوم الأربعاء، بعد الإفراج عن ٨٦١٢، اعتبرت اللجنة أربعة منهم مُسْتَحِقّين للإفراج لحسن السلوك، مُنحت لهم فرصة طلب استماع لحالتهم، وكتبوا طلبات رسمية يشرحون فيها الأسباب التي تجعلهم يعتقدون أنهم يستحقون الإفراج المبكر، أما الباقين فسيحصل بعضهم على جلسة استماع في يوم آخر،

(١) (Sergeant-at-arms) رقيب مسلح: شخص يعيّن في الاجتماعات لحفظ النظام. (المترجم).

لكن أصرّ الحراس على أن السجين ٤١٦ لن يحصل على مثل هذه الفرصة بسبب إصراره على انتهاك القاعدة رقم ٢: «يلتزم السجناء بتناول الطعام في الأوقات المخصصة للأكل، وفي الأوقات المخصصة للأكل فحسب».

فرصة لاستعادة الحرية

قام حراس نوبة النهار بصف السجناء الأربعة في الساحة بنفس الطريقة المعتادة كل ليلة وقت جولة المراحيض الأخيرة. القيد في قدم كل سجين موثق حول قدم السجين التالي، والرؤوس مغطاة بحقائب ورقية ضخمة حتى لا يدركوا كيفية وصولهم إلى مكان انعقاد لجنة الإفراج المشروط أو موقعه من المبنى. أُجلسوا على مقعد في الردهة خارج غرفة لجنة الإفراج، أُزيلت القيود من أقدامهم، لكن بقيت أصفاد اليد والحقائب التي تغطي رؤوسهم إلى حين خروج كيرت بانكس من الغرفة لينادي على كل سجين برقمه.

يقرأ الرقيب المُسلح كيرت بيان التماس الإفراج الخاص بالسجين ويتلوه بيان اعتراض أي من الحراس على الإفراج إن وُجِد، يُقتاد كل سجين ليجلس إلى يمين كارلو الذي يتولى القيادة من هذه النقطة. بحسب ترتيب الظهور دخل السجين جيم ٤٣٢٥، ثم السجين جلين ٣٤٠١، ثم السجين ريتش ١٠٣٧، وأخيرًا السجين هابي ٧٢٥٨، وبعد أن يأخذ كل منهم وقته أمام اللجنة يعودون به إلى المقعد في الردهة، مقيدًا ومغطىً رأسه بالحقيبة إلى حين انتهاء جميع الجلسات وإعادة جميع السجناء إلى السجن في القبو.

قبل دخول أول السجناء وأثناء تفقدي لجودة التصوير؛ بدأ المحترف القديم كارلو في تعليم أعضاء اللجنة المبتدئين بعض الحقائق الأساسية عن لجان الإفراج المشروط. (انظر الهامش[1] لقراءة خطبته الطويلة). قال كيرت بانكس بلهجةٍ آمرةٍ وقد شعر أن كارلو يستعد

---

(١) استهلّ كارلو بريسكوت اليوم بالخطبة التالية لأعضاء اللجنة:

«غرف عن لجان إطلاق السراح المشروط رفضها للمرشحين المثاليين، شباب متعلمون يتابعون علاجات واستشارات نفسية، يرفضون هذا الشاب لأنه فقير، أو لأن جرائمه متكررة، أو لأن الحي الذي يأتي منه لا يقدم له أي دعم، أو لأن والديه متوفيان، أو لأنه لا يمتلك أية مصادر دخل، أو لمجرد أنهم لم يحبّوا وجهه، أو لأنه أطلق النار على إصبع شرطي. ثم يأتون إلى شاب يعد سجينًا مثاليًا لم يثر أية مشكلة على الإطلاق.. سجين مثالي؛ فيرفضون هؤلاء مرتين، ثلاثًا، أربعة، خمسة، وستة مرات. يُطلق سراح شباب صغير يبدو احتمال عودتهم إلى السجن كبيرًا، ويبدو أن بيئة السجن أعادت تشكيلهم تمامًا وأربكتهم إلى حد عدم قدرتهم على التوازم مع المجتمع، يطلق سراحهم بسهولة أكبر من أفراد طبيعيين لم يتورطوا في المشاكل، ويمكنهم تدبر أمرهم في السرقة والاحتيال بما يبقيهم خارج السجن. الآن، يبدو هذا جنونيًا، لكنه يقودنا إلى كون =

لإلقاء واحدة من خطبه الطويلة التي لطالما استمعنا لها في الدورة الدراسية الصيفية: «علينا أن نتحرك بسرعة، الوقت ينفد منا».

السجين ٤٣٢٥ يلتمس البراءة

أُدخل السجين جيم ٤٣٢٥ إلى الغرفة وقد أُجلس ونزعت عنه الأصفاد، إنه شاب ضخم وقوي، واجهه كارلو مباشرة بسؤال: «ما سبب وجودك في السجن؟ وكيف ترد على التهمة؟» أجاب السجين بجديّة تامّة: «سيدي، تهمتي هي الاعتداء المسلح باستخدام سلاح مميت، ولكن ألتمس الحكم بكوني غير مذنب»[1].

كارلو يدّعي المفاجأة: «غير مذنب؟» يواصل: «معنى كلامك أن الضباط الذين قاموا باعتقالك لا يجيدون عملهم وأن هناك خطأ ما أو لبسًا؟ هل تريد القول أن من تدربوا على تنفيذ القانون ومن المحتمل أن تكون لديهم خبرة سنوات قد التقطوك أنت من بين جميع سكان بالو ألتو وهم لا يعرفون عم يتحدثون أو أن عقولهم مشوشة حيال ما قمت به؟ بكلمات أخرى، هم كذابون، هل تريد قول أنهم يكذبون؟»

٤٣٢٥: «لا أقول أنهم كذابون، بالتأكيد كانت هناك أدلة قوية على كل شيء، وأحترم خبرتهم المهنية بلا شك.. لم أر أية أدلة، لكن أعتقد أن ما لديهم كان كافيًا تمامًا ليقبضوا علي» (السجين يخضع لسلطة أعلى، يتضاءل إصراره الذي بدأ به أمام سلوك كارلو المتسلط).

كارلو بريسكوت: «في هذه الحالة؛ فقد أثبتّ للتو أن كلامهم لم يأت من فراغ».

٤٣٢٥: «حسنًا، بالتأكيد كانت لديهم أسبابهم للقبض علي».

بدأ بريسكوت بأسئلة عن خلفية السجين وخططه المستقبلية، ولكنه كان متلهفًا لمعرفة المزيد عن جريمته: «أية مؤسسات ترتادها وأية أنشطة تقوم بها في أوقات فراغك جعلتك في مواقف تؤدي إلى اعتقالك؟ هذه تهمة خطيرة.. تعلم أنك قد تقتل شخصًا أثناء التعدي عليه؟ ماذا فعلت تحديدًا؟ هل أطلقت النار أم طعنتهم بسكين أم..؟».

٤٣٢٥: «لست واثقًا سيدي، قال الضابط وليام...»

= السجن تجارة. يحتاج السجن إلى سجناء. من يدخلون إلى السجن ويجمعون شتات تفكيرهم لن يعودوا إلى السجن، هناك العديد من الأشياء التي يمكن أن يفعلوها. لكن من يدخلون بأحكام متعددة.. عندما تقول لهم [باعتبارك لجنة إطلاق سراح مشروط]: «الذي متسع من الوقت للعب» فإنك تقول، بالنتيجة، أنه لا يجب على لجنة إطلاق السراح النظر في أكثر الظروف وضوحًا، والتي هي...».

(١) ما لم نذكر خلاف ذلك، فإن حوارات الحراس والسجناء هذه مأخوذة من تفريغ نصي حرفي للقطات فيديو أخذت أثناء التجربة؛ بما في ذلك جميع الاقتباسات من جلسات لجنة إطلاق السراح المشروط.

بريسكوت: «ماذا فعلت؟ هل أطلقت النار أم طعنتهم أم قمت بتفجيرهم، هل استخدمت إحدى هذه الأسلحة النارية؟»

حاول كريج هاني وأعضاء اللجنة الآخرين تخفيف التوتر بسؤال السجين عن كيفية تأقلمه مع الحياة في السجن.

٤٣٢٥: «حسنًا، أنا انطوائي بطبيعتي.. وقد فكرت في الأمر في أول أيامي في السجن وتوصلت إلى أن أفضل ما أقوم به هو أن أتصرف...».

أمسك بريسكوت بخيط الحوار مرة أخرى: «أجب عن سؤاله، لا نريد الكثير من الهراء الفكري، سألك سؤالاً مباشرًا، الآن أجب عن سؤاله!».

قاطعه كريج بسؤال عن الجوانب التأهيلية للسجن وهو ما أجاب عنه السجين قائلاً: «حسنًا، نعم، لها بعض الإيجابيات، بالتأكيد تعلمت أن أكون مطيعًا، وأن أكون صلبًا نوعًا ما في الأوقات العصيبة، لكن الضباط الإصلاحيين يقومون بعملهم على أكمل وجه».

بريسكوت: «لن تستطيع لجنة الإفراج أن تمسك بيدك في الخارج، قلت أنك تعلمتَ أن تكون مطيعًا إلى حدٍّ ما، تعلمت أن تكون متعاونًا، لكن لن يكون هناك أحد يرعاك في الخارج، ستعتمد على نفسك. أي نوع من المواطنين تعتقد أنك ستكونه وفقًا للتهم الموجهة إليك؟ أنظر في هذه التهم هنا، تبدو قائمة ممتلئة!» بثقة وتحكم تام نظر كارلو في دفتر ورقي فارغ كما لو كان صحيفة سوابق السجين المتخمة بالاتهامات والملحوظات حول نوع وتاريخ الاعتقالات والإفراجات. واصل: «أتدري، أنت تقول أنك قادر على التعايش في الخارج بسبب السلوكيات التي تعلمتها هنا، لكننا لن نستطيع أن نمسك بيدك في الخارج... ما الذي يجعلك تعتقد أنك ستنجح إن خرجت الآن؟»

٤٣٢٥: «وجدت ما أتطلع إليه، سأذهب إلى جامعة كاليفورنيا، إلى بيركلي، وسوف أتخصص، أودّ تجربة الفيزياء، أتطلع قدمًا إلى هذه التجربة».

قاطعه بريسكوت وتحول إلى استجوابه عن معتقداته الدينية ثم عن سبب عدم استفادته من برامج السجن للعلاج الجماعي والعلاج المهني، بدا السجين مشوشًا تمامًا، قال بأنه كان سيشترك في هذه البرامج إذا أتيحت له الفرصة لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. طلب كارلو من كيرت بانكس أن يؤكد له صدق ما قاله السجين لأنه يشك في ذلك. (بالتأكيد، يعرف أننا لا نملك هذه البرامج في تجربتنا، لكن تلك هي الأسئلة التي اعتاد أن يسمعها من أعضاء لجان الإفراج التي مثُل أمامها في الماضي).

بعد أسئلة قليلة أخرى من أعضاء اللجنة طلب بريسكوت من الضابط الإصلاحي أن يعيد السجين إلى زنزانته. وقف السجين وشكر أعضاء اللجنة ثم مدّ ذراعيه تلقائيًا وكفاه متقابلتان ريثما يُحكم الحارس قيده، ثم اقتيد إلى الخارج وقد غُطي رأسه مجددًا،

وجلس في الردهة في صمت والسجين التالي في طريقه إلى لقاء اللجنة.

بعد أن ذهب السجين قال بريسكوت كملاحظة للتسجيل: «حسنًا، هذا الشاب متحدث شديد النعومة...».

ذكرتني ملحوظاتي المكتوبة بأن «السجين ٤٣٢٥ بدا رابط الجأش إلى حدٍّ كبير ومتحكمًا في نفسه، كان أحد سجنائنا المثاليين حتى اللحظة. بدا مشوشًا بسبب استجواب بريسكوت العدواني حول الجريمة التي اعتقل بسببها، ودُفِع بسهولة إلى الإقرار بأنه ربما كان مذنبًا على الرغم من كون جريمته محض خيال، كان طوال جلسة الاستماع مطيعًا ومتفقًا مع كل ما قيل، وهو السلوك الذي ربما ساهم في نجاحه النسبي وصموده داخل السجن».

مثالٌ لامعٌ انطفا

التالي، أعلن كيرت أن السجين ٣٤٠١ جاهز للمثول أمام اللجنة وقرأ تظلّمه بصوت مرتفع:

> «أرغب في أن يُفرج عني لأنني أريد نقل حياتي الجديدة إلى هذا العالم البائس، وأن أُري الأرواح الضائعة أن الصلاح يُكافأ بقلوب دافئة، أن الأثرياء المترفين ليسوا بأغنى من أولئك المعدمين، وأن المجرم العادي يمكن أن يعاد تأهيله في أقل من أسبوع، وأن الله والإيمان والأُخوّة ما زالت تسكننا جميعًا وفي الأعماق منا. أستحق الإفراج لأنني أعتقد أن ليس هناك من مأخذ عليّ طوال مدة إقامتي، لقد تنعّمت بالراحة وأرى أنه من الأفضل أن أرتقي إلى أماكن أعلى وأكثر قدسية، ولأنني نتاج ودود لبيئتنا فبإمكاننا جميعًا أن نطمئن إلى أن إعادة تأهيلي الكاملة عملية مستمرة لن تنقطع. فليباركم الرب.
>
> **المخلص لكم، ٣٤٠١،**
> **تذكروني من فضلكم كمثال لامع».**

توصيات الحراس المضادة أبدت تناقضًا صارخًا

«كان ٣٤٠١ دائم الشغب، ليس هذا فحسب، هو إمّعة فارغ من أي شيء جيد ليطوره ويحاكي الأفعال السيئة بخضوع، أطالب بعدم الإفراج عنه»

توقيع: الحارس أرنيت

«لا أرى سببًا يستحق ٣٤٠١ من أجله الإفراج، ولا يمكنني أن أجد أي صلة بين ٣٤٠١ الذي أعرفه وبين الشخص الموصوف في طلب الإفراج هذا»

توقيع: الحارس ماركوس

«لا يستحق ٣٤٠١ الإفراج وطلبه الهزلي يؤكد ذلك»

توقيع: الحارس جون لاندري

أُدخل السجين ٣٤٠١ بعدها وكانت الحقيبة ما تزال على رأسه، أراد كارلو إزالتها كي يتمكن من رؤية وجه ذلك «المتهور». أصيب هو وبقية أعضاء اللجنة بالدهشة عند اكتشافهم أن ٣٤٠١، جلين (Glen)، هو أمريكي من أصل آسيوي، كان الوحيد غير القوقازي من بين الجميع. كان جلين يتصرف بتمرد ووقاحة خلافًا للمتوقع منه لكنه من الناحية الجسدية كان متوافقًا تمامًا مع الصورة النمطية للآسيويين، قصير القامة، خمسة أقدام وبوصتين، ضئيل الحجم ولكن قوي البنية، لطيف الوجه وأسود الشعر لامعه.

بدأ كريج يسأله عن دوره في تمرّد السجناء الذي بدأ عندما اعتصم زملاؤه في قلب الزنزانة وماذا الذي فعله لإيقاف هذا؟

رد ٣٤٠١ بفظاظة غير متوقعة: «لم أوقف الأمر؛ بل شجعته!»، بعد أسئلة أخرى من بقية أعضاء اللجنة عن هذا الموقف استمر ٣٤٠١ بنبرة ساخرة مختلفة تمامًا عن النبرة واضحة التواضع لـ ٤٣٢٥: «أعتقد أن الغاية من مؤسستنا هي إعادة تأهيل السجناء لا استعداءهم، وقد شعرت أنه ونتيجة لأفعالنا..»

لم يتمكن آمر السجن جافي ـ الجالس في جانب الغرفة لا إلى طاولة اللجنة ـ من مقاومة التدخل: «ربما لست مدركًا للمفهوم الصحيح لإعادة التأهيل، نحن نسعى إلى تدريبك على أن تكون عضوًا منتجًا في المجتمع، لا على تحصين نفسك داخل زنزانة!».

اكتفى بريسكوت من هذا اللف والدوران وأعاد تأكيد دوره كرئيس للجنة: «اثنان على الأقل قالا بأنهما شاهداك تغادر موقع الجريمة». (اختلق هذا وقتها)، ثم واصل كارلو: «أن تتحدى رؤية ثلاثة أشخاص هو بمثابة القول بأن البشرية جمعاء مصابة بالعمى!» ألآن: «هل كتبت أن الرب والإيمان والأخوة ما زالت موجودة بقوة؟ هل من الأخوة أن تستولي على ممتلكات شخص آخر؟».

ثم مضى كارلو ليلعب بورقة العرقية: «قلة قليلة منكم أيها الشرقيون تدخل السجون.. في الحقيقة هم مواطنون صالحون في الغالب.. وأنت كنت مثيرًا للمتاعب باستمرار، وقد سخرت من السجن هنا، تأتي إلينا وتحدثنا عن إعادة التأهيل وكأنما تعتقد أنك من يجدر به أن يدير السجن. تجلس هنا وتقاطع آمر السجن وكأنك تعتقد أن ما تقوله أنت هو أكثر أهمية من أي شيء قد يقوله هو. بصراحة لن أفرج عنك حتى لو كنت آخر سجين، أعتقد أنك الأقل حظًا في الحصول على الإفراج من بين جميع المتقدمين، ما قولك في هذا؟»

قال ٣٤٠١: «هذا رأيك سيدي».

رد كارلو بغضب: «رأيي له قيمة في هذا المكان!».

سأله بريسكوت المزيد من الأسئلة دون أن يمنحه فرصة الإجابة عنها، ثم ختم بإدانة ٣٤٠١ وصرفه: «لا أعتقد أننا في حاجة لمزيد من الوقت الآن، أرى أن سجله وسلوكه في حضرة اللجنة يشيران بوضوح إلى موقفه.. لدينا جدول مواعيد، ولا أرى أي سبب يدعونا لمجرد مناقشة هذا، ما لدينا هنا هو متمرد يجيد كتابة الخطب».

قبل المغادرة قال السجين أن لديه حساسية جلدية قد تتفاقم وأنها تقلقه، سأله بريسكوت ما إذا كان قد عرض نفسه على طبيب أو أبلغ إدارة السجن بمرضه أو أقدم على أي فعل مفيد فيما يخص مشكلته، وعندما أجاب السجين بالنفي؛ ذكّره كارلو بأن هذه لجنة للإفراج المشروط وليست لجنة طبية، ثم قال محولاً الحديث إلى وجهة أخرى: «نحاول إيجاد أي سبب للإفراج عن أي شخص يأتي إلى هنا، وبمجرد أن تدخل هذا السجن يغدو أمر حفاظك على سِجلٍ وسلوكٍ نرى من خلالهما أنك ستضيف شيئًا ما إلى المجتمع أمرًا راجعًا إليك... أريدك أن تنظر في بعض ما كتبت بجدية، أنت رجل ذكي وتجيد اللغة إلى حدٍّ كبير، أعتقد أنك قادر على تغيير نفسك، أجل، ربما تحوز فرصة تغيير نفسك في المستقبل».

تحول كارلو إلى الحارس وأشار له بأخذ السجين، رفع الفتى الذي بدأ يشعر ببعض الندم ذراعيه ببطء أثناء وضع الأصفاد ثم خرج، ربما أدرك أن سلوكه الفظ قد كلّفه الكثير، وأنه لم يكن على مستوى جدية هذا الحدث وصرامة هذه اللجنة.

تشير ملحوظاتي إلى أن السجين ٣٤٠١ يملك شخصية أكثر تركيبًا مما ظهر عليه في البداية، فقد كشف عن مزيج مثير من السمات، كان في الغالب جادًّا ومهذبًا في تعامله مع الحراس في السجن، لكنه كتب في هذا الموقف خطابًا ساخرًا لطلب الإفراج، وأشار إلى إعادة تأهيل غير موجودة، كما تحدث عن روحانياته، ثم زعم أنه نموذج للسجين المثالي. لم يبدُ أن الحراس يحبونه كما اتضح من توصياتهم بعدم الإفراج عنه، كان خطابه لطلب الإفراج على الجهة المقابلة تمامًا من سلوكه، سلوك الشاب الذي كان ماثلاً أمامنا في الغرفة مهزوزًا بل وخائفًا من جدّة التجربة. «لا مزاح هنا»، اللجنة وبالأخص بريسكوت، حاصرته بقوة ولم يحسن التعامل مع الهجوم بفاعلية، ومع استمرار جلسة الاستماع أصبح أكثر انهزامية وأقل استجابة، أتساءل إن كان سيصمد لأسبوعين كاملين.

متمرد يلين

التالي هو السجين ريتش ١٠٣٧، الذي كانت أمه قلقة عليه بشدة ليلة البارحة حين زارته ورأت هيئته المزرية، هو الشخص ذاته الذي حبس نفسه في الزنزانة (٢) هذا

الصباح، وهو زائرٌ معتادٌ للحفرة أيضًا. بدا تظلم ١٠٣٧ مثيرًا للاهتمام لكنه فقد الكثير من تأثيره حين قُرئ بسرعة وبنبرة جامدة من قبل كيرت بانكس:

«أرغب في طلب الإفراج حتى أقضي آخر لحظات سنوات مراهقتي مع أصدقائي القدامى، سأتم عامي العشرين صباح يوم الاثنين. أعتقد أن فريق العمل الإصلاحي أقنعني بالكثير من نقاط ضعفي. تمردت يوم الاثنين ظانًا أنني أُظلم، لكن أدركت أخيرًا ذلك المساء أنني لا أستحق معاملة أفضل، منذ ذلك الوقت بذلت ما في وسعي لأكون متعاونًا، والآن أعرف أن كل عضو من أعضاء الفريق الإصلاحي مهتم فقط بما هو في صالحي أنا وبقية السجناء، وعلى الرغم من ازدرائي الكبير لفريق السجن ولتطلعاتهم؛ فهم يعاملونني بطريقة جيدة. أحترم بشدة قدرتهم على إدارة الخَدّ الآخر[1]، وأؤمن أن إعادة تأهيلي وتحويلي إلى إنسان أفضل كان بسبب صلاحهم.

المخلص١٠٣٧».

قدّم ثلاثة حراس توصية جماعية قرأها كيرت بصوت مرتفع:

«صحيح أن ١٠٣٧ بدأ في تحسين سلوكه بعد تجاوزه مرحلة التمرد؛ لكنني أعتقد أن ما زال لديه القليل ليعمل على تطويره قبل عرضه على الحياة العامة كشخص أعيد تأهيله تحت إشرافنا. أتفق مع تقدير الضباط الآخرين للسجين ١٠٣٧، وأتفق أيضًا مع ١٠٣٧ في كونه قد قطع شوطًا جيدًا في التحسن لكنه لم يصل بعد إلى المستوى المطلوب وما زال أمامه طريق ليقطعه قبل الإفراج عنه، وهو يتحسن. لا أوصي بالإفراج عنه».

عندما دخل رينش ١٠٣٧ إلى الغرفة كشف عن مزيج من حيوية الشباب وبدايات اكتئاب. تحدث على الفور عن عيد ميلاده الذي كان السبب الوحيد الذي قدمه لطلب الإفراج، يبدو أنه حدث شديد الأهمية بالنسبة له وقد نسي أمره تمامًا عندما قام بالتسجيل في البداية. يرتبك تمامًا عندما يسأله آمر السجن سؤالاً لا يتمكن من الإجابة عنه دون أن يتورط في المتاعب أو يتراجع عن السبب الذي برر به طلب ترك المكان: «ألا تعتقد أن سجننا يستطيع أن يقدم لك حفل عيد ميلاد؟».

استغل بريسكوت الفرصة: «لقد كنت بين أفراد المجتمع لفترة، حتى في هذا السن. ـنت تعرف القوانين وبالتأكيد تعرف أن السجون مخصصة لمن يتجاوزون القوانين، وقد ـضربت بكل هذا عرض الحائط بإقدامك على ما فعلت. بُنَيّ، أعرف أنك تتغير، هذا

---

[1] إشارة إلى النص المسيحي من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضًا. (المترجم).

موضح هنا، وأعتقد شخصيًّا أنك قد تحسنت بالفعل، لكن هنا، وبخط يدك: «وعلى الرغم من ازدرائي الكبير لفريق السجن ولتطلعاتهم». ازدرائي الكبير! لا يمكنك أن تزدري الآخرين أو تزدري ممتلكاتهم، ما الذي قد يحدث حال ازدراء الجميع في هذه الأمة ممتلكات الآخرين؟ ربما قتلت أحدهم إذا شعرت بالخوف».

بينما كارلو مستمر في التظاهر بمراجعة سجل السجين في الكراسة التي ما زالت فارغة؛ إذ به يتوقف عند نقطة مهمة: «مكتوب في تقرير اعتقالك أنك «مشاكس» وأنهم اضطروا لإخضاعك بالقوة، وكان هناك احتمال في أن تتسبَّبَ في الأذى أو أسوأ من ذلك لبعض الضباط الذين قاموا باعتقالك، أنا منْبهر بتطورك، وأعتقد أنك بدأت تُدرِك أن سلوكك كان غير ناضج ومجرد من أي اعتبار أو اكتراث بالآخرين، الناس بالنسبة لك هم مجرد أدوات في حين تجعلهم يظنون أنهم غايات. لقد تلاعبت بالناس! يبدو أنك تلاعبت بالناس طوال حياتك، كل تقاريرك تتحدث عن لامبالاتك بالنظام والقانون، هناك أوقات لا يبدو فيها أنك متحكم في سلوكياتك. ما الذي يجعلك تظن أنك ستكون مرشحًا جيدًا للإفراج؟ ماذا بإمكانك أن تخبرنا؟ نحن نحاول مساعدتك».

السجين ١٠٣٧ غير مستعد لهذا الهجوم على شخصه، غمغم بتفسيرات غير مترابطة عن كونه قادرًا على «الابتعاد» عن موقف يمكن أن يدفعه للتصرف بعنف، وواصل قائلاً بأن تجربة السجن هذه ساعدته: «حسنًا، لقد رأيت كيفية تعامل أشخاص مختلفين مع مواقف متنوعة وكيفية تصرفهم باحترام تجاه الآخرين من خلال الحديث مع عدد من زملاء الزنزانة، ومتابعة ردود أفعالهم على الموقف الواحد، والنوبات الثلاثة المختلفة للحراس، لاحظت أن ثمة اختلافات طفيفة بين الحراس في المواقف ذاتها».

ثم بصورة مثيرة للفضول؛ بدأ ١٠٣٧ الحديث عن «نقاط ضعفه»، عن دوره كعنصر نشط في تمرد السجناء يوم الاثنين تحديدًا، لقد أصبح تام الإذعان ويلوم نفسه على تحدي الحراس ولم ينتقدهم ولو مرة واحدة على سلوكهم المسيء ومضايقاتهم التي لا تنتهي. (كان أمامي نموذج مثالي عن التحكم في العقول، كان الأمر شبيهًا تمامًا باعتراف الأسرى الأمريكيين علانية باستخدام الأسلحة الجرثومية في الحرب الكورية وبارتكابهم جرائم أخرى في حق من أسرهم من الصينيين الشيوعيين).

على نحو غير متوقع قاطع بريسكوت هذا الكلام عن نقاط ضعف السجين ليسأل بثقة: «هل تتعاطى المخدرات؟»

قال ١٠٣٧: «لا»، ثم سمح له بأن يكمل مع الاعتذار عن مقاطعته ليعود ويقاطعه مرة أخرى، لاحظ بريسكوت كدمة زرقاء مسودّة على ذراع السجين وسأل عما تسبب في مثل هذه الكدمة الكبيرة، وعلى الرغم من كونها نتيجةً لواحدة أو أكثر من المشاجرات بينه

وبين أحد الحراس؛ أنكر السجين دور الحارس في تقييده وجرّه إلى الحبس الانفرادي قائلاً أن الحارس كان معه كألطف ما يكون، لكنه هو من تسبّب لنفسه في مثل هذه الكدمة باستمراره في عصيان الأوامر.

أعجب كارلو بسياسة «إنه خطئي» وقال «استمر في العمل الجيد، أتسمعني؟»

قال ١٠٣٧ أنه سيقبل الإفراج عنه حتى إن كلفه ذلك التنازل عن مرتبه. (هذا كثير، أن يبذل كل هذا الذي بذله ليخرج بعد كل ذلك بلا شيء!). طوال الجلسة كان يجيب عن أسئلة اللجنة باقتدار، لكن اكتئابه سيطر عليه وفقًا لما ذكره بريسكوت في تعليقه بعد الجلسة، لقد رصدت والدته حالته العقلية مباشرة عند زيارتها له كما في شكواها لي عندما جاءت إلى مكتب رئيس السجن، بدا الأمر كما لو أنه يرغب في الاستمرار قدر ما يمكنه ليثبت رجولته، ربما أمام والده، قدم لنا إجابات لافتة عن أسئلتنا حول ما استفاده من تجربة السجن، لكن أغلبها كان سطحيًا وقد اصطُنع لاسترضاء اللجنة.

الفتى الوسيم يتعرض للسحق

الأخير كان السجين الفتي الوسيم هابي ٧٢٥٨، الذي قرأ كيرت تظلمه بشيء من السخرية:

«أول سبب يجعلني أطلب الإفراج هو أن حبيبتي ستذهب في عطلة قريبًا وأرغب في قضاء بعض الوقت معها قبل أن تغادر؛ لأنها ستعود في الوقت الذي سأغادر فيه أنا للجامعة، إذا عُدت بعد إمضاء أسبوعين كاملين هنا فلن يُقدّر لي أن أراها لأكثر من نصف ساعة، كما أننا لن نتمكن من تبادل الحديث وتوديع بعضنا بأريحية هنا بسبب ملازمة الحراس لنا. سبب آخر هو أنكم رأيتم كيف أتصرّف وأنا أعرف يقينًا أنني لن أتغيّر، بالتغيير أعني خرق أي من القوانين الموضوعة لنا نحن السجناء، لذلك فإن إخراجي من هنا سيوفر عليّ الوقت ويوفر عليكم نفقاتكم. صحيح أنني حاولت الهروب مع زميلي السابق ٨٦١٢ لكن منذ ذلك الوقت وأثناء مكثي في زنزانتي الفارغة مجردًا من ملابسي علمت أنني يجب ألا أعارض الضباط الإصلاحيين، فمن وقتها وأنا ملتزم تمامًا بالقواعد جميعها، ستلاحظون أيضًا أنني في أفضل زنزانة في السجن».

مرة أخرى تتعارض توصيات الحارس أرنيت مع خطاب السجين: «٧٢٥٨ هو شاب متمرد حصيف»، كان هذا مجمل تقدير الحارس أرنيت الذي أعقبه باتهام ساخر: «يجب أن يبقى هنا حتى تنتهي مدة عقوبته أو حتى يتعفن، أيهما أبعد».

أما الحارس ماركوس فهو أقل تعنتًا: «أحب ٧٢٥٨ فهو سجين جيد، لكن لا أشعر

أنه يستحق الإفراج أكثر من بقية السجناء، وأنا واثق من أن تجربة السجن سيكون لها أثر صحي على شخصيته الجامحة».

كتب الحارس جون لاندري: «أحب ٧٢٥٨ أيضًا بقدر حبي للسجين ٨٦١٢ [دافيد جاسوستا]، لكن لا أعتقد أنه يجب أن يفرج عنه، لن أبالغ كما فعل أرنيت، لكن لا يجب أن يفرج عنه».

بمجرد رفع الحقيبة من على رأس السجين ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة كانت كافية لاستفزاز كارلو ليهاجمه بعنف.

«هذا الأمر برمته مضحك بالنسبة لك، أنت «المتمرد الحصيف»، تمامًا كما وصفك تقرير الحارس. هل أنت من نوعية الأشخاص الذين لا يهتمون بحياتهم؟»

وما إن حاول السجين الإجابة عن السؤال حتى حوّل بريسكوت مسار الحوار ليسأله عن تعليمه: «أخطط لبدء دراستي الجامعية في جامعة أوريجون». تحول بريسكوت إلى أعضاء اللجنة الآخرين: «هذا رأيي، أتدرون، التعليم هو خسارة بالنسبة للبعض، بعض الناس لا يجب أن يُلزموا بالتعليم الجامعي، ربما سيسعدون أكثر لو عملوا ميكانيكيين أو باعة في صيدلية»، ملوحًا بيده باحتقار في وجه السجين: «حسنًا، دعونا نواصل، ما الذي فعلته لتأتي إلى هنا؟».

«لم أفعل أي شيء سيدي، سجلت نفسي في تجربة».

هددت تلك الواقعية بخلخلة الإجراءات، لكن ليس مع ربّان مثل بريسكوت: «حسنًا أيها الشاب الحصيف، تعتقد أنك في تجربة؟»، عاد وأمسك بدفة القيادة مدعيًا قراءة ملف السجين، ثم قرأ بريسكوت وكأنها حقيقة: «لقد ارتكبت جريمة سرقة».

ثم التفت بريسكوت ناحية كيرت بانكس ليسأله عن طبيعة السرقة أكانت من الدرجة الأولى أم الثانية؛ فأومأ كيرت «الأولى».

«الأولى، هاه، هذا ما حسبته». حان وقت تعليم هذا المتمرد الصغير بعض دروس الحياة بدءًا بتذكيره بمصير السجناء الذين يلقى القبض عليهم أثناء محاولتهم الهرب. «أنت في الثامنة عشرة من عمرك، وانظر إلى ما فعلته بحياتك! تجلس أمامنا لتقول أنك مستعد للتخلي عن أجرك مقابل الخروج من السجن. حيثما نظرت في هذا التقرير أرى الشيء ذاته، «شاب حصيف»، «متحذلق»، «مقاوم لأية صورة من صور السلطة!» ما الذي أفسدك؟».

بعد سؤاله عن عمل والديه وخلفيته الدينية وما إن كان منتظمًا في الكنيسة أم لا؛ غضب بريسكوت من تصريح السجين بأنه لا ينتمي لطائفة ورد عليه: «أمر بهذه الأهمية لم تتخذ فيه قرارًا بعد؟».

وقف بريسكوت الغاضب واندفع خارجًا من الغرفة لبضعة دقائق قام أعضاء اللجنة خلالها بسؤال السجين أسئلة عادية عما بنوي فعله في الأسبوع التالي حال عدم حصوله على الإفراج.

التنازل عن الأجر مقابل الحرية

هذه الهدنة وسط تلك الإجراءات المتوترة كانت كافية لأتبين أهمية تأكيد السجين ١٠٣٧ على قبوله بالتنازل عن أجره مقابل الحصول على الإفراج، نريد أن نصوغ هذا كسؤال حاسم نهائي يعرض على كل سجين. قلت لكارلو أن يسألهم: «هل تقبلون التنازل عن مستحقاتكم المالية التي جنيتموها كسجناء إذا أفرجنا عنكم؟».

في البدء وضع كارلو صيغة أكثر حدة للسؤال: «كم من المال قد تدفعون لنا لتخرجوا من هنا؟»، قال السجين ٧٢٥٨ بشيء من الاضطراب أنه لن يدفع أية أموال ليطلق سراحه. أعاد كارلو صياغة السؤال وسأله ما إذا كان مستعدًا للتنازل عن مستحقاته المالية التي اكتسبها حتى الآن، «نعم، بالتأكيد يا سيدي، سأقبل بهذا».

لم يبدُ السجين ٧٢٥٨ كشخص ألمعي أو واعٍ لذاته، ولم يبد عليه أيضًا أنه يأخذ الموقف بأكمله على محمل الجدّ كباقي السجناء، هو الأصغر سنًّا، بالكاد أتمّ عامه الثامن عشر، كما يفتقر إلى النضج في سلوكياته وإجاباته إلى حدٍّ كبير، لكن ضعف صلته بما يجري حوله وحس الدعابة الذي يتحلى به سينفعانه في التعامل مع ما هو مخبّأ له ولرفاقه الأسبوع المقبل.

بعد ذلك سيعود كل سجين إلى غرفة اللجنة ليجيب عن السؤال الأخير نفسه حول التنازل عن الأجر مقابل الإفراج. قال المتمرد ١٠٣٧ صاحب عيد الميلاد أنه يقبل بالتنازل عن الأجر إذا ما أفرج عنه، وأجاب المتعاون ٤٣٢٥ بالإجابة ذاتها، السجين ٣٤٠١ الآسيوي الأمريكي الجريء لا يريد الإفراج إذا عنى ذلك التنازل عن أجره؛ لأنه يحتاج المال بالفعل.

بكلمات أخرى، ثلاثة من هؤلاء الفتية الأربعة يريدون الخروج بشدة إلى حد التنازل عن الأموال التي جنوها مقابل عمل بالغ الصعوبة بوصفهم سجناء على مدار اليوم. ما لفت انتباهي هو قوة الأسلوب البلاغي الذي صيغ به السؤال؛ فلنتذكر أن الدافع الأول لجميع المتطوعين في التجربة تقريبًا كان دافعًا ماليًّا؛ أي: فرصة الحصول على خمسة عشر دولارًا في اليوم لمدة أسبوعين في وقت لا يملكون فيه أية مصادر أخرى للدخل قبل بدأ الفصل الدراسي الخريفي، لكن الآن وبعد كل هذه المعاناة بوصفهم سجناء وعلى الرغم من الاعتداءات الجسدية والنفسية التي تحمّلوها وعمليات الإحصاء التي لا تنتهي وإيقاظهم

منتصف الليل، وتعسف بعض الحراس وممارساتهم الشريرة المبتكرة، وافتقاد الخصوصية، والوقت الذي قضوه في العزلة، والتعرية، والسلاسل، ورؤوسهم المغطاة بالحقائب الورقية، والطعام السيئ والأسرّة غير المجهزة كما ينبغي؛ على الرغم من ذلك كله تجد أغلبهم مستعدين لترك المكان بدون الحصول على المال ليخرجوا من هذا المكان.

وما يشدّ الانتباه بشكل أكبر هو أن السُجناء أنفسهم الذين قالوا بأن الحصول على الأموال أقل أهمية من الحصول على حريتهم؛ سلّموا أنفسهم بخضوع تام ومدّوا أيادبهم لتوضع في القيد واستسلموا لتغطية رؤوسهم بحقائب التسوق الورقية، وقبلوا بوضع الأغلال في أقدامهم وتبعوا الحارس كقطيع من الغنم عائدين إلى قبو السجن البغيض. خلال جلسة الاستماع كانوا خارج السجن وفي حضرة بعض المدنيين ممن لم تكن لهم علاقة مباشرة بالقائمين على تعذيبهم في الأسفل، لماذا لم يقل واحد منهم: «بما إنني لست في حاجة إلى أموالكم فلديّ حقّ مغادرة التجربة وأطالب بإطلاق سراحي الآن». كنا سنضطر لتنفيذ هذا الطلب والإفراج عنهم في لحظتها لكن لم يفعل ذلك أي منهم؛ بل لم نجد بعد انتهاء التجربة سجينًا قال أنه فكّر مجرد تفكير أن بإمكانه عدم مواصلة التجربة، والسبب في هذا هو أنهم جميعًا ما عادوا يفكرون في الأمر على أنه مجرد تجربة؛ بل شعروا بأنهم محتجزين في سجن يديره علماء نفس، لا الولاية كما قال لنا ٤١٦. ما قبلوا القيام به هو التنازل عن مستحقات تأديتهم دور السجناء إذا ما «اخترنا نحن» الإفراج عنهم. كانت سلطة الإفراج أو الحبس في يد لجنة الإفراج المشروط فقط، وليست في أيديهم هم باتخاذهم القرار بالتوقف عن كونهم سجناء. لو كانوا سجناء فعليًا لكان حق إطلاق سراحهم في يد لجنة الإفراج المشروط فحسب، أما إن كانوا (وهو ما كانوا عليه بالفعل) مجرد موضوع لتجربة ما؛ فلهم حق التوقف عن المواصلة في أي وقت. أصبح واضحًا أن ثمة تحوّلاً ذهنيًا قد طرأ عليهم، تحوّل من «أنا متطوع في تجربة أتقاضى أجرًا ولي حقوق مدنية كاملة» إلى «الآن أنا سجين يائس تحت رحمة سُلطة ظالمة».

أثناء تحليل الجلسات ناقشت اللجنة الحالات الفردية وردود الفعل العامة لهذه المجموعة الأولى من السجناء، كان هناك إجماع على أن جميع السجناء بدوا متوترين ومنفعلين ومستغرقين تمامًا في أدوارهم كسجناء.

بشيء من الحساسية أطلعنا بريسكوت على قلقه بخصوص السجين ١٠٣٧، لقد لمس بدقة اكتئابًا يضرب عميقًا هذا الفتى الذي كان مرةً زعيم تمرد لا يهاب شيئًا: «إنه مجرد شعور يقتحم نفسك بسبب الحياة مع أناس يقفزون من شرفات السجون ليلقوا حتفهم أو يقطعون أوردتهم. ها هنا شاب متماسك بما يكفي ليعرفنا بنفسه، لكن كانت هناك فجوات بين إجاباته، ثم آخر شاب دخل علينا كان متماسكًا ومُدركًا لما يحدث حوله، ما زال

يتحدث عن «تجربة»، لكنه في الوقت نفسه مستعد للجلوس والتحدث عن والده، مستعد للتحدث عن مشاعره، بدا مصطنعًا بالنسبة لي، وأنا أعتمد على إحساسي الداخلي فحسب، أما السجين الثاني الشرقي [الأمريكي من أصل آسيوي]؛ فصخرة، كان بالنسبة لي مثل صخرة».

في المجمل؛ قدّم بريسكوت النصيحة التالية: «أنضم لبقية المجموعة وأقترح أن نطلق سراح اثنين من السجناء في أوقات مختلفة، بهذا سنجعل البقية يفكرون فيما يتوجب عليهم فعله للحصول على الإفراج. كما أن إطلاق سراح بعض السجناء مبكرًا قد يعطي شيئًا من الأمل للبقية، ويحررهم شيئًا ما من شعورهم باليأس».

أجمعت اللجنة على الإفراج عن الفتى الضخم جيم ٤٣٢٥ أولاً ثم رقم ثلاثة، ريتش ١٠٣٧ لاحقًا، وربما استبدال سجينين احتياطيين بهما، لكن هناك تشوّش حيال الإفراج عن ٣٤٠١ أو ٧٢٥٨ بعد ذلك أو الإبقاء عليهما.

ما الذي شهدناه هنا؟

ثلاثة مواضيع رئيسية خرجنا بها من أولى جلسات استماع لجنة الإفراج، **أولاً**: بدأ الحد الفاصل بين التجربة وبين الواقع ينطمس، **ثانيًا**: ازدياد خضوع السجناء وجديّتهم في تأدية الدور بسبب التسلُّط المتزايد للحراس، وأخيرًا، هناك تحولات طرأت على شخصية رئيس لجنة الإفراج كارلو بريسكوت ظهرت أثناء حديثه إلى السجناء.

• طمس الحد الفاصل بين التجربة والواقع:

لو شاهَدَتْ مجموعةٌ غير متحيّزة جلسة الاستماع هذه دون معرفة بما سبقها من أحداث؛ فستعتقد أنها تشاهد جلسة استماع حقيقية للجنة إفراج مشروط في سجن محلي. ظهَرَت قوة وواقعية العلاقة الجدلية بين المسجونين وبين حُماة المجتمع بطرق كثيرة من بينها الجدية العامة للموقف والصبغة الرسمية لطلبات الإفراج التي قدّمها السجناء، والتحديات التي واجهتهم ممثلة في اعتراض الحراس على طلبات الإفراج والتوليفة المتنوعة لأعضاء اللجنة وطبيعة الأسئلة الشخصية والاتهامات التي وجّهت للسجناء، نتحدث باختصار عن الطبيعة الصارمة والفعالة للإجراءات. أساس هذا الحوار كان واضحًا في أسئلة اللجنة وإجابات السجناء المتعلقة «بالتُّهم السابقة» والأنشطة التأهيلية بحضور الدروس أو المشاركة في العلاج أو التدريب المهني والحصول على تمثيل قانوني، وبمسار المحاكمة وخططهم المستقبلة للتحول إلى مواطنين صالحين.

يصعب حال شهودك جلسة الاستماع هذه أن تتخيّل أن هؤلاء السجناء لم يقضوا في

السجن إلا أربعة أيام فقط، أو أن تتخيّل أن المدة المتبقية لهم كسجناء هي أسبوع واحد فحسب، لا أنها تمتد شهورًا أو سنوات كما يُفهم من طريقة لجنة الإفراج المشروط المزيفة في إصدار أحكامها عليهم، لقد تحوّل أداء الدور إلى التماهي مع الدور، وتلبس الممثلون شخصيات وهويات أدوارهم التخيلية.

- **خضوع السجناء وجديّتهم:**

إلى هذه اللحظة وحتى أغلب الوقت المتبقي انغمس السجناء كرهًا ولكن بامتثال كامل في النهاية في أدوارهم المرسومة بعناية في سجننا، أصبحوا يشيرون إلى أنفسهم بأرقام التعريف ويجيبون مباشرة عن أي سؤال يوجه إلى هوياتهم الرقمية. يجيبون عن أسخف الأسئلة بجدية تامة، مثل الأسئلة عن طبيعة الجرائم التي ارتكبوها والجهود التي بذلوها في سبيل إعادة التأهيل. أصبحوا، مع استثناءات قليلة، خاضعين تمامًا لسلطة لجنة الإفراج المشروط وكذلك لسيطرة الضباط الإصلاحيين والنظام بشكل عام. وحده السجين ٧٢٥٨ من امتلك من الجرأة ما يكفي ليشير إلى سبب وجوده هنا بأنه تطوع «التجربة»، لكن سرعان ما رجع عن هذا التأكيد تحت وطأة هجوم بريسكوت اللفظي.

الأسلوب التهكمي الذي كتبت به بعض طلبات الإفراج لا سيما خطاب السجين ٣٤٠١، الطالب الأمريكي من أصل آسيوي، تسبب في حكم سلبي من اللجنة يقضي بأن سلوكه غير المقبول لن يضمن له إخلاء سبيله. بدا أن أغلب السجناء قبلوا بمقدمات الوضع، ما عادوا يعترضون أو يتمردون على ما يقال لهم أو يؤمرون به كما هو الحال في التمثيل المنهجي[1] حيث يواصل الممثلون أداء الدور حتى وهم بعيدون عن خشبة المسرح أو الكاميرا، بحيث يؤدي الدور في النهاية إلى تآكل هوياتهم الحقيقية. بالتأكيد سينزعج المجادلون عن القول بفطرية الكرامة الإنسانية عندما يرون خنوع السجناء المتمردين سابقًا، أبطال الانتفاضة، الذين تضاءلوا ليصبحوا الآن متسولين، لم يخرج أي بطل من هذا الجمع.

كان علينا أن نفرج عن السجين الآسيوي الأمريكي المشاكس جلين ٣٤٠١ بعد ساعات قليلة من تجربته العصيبة مع لجنة الإفراج المشروط عندما انتشر على جسده طفح جلدي كامل. وفّرت له الخدمات الطبية للطلبة العلاج الملائم ثم أرسل إلى منزله ليستشير طبيبه الخاص. كان الطفح الجلدي هو طريقة جسده الخاصة للحصول على إطلاق سراح كما كان الحال مع انهيار داج ٨٦١٢ العاطفي.

(١) (Method Acting) التمثيل المنهجي: وهو فن التمثيل الذي يعتمد فيه الممثل على استحضار شخصيته مع الشخصية التي يؤديها بحيث لو أدى خمسة ممثلين نفس الدور فمن المتوقع أن يؤدوه بخمس طرق مختلفة، بينما كانت الأدوار في الماضي تُؤدى بطريقة واحدة، وهذه هي الطريقة التقليدية في التمثيل. (المترجم).

- **التحول الدرامي لرئيس لجنة الإفراج المشروط:**

لقد عرفتُ كارلو بريسكوت لأكثر من ثلاثة أشهر قبل هذا الحدث وتعاملت معه شبه يوميًا سواء أوجهًا لوجه أو عبر الهاتف في مكالماتنا المطوّلة، وقد درّسنا معًا مساقًا امتد ستة أسابيع عن علم نفس السجن، لطالما رأيته فصيحًا ومنتقدًا قاسيًا لنظام السجون والذي حَكَم عليه بأنه أداة فاشية لقمع ذوي البشرة الملونة. كان على دراية تامة بالطرق التي تغير بها السجون والأنظمة السلطوية الأخرى أولئك الواقعين في قبضتها، سجناء وسجانين. كان كارلو في برنامجه على محطة (KGO) الإذاعيّة المحلية مساء السبت يجعل مستمعيه مدركين لفشل تلك المؤسسة المُهْمَلَة المُكلفة التي تُهدر أموالهم على الاستمرار في دعمها.

أخبرني عن الكوابيس المزعجة التي كان يراها قبل جلسات استماع لجان الإفراج السنوية التي يحصل فيها السجين على دقائق قليلة يعرض فيها تظلمه على عدد من الأعضاء الذين لا يبدو عليهم أي اهتمام بما يقول لأنهم مشغولون بتفحُّص الملفات التي بين أيديهم أثناء عرض السجين لتظلمه، تلك الملفات ربما لا تخصه من الأساس لكنها تخص السجين التالي في الصف وقراءتها الآن ستوفر عليهم بعض الوقت لاحقًا، وإذا سُئِلت عن تهمتك أو عن أي شيء سلبي في صحيفة سوابقك فستعرف مباشرة أن الإفراج سيؤجل لسنة أخرى على الأقل لأن الدفاع عن الماضي يحرمك من التطلع إلى أي شيء إيجابي في المستقبل. أنار كارلو بصيرتي حيال ذلك الغضب العارم الذي يتولد داخل أغلب السجناء الذين يحرمون من الإفراج لسنة إضافية بسبب تلك اللامبالاة المتعسّفة، كما كان الحال معه هو نفسه[1].

---

(١) حضرت عددا من جلسات استماع لجان إطلاق السراح المشروط في سجن فاكافيل (*Vacaville Prison*) كجزء من مشروع المدعي العام برئاسة مكاتب القانون بسان فرنسيسكو التابعة لسيدني ولينسكي (*Sidney Wollinsky*). صُمم المشروع لتقييم عمل لجان إطلاق السراح فيما يخص نظام الأحكام غير المحددة والذي تنوزع فيه لاحقًا في هيئة كاليفورنيا الإصلاحية (*California Department of Corrections*). بإمكان القضاة في هذا النظام إصدار أحكام بمدة عقوبة غير محددة لتهمة معينة كأن يقال «من خمس إلى عشرة سنوات» بدلاً من إصدار حكم محدد، فينتهي الأمر بالسجناء إلى قضاء الحد الأقصى من المدة في الغالب، لا متوسط المدة.

كان محزنًا لي أن أرى كل سجين وهو يحاول بائسًا أن يقنع اللجنة المكونة من رجلين باستحقاقه لإطلاق السراح المشروط، يفعل هذا في دقائق قليلة سمح له بها لتقديم التماسه. أحد أعضاء اللجنة لم يكن يعير السجين أي اهتمام لأنه كان يقرأ ملف السجين التالي في الصف الطويل الذي ينبغي تولي أمره كل يوم، والآخر كان يحدق في ملفه ربما للمرة الأولى. إذا رُفض الالتماس، كما يحدث في الغالب، يتعين على السجين انتظار عام آخر حتى يعود ليمثل أمام اللجنة. أشارت ملحوظاتي إلى أن المحدد الأهم لاحتمالية إطلاق السراح هي الإطار الزمني الذي يعود إليه السؤال الافتتاحي، فإن كان عن ماضي السجين، تفاصيل عن جرائمه وضحاياه، محاكمته، أو أية مشاكل في منظومة السجن؛ فلن يحصل على إطلاق سراح، لكن إذا سئل عما يقوم به الآن من أنشطة بناءة ليحصل على إطلاق سراح مبكر أو عن مخططاته المستقبلية بعد إطلاق =

لكن ما هي الدروس الأكثر عمقًا التي يجب تعلُّمها من هذه المواقف؟ احترم السُلطة، اكره الضعف، سيطر ولا تفاوض، كن أول من يضرب عندما يديرون الخد الآخر، قواعد النجاح تسري عليهم لا علينا، السلطة تحكم، القواعد هي السلطة.

تلك أيضًا هي الدروس التي تعلّمها أبناءٌ من آباء سيئين، تحوّل نصفهم إلى آباء سيئين كذلك يؤذون أولادهم وزوجاتهم ووالديهم، ربما يرى نصف هؤلاء أنفسهم من فئة المعتدين ويمارسون العنف، في حين يرى الآخرون أنفسهم من فئة المُعتدى عليهم ويرفضون العُنف من باب التعاطُف مع أولئك الذين تعرضوا للظلم والعدوان، لكن الأبحاث في مجال علم النفس لا تعيننا على التنبؤ بأي الأولاد سيصبح فيما بعد في فئام المعتدين ومن سيتحول إلى رحيم عطوف عندما يكبُر.

- **فاصل قصير لاستعراض القوة بلا شفقة:**

ذكّرني هذا بالعرض الذي نفّذته المعلمة جين إليوت التي تعمل بإحدى المدارس الابتدائية. علّمت هذه المعلمة تلاميذها إصدار الأحكام المسبقة والتحيّز عن طريق الربط غير المنطقي بين لون العين والمستوى العالي أو المتدني، عندما حصل أصحاب العيون الزرقاء على امتياز المكانة الأعلى تبنوا على الفور دورًا تسلطيًا على زملائهم من أصحاب العيون البُنّية وبدؤوا يعتدون عليهم لفظيًا وجسديًا، أضف إلى هذا أن مكانتهم الجديدة المكتسبة أدت إلى الرفع من قدراتهم المعرفية؛ فعندما أصبحوا في القمة تحسَّن أداؤهم الدراسي في الحساب والهجاء (وفقًا للبيانات الإحصائية التي سجلتْها والسيدة إليوت في البيانات الأصلية للفصل)، كما تدهور أداء أصحاب العيون البنية «الأدنى مكانة» في الاختبارات بدرجة كبيرة، لكن أهم ما في هذا الذي نَفَّذَتْهُ مع أطفال الصف الثالث هؤلاء من مدرسة (Riceville) بولاية أيوا؛ هو انقلاب الوضع الذي أحدثته المعلمة في اليوم التالي. أخبرت السيدة إليوت الفصل بأنها أخطأت، وأن العكس هو الصحيح، وأصحاب العيون البنية أفضل من أصحاب العيون الزرقاء في حقيقة الأمر، وهنا جاءت الفرصة ليظهر أصحابُ العيون البنية الذين شعروا بالأثر السلبي للتحيز الذي مورس ضدهم بالأمس تعاطفَهم مع أولئك وقد صاروا الآن في القمة، وانعكست نتائج الاختبارات الجديدة فكان الأداء المتفوق لأصحاب الامتياز الجديد والأداء المتدني لمن حرموا منه، لكن ماذا عن

= السراح؛ تزداد احتمالية الإفراج عنه. من الممكن أن يكون ضابط اللجنة قد قرر مسبقًا ثم صاغ بناء على ذلك سؤاله لا شعوريًا ليحصل على أدلة أكبر عن سبب عدم استحقاق السجين لإطلاق السراح عندما يركز أكثر على جرائمه في الماضي. أما إن رأى بعض الإيجابية في ملفه فإن التركيز على المستقبل سيمنح السجين دقائق قليلة إضافية ليسهب في الحديث عن إمكانياته التي تدعو للتفاؤل.

درس التعاطف؟ هل فهمت الطبقة الصاعدة الجديدة من ذوي العيون البنية معاناة المضطهدين والأقل حظًا الذين هم في المكانة الأدنى التي اختبروها بأنفسهم قبل يوم؟

لم تتأخر الإجابة! قدّم أصحاب العيون البنية الكأس التي سبق وقُدّمت لهم، اضطهدوا وآذوا أصحاب العيون الزرقاء بالمثل[1]، يمتلئ التاريخ بأمثلة عديدة تخبرنا أن أولئك الذين نجوا من الاضطهاد الديني سرعان ما يضطهدون أصحاب الديانات الأخرى حين يشعرون بالأمان في موقعهم الجديد من السلطة.

عودة إلى كارلو صاحب العيون البنية

كانت هذه رحلة جانبية طويلة شيئًا ما حول التغيّر الكبير الطارئ على سلوك زميلي عندما أصبح على رأس السلطة كرئيس للجنة الإفراج المشروط. في البداية وجدته يقدم أداءً ارتجاليًا رائعًا ينافس معزوفات تشارلي باركر الفردية، لقد ألّف في لحظتها وبثقة تامة ومن لا شيء تفاصيل عن جرائم السجناء التي اعتقلوا بسببها وكذلك عن تاريخهم الجنائي. لكن ومع مرور الوقت بدا وكأنه يتقمص دوره السلطوي الجديد بصورة اتهامية متزايدة الشدة. كان رئيس لجنة الإفراج المشروط لسجن بلدية ستانفورد؛ السلطةَ التي أصبح السجناء فجأة يخشونها، ورفاقه يذعنون لها؛ فبمجرد أن ضمن منصبًا مميزًا يُمكّنه من رؤية العالم من وجهة نظره كرئيس للجنة الإفراج المشروط؛ نسي سنوات الألم التي تحمّلها كسجين من أصحاب العيون البنيّة. خطاب كارلو لزملائه بعد نهاية الاجتماع أظهر مدى الألم والاشمئزاز الذي تسبب له به هذا التحوّل، اعترف لي في وقت لاحق من اليوم نفسه أثناء تناولنا العشاء بأنه شعر بالقرف مما تلفظ به وشعر به عند استغراقه في دوره الجديد.

تساءلت بيني وبين نفسي ما إذا كان هذا الشعور سيثمر في الاجتماع التالي للجنة إطلاق السراح المشروط عندما يرأس اجتماع اللجنة يوم الخميس، هل سيظهر اهتمامًا ورحمة أكبر بالمجموعة الجديدة من السجناء الذين يلتمسون منه الإفراج عنهم؟ أم أن الدور سيُعيد تشكيل شخصية الرجل؟

---

(1) تجربة جان إليوت (*June Elliot*) عن العيون الزرقاء ـ العيون البنية موجودة في:
W. Peters. *A Class Divided. Then and Now* (Expanded Edition) (New Haven, CT: Yale University Press. 1971/1985).
وقد اشترك بيترس (*Peters*) في تصوير فيلمين وثائقيين حصدا الجوائز فيلم محطة أخبار (*ABC The Eye of the Storm*) المتاح لدى: (Guidance Associates, New York) وفيلم محطة (PBS) المكمل له في برنامج (frontline) باسم «A Class Divided»، متاح على الإنترنت على موقع:
https://www.pbs.org/wgbh/frontline/film/class-divided/

لقاءات يوم الخميس مع اللجنة

في اليوم التالي تقدم أربعة سجناء للجنة الإفراج المشروط المنعقدة بأعضاء جدد حضروا جميعهم سوى كارلو، وحيث اضطر كريج هاني لمغادرة البلدة بسبب ظروف عائلية طارئة في فيلادلفيا؛ حلّت محله كريستينا ماسلاش (Christina Maslach) عالمة الاجتماع التي كانت تتابع ما يجري بهدوء وبدون الكثير من المشاركة المُباشِرة هذه المرّة، واكتملت اللجنة ذات الأعضاء الخمسة بسكرتيرة وطالبا دراسات عليا، لكن بعد إلحاح الحراس وبالإضافة إلى طلبات الإفراج نظرت اللجنة في اتخاذ إجراءات تأديبية متنوعة في حق أكثر السجناء إثارة للمتاعب. استمر كيرت بانكس في دوره كرقيب مسلح، كما جلس آمر السجن ديفيد جافي لمراقبة ما يجري والتعليق وقت الحاجة، ومرة أخرى أشاهد من خلف الشاشة التي تراقب الموقع وأسجل الأحداث حتى أقوم بتحليلها لاحقًا عبر منظومة التسجيل أمبيكس (Ampex). ثمة اختلاف آخر عن جلسة الأمس؛ فالسجناء لن يجلسوا على نفس الطاولة مع اللجنة، ولكن سيجلسون بشكل منفصل على مقاعد مرتفعة بمسند للقدم حتى نتحدث إليهم ونراقبهم كما لو كانوا في عملية استجواب من قبل الشرطة.

المُضرِب عن الطعام يضرب بقوة

أول سجناء القائمة هو السجين ٤١٦ الذي قُبل في التجربة مؤخرًا وما يزال مضربًا عن الطعام. قرأ كيرت بانكس التهم السلوكية التي سجلها العديد من الحراس ضده، كان الحارس أرنيت على وجه الخصوص غاضبًا بشدة من ٤١٦، هو وبقية الحراس ليسوا متأكدين من كيفية التصرف معه: «هو هنا منذ وقت قصير، وهو متمرد بشكل كامل ويعرقل تنفيذ الأوامر وروتين العمل اليومي».

أكّد السجين على الفور أنهم على حق، وأنه لن يجادل في التهم الموجهة إليه، ويصرّ على ضرورة تأمين تمثيل قانوني له قبل أن يوافق على تناول أي شيء يُقدم له في هذا السجن. طالبه بريسكوت بتوضيح سبب مطالبته «بالدعم القانوني»، فرد السجين ٤١٦ بطريقة غريبة: «أنا في السجن لأسباب عملية بحتة، ذلك أنني وقعت عقدًا ولست في السن القانونية التي تسمح لي بتوقيعه». بكلمات أخرى، إما أن نأتي له بمحام يتولى قضيته ويخرجه من هنا، أو أنه سيستمر في الإضراب عن الطعام حتى يمرض، ومن ثم ستُجبر إدارة السجن على الإفراج عنه.

قدم لنا الشاب الهزيل نفس الصورة التي يقدمها للحراس، ذكي وحازم وقوي الإرادة فيما يخص رأيه، لكن السبب الذي قدمه للطعن في اعتقاله ـ كونه ليس في السن القانونية

للتوقيع على إقرار الموافقة على المشاركة في البحث -[1] كان ذا مسحة قانونية غريبة بالنسبة لشخص ينطلق في العادة من مبادئ أيديولوجية. هناك شيء في مسلكه يمنع كل من يحتك به من التعاطف معه على الرغم من مظهره غير المهندم والهزيل، لا الحراس، ولا باقي السجناء، ولا هذه اللجنة، كان يبدو كمتشردي الشوارع الذين يجعلون المارّة يشعرون بالذنب أكثر مما يشعرون بالشفقة.

عندما سأل بريسكوت عن التهم التي سُجن ٤١٦ بسببها، رد السجين: «لا توجد تهم، لم توجه لي أية تهمة، لم أعتقل من قبل شرطة بالو ألتو».

فسأل بريسكوت بغضب ما إذا كان ٤١٦ في السجن بسبب خطأ ما إذًا، «لقد كنت مشاركًا احتياطيًا». أصبح بريسكوت مشوّشًا وأشد غضبًا الآن، تذكّرت أنني لم أوضّح له الفارق بين ٤١٦ والآخرين من جهة دخوله السجن متأخرًا عن الباقين بصفته سجينًا احتياطيًا.

«من أنت على أية حال، هل تدرس الفلسفة؟»، أخذ بريسكوت بعض الوقت ليشعل سيجارته وربما ليجهز لهجوم جديد: «أراك تتفلسف مذ أن دخلت إلى هنا».

عندما أوصى أحد أفراد سكرتاريا اجتماع اليوم باللجوء إلى التدريبات الرياضية كإجراء تأديبي واحتج ٤١٦ بأنه أُجبِر على خوض الكثير من التدريبات الشاقّة؛ ردّ بريسكوت باقتضاب: «يبدو شابًا قويًا، أعتقد أن التدريبات الرياضية مثاليةٌ له»، ثم نظر ناحية كيرت وجافي ليدرجا هذا الإجراء في قائمة المهام.

أخيرًا، عندما وجّه له كارلو السؤال الملغوم عما إذا كان يقبل بالتنازل عن مستحقاته إذا ما أفرج عنه؛ قال بدون تردد: «نعم، بالطبع أقبل هذا؛ فلست أشعر أن الأموال تعوّض الوقت الذي أضيّعه هنا».

سئم منه كارلو، «خذوه من هنا». فقام ٤١٦ بما قام به من سبقوه كما لو كانوا عرائس مسرح، وقف بدون أية توجيهات ومد يديه ليقيد وغُطّي رأسه ثم اقتاده الحارس إلى الخارج.

من الغريب أنه لم يطلب من اللجنة أن تبدأ الآن في إجراءات إنهاء تطوعه باعتباره متطوعًا ممتنعًا عن أداء دوره المطلوب، إن كان لا يريد المال فلم لم يقل بمنتهى

---

(١) (Research Informed Consent) عقد يوقع عليه المتطوعون للتجارب يحتوي على معلومات حول أهداف الدراسة، والمدة المتوقعة لاستمرارها، الحق في ترك التجربة أو الانسحاب منها، وما قد يحدث كنتيجة لترك التجربة أو الانسحاب منها، والأخطار والأضرار المتوقعة، الاستفادة المتوقعة، والحوافز مثل الأجر أو المكافآت، والأشخاص أو الجهات التي يمكن الاتصال بها للحصول على مزيد من المعلومات. (المترجم).

البساطة: «أنا منسحب من هذه التجربة، هاتوا ملابسي ومتعلقاتي الشخصية وسأخرج من هنا!».

الاسم الأول لهذا السجين هو كلاي ولن يطوّعه أحد بسهولة، فهو ثابت على مبادئه ومتمسك بشدة بالاستراتيجية التي وضعها، لكن على الرغم من ذلك فقد اندمج تمامًا في هويته كسجين إلى حد أعماه عن إبصار مفتاح الحرية في يده وهو الآن بعيد بجسده عن منشأة السجن، لو كان أصرّ فقط أن تمنحه لجنة الإفراج المشروط حريته وتنهي تجربته هنا؛ لكنه يحمل تلك المنشأة في رأسه.

المدمنون فريسة سهلة

السجين التالي هو بول ٥٧٠٤، بدأ مباشرة في الشكوى من عدم حصوله على حصة التدخين التي وُعد بها مقابل سلوكه الجيد. شملَت التُهم السلوكية ضده كونه: «دائم التمرد مع نوبات مفاجأة من العنف والاكتئاب، يحرض بقية السجناء على العصيان وعدم التعاون بشكل مستمر».

عارض بريسكوت سلوكه الجيد المزعوم الذي لن يأتيه أبدًا بسيجارة مرة أخرى، ردّ السجين بصوت واهن بالكاد يُسمع مما جعل أعضاء اللجنة يطلبون منه رفعه، وعندما قيل له أنه يسيء التصرف على الرغم من معرفته بأن سلوكه السيء سيؤدي لمعاقبة بقية السجناء؛ همهم بكلام غير واضح وهو يحدق في وسط الطاولة.

«لقد تناقشنا في هذا الشأن... حسنًا، إذا حدث شيء ما سوف نتعامل معه.. إذا قام شخص ما بعمل أي شيء؛ فأنني سأعاقب بسببه..» قاطعه أحد أعضاء اللجنة ليسأله: «هل سبق لك أن عوقبت بسبب أي سجين آخر؟» رد بول ٥٧٠٤ بنعم، وأنه قد عانى من أجل رفاقه.

قال بريسكوت بصوت مرتفع ونبرة ساخرة: «أنت شهيد إذًا، أليس كذلك؟».

رد عليه ٥٧٠٤ بصوت واهن مرة أخرى: «حسنًا، أعتقد أننا جميعًا...».

سأله بريسكوت: «بم تحدث نفسك؟»، فرد عليه ومن جديد لم يكن كلامه مفهومًا.

تذكروا أن ٥٧٠٤ هو أطول السجناء قامة وأنه تحدى العديد من الحراس علانية وكان شريكًا في الكثير من محاولات الهروب والشائعات والاعتصامات، وهو أيضًا من كتب لحبيبته مفاخرًا باختياره رئيسًا للجنة شكاوى السجناء، إضافة إلى ذلك فقد كان هو السجين نفسه الذي تطوع للتجربة لأسباب كاذبة؛ فالسبب الحقيقي لاشتراكه في التجربة هو التجسس بغرض كشف هذا البحث في مقالات خطط لكتابتها لعدد من الصحف الليبرالية «غير الرسمية»؛ لأنه افترض أن هذه التجربة ليست إلا مشروعًا مدعومًا من الحكومة لدراسة

فضل أساليب التعامل مع المنشقين السياسيين. أين ذهب كل ذلك التبجح؟ لم أصبح غير تماسك هكذا بصورة مفاجئة؟

أمامنا في هذه الغرفة يجلس شاب باهت ومكتئب، كان السجين ٥٧٠٤ ينظر دائمًا لى الأسفل ويهز رأسه عندما يجيب عن الأسئلة التي نوجهها إليه اللجنة، ولا يقوم بأي تواصل بصري مباشر.

«نعم، أقبل بالتنازل عن أية أموال جنيتها ليفرج عني الآن سيدي»، أجاب بأعلى صوت استطاع أن يتحدث به. (الآن هو الخامس من بين ستة سجناء أجابوا بنعم).

أتعجب كيف للروح الحيوية والمتحمسة والثورية التي هي من أجمل سمات هذا الشاب؛ أن تختفي تمامًا في هذا الوقت القصير؟

كمعلومة جانبية، عرفنا لاحقًا أن بول ٥٧٠٤ قد استُغرق تمامًا في دوره كسجين، وفي أولى خطط هروبه استخدم أظافره الطويلة القوية التي يستخدمها في العزف على الجيتار في فكّ مسامير غطاء مخرج الطاقة الكهربائية من الحائط، ثم استخدم الغطاء لفك مقبض باب الزنزانة. كما استخدم أظافره الصلبة هذه لحساب الأيام التي تمر من فترة اعتقاله بوضع علامات على الحائط بهذا الشكل (إث/ ثل/ أر/ خم/ . . .) وهكذا.

سجين قوي محيّر

طلب الإفراج التالي قدمه السجين جيري ٥٤٨٦، كان محيّرًا أكثر من سابقيه، كان شخصًا متفائلاً قادرًا على التعامل مع أي شيء، كما كان قوي البنية على العكس من السجين ٤١٦ أو بعض السجناء الآخرين نحيفي الأجساد مثل جلين ٣٤٠١. هناك شعور قويّ بأنه سوف يتحمل الأسبوعين بلا شكوى، لكن هناك شيء من عدم الأمانة فيما يقول، وكان يُظهر القليل من الدعم لزملائه المكروبين. خلال دقائق قليلة هنا نجح ٥٤٨٦ في استعداء بريسكوت كما صنع باقي السجناء، أجاب مباشرة بأنه لن يقبل بالتنازل عن مستحقاته المالية مقابل الإفراج.

كتب الحراس أن ٥٤٨٦ لا يستحق النظر في طلب الإفراج: «لقد جعل من أمر الخطاب أضحوكة، ولعدم تعاونه بشكل عام». عندما سئل عن مبررات تصرفاته، رد السجين ٥٤٨٦: «أعرف أنه لم يكن خطابًا قانونيًا . . . لم يبد كذلك. . .».

لم يتمكن الحارس أرنيت الذي كان يقف في صمت يراقب الإجراءات من منع نفسه من التدخل: «هل طلب منك الضباط الإصلاحيون أن تكتب الخطاب؟» رد ٥٤٨٦ بالإيجاب، أكمل الحارس: «وأنت تقول أن الضباط الإصلاحيين طلبوا منك أن تكتب خطابًا غير قانوني؟»

تراجع ٥٤٨٦: «حسنًا، ربما اخترت الكلمات الخاطئة...».

لكن أرنيت لم يتراجع، قرأ التقرير على اللجنة: «٥٤٨٦ كان دائم التدهور... لقد أصبح مهرّجًا».

واجهه كارلو: «أتجد الأمر مضحكًا؟»

رد ٥٤٨٦ مدافعاً عن نفسه: «الجميع [في الغرفة] كان يبتسم، لم أبتسم حتى ابتسموا جميعًا».

قال كارلو مهددًا: «يستطيع الباقون أن يبتسموا؛ فجميعنا عائدون إلى المنزل الليلة»، مع ذلك كان يحاول التخفيف من حدة أسلوبه الهجومي الذي استخدمه بالأمس ثم طرح بعض الأسئلة الاستفزازية: «لو كنت مكاني، وأمامك الأدلة نفسها التي أمامي، وكذلك تقارير الحراس، ماذا كنت ستفعل، كيف كنت ستتصرف؟ ما الذي تعتقد أنه الأفضل لك؟»

أجاب السجين بأسلوب فيه شيء من التهرب ولم يجب بشكل تام عن هذه الأسئلة الصعبة، وبعد بضعة أسئلة أخرى من باقي أفراد اللجنة صرفه بريسكوت المنزعج: «أظن أننا رأينا ما يكفي، وأظننا نعلم ما الذي يتعين فعله، لا أرى من داعٍ لإضاعة الوقت». كان السجين مندهشًا من صرفه بهذه السرعة، كان واضحًا عنده أنه قد ترك انطباعًا سيئًا عند من يُفترض به إقناعهم بتأييده، إن لم يكن من أجل الإفراج عنه هذه المرة؛ فللمرة التالية التي ستجتمع فيها اللجنة، لم يحسن التصرف هذه المرة. أمر كيرت الحارس بوضع الأصفاد في يده والحقيبة على رأسه ليجلسه على المقعد في الردهة وينتظر خروج الحالة التالية والأخيرة قبل إعادة السجناء إلى أسفل ليواصلوا حياة السجن.

إجهاد الرقيب يطفو على السطح

السجين الأخير الذي كان على اللجنة تقييمه هو الرقيب، السجين ٢٠٩٣، الذي - وكما هو متوقع منه - جلس منتصبًا في المقعد المرتفع، صدره أمامه ورأسه إلى الخلف قليلاً، وذقنه إلى الداخل، وضعية عسكرية مثالية بكل تأكيد. طلب الإفراج حتى يستثمر وقته في «أمور أكثر إنتاجية»، ثم أشار إلى أنه «التزم بجميع القواعد منذ اليوم الأول»، وبخلاف معظم زملائه فالسجين ٢٠٩٣ غير مستعد للتنازل عن مستحقاته المالية مقابل الإفراج.

«إذا تنازلت عن الأموال التي جنيتها حتى الآن فستكون خسارتي في هذه الأيام الخمسة أكبر منها إن لم أفعل»، وأضاف أن المقابل المادي الضعيف بالكاد يعوّض الوقت الذي قضاه.

هاجمه بريسكوت لتصنّعه ولإعداده لكل شيء مسبقًا، ولعدم تلقائيته ولتلاعبه

بالكلمات للتعمية على حقيقة شعوره؛ فاعتذر الرقيب على هذا الانطباع لأنه دائمًا يعني ما يقول ويحاول أن يفصح بوضوح عن مقصده. هدّأ هذا الكلام من حدّة كارلو الذي أكد للرقيب أن اللجنة سوف تنظر في حالته بجدية، ثم أثنى على أدائه الجيد في السجن.

قبل إنهاء المقابلة؛ سأل كارلو الرقيب عن سبب عدم طلبه الإفراج في المرة الأولى وقد أتيح التقدم لجميع السجناء، شرح الرقيب موقفه: «كنت سأطلب الإفراج في المرة الأولى لولا اكتمال العدد المطلوب للمتقدمين»، لقد شعر بأن السجناء الآخرين كانوا أكثر معاناة منه في السجن، ولم يرغب أن يحل طلبه محل طلب أحدهم؛ فانتقده كارلو بلطف على هذا النبل البالغ واعتبرها محاولة ساذجة للتأثير على حكم اللجنة؛ فظهرت على الرقيب علامات الدهشة مما دلّل على أنه كان يقصد ما يقول وأنه لم يتعمّد إثارة إعجاب اللجنة أو أي أحد.

من الواضح أن الأمر أثار فضول كارلو الذي حاول أن يعرف أكثر عن حياة الشاب الشخصية. سأله كارلو عن عائلته وحبيبته وعن أي نوع من الأفلام يعجبه وما إذا كان يمنح نفسه بعض الوقت لشراء الآيس كريم، كل هذه الأشياء البسيطة التي تشكل مجتمعة الهوية الفريدة لكل شخص.

رد الرقيب بأن ليست لديه حبيبة، ونادرًا ما يذهب لمشاهدة الأفلام، وأنه يحب الآيس كريم لكنه لم يمتلك ما يكفي من المال لشرائه مؤخرًا: «كل ما يمكنني قوله هو أنني بعد ذهابي لمدرسة ستانفورد الصيفية والعيش في الجزء الخلفي من سيارتي؛ وجدت صعوبة في النوم في يومي الأول من السجن لأن السرير كان لينًا للغاية عما اعتدته، كما أنني أتناول طعامًا هنا في السجن هو أفضل من الطعام الذي كنت أحصل عليه في الشهرين لأخيرين، وأنني قد صار عندي المزيد من الوقت للاسترخاء أكثر مما توفر لي في الشهرين لأخيرين، شكرًا لك سيدي».

واو! لقد خرق هذا الشاب كل توقعاتنا، شعوره بالفخر وجسده القويّ يخفيان حقيقة ضائه الصيف جائعًا بلا سرير مع انتظامه في المدرسة الصيفية. لقد كانت فكرة كون ظروف المعيشة شديدة القسوة في سجننا تمثل نمط حياة أفضل بالنسبة لأي طالب جامعي مرًا صادمًا لنا جميعًا.

من ناحية، فقد كان الرقيب شخصًا أحادي الأبعاد أكثر من البقية، كان أطوعهم على لإطلاق، وعلى الرغم من ذلك فهو الأكثر منطقية وعقلانية واتساقًا أخلاقيًا بين جميع سجناء. خطر لي أن المشكلة الوحيدة التي يعانيها هذا الشاب هي التزامه بمبادئ مجرّدة ن معرفة بكيفية التعايش بفاعلية مع الآخرين، أو كيف يطلب من الآخرين الدعم الذي متاجه سواء أماديًا كان أو شخصيًا أو عاطفيًا، يبدو محكومًا بشدة بإصراره الداخلي

وهيئته العسكرية الخارجية حتى ليصعب على أيًا كان معرفة حقيقة مشاعره. ربما ينتهي به المطاف إلى عيش حياة أقسى من تلك التي سيعيشها بقية زملائه في المستقبل.

الندم لا يجدي نفعًا

أثناء استعداد اللجنة لإنهاء الجلسة؛ أعلن كيرت أن السجين ٥٤٨٦، الوقح من بين الثلاثة، يرغب في تصريح إضافي أمام اللّجنة؛ فأومأ كارلو بالموافقة.

قال ٥٤٨٦ آسفًا أن الكلمات لم تسعفه في التعبير عن مراده لأنه لم يمتلك الفرصة الكافية للتفكير، وأن حاله في تدهور أثناء وجوده في هذا السجن لأنه في البداية توقع أن يؤخذ إلى المحكمة والآن فقد الأمل في حصوله على حكم عادل.

أشار الحارس أرنيت الذي كان جالسًا خلفه إلى حديث دار بينهما وقت الغداء من هذا اليوم قال فيه ٥٤٨٦ أن تراجعه هذا لا بد من أنه «بسبب الصحبة السيئة».

ارتبك كارلو وبقية أعضاء اللجنة من هذا التحول، كيف يمكن لهذا التصريح أن يدعم قضيته؟

انزعج بريسكوت بشدة من هذا الكلام وقال للسجين ٥٤٨٦ أنه إن قُدّر للجنة تقديم توصيات: «فسأحرص شخصيًا على أن تبقى هنا حتى آخر يوم، لا شيء شخصي، لكننا هنا لحماية المجتمع، ولا أعتقد أنك قادر على الخروج وأداء دور بنّاء يجعل منك إضافة حقيقية للمجتمع، ما حدث هو أنك بعد خروجك من هذا الباب أدركت أنك تحدثت إلينا كما لو كنا مجموعة من الحمقى، لكنك في الحقيقة كنت تتحدث إلى ضباط وشخصيات تملك سلطة هنا، أنت لا تتكيّف بشكل جيّد مع أصحاب النفوذ، هل تفعل؟ كيف تعيش مع أهلك؟ ما أودّ قوله هو أنك خرجت من هذا الباب وحصلت على مزيد من الوقت للتفكير، ثم عدت لتحاول إقناعنا بتغيير انطباعنا عنك، هل تملك أدنى حد من الوعي الاجتماعي؟ بم تظن أنك مدين للمجتمع؟ أريد أن أسمع منك شيئًا حقيقيًا». (عاد كارلو إلى طريقته في اليوم الأول!)

فوجئ السجين بهذا الهجوم على شخصه، ومضى يستدرك: «لدي وظيفة تدريس جديدة، إنها وظيفة مهمة، أو هكذا أشعر».

لم يقتنع بريسكوت: «في الحقيقة، هذا يثير حولك المزيد من الشكوك، لا أعتقد أنني أريد أن يعلم مثلك أولادي، ليس بسلوكياتك هذه وعدم نضجك المشين وقلة إحساسك بالمسؤولية. لا تستطيع تحمُّل أربعة أيام في السجن بدون التحوّل إلى مصدر إزعاج ثم تخبرني بأنك تريد أن تصبح معلّمًا؟ أن تقوم بعمل مميّز حقًا؟ إنها لفرصة عظيمة أن تلتقي بأشخاص محترمين ويكون لديك ما تقوله لهم. لا أدري، لم تقنعني، للتو قرأت

سجلّك لأول مرة ولم تُظهِر لي أي شيء يستحق. أيها الضابط، خذه من هنا».

أُعيد السجين إلى القبو مقيّدًا ومغطىً رأسه. على السجين تقديم عرض أفضل في جلسة الاستماع التالية للجنة، هذا إن افترضنا حصوله على هذا الامتياز مرة أخرى.

عندما يصبح السجين المُفرج عنه رئيسًا للجنة الإفراج (كارلو بريسكوت)

قبل أن نعود إلى ما كان يحدث في الأسفل في غيابنا أثناء الاجتماعين اللذين عقدتهما لجنة الإفراج المشروط، من المفيد أن نلاحظ تأثير أداء هذا الدور على الرئيس الصارم «لجلسة استماع هذه السلطة الرشيدة». بعد شهر عرض كارلو بريسكوت بيانًا شخصيًا لطيفًا عن تأثير هذه التجربة عليه:

«كلما أتيت التجربة أغادر مع إحساس عميق بالاكتئاب، نعم لقد كانت عميقة إلى هذه الدرجة. لقد توقفت التجربة عن كونها تجربة عندما بدأ الناس بالتفاعل مع عدة أمور صادفتهم في أثنائها. مثلاً، لاحظت في السجن أن من يعتبرون أنفسهم حراسًا «عليهم» إلزام أنفسهم بالتصرف بطريقة معينة، كان عليهم توصيل انطباعات معينة والالتزام بسلوكيات معينة، والسجناء على الجانب الآخر كانت لديهم سلوكيات معيّنة وانطباعات معينة قاموا بتمثيلها، نفس الشيء حدث هنا».

«لا يمكنني تصديق أنني أثناء تأديتي دور عضو اللجنة، رئيس اللجنة ـ لجنة السلطة الرشيدة ـ قد سمحت لي التجربة بالقول لأحد السجناء في وجه غروره وجرأته: «لا يدخل الشرقيون إلى السجون إلا نادرًا، ونادرًا ما يجدون أنفسهم في هذه المواقف، ماذا فعلت؟»».

«كانت هذه المرحلة من الدراسة هي المرحلة التي تغيرت فيها توجهاته تمامًا، بدأ يتصرف معي كفرد، بدأ يتحدث معي عن مشاعره الشخصية، رجل استغرقه الدور بشدة إلى درجة أنه عاد إلى الغرفة مرة ثانية وكأنما كان يعتقد أن العودة للتحدث إلى السلطة الرشيدة قد يؤدي إلى الإفراج عنه بشكل أسرع».

استمر كارلو في الإفصاح عما بداخله:

«حسنًا، يجب أن أقر كسجين سابق أنني في كل مرة أتيت فيها إلى هنا فإن الاحتكاكات والشكوك والخصومة الواضحة بسبب اندماج الفتية في أدوارهم أنشأت في داخلي شعورًا عميقًا بالاكتئاب، أقصد العودة إلى أجواء السجن. كان الأمر حقيقيًا للغاية، لا مجرد محاكاة».

«كان [السجناء] يتفاعلون مع الموقف كبشر، وإنْ بارتجال، لكن هذا التفاعل أصبح

جزءًا لا يتجزأ مما كانوا يمرون به في ذلك الوقت، لقد أبان ذلك عن نوع التفكير الذي سيطر على السجين. في النهاية يدرك السجين تمامًا ما يحدث في العالم الخارجي، بناء جسر أو ميلاد أطفال، أحداث تجري دون تعلق به، لأول مرة يشعر بالغربة التامة عن المجتمع وعن الإنسانية بسبب هذا الأمر».

«أصبح زملاؤه في هذه المعاناة المُرّة رفاقه وكل شيء بالنسبة له طوال الوقت، باستثناء بعض الفترات العارضة مثل أوقات الزيارة أو الذهاب إلى جلسة استماع الإفراج المشروط، فلا سبب هنالك يحملك على الارتباط بالمكان الذي منه جئت، أنت الآن هنا، لا تملك سوى هذه اللحظة».

... لم أفاجأ، ولم أكن مستمتعًا بثبوت صحة اعتقادي بأن «الناس يصبحون الدور الذي يلعبون»، أصبح الحراس رمزًا للسلطة ولا يمكن تحديهم ولا قواعد أو حقوق يُجبرون على ضمانها للسجناء، يحدث هذا مع حراس السجن، ويحدث مع طلاب جامعيين يؤدون دور حراس السجن. السجين، على الجانب الآخر، الذي تُركت له مهمة تحديد وضعه بحسب قدرته على المقاومة ومدى نجاحه في منع التجربة من الاستحواذ عليه ومواجهة عجزه كل يوم. يجب أن يربط الكراهية في داخله وفاعليته في المقاومة بواقعه؛ فمهما بدا في عين نفسه شجاعًا وبطلاً؛ سيبقى مجرد رقم بمدّه الحراس وسيبقى محكومًا بقواعد السجن»(١).

أعتقد أنه من الملائم أن ننهي هذه التأملات بمقال على ذات القدر من التبصر كتبه السجين السياسي جورج جاكسون قبل أن يكتب كارلو مقالته بفترة بسيطة. تذكّروا أن محاميه أرادني أن أمثل بصفتي شاهدًا خبيرًا في مرافعته في محاكمة أخوة سوليداد، لكن جاكسون قُتِل قبل أن أتمكن من القيام بهذه المهمة، كان ذلك بعد يوم واحد من انتهاء دراستنا.

«من الغريب أن يجد إنسانٌ ما يضحكه هنا، الجميع محبوس مدة أربع وعشرين ساعة، لا ماضي، لا مستقبل، لا هدف سوى الوجبة التالية. خائفون، مرتبكون وحائرون حيال عالم يعرفون أنهم لم يقوموا بصنعه، وأنهم لا يستطيعون تغييره، لذا فهم يصدرون هذه الأصوات العالية حتى لا يتمكنوا من سماع ما تمليه عليهم عقولهم، يضحكون ليطمئنوا أنفسهم ومن حولهم أنهم ليسوا خائفين، مثل ذلك الذي يؤمن بالفأل حين يصفّر ويغنّي عن الحظ السعيد فيما يتجوّل بين القبور»(٢).

---

(١) الاقتباس الطويل من حديث كارلو (Carlo) في لقائه في برنامج (*Chronolog*) في قناة (NBC) الذي أنتجه لاري جولدستين (*Larry Goldstein*)، وجرى تسجيله في سبتمبر ١٩٧١م، وطبعته سكرتيرتي روزان ساوزوت (Rosanne Sausotte)، لكن للأسف لم يذكر في البرنامج حين أذيع في النهاية.

(٢) George Jackson, *Soledad Brother: The Prison Letters of George Jackson* (New York: Bantam Books, 1970), pp. 119-20.

الفصل الثامن

خميس مواجهة الحقيقة

كان السجن يوم الخميس مُثقلاً بالحزن، لكن طريقنا حتى انتهاء رحلتنا الاستكشافية ما زال طويلاً.

استيقظت وسط الليل على كابوس مزعج رأيتني فيه أدخل إلى المستشفى على إثر حادث سيّارة، كنت أجد صعوبة بالغة في التواصل مع الممرضة محاولاً إقناعها بضرورة عودتي إلى عملي لكنها لم تفهم كلمة مما أقول كما لو كنت أتحدث إليها بلغة أجنبية؛ فجعلت أصرخ ليخرجوني: «عليكم أن تخرجوني»، لكنها بدلاً من ذلك قيّدتني ووضعت لاصقًا على فمي حتى تُسكتني. كان من نوعية «الأحلام الواقعية»، تلك التي يدرك فيها الإنسان أثناء الحلم أنه يحلم، وقد خالجني شعور أن شيئًا ما في هذا الحلم يخصّ الحرّاس[1]. هم سعداء لأن رئيس السجن «الليبرالي صاحب القلب الرقيق» قد تنحى عن طريقهم، لديهم الآن مطلق الحرية في التصرف مع «سجنائهم الخطرين» بأية وسيلة يرونها مناسبة لحفظ القانون والنظام.

كانت فكرة مرعبة بلا شك، تخيّلوا ما قد يحدث في ذلك القبو إذا تمكّن الحراس من فعل ما يحلو لهم مع السجناء. تخيّلوا ما يمكنهم فعله حال علمهم بغياب الإشراف والرقابة عن ألعاب السيطرة والإخضاع السريّة التي يمارسونها، ولا يوجد من يتدخل في «تجاربهم الذهنية» الصغيرة التي تمليها عليهم البديهة وحسّ الدعابة. قفزت من على الأريكة القابلة للطي الموجودة في مكتبي واغتسلت وارتديت ملابسي بسرعة ثم عدت مباشرة إلى القبو، كنت سعيدًا بانتهاء الكابوس واستعادة حريّتي.

كان إحصاء الساعة الثانية والنصف صباحًا عاصفًا مرة أخرى. استيقظ السجناء

---

(١) أحلام اليقظة هي حالة نصف وعي يمكن لمن يعيشها أن يراقب ويتحكم أيضًا في أحداث الحلم وهي تتكشف. أحد المراجع الجديدة المهمة حول هذه الظاهرة:

S. La Berge, *Lucid Dreaming: A Concise Guide to Awakening in Your Dreams and in Your Life* (Boulder, CO: Sounds True Press, 2004).

السبعة المنهكون مرة أخرى على الصوت العالي للصفارات المزعجة والهراوات التي تقرع قضبان زنازينهم القذرة الفارغة حتى يصطفوا أمام الحائط، يقرأ الحارس فاندي بعض القواعد التي اختارها حتى يتأكد من مدى حفظ السجناء لها عن طريق تأدية عقوبات متنوعة حال النسيان.

أراد الحارس سيروس أن يجعل من التجربة شبيهة بالسجون العسكرية التي تدار بحزم وانضباط؛ فأمر السجناء بالمراوحة في المكان بشكل منتظم وكأنهم في الجيش. اتفق الرفيقان بعد نقاش قصير دار بينهما على أن السجناء بحاجة إلى التدريب على الانضباط بشكل كامل وإلى إدراك أهمية ترتيب الأسِرّة بأسلوب عسكري. أمر السجناء بتجريد الأسِرّة تمامًا مما عليها وإعادة ترتيبها بدقة، ثم بالوقوف كلٌّ أمام سريره للتفتيش. وكما هو الحال في أي مركز تدريب عسكري جيد؛ فشلوا جميعًا في التفتيش وكان عليهم إعادة تجريد الأسِرّة وإعادة تجهيزها، ثم الفشل مجددًا ثم إعادة العملية التافهة حتى سئم الحراس من اللعبة. أضاف الحارس فارنيش جملتين لطيفتين: «حسنًا يا شباب، الآن وقد جهزتم أسِرّتكم فيمكنكم النوم حتى الإحصاء التالي». تذكروا أن هذا هو اليوم الخامس فحسب من التجربة.



أحد سجناء تجربة ستانفورد وهو عارٍ في زنزانته رقم (٣)

تفاقم العنف في الساحة

تصاعد العنف فجأة في إحصاء الساعة السابعة صباحًا الذي بدأ بهدوء. يشعر السجين بول ٥٧٠٤ بالضيق والعصبيّة بسبب قلة النوم والتربُّص به في كل النوبات مما جعله يردّ الصفعة. رفض الأمر بتأدية جلسة القرفصاء مما جعل الحارس سيروس يُصِّر على تأدية جميع السُجناء لهذا التدريب دون توقف إلى أن ينضم إليهم بول، لن يوقف هذا التدريب المؤلم إلا خضوعه، لكن بول ٥٧٠٤ لم يبتلع هذا الطعم.

في لقاء مطول مع كيرت بانكس وصف بول ٥٧٠٤ موقفه في هذه الواقعة والعدائية المترسّخة في داخله:

«كانت عضلات فخذي منهكة بشدة وما كان يجب أن أعرّضها لتمارين إطالة، أخبرتهم بذلك لكن ردّهم عليّ كان «اخرسْ وأدِّ التدريب!»؛ فقلت: «عليك اللعنة أيها الأحمق التافه» وأنا ما زلت مستلقيًا على الأرض، واثناء نهوضي ليذهبوا بي إلى الحُفرة دفعني سيروس باتجاه الحائط فاشتبكت معه، دفعنا بعضنا بقوة وارتفع صراخنا، كانت لديّ رغبة عارمة في لكْمه في وجهه ولكنني مُسالم، ولا أظنه سلوكًا مناسبًا لي، ثم أنني جرحت قدمي وأصررت على الذهاب للطبيب لكن أُلقي بي في الحفرة بدلاً من ذلك، هددت بسحقه عند خروجي من الحفرة مما جعلهم يتركونني في الداخل حتى تناول الجميع الإفطار، وعندما خرجت أخيرًا كنت أشتعل غضبًا وحاولت ضرب سيروس».

«لقد احتاجوا إلى حارسين لمنعي منه، ثم أخذوني إلى غرفة منعزلة حيث تناولت إفطاري وحيدًا، وطلبت بعدها الذهاب إلى الطبيب مجددًا ولم أدع الحراس يفحصون قدمي، منذ متى يعرفون شيئًا عن ذلك؟!».

«تناولت طعامي وحيدًا واعتذرت لفارنيش الذي كان أقلهم عدوانية تجاهي، لكن الشاب الذي كنت أرغب في ضربه فعليًا هو جون واين، ذاك القادم من أتالانتا، أنا بوذي ويصر على نعتي بالشيوعي عامدًا ليستفزني، وينجح في هذا بالفعل. أصبحت الآن أعتقد أن المعاملة الحسنة التي نلقاها من بعض الحراس مثل الضخم لاندري [جيوف] ليست إلا طاعة لأوامر بمعاملتنا على هذا النحو»[1].

ذكر الحارس جون لاندري في مذكراته اليومية أن ٥٧٠٤ كان الأكثر وقوعًا في المشاكل أو «على الأقل كان أكثر السجناء تعرضًا للعقوبة»:

---

(١) لقاء السجين المسجل مع كيرت بانكس (Curt Banks).

«بعد كل واقعة كان يبدو عليه [٥٧٠٤] الاكتئاب بوضوح، لكن روحه كانت مستمرة في الارتقاء. هو واحد من أقوى السجناء إرادة، رفض كذلك غسيل أطباق الغداء؛ فأوصيت لذلك بوجبات عشاء سيئة ليتناولها ومنعت عنه امتياز التدخين، هو مدخّن شره».

تأملوا في الرؤية البديلة المتبصرة للحارس سيروس بخصوص هذه الواقعة الحاسمة وفي سيكولوجيا الاعتقال بشكل عام:

«أحد السجناء، أقصد ٥٧٠٤، لم يكن متعاونًا على الإطلاق، لذلك قررت الزج به في الحفرة، لكن مع مرور الوقت اعتاد هذا الإجراء، تصرف بعدوانية ووجدتني مضطرًا للدفاع عن نفسي، ليس لشخصي، لكن لكوني الحارس، كَرِهَني بصفتي حارسًا، ردة فعله كانت تجاه الزي الرسمي وكأنما استبدلني بصورة، ولم يكن أمامي من خيار سوى الدفاع عن نفسي بصفتي حارسًا. تساءلت عن سبب تلكؤ باقي الحراس في نجدتي، كانوا جميعًا في حالة ذهول.

تبين لي هنا أنني كنتُ سجينًا مثلهم، كنتُ مجرد انعكاس لمشاعرهم، ربما امتلكوا خيارات أكثر لأفعالهم مما امتلكناه نحن. كلانا حراسًا وسجناء سحقتنا البيئة القمعية، لكنّا ـ نحن الحراس ـ كنا تحت تأثير وهم الحرية. لم أتبيّن هذا لحظتها، وإلا لكنت انسحبت. دخلنا جميعًا عبيدًا للمال، وسرعان ما أصبح السجناء عبيدًا لنا، وبقينا نحن عبيدًا للمال. أدركت لاحقًا أننا جميعًا كنا عبيد شيء ما في هذه البيئة. التفكير في الأمر على أنه «مجرد تجربة» يعني أن لا مكروه يمكن أن يقع في العالم الواقعي، كان هذا وهم الحرية. عرفت أن بإمكاني الانسحاب، لكنني لم أفعل لأنني كنت عبدًا لشيء ما هناك»[1].

كان السجين جيم ٤٣٢٥ مقرًا بالطبيعة الاستعبادية لحاله: «أسوأ ما في هذه التجربة كان التنظيم البالغ للحياة هنا والطاعة الكاملة المفروضة علينا تجاه الحراس، كانت مهانة كوننا عبيدًا للحراس أسوأ ما في التجربة كلها»[2].

لكن الحارس سيروس لم يدع إحساسه بالوقوع تحت سطوة دوره يعيقه عن ممارسة صلاحيات منصبه، قال: «استمتعت بمضايقتهم، ضايقني أن «الرقيب» ٢٠٩٣ كان مطيعًا للغاية، جعلته ينظف ويلمع حذائي سبع مرات وما اشتكى قط»[3].

---

(١) التقيم النهائي للحارس.

(٢) التقيم النهائي للسجين.

(٣) التقيم النهائي للحارس.

كشف الحارس فاندي في خواطره عن النظرة اللاإنسانية للسجناء التي تسللت إلى رأسه: «بحلول يوم الخميس أصبح السجناء مذعنين للغاية فيما عدا شجار عابر دار بين الحارس سيروس والسجين ٥٧٠٤، كانت الواقعة عبارة عن حادث عنف بسيط لم أعجب به على أية حال، كانوا كالخِراف بالنسبة لي ولم أكترث لظروفهم على الإطلاق»[١].

في التقييم الأخير للحارس سيروس قدّم رأيًا مختلفًا تجاه الإحساس المتنامي داخل الحراس بحيوانية السجناء:

«ثمة مرّات معدودة كُنت أنسى فيها أن السُجناء آدميون، لكنني كنت سريع الانتباه لنفسي لتعود لإدراك كونهم بشرًا، كنت أراهم ببساطة كما لو كانوا سجناء يفقدون الصلة بإنسانيتهم، حدث هذا في فترات وجيزة خاصةً حين أوجّه لهم الأوامر. أشعر بالتعب والتقزز بعض الأحيان، في الحقيقة كانت هذه حالتي الذهنية أغلب الوقت. أقدمت كذلك على محاولة حقيقية مختبرًا إرادتي لأنزع عنهم إنسانيتهم فأسهّل الأمر على نفسي»[٢].

اتفق فريق العمل بأكمله على أن أشدّ الحراس التزامًا بالتعليمات هو فارنيش، كان أحد أكبر الحراس سنًّا، في الرابعة والعشرين، هو وأرنيت تخرجا لتوّهما فهما لذلك أكثر نضجًا من بقية الحراس الذين كانت أعمارهم تبدأ من سن الثامنة عشرة بالنسبة لسيروس، وفاندي، وجون لاندري.

كانت تقارير فارنيش اليومية هي الأكثر تفصيلاً وطولاً، وتشمل حوادث العصيان الفردية للسجناء، لكنه كان نادر التعليق على ما يفعله الحراس ولا تشير أي من تقاريره إلى وجود مؤثرات نفسية فاعلة لديه، لم يعاقب السجناء أبدًا إلّا لمخالفة القواعد ولم يعاقبهم بشكل تعسُّفي، أدّى فارنيش دوره بتقمص كامل فكان يتحول إلى حارس سجن حقيقي أنّى تواجد في هذا المكان. لم يكن متطرفًا في سلوكه ولا قاسيًا مثل بعض زملاءه، أرنيت وهيلمان على سبيل المثال، كما إنه لم يسع إلى نيل حُبّ السجناء مثل البعض الآخر، جيوف لاندري مثلاً، كان يؤدي وظيفته بأعلى كفاءة ممكنة. أجد في المعلومات عنه بين يدي أنه يعتبر نفسه مغرورًا بعض الأحيان مع لمسة دوغمائية بسيطة.

قال فارنيش: «في بعض الأوقات كان هناك ميل واضح لتوفير الجهود وعدم مضايقة السجناء قدر ما نستطيع».

الطريقة التي تسيطر فيها الأدوار لا على مشاعر الشخص فحسب؛ ولكن على عقله

(١) التقييم النهائي للحارس.

(٢) التقييم النهائي للحارس.

كذلك كانت واضحة بشكل لافت في تحليلات فارنيش لنفسه بعد انتهاء الدراسة:

«عندما بَدَأت التجربة ظننت أنني سأتصرف على نحو يلائمها، لكن مع مرور الوقت فوجئت بأن المشاعر التي أردت فرضها على نفسي بدأت تسيطر علي، بدأت أشعر بأني حارس سجن فعلاً وكنت أحسب نفسي غير قادر على هذا النوع من السلوك. كنت متفاجئًا بشدّة - بل فزعًا - حين وجدت أن بإمكاني التصرف على نحو لم يخطر ببالي قطعًا أنني قد أُقدِم على مثله، وحين أقدمت عليه لم أشعر بالندم أو بالذنب، ولم يحدث أن انتابتني هذه المشاعر إلا بعد انقضاء التجربة حين بدأت أتفكر فيما فعلته، وفي أن هذه السلوكيات بدأت تظهر علي وأدركت أنها كانت جزءًا كامنًا في لم ألاحظه قبلاً»[1].

السجين ٥٧٠٤ ينال المزيد من التعذيب

كان هجوم بول ٥٧٠٤ على سيروس هو موضوع الحديث الرئيسي في غرفة الحراس أثناء تبادل النوبات في العاشرة صباحًا وحين تبديل الملابس لبدء النوبة أو إنهائها، واتفقوا على أن ٥٧٠٤ يحتاج انتباهًا وتقويمًا خاصًا إذ لا يمكن التهاون مع مهاجمة أحد أفراد الحراسة.

لم يكن السجين ٥٧٠٤ حاضرًا في إحصاء الساعة ١١:٣٠ صباحًا لأنه كان مقيدًا إلى سريره في الزنزانة (١). أمر الحارس أرنيت الجميع بأداء تمرين الضغط سبعين مرة بسبب عصيان ٥٧٠٤، وعلى الرغم من ضعف السجناء البدني وإنهاكهم الشديد بسبب قلة الغذاء والنوم؛ لكنهم قاموا بتأدية عدد ليس بقليل من تدريبات الضغط لا أستطيعه أنا مهما نلت قسطًا جيدًا من النوم والراحة، كانوا يقاسون ظروف الرياضيين رغمًا عنهم وبشكل مزرٍ.

لمواصلة المشهد الساخر من اليوم السابق أُجبر السجناء على الغناء بوضوح وصوت عالٍ: «أوه، يا له من صباح جميل» و«الهبة الجميلة»، مع كورال «جدف، جدف، جدف بقاربك (Row, Row, Row your boat)». بعد فترة قصيرة من انضمام بول ٥٧٠٤ إلى زملاءه في غناء هذا الكورال واصل بول عصيانه الشفوي، ومجددًا أُلقي به في الحفرة، عاود الكرّة ورفس الفاصل الخشبي الذي يفصل بين جزئي الحفرة صارخًا لاعنًا؛ فجرّه الحراس خارجًا وقيّدوا يديه وقدميه ثم أعادوه إلى الزنزانة (٢) إلى حين الانتهاء من إصلاح الدمار الذي خلّفه في الحفرة. الآن أصبح للحبس الانفرادي قسمان منفصلان لأيّ سجينين يحتاجان إلى التأديب في الوقت نفسه.

---

(١) محطة (NBC)، برنامج (Chronolog)، سنة ١٩٧١م، وكان فارنيش طالبًا في بكلية الاقتصاد في عامه الثالث.

تمكن بول ٥٧٠٤ بطريقة ما وبنفس قدرة السجناء الحقيقيين على الابتكار من نزع مسامير قفل زنزانته ثم أغلق الباب على نفسه من الداخل وجعل يسخر من الحُرّاس، ومرة أخرى اقتحم الحراس الزنزانة وأعادوه إلى الحفرة التي كانوا قد انتهوا من إصلاحها، ثم ذهبوا به لاحقًا في اليوم نفسه إلى لجنة الإفراج المشروط لجلسة تأديبية.

أخيرًا تمكنت تشغيبات ٥٧٠٤ من زعزعة المظهر الصارم للحارس أرنيت والذي عمل على ترسيخه بعناية. يمتلك أرنيت من بين جميع الحراس الخبرة الأكبر تعلقًا بكونه حارسًا؛ فهو واحد من أكبرهم سنًا، طالب مُتَخَرِّج من قسم علم الاجتماع، قام بالتدريس في ثلاثة سجون للأحداث، وسبق اتهامه (ثم تمت تبرئته) «بالتجمع غير القانوني» على سبيل الاحتجاج للمطالبة بحقوق مدنية. كان حارسًا لا يحركه أي تعاطف ناحية السجناء حيث يتبنى سلوكًا مهنيًا احترافيًا طيلة وجوده في الساحة، كانت دقته في إيصال أوامره شفهيًا لا تقل عن دقة استخدامه لإشاراته الجسدية المدروسة بعناية، واكتسب مكانة سُلطوية كبيرة - كما لو كان مذيعًا مخضرمًا في التلفاز - من خلال حركات رأسه ورقبته وأكتافه الموحّدة والمتزامنة مع إشارات يده ومعصمه. يتعمد أرنيت بلسان حاله ومقاله إيصال انطباع باندماجه المحدود مع ما يجري حوله، ويصعب تصوّر وجود ما يمكن أن يكدّره بقدر ما يصعب تصور وجود من يمكن أن يتحداه:

«عن نفسي، تفاجأت قليلاً من هدوئي طيلة الوقت، شعرت بالغضب لوهلة مرة واحدة فقط عندما فك ٥٧٠٤ مقبض الباب ووكزني في معدتي بعصاي الخاصة (التي كنت قد وكزته بها للتو)، في ما عدا ذلك كنت أشعر بالارتياح. لم أختبر مطلقًا أي إحساس بالسطوة أو النشوة عند كبت الناس أو توجيه الأوامر لهم»[١].

وظّف أرنيت معرفته بعلم الاجتماع بما يعود عليه بالنفع في هذا السجن:

«كنت مدركًا من خلال اطلاعي وقراءاتي أن حالة الضجَر وبعض الجوانب الأخرى لحياة السجون يُمكن أن تُستغل لجعل السجناء يشعرون بالاضطراب عن طريق التصرف حيالهم بوجوم، أو بجعلهم يقومون بأعمال مملة، وكذلك بمعاقبة جميع السجناء بسبب سلوك سيء لبعضهم، أو بالتحقير من تنفيذهم المتقن لطلباتنا التافهة وقت أداء التمارين. كنت واعيًا لقوة أولئك الذين يمسكون بزمام السيطرة في الأوساط الاجتماعية وحاولت زيادة شعور السجناء بالغُربة باستخدام تلك الأساليب استخدامًا محدودًا للغاية لأني لم أرد أن أكون قاسيًا»[٢].

---

(١) التقيم النهائي للحارس.

(٢) مكرات الحارس.

في معارضته للإفراج المبكر عن السجين ٥٧٠٤ كتب الحارس أرنيت إلى اللجنة: «أجد صعوبة في تذكر قائمة مخالفات ٥٧٠٤ الآن، دائم التمرد مع نوبات مفاجأة من العنف والاكتئاب، ويحرض بقية السجناء على العصيان وعدم التعاون بشكل مستمر، يسيء السلوك حتى عند علمه بأن هذا سيؤدي إلى معاقبة بقية السجناء، على لجنة التأديب أن تعامله بقسوة».

السجين ٤١٦ يواجه النظام بإضراب عن الطعام

لم يكن السجين ٥٧٠٤ هو مصدر القلق الوحيد، لقد مسّ جنون المكان الذي بدأنا نعتاد عليه منذ اليوم الأول، السجين الجديد ٤١٦ الذي وصل بالأمس ليحل محل أول سجين يُفرج عنه، داج ٨٦١٢، لم يصدق هذا الذي يحدث أمامه وأراد الانسحاب مباشرة، لكن زملاءه في الزنزانة أخبروه بالتصريح الكاذب الذي أكده ٨٦١٢ بأن المغادرة ليست ممكنة، «بأنهم» لن يسمحوا لأحد بالرحيل قبل انقضاء المدة المحددة. تذكرت ذلك البيت الشهير من أغنية «فندق كاليفورنيا»: «بإمكانك أن تطلب المغادرة وقتما شئت، ولكنك لن تستطيع الرحيل».

اختار السجين ٤١٦ بدلاً من تحدي هذا الادعاء الكاذب أن يتهرب بسلبية، وكان مما صرح به لاحقًا قوله: «طوّرتُ خطتي، وتمسكت بالثغرة الموجودة في العقد الذي كُتِب على عجل، ولكن ما الذي يمكنني فعله سوى تقديم التظلُّمات؟ بإمكاني التمرد مثل بول ٥٧٠٤ لكن بأساليب قانونية للخروج من هنا، لم أكن أهتم كثيرًا بما تمليه عليّ مشاعري على الرغم من استرشادي بها لتحقيق هدفي. اخترت بدلاً من ذلك استنزاف ما تقوم عليه هذه التجربة بأن أكون عصيًّا، برفض كل المكافآت وقبول جميع العقوبات». (لا أتوقع أن ٤١٦ كان على دراية بأنه استخدم الاستراتيجية ذاتها التي اتبعتها المجموعات العمالية المنظمة في صراعها ضد الإدارة «بالتمرد في إطار القواعد» والمعروفة رسميًّا باسم «العمل بقدر المنصوص عليه» وذلك في كل شأن من شؤون العمل في سبيل الكشف عن الضعف الكامن في النظام)[1].

---

(١) «اعمل وفقًا للقواعد Work to rule» لتعريف مبدأي انظر:
(http:/en./wikipedia.org.wiki/Work_to_rule):
كسياسة، فإن العمل وفقًا للقواعد هو بديل يلجأ إليه العمال بدلاً من الإضراب العام، لأن عمال الطوارئ مثل أفراد الشرطة وأفراد مكافحة الحريق سيفصلون مباشرة ويستبدلون حال دخولهم في إضراب. أول سابقة تقريبًا في الولايات المتحدة هي إضراب الشرطة الشهير سنة ١٩١٩. فعزل حاكم ماساشوستس ١٢٠٠ رجل شرطة بسبب الإضراب وقال: «لا يحق لأي شخص أن يضرب عن الأمن العام، في أي مكان، في أي وقت»، وهو تصريح يستخدم الآن على نطاق واسع. اكتسب الحاكم شعبية ساهمت في وصوله إلى منصب نائب الرئيس ثم =

قرر ٤١٦ أن يشرع في الصوم وذلك برفض الطعام الذي قدمه له الحراس، بذا سيسلبهم إحدى وسائل سيطرتهم على السجناء، هزاله وجسده الذي يكاد يخلو من العضلات ووزنه البالغ ٦١ كيلوغرامًا مقابل طول يبلغ ١٧٦ سم جعلتني أعتقد لوهلة أنه ضحية مجاعة.

بِأَوْجُهٍ ما كان كلاي ٤١٦ أكثر السجناء تأثرًا منذ يومه الأول في سجن بلدية ستانفورد كما أخبرنا في تحليله الشخصي، والبعيد عن الشخصنة في الوقت ذاته:

«بدأت أشعر بأنني أفقد هويتي، ذلك الشخص الذي أدعوه كلاي، الشخص الذي وضعني في هذا المكان، والذي تطوع للدخول في هذا السجن، كان سجنًا بالنسبة لي وما يزال، ولا أنظر إليه على أنه مجرد تجربة أو محاكاة للسجون؛ بل هو سجن حقيقي يديره مجموعة من علماء النفس بدلاً من الولاية، بدأت أشعر بأن هويتي والشخص الذي كنته والذي قرر دخول السجن كان بعيدًا عني ثم في النهاية لم أعد ذلك الشخص، أصبحت ٤١٦، كانت هويتي هي رقمي وكان على ٤١٦ أن يُقرِّر ماذا سيفعل، وهذا ما كان عندما اتخذت قرار الصوم. قررت الصوم لأن الطعام هو المكافأة الوحيدة التي يقدمها لك الحراس، لطالما هددوا بعدم تقديم الطعام لكنهم في الحقيقة كانوا ملزمين بتقديم الطعام، وهكذا توقفت عن الأكل وبهذا أصبح لي نوع سلطة على شيء، فقد وجدت أن هذا هو الشيء الوحيد الذي لن يتمكنوا من فرضه علي، وفي نهاية المطاف سيعرضون أنفسهم لمشكلات كبيرة إن لم يتمكنوا من إرغامي على تناول الطعام، وبذا كنت أوجه لهم شيئًا من الإهانة بقدرتي على الصوم»[1].

بدأ برفض وجبة الغداء، ذكر أرنيت أنه سمع ٤١٦ يخبر زملاءه في الزنزانة بأنه لن يتناول أي طعام قبل الحصول على التمثيل القانوني الذي طالب به، قال: «على الأرجح ستخور قواي بعد اثنتي عشرة ساعة، فما الذي بإمكانهم فعله حينها؟ سيضطرون

= رئاسة الولايات المتحدة. وكانت هناك حالةٌ سنة ١٩٦٩م تورطت فيها شرطة أتالانتا *Atalanta* استخدمت فيها أخوية الشرطة (Fraternal Order of Police, FOP) تكتيك إبطاء العمل الشبيه تمامًا بأسلوب اعمل وفقًا للقواعد. لم يكن نشطاء الهيبيز يقبض عليهم في هذا الوقت وكانت الشرطة تعاملهم معاملة حسنة، وهو ما لاقى قبولاً واسعًا على الرغم من كونها سياسة غير رسمية. بدأت أخوية الشرطة (FOP) في «الإبطاء» احتجاجًا من أجل تحسين الرواتب وساعات العمل (بين أمور أخرى) وذلك بإصدار عدد كبير من المخالفات لأفراد الهيبيز ومتجاوزين آخرين، وهو ما زحم المنظومة الإدارية وجعل مواصلة العمل بكفاءة أمرًا مستحيلاً. في هذا الوقت كان هناك خوف من انتشار الجريمة، لكن تمت مقايضة الشرطة بعد ذلك على تحسين رواتبهم ووضعهم. انظر:
M. Levi, *Bureaucratic Insurgency: The Case of Police Unions* (Lexington, MA: Lexington Books, 1977); International Association of Chiefs of Police, *Police Unions and Other Police Organizations*, (New York: Arno Press and *The New York Times*, 1971) (Bulletin no. 4, September 1944).

(١) اللقاء الختامي مع السجين.

للاستسلام». لم ير فيه أرنيت سوى سجين «متعجرف يتحدث بوقاحة»، فهو لا يجد أي نبل في هذا الإضراب عن الطعام.

لدينا هنا سجين جديد يشرع في خطة عصيان جريئة ويتحدى سلطة الحراس بشكل مباشر. من الممكن أن يجعل منه تصرفه بطلاً سلميًّا يلتف حوله الجميع ليستفيقوا من غيبوبة الطاعة العمياء، كما فعل مهاتما غاندي من قبل. وعلى النقيض منه كان واضحًا أن العنف المستعمل من قبل ٥٧٠٤ ليس بناجع في مكان تميل فيه موازين القوى لصالح النظام. كنت آمل أن يلجأ ٤١٦ إلى خطة أخرى وأن يُشرِك السجناء معه في عصيان عام مستخدمين الإضراب عن الطعام كتكتيك بهدف تحسين المعاملة القاسية، لكنني كنت قلقًا من كونه متشرنقًا على نفسه ما جعله غير واعٍ بحاجته إلى إشراك زملائه ليصنعوا مجموعة معارضة أكبر.

انهيار سجينين آخرين

يبدو أن المشكلات التي تسبب بها كل من ٥٧٠٤ و٤١٦ كانت حجر الدومينو الأول الذي بدأت بعده سائر الأحجار بالسقوط، كانت والدة السجين ريتش ١٠٣٧ على حق، رأته في حالة سيئة، وأنا الآن أراه في حالة سيئة أيضًا، لقد أصبح أكثر اكتئابًا بعد مغادرة عائلته عقب انتهاء ساعات الزيارة، ربما كان يتمنّى لو أُصرّوا على أخذه معهم لكنه بدلاً من قبول رأي والدته الدقيق بخصوص وضعه سيطر عليه اعتقاد أن رجولته على المحك؛ فأراد إثبات قدرته على التحمُّل كما يفعل «الرجال» لكنه لم يستطع، ومثل زميليه ٨٦١٢ و٨١٩ في الزنزانة (٢) التي بدأ منها التمرُّد أصالة؛ ظهرت عليه أعراض توترٌ حادٍ إلى درجة اضطرتني إلى اصطحابه إلى غرفة هادئة خارج ساحة السجن حيث أخبرته أن من الأفضل أن يُفرَج عنه في الحال، كان سعيدًا ومتفاجئًا بهذه الأخبار الجيدة، وأثناء مساعدتي له في تغيير ملابسه كان لا يزال غير متزن، أخبرته بعدها أنه سيحصل على مستحقاته المالية كاملة وأننا سنتواصل معه قريبًا هو وبقية الطلبة لمناقشة نتائج الدراسة واستكمال بعض الاستبيانات النهائية وإعطائهم مستحقاتهم.

قال السجين ١٠٣٧ لاحقًا أن أسوأ جزء من التجربة كان «الوقت الذي شعرت فيه أن الحراس يُعبِّرون عن مشاعرهم الحقيقية لا أنهم يمثلون فقط دور الحراس؛ فعلى سبيل المثال في مرّات كثيرة أثناء أداء التمارين كنّا نبلغ حدًّا نشعر معه بمعاناة حقيقية، لكن بعض الحرّاس بدا عليهم الاستمتاع الكبير بمعاناتنا»[1].

---

(١) استطلاع رأي أداه السجين قبل التجربة.

عندما أتى والدا السجين ١٠٣٧ لاصطحابه أثناء ساعات الزيارة اتضح أن تأثير نبأ الإفراج عنه لم يكن جيدًا على السجين ٤٣٢٥، والذي كان أكثر اضطرابًا مما قد يتوقع أيٌّ منا، بدا «جيم الضخم» كما يحب أن يناديه أعضاء فريقنا البحثي شابًا واثقًا من نفسه تشير جميع اختبارات القبول التي خضع لها إلى أنه كان في المُعدّلات الطبيعية لكافة المقاييس، لكن مع ذلك انهار تمامًا عصر هذا اليوم.

«عندما حان موعد مثولي أمام لجنة إطلاق السراح امتلأت على الفور بأمل الحصول على إفراج، لكنني انهرت تمامًا عندما أفرجوا عن ريتش ١٠٣٧ ولم يفرجوا عنّي، كان وقع هذا الحدث عليّ شديدًا مما فاقم من يأسي وكان الانهيار هو النتيجة. تعلَّمت أن مشاعري كانت أكثر حضورًا مما ظننت، وأدركت كم كانت حياتي رائعة، إذا كانت السجون الحقيقية تشبه هذا المكان بأي شكل من الأشكال؛ فلست أدري كيف يمكنها أن تساعد أحدًا»[1].

أعدت عليه نفس كلامي مع ١٠٣٧، أننا سنفرج عنه قريبًا لحسن سلوكه وأن لا مشكلة إن غادر مبكرًا، شكرته على مشاركته واعتذرت له عن قسوة التجربة، وأخيرًا دعوته إلى العودة قريبًا لنتبادل الآراء حولها. أردت أن يأتي جميع الطلبة معًا لمشاركة ردود أفعالهم وقد ابتعدوا قليلاً عن هذه التجربة غير العادية. جَمَع متعلقاته وغادر في هدوء بعدما أكّد لنا عدم حاجته إلى زيارة معالج نفسي في مركز الرعاية الصحية للطلبة.

وجدنا ما يلي في سجل آمر السجن: «كان رد فعل السجين ٤٣٢٥ سيئًا ما استدعى إطلاق سراحه في الساعة ٥:٣٠ م بسبب ردود الفعل الخطيرة المماثلة لتلك التي ظهرت من قبله على ٨١٩ [ستو]، و٨٦١٢ [داج]»، أضاف السجل أيضًا حقيقة مثيرة عن عدم ذكر السجناء ولا الحراس إطلاق سراح السجين ٤٣٢٥، ذهب ونُسي، رقد في سلام. من الواضح الآن وفي خضم هذا الاختبار العصيب لقوة التحمّل أن لا أحد يعبأ إلا بالحاضرين، لا بمن كان حاضرًا، البعيد عن العين بعيد عن القلب بكل تأكيد.

خطابات من سجن ستانفورد

ذكر الحارس ماركوس في تقريره: «أثناء كتابة السجناء الخطابات التي ستُرسَل لاحقًا لذويهم والتي كانوا يعبّرون فيها عن مدى استمتاعهم بوقتهم هنا كما فعلوا في المرة السابقة؛ لم يتمكن السجين ٥٤٨٦ [جيري] من كتابة خطابه إلا بعد المحاولة الثالثة». «سلوك السجين واحترامه لسلطة الحراس في انحدار مستمر بعد أن كان في الزنزانة المميزة

[1] التقييم الختامي للسجين.

(٣) أول أيام التجربة؛ فمنذ إعادة توزيع السجناء على الزنازين بدأ ٥٤٨٦ بالتأثر بزملائه الجدد وأصبحت التعليقات اللاذعة سمة أساسية لسلوكه وخاصة أثناء الإحصاء، الهدف الوحيد لجميع تصرفاته هو التقليل من شأن سلطة السجن».

قام أرنيت في تقريره بتحديد هذا السجين النموذجي سابقًا بوصفه معضلة جديدة: «٥٤٨٦ في انحدار مستمر مذ فُصل عن ٤٣٢٥ و٢٠٩٣ في الزنزانة (٣)، أصبح أشبه بالمهرج، يجب تقويم هذا السلوك غير المقبول قبل أن يُقدم على شيء خطير».

جون لاندري، الحارس الثالث في نوبة النهار كان هو الآخر منزعجًا حين «سخر ٥٤٨٦ من كتابة الخطابات والتي كانت علامة على عدم تعاونه بشكل عام، أقترح معاقبته بجعله يعيد كتابة الخطاب ١٥ مرة».

كريستينا تنضم إلى حفلة المجانين

بعد أن أنهت لجنتا إطلاق السراح المشروط واللجنة التأديبية مشاورات يوم الخميس؛ كان على كارلو العودة إلى المدينة لأمر طارئ، كنت سعيدًا أني لن أدعوه إلى العشاء، فقد أردت حضور ساعات الزيارة المبكرة المرتّب لها بعد تناول السجناء عشاءهم مباشرة وكان عليّ الاعتذار إلى السيدة ي والدة السجين ١٠٣٧ على سلوكي المتبلّد تلك الليلة، وأردت كذلك عشاءً هادئًا هذه الليلة مع الوافدة الجديدة، كريستينا ماسلاش.

حصلت كريستينا مؤخرًا على درجة الدكتوراه في علم النفس الاجتماعي من ستانفورد، وكانت على وشك بدأ مسيرتها العملية كأستاذة مساعدة في بيركلي لتصبح واحدة من أوائل النساء اللاتي وُظّفن في كلية علم النفس منذ عقود. كانت جوهرة في رقتها، ذكية وهادئة ومتحفظة. نظرًا لاجتهادها والتزامها بالعمل بوصفها باحثة وأستاذة في علم النفس فقد سبق لها العمل معي مساعدة في التدريس، وشريكة مهمة في أبحاثي، وكذلك مُحرّرة غير رسمية لعدد من كتبي.

أعتقد أنني كنت سأقع في حبها حتى لو لم تكن بارعة الجمال؛ فبالنسبة لشاب فقير من حيّ برونكس؛ فتاة كاليفورنيا الأنيقة تلك حلمٌ تحوّل إلى حقيقة، لكنني كنت مضطرًا للحفاظ على مسافة آمنة بيننا حتى لا تكون توصيتي بتعيينها متأثرة بعلاقتي الشخصية، أما الآن وقد حصلت على واحدة من أفضل الوظائف في البلاد بمجهودها الخاص؛ فنستطيع الاستمرار في علاقتنا بشكل علني.

لم أحدّثها كثيرًا عن دراسة السجن فقد كان مقررًا أنها وبعض الزملاء وطلبة الدراسات العليا الآخرين سيقومون بتقييم دقيق لفريق العمل والسجناء والحراس في اليوم التالي، يوم الجمعة، منتصف طريق مدة دراستنا الممتدة لأسبوعين، كان لدي شعور بأنها

لم تكن راضية عما رأت وسمعت عصر ذلك اليوم أثناء مشاورات لجنة التأديب، لم يكن ما أزعجني شيء قالته؛ لكن ما أزعجني أنها لم تقل شيئًا على الإطلاق. كنا سنناقش رأيها في كارلو وفي هذا السيناريو أثناء عشاءنا المتأخر وكذلك كافة المعلومات التي أمّلتُ أنها قد تحصّلت عليها من مقابلات يوم الجمعة.

وَفّى القسّ بوعده

قام القسيس الذي يعرف أن هذا مجرد سجن صوري بإضافة المزيد من الواقعية إلى محاكاة السجن هذه وذلك بتأديته لدوره ذاك اليوم بجدية شديدة، والآن هو ملتزم بالوفاء بوعده بمساعدة أي شخص يستعين به. اتصل الأب مكديرموت بوالدة هابي ٧٢٥٨ وأخبر السيدة ويتلو بحاجة ابنها إلى تمثيل قانوني إذا كان يريد الخروج من السجن، وبدلاً من أن تقول ببساطة أنها ستعود بابنها إلى المنزل ليلة الزيارة التالية إذا كان يريد الخروج بشدة؛ نفّذت السيدة ويتلو ما طُلِب منها، اتصلت بابن أخيها تيم الذي يعمل محاميًا في مكتب المدعي العام والذي اتصل بي بدوره، فاتفقنا على ترتيب موعد ليزورنا بصفة رسمية صباح يوم الجمعة ليضيف عنصرًا واقعيًا جديدًا لتجربتنا التي تنضج إلى درجة غير معقولة. مسرحيتنا الصغيرة تبدو وكأنما يكتبها الآن فرانز كافكا بوصفها تتمة سريالية لروايته «المحاكمة»، أو ربما كنسخة جديدة للويجي بيرانديللو (Luigi Pirandello) من «المتأخرة ماتيا باسكال» (*Il Fu Mattia Pascal*) أو عمله الأكثر شهرة «ستة شخصيات تبحث عن مؤلف» (*Six Characters in Search of an Authoer*).

بطلٌ لا يُرى

في بعض الأحيان نحتاج أن نبتعد بعض الوقت حتى نتبيّن الدروس المهمة للحياة. يمكن أن يُمَثِّل كلاي ٤١٦ تجسيدًا لعبارة مارلون براندو الكلاسيكية «كنت أستطيع المنافسة» في فيلم (On the Water Front) ليقول كلاي ٤١٦ بدلاً من ذلك «كنت أستطيع أن أصبح بطلاً»، لكن وفي لهيب الأحداث لم يكن في عين الجميع إلا «مُشاغبًا» يتسبب في المعاناة لزملائه، متمردٌ دون سبب واضح.

تحتاج البطولة عادةً إلى تأييد اجتماعي، نحتفل بالأفعال البطولية التي يقوم بها الشجعان، لكنا نحجم عن ذلك إن كنا سنشارك في دفع تكلفة أفعالهم تلك وخاصة عندما لا نفهم دوافعهم. ومن ثمّ فإن بذور المقاومة البطولية تنبُت بشكل أفضل عندما يشترك جميع أعضاء المجتمع في قبول الألم والمعاناة من أجل قيم وأهداف مشتركة، رأينا مثال ذلك في مقاومة نيلسون مانديلا للفصل العنصري عندما كان مسجونًا في جنوب أفريقيا، من

ذلك أيضًا شبكات من الناس من عدّة دول أوروبية نظمت مناطق هروب ومخابئ لليهود لينجوا من الهولوكوست النازي، كما أن الإضراب عن الطعام كان وسيلة استخدمت في تحقيق أهداف سياسية، حيث قام قادة الجيش الجمهوري الأيرلندي (IRA) بالصوم حتى الموت أثناء حبسهم في سجن بيلفاست لونج كيش (Belfast Long Kesh)، استخدموا هم وغيرهم من جيش التحرير القومي الأيرلندي (INLA) الإضراب عن الطعام للفت الانتباه إلى وضعهم كسجناء سياسيين بدلاً من توصيفهم بالمجرمين[1]. مؤخرًا أقدم العديد من المعتقلين في سجن جوانتانامو العسكري التابع للولايات المتحدة في كوبا على إضراب ممتدّ عن الطعام كوسيلة للاحتجاج على الأوضاع غير القانونية وغير الإنسانية لاعتقالهم وللفت نظر وسائل الإعلام إلى قضيتهم.

بالنسبة لكلاي ٤١٦، فعلى الرغم من امتلاكه خطة فعّالة للمقاومة على المستوى الشخصي؛ إلا إنه لم يمنح نفسه الوقت الكافي لإشراك زملائه أو باقي السجناء فينضموا إليه، لو فعل هذا لتحولت خطته إلى مبدأ جماعي بدلاً من إهمالها واعتبارها مشكلة شخصية، كانت ستمثّل تحديًا جماعيًّا للمنظومة الشريرة بدلاً من اعتبارها مجرد ميول شاذّة. ربما لم يعرفه زملاؤه بما يكفي لكونه لم ينضم إلى المشهد إلا مؤخرًا، أو ربما شعروا بأنه لم يدفع بعدُ ما دفعوه هم من معاناة في الأيام والليالي الصعبة الأولى، في جميع الأحوال

---

(١) ترجع المؤرخة السياسية شيلا هوارد استخدام الإضراب عن الطعام كأداة سياسية إلى أول إضراب عن الطعام على الإطلاق قام به عضو البرلمان تيرينس ماكسويني (*Terenc MacSwiney*)، الذي مات بسبب ذلك سنة ١٩٢٠م في بحثه عن وضعه السياسي بصفته سجينًا. ذكر جيري أدامز (*Gerry Adams*) (قائد حركة نحن وحدنا Sinn Fein) أن ماكسويني أثّر في غاندي بشكل مباشر (انظر مقدمة كتاب بوبي ساندز *Bobby Sands*). بين عامي ١٩٧٦ و١٩٨١م وجدت فترات إضراب عن الطعام بين السجناء السياسيين الأيرلنديين، أخرها كان أشهرها حيث مات عشر رجال بسبب الإضراب وفيهم سبعة من الجيش الجمهوري الأيرلندي ـ IRA، أبرزهم أحد القادة بوبي ساندز (*Bobby Sands*)، وثلاثة أعضاء من جيش التحرير القومي الأيرلندي (INLA). أضرب السجناء الجمهوريين (IRA-INLA) في سجن لونج كيش *Long Kesh* (سجن المتاهة) في جنوب بيلفاست. من بين أساليب الاحتجاج الأخرى التي استخدمت أثناء الإضراب عن الطعام كان «احتجاج البطانيات» حيث رفضوا ارتداء ملابس السجن لأنها ترمز إلى معاملتهم كمجرمين، بدلاً من هذا كانوا يلتحفون البطانيات لتبقيهم دافئين أثناء الإضراب عن الطعام.

كتب بوبي ساندز سلسلة من الأشعار الملهمة لقضية الشعوب المحتلة خاصة في إيران وفي فلسطين في الشرق الأوسط. كانت الأعلام الفلسطينية كذلك ترفع إلى جانب الأعلام الأيرلندية ثلاثية اللون في مدينة ديري *Derry Twon* (ذات الأغلبية الكاثوليكية ـ القومية ـ الجمهورية) وكذلك في مناطق في بيلفاست. بعض المراجع ذات الصلة بالأمر:

Sheila Howard, *Britain and Ireland 1914-1923* (Dublin: Gill and Macmillan, 1997); Gerry Adams, Foreword to *Bobby Sands Writings from Prison* (Cork: Mercier Press; 1997); Von Tangen Page, *Prison, Peace, and Terrorism: Penal Policy in the Reduction of Political Violence in Northern Ireland, Italy, and the Spanish Basque Country, 1968-1997* (New York: St. Martin's Press, 1998).

كان «غريبًا» مثلما كان ديف (Dave) مخبرنا، بديل ٨٦١٢، لكن سرعان ما انضم ديف إلى حزب السجناء واصطف معهم في قضيتهم ضد النظام الذي عينه ليكون جاسوسًا واشيًا، في حين لم يكن الأمر كذلك بالنسبة لـ٤١٦، فقد كان ذا شخصية انطوائية مغتربًا عن زملائه، كان معتادًا على تولّي أموره وحيدًا، على العيش وحيدًا وفق طريقته المعقدة بعيدًا عن ميدان العلاقات المتبادلة، لكن كان لجموح شخصيته تأثير قوي على تفكير سجين واحد آخر على الأقل وإنْ كان ذلك بعد انتهاء تجربة السجن.

جيري ٥٤٨٦، السجين الذي وصفته لجنة إطلاق السراح المشروط بأنه «متحذلق» كان متأثرًا بشدة ببطولة ٤١٦ في مواجهة الاعتداء القاسي: «لقد انبهرت بعزيمة كلاي صوفية الطابع، وتمنيت لو كان موجودًا معنا منذ بداية التجربة، كان سيؤثر بقوة على مُجريات الأمور».

في آخر تأملاته، أضاف ٥٤٨٦:

«كان مثيرًا أن الجميع عارض كلاي ٤١٦ الذي كان أول نموذج حقيقي لشخص صلب اتخذ قراره برفض أكل النقانق تمامًا. لو كان موجودًا منذ البداية لأصبح قدوةً للجميع، لقد قال كثر أنهم سيستخدمون القوة وسيضربون ويتحركون بسرعة إلى آخر تلك الأشياء، لكن في النهاية عندما جاء الشخص الذي امتلك القدر من الشجاعة ليقوم بهذا وقف الجميع في وجهه، فضّلوا القدر الضئيل من الراحة الذي امتلكوه على رؤية شخص يتمسك بمبادئه».

واصل جيري ٥٤٨٦ حديثه عن عدم رضاه عن الصدام بين ٤١٦ و٧٢٥٨، «بين هابي وكلاي حول النقانق والحبيبة»، لقد فهم المعنى الحقيقي لهذا الصدام بشكل أفضل بعدها لكنه لم يدرك ذلك حينها وقد كان قادرًا على التدخل لإيقافها:

«تبين لي أن الجميع كانوا متورطين في الأمر، وأنهم جميعًا كانوا يعانون ويتسببون بالمعاناة للآخرين، كان مؤسفًا رؤيتهم يمرون بهذا، خاصة أن [هابي] لم يدرك ذلك، لولا حبيبته لكان الخطأ خطأ «جون واين» لا كلاي، لكن هابي ابتلع الطعم وجعلهم يمزقونه إربًا»[1].

في تلك الأثناء ومع إعادته إلى الحبس الانفرادي بدأ كلاي ٤١٦ يُكيِّف نفسه متبعًا الأساليب البوذية على نحو جعل من سجيننا البوذي بول ٥٧٠٤ فخورًا به عالمًا أنه كان يستخدم تكتيك زِن البوذي في تصفية ذهنه.

«كنت أؤدي تدريبات التأمُّل وتصفية الذهن بشكل مستمر، مثلاً، عندما أرفض وجبة

---

(١) التقييم الختامي للسجين.

العشاء ويأتي الحارس بوردان بجميع السجناء لمحاولة إقناعي بأن الزيارات ستُلغى إذا لم أتناول طعامي إلى آخر هذا الهُراء الذي غلب على ظني أنه لن يحدث؛ لم أكن واثقًا لكن هذا ما قدّرته؛ أبدأ بالتحديق في قطرة الماء على قطعة النقانق اللامعة في طبقي المعدني، كنت أحدّق في تلك القطرة وأركز بعمق فلا يستطيع أحد بعدها أن يزعجني، لقد مررت بتجربة دينية في الحفرة»[1].

وجد هذا الفتى الهزيل سلامه الداخلي في المقاومة السلمية بالتحكم في جسده وتوجيه نفسه بعيدًا عن الحراس. قدم كلاي ٤١٦ هذا التقرير المؤثر عن اعتقاده بأنه انتصر في معركة الإرادة الشخصية في مواجهة القوة النظامية:

«مُجرَّد رفضي الطعام أمام حارس نوبة الليل المسيطر جعلني سعيدًا للمرة الأولى منذ دخلت هذا المكان، أسعدني إغضاب الحارس هيلمان؛ بل كنت أغتبط حين يلقون بي في الحفرة طوال الليل، أغتبط لعلمي بأنني استنزفت مصادر قوته (وبدأت في استخدامها ضده). فوجئت أيضًا بأنّني أمتلك خصوصية في العزل الانفرادي، كانت عزلة فخمة، إيقاع العقوبة بالآخرين كان آخر همّي، كنت أقامر على حدود الموقف، وعرفت يقينًا أن الزيارات لا يُمكِن إلغاؤها؛ فجهَّزت نفسي للبقاء في الحفرة حتى الصباح. في الحفرة كنت أبعد ما أكون عن كلاي، كُنت ٤١٦، قبلت بهذا بل وكنت فخورًا بكوني ٤١٦، فقد أصبحَتْ للرقم هوية في داخلي لأن ٤١٦ قد وجد طريقه ليستجيب للموقف، لم يعد هناك من داعٍ للتشبّث بالرجولة المستمدة من اسمي القديم. في الحفرة، كان هناك خط ضوء يبلغ طوله حوالي الأربع بوصات يمتد من أعلى إلى أسفل عبر الشق الموجود بين بابي الحجرة. بعد حوالي ساعتي الثالثة هنا امتلأت سكينة من تأملي هذه البقعة من الضوء، كانت أجمل ما في السجن، لست متحيزًا، كانت الشيء الأكثر جمالاً بالفعل، أذهب وانظر بنفسك. بعد إخراجي حوالي الساعة ١١ م وعودتي إلى سريري شعرت بأنني انتصرت، أن إرادتي - حتى الآن - كانت أقوى من الموقف ككل، ونمت جيدًا تلك الليلة».

التابع يحمل روحًا داخله

أخبرني كيرت بانكس أن الحارس الأقل استحقاقًا للاحترام من بين الجميع هو بوردان لأنه متملق صغير، يتملق هيلمان ويعيش في كنف الشاب الضخم. لديّ نفس شعوره على الرغم من أن للسجناء وجهة نظر مختلفة؛ فهنالك آخرون أكثر خطورة على

(١) اللقاء الختامي للسجين وهو نفس مصدر الاقتباس المطوّل.

صحتهم العقلية وقابليتهم للبقاء. قال أحد أعضاء فريق العمل أنه سمع بوردان يتبجح بأنه أغوى زوجة صديقه ليلة البارحة، فقد اعتاد ثلاثتهم أن يلعبوا القمار معًا كل أسبوع، وعلى الرغم من أنه لطالما كان منجذبًا لأم الطفلين ذات الأعوام الثمانية والعشرين؛ إلا إنه لم يمتلك شجاعة الإقدام قبل الآن، ربما إحساسه الجديد بالسلطة هو ما منحه الشجاعة لخداع صديقه القديم، إن كان ذلك صحيحًا فهو سبب آخر لبغض هذا الشاب. وجدنا بعد ذلك أن والدته كانت هاربة من ألمانيا النازية مما جعلنا نضيف بعدًا جديدًا في تقييمنا لهذا الشاب ذي الشخصية المركبة.

كانت تقارير تبادل النوبات التي يكتبها بوردان تعطي على نحو مذهل صورة دقيقة تمامًا عن سلوك أعضاء فريق العمل الإصلاحي:

«لدينا أزمة سيطرة، [صيام ٤١٦] يؤثر بشكل سلبي على سيطرتنا على بقية السجناء. تعلّمت سمات العديد من الأرقام [من اللافت أن يُسميهم بالأرقام، نموذج صارخ على هدر ذاتية السجناء]، وأنوي استخدام هذه المعلومات في مضايقة السجناء وهم في السجن».

أشار أيضًا إلى ضعف الدعم الذي يلقاه هو والحراس من فريق العمل: «واجهتنا مشكلة حقيقية وقت وجبة العشاء فتوجهت أنظارنا إلى سلطة السجن لنرى كيف نعالج هذا التمرد، فقد كنا قلقين بسبب عدم تناوله الطعام... كانوا غائبين بشكل غريب». (نحن مذنبون لعدم توفيرنا الرقابة والتدريب).

هدأت حِدّة انطباعي السلبي عن الحارس بوردان بعد ما فعله لاحقًا: «لا أستطيع تحمل فكرة بقاء ٤١٦ في الحفرة أكثر من هذا، الأمر خطير [لأن القواعد تحدد مدة البقاء في الحفرة بساعة]، دار جدال بيني وبين ديف وبعدها أعدت السجين الجديد إلى زنزانته». يضيف بوردان: «لكن بشيء من الغِلّ جعلته يأخذ النقانق معه إلى السرير»[1].

ونجد تأكيدًا لهذا الرأي في الحارس بوردان عند السجين جيري ٥٤٨٦، الوحيد الذي كان مستعدًا للتنازل عن بطانيته من أجل كلاي ٤١٦: «كنت منزعجًا من صياح جون واين المستمر، فجاء بوردان إلى زنزانتي لعلمه بتعاطفي مع كلاي وأخبرني أنه لن يستمر في الحفرة طيلة الليل، همس لي قائلاً: «سوف نخرجه حالما ينام الجميع»، ثم عاد للتظاهر بأنه الحارس القاسي، بدا وكأنما كان بحاجة لبعض التواصل القلبي الصادق وسط هذه العاصفة»[2].

---

(١) مذكرات الحارس.

(٢) مذكرات السجين.

لم يكن جيري ٥٤٨٦ في صف كلاي فحسب؛ بل بلغ به الأمر حد الإحساس بأن لقاءه به هو أفضل ما في هذه التجربة: «شاب واحد عرف ما يريد وكان على استعداد لتحمل أي شيء في سبيله، كان الشاب الوحيد الذي لم يستسلم ولم يتصدع ولم يستجد عون أحد»[1].

كتب بوردان في تقرير تبادل النوبات لتلك الليلة: «لا توحّد هنالك بين السجناء باستثناء ٥٤٨٦ الذي كان دائم المطالبة بامتيازات متماثلة للجميع». (أتفق، هذا أحد أسباب احترامي لجيري ٥٤٨٦ أكثر من أي سجين آخر).

زادت هذه التجربة المكثفة والموسعة من تقديري لمدى تعقّد الطبيعة الإنسانية؛ لأنك ما إن تظن أنك تفهم شخصًا ما حتى يتضح لك أن ما تعرفه عنه ليس إلا أقل القليل عنه، والذي ما توصلتَ إليه إلا من احتكاك محدود للغاية به، شخصياً كان أم بوساطة. على الرغم من احترامي للسجين ٤١٦ لصلابة إرادته في مواجهة معارضة شديدة له كتلك؛ إلا أنني اكتشفت أنه لم يكن بوذا المُسالم على الإطلاق، في لقائنا الأخير أخبرنا أنه فكّر في المعاناة التي يتعرض لها باقي السجناء بسبب إضرابه عن الطعام: «إذا كنت أحاول الخروج من هذا المكان وكان الحراس يصعّبون الأمور على البقية بسبب هذا؛ فلن أكترث».

قدَّم صديقه جيري ٥٤٨٦ وجهة نظر رائعة عن الخِدع الذهنية التي كان يلعبها - ويخسر - في هذا السجن:

«مع استمرار التجربة كنت أبرر أفعالي بالقول «إنها مجرد لعبة، أعرف هذا ويمكنني تحملها بسهولة، لا يمكنهم العبث بعقلي، سأستمر فيما أفعل». كان هذا التفكير كافيًا بالنسبة لي، وكنت أستمتع بالأمر وأعدّ نقودي وأُجهّز خطة الهروب. شعرت أنني مستجمعٌ أفكاري وأنهم غير قادرين على إزعاجي بسبب انفصالي عن كل شيء، كنت أراقب ما يحدث، لكن تبيّن لي الآن أنني مهما ظننت نفسي متماسكًا إلا إنني كنت أقل تحكمًا في سلوكي مما كنت أعتقد، أنني مهما كنت منفتحًا وودودًا ومفيدًا لبقية السجناء؛ فما زلت ذلك الشخص المنعزل المتمحور على ذاته، العقلاني أكثر من كونه متعاطفًا. تعايشت بصورة جيدة بأسلوبي الانفصالي، لكنني أدرك الآن أن هذا السلوك قد تسبب بالأذى للآخرين في مرات كثيرة؛ فبدلاً من تلبية احتياجاتهم كنت أفترض أنهم منفصلون عما يجري مثلي وبهذا كنت أبرر سلوكي الأناني.

أفضل مثال على هذا هو عندما كان كلاي [٤١٦] في حجرة العزل الانفرادي مع نقانقه... كنا أصدقاء، كان يعرف أنني في صفه حين شرع في صومه، وشعرت

(١) استطلاع رأي ما بعد التجربة أداء السجين.

بأنني ساعدته شيئًا ما على مائدة العشاء عندما حاول بقية السجناء إقناعه بتناول الطعام. لكن عندما دخل إلى الحفرة وقيل لنا أن نصرخ ونقرع الباب فعلت ما فعله الجميع، ثم بررت الأمر بسهولة بقولي: «إنها مجرد لعبة، كلاي يعرف أنني في صفه ولن يشكل ما أفعله الآن أي فارق، لذا سأستمر في مسايرة الحارس». لاحقًا، تبين لي أن وقع الصياح وقرع الباب كان قاسيًا على كلاي، كنت أعذب الشاب الذي أعجبت به أكثر من أي شخص آخر وأبرر الأمر بقولي «سأُنَفِّذ ما يطلبون، لكنهم لا يستطيعون السيطرة على عقلي» في الوقت الذي كان ما يدور في عقل الشخص الآخر هو المهم حقًا لا ما يدور في عقلي أنا، كيف كانت أفعالي تؤثر فيه؟ لم أدرك تبعات تصرفاتي وكنت بلا وعي أحمّل الحراس مسؤوليتها، لقد جعلت عقلي مبتوت الصلة عن أفعالي، كنت سأقدم على أي فعل طالما لن يؤذي زملائي جسديًّا ما دام بإمكاني الإلقاء باللوم على الحراس.

الآن أعتقد أنك ربما لن تستطيع الفصل بين ذهنك وأفعالك كما فعلت أنا أثناء التجربة، كنت فخورًا بمدى حصانة عقلي، فلم أغضب، ولم أسمح لهم بالتحكم فيه، لكن حين أعيد النظر في أفعالي يبدو لي أنهم امتلكوا سيطرة قوية ولكن خفية على عقلي»[1].

ما تفعلونه بهؤلاء الفتية مريع!

آخر جولة إلى دورة المياه يوم الخميس بدأت في تمام الساعة ١٠م، كانت كريستينا تعمل في المكتبة بعد أدائها مهمتها بهدوء مع لجنة إطلاق السراح والتأديب. لقد جاءت إلى السجن للمرة الأولى لتُقلّني إلى البلدة والمجمع التجاري القريب من الحرم الجامعي للعشاء في مطعم (Stickney)، كنت في مكتبي أراجع بعض الأمور اللوجستية لمقابلات الغد حين رأيتها تتحدث مع أحد الحراس، وعندما انتهت دعوتُها إلى مكتبي. قامت لاحقًا بوصف لقائها غير المعتاد بهذا الحارس:

«في أغسطس ١٩٧١م أنهيت الدكتوراه من جامعة ستانفورد وقد كنت أشارك كريج هاني في مكتبه، وكنت أستعد لبدءِ عملي بصفتي أستاذة مساعدة في علم النفس في جامعة بيركلي بكاليفورنيا. من الأمور التي قد تتعلق بالموضوع ويحسن ذكرها دخولي مؤخرًا في علاقة عاطفية مع فيليب زيمباردو وكنا نضع احتمال الزواج في الحسبان، وعلى الرغم من معرفتي بالخطط المعدة لدراسة السجن المقلّد من قِبَلْ

---

[1] مذكرات السجين

(Phill) وبعض الزملاء؛ إلا أنني لم أشارك في التجهيز المبدئي أو في الأيام الأولى للتجربة. ربما كنت لأهتم أكثر في ظروف أخرى فأشترك معهم بطريقة ما، لكنني كنت مشغولة بالانتقال وكان كُلّ تركيزي منصبًا على التجهّز لأول وظيفة أحصل عليها بوصفي أُستاذة في الجامعة، لكن عندما طلب منّي فِلْ مساعدته في إجراء بعض اللقاءات مع المشاركين في الدراسة؛ وافقت. . .

عندما نزلت إلى القبو حيث موقع السجن. . . ذهبت إلى الطرف الآخر من البهو من حيث يدخل الحراس إلى ساحة السجن، كانت هناك غرفة قرب مدخل الساحة يستريح فيها الحراس خارج أوقات العمل ويغيرون فيها ملابسهم أثناء تبادل النوبات، وهناك تحدّث إليّ أحد الحراس وقد كان ينتظر بدء نوبة عمله، كان ودودًا ومهذبًا ولا يختلف اثنان على أنه شخص لطيف.

لاحقًا ذكر لي أحد أفراد فريق العمل أنني يجب أن ألقي نظرة أخرى على الساحة لأن حارس نوبة الليل المتأخرة قد جاء، وكان هذا الحارس هو الشرس «جون واين». كان «جون واين» هو لقب الحارس الأكثر لؤمًا وقسوة من بين جميع الحراس، سُمْعَتُه قد سبقته في كثير مما سمعته عنه. بالطبع كنت أشعر بالفضول لمعرفة من هو وماذا يفعل ليجذب إليه كل هذا الانتباه. عندما نظرت من نقطة المراقبة صعقت! فجون واين الذي يتحدثون عنه هو ذلك «الشاب اللطيف» نفسه الذي تحدثت إليه في وقت سابق لكنه تحوًل الآن إلى شخص آخر! لم تتغير طريقة حركته فحسب، لكن طريقة كلامه كذلك كانت بلكنة جنوبية. . . كان يلعن ويصرخ في السجناء أثناء الإحصاء منسلخًا تمامًا عن سلوكياته المعتادة ليصبح وقحًا شرسًا. كان تحولاً مذهلاً من الشخص الذي تحدثت إليه قبل قليل، تحولاً استغرق دقائق بمجرد عبوره الخط الفاصل بين العالم الخارجي وساحة السجن. بزيه العسكري الرسمي والهراوة في يده والنظارة الشمسية الفضيّة العاكسة التي تخفي عينيه. . . أصبح هذا الشاب حارس سجن لئيم حقًا مستغرقًا تمام الاستغراق فيما يفعله»[1].

في تلك الأثناء شاهدت آخر مسير ليلي إلى دورة المياه لمجموعة من المسلسلين عبر باب غرفتي الذي كان مفتوحًا، وكما هو معتاد كانت سلاسل أقدامهم تقيد كل سجين إلى

---

(١) هذا الاقتباس المطول مع الذي يليه هما من مقال كريستينا ماسلاش في مجموعة ثلاثية:

Christina Maslach, P. G. Zimbardo, Craig Haney, "Reflections on the Stanford Prison Experiment: Genesis, Transformation, Consequences," in *Obedience to Authority: Current Perspectives on the Milgram Paradigm*, ed. T. Blass (Mahwah, NJ: Erblaum, 1999), pp. 193-237.

الاقتباس من الصفحات ٢١٤ ـ ٢١٦.

آخر ورؤوسهم مغطاة بحقائب ورقية كبيرة ويضع كل سجين ذراعه على كتف السجين أمامه، وكل ذلك بقيادة الحارس الضخم جيوف لاندري.

قلت: «كريس، انظري إلى هذا!»، رفعت بصرها إلى أعلى ثُم طأطأت.

«هل رأيت هذا؟ ما رأيك؟».

«نعم، رأيته»، ثم حولت نظرها بعيدًا ثانية.

صدمني عدم اكتراثها.

«ماذا تقصدين؟ ألا تدركين أن هذا المكان هو بمثابة بوتقة تجتمع فيها السلوكيات الإنسانية؟ نحن نشهد هنا أشياء لم يرها أحد من قبل في مواقف مشابهة، ما خطبك؟» اصطف معي جافي وكيرت ضدها.

لم ترد لأنها كانت متشنجة عاطفيًا، ثم قالت وقد سالت دموعها على خديها: «سأغادر، انس أمر العشاء، أنا ذاهبة للمنزل».

جريت خلفها، وتناقشنا أمام قاعة جوردان في مقر قسم علم النفس، واجهتها متسائلاً عما إذا كانت ستصبح باحثة جيّدة إن كان مجرد إجراءِ بحثي يثير عواطفها، أخبرتها بأن العشرات نزلوا إلى السجن ولم يبد أي منهم ما يشبه رد فعلها هذا، لكنها كانت غاضبة ولم تكترث حتى وإن اتفق العالم بأسره على أن لا ضير في هذا الذي أفعله لأنه خطأ ببساطة، هؤلاء الأولاد يعانون، وبصفتي رئيس مجموعة البحث فأنا مسؤول بشكل شخصي عن معاناتهم. لم يكونوا سجناء، ولا موضوع تجربة، لكن أولاد، شبان تُنْزَعَ عنهم إنسانيتهم ويهانون من قبل شبان مثلهم انحرفت بوصلتهم الأخلاقية في هذا الظرف.

ما قالته في هذه المواجهة العنيفة كان يفيض حكمة ومشاعر نبيلة، لكنه كان بمثابة صفعة على وجهي تدعوني للاستيقاظ من الكابوس الذي كنت أعيشه ليل نهار طوال الأسبوع الماضي.

تقول كريستينا:

«في حوالي الساعة ١١م كان السجناء يُقتادون إلى دورة المياه قبل الذهاب إلى النوم. كان المرحاض خارج ساحة السجن مما فرض مشكلة على الباحثين الذين أرادوا إبقاء السجناء في السجن طيلة ٢٤ ساعة (مثل أي سجن حقيقي)، لم يشاؤوا أن يرى السجناء أي أشخاص أو أماكن من العالم الخارجي مما من شأنه إرباك البيئة التي حاولوا صنعها، لذلك كان روتين اقتيادهم إلى دورة المياه يتضمن تغطية رؤوس السجناء بحقائب ورقية فلا يستطيعون رؤية شيء مع تقييدهم في صف واحد، واقتيادهم عبر الردهة إلى داخل وحول ثم إلى خارج غرفة الغلّايات، ثم إلى دورة

المياه ثم العودة من حيث أتوا، وكانت هذه الجولة أيضاً توهم السجناء ببعد المسافة بين الساحة ودورة المياه والتي كانت في الحقيقة في الردهة المجاورة عند المنعطف».

تواصل كريستينا تذكّر مواجهات تلك الليلة المصيرية:

«عند بدء جولة دورة المياه ليلة الخميس تلك طلب فِلْ منّي بحماس أن أرفع رأسي وقد كان في يدي تقرير أقرؤه: «بسرعة، بسرعة، شاهدي ما يحدث الآن!» نظرت إلى صف من السجناء مغطاةٌ رؤوسهم، يرسفون في قيودهم، وحراس يصيحون فيهم آمرين، بسرعة حوَّلت بصري وغمرني إحساس بالألم والقرف. «هل رأيت هذا؟ هيا، انظري، إنه أمر مذهل!» لم أستطع النظر مرة أخرى، لذلك بادرته بقولي «لقد رأيته بالفعل!»، مما دفع بفِلْ (وبعض أفراد طاقم عمله الذين تصادف وجودهم هناك) إلى مخاطبتي بحدّة حول مشكلتي مع ما يجري. سلوكٌ إنسانيٌ غريبٌ يتكشف أمامي، وأنا، خبيرة علم النفس، لم أتمكن من مجرد النظر إليه؟ لم يصدقوا ردة فعلي والتي ربما رأوا فيها قلة اهتمام. جعلتني تعليقاتهم أشعر بأنني ضعيفة وغبية، المرأة التي لا تنتمي إلى عالم الرجال هذا، بالإضافة إلى الشعور بالغثيان الشديد بسبب منظر أولئك الفتية البائسين الذين نزعت عنهم إنسانيتهم».

تتذكر شجارنا ونتيجته:

«بعد وقت قصير من مغادرتنا مكان السجن، سألني فِلْ عن رأيي في الدراسة بشكل عام. أنا واثقة من أنه توقع نقاشًا فكريًا عظيمًا حول الدراسة والأحداث التي شاهدناها لتوّنا، لكن وبدلاً من ذلك فوجئ بانفجار عاطفيّ (وأنا المتحفّظة في العادة)، كنت غاضبة وخائفة وأذرف الدموع، قلت شيئًا بمعنى: «ما تفعله بهؤلاء الأولاد فظيع!».

تبع هذا نقاش محتدم بيننا، أصابني هذا النقاش بالخوف لأن فِلْ بدا شديد الاختلاف عن الرجل الذي ظننتني أعرفه، الرجل الذي يحب الطلبة ويهتم لأمرهم بطريقة غير مألوفة في الجامعة، لم يكن نفس الرجل الذي أحببته، رجل رقيق يتفهم احتياجات الآخرين وبالتأكيد احتياجاتي، لم يسبق لنا أن تناقشنا بهذه الحدّة، وبدلاً من أن نكون قريبين ومتناغمين مع بعضنا؛ وجد كل واحد منا أخدودًا عظيمًا بينه وبين الآخر، بطريقة ما كان هذا التحوّل في شخصية فل (وفي شخصيتي كذلك) والخطر الذي يهدد علاقتنا صادمًا ومفاجئًا، لا أذكر كم من الوقت امتد هذا الشجار لكنني شعرت أنه كان طويلاً ومؤلمًا.

ما أعرفه يقينًا هو أن فِلْ أقرّ بما قلته لاحقًا واعتذر على معاملته لي وأدرك ما كان يحدث تدريجيًا له ولجميع المشتركين في هذه الدراسة، أدرك أنهم تبنوا جميعًا مجموعة من قيم السجن التدميرية التي أبعدتهم عن قيمهم الإنسانية. هنالك أدرك

مسؤوليته كصانع لهذا السجن ومن ثمّ قرّر إنهاء التجربة، كان الوقت حينها قد جاوز منتصف الليل فقرر إنهاءها في صباح اليوم التالي بعد الاتصال بكل السجناء الذين سبق إطلاق سراحهم والاتصال بحراس جميع النوبات للبدء في استجواب كل من شارك في التجربة. أزيح همّ كبير عنه، وعني، وعن علاقتنا»[1].

انتم مجموعة من الجِمَال، الآن احملوهم

عدتُ إلى السجن مرتاحًا بل ومبتهجًا بقرار إنهاء المهمة، كنت متلهفًا لإخبار كيرت بانكس الذي أدى خدمة جليلة بالاهتمام بتصوير الفيديو في أوقات مختلفة من النهار والليل مع أن لديه عائلة يرعاها. ابتهج هو الآخر بالخبر وأخبرني أنه كان ينوي التوصية بإنهاء التجربة بأقصى سرعة بعد ما شاهده أثناء غيابي، كنا نشعر بالأسف لغياب كريج في هذه الليلة ليشاركنا فرحة إنهاء لعبتنا.

هدوء كلاي ٤١٦ بعد تعرضه لمواقف من المفترض أن تكون شديدة عليه أغضب هيلمان. بدأ إحصاء الساعة الواحدة صباحًا وبه تنتهي إحصاءات هذه النوبة. بتعبٍ بالغٍ اصطفت أمام الحائط المجموعة الصغيرة البائسة المكونة من السجناء الخمسة المتبقين (٤١٦، ٢٠٩٣، ٥٤٨٦، ٥٧٠٤، و٧٢٥٨) ليرددوا أرقامهم والقواعد والأغاني، ومهما أجادوا الأداء يعاقب أحدٌ ما بطرائق متنوعة. يُصاح فيهم أو يُسبّون أو يجبرون على سبّ بعضهم بألفاظ بذيئة. استمر التعدي الجنسي الذي بدأ في الليلة السابقة وهرمون التُستُستيرون يسيل في كل اتجاه، وابتكر «جون واين» ورفيقه بوردان بعد مداولات قصيرة لعبة جنسية جديدة.

«حسنًا، انتبهوا الآن. أنتم الثلاثة ستلعبون دور الناقة. تعالوا إلى هنا وانحنوا إلى الأمام، وضعوا أيديكم على الأرض». (عندما فعلوا هذا ظهرت مؤخراتهم عارية لأنهم لم يكونوا يرتدون ملابس داخلية تحت الثوب). واصل هيلمان القول بمرح واضح: «الآن، أنتما الاثنان، أنتما الجملان. قفا خلفهم وتسنّموهم». أضحكت هذه التورية[2] بوردان. على الرغم من أن أجسادهم لم تتلامس إلا أن السجناء البائسين كانوا يحاكون فعل اللواط. ثم أعادوا السجناء إلى زنازينهم.

عاد الحراس إلى مقرهم وهم يشعرون بأنهم أدوا ما عليهم لهذا اليوم، الكابوس الذي رأيته بالأمس أصبح حقيقة، أنا سعيد لأنني سأسيطر على هذا كله بإنهائه غدًا.

---

(١) نفس المصدر السابق ٢١٤ ـ ٢١٦.

(٢) يتلاعب الحارس هنا بمفردة «hump» والتي تشير إلى سنام الجمل كما تعني ممارسة الجنس من الخلف. (المترجم).

من الصعب تخيّل الوصول إلى درجة الامتهان الجنسي في خمسة أيام فقط، خاصة وأنهم جميعًا يدركون أنها مجرد تجربة لتقليد السجن، إضافة إلى أن الجميع يعرفون بأن «الآخرين» هم أيضًا طلبة مثلهم، وبالنظر إلى أن اختيارهم للدورين تمّ بعشوائية فلم تكن هناك أية فوارق كامنة في أي من الفريقين، بدؤوا جميعاً التجربة وهم على درجة متشابهة من الصلاح، ويعرف الحراس جيّدًا أن عملة الاقتراع لو كانت انقلبت على الجانب الآخر لكانوا يرتدون الآن زيّ السجناء ليصبحوا هم ضحية الاعتداء والإخضاع من قبل أولئك الذين يسيؤون إليهم الآن، ويعرفون أيضًا أن السجناء لم يرتكبوا أية جريمة يستحقون بسببها هذا الوضع المهين، ومع ذلك تحول بعض الحراس إلى مرتكبين للشرور، والبعض الآخر أصبح مساهمًا سلبيًا بتقاعسه عن إيقاف ما يحدث. انهار فتية أصحاء طبيعيون من السجناء تحت ضغط الظرف، بينما تحول الباقون إلى أتباع من الزومبي[1].

سرت قوة هذا الموقف بسرعة وبعمق داخل أغلب من كان على متن هذه السفينة الاستكشافية للطبيعة الإنسانية، قلة كانت قادرة على مقاومة الظرف، ولم تخضع لقوته وهيمنه، وحافظت على مظاهر الأخلاق والاحترام، وكان واضحًا أنني لم أكن من بين هؤلاء النبلاء.

---

(١) يتحدث برونو بتيلهيم (Bruno Bettelheim) عن ظاهرة مماثلة لاحظها بين سجناء معسكرات الاعتقال النازية، والتي تدرب فيها في المراحل الأولية للهولوكوست، قبل أن تتحول معسكرات الاعتقال هذه إلى معسكرات إعدام. فيحكي واقع عدد من السجناء وكيف توقفوا عن محاولة البقاء أحياء، وأصبحوا مثل الأحياء الأموات (zombies). وذلك في وصف مؤثر لحالة السعي للبقاء والاستسلام في ظروف مفزعة والتي تستحق أن تورَد بالكامل هنا، وهي جزء من مقاله مالكو وجوههم (Owners of Their Face) من كتابه (Surviving and Other Essays (New York: Alfred A. Knopf, 1979)):

«قراءتي لأشعار بول سيلان (Paul Celan) تأثرت بما تعلمته عن النجاة في المعسكرات بمراقبتي للآخرين ولنفسي: فحتى تحت أسوأ أنواع المعاملة من قوات الشوتزشتافل [النازية] والتي لم تستطع أن تطفئ في نفوس المساجين الرغبة في الحياة، وذلك طالما كان الواحد منهم قادرًا على استجماع رغبته في مواصلة الحياة والحفاظ على احترامه لذاته، بل إن التعذيب يمكن أن يكون مصدرًا لثبات الشخص وعدم السماح للعدوّ بكسر رغبته في النجاة، وأن يظل الشخص وفيًا لمبادئه بحسب ما تسمح به ظروفه. وكانت أفعال قوات الشوتزشتافل تجعل الشخص يمتلئ غضبًا وحنقًا، وهذه كانت مصدرًا قويًا للشعور بالحياة. وهي ما كان يجعل الشخص أكثر إصرارًا على الحياة ليتمكن يومًا ما من الانتصار على العدو... كل هذا كان ينجح إلى حدٍ معين. وبمجرد أن يشعر السجين بأنه لا وجود لمؤشر ما يدل على أن شخصًا ـ أو العالم الخارجي بشكل عام ـ يعبأ بمصيره، فإن قدرته على إضفاء معانٍ إيجابية على الإشارات الآتية من الخارج ستختفي في نهاية المطاف وسيشعر بأنه منبوذ، وغالبًا ما يكون لهذا توابع كارثية على إرادته وعلى قدرته على البقاء حيًا. إن مجرد شعور الشخص على نحو واضح بأنه لم يتم التخلي عنه يعيد الأمل ولو لحظيًا حتى لأولئك الذين فقدوه تمامًا. أما أولئك الذين وصلوا إلى أعلى درجات الإحباط والانكسار فتحوّلوا إلى جثث تمشي لأن دوافعهم للحياة صارت معطّلة، أولئك الذي جمعوا معاناة المجاعة والإنهاك وشارفوا على الهلاك؛ لم يكن في مقدورهم أن يصدقوا فيما كان يفعله غيرهم بأنه علامة على أنهم لم يزالوا في الذاكرة وأن النسيان لم يطو ذكراهم» (ص١٠٥ ـ ١٠٦).

الفصل التاسع

تحوّل الجمعة إلى السواد

أمامنا الكثير من العمل إذا أردنا تفكيك هذا السجن في غضون ساعات، وما يزيد الأمر صعوبة أنني وكيرت وجافي كُنّا مرهقين بسبب اليوم المزدحم بالمشاغل الذي قضيناه، كما أننا سهرنا طوال الليل لإعداد الترتيبات اللازمة لجلسات الاستجواب والتقييم النهائية وتجهيز المستحقات المالية والمتعلقات الشخصية، وكذلك إلغاء الزيارات التي رتّبنا لها في عصر هذا اليوم والتي سيقوم بها بعض الزملاء الذين خططوا لمساعدتنا في عقد لقاءات مع كلّ من له صلة بهذه الدراسة. كان علينا أيضًا إلغاء اتفاقنا المسبق مع مطعم الجامعة وإعادة الهراوات والأصفاد إلى شرطة الجامعة، وأمور أخرى كثيرة.

نُدرك جميعًا أن على كل منا بذل جهد مضاعف، علينا مراقبة ما يجري في ساحة السجن، وتوزيع أنفسنا على فترات راحة قصيرة، والإعداد للترتيبات اللوجستية لليوم الأخير. قررنا إعلان انتهاء التجربة بعد زيارة المدعي العام مباشرة، وكنا قد رتبنا لهذه الزيارة في هذا الصباح، سيكون حدثًا مناسبًا لنختم به التجربة. قررنا عدم إخبار الحراس قبل أن أُخبِر السجناء بنفسي بهذه الأخبار السعيدة، أتوقع أن الحُرّاس سيغضبون إذا عرفوا أن التجربة ستنتهي مبكرًا، خاصة وأنهم أحكموا سيطرتهم على السُجناء ويتوقعون أسبوعًا سلسًا مع بعض التبديلات الجديدة، لقد أتقنوا عَمل الحُرّاس تمامًا، ومن الواضح أن الخط البياني لسرعة تعلمهم قد بلغ ذروته.

سيتصل جافي بالسجناء الخمسة الذين سبق إطلاق سراحهم لدعوتهم إلى العودة قرابة الظهيرة للمشاركة في الاستجواب والحصول على مستحقات الأسبوع، وعليّ الاتصال بجميع الحرّاس والتأكيد إما على حضورهم في الظهيرة، أو بقائهم في الانتظار من أجل «حدث مميّز». كان الحُرّاس يتوقعون إضافة عناصر جديدة لعلمهم أن ثمة لقاءات سيعقدها أشخاص من الخارج مع كامل طاقم العمل، لكن ما كانوا يتوقعون إنهاء خدمتهم المفاجئ هذا.

إذا سار كل شيء كما هو مخطط له؛ ستكون أمامنا ساعة لاستجواب السجناء في

حوالي الساعة الواحدة، ثم ساعة أخرى للحراس، وأخيرًا سيجتمع الحراس والسجناء في لقاء ختامي، وأثناء اللقاء بكل مجموعة ستملأ الأخرى أوراق التقييم النهائي ويحصلون على رواتبهم وكذلك سنمنحهم فرصة الاحتفاظ بزيّهم الموحد كهدية أو إعادته. يمكنهم أيضًا أخذ العلامات التي وضعناها في الساحة وعلى الحفرة إذا شاؤوا. سنرتّب كذلك لغداء وداعي للجميع كما سنرتب لدعوتهم للعودة قريبًا مجتمعين لمُشاهدة مقتطفات مصوّرة مختارة، ومناقشة ردود أفعالهم من زاوية أبعد.

قبل الحصول على قسطي من النوم على أريكتي في مكتبي في الدور العلوي حيث كنت أنام على فترات متقطعة أكثر الأسبوع؛ طلبت إلى حراس النوبة الصباحية ترك السُجناء ينامون طوال الليل والتخفف من أية عدائية تمارس ضدهم؛ فهزّوا أكتافهم وأومؤوا برؤوسهم كما لو كانوا أطفالاً يأمرهم والدهم بالتوقف عن اللعب في الشارع.

إحصاء يوم الجمعة الأخير

لأول مرة منذ أسبوع يُسمح للسجناء بالنوم لست ساعات متواصلة، ندين لهم بالتأكيد بساعات نوم كثيرة. من الصعب تحديد مدى تأثير نومهم المتقطع على مزاجهم وتفكيرهم، كان تأثيرًا كبيرًا على الأرجح وربما كانت اضطرابات النوم سببًا في الانهيارات العاطفية التي تعرض لها السجناء الذين أطلق سراحهم مبكراً.

استمر إحصاء الساعة ٧:٠٥ ص عشرة دقائق فقط رُددت فيها الأرقام إضافة إلى بعض الطقوس الأخرى غير المؤذية. قُدّم إفطار ساخن جيّد لآخر خمسة سُجناء وكما كان متوقعًا؛ رفض كلاي ٤١٦ تناول أي طعام حتى عندما كان بقية السجناء يشجعونه بلطف.

وعلى الرغم من توجيهاتي بالتساهل مع السجناء انفجر الحُرّاس في وجه كلاي بسبب عصيانه المتواصل. «سيقوم الجميع بخمسين تدريب ضغط إذا لم يتناول كلاي طعامه». لم يحرّك كلاي ساكناً واكتفى بالنظر في طبقه. حاول فاندي وسيروس إجباره على تناول الطعام بحشره في فمه لكنه قام بلفظه. جنّدا ٥٧٠٤ و٢٠٩٣ لمساعدته لكن بلا طائل. أعيد كلاي ٤١٦ إلى زنزانته وأُجبِر على مبادلة النقانق الحبّ، حيث جعله سيروس يتحسّسها ويحتضنها ثم يقبّلها، وقد فعل كلاي ٤١٦ كُلّ ما طُلِب منه لكنه بقي ملتزمًا بكلمته ولم يتناول منها قضمة.

الحارس فاندي منزعج من جرأة ٤١٦ ومنزعج أيضًا من وضاعة زميله؛ فذكر في مذكراته: «عندما رفض ٤١٦ الأكل مرة أخرى شعرت بالغضب، خاصة أنه لا توجد طريقة لدفع الطعام إلى معدته على الرغم من أننا جعلنا بعض السجناء يحاولون معه. جعل أندري سيروس السجين يحتضن النقانق البائتة ويقبّلها بعدما أجبره ليلة أمس على النوم والنقانق في

يده. لم أر داعيًا لأيٍّ من هذا، ما كنت لأجبر أي سجين على فعل هذه الأشياء مطلقًا»[1].

ما الذي قاله الحارس سيروس عن هذا؟ في مذكراته قال: «قررت إجباره على تناول الطعام لكنه لم يفعل، مسحت بالطعام وجهه، لم أُصدِّق أني فعلت هذا، كرهت نفسي لمحاولة إجباره على تناول الطعام وكرهته لأنه رفض تناول الطعام، كرهت حقيقة السلوك الإنساني»[2].

بدأت نوبة النهار في تمام العاشرة كالمعتاد، طلبت من رئيس الحراس أرنيت تهدئة الأمور بسبب الزيارة المتوقعة للمُمَثِل القانوني. تقريره عن الحوادث المهمة في نوبة النهار أشار إلى أن كلاي ٤١٦ يمر ببعض التغيرات الغريبة على الرغم من تأملاته على طريقة زِنْ (Zen) وهدوئه السابق. أورد تقرير أرنيت:

> «٤١٦ شديد العصبية، لقد ارتعش عندما نزعت الحقيبة عن رأسه في دورة المياه، كان عليّ أن أسحبه أثناء اقتياده منها وإليها مع أنني حاولت طمأنته بأنه لن يتعرض لشيء [وهو ما كان يفعله الحراس في الغالب]. كان شديد التوتر حيال معاقبته، أمسكت نقانقه عند دخوله إلى المرحاض وحاول إقناعي بإعادتها إليه لأن حارسًا آخر أمره بالاحتفاظ بها طوال الوقت»[3].

المحامي العام، ما للسجين وما عليه

عقدت لقاءً قصيرًا مع تيم. ب (Tim. B)، مُحامٍ محلي يعمل في مكتب المدعي العام. لديه فضول كبير كما إنه متشكك حيال الأمر برُمّته وتخلّى بصعوبة عن بعض من وقته الثمين لأن عمته طلبت منه متابعة قضية قريبه. رحَّبْت به وشَرَحت له الخصائص الأساسية للدراسة وإلى أي مدى أصبح الأمر جديًا، وطلبت منه أن يتولى الأمر كما لو طُلِب منه بشكل رسمي تمثيل مجموعة سُجناء حقيقيين؛ فوافق والتقى أولاً بقريبه هابي ٧٢٥٨ بشكل منفرد ثُمَّ ببقية السجناء، وسمح لنا بتسجيل الجلسة بدون عِلم السجناء في نفس الغرفة التي كانت تُعقَد فيها اجتماعات لجنة الإفراج المشروط.

درجة الرسمية بين القريبين فاجأتني، ليس هنالك ما يدل على سابق معرفة بينهما، ربما يعاملان بعضهما وفقًا للبروتوكول الإنجليزي، لكنني توقعت أن يتعانقا على الأقل لا

---

(١) مذكرات الحارس.

(٢) كان سيروس (*Ceros*) طالبًا في الثامنة عشر من عمره يفكر في العمل في الخدمة الاجتماعية.

(٣) مذكرات الحارس عن الواقعة.

أن يكتفيا بمصافحة رسمية و«سعيد لرؤيتك مرة أخرى». قرأ المُحامي تيم قائمة من البنود بأسلوب مهني تمامًا، يقرأ الأمور التي تهمه من قائمة مُعدّة مسبقًا وكان يتوقف بعد قراءة كلّ بند أو اثنين ليسمع ردّ السجين ويكتبه غالبًا بدون أي تعليق ثُم ينتقل إلى البند التالي:

هل أخبروك بحقوقك عند اعتقالك؟

هل ضايقك الحراس؟

ما طبيعة الاعتداءات ـ إن وقعت ـ من الحراس؟

هل تشعر بتوتر، اضطراب عقلي؟

حجم الزنزانة وحالتها.

أي طلبات تم رفضها.

سلوك غير مقبول من آمر السجن.

مشاكل في الكفالة.

أجاب هابي ٧٢٥٨ عن الأسئلة بطريقة مرحة، أظنه يفترض أن قريبه يقوم بإجراءات روتينية قبل إخراجه من السجن. قال السجين للمدعي العام أن قد قيل لهم أنهم لا يستطيعون الخروج من السجن ولا إبطال العقد؛ فذكّره المدعي العام بأن العقد الأصلي إن كان مبنيًا على أجر مقابل عمل فالتنازل عن الأموال حينها كافٍ لإلغاء العقد. «نعم، قلت هذا في جلسة لجنة الإفراج المشروط لكنه لم يأتِ بنتيجة، ما زلت هنا»[1]. وذكر هابي ٧٢٥٨ من ضمن شكاويه أن سلوك ٤١٦ المثير للمتاعب قد أصابهم جميعًا بالجنون.

قاد الحراس بقية السجناء إلى غرفة الاجتماع والحقائب الورقية تُغطّي رؤوسهم كما هو معتاد والحُرّاس يضحكون ويمزحون أثناء رفع الحقائب من على رؤوس السجناء، ثم غادروا بعدها ولكنني بقيت في الخلفية. طرح المحامي العام الأسئلة نفسها التي قرأها على هابي ودعا كل سجين لذكر شكاويه على النحو المناسب.

بدأ كلاي ٤١٦، حيث اشتكى أولاً من ضغط لجنة الإفراج عليه ليعترف بأنه مذنب بالاتهامات التي اعتقل بسببها على الرغم من عدم توجيه أي اتهام رسمي له أبدًا، وذكر أن صيامه، في جزء منه، كان طريقة للفت الانتباه إلى اعتقاله غير القانوني وقد قُبض عليه من دون أية تهم.

(مرةً أخرى يصيبني هذا الشاب بالحيرة، هو بكل تأكيد يعمل على عدة مستويات

(١) ما لم نُشِر إلى خلاف ذلك فكل النقاشات التي دارت بين السجناء والحراس مأخوذة من تفريغ نصي حرفي للقطات فيديو سجلت أثناء التجربة.

متضاربة فيما بينها، فمن ناحية كان يتعامل مع التجربة كلها بشكل قانوني بحت، وكان يخلط عقد الاشتراك في التجربة بحقوق السجناء والتكليفات الرسمية لفريق العمل الإصلاحي، ناهيك عن تأملات المتصوّف «الحديث».

بدا كلاي في حاجة ماسّة إلى التحدُث إلى أي شخص يستمع إليه فعليًا، يقول: «بعض الحراس الذين لن أذكر أسماءهم أساؤوا التصرف معي إلى حد إيذائي»، وهو مستعد لتقديم شكوى رسمية ضدهم إذا تطلب الأمر. «وعمل هؤلاء الحراس على تأليب السجناء الآخرين ضدي بجعل صيامي سببًا في منعهم من الزيارات»، وأومأ إلى هابي ٧٢٥٨ الذي حول نظره محرجًا إلى الناحية الأخرى، «وكنت أشعر بالخوف حين وضعوني في الحفرة وجعلوا بقية السجناء يقرعون الباب بشدّة، وعلى الرغم من أن قوانيننًا تمنع استخدام العنف قد وضعت؛ لكنني كنت متخوّفًا من تجاوزهم هذه القاعدة قريبًا».

كان الرقيب ٢٠٩٣ هو المتحدث التالي، وقد وصف بعض المحاولات التي قام بها الحراس لمضايقته لكنه كان فخورًا بإعلانه عن فشل تلك المحاولات، ثم قدّم وصفًا دقيقًا لقيام حارس معين بأمره بتأدية عدد كبير من تدريبات الضغط مع وجود سجينين آخرين على ظهره.

اندهش المحامي العام من هذه الواقعة وطأطأ عابسًا. التالي، طويل القامة بول ٥٧٠٤ الذي اشتكى من استغلال الحراس إدمانه للتدخين. لم تكن شكوى الفتى الطيب جيري ٥٤٨٦ شخصية بقدر ما كانت عامة بسبب عدم كفاية الوجبات والإرهاق الذي عانونه من عمليات الإحصاء التي لا تنتهي في وسط الليل، والسلوك الخارج عن السيطرة بعض الحراس وضعف الرقابة من الفريق الإداري، باغتني عندما نظر في وجهي مباشرة كنه أصاب الهدف، فقد كنت مذنبًا.

عندما أتمّ المحامي العام تدوين ملاحظاته شكرهم على تلك المعلومات وقال إنه يقدم تقريرًا رسميًّا يوم الاثنين ويحاول الترتيب لخروجهم بكفالة، وبينما يستعد للمغادرة : بهابي ٧٢٥٨ يفقد أعصابه: «لا يمكنك أن تذهب وتتركنا هنا! نريد الرحيل معك الآن، ن نصمد لأسبوع آخر في هذا المكان ولا حتى لعطلة نهاية الأسبوع. اعتقدت أنك تُخرجني، ستخرجنا جميعًا الآن، أرجوك». فاجأ هذا الانفعال العاطفي المفاجئ تيم لكنّه رح برسمية متطلبات عمله وحدوده، وكيف يمكنه أن يساعدهم ولكنه عاجز عن فعل أي يء الآن، وصل الخمسة الباقون إلى ذروة إحباطهم عند هذه النقطة، فقد تحطمت أمانيهم لى صخرة هذا الهراء القانوني.

أرسل لي المحامي العام انطباعه عن هذه التجربة الفريدة في خطاب مفيد بعد فترة سيرة:

- **عن إخفاق السجناء في المطالبة بحقوقهم القانونية:**

«... تفسير آخر مُحْتَمِل لإخفاق السجناء في طلب الاستشارة القانونية هو أنهم بصفتهم أمريكيين بِيض من الطبقة الوسطى؛ لم يتصوروا إمكانية أن يزج بهم في ساحة الجريمة حيث حقوقهم ذات أهمية كبرى. عندما وجدوا أنفسهم في هذا الموقف فقدوا القدرة على التقدير بموضوعية وعلى التصرف كما كانوا ليفعلوا في ظروف أخرى».

- **عن قدرة هذا الموقف على تشويه الواقع:**

«... التقليل المعتاد من أهمية الأموال مقابل أشياء كالحرية وإمكانية التنقل كان واضحًا (في المواقف التي شاهدتها). بالتأكيد تتذكَّر الآمال الكبيرة في التحرر عندما أوضحت لهم إمكانية الخروج بكفالة. كانت واقعية احتجازهم في السجن مسيطرة تمامًا على الرغم من إدراكهم ذهنيًا أن الأمر مجرد تجربة. واضح أن الاحتجاز في حد ذاته مؤلم بغض النظر عن كونه لأسباب قانونية أو لأسباب أخرى»(١).

اسمعوني جيدًا: انتهت التجربة، انتم احرار

حطَّمت كلمات المحامي العام آمال السجناء التعساء وخيّمت عليهم كآبة واضحة. صافح المحامي العام أياديهم الواهنة ثم غادر الغرفة، طلبت منه أن ينتظرني في الخارج ثم توجهت إلى رأس الطاولة وطلبت من السجناء أن يستمعوا جيدًا لما سأقول، بالكاد كانت لديهم من الدوافع ما يكفي ليستمعوا بانتباه إلى أي شيء وقد بدّد المدعي العام أحلامهم بخروج سريع بموقفه الرسمي حيال أزمتهم.

«لدي شيء مهم أقوله لكم، لذلك اسمعوني جيدًا، انتهت التجربة ولديكم حرية المغادرة اليوم».

لا رد فعل، لا تغيّر في تعبير وجوههم أو لغة أجسادهم.

لديّ إحساس بأنهم مرتبكون وربما حتى متشككين ويعتقدون أن ما قلته لتوي هو مجرد اختبار جديد لردود أفعالهم. واصلتُ ببطء وبأكبر قدر ممكن من الوضوح: «قررت وفريق البحث إنهاء التجربة هذه اللحظة. الدراسة انتهت رسميًا وسجن بلدية ستانفورد قد أغلق. جميعنا نشكركم على دوركم المهم في هذه الدراسة و...».

حلّ الفرح مكان الكآبة، عناق وتربيت على الظهر، ابتسامات عريضة علت تلك

(١) خطاب المحامي العام لي، ٢٩ أغسطس، ١٩٧١م.

الوجوه التي طال عبوسها، كانت قاعة جوردان طافحة بالبهجة. كانت لحظة سعيدة بالنسبة لي كما كنت سعيدًا كذلك لتمكني من تحرير باقي السجناء والتخلي عن دوري كرئيس للسجن نهائيًا وإلى الأبد.

إخفاق السلطة القديمة، إيجاد سلطة جديدة

مرات قليلة في حيّاتي تلك التي سعدتُ فيها سعادة أكبر من سعادتي لحظة أخبرت السجناء بأمر الإفراج وشاركتهم تلك البهجة العارمة. كنتُ ممتلئًا بنشوة الطاقة الإيجابية والقدرة على فعل شيء أو قول شيء ذا تأثير رائع على الآخرين دون مقابل، هنا قطعتُ عهدًا على نفسي ببذل كُلّ ما في وسعي للخير وضد الشرّ، لتعزيز أفضل ما في الناس والعمل على تحريرهم من سجونهم الافتراضية، وللعمل ضد الأنظمة التي تُفسِد سعادة البشر وقيم العَدْل.

القوة المظلمة التي كنت أديرها طيلة الأسبوع الماضي بصفتي رئيس السجن الوهمي أعمتني عن حقيقة التأثير المُدَمِّر للنظام الذي كُنت أرعاه؛ كذلك النظر القاصر بصفتي رئيس فريق البحث أفسد قُدرَتي على الحكم بضرورة إنهاء التجربة في وقت مبكِّر، ربما مع تعرّض ثاني مُتطَوِّع طبيعي وسليم نفسيًّا وبدنيًا لانهيار عاطفي. بينما كان تركيزي منصبًا على الحالة المفاهيمية المجردّة ممثلة في قوة السلوك الذي يفرضه الموقف في مواجهة السلوك الذي تفرضه الميول الشخصية؛ إذ بي أُضيع الصورة الكبيرة للقوة الشمولية للنظام الذي ساهمت بشكل مباشر في صناعته واستمراره.

نعم، كانت كريستينا ماسلاش محقّة، الأشياء التي سمحت بأن تُفعل في هؤلاء الفتية الأبرياء كانت فظيعة، لا لأنني اعتديت عليهم بشكل مباشر، وإنما لإخفاقي في إيقاف هذه الاعتداءات، ودعمي لنظام قائم على قواعد تعسفية وإجراءات سهّلت هذه الاعتداءات، كنت بمثابة «رجل الثلج» في جحيم انعدام الإنسانية.

النظام يشمل الموقف بكل تأكيد لكنه أكثر استمرارية وتوسعًا ويشمل شبكات ممتدة من الناس بتوقعاتهم ومعاييرهم وسياساتهم وربما قوانينهم. مع مرور الوقت يُصبح للأنظمة أساسٌ تاريخيٌ وأحيانًا قوة سياسية واقتصادية تحكُم وتوجه سلوك العديد من الأفراد الموجودين داخل نطاق تأثير هذا النظام. الأنظمة هي بمثابة المحركات التي تُدبر المواقف التي بدورها تصنع السياقات السلوكية، والتي في النهاية تؤثر في تصرفات أولئك الواقعين تحت سيطرتها، ويُمكِن أن يتحوّل النظام عند نقطة ما إلى كيان مُستقل لا يعتمد على أولئك الذين أنشؤوه في البداية ولا حتى على أولئك الظاهرين في السلطة داخل هيكلية النظام. كل نظام يبني ثقافته الخاصّة كما تُسهِم العديد من الأنظمة مجتمعة في تشكيل ثقافة مجتمع ما.

بينما استخرج هذا الموقف أسوأ ما في العديد من هؤلاء الطلبة المتطوعين ونجح في تحويل البعض منهم إلى مرتكبين للشر والبعض الآخر إلى ضحايا غير أسوياء؛ إذ بي أشدهم تحوّلاً بسبب هيمنة هذا النظام. كان الآخرون مجرد فتية صغار، شبان بلا أية خبرة حقيقية، أما أنا فكنت باحثًا مُتمَرِّسًا وبالغًا ناضجًا؛ بل ونشأت على خبرات الشارع، لا يزال طفل برونكس حيًا في داخلي بألمعيته وقدرته على تقدير المواقف وابتكار الحلول للنجاة في الجيتو، لكن خلال الأسبوع الفائت تحوّلت تدريجيًا إلى شخصية سلطوية في السجن، كُنت أمشي وأتكلم كواحد من هؤلاء وكان الجميع من حولي يستجيبون لأوامري كما لو كنت كذلك، ولذا أصبحت واحدًا منهم، أصبحت بالتحديد تلك الشخصية التي لطالما عارضتها بل واحتقرتها طوال حياتي، شخصية الرئيس المتسلط صاحب المنصب الرفيع. تحوّلت إلى تجسيد حيّ لهذه الصورة المُجردة. بإمكاني أن أخفّف من وطأة عذاب الضمير بذكر أن واحدة من مهامي الأساسية بصفتي رئيس السجن الصالح اللطيف كانت كبح جماح الحُرّاس الولوعين بالسلطة عن التعدي على السُجناء جسديًا، هذا الكبح الذي جعلهم يحوّلون طاقتهم ليخرجوا بصور أكثر ابتكارًا من التعذيب النفسي للسُجناء البائسين.

كان خطئي بالتأكيد هو محاولة الجمع بين دورَي الباحث ورئيس السجن؛ لأن لكل منهما أجندته الخاصة التي كانت تتعارض مع الأُخرى في بعض الأحيان مما خلق في داخلي حالة اضطراب في الهُويَّة، وضاعف الجمع بين هذين الدورين في الوقت نفسه من سلطتي مما أثّر في العديد من «الغُرباء» الذين زاروا المكان ولم يعارضوا النظام من آباء وأصدقاء وزملاء وشرطة، والقسيس ووسائل الإعلام والمُحامي. واضح تمامًا أننا عندما نمسي في قبضة الموقف فإننا لا نُولي قُدرته على تحويل تفكيرنا ومشاعرنا وأفعالنا ما تستحقه من أهمية؛ فالإنسان في ظِلّ النِظام يتعايش ويتصرف فيما يبدو على أنه التصرُّف الطبيعي في ذلك الوقت وذلك المكان.

إن وُضِعتَ في موقف غريبٍ وجديدٍ وقاسٍ في ظِلّ نظام قاهِر فعلى الأرجح أنك ستفشل في الحفاظ على شخصيتك التي دخلت بها بوتقة الطبيعة الإنسانية هذه، ربما لا تعود قادرًا على التعرُّف على صورتك المألوفة لديك إذا ما وُضعت إلى جانب صورتك التي أصبحت عليها. جميعنا نريد الإيمان بصلابتنا الداخلية وقدراتنا الشخصية على مقاومة المؤثرات الخارجية الشبيهة بتلك التي عملت عملها في تجربة سجن ستانفورد. بالنسبة للبعض فهم صادقون في هذا الإيمان لكنهم أقليّة، هُم الطيور التي تغرد خارج السرب والذين سأقدمهم لاحقًا في رحلتنا بصفتهم أبطالاً، أما بالنسبة للأغلبية فإن الإيمان بالقدرة على مقاومة الضغوط الظرفية والنظامية ليس بأكثر من وَهْم يطمئنون به أنفسهم إلى أنهم

معصومون، وللمفارقة فإن الإبقاء على هذا الوهم يجعل الأشخاص أكثر عُرضة للتلاعب بهم وللإخفاق في الحذر بالقدر الكافي من محاولات التأثير غير المرغوب بها والتي تُمارس عليهم في خفاء.

نحتاج إلى الجميع في الاستجواب

كان واضحًا أننا سنستخدم الوقت القصير والحاسم المتاح للاستجواب للقيام بعدة أمور. أولاً، كان علينا إتاحة الفرصة لجميع المشاركين للتعبير عن مشاعرهم وردود أفعالهم تجاه هذه التجربة الفريدة بشكل علني دون أن يشعروا بضغط التهديد[1].

بعد ذلك، كان من الضروري أن أُبيّن لجميع السُجناء والحُرّاس على حد السواء أن أي سلوك عنيف بدر عنهم إنما كان بسبب قوة تأثير الظرف لا بسبب علّة في أي منهم. من المهم تذكيرهم بأن سبب اختيارهم للمُشاركة هو أنهم أشخاص طبيعيون وأصحاء ابتداءً، وأنهم لم يُدخِلوا السجن بأية عيوب شخصية؛ بل إن السجن هو الذي أوصلهم إلى ما وصلوا إليه، ليسوا هُم «التفاحات الفاسدة»؛ بل إن «الوعاء الفاسد» المتمثل في سجن ستانفورد هو الذي تسبَّب في هذه التحولات التي رأيناها بوضوح.

أخيرًا، كان مهمًا استغلال هذه الفُرصة في إعادة تأهيلهم أخلاقيًا. كان الاستجواب أيضًا وسيلة لاستكشاف الخيارات الأخلاقية التي كانت متاحة لكل مُشارك وكيفية تعامله معها. ناقشنا ما كان بإمكان الحراس فعله بشكل مختلف لإلحاق أذية أقل بالسجناء وما كان بإمكان السجناء فعله لتجنب اعتداءات الحراس. أوضحت لهم كذلك بأنني أشعر بالمسؤولية الشخصية لعدم تدخلي عدة مرات وقتما تفاقمت الاعتداءات، حاولت منع العنف الجسدي، لكنني لم أقم بما يكفي لتعديل أو منع الأشكال الأخرى من الإذلال عندما تحتّم عليّ ذلك. كنت مذنبًا بخطيئة التغافل، شر التقاعس وعدم توفير الإشراف والرقابة الملائمين عندما استدعت الحاجة.

---

(١) تقييم كرب الحوادث الخطرة [CRITICAL INCIDENT STRESS DEBRIEFING] (CISD) كان المعالجة الأولية لضحايا كرب الصدمة كما في الهجمات الإرهابية والكوارث الطبيعية والاغتصاب واعتداءات أخرى، لكن بعض الأدلة التجريبية الحديثة تشكك في الفائدة العلاجية لها، بل تشير إلى أنها تأتي بنتائج عكسية في بعض الأحيان بإطالة وزيادة الأثر السلبي العاطفي للكرب، تنفيس الناس عن مشاعرهم يعمل أحيانًا على إنعاش الأفكار السلبية لا على التخلص منها.

بعض المصادر ذات الصلة تشمل:

B. Litz, M. Gray, R. Bryant, and A. Adler, "Early Intervention for Trauma: Current Status and Future Directions." *Clinical Psychology: Science and Practice* 9 (2002): 1120341; R. McNally, R. Bryant, and A. Ehlers, "Does Early Psychological Intervention Promote Recovery from Posttraumatic Stress?" *Psychological Science in the Public Interest* 4 (2003): 45-79.

السجناء السابقون يعبّرون عما بأنفسهم

أظهر السُجناء السابقون مزيجًا لافتًا من الارتياح والاستياء، كانوا جميعًا سعداء لانتهاء هذا الكابوس أخيرًا. لم يبدِ أولئك الذين استمروا حتى نهاية التجربة أي إحساس بالفخر على رفاقهم الذين أُفرج عنهم مبكرًا، كانوا مدركين تمامًا أنهم كانوا في بعض الأحيان أشبه بالزومبي بطاعتهم العمياء وامتثالهم لأوامر سخيفة وترديدهم صيحانهم الموَحدّة تلك ضد السجين ستيوارت ٨١٩، وتصرفاتهم العدائية مع كلاي ٤١٦، وحطّهم من قدر توم ٢٠٩٣ (الرقيب) الذي كان أكثر السُجناء تمسكًا بمبادئه الأخلاقية.

لم تظهر على السجناء الخمسة الذين أفرجنا عنهم مبكرًا أية علامات سلبية ناتجة عن العبء العاطفي الذي سبق وتعرضوا له، كان أحد الأسباب هو امتلاكهم حدًا أساسيًا من السواء والاتزان يركنون إليه، والسبب الآخر هو أن مصدر أزمتهم كان البيئة الشاذة وسجن القبو والأحداث الغريبة التي مروا بها. مجرد خلع الثوب الموحد للسجناء وسائر متعلقات السجن كان معينًا لهم في تجاوز هذا الموقف القذر. كانت المسألة الرئيسية بالنسبة للسجناء هي التعايش مع الإحساس بالعار الذي أورثهم إياه دور الشخصية الخانعة الذي لعبوه، كانوا بحاجة إلى إعادة بناء كبريائهم والتعالي على قيود الوضع الذليل الذي فُرض عليهم.

لكن داج ٨٦١٢، أول سجين اعتقل وأول سجين أُفرِج عنه بسبب حالته العقلية المتدهورة، كان لا يزال غاضبًا مني بسبب دوري في صناعة هذا الموقف الذي أفقده القدرة على التحكم في سلوكه وعقله. لقد فكَّر بالفعل في الترتيب لاقتحام السجن مع بعض أصدقائه لتحرير السجناء، وعاد إلى قاعة جوردان في اليوم التالي لإطلاق سراحه لهذا الغرض، لكن لحسن الحظ قرر عدم القيام بهذا لعدة أسباب، عندما علم بمدى جدية تعاملنا مع شائعات اقتحامه السجن شعر بسعادة كبيرة وكان مغتبطًا بالمدى الذي ذهبنا إليه، وذهبت إليه أنا على وجه الخصوص، في حماية المُنشأة من هجومه المتوقع.

وكما كان منتظرًا اشتكى السجناء من الحراس الذين - في رأيهم - تمادوا وتجاوزوا متطلبات دورهم إلى حد بعيد وبلغوا حد الابتكار في التعدي عليهم فرديًا وجماعيًا، وكان على رأس القائمة هيلمان وأرنيت وبوردان، ويليهم فارنيش وسيروس أقلهم «شرًا»، وسرعان ما أشاروا أيضًا إلى الحراس الذين اعتبروهم «حراسًا صالحين» والذين قدموا لهم القليل من الخدمات أو لم يتورطوا في دورهم بشكل كامل حدّ نسيان كون السجناء بشرًا. في هذه الفئة كان الأفضل هما جيوف لاندري وماركوس. قدم جيوف لهم بعض الخدمات وكان دائم الابتعاد عن الاعتداءات التي يقوم بها زملاء نوبته الليلية، وقد توقف عن ارتداء نظارة الحراس العاكسة وقميصه العسكري؛ بل لقد أخبرنا لاحقًا بأنه فكّر في التحول إلى

دور السجين لأنه كره أن يكون جزءًا من نظام يسحق بشرًا مثله بقسوة شديدة.

لم يكن ماركوس منخرطًا في معاناة السجناء بشكل واضح، وعلمنا لاحقًا أنه في أوقات معدودة أحضر هدية من بعض الفواكه الطازجة ليحسن من وجبات السجناء الرديئة، لكن بعد أن لفت آمر السجن نظره لكونه لا يؤدي عمله بالشكل المطلوب؛ بدأ يصرخ فيهم بعد أن كان دائم البقاء في الهامش أثناء تمرد السجناء، وصار يكتب تقارير مجحفة ضدهم لتقديمها للجنة الإفراج المشروط. من الملحوظات الثانوية بخصوص ماركوس أنه صاحب خط جميل، وقد أبدى شيئاً من الاستعراض واستخدم ذلك في كتابة معارضات الحُرّاس لطلبات الإفراج التي يقدمها السجناء، هو شخص يعشق الأماكن المفتوحة والتنزّه واليوغا، لذلك كان هو على وجه الخصوص أكثر من كره كونه محتجزًا في سجننا.

وفي منزلة بين المنزلتين، بين الحُرّاس «الفاسدين» وأولئك «الصالحين»؛ كان هنالك الحراس «المنضبطون بالقواعد»، قاموا بعملهم، ولعبوا دورهم، وعاقبوا على المخالفات لكن نادرًا ما تسببوا بإيذاء أي سجين. في هذه القائمة نجد فارنيش والحارسين الاحتياطيين موريسون وبيترس، وفي بعض الأحيان لاندري الأصغر. ربما كانت العزلة والابتعاد عن الساحة في البداية من قبل فارنيش بسبب شخصيته الخجولة وفقًا للمعلومات المكتوبة في سيرته الذاتية حيث كتب: «لديّ عدد قليل من الأصدقاء المقربين».

لعب جون لاندري دورًا متأرجحًا، ففي بعض الأحيان كان التابع القاسي لأرنيت وهو من يهاجم السجناء المتمردين بمطفأة الحريق الحارقة للجلد على الدوام، وفي أحيان أخرى تجده ملتزمًا بالقواعد حرفيًا، ذكر أغلب السجناء أنهم يحبونه. جون شخص بالغ عمره ثمانية عشر عامًا، شديد الوسامة، وكان يأمل أن يُصبح كاتب روايات خيالية وأن يشتري منزلاً على أحد شواطئ كاليفورنيا وأن يواعد الكثير من النساء.

إحدى صور التقاعس التي ميّزت «الحراس الصالحين» هي امتناعهم عن التصدي للأفعال المؤذية التي يقوم بها «الحراس الفاسدون» في نوباتهم، لا بعدم مواجهتهم في الساحة فقط؛ بل ووفقًا للمعلومات التي لدينا لم يقم جيوف لاندري ولا ماركوس بهذا حتى في مقر الحراس فيما بينهم. سننظر لاحقًا فيما إذا كان إخفاقهم في التدخل وقد حدثت الاعتداءات على مرأى منهم ومسمع يشكل ما يدعى بـ «شرّ التقاعس».

أحد السجناء دائمي التمرد، بول ٥٧٠٤، سجّل رد فعله عندما علم بانتهاء التجربة:

«عندما أُبلِغنا بانتهاء التجربة شعرت بموجة ارتياح وموجة اكتئاب تغمرانني في اللحظة نفسها، كنت سعيدًا حقًّا بانتهاء الدراسة لكن كنت سأسعد أكثر لو استمرّت لمدة أسبوعين. كان المال هو السبب الوحيد لوجودي في هذه التجربة لكن في النهاية رجحت كفة سعادتي بالخروج، ولم تفارق الابتسامة وجهي حتى وصلت

بيركلي، وما إن مرت عليّ هناك ساعات قليلة حتى نسيت الأمر برمته ولم أحدث عنه أحدًا»[1].

لعلك تذكر أن بول هو السجين الذي كان فخورًا لاختياره رئيسًا للجنة شكاوى السجناء في سجن بلدية ستانفورد وهو أيضًا من خطط لفضح التجربة في عدد من الجرائد المحلية في بيركلي ليكشف دعم الحكومة لبحث يهدف إلى دراسة أساليب التعامل مع الطلبة المُنْشَقِّين. لقد نسي خطته تمامًا، ولم يشرع بها أبدًا.

الحراس السابقون مستاؤون

في الساعة الثانية من الاستجواب قدم الحراس السابقون صورة مختلفة شيئًا ما، فبينما كان بعضهم ـ «الحراس الصالحون» وفقاً لتقييم السجناء ـ سعيدًا بانتهاء هذه المحنة؛ إذ بالغالبية يشعرون بالحزن لانتهاء التجربة مبكرًا. كان تركيز بعضهم على المال الذي سيجنونه بسهولة بعد أسبوع آخر وقد استتبت لهم الأمور. (تجاهلوا المشكلات المتواصلة بسبب صوم كلاي ٤١٦ وتفوق الرقيب أخلاقيًا في مواجهاته مع هيلمان). كان بعض الحراس مستعدين للاعتذار علانية لتماديهم الشديد واستمتاعهم التام بالقوة الممنوحة لهم، وبعضهم الآخر رأى أن تصرفاته مبررة تمامًا لأداء الدور الذي أسند إليه على أتم وجه. كانت مشكلتي الرئيسية مع الحُرَّاس هي في جعلهم يشعرون ببعض الذنب لتسببهم في معاناة أشخاص آخرين بغض النظر عن وعيهم بمتطلبات الدور الذي كانوا يلعبونه، أوضحت لهم إحساسي العميق بالذنب بسبب إخفاقي في التدخل بشكل أكبر، وهو ما كان بمثابة موافقة ضمنية على تجاوزهم حدودهم بالشكل الذي فعلوا. ربما كانوا ليتجنبوا تلك التجاوزات لو حظوا برقابة أفضل.

بسهولة أشار أغلب الحُرّاس إلى تمرُّد السُّجناء الذي حدث في ثاني أيام التجربة كنقطة تحول في طريقة تعاملهم مع السجناء الذين بدوا فجأة «أشخاصًا خطرين» يجب قمعهم. ساءتهم الإشارات الشخصية والسُّباب الذي وجهه إليهم بعض السجناء أثناء هذا التمرُّد وهو الأمر الذي اعتبروه إهانة أثارت داخلهم روح الانتقام.

إحدى أصعب الجوانب كانت ترك الحراس يفسّرون لم فعلوا ما فعلوا دون القبول بتبريراتهم لأنها كانت مجرد أعذار لسلوك مُتعسِّف وعدواني بل وساديّ. إنهاء التجربة معناه إنهاء الاستمتاع بتلك السيطرة الكاملة الجديدة بصفتهم حراسًا، كما كتب الحارس بوردان في مذكراته: «عندما خصّني فِلْ بقرار إنهاء التجربة شعرت بالفرح، لكن فاجأني أن بعض

(١) مذكرات السجين.

الحراس الآخرين قد شعروا بالخيبة لخسارتهم المال ولأنهم كانوا يقضون وقتًا ممتعًا كذلك»[1].

اجتماع اخير يجمع الفئتين

في ثالث ساعات الاستجواب ملأت ضحكات متوترة غرفة المختبر عندما أتينا بالسجناء السابقين ليلتقوا بسجّانيهم، لا يُمكِن التميز بينهم وهم بملابسهم المدنية الآن. من السهل أن تخطئ - وكذلك أنا وقد اعتدت على رؤيتهم بثياب السجن - في تحديد أيهم الحراس وأيهم السجناء وقد خلعوا الزي الموحد والأرقام والإكسسوارات المُمَيّزة. (تذكر أن سنة ١٩٧١ كان الشعر هو السمة السائدة، شعر يتدلى على الأكتاف وفودين طويلين لمعظم الطلبة من كلا الفئتين، وكان لبعضهم شارب كامل أيضًا).

وفقًا لوصف أحد السجناء السابقين ففي هذه الجلسة كان «السلوك المهذب فيها مُتَصَنَّعًا مقارنة بجلسة السجناء المريحة الودودة». بينما كان كل شخص يتفحص الآخرين إذ بأحد السجناء يتساءل عما إذا كان سبب اختيار البعض لدور الحراس كونهم أطول قامة. قال جيري ٥٤٨٦ : «كان لدي شعور أثناء الدراسة بأن الحراس كانوا أكثر ضخامة من السجناء، أتساءل ما إذا كان متوسط أطوال الحراس يفوق متوسط أطوال السجناء. لست واثقًا من صدق هذا أو زيفه أو أن هذا الذي تراءى لي كان بسبب الزي الموحد»، قبل أن أرد عليه بـ«لا» طلبت من جميع الطلبة أن يقفوا بالترتيب من الأطول إلى الأقصر، كان هناك توافق شبه تام بين أطوال السجناء والحراس. كان من الواضح أن السجناء يرون الحراس وكأنهم أطول مما هم عليه في الحقيقة، وكأن سلطة الحراس أضافت إلى أطوالهم بوصتين.

لم تكن هناك مواجهات مباشرة بين السجناء المُعتدى عليهم والحراس المعتدين كما توقعت أن يحدث، كان هذا في بعض جوانبه لأن تلك المواجهات الشخصية ستكون غريبة وسط مجموعة مكونة من أكثر من عشرين شخصًا، لكن يحتمل أيضًا أن السجناء السابقين اضطروا لكبح أية مشاعر في داخلهم لأن شبكة السُلطة تم تفكيكها ولم يعد لها أي وجود، وساهم في هذا أيضًا اعتذار بعض الحراس علانية لانغماسهم بعمق في دورهم وتأديته بجدية شديدة، خففت اعتذاراتهم من حدة الموقف ونابت عن الحراس الأكثر قسوة الذين لم يعتذروا علانية مثل هيلمان.

---

[1] مذكرات الحارس. حصل المشاركون على أجر أسبوع واحد فقط، ولم يحصلوا على أجر الأسبوع الثاني الذي أنهيناه مبكرًا، براتب ١٥ دولار عن كل يوم عمل كسجين أو كحارس.

في جلسة الاستجواب هذه تذكر الحارس القاسي السابق أرنيت خريج علم الاجتماع واقعتين أثرتا فيه:

«إحداهما كانت ملاحظة زيمباردو عن انغماس السجناء في دورهم... الذي عبّر عنه بقاء بعضهم في دور السجناء حتى بعد أن أعربوا عن استعدادهم للتخلي عن المال حال إطلاق سراحهم. الانطباع الثاني هو عدم تصديق السجناء «السابقين» في الاجتماع أنني و«جون واين» وربما بعض الحراس الآخرين (شعرت بأننا أبغض حارسين) كنا نمثل أدوارنا، بعض «السجناء» أو العديد منهم شعروا بأننا كنا ساديّين حقيقة أو شديدي التسلط وأن أدوارنا هي مجرد غطاء لإخفاء طبيعتنا الحقيقية عنهم أو عن أنفسنا أو كلا الأمرين. أنا واثق أن الأمر ليس كذلك بالنسبة لي على الأقل»[1].

إحدى الملحوظات النفسية التي قدمتها كانت ضعف روح الفكاهة في سجننا والإخفاق في استخدام الفكاهة لتسكين التوتر أو حتى لإضفاء شيء من الواقعية على وضع غير حقيقي. على سبيل المثال، كان في إمكان الحراس المنزعجين من مبالغة زملائهم في أداء الدور أن يلقوا بمزحة عن استحقاق أولئك أجرًا مضاعفًا أثناء وجودهم في غرفة الحراس مثلاً، أو أن يستخدم السجناء الفكاهة لإخراج أنفسهم من جو سجن القبو غير الحقيقي بسؤال الحراس أن ما كان هذا المكان قبل أن يتحول إلى سجن؟ أكان حظيرة خنازير؟ أو ربما مُلتقى أخوية؟ فالفكاهة قادرة على كسر مزاعم الأشخاص والأماكن، لكن لم يكن هنالك من جديد في هذا المكان الحزين في الأسبوع المنصرم.

طلبت منهم قبل فض الجلسة أن يتأكدوا من استكمال ورقة التقييم النهائي للتجربة التي مروا بها وكذلك ملء بعض الأوراق الأخرى التي كانت في حوزة كيرت بانكس. دعوتهم كذلك إلى كتابة مذكرات عن الأحداث التي بقيت عالقة في أذهانهم خلال الشهر الفائت مقابل أجر مادي سيحصلون عليه. أخيرًا؛ سندعوهم بعد أسابيع قليلة لاجتماع مع «دفعة ١٩٧١» لمراجعة بعض البيانات التي جمعناها، سنقدم عرض شرائح ومقطع فيديو.

يجب أن أضيف أنني بقيت على اتصال بعدد من المشاركين لسنوات عديدة من خلال المراسلات معهم جميعًا حال نشر أي شيء عن الدراسة أو عرضه في وسائل الإعلام المرئية، وشارك العديد منهم كذلك في عدد من البرامج التليفزيونية التي تحدثت عن دراستنا بعد انتهاء التجربة بعقود، وما زلت على اتصال بقليل منهم حتى يومنا هذا. سنناقش التأثير اللاحق للدراسة عليهم فيما بعد.

---

(١) مذكرات الحارس.

ما معنى أن تكون حارسًا أو سجينًا؟

قبل أن ننتقل إلى الفصل التالي لفحص البيانات الموضوعية التي جمعناها على مدار ستة أيام من الدراسة حتى نتأمل في القضايا الأخلاقية الخطيرة التي أثارتها التجربة، أعتقد أنه سيكون من المفيد أن ننظر في آراء عدد من المشاركين.

• **عن دور السجين:**

كلاي ٤١٦:

«السجين الجيد هو الذي يعرف كيف يقف في صف واحد مع السجناء بدون أن يورط نفسه في مشاكل. زميلي في الزنزانة جيري ٥٤٨٦ كان سجينًا جيّدًا. سنجد دائمًا بعض السُجناء الذين يعانون بسبب رغبتهم في الخروج وسنجد آخرين لم يصلوا لهذه المرحلة بعد، على من لا يشعرون بالمعاناة حاليًا تعلم كيفية حماية مصالحهم بدون أن يكونوا عائقًا أمام أولئك الذين يُعانون، والسجين السيء هو من لا يستطيع تحقيق هذا ويهتم بنفسه فقط»[1].

جيري ٥٤٨٦:

«أكثر ما لاحظته هو أن أغلب المشتركين في هذه الدراسة كانوا يستمدون إحساسهم بهويتهم وبسلامتهم من البيئة المُحيطة بهم لا من داخلهم، ولذا انهاروا ولم يتحملوا الضغط ولم يكن في داخلهم ما يستمسكون به أمام هذا كله»[2].

بول ٥٧٠٤:

«كم الإهانات التي كان علينا القبول بها جعلني أحتقر نفسي فعلاً، ولهذا أصبحنا جميعًا مذعنين للغاية بنهاية التجربة، توقفت عن اتخاذ ردود الأفعال لأن هذا السُلوك لم يُغيّر شيئًا. بعد خروج ستو٨١٦ وريتش ١٠٣٧ وجدت نفسي أُفكّر في عدم قدرتي على تغيير شيء يحتاج مني أنا نفسي أن أتغيّر... كان هذا سببًا آخر لالتزامي الهدوء بعد مغادرتهم، نجاحي فيما أردت تحقيقه كان يعتمد على مؤازرة الآخرين لي. حاولت التحدُّث إلى السجناء عن إضراب عن الطعام أو ما شابه لكنهم أحجموا عن التورط في شيء من هذا بسبب العقاب الذي تعرضوا له بعد تمردهم الأول»[3].

---

(١) التقييم الختامي للسجين.

(٢) التقييم الختامي للسجين.

(٣) مذكرات السجين.

الحارس أرنيت:

«تفاجأت بشدة وانبهرت من ردود أفعال معظم السجناء تجاه ما فرضته التجربة من مواقف... خاصة الانهيارات العصبية لبعض الأفراد، والانهيارات الأخرى الوشيكة التي أثق أنها كانت لتحدث حال عدم إيقاف التجربة عند تلك المرحلة»[١].

داج ٨٦١٢:

«الظروف من حولنا كالحُرّاس والزنازين وما شابه لم تغْنِ لي أي شيء ولا حتى عندما كُنت عاريًا في الأصفاد، لكنه كان شيئًا في عقلي، في الجانب النفسي الذي كان الأسوأ على الإطلاق. معرفتي بعدم إمكانية الخروج وقتما أريد... لم ترقني فكرة عدم إمكانية ذهابي لدورة المياه حينما أريد، عدم توّفر حُريّة الاختيار هي التي كانت تُمزقّني»[٢].

السجين البديل ديف ٨٦١٢، جاسوسنا الذي كان يعرف أنه سيدخل السجن ليوم واحد فحسب ليكشف لنا طبيعة خطط الهروب، أوضح لنا كيف يمكن للشخص أن يندمج بسرعة وبصورة كاملة في دور السجين: «كانت الأجواء تغزو الجميع من أقل السجناء شأنًا إلى آمر السجن نفسه»، سرعان ما نظر لنفسه كسجين وفي يوم واحد فقط كان للاعتقال الوهمي تأثير كبير على ديف:

«أحيانًا كان يعتريني شعور كبير بالذنب لأني أتيت إلى هنا للوشاية بهؤلاء الفتيان الرائعين، شعرت بارتياح كبير عندما لم أجد شيئًا أشي به عن أية خطط هروب... وعندما حانت فرصة للوشاية بهم حين عرفت بعد حين أين يُخفون مفاتيح الأصفاد؛ لم أخبر أحدًا... نمت تلك الليلة وأنا أشعُر بالحقارة والذنب والخوف. عندما أُخذونا إلى غرفة الغلّايات (بسبب الاقتحام المتوقع للسجن) تمكنت من نزع القيد عن قدمي وفكرت جديًا في الهروب من السجن (وحيدًا، دعوني أضيف) لكني لم أفعل خشية أن يُمسِكوا بي... تجربة قضاء يوم كامل في السجن كانت كفيلة بجعلي أتوتّر واضطرب لدرجة أبقتني بعيدًا عن السجن طيلة الأسبوع، حتى عندما عدت من أجل جلسة الاستجواب كنت لا أزال أشعر ببعض التوتّر، لم أكن آكل كثيرًا، وكنت أشعر بغثيان خفيف طوال الوقت، كنت أكثر عصبية من أي وقت مضى. التجربة كلها أزعجتني بشدة ولم أتمكن من الكلام عنها بعمق مع أي شخص، ولا حتى زوجتي»[٣].

---

(١) مذكرات الحارس.

(٢) التقيم الختامي للسجين.

(٣) مذكرات السجين.

يجب أن أضيف أننا اكتشفنا لاحقًا أن «مفاتيح الأصفاد سرقها أحد السجناء من أحد الحراس. بعد نقل السجناء مساء الأربعاء إلى غرفة التخزين في الطابق الخامس ومع عودتهم مجددًا إلى الساحة في تمام الساعة ١٢:٣٠ ص قيدنا اثنين منهم معًا لئلا يهربا، وبدون مفاتيح الأصفاد كان عليّ الاتصال بشرطة ستانفورد لفك القيد، «إحراج»، هذا أقل ما يمكن أن يقال. ألقى أحد السجناء بالمفاتيح في إحدى فتحات التهوية وعرف ديفيد بهذا الأمر ولكنه لم يطلع أحدًا على هذه المعلومة.

- **عن سلطة دور الحارس:**

الحارس جيوف لاندري:

«هو أشبه ما يكون بسجن تصنعه بنفسك ثم تدخله ويصبح طريقة تعريفك بنفسك، يُصبح حواجز تريد اختراقها للخروج، وتريد أن تصرخ للجميع أن هذا ليس أنا، أنا شخصٌ يريد الخروج من هذا المكان وأن يُظهِر للجميع أنه حرّ يملك قراره، أنا لست ساديًا يستمتع بهذه الأمور»[1].

الحارس فارنيش:

«كانت التجربة عظيمة الفائدة بالنسبة لي، فكرة وجود مجموعتين متطابقتين تقريبًا من الطلبة الجامعيين تتحولان في غضون أسبوع إلى جماعتين متباينتين تمامًا تتمتع إحداهما بالسلطة الكاملة لإلحاق الضرر بالأخرى هي فكرة شديدة القسوة.

تفاجأت من نفسي... جعلتهم ينادون بعضهم بعضًا بأسماء مهينة وينظفون المراحيض بأيدٍ مجردة. كنت أنظر للسجناء عمليًا على أنهم (قطيع)، وظللت أفكر بأن عليّ مراقبتهم باستمرار لئلا يقدموا على شيء»[2].

الحارس فاندي:

«لم يكن استمتاعي بإيذاء السجناء ومعاقبتهم أمرًا طبيعيًا لي لأنني أميل إلى اعتبار نفسي شخصًا عطوفًا تجاه المصابين، خاصة الحيوانات، أعتقد أن هذا نتج عن امتلاكي الحرية المطلقة للتحكم في السجناء، ومن ثمّ بدأت في إساءة استخدام سلطتي»[3].

(كان استصحاب هذه السُلطة المكتشفة حديثًا خارج السجن من قبل الحارس

---

(١) اللقاء الختامي مع الحارس.

(٢) استطلاع الرأي الخاص بالحارس بعد التجربة.

(٣) مذكرات الحارس.

واستخدامها أمرًا لافتًا وجدناه في تقرير آمر السجن جافي. قال فاندي للآخرين في نوبته أنه لاحظ من نفسه التحدث إلى والدته في المنزل بلهجة آمرة).

الحارس أرنيت:

«لم أجد صعوبة في أن أكون قاسيًا بشكل سطحي لأنني شخص متسلط بطبعي من بعض الأوجه (على الرغم من كراهيتي الشديدة لهذه السمة في نفسي وفي الآخرين). شعرت كذلك بأن التجربة كانت مهمة وبأن تشبّهي بالحُرّاس الحقيقيين كان جزءًا من اكتشاف الكيفية التي يستجيب بها الناس للقمع الحقيقي... المؤثر الرئيسي في سلوكي كان شعوري - وإن كان غامضًا - بأن السجن الحقيقي مكان شديد القسوة لنَزْعِه إنسانية السُجناء، حاولت أن أكون كذلك مُلتزمًا بانفصالي النفسي عما يجري من حولي والسيطرة على نفسي... أولاً حاولت تجنب التعامل بشكل شخصي أو ودود، حاولت أن أكون شخصًا حياديًا يؤدي عمله فحسب. كنت مدركًا من خلال اطلاعي وقراءاتي أن حالة الضجَر وبعض الجوانب الأخرى لحياة السجون يُمكن أن تُستغل لجعل السجناء يشعرون بالاضطراب عن طريق التصرف حيالهم بوجوم، أو بجعلهم يقومون بأعمال مملة، وكذلك بمعاقبة جميع السجناء بسبب سلوك سيء لبعضهم، أو مطالبتهم بالتنفيذ المتقن لطلباتنا التافهة وقت أداء التمارين وفي أوقات أخرى، التحدث إليهم بقسوة وآلية أثناء التمارين. كنت واعيًا بقوة أولئك الذين يمسكون بزمام السيطرة في الأوساط الاجتماعية، وحاولت زيادة شعور السجناء بالغُربة باستخدام تلك الأساليب استخدامًا محدودًا للغاية لأني لم أرد أن أكون قاسيًا»[1].

- **عن الحراس الصالحين والحراس السيئين:**

بول ٥٧٩٤:

«كنت سعيدًا بكل من جون وجيوف (لاندري). لم يندمجا في الأمر بعمق مثلما فعل الآخرون، بقيا بشرًا حتى أثناء معاقبتهم لأي من السُجناء. كنت أتعجب حقًا من قبول الحراس لما يقومون به مع تمكنهم من العودة إلى منازلهم كل يوم أو ليلة»[2].

الحارس جون لاندري:

«بعد أن تحدثت إلى السجناء أخبروني أنني كنت حارسًا صالحًا وشكروني على

---

(١) مذكرات الحارس.

(٢) استطلاع الرأي الخاص بالحارس بعد التجربة.

ذلك، لكنني في قرارة نفسي كُنت أدرك أنني سيء للغاية، نظر إلي كيرت بانكس وأدركت حينها أنه يعرف ما يدور في رأسي، كنت أدرك أيضًا أنني حتى إن كُنت صالحًا وعادلاً في نظر السُجناء لكنني خذلت نفسي. تركت الأعمال الوحشية القاسية لبقية الحراس تحدث أمام عيني ولم أفعل شيئًا سوى الشعور بالذنب وأن أكون لطيفًا. في الحقيقة لم أعتقد أن هناك ما يمكنني فعله، لم أحاول؛ بل فعلت ما يفعله أغلب الناس، جلست في مقر الحراس وحاولت نسيان أمر السجناء»[1].

وربما تكون شهادة جيوف لاندري، الشقيق الأكبر لجون لاندري، هي الأكثر دلالة على قوة تجربة السجن الوهمية هذه وتأثيرها على من يعده السجناء الحارس الأكثر رحمة وعدلاً، وذلك في لقاء صوتي تم تسجيله في نهاية الدراسة حيث فاجأنا بقوله: «فكَّرت في تبادل الأدوار».

الحارس جيوف لاندري:

«تحولت الخبرة إلى ما هو أكثر من مجرد المشاركة في التجربة. ما أريد قوله هو أنه إذا كانت هذه تجربة فإن النتائج والمخرجات كانت حقيقية تمامًا، عندما يحدق فيك أحد السجناء بجمود ويهمهم بصوت غير مسموع فعليك توقع الأسوأ، ولأنك تخشى هذا الأسوأ فإنه على الأغلب يقع، وكأنني سلمت بوقوع هذا فصارت أقل علامة على القلق والانهيار العصبي هي بداية لأسوأ الآثار الممكنة. بشكل أكثر تحديدًا خرج الأمر عن كونه مجرد تجربة عندما بدأ ١٠٣٧ يتصرف وكأنما كان على وشك الانهيار، في هذه اللحظة كنت متخوفًا وقلقًا وفكرت في الانسحاب، وفكرت أيضًا في التحول إلى دور السجين. شعرت بأني لا أريد أن أكون جزءًا من آلة تضرب رجالاً آخرين وتجبرهم على الامتثال وتؤذيهم بشكل متواصل. تمنيت التعرض للأذى على أن أكون أنا المتسبب فيه»[2].

من المهم في هذا السياق أن نلاحظ أن هذا الحارس قد أبلغ آمر السجن في ليلة الأربعاء تلك أن قميصه كان شديد الضيق ويهيج بشرته ولذلك قام بخلعه. بالتأكيد كانت مشكلته نفسية أكثر منها جسدية لأنه هو من اختار القميص بنفسه وجربه قبل أن نبدأ بالتجربة ثم ارتداه لأربعة أيام بلا أية شكوى. طلبنا له قميصًا جديدًا أكبر مقاسًا وكان يرتديه بتململ، كان دائمًا ما يخلع نظارته الشمسية ولا يتذكر أين تركها عندما يسأله فريق العمل عن سبب عدم التزامه بالتعليمات القياسية للحراس.

---

(١) مذكرات الحارس.

(٢) اللقاء المسجل صوتيًا مع الحارس.

الحارس سيروس:

«كرهت التجربة اللعينة برمتها. خرجت من الباب بعد انتهائها، كانت حقيقية للغاية بالنسبة لي»[(١)].

• عن الغضب الكامن من ساديّة الحارس:

داج ٨٦١٢، في لقاء أجراه لاحقًا في فيلم أخرجه الطلبة عن دراستنا، قارن ببلاغة بين تجربة سجن ستانفورد والسجون الحقيقية التي عرفها بصفته عضوًا من فريق يعمل في سجن كاليفورنيا:

«كان وضع سجن ستانفورد جيدًا مقارنةً بالسجون الحقيقية، ولكنه مع ذلك حوّل الحراس إلى ساديين وأصاب السجناء بالهيستيريا وأصاب آخرين بطفح جلدي. لديك هنا وضع جيد وعلى الرغم من هذا لم ينجح؛ بل يوجِد ما يوجِده أي سجن عادي؛ فدور الحارس يوجِد الساديّة، ودور السجين يوجِد الارتباك والعار. أي شخص قادر على التحوّل إلى حارس، والأصعب هو أن ترقب الدوافع التي تقودك إلى السلوك السادي. إنه الغضب الكامن (*Quiet Rage*)[(٢)] والنوايا الخبيثة، يمكنك كبح هذه المشاعر لكنها لن تختفي؛ بل ستنفذ من طرق جانبية بصور ساديّة. أعتقد أن للسجن تحكّمًا أكبر في نفسه، يحتاج الجميع لتجربة دور السجين. ثمة سجناء حقيقيون التقيت بهم في السجون كانوا ذوي عزة نفس استثنائية ولم يُقَلّلوا من شأن الحراس؛ بل عاملوهم باحترام ولم يحرضوا فيهم النزعات السادية، واستطاعوا تجاوز الإحساس بالعار لكونهم سجناء، لقد عرفوا كيف يصونون كرامتهم في هذا الموقف»[(٣)].

• عن طبيعة السجون:

كلاي ٤١٦:

«الحراس مُحتجزون مثلكم أيها السجناء، الاختلاف الوحيد هو أنهم يملكون مفتاح قِفل الزنزانة، لكن هناك بابٌ آخر مغلق خلفهم لا يستطيعون فتحه، ولذا فأنتم جميعًا وما تصنعون متورطون في هذا الأمر معًا. لا يملك السُجناء مُجتمعًا خاصًا بهم وكذلك الحراس، إنه شيء واحد في غاية البشاعة»[(٤)].

---

(١) مذكرات الحارس.

(٢) عنوان الفيلم الرسمي للتجربة. (المترجم).

(٣) تفريغ نصي للقاء عن فيلم «الغضب الكامن *Quiet Rage: The Stanford Prison Experiment*».

(٤) محطة (NBC)، برنامج (Chronolog)، لقاء نوفمبر، ١٩٧١م.

الحارس سيروس:

«عندما تصرف أحد السُجناء تجاهي بعُنف وجدتني مُضطرًا للدفاع عن نفسي، لا باعتباري الشخصي ولكن باعتباري حارسًا... كرهني بصفتي حارسًا، كان يستجيب للزيّ الرسمي الذي أرتديه. لم يكن لدي خيار سوى الدفاع عن نفسي بصفتي حارسًا. صعقني هذا... تبيّن لي أنني كنت سجينًا مثلهم، كنت مجرد انعكاس لمشاعرهم... القمع سحقنا جميعًا، لكنا بصفتنا حراسًا كنا أسرى وَهْم امتلاكنا حريّتنا. هذه هي الحقيقة، كان مُجرد وَهْم... دخلنا جميعًا كعبيد للمال، وسرعان ما أصبح السجناء عبيدًا لنا...»[1].

كما قال بوب ديلان في أغنيته «George Jackson»، أحيانًا يبدو العالم أشبه بساحة سجن كبير: «بعضنا فيه سُجناء.. وبقيتنا سجّانون».

• عن تحول السمات الشخصية في ستة أيام:

بمراجعة بعض التصريحات التي سبقت انطلاق التجربة ثم أثناء التسجيلات اليومية رصدنا تحوّلات جوهرية في عقلية الحرّاس. مثال توضيحي لذلك هو الحارس تشاك بوردان في كلامه قبل التجربة وخلالها وبعدها.

قبل التجربة:

«لأني شخص مسالم ولا أحب العنف بطبيعتي لا أرى أنني قد أحرسُ أو أسيء معاملة أي كائن حيّ آخر في وقت من الأوقات، أتمنى أن يختاروني سجينًا لا حارسًا. ربما سأتعرض للسجن يومًا ما باعتباري شخصًا معارضًا للثوابت وأتورط باستمرار في أنشطة اجتماعية وسياسية معارضة، وأستطيع استشراف مستقبلٍ ربما أضطر فيه إلى عيش دور السجين وبي فضول لمعرفة مدى قدرتي على تحمُّل هذا».

بعد اجتماع توجيه الحراس:

«شراء الأزياء الموحدّة بعد انتهاء الاجتماع يؤكد الجو المشابه لجو الألعاب المحيط بالتجربة، أشك فيما إذا كان العديد منا يتحلون بالمستوى المطلوب من الجدية الذي يتحلى به الباحثون. كوني مجرد بديل يشعرني بقدر من الراحة».

اليوم الأول:

«أكبر مخاوفي في مستهل التجربة هو أن ينظر لي السجناء على أنني وغد فعلاً، على أنني حارس سجن حقيقي، أن يروا أن فيّ ما ليس فيّ، أن يروني كما لا أرى

---

(1) مذكرات الحارس.

نفسي... واحد من أسباب الإبقاء على شعري طويلاً هو أنني لا أريد أن يراني الناس على نحو مختلف عما أنا عليه... لدي شعور أكيد بأن السُجناء سيسخرون من مظهري ولهذا وضعت أولى استراتيجياتي، فلن أبتسم لأي شيء قد يقولونه أو يفعلونه، فذلك سيكون بمثابة إقرار ضمني بأن الأمر مُجرّد لُعبة. كنت خارج القفص (أثناء تقديم هيلمان والحارس الطويل الأشقر وجبة العشاء، كانا أكثر اطمئنانًا في دورهما مني). حين أجهز نفسي للدخول أتأكد من نظارتي الشمسية وأمسك بهراوتي التي تزودني بالقوة والأمان ثم أدخل بوجهي شبه العابس وكلي عزم على الحفاظ على هذا الوضع مهما حدث. أقف أمام الزنزانة (٣) وأقول بصوت قاسٍ ومنخفض للسجين ٥٤٨٦: «علامَ تبتسم؟»، «لا شيء سيدي الضابط الإصلاحي»، «حسنًا لا تفعل». ثم أبتعد وأنا أشعر بالحماقة».

اليوم الثاني:

«أثناء خروجي من سيارتي تملكتني رغبة مفاجئة في أن يُلاحظ الناس الزيّ الذي أرتديه، «هاي.. انظروا ما الذي أفعله»... طلب مني السجين ٥٧٠٤ سيجارة فتجاهلته لأنني لست مدخنًا فلم أشعر به... في تلك الأثناء ولأنني كنت أشعر ببعض التعاطف تجاه السجين ١٠٣٧ اتخذت قرارًا بعدم التحدث إليه. بعد ذلك أصبحت لدي عادة قرع الحوائط والمقاعد وقضبان الزنازين [باستخدام الهراوة] لكي استعرض سُلطتي... بعد انتهاء الإحصاء وإطفاء الأنوار دار بيني وبين الحارس هيلمان حديث عن حبيبتينا وما الذي سنفعله معهما عندما نعود إلى منازلنا (لكي نستفز السجناء)».

اليوم الثالث (التجهيز لليلة الأولى للزيارة):

«بعد تحذير السجناء من إصدار أية شكوى إلا إذا أرادوا إنهاء الزيارات بسرعة؛ أتينا أخيرًا بأول أولياء الأمور، كنت حريصًا على الحضور في الساحة لأنها فرصتي الأولى في استعراض التحكم الذي أحب، أن أكون شخصية بارزة بسيطرة شبه كاملة على ما يقال وما لا. أثناء جلوس الآباء والسجناء في المقاعد المخصصة لهم جلست على طرف الطاولة مدليًا قدمي مقاطعًا وقت اللزوم، كان هذا هو أول جزء من التجربة استمتعت به. كان السجين ٨١٩ يتصرف بخبث ويحتاج مراقبة عن كثب... هيلمان وأنا أعجبنا به وكرهناه في الوقت نفسه. كحارس (مُمَثِّل) كان هيلمان رائعًا، كان يتقمص الشخصية الساديّة ببراعة، وكان هذا يزعجني».

اليوم الرابع:

«وبخني اختصاصي عِلم النفس كريج هاني بسبب تقييد وتغمية عين السجين قبل

مغادرة مكتب الاستشارات، ورددت باستياء بأن هذا ضروري أمنيًا ومهنيًا... في المنزل كنت أجد صعوبة كبيرة في وصف مدى واقعية الموقف».

اليوم الخامس:

«أزعجت الرقيب الذي استمر في طاعة كافة الأوامر بصرامة، اخترته تحديدًا من صف السجناء لأسيء له بشكل خاص لأنه يبدو وكأنما يتوسّل من أجل هذا ولأنني ببساطة لا أحبه. بدأت المشكلة الحقيقية وقت العشاء. السجين الجديد [٤١٦] يرفض أكل النقانق، ألقينا به في الحفرة وأمرناه بأن يمسك قطعة نقانق في كل يد. كانت لدينا أزمة سيطرة، هذا السلوك المتمرد من شأنه أن يقوض سيطرتنا الكاملة على الآخرين. قررنا أن نلعب على وتر تضامن السجناء ونخبر السجين الجديد أن الآخرين سيحرمون من الزيارات إن لم يتناول عشاءه. اقتربت من الحفرة وهويت بعصاي على بابها... أنا غاضب بشدة من هذا السجين لتسببه بالتوتر والمتاعب للآخرين. قررت أن أطعمه بالقوة لكنه لم يأكل، لطخت بالطعام وجهه، لم أصدق أنني فعلت هذا، كرهت نفسي لإجباره على الأكل لكنني كرهته أكثر لأنه لم يأكل».

اليوم السادس:

«التجربة انتهت. أشعر بالبهجة لكن فاجأني أن بعض الحراس الآخرين قد شعروا بالخيبة لخسارتهم المال ولأنهم كانوا يقضون وقتًا ممتعًا كذلك... كان الحديث أثناء الجلسة التي جمعتنا بالسجناء صعبًا، بدا كل شيء موترًا وغير مريح... قدت دراجتي عائدًا إلى المنزل أثناء شروق الشمس، كان إحساسًا رائعًا أن تخرج من هناك».

بعد عدة أسابيع:

«القوة الشديدة لقرار هيلمان ترك السجين ٤١٦ في الحفرة طوال الليل لم تؤذ مشاعري إلا بعد عدة أسابيع، لكنها بالتأكيد آذت فِلْ زيمباردو مع أحداث أخرى كثيرة وقد قرر إنهاء الدراسة عند هذه النقطة»[١].

نحول مثير آخر لشخص مر بدراستنا عرضًا نجده تحت عنوان «حكايا إضافية» في سجل آمر السجن. هل تذكرون زميلي عالم النفس الجاد الذي جاء يناظرني في خضم سعيي المحموم لخداع الغزاة المتوقعين بادعاء أن الدراسة انتهت؟ ذلك الذي طلب أن يعرف «ما المتغير المستقل؟».

تشير ملحوظات جافي إلى أن «دكتور «ب» زارنا ليلة الثلاثاء أثناء نقل السجناء إلى

---

(١) مذكرات الحارس.

الغرفة الموجودة في الطابق الخامس، فقد صعد هو وزوجته إلى الدور العلوي ليلقوا نظرة على السجناء وقدمت لهم السيدة «ب» الحلوى، أما الدكتور «ب». فقد صدر عنه تعليقان على الأقل يسخر فيهما من السجناء، أحدهما خاص بالملابس والآخر كان عن نتانة المكان. نمط «الاندماج في الحدث» هذا وقع مع كل زائر غريب تقريبًا».

في الحين الذي قدّمت فيه زوجته للمشاركين «الشاي والتعاطف»؛ قام زميلي المتحفظ في سلوكياته عادة على نحو غير متوقع بمعاملة هؤلاء الطلبة بطريقة لا إنسانية مما أشعرهم بالخزي على الأغلب.

• عن تجارب هيلمان الصغيرة[1]:

دعونا نلقي نظرة سريعة على ورقة معلومات المتطوع التي ملأها هيلمان قبل أسبوع من بداية التجربة حتى نكوّن تصورًا عن وضعه قبل أن يكون حارسًا. أصابتني الدهشة عندما علمت أنه طالب جامعي في السنة الأولى في الثامنة عشرة من عمره فقط، كان من بين أصغر المشاركين. نظيره أرنيت، كان من بين الأكبر عمرًا. يتحدر هيلمان من عائلة أكاديمية من الطبقة المتوسطة، هو الأصغر بين أربعة أشقاء، أختين وآخر أكبر منه. بطوله البالغ ستة أقدام وبوصتين ووزن ١٧٥ رطل وعينيه الخضراوتين وشعره الأشقر؛ كان ذا هيئة مهيبة. قدم هذا الشاب نفسه كموسيقي «وعالم في الصميم». ذكر في وصفه لنفسه: «أعيش حياة طبيعية وأحب الموسيقى والطعام والآخرين»، وأضاف: «الدي حب كبير تجاه أقراني من الجنس البشري».

في إجابته عن سؤال «ما أكثر ما يحبه الناس فيك؟» قال مفعمًا بالثقة: «يعجب الناس بي في البدء بسبب موهبتي وشخصيتي المنفتحة، قلة من يعلمون إمكانياتي الحقيقية فيما يخص العلاقات البشرية».

---

(١) لقب الحارس هيلمان، «جون واين *John Wayne*»، بعكس تشابهًا مهمًا أعلمني به زميلي جون ستينر (*John Steiner*) - أستاذ شرفي لعلم الاجتماع في جامعة سونوما (*Sonoma State University*) وأحد الناجين من الهولوكوست - حيث سجن في مراهقته في معسكر اعتقال بوشنفالد (*Buchenwald*) لسنوات عديدة. عندما علم ستينر أن سجاننا قاموا بتسمية أحد أسوأ الحراس لدينا باسم «جون واين» تذكر وجهًا للشبه مع تجربته الشخصية: «حسنًا، كان الحراس في معسكرات الاعتقال مجهولي الأسماء بالنسبة لنا، كنا نسميهم «السيد الملازم» أو «السيد ضابط الشوتزشافل»، فلم تكن لهم أسماء ولا هوية، لكننا لقبنا أحد الحراس الذي كان أشدهم قسوة، كان يطلق النار على الناس بلا سبب، يقتلهم، يدفعهم نحو السياج الكهربائي، كان عنفه شبيهًا بعنف رعاة البقر في براري الغرب، لذلك أسميناه بـ«توم ميكس *Tom Mix*»، لكن من وراء ظهره فحسب». كان توم ميكس هو راعي البقر الشرس في أفلام الثلاثينات والأربعينات، والذي صار جون واين بالنسبة للأجيال التالية.

وفي إجابته عن النسخة السلبية من السؤال «ما أقل ما يحبه الناس فيك؟»؛ أعطانا هذا الشاب إلماحة عن شخصيته المركبة ونبذة عما يتوقع حدوثه حال امتلاكه السلطة المطلقة، كتب: «عدم احتمالي للغباء، نبذي التام لمن لا أتفق مع أسلوب معيشتهم، استغلالي لبعض الناس؛ فظاظتي وثقتي بنفسي». أخيرًا، دعونا نضيف إلى هذا المزيج أن هذا المتطوع قال بأنه فضّل دور السجين على دور الحارس: «لأن الناس يستاؤون من الحراس».

مع الاحتفاظ بهذه المعلومات الشخصية في أذهاننا سيكون من المفيد أن نراجع تأملات ما بعد التجربة التي قدمها عن كيفية رؤيته لدوره في هذه الدراسة.

الحارس هيلمان:

«نعم كانت أكثر من مجرد تجربة، كانت فرصة بالنسبة لي لاختبار قدرات الناس ودفعهم إلى الانهيار متخفيًا في شخصية الضابط الإصلاحي، لم يكن بالشيء الجيد لكن أغراني افتتاني باختبار ردود أفعالهم، كنت أقوم بتجاربي الخاصة في أوقات عديدة»[١].

«أفضل ما في التجربة هو أنني بدوت كالوسيط الكيميائي في التفاعلات والذي أحدث نتائج قوية لفتت انتباه التلفاز والصحافة... أعتذر إن تسببت في مشكلات أكبر مما أردتم، كانت تجربة خاصة بي»[٢].

«أسوأ ما في التجربة هو أن العديد من الناس أخذوني على محمل الجد أكثر مما ينبغي وأنني جعلتهم أعداء. أثّرت فيهم كلماتي، بدا السجناء كأنما فقدوا اتصالهم بواقع التجربة»[٣].

بعد شهر من انتهاء الدراسة أُجري لقاء مع هذا الحارس السابق ومعه كلاي ٤١٦، غريمه. اشتركا في جزء من فيلم تسجيلي عن دراستنا أذاعه برنامج (Chronolog) على محطة (NBC)، وهو النسخة القديمة من برنامج (60 Minutes)، كان بعنوان «قام ٨١٩ بفعل شيء سيئ».

بعد أن قدم هيلمان وصفًا لتحوله إلى دور الحارس هاجمه كلاي في ترجمة عملية للحكمة «كما تدين تدان»، والتي تصلح ليُعنون بها على هذه الحقبة.

هيلمان: «ما إن ترتدي الزي الموحد وتشرع في أداء دورك، أقصد عملك، وليكن

(١) التقييم النهائي للحارس
(٢) استطلاع الرأي الخاص بالحارس بعد التجربة.
(٣) استطلاع الرأي الخاص بالحارس بعد التجربة.

عملك هو الحفاظ على مجموعة من الناس منضبطين؛ فبالتأكيد لن تكون الشخص نفسه ذي الملابس العادية في دور مختلف. تصبح حقًا ذاك الشخص بمجرد أن ترتدي هذا الزي ذي اللون الكاكي وتضع النظارات الشمسية وتمسك بالعصا، ثم تؤدي الدور. هذا هو زيّك وعليك أن تتصرف بما يتطابق معه».

كلاي: «إنه يؤذيني، أعني «يؤذي»، بالمضارع، يؤذيني».

هيلمان: «كيف أذاك؟ كيف يؤذيك؟ أبمجرد التفكير في أن الناس قد يتصرفون بهذه الطريقة؟»

كلاي: «أجل؛ فهو يكشف لي بعض ما كنت أجهله قبلاً. قرأت عنه كثيرًا لكن لم يسبق لي أن جربته، لم أشاهد أبدًا شخصًا يتحول بهذه الطريقة، وأعرف أنك شخص لطيف، أتفهمني؟».

هيلمان يبتسم ويهز رأسه: «أنت لا تعرف هذا».

كلاي: «بل أعرف، أعرف أنك شخص لطيف، ليست لدي...»

هيلمان: «لماذا تكرهني إذًا؟»

كلاي: «لأنني أعرف ما يمكن أن تصبح عليه، وأعرف ماذا ستفعل إذا قُلتَ لنفسك «لن أؤذي أحدًا، إنه وضع مؤقت سينتهي بعد أسبوعين»».

هيلمان: «حسنًا، لو كنت أنت في هذا الموقف ماذا كنت ستفعل؟»

كلاي (ببطء وبحذر انتقى كل كلمة): «لا أعرف، لا أستطيع القول بأنني أعرف ماذا كنت سأفعل».

هيلمان: «هل كنت...»

كلاي (يقاطع هيلمان الآن): «لا أظن، لا أصدق أنني كنت سأبلغ درجة الابتكار التي بلغتها، لا أعتقد أنني كنت سأطبق الكثير من تخيلاتي على ما أفعل، هل تفهمني؟».

هيلمان: «نعم، أنا...».

يستمر كلاي في مقاطعة هيلمان ويبدو مستمتعًا بإحساسه الجديد بالسلطة: «ربما كنت سأصبح حارسًا، لكن لن أكون بهذه الألمعية!».

هيلمان: «لا أرى حقًا كيف كانت تصرفاتي مؤذية، كانت مُهينة، وكان هذا جزءًا من تجربتي الخاصة الصغيرة لأرى كيف...»

كلاي (غير مصدّق): «تجربتك الخاصة الصغيرة؟ لم لا تحدثني عن هذا؟»

هيلمان: «كنت أجري تجارب صغيرة خاصة بي».

كلاي: «أخبرني عن تجاربك الصغيرة، أشعر بالفضول».

هيلمان: «حسنًا، أردت أن أرى إلى أية درجة سيتحمل الناس الإساءات اللفظية قبل أن يبدؤوا بالاعتراض والرد بالمثل في هذه الظروف، وفاجأني أن أحدًا لم يقل شيئاً ليردعني، لم يقل أحد (يا إلهي، لا يحقّ لك توجيه هذه الألفاظ لي، هذا مُقرِف)، لم يقل أحد هذا وتقبلوا ما قلت ببساطة. لو قلت لأحدهم (اذهب وقل لهذا الرجل في وجهه بأنه حُثالة الأرض)؛ فسيفعل بلا تردد، وسيؤدون تدريبات الضغط بلا تردد، وسيمكثون في الحفرة، وسيسيؤون لبعضهم، كان من المفترض أنهم هنا كفريق واحد في السجن، لكن ها هم يعتدون على بعضهم البعض لمجرد أنني طلبت منهم هذا ولم يشكك أحد في أحقيتي في فعل هذا على الإطلاق، وقد صدمني هذا، [عيناه تدمعان الآن]. لمَ لمْ يقل الناس شيئًا عندما بدأت في الإساءة إليهم؟ أصبحت شديد البذاءة، ولكن استمر صمت الجميع، لم يقولوا أي شيء، لماذا؟».

بالفعل، لماذا؟

الفصل العاشر

معنى تجربة سجن ستانفورد ورسائلها وتفاعلات تحوّلات الشخصية

«كلنا خنازير تجارب في معمل الرب... الإنسانية عمل قيد الإنجاز»

تينيسي وليامز، الطريق الملكي
(Tennessee Williams, *Camino Real*)

بدأت تجربة سجن ستانفورد (SPE) بكونها عرضًا بسيطًا لتأثير مجموعة من المتغيّرات الظرفية في سلوك أفراد يلعبون دور سجناء وحراس في بيئة سجن تقليدية. لا نسعى في هذا البحث الاستكشافي إلى اختبار فرضيات معيّنة ولكن إلى تقدير مدى إمكانية تغلب الخصائص الخارجية للبيئة المؤسسية على الميول الشخصية للفاعلين في هذه البيئة. وضعنا الميول الشخصية الصالحة في مواجهة مع موقف فاسد.

بمرور الوقت أبدت هذه التجربة قدرة تفسيرية عالية للتأثير السامّ المحتمل للأنظمة والظروف السيئة في جعل الصالحين يتصرفون على نحو مَرَضيّ غريب عن طبيعتهم. التسلسل الزمني المحكي لهذه الدراسة التي حاولتُ إعادة وصفها بأمانة هنا؛ يكشف بوضوح إلى أي مدى يُمكِن لشباب عاديين وطبيعيين وأصحاء أن يخضعوا - يُستدرجوا من قبل القوى الاجتماعية المُتخفيّة في هذا السياق السلوكي كما حصل معي أنا والكثير من البالغين والمحترفين حيث نجحت في تطويقنا. لطالما اعتقدنا أن الحاجز الفاصل بين الخير والشر غير قابل للاختراق، لكن الآن تبيّن لنا العكس.

إنه وقت مراجعة أدلة أخرى جمعناها خلال مسيرة البحث. قامت عدة مصادر معنيّة بتسليط المزيد من الضوء على ما حدث في هذا السجن المظلم، لذلك سنستخدم جميع الأدلة المتاحة لنستخرج المعاني التي تمخّضت عنها هذه التجربة الفريدة، وندلّل على الطرق التي يمكن عبرها أن تتحوّل الإنسانية إما بالقوة أو بالعجز. تستبطن هذه المعاني رسائل بالغة الأهمية عن طبيعة الإنسان وعن الظروف التي يمكن أن تثريها أو تُرديها.

موجز قبل التعمق في البيانات

كما سبق ورأينا، أثارت بيئة السجن التي لا تقهر ردود فعل شديدة وحقيقية وفي كثير من الأحيان مَرضية لدى العديد من السجناء. فاجأتنا شدة تسلُّط الحرّاس ومعدّلات تصاعد هذا التسلط خاصة بعد تمرد السجناء، كما تفاجأنا في حالة داج ٨١٦٢ بأن الضغوط الظرفية قادرة على قهر معظم هؤلاء الشبان الطبيعيين الأصحاء بسرعة وقسوة.

فقدان الهوية الشخصية والخضوع لتحكّم مُتعسّف ومتواصل في تصرفاتهم إضافة إلى الحرمان من الخصوصية والنوم؛ كل هذا ولّد فيهم متلازمة السلبية والاتكالية والاكتئاب وهو ما يمثّل ما نسميه «العجز المُكتَسَب»[1]. (العجز المُكتَسَب هو التعرض لحالة من الاستسلام السلبي والاكتئاب عقب فشل متكرر أو عقاب، خاصة عندما يبدو تعسفيًا وغير متعلق بتصرف الفرد).

أُطلِق سراح نصف السجناء مبكرًا بسبب اضطراب عاطفي وإدراكي عنيف، وعلى الرغم من كونها أعراضًا مؤقتة إلا إنها كانت شديدةً وقتها. أغلب الذين استمروا في التجربة أصبحوا في غاية الإذعان لمطالب الحراس؛ تمامًا كـ«الزومبي» في حركاتهم مسلوبة الإرادة وفي خضوعهم لنزوات الحراس المتسلطين المتزايدة.

كذلك كان الحال مع «الحُرّاس الصالحين» الذين ينْدُر وجودهم، حيث تمكن عدد قليل من السْجناء من الدفاع عن أنفسهم في وجه هيمنتهم. رأينا كلاي ٤١٦ الذي كان من الواجب مساندته في مقاومته البطولية، لكن بدلاً من هذا قام زملاؤه السجناء بمضايقته لأنه «مثير للمتاعب». لقد ارتدوا النظارة القاصرة ضيقة الأفق التي قدمها لهم الحرّاس بدلاً من تكوين منظورهم الخاص بشأن إضراب كلاي عن الطعام بصفته رمزًا لمقاومتهم الجماعية للطاعة العمياء للسلطة.

تصرف الرقيب أيضًا ببطولة في بعض الأوقات عندما رفض أن يلعن أو أن يتعدى

---

(١) جاء مفهوم العجز المكتسب (Learned Helplexness) من بحث في عالم الحيوان أجراه مارتين ساليجمان (*Martin Seligman*)، ففي تجربة لتدريب الكلاب كانت تتعرض فيها إلى الصعق المستمر؛ سرعان ما توقفت الكلاب عن محاولة الهروب، بدا وكأنها استسلمت وتقبلت الصعق حتى بعد أن مُنحت لها فرصة الهروب بسهولة. كشفت أبحاث لاحقة تشابهات في حالة البشر أيضًا، فإن تعرضوا مثلاً لأصوات مزعجة لا سبيل لإيقافها؛ كفّوا عن محاولة فعل أي شيء لإيقاف صوت جديد مزعج حتى وإن كان هذا بالإمكان. تتضح التشابهات أيضًا في حالة الاكتئاب السريري والأطفال والزوجات المعتدى عليهن وأسرى الحروب وبعض دور رعاية المسنين. من بين المراجع نجد:

M.E.P. Seligman, *Helplessness, On Depression, Development and Death*, "*Journal of Experimental Psychology* 102 (1974): 186-93; J. Bule", 'Control' "Studies Bode Better Health in Aging", *APA Monitor*, July 1988, p. 20.

لفظيًا على سجين زميل عندما أُمِر بذلك، لكن في عموم الأوقات كان أنموذجًا للسجين المطيع. جيري ٥٤٨٦ كان أكثر السجناء اتزانًا، لكن وفقًا لما أوضحه بنفسه في تأملاته فإن نجاحه في الاستمرار كان بسبب تركيزه على نفسه وعدم بذله الوسع في مساعدة السجناء الآخرين الذين ربما يستفيدون من دعمه لهم.

عندما بدأنا تجربتنا كانت لدينا عيّنة من الأفراد الذين لم ينحرفوا عن المعدل الطبيعي لسلوكيات الطبقة المتعلّمة التقليدية في جميع المستويات التي قسناها مسبقًا. أولئك الذين عيّناهم بشكل عشوائي في دور الحرّاس كان من الممكن استبدالهم بأولئك الذين عُيّنوا في أدوار السجناء بلا فرق، لم يكن لأي فرد من المجموعتين أي تاريخ إجرامي أو إعاقة نفسية أو جسدية أو حتى سلبية ذهنية أو اجتماعية يمكن أن تجعل السجناء مختلفين عن الحراس أو عن بقية أفراد المجتمع.

بفضل هذا التوزيع العشوائي والقياسات القبْلية المقارنة تمكنت من التأكد أن هؤلاء الشبان لم يأتوا إلى سجننا بأي اعتلال يمكن أن يظهر بينهم لاحقًا عند القيام بدور السجناء أو الحراس. في بداية التجربة لم تكن ثمة فوارق بين المجموعتين، وبعد أقل من أسبوع لم يعد ثمة تشابه بينهما. لذلك كان من المنطقي استنتاج أن الاعتلالات التي ظهرت كانت بسبب مجموعة من المؤثرات الظرفية التي كانوا على تماس معها بشكل متواصل في هذا المكان الشبيه بالسجون. هذا الظرف قد أقرّهُ وعمل على استمراره نظام يعمل في الخلفية ساعدتُ في صناعته. فعلت هذا أولاً عندما مارست على الحراس توجيهًا نفسيًّا، ثم عن طريق سياسات متنوعة وإجراءات ساهمتُ وفريق عملي في تفعيلها.

لا يمكن القول أن أحدًا من الحراس أو السجناء كانوا «تفاحات فاسدة» قبل دخولهم هذا «الوعاء الفاسد» وتأثرهم به بقوة. خصائص هذا الوعاء المعقدة صنعت المؤثرات الظرفية الفاعلة في هذا السياق السلوكي، أعني الأدوار والقواعد والمعايير وحجب الهوية والمكان، والعمليات النازعة للإنسانية، وضغوط التوافق، وهوية الجماعة دون هوية الفرد، وأشياء أخرى كثيرة.

ما الذي تعلمناه من البيانات

مراقبتنا المباشرة على مدار الساعة للتفاعلات السلوكية بين الحراس والسجناء والأحداث الخاصة مدعومةٌ بتسجيلات فيديو تمتد لحوالي (١٢ ساعة) وأجهزة تسجيل صوتية مخفية سجّلت حوالي (٣٠ ساعة)، واستبيانات ومختلف المقاييس الذاتية للشخصية والعديد من اللقاءات. بعض هذه المقاييس كانت بغرض التحليل الكمّي وبعضها ارتبط بمخرجات المقاييس.

أبرزت عملية تحليل البيانات العديد من الصعوبات أثناء تحليلها، منها صغر حجم العيّنات نسبيًا، ومنها كون تسجيلاتنا انتقائية وليست شاملة بسبب محدودية الميزانية وقلة أفراد فريق العمل، ومن ذلك أيضًا قرارنا الاستراتيجي بالتركيز على الأحداث الأكثر أهمية مثل (الإحصاء والوجبات والزيارات وجلسات استماع لجنة الإفراج)، كما أن المؤشرات السببية لم تكن مؤكّدة بسبب التفاعل الحركي المستمر بين الحراس والسجناء أثناء النوبات وبينها. كانت التحليلات الكمية للبيانات الخاصة بسلوك الفرد مضطربة بسبب الحقيقة الواضحة المتعلقة بتعقد التفاعلات بين الأشخاص والمجموعات والتأثيرات المُرتبطة بالوقت. أضف إلى ذلك أننا، خلافًا للتجارب التقليدية، لم تكن لدينا مجموعة مرجعية للمقارنة من المتطوعين الذين لم يمُرّوا بالمُعالجة التجريبية الخاصة بحيث يلعبون دور سجناء أو حراس، ولكن يخضعون لعدد من التقييمات فحسب قبل دخولهم التجربة وبعدها. سبب عدم وجود مجموعة مرجعية هو أننا فكرنا في تصميم تجربتنا على أنها عرض عملي لظاهرة، مِثل تجربة ستانلي ميلغرام الأصلية عن الخضوع، لا كتجربة هدفها تحديد العلاقات السببية. لقد وضعنا في اعتبارنا القيام بمقارنة مجموعة تجريبية مع مجموعة مرجعية في بحث مستقبلي حال وجدنا شيئًا مثيرًا للاهتمام في هذا التحقيق الاستكشافي الأولي، لذلك كان متغيرنا المستقل البسيط هو المؤثر الأساسي في معالجة حالة الحراس مقابل السجناء.

ومع ذلك فقد ظهرت لنا أنماط متكررة واضحة عزّزت من العرض الكيفي الذي تقدمت به حتى الآن. تعطينا هذه الاكتشافات فهمًا مثيرًا للاهتمام عن طبيعة هذه البيئة التي يصعب قهرها وكذلك عن طبيعة الشبان الذين اختُبروا بها. ستجد النتائج المفصلة لهذه القياسات وأهميتها الإحصائية في المقال العلمي الذي نشر في الدورية الدولية لعلم الجريمة وإدارة السجون (International Journal of Criminology and Penology)[1] وفي موقع (www.prisonexp.org).

مقاييس الشخصية

أجرينا ثلاثة أنواع من القياسات التي تحدد الفوارق بين المشاركين عندما خضعوا للتقييم الذي سبق بدء التجربة بأيام قليلة. هذه الاختبارات هي مقياس (F-Scale[2])

(١) أفضل مرجع عن البيانات التي جمعناها والتحليلات الإحصائية هو المقال العلمي الذي نشرناه:

Craig Haney, Curtis Bancs, and Philip Zimbardo. "Interpersonal Dynamics in a Simulated Prison," *International Journal of Criminology and Penology* 1 (1973): 69-97.

(٢) الحرف (F) هو الحرف الأول من كلمة (Fascism)؛ أي: الفاشية. (المترجم).

للسلطوية، ومقياس المكيافيللية لاستراتيجيات التلاعب بالآخرين، ومقياس كومري للشخصية (Comrey Personality Scales):

• مقياس (*F-Scale*): هذا المقياس للالتزام الصارم بالقيم التقليدية وللإذعان وللموقف غير الناقد للسلطة؛ لم يكن هناك من الناحية الإحصائية فارق كبير بين متوسط ما أحرزه الحراس (٤,٨) وبين متوسط ذلك عند السجناء (٤,٤) قبل توزيعهم على الدورين، لكن عند مقارنة نتيجة المقياس لدى السجناء الخمسة الذين أطلق سراحهم مبكرًا بنتيجته عند الذين استمروا حتى النهاية نجد فارقًا مذهلاً، أولئك الذين تحملوا البيئة التسلطية لتجربة سجن ستانفورد أحرزوا ما يزيد على ضعف ما أحرزه الذين أفرج عنهم مبكرًا من أقرانهم، (متوسط = ٨,٧) مقابل (متوسط = ٣,٢). المدهش أننا إذا رتّبنا نتائج هذا المقياس التي أحرزها السجناء من الأقل إلى الأعلى؛ فسنجد ارتباطًا قويًا بين النتائج التي حققوها وعدد الأيام التي قضوها في التجربة (معامل الارتباط = ٠,٩٠). تزداد احتمالات بقاء السجين لفترة أطول وتكيُّفه بشكل فعال مع البيئة التسلطية للسجن مع صلابة التزامه بالقيم وتقبله للسلطة، وهي السمات التي ميّزت سجننا، وعلى النقيض فإن السجناء الذين لم يتحملوا الضغط بصورة كبيرة هم الذين أحرزوا نتائج أقل في هذا المقياس وهو ما قد يراه البعض ميزة لهم.

• مقياس المكيافيللية[١] هذا المقياس ـ كما يوحي اسمه ـ خاص بتقييم مدى تقبّل الشخص استخدام استراتيجيات تمكّنه من تحقيق أفضل المكاسب من آخرين يقابلهم، لكن لم نجد كبير فرق بين متوسط الحراس (٧,٧) والمتوسط الأعلى قليلاً للسجناء (٨,٨)، كما لم يظهر لنا أي ارتباط بمدة البقاء في السجن، توقعنا أن مهارات أولئك الذين يبدون قابلية عالية للتلاعب بالآخرين ستكون مرتبطة بقدرة أصحابها على التعايش في هذا المكان، لكن بينما كان اثنان من أصحاب النتائج المرتفعة في مقياس المكيافيللية هما ممن حكمنا عليهم بأنهم الأفضل تكيُّفًا مع الحياة في السجن؛ كانت نتائج اثنين آخرين أحسنا التكيف أيضًا هي الأقل.

• مقاييس كومري للشخصية[٢]: يتكون مقياس التقييم الذاتي هذا من ثمانية مقاييس فرعية استخدمناها للتنبؤ بالاختلافات الطبعية بين الحراس وبين السجناء. مقاييس الشخصية هذه هي: استحقاق الثقة، التنظيم، التوافق، النشاط، الثبات، الانبساط، الذكورة، التعاطف. في هذه المقاييس كانت نتائج الحراس والسجناء شبه متطابقة، ولم

---

(١) R. Christie, and F. L. Geis, eds. *Studies in Machiavellianism* (New York: Academic Press, 1970).

(٢) A. I. Comrey, *Comrey Personality Scales* (San Diego: Educational and Industrial Testing Service, 1970).

يكن لها أية أهمية إحصائية، وكان متوسط كل مجموعة في كل مقياس فرعي يقع في الشريحة المئوية بين أربعين إلى ستين بالمئة من المتوسط القياسي للذكور وفقًا لكومري. هذه الاكتشافات تدعم التأكيدات بأن شخصيات الطلبة في المجموعتين «طبيعية» أو «عادية».

لقد أحسن كريج هاني وكيرت بانكس بالفعل في مهمة انتقائهم الأوّلي للطلبة حيث اختاروا عينة من الشبان العاديين. كذلك لم تكن هناك أية ميول أوّلية يمكن أن تميّز بين الأفراد الذين لعبوا دور الحراس والذين قاموا بدور السجناء.

وجدنا فوارق قليلة غير ذات أهمية بين السجناء الذين أفرج عنهم مبكرًا وبين أولئك الذين تحمّلوا الوضع الكارثي حتى النهاية. أحرز الذين استمروا نتائج أعلى في التوافق (قبول المجتمع كما هو)، الانبساط، والتعاطف (المساعدة، والعطف، والكرم) مقارنةً بمن أطلق سراحهم مبكرًا.

إذا فحصنا نتائج من كانوا أكثر ابتعاداً من الحراس والسجناء عن متوسط المجموعة (بمقدار ١,٥ أو أكثر)؛ فسنجد بعض النماذج المثيرة للاهتمام.

أولاً؛ فلننظر في بعض السمات الشخصية لسجناء معينين. انطباعي عن السجين جيري ٥٤٨٦ «الأكثر تماسكًا» يدعمه كونه صاحب أعلى نتيجة في مقياس الثبات، وكل أرقامه تقريبًا كانت شديدة القرب من المعدّلات الطبيعية، وعندما يبتعد عن متوسط النتائج التي يحرزها الآخرون فدائمًا ما تكون نتيجته في الناحية الإيجابية، كان أيضًا الأعلى في الذكورة (لا يبكي بسهولة، غير مهتم بقصص الحب). ستيوارت ٨١٩، الذي حطّم زنزانته وسبّب الكثير من الألم لزملائه الذين كان عليهم تنظيف الفوضى التي خلّفها؛ سجّل أقل نتيجة في التنظيم (مدى تدقيق الشخص واهتمامه بالترتيب والتنظيم)، وعلى الرغم من مخالفته القوانين لكنه لم يكترث. خمّنوا من كان صاحب النتيجة الأعلى في النشاط (النشاط البدني والعمل الدؤوب، والتمارين)؟ نعم بالفعل، كان هو الرقيب ٢٠٩٣. استحقاق الثقة هو الإيمان بوجود الحد الأدنى من الأمانة وحُسن النوايا، وكان كلاي ٤١٦ هو من حصل على الجائزة في هذا المضمار. أخيرًا، ومن سجلات السجناء، من تتوقعون أنه صاحب النتيجة الأعلى في مقياس «التوافق» (الإيمان بإعمال القانون، وقبول المجتمع كما هو، والاستياء من عدم توافق الآخرين؟) من صاحب رد الفعل الأعنف ضد كلاي ٤١٦ في مقاومته لمطالب الحراس؟ لم يكن سوى هابي ٧٢٥٨!

أما فيما يتعلق بالحراس فلم تكن هناك إلا أرقام قليلة ذات أهمية لكونها «شاذة»

مقارنة بالأقران. أولاً، نجد أن الحارس الصالح جون لاندري، وليس شقيقه جيوف، كان الأعلى في التعاطف. الحارس فارنيش كان الأقل في التعاطف واستحقاق الثقة ولكن كان الأعلى في التنظيم، كان أيضًا صاحب النتيجة الأعلى في مقياس المكيافيللية، إذا اجتمعت هذه السمات معًا فإنها تنتج السلوك الهادئ الفعّال الآلي والحيادي الذي أبداه طوال دراستنا.

في حين تقترح هذه النتائج أن مقاييس الشخصية قادرة على التنبؤ بالفوارق السلوكية في بعض الحالات؛ علينا أن نحذر من الإفراط في تعميمها كوسيلة لفهم نماذج سلوكيات الأفراد عند وضعهم في بيئات جديدة كهذه. على سبيل المثال، وفقًا لكل المقاييس فإن جيري ٥٤٨٦ كان «سويًا بشكل خارق» من بين السجناء، لكن كان التالي له في نتائج تقييم الشخصية التي تؤهله ليكون «شديد السواء» هو داج ٨٦١٢. يكاد يكون التنبؤ باضطرابه ثم «جنونه» مستحيلاً بناء على حالته «شديدة الطبيعية» قبل التجربة. علاوة على ذلك لم نتمكن من إيجاد مؤشرات عن الاختلافات بين الحراس الأربعة الأشد لؤمًا وبين الآخرين الذين كانوا أقل عدوانية. لا توجد أية سمة شخصية فحصناها يمكنها الإشارة إلى هذه الاختلافات الشديدة.

الآن إذا نظرنا في نتائج الحارسين الأكثر لؤمًا وسادية تجاه السجناء، هيلمان وأرنيت؛ فكلاهما كانا طبيعيَّين في جميع السمات باستثناء واحدة، وهي الذكوريّة. من ينظر للشخصيات محكّما حدسه سيكون معذورًا إذا افترض أن هيلمان أو «جون واين» السيئ كان على رأس مقياس الذكورة، لكن العكس تمامًا هو الصحيح، فقد سجل في الذكورة معدلاً أقل من أي حارس آخر؛ بل وأقل من أي سجين. وعلى النقيض كان أرنيت هو الأكثر ذكوريّة بين الحراس. سيفترض محللو الديناميكيات النفسية أن سلوك هيلمان القاسي والمتسلط وابتكاره لممارسات تحتقر المِثلية الجنسية كان مدفوعًا بشكل رئيسي بردة فعل تشكّلت ضد طبيعته اللاذكورية أو ربما مثليته الجنسية الدفينة، لكن قبل أن تأخذنا حماسة التحليل يجب أن نضيف أنه لم يكن في السنوات الخمسة والثلاثين التي تلت التجربة إلا شخصًا طبيعيًا ومناسبًا كزوج وأب ورجل أعمال ومواطن متمدن.

تقارير ذاتية عن الحالة المزاجية

استكمل الطلبة قائمة من الصفات الشخصية يختارون منها ما يصف حالتهم المزاجية لحظتها بأفضل صورة مرتين؛ أثناء الدراسة ثم بعدها مباشرة. جمعنا كل ذلك

مما يخص الحالة المزاجية السيئة والجيّدة معًا وغيره مما يصف الشعور بالفعالية أو السلبية، وكما هو متوقع مما شهدناه في التجربة؛ كانت تقارير السُجناء عن حالتهم المزاجية السيئة ثلاثة أضعاف تقاريرهم عن تلك الجيدة، وكان مزاجهم بشكل عام أسوأ من مزاج الحراس. وكان المزاج السيء لدى الحراس أعلى بقدر ضئيل من المزاج الجيد. من الفوارق الأخرى المهمة بين المجموعتين ارتفاع معدّل التقلبات المزاجية عند السجناء، خلال سير الدراسة أظهروا معدلاً في تغير الحالة المزاجية يفوق بضعفين أو ثلاثة نظيره عند الحراس الذين كانت حالتهم ثابتة نسبيًا. فيما يخص الفعالية والسلبية؛ كانت أرقام السجناء على الضعف من أرقام الحراس بما يشير إلى اضطراب داخلي مضاعف مقارنة بالحراس. في حين كان لتجربة السجن تأثير سلبي على الحراس والسجناء على حدّ السواء؛ إلى أن التأثيرات السلبية على السجناء كانت أكثر عمقًا وأقل استقرارًا.

كان مزاج السجناء الذين أطلق سراحهم مبكرًا يتسم بحالة أكثر سلبية لدى مقارنتهم بالسجناء الذين استمروا، ثمة اكتئاب وحزن. عندما قدمت لهم مقاييس الحالة للمرة الثالثة مباشرة بعد إخبارهم أن التجربة انتهت (وكان الذين أطلق سراحهم مبكرًا قد عادوا من أجل جلسة الاستجواب)؛ كان ارتفاع معدلات الحالة المزاجية الجيدة واضحًا، في لحظتها اختار كل أولئك «المدانين السابقين» الصفات التي تعبر عن حالة مزاجية أقل سلبية وأكثر إيجابية بكثير، انخفض معدل سلبية المزاج الذي كان قويًا في البداية من ١٥ إلى ٥، بينما ارتفعت إيجابيتهم من معدل منخفض في البداية ٦ ليصل إلى ١٧، كما أحسّوا وقتها بأنهم أقل سلبية من ذي قبل.

بشكل عام لم تعد هناك فوارق في هذه المقاييس الفرعية للحالة المزاجية الخاصة بالسجناء بين الذين أطلق سراحهم مبكرًا وبين أولئك الذين تحملوا الأيام الستة كاملة. أنا سعيد لإعلان هذه النتيجة المهمة حيث عادت مجموعتا الطلبة مع نهاية التجربة إلى معدلات الاستجابة العاطفية الطبيعية التي كانوا عليها قبل التجربة. يبدو أن هذا الرجوع إلى المعدلات الطبيعية يعكس «الخصوصية الظرفية» للاكتئاب والشدة الذين مرّ بهما هؤلاء الطلبة أثناء تأدية أدوارهم غير الاعتيادية.

يمكننا تفسير هذه النتائج الأخيرة بطرق مختلفة، منها أن التأثير العاطفي لتجربة السجن كان عارضًا مرتبطًا بالتجربة؛ فسرعان ما عاد السجناء الذين تعرضوا للمعاناة إلى حالتهم المزاجية العادية بمجرد انتهاء التجربة، كما تعكس هذه النتائج أن المشاركين الذين اخترناهم بحرص شديد هم أشخاص «طبيعيون» وتشهد سرعة عودتهم هذه لمرونتهم. على

أن ردة الفعل المتشابهة هذه للسجناء يمكن أن نُرجعها إلى عدة مصادر مختلفة؛ فمن استمروا للنهاية ابتهجوا وقد استعادوا حريتهم السلبية أخيرًا وعرفوا أنهم قد نجوا من المأساة، والذين أطلق سراحهم مبكرًا لم يعودوا مضطربين عاطفيًا لأنهم أعادوا تكييف أوضاعهم لكونهم بعيدين عن الموقف السلبي، وربما يمكننا عزو بعض ردود فعلهم الإيجابية الجديدة إلى إحساسهم بالرضى لرؤية زملائهم السابقين طلقاء مما يرفع عنهم عبء الشعور بالذنب الذي ربما شعروا به لمغادرتهم مبكرًا بينما كان على زملائهم الاستمرار وتحمُّل المُعاناة.

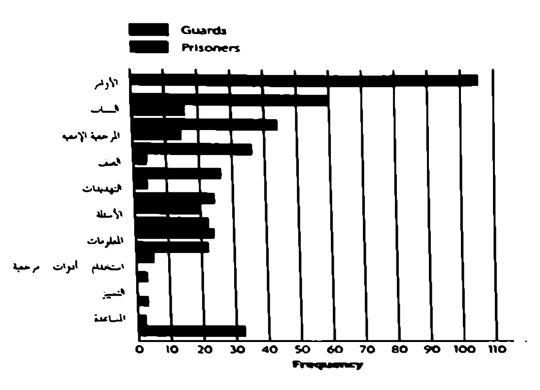
وعلى الرغم من تصريح بعض الحراس بأنهم كانوا يأملون أن تستمر الدراسة لأسبوع آخر؛ لكنهم كمجموعة كانوا سعداء كذلك لانتهائها. ارتفع متوسط معدل الإيجابية لديهم إلى أكثر من الضعف (من ٤ إلى ١٠,٢)، وانخفض معدل سلبية مزاجهم المنخفض ابتداءً من (٦) ليصل إلى (٢)، لذلك كانوا قادرين أيضًا على استعادة ثباتهم العاطفي واتزانهم على الرغم من دورهم في خلق الظروف المريعة لهذا السجن، هذا الاعتدال في الحالة المزاجية لا يعني أن بعض هؤلاء الشباب لم يعودوا منزعجين لما فعلوه أو لإخفاقهم في وقف الاعتداءات كما لاحظنا مسبقًا في ردود أفعالهم بعد التجربة وفي مذكراتهم.

تحليلات الفيديو

كانت لدينا خمس وعشرون لقطة فيديو منفصلة لتفاعلات الحراس والسجناء. كل حادثة أو مشهد حصل على نقاط وفقًا لعشرة فئات سلوكية (ولفظية). قام شخصان لا علاقة لهما بالدراسة بتقييم هذه التسجيلات بشكل مستقل، وكان مستوى توافقهما مُرضياً. هذه الفئات هي: توجيه الأسئلة، إعطاء الأوامر، تقديم معلومات، واستخدام مؤشر ظهور الذاتية (إيجابية) أو سلب الذاتية (سلبية)، التهديد، المقاومة، مساعدة الآخرين، استخدام أدوات (لتحقيق بعض الأهداف)، وإظهار العدوانية.

كما هو موضح في الشكل الذي يجمع هذه النتائج كان لدينا بشكل عام قدر كبير من التفاعلات السلبية العدائية بين الحراس والسجناء. كان السلوك الحازم امتيازًا للحراس، بينما اتخذ السجناء موقفًا انسحابيًا نسبيًا. معظم سمات الحراس في هذه المواقف التي سجلناها كانت كما يلي: إصدار الأوامر، إهانة السجناء، سلبهم ذاتيهم، إظهار العنف تجاه السجناء، التهديد، واستخدام أدوات ضدهم.

سلوك الحراس والسجناء[1]



رسم بياني يقارن سلوكيات الحراس والسجناء (من تسجيلات الفيديو)

في البداية قاوم السجناء الحراس خاصة أول أيام الدراسة ولاحقًا أيضاً عندما أقدم كلاي ٤١٦ على الإضراب عن الطعام. أبدى السجناء ميلاً للاهتمام بسمات شخصيات الآخرين بشكل إيجابي بالسؤال عنهم وتزويدهم بالمعلومات وقلما أبدوا سلوكًا سلبيًا تجاه الآخرين من نوعية ذلك الذي صار معتادًا للحراس المتسلطين. مرة أخرى، حدث هذا فقط في الأيام الأولى للدراسة. على الجانب الآخر فإن السلوكيات الأقل تكرارًا التي لحظناها على مدار الأيام الستة من الدراسة كانت الاهتمام بالآخرين ومساعدتهم. رصدنا حالة مساعدة واحدة فقط، إشارة واحدة لخوف إنسان على إنسان آخر حدثت بين سجينين.

من الناحية الكميّة تؤكد التسجيلات على ما رصدناه عبر دراستنا، أعني تصاعد إيذاء الحراس للسجناء بشكل مستمر. إذا قارنّا واقعتين من التفاعلات بين الحراس والسجناء حدثتا في الأيام الأولى بواقعتين حدثتا في الأواخر وذلك أثناء عمليات الإحصاء؛ سنجد في خلال نفس المُدّة الزمنية تقريبًا في المرتين أن لا إشارات تدُل على سلب الذاتيّة في العمليات الأولى لكن في الأخيرة بلغ مؤشرها (٥,٤). كذلك كان الحُرّاس يتلفظون بالقليل

(١) Figure 16.1. "Guard and Prisoner Behavior," in P.G. Zimbardo and R. J. Gerrig, *Psychology and Life*, 14th ed., (New York: Harper Collin 1996). P.587.

من الألفاظ المهينة المُستنكرة في البداية بمتوسط (٠,٣)، لكن مع اليوم الأخير بلغ هذا الرقم (٥,٧) في نفس المُدّة الزمنية.

وفقًا للتحليلات الزمنية المستفادة من بيانات الفيديو هذه فإن ما فعله السجناء هو الإحجام عن الرد أو الانسحاب أكثر فأكثر بمرور الوقت. كان هناك انخفاض عام في جميع الفئات السلوكية بمرور الوقت. لم يبادروا إلا قليلاً وازدادوا سلبية بمرور الأيام والليالي الثقيلة.

أيضًا أظهرت تحليلات الفيديو بوضوح أن نوبة «جون واين» الليلية كانت الأصعب على السجناء مقارنة بسواها. سلوك الحراس في هذه النوبة القاسية والعنيفة اختلف بوضوح عن سابقتها وعن تلك التي تليها كما يلي: زيادة في إصدار الأوامر [متوسط (٩,٣) مقابل (٤,٠) في وحدات زمنية معيارية]، توجيه ألفاظ غير مقبولة إلى السجناء بمعدل يفوق الضعف [(٥,٢) مقابل (٢,٣)]، كما عمدوا إلى معاقبة السجناء بقوة بشكل أكبر مما فعل سائر الحراس، لم ترصد هذه التحليلات التعديات اللفظية المرتفعة في نوبة أرنيت.

التحليلات الصوتية

من وقت لآخر كنا نسجل بميكروفونات مُخبّأة اللقاءات التي تجري بين أحد أعضاء فريق العمل والسجناء والحراس، والحوارات التي تدور بين السجناء داخل الزنازين. صنعنا تسع فئات نحدد من خلالها الطبيعة العامة لهذه السلوكيات اللفظية. مجددًا، قُيّمت التسجيلات بحسب هذه الفئات من قبل حكمين مستقلين، وقد فعلا هذا بكفاءة عالية.

بالإضافة إلى توجيه الأسئلة وإعطاء المعلومات وتقديم المطالبات وتوجيه الأوامر؛ ركزت فئات أخرى على النقد، رصدنا النظرة الإيجابية - السلبية، والتقييم الإيجابي - السلبي للذات، ومؤشرات اعتبار - سلب الذاتية، والرغبة في الاستمرار في التجربة أو التوقف، ونية التحرك في المستقبل باتجاهات سلبية أو إيجابية.

فوجئنا بأن نظرة الحراس العامة وتقديرهم لأنفسهم كان بنفس درجة السلبية التي كانت لدى السجناء. في الحقيقة كان تقييم «الحارس الصالح» جيوف لاندري للذات سلبيًا أكثر من أي سجين آخر وكان تأثره أكثر سلبية من جميع المشاركين عدا واحد، داج ٨٦١٢. اتسمت لقاءاتنا مع السجناء بسلبية عامة في تعبيرهم عن تأثرهم وفي نظرتهم لأنفسهم ولنواياهم (وفي المقام الأول نية التصرف بعنف وأن لهم نظرة سلبية تجاه وضعهم الحالي).

أظهرت اللقاءات الفوارق في الأثر العاطفي الذي تركته التجربة بين السجناء الذين استمروا حتى النهاية وبين من أطلق سراحهم مبكرًا. قارنا متوسط عدد العبارات التي تعكس السلبية على جميع المستويات أو تعكس نية التصرف بعنف التي كانت لدى من بقي

مقابل مثيلتها عند أولئك الذين أطلق سراحهم مبكرًا (في اللقاء الواحد). من أطلق سراحهم مبكرًا عبروا عن توقعات أكثر سلبية وكان تأثرهم سلبيًا بصورة أكبر كما كان تقييمهم السلبي لذواتهم أكبر، وكانت نواياهم في التعدي أزيد بأربعة أضعاف مقارنة بزملائهم من السجناء. لتلك المؤشرات أهمية إحصائية.

أعطانا زرع الميكروفونات في الزنازين معلومات عن طبيعة النقاشات التي كانت تدور بين السجناء في غرفهم الخاصة أثناء فترات راحتهم المؤقتة من الإحصاء ومَهام العمل الوضيعة وأحداث عامة أخرى. لم تكن تتاح لهم فرصة التعرف على بعضهم البعض إلا وهم في الزنازين لأن أوقات وجودهم في الخارج لم يُسمَح لهم فيها بتبادل الحديث. افترضنا أنهم سيسعون إلى إيجاد أرضية مشتركة تجعلهم يرتبطون ببعضهم البعض بسبب تقارب أماكن تسكينهم وكونهم سيضطرون للتعامل مع بعضهم لمدّة أسبوعين كاملين. توقعنا أن يتحدثوا عن حياة الجامعة وتخصصاتهم الدراسية ووظائفهم، عن حبيباتهم والفرق الرياضية التي يشجعونها، والموسيقى والهوايات وما سيقومون به في الفترة المتبقية من الصيف بمجرد انتهاء التجربة، أو ربما ما قد يفعلونه بالأموال التي سيتقاضونها. لم يحدث شيء من هذا تقريبًا. حوالي ٩٠٪ من حوارات السجناء كانت تدور حول ما يحدث في السجن، و١٠٪ فقط ركزت على حوارات يتعرفون فيها على بعضهم في أمور لا تتعلق بتجربة السجن. كان أكثر ما يشغل بال السجناء هو الطعام، وتحرش الحراس بهم، وتشكيل لجنة شكاوى، ووضع خطط هروب، والزيارات، وسلوكيات السجناء الموضوعين في الزنازين الأخرى وفي الحبس الانفرادي (الحفرة).

عندما حانت لهم فرصة الابتعاد بأنفسهم عن الحراس وعن ملل جداول أعمالهم والابتعاد عن دور السجين وتأسيس هويتهم الشخصية في تفاعل اجتماعي؛ لم يفعلوا هذا، سيطر دور السجين على كل عباراتهم وعلى سماتهم الشخصية؛ بل سيطر السجن على نظرتهم ومخاوفهم وفرض عليهم توجهات مؤقتة مستمرة طالما هم في هذا المكان، ولم تختلف طبيعة أحاديثهم سواء أكانوا تحت رقابة الحراس أم لا، لكن عدم تبادل الأحاديث عن ماضيهم وما يتوقعونه لمستقبلهم جعل أغلب معلومات السجناء عن بعضهم تنحصر في كيفية تصرفهم أثناء الظرف الراهن. نُدرِك أن ما كانوا يشاهدونه أثناء الإحصاء والأعمال الوضيعة المُهينة الأخرى كان السبب في تكوين كل منهم لرأي سلبي عن الآخرين. هذه الصورة كانت كل ما لديهم ليبنوا عليه انطباعًا عن شخصيات رفاقهم، وبتركيزهم على الظرف الراهن ساهم السجناء أيضًا في دعم سلبية تجربتهم. بشكل عام نستطيع التغلب على موقف سيئ عن طريق تجزئته إلى منظورات مؤقتة تتخيل مستقبلاً مختلفًا أفضل مع استدعاء ماضٍ مُطمئن.

هذا التوتّر الذي فرضه السجناء على أنفسهم كان له تأثير أكثر تدميرًا، بدأ السجناء في قبول الصور السلبية التي صنعها الحرّاس عنهم. يمكننا تصنيف نصف التفاعلات المسجلة بين السجناء تقريبًا على أنها غير داعمة وغير متعاونة، والأسوأ من هذا أنه كلما قدَّم أحد السجناء رأيًا تجاه سجين زميل، كان رأيًا يحطّ من شأن زميله بنسبة ٨٥٪! لهذه المعدلات المذكورة تاليًا أهمية من الناحية الإحصائية: التركيز على موضوعات متعلقة بالسجن أكثر من الموضوعات الأخرى يحدث كل مئة مرة بالصدفة، في حين يحدث التركيز على السمات السلبية للسجناء الزملاء مقابل الإيجابية أو المعتدلة خمس مرات من كل مئة، مما يُرجح أن تأثر السلوك كان حقيقيًا وليس مجرد تقلبات عشوائية في انتقاء المواضيع التي يناقشها السجناء، خاصةً داخل الزنازين.

قبول المناخ القمعي للسجن جَعَل السجناء يُكوِّنون انطباعاتهم عن زملائهم في المقام الأول من طريق رؤيتهم يهانون ويتصرفون كأنهم خراف مستسلمة تمامًا أو ينفذون أوامر مهينة بلا أي تفكير. كيف يمكن الحصول على أي احترام للذات في هذا السجن بدون أي احترام تجاه الآخرين؟ تذكرني هذه النتيجة الأخيرة غير المتوقعة بظاهرة «التعاطف مع المعتدي». استخدم عالم النفس برونو بيتيلهيم[1] هذا المصطلح ليصف كيف جعلت معسكرات الاعتقال النازية من فيها يتبنون التسلط الكامن في المعتدين (أول من استخدم المُصطلح آنا فرويد Anna Freud). رصد بيتيلهيم تصرف بعض السجناء بطريقة مشابهة لحراسهم النازيين، لا بالاعتداء على سجناء آخرين فحسب، ولكن بارتداء بقايا ملابس جنود كتائب الحماية (شوتز شتافل) أيضًا. في سعيه المستميت للبقاء والاستمرار في ظروف حياة عدائية لا يقدر على توقع تقلباتها؛ تجد الضحية يُدرِك ما يريده المعتدي، وبدلاً من مواجهته تراه يتبنى هيئته ويتحوّل هو نفسه إلى ما عليه المعتدي. تُخفف تلك الممارسات من فارق القوة المخيف بين الحراس أصحاب النفوذ والسجناء البائسين، يتماهى الشخص - في عقله - مع عدوه. إيهام الذات هذا يحجب الفرد عن تقدير حقيقة وضعه، ويثبطه عن القيام بأفعال مؤثرة وبناء استراتيجيات تمكنه من التغلب على الموقف أو التمرد عليه، كما يمنعه من التعاطف مع رفاق المعاناة[2].

> **«الحياة هي فن التعرض للخِداع، وحتى ينجح هذا الخداع يجب أن يكون مُعتادًا ومتواصلاً بدون انقطاع»**
>
> **وليام هازلت، عن التحذلق (William Hazlitt, On Pedantry)**

(١) B. Bettelheim, *The Informed Heart: Autonomy in a Mass Age* (Glencoe, IL: Free Press, 1960).

(٢) J. Frankel, "Exploring Ferenczi's Concept of Identification with the Aggressor: Its Role inTrauma, Everyday Life, and the Therapeutic Relationship," Psychoanalytic Dialogues 12(2002): 101-39.

دروس سجن ستانفورد ورسائله

إنه وقت الانتقال من ردود الفعل السلوكية الخاصة بأولئك الفتية الذين قاموا بأدوار الحراس والسجناء وسماتهم الشخصية؛ لننظر في قضايا مفاهيمية أوسع في هذا البحث وفي الدروس والمعاني والرسائل المستفادة منه.

فضيلة العلم

لا تخبرنا تجربة سجن ستانفورد أي شيء جديد عن حياة السجون بعيدًا عما كشف عنه بالفعل خبراء علم النفس الاجتماعي وخبراء علم نفس الجريمة وروايات السجناء أنفسهم. يمكن أن تكون السجون معامل تحويل إلى سلوكيات بهيمية تخرج أسوأ ما في الطبيعة الإنسانية، فهي تغذي العنف والجريمة أكثر من كونها ترعى عملية إعادة تأهيل بنّاءة. معدلات العودة إلى حياة الإجرام التي تصل إلى ٦٠٪ وأكثر تشير إلى أن السجون أصبحت بمثابة أبواب دوّارة بالنسبة للمحكوم عليهم إثر إدانتهم بارتكاب أعمال إجرامية. ما الذي تضيفه تجربة سجن ستانفورد لفهمنا عن تجربة المجتمع الفاشلة المتمثلة في السجن باعتباره أداة المجتمع الرئيسية للتحكم في الجريمة؟ أعتقد أن الإجابة موجودة في البروتوكول الأساسي للتجربة.

في السجون الحقيقية يحدث خلط بين عيوب السجن وعيوب من يقيمون فيه لتتشابك بشكل معقد. تذكّروا نقاشي الأول مع الضابط في قسم شرطة بالو ألتو حيث فسّرت له سبب اختيارنا لإجراء هذه الدراسة بدلاً من الذهاب إلى سجن محلي ورصد ما يجري هناك؛ فغاية الدراسة هي تقييم تأثير محاكاةٍ لِسجن على من يعيشون فيه من الحراس والسجناء على حدّ سواء عن طريق وسائل تحكُّم تجريبية متنوعة تُمكّننا من تحقيق أشياء واستخلاص نتائج ما كنا لنصل إليها في مؤسسة حقيقية.

ساعدت إجراءات الانتقاء المنهجية في التأكيد على أن كل من يدخل سجننا هو شخص طبيعي وسوي بأقصى قدر ممكن ولا يملك تاريخًا من معاداة المجتمع أو من الجريمة أو العنف. كانت معدّلات ذكائهم أعلى من المتوسط العادي لأنهم جميعًا طلبة جامعيون، وكانوا أقل تعصُّبًا لآرائهم وأكثر ثقة في مستقبلهم من الفئة الأقل تعليمًا، ثم بفضل التوزيع العشوائي - وهو الأمر الأساسي في البحث التجريبي - تم توزيع هؤلاء الفتية الصالحين على الأدوار بين حراس وسجناء دون النظر لأية ميول لديهم ليكونوا في دور دون الآخر؛ فالحظ هو الفيصل. إحدى المؤشرات التجريبية الإضافية شملت رصدًا منهجيًا وتجميعًا لأنواع مختلفة من الأدلة وتحليلات لبيانات إحصائية يمكن استخدامها حال جمعها لتحديد تأثير التجربة داخل محيط تصميم البحث. بروتوكول تجربة سجن ستانفورد كان

بعزل الشخص عن المكان، والميول الشخصية عن الموقف، «التفاح الصالح» عن «الوعاء الفاسد».

علينا أن نقر مع هذا بأن هذا البحث ككل هو «صناعي» لأنه مجرد محاكاة لنظيره في عالم الواقع، لكن وعلى الرغم من صناعية بحث تجريبي موجه مثل تجربة سجن ستانفورد أو الدراسات النفسية الاجتماعية التي سوف نتعرض لها في الفصول القادمة؛ يمكن أن تكون النتائج قابلة للتعميم بشدة عندما يُجرى بحث كهذا مع إدراك للسمات الرئيسية «للواقعية الدُنيوية»[1].

بالتأكيد لم يكن سجننا «سجنًا حقيقيًا» في العديد من خصائصه الملموسة، لكنه أمسك بالسمات النفسية المركزية للاعتقال في السجن والتي أؤمن بأنها كانت ذات أهمية محورية «لتجربة السجن». لكي نكون أكثر اطمئنانًا فإن أية نتيجة آتية من تجربةٍ ما يجب أن تثير سؤالين؛ أولاً، «مقارنةً بماذا؟»، ثم «ما هي العناصر الخارجية التي تُصدِّق النتائج، ما هي أوجه تشابه العالم الخارجي مع تجربتنا والتي يمكن أن تساعدنا في التفسير؟». تكمن قيمة الأبحاث المماثلة في قدرتها على إلقاء الضوء على العمليات الخفيّة وتحديد التسلسلات السببية وتأسيس المتغيرات التي تتوسط التأثيرات الواضحة. يمكن للتجارب أيضًا أن تُحدِّد روابط سببية حال وجود أهمية إحصائية لها فلا نستطيع إغفالها على أساس أنها مجرد روابط عارضة.

أيّد المُنظِّر والباحث الرائد في مجال علم النفس الاجتماعي كيرت لوين فكرة إنشاء علم نفس اجتماعي تجريبي. أكد لوين أن تجريد قضايا مهمة من العالم الحقيقي مفاهيميًا وعمليًا وفحصها في المختبر عن طريق دراسات مُصَمَّمة بكفاءة وتلاعب مُدرِك للمتغيرات المستقلة (العوامل الاستباقية التي تُستخدم كمؤشرات لتوقع سلوك معيّن)؛ يُمكّن من إقامة روابط سببية بطرق غير مسبوقة في المجال أو من دراسات تجرى عن طريق الملاحظة، أو هكذا ظن، لكن لوين ذهب إلى ما هو أبعد من هذا مستخدمًا هذه المعرفة في تغيير المجتمع باستخدام أدلة مبنية على البحث لفهم بل ولتغيير وتحسين فعّالية المجتمع والإنسان[2]، وقد حاولت اتباع خطاه في هذا الطريق المُلهِم.

---

(١) E. Aronson, M. Brewer, and J. M. Carlsmith, "Experimentation in Social Psychology," in *Handbook of Social Psychology*, vol. 1, ed. G. Lindzey and E. Aronson (Hillsdale NJ:Erlbaum 1985).

(٢) K. Lewin, Field Theory in Social Science (New York: Harper, 1951). K. Lewin, R. Lippitt, and R. K. White, "Patterns of Aggressive Behavior in Experimentally Created 'Social Climates.' " Journal of Social Psychology 10 (1939): 271-99.

تحولات السلطة لدى الحراس

«يتعاظم إحساسنا بالقوة عندما نكسر قلب إنسان لا عندما نفوز به»

إريك هوفر، (*Eric Hoffer, The Passionate State of Mind,1954*)

سرعان ما تجاوز بعض من وُضِعوا عشوائيًا في دور الحراس حدود سلطتهم الجديدة بتصرفهم بأسلوب سادي يُحَقِّر ويحُطّ من السجناء ويؤذيهم طوال الوقت. يوافق سلوكهم تعريفي للشرّ الذي تجدونه في الفصل الأول. هناك حراس آخرون لعبوا دورهم باستخدام أساليب شديدة القسوة لكنها ليست مهينة بالضرورة. عدد قليل من الحراس الذين يمكن أن نقول أنهم «حراس صالحون» قاوموا إغراء السلطة وتفهّموا ظروف السجناء في بعض الأحيان وقدموا لهم مساعدات صغيرة مثل إعطائهم التفاح في إحدى المرات، أو سيجارة إضافية، إلخ.

وعلى الرغم من الفوارق الكبيرة بين تجربة سجن ستانفورد وبين المعسكرات النازية من حيث مدى الرعب الذي تدخله على نفوس المعتقلين ودرجة تعقيد النظام الذي يحركها ويرعاها؛ إلا أن هناك وجه شبه واحد بين الأطباء النازيين في معسكرات الموت في أوشفيتز وبين حراس تجربة سجن ستانفورد. يمكننا تقسيم هؤلاء الأطباء إلى ثلاث مجموعات مثل حراسنا، وفقًا لروبيرت جاي ليفتون في كتابه «الأطباء النازيون» كان لدينا «المتعصبون الذين اشتركوا بشغف في عمليات الإبادة بل وقاموا «بعمل إضافي» من أجل القتل، ولدينا من ساروا في العملية إلى حدٍّ ما بطريقة منهجية ولم يفعلوا أكثر ولا أقل مما شعروا بأنه الواجب عليهم فعله، ولدينا أيضًا من شاركوا في عمليات الإبادة وهم لها كارهون»[١].

الحارس الصالح في دراستنا الذي يؤدي عمله بممانعة هو «الطيب في أصله»، تقديم أشياء بسيطة للسجناء كان فعلاً مناقضًا تمامًا للأفعال الشريرة التي يقوم بها زملاؤه في النوبات، وكما ذكرنا سابقًا لم يتدخل أي منهم لمنع «الحراس السيئين» من الاعتداء على السجناء، لم يَشْتَكِ أي منهم لفريق العمل، إما كانوا يتركون نوبتهم مبكرًا أو يصلون متأخرين أو يرفضون العمل لساعات إضافية في حالات الطوارئ. لم يطلبوا كذلك أي أجر إضافي نظير الأعمال التي كرهوها. كانوا جزءًا من «متلازمة شر التقاعس» التي سنناقشها بشكل كامل لاحقًا.

ولعلّك تذكُر أن جيوف لاندري أفضل الحراس الصالحين كان يعمل في نوبة الليل مع

---

(١) Robert Jay Lifton, *The Nazi Doctors: Medical Killing and the Psychology of the Genocide* (New York: Basic Books, 1986), p. 194.

هيلمان ولم يحاول مرة أن يردعه، لم يُذكّره أبدًا بأنها مجرد تجربة، وبأنه لا يوجد أي سبب لإلحاق هذا القدر من المعاناة بالفتيان الذين يؤدون دور السجناء. بدلاً من ذلك، كما وجدنا في مذكراته، عانى جيوف في صمت مع السجناء، لو كان استحثّ ضميره لتبنّي فعلٍ بنّاء لربما تمكن من إحداث تأثير قوي في تخفيف الاعتداءات المتصاعدة في نوبته.

من خلال خبرتي التدريسية الممتدة لسنوات في عدد من الجامعات وجدت أن أغلب الطلبة لا يكترثون بقضايا السلطة لأنهم يمتلكون ما يكفيهم للمواصلة في عالمهم، حيث يمكن للذكاء والعمل الدؤوب أن يساعداهم على الوصول إلى أهدافهم. تكون السلطة محل نظر من لديهم الكثير منها ويريدون الحفاظ عليها أو عند من لا يمتلكون منها ما يكفي ويريدون المزيد، لكن تصبح السلطة في حد ذاتها هدفًا للكثيرين بسبب كمّ المصادر المتاحة لأصحاب النفوذ. يصف رجل الدولة السابق هنري كسينجر هذا الإغراء بأنه «العقار المُحفّز لشهوة السلطة»، ذلك الإغراء الذي يجذب النساء الجميلات الصغيرات إلى رجال قبيحين قد بلغ بهم كبر السن مبلغه ولكنهم أصحاب سلطة ونفوذ.

اعتلالات السجناء

«حيثما يكون الإنسان مرغمًا على غير إرادته، فهو في السجن»

إبيكتيتوس (*Epictetus*)، حوارات إبيكتيتوس، القرن الثاني قبل الميلاد

لم يكن تركيزنا في البداية على الحراس بقدر ما كان على مشاهدة أسلوب تكيُّف الموكَّلين بأدوار السجناء مع وضعهم المتدني عديم الحيلة الجديد، ولعلّ إمضائي فترة الصيف في تدريس دورة عن علم نفس السجن جعلني معتادًا على الوقوف في صف السجناء. أتخَمَنا كارلو بريسكوت بقصص مؤثرة للغاية عن الاعتداءات والإهانات على يد الحراس، وسمعنا من سجناء سابقين آخرين قصص رعب عن سجناء يعتدون جنسيًّا على سجناء آخرين وحروب عصابات، لذلك فقد كنا أنا وكريج وكيرت في صف السجناء من داخلنا، وكنا نأمل في أن يتمكنوا من مقاومة الضغوط التي يُثقلهم بها الحراس وأن ينجحوا في الحفاظ على كبريائهم على الرغم من العلامات الخارجية التي تدل على دنو شأنهم والتي أُجبِروا على ارتدائها (ثوب السجن، وجوارب الرأس... إلخ). ربما أرى نفسي مكان بول نيومان في دور السجين في فيلم (لوك الشجاع)[1]، لكن لن أستطيع تخيُّل نفسي في دور سَجّانه.

سعدنا عندما رأينا السجناء يتمردون بعد فترة قصيرة ثائرين على الأعمال المهينة التي

---

(١) فيلم (*Cool Hand Luke*) عرض في الولايات المتحدة في نوفمبر ١٩٦٧م.

يكلفهم الحراس بها، وعلى تنفيذ القوانين بأساليب متعسفة، وعلى الإرهاق الذي يصيبهم من جراء الإحصاء. خابت جميع توقعاتهم بخصوص ما ينتظرهم في «الدراسة عن الحياة في السجون» التي تقدموا لها عن طريق إعلان في جريدتنا. توقعوا أعمالاً أقل إهانة لعدد قليل من الساعات مع وجود وقت للقراءة والاسترخاء وبعض الألعاب ومقابلة أشخاص جدد. كانت هذه في الحقيقة هي خطتنا الأصلية قبل تمرد السجناء وقبل سيطرة الحراس على الأمور؛ بل كانت لدينا خطط لتخصيص أيام لمشاهدة الأفلام.

أكثر ما أزعج السجناء هو الاعتداءات المستمرة ليلاً ونهارًا، والافتقار للخصوصية والابتعاد عن مراقبة فريق العمل، والإعمال التعسفي للقوانين والعقوبات العشوائية، وإجبارهم على مشاركة مقر نومهم الضيق المزدحم مع آخرين. عندما توجه لنا الحراس بطلب المساعدة بعد بدء التمرد ابتعدنا وأوضحنا لهم أن القرار لهم، كنا مجرد مراقبين ولم نرغب في التدخل، لم أكن قد انغمست بعدُ بشكل كامل في دور رئيس السجن في هذه المرحلة المبكرة، وإنما كنت أتحرك بصفتي باحثًا خاصًا مهتمًا بالبيانات وكيفية تصرف هؤلاء الحراس الوهميين في أوقات الطوارئ.

انهيار داج ٨٦١٢ بعد مدة قصيرة من مشاركته في تخطيط التمرد أبعدنا جميعًا عن الحراس، وأثر فينا بشدة دويّ صراخه اعتراضًا على الأخطاء في مُعاملة السُجناء، حتى عندما صرخ «إنها محاكاة لعينة وليست سجنًا، عليك اللعنة دكتور زيمباردو!» لم يعني إلا الإعجاب بإقدامه وشجاعته، لم نصدِّق أنه كان يعاني حقًّا إلى هذا الحد، تذكروا نقاشي معه عندما أراد أن نخرجه في البداية ودعوتي له للنظر في خيار أن يكون «الواشي» ويعود سجينًا بدون أن يتعرض له أحد.

تذكروا أن كريج هاني أقدم على الخيار الصعب في تعامله مع انهيار داج ٨٦١٢ المفاجئ وأخرجه من السجن بعد ست وثلاثين ساعة فقط من بَدْء التجربة:

> «بصفتنا باحثين تجريبيين، لم يتوقع أي منا حدثًا مثل هذا، وبالطبع لم تكن لدينا أية خطة طوارئ للتعامل مع الأمر. كان واضحًا أن التجربة القصيرة في سجن ستانفورد قد أزعجت هذا الشاب إلى درجة لم يتوقعها أي منا حتى بعد انتهاء مدة الأسبوعين. لذلك قررت إطلاق سراح ٨٦١٢ بما يتفق مع القرار الأخلاقي - الإنساني لا القرار الذي يميل لمصلحة التجربة».

كيف فسرنا توقعاتنا بأنه لا يمكن لأي شخص أن يصل إلى هذه الدرجة من التأثر بهذه السرعة؟ يذكرنا كريج بتفكيرنا الخاطئ:

> «بسرعة شديدة وجدنا أنفسنا نتبنى تفسيرًا يبدو لنا طبيعيًا ومُطمئنًا، بالتأكيد يرجع انهياره إلى ضعف أو خلل في شخصيته تُعزى إليه حساسيته الشديدة وردود فعله

المفرطة تجاه أوضاع السجن المحاكية للواقع! في الحقيقة قد خشينا من وجود خلل في عملية انتقاء السجناء مما سمح بتسرب شخص (مُحطَّم) بدون أن يلاحظه أحد، لم نفهم المفارقة الواضحة إلا في وقت لاحق، فقد فسّرنا أول تمظهر حقيقي قوي وغير متوقع لقدرة المؤثرات الظرفية في دراستنا؛ تفسيرًا نزوعيًا، وقد فعلنا هذا بلجوئنا في تفسير الموقف إلى نوعية التفكير التي قمنا بهذه الدراسة لنقدها ودحضها في الأساس»[1].

فلنَعُدْ ونراجع ردود الفعل الأخيرة تجاه التجربة من قبل داج ٨٦١٢ مما يعطينا فرصة لفهم مستوى التشوش الذي وصل إليه في ذاك الوقت:

«قررت أنني أريد الخروج، وبعدها تحدثت إلى الشباب عن كل شيء، ثم قلتَ «لا» وهزأتَ بي إلى آخر هذا؛ مما أغضبني بشدة، ولذلك قررت أنني سأخرج، وكنت مستعدًا لفعل أي شيء، وضعت عدة مخططات للخروج، أسهلها تلك التي لن تؤذي ولن تزعج أحدًا وهي التصرف بجنون واضطراب، ومضيت في هذه الخطة. عندما كنت في الحفرة تبنيت هذا السلوك عن عمد وأدركت عندما ذهبت للحديث مع جافي أني لا أريد إهدار طاقتي في الحفرة بل أريد أن أفرغها أمام جافي وعندها عرفت أنه سيخرجني، كنت أتلاعب به وكنت مضطربًا في الوقت نفسه، تفهمني بالتأكيد، فلن نتمكن من التصرف بطريقة مضطربة إلا إذا كنت مضطربًا بالفعل... الشخص المجنون مثلاً لن يتصرف بطريقة جنونية إلا إذا كان به نوع من الجنون، أتفهم؟ لا أعرف يقينًا هل كنت مضطربًا فعليًا أم مدعيًا... لكني كنت غاضبًا من هذا الرجل الأسود، ماذا كان اسمه، كارتر؟ شيء من هذا القبيل، ومنك أنت دكتور زيمباردو لأنك صُغت العقد وكأنني عبد أو شيء من هذا القبيل... وطريقتك في التلاعب بي بعدها، لكن ماذا تستطيع أن تفعل، لقد كنت مضطرًا لهذا؛ فرجالك قاموا بكل شيء في التجربة»[2].

لمَ يهمنا الظرف؟

هناك بيئات اجتماعية معيّنة قادرة على تحويل الطبيعة الإنسانية بقوة كبيرة تشبه قوة التفاعلات الكيميائية في قصة دكتور جيكل والسيد هايد[3]. أعتقد أن الاهتمام الذي لم

---

(١) P. G. Zimbardo, C. Maslach, and Craig Haney, "Reflections on the Stanford Prison Experiment: Genesis, Transformations, Consequences," in *Obedience to Authority: Current Perspective on the Milgram Paradigm*, Ed. T. Blass (Mahwah, NJ: Erlbaum, 1999), pp. 193-237; quote on 229.

(٢) اللقاء الختامي مع السجين، ١٩ أغسطس، ١٩٧١م.

(٣) يشير إلى الرواية الشهيرة (القصة الغريبة للدكتور جيكل ومستر هايد) لروبرت لويس ستيفنسون. (المحرر).

ينقطع بتجربة سجن ستانفورد حتى بعد مرور عشرات السنين هو بسبب كشفها المذهل عن «تحول الشخصية»، الصالحون يتحولون فجأة إلى حراس قادرين على ارتكاب الشرور والسجناء ضحايا للسلبية المَرَضية تجاه المؤثرات الظرفية التي تؤثر عليهم.

استدراج الأشخاص الصالحين لحثّهم على انتهاج سلوكيات شريرة أمر ممكن. يمكن أيضًا دفعهم إلى التصرُّف على نحو غير عقلاني أو غبي أو مُودٍ للهلكة أو طائشٍ ومعادٍ للمجتمع عندما ينغمسون في «مواقف شاملة» تؤثر على طبيعتهم الإنسانية على نحو يعارض إحساسنا بالاستقرار والاتساق مع الذات والشخصية والأخلاقيات[1].

نريد أن نؤمن بالطيبة كعنصرٍ أساسي غير متغيّر في البشر، وبقدرتهم على مقاومة الضغوط والتقدير العقلاني، ومن ثمّ رفض غواية الموقف. نضع في الطبيعة الإنسانية خصائص إلهية وقدرات أخلاقية وعقلانية تجعلنا عادلين وحكماء بالقدر نفسه. نُبَسِّط درجة تعقيد التجارب الإنسانية بإنشاء حدّ فاصل غير قابل للاختراق بين الخير والشر، نحن وأقاربنا ومن يشبهنا موجودون على أحد جانبيه؛ وعلى الجانب الآخر (نُقصيهم) هم وأقاربهم وأشباههم المختلفين عنّا. وللمفارقة فإن صناعة أسطورة العصمة من المؤثّرات الظرفية تُسهّل من فُرَص سقوطنا في براثنها لأننا لم نحذر منها بالشكل الكافي.

تجربة سجن ستانفورد والعديد من الأبحاث الأخرى في العلوم الاجتماعية (المقدمة في الفصلين الثاني عشر والثالث عشر) تكشف لنا الحقيقة الواضحة التي نرفضها: أغلبنا نختبر تحوّلات في شخصيتنا عندما نسقط في قبضة المؤثرات الاجتماعية. الطريقة التي نتصوَّر أننا سنتصرف على وفقها ونحن خارج مجال تأثير هذا الضغط لا تُشبِه بالضرورة ما قد نصبح عليه وما نقدر على فعله بمجرد دخولنا مجال التأثير. تجربة سجن ستانفورد هي دعوة للاستيقاظ والتخلي عن المفاهيم السطحية حول الذات الصالحة القادرة على السيطرة على المواقف الفاسدة. تزداد قدرتنا على تجنُّب ومنع ومواجهة بل وتغيير هذه المؤثرات الظرفية السلبية عندما نؤمن بقدرتها على «التأثير فينا» كما حدث مع آخرين تعرضوا للمواقف ذاتها. سينفعنا قبول اعتراف الكاتب المسرحي الروماني القديم ترنتيوس: «لا شيء يفعله البشر غريب عليّ».

كان علينا تعلُّم هذا الدرس من التحوّلات السلوكية المتكررة بين حُرّاس معسكرات الاعتقال النازية وتلك الجماعات المُدمِّرة مثل جماعة معبد جيم جونز للشعوب (Jim Jones Peoples Temple) وجماعة أوم شينريكو (Aum Shinrikyo) اليابانية[2]. جرائم القتل

(١) R. J. Lifton, *Thought Reform and the Psychology of Totalism* (New York: Harper, 1969).

(٢) جماعة دينية أسسها شوكوا أساهارا (Shoko Asahara) عام ١٩٨٤، وقاد أتباعه لتنفيذ عدة عمليات منها هجوم *

الجماعي التي ارتكبت في البوسنة وكوسوفو ورواندا وبوروندي وأخيرًا في دارفور في السودان؛ تعطينا أدلة قوية على قدرة الإنسان على التخلّي عن الإنسانية والتعاطف أمام المؤثرات الاجتماعية وأفكار الاستعمار والأمن القومي المُجرّدة.

يمكن لأيٍ منّا أن يقوم بأي فعل أَقْدَم عليه أي إنسان مهما بلغت فظاعته؛ إذا ما نعرض للمؤثرات الظرفية الصحيحة لهذا أو الخاطئة. إدراكنا لهذا لا يسوّغ الشرّ ولكنه ينشُر الحذر بيننا لأننا حينها سنلوم أيضًا مرتكبي الشرور العاديين بدلاً من إعلان الشرّ منطقة خاصة بالمنحرفين والجبابرة يجتمعون فيها ثم لا شأن لنا بهم.

الدرس الأساسي لتجربة سجن ستانفورد هو أن للظروف ثِقلها. البيئة الاجتماعية قادرة على التأثير بقوة في الوظائف الذهنية والسلوكية للأفراد والمجموعات والزعماء القوميين أكثر مما نظن بكثير، وبعض البيئات قد تؤثّر فينا إلى درجة تدفعنا إلى التصرُّف على نحو لم نتوقعه أبدًا فيما مضى[1].

تأثير الظرف يكون أكثر وضوحًا في البيئات الاجتماعية الجديدة التي يستعين فيها الناس بعلامات من خبراتهم السابقة يسترشدون بها في تحديد خياراتهم السلوكية الجديدة. بنية الأشياء التي تُحفزّنا في هذه البيئات الجديدة تخالف توقعاتنا وتضرب بها عرض الحائط في بعض الأحيان. لا تُفيدنا مُتغيّرات الشخصية كثيرًا في أوضاع كهذه في التنبؤ بكيفية تصرف الفرد لأن هذه المتغيرات تعتمد على تقدير أفعال مُستقبلية نتصورها بناءً على ردود فعل الشخص في الماضي في مواقف مألوفة، ومن النادر الاعتماد على المواقف الحالية التي يعيشها الأفراد كالتي يعيشها حارس جديد أو سجين جديد على سبيل المثال.

لذلك أنّى أردنا فهم أي سلوك مُلغِز أو غير مألوف صادر عنا أو عن غيرنا؛ فيجب أن ننطلق من تحليل المواقف وألا نلجأ إلى تحليل السمات الشخصية (الجينات، الميول الشخصية، الأمراض النفسية... إلخ) إلا إن فشل التحليل الظرفي في تفسير أسباب المشكلة. يضيف أحد زملائي لي روس (Lee Ross) أن هذا المنهج يجعلنا نلجأ إلى (الخير الإسنادي «attributional charity») بمعنى ألا ننطلق من لوم الفاعل على فعله بل أن نفعل الخير بأن نبدأ أولاً بتحليل المشهد حتى نجد المُحدِّدات الظرفية التي تسببت في هذا الفعل، لكن على أرض الواقع فإن الحديث عن «الخير الإسنادي» أكثر سهولة من تنفيذه

---

* بغاز السارين في مترو طوكيو عام ١٩٩٥ أودى بحياة ثلاثة عشر شخصًا. أعدمت الحكومة اليابانية أساهارا في يوليو ٢٠١٨. (المحرر).

(١) L. Ross, and R. Nisbett, *The person and the Situation* (New York: McGraw-Hill, 1991).

فعليًا وذلك بسبب تحيّزاتنا الذهنية، وهي «خطأ التنسيب الأساسي»[1] الذي يعوّق التفكير المنطقي[2]. تؤمن المجتمعات التي تدعم الحياة الفردانية مثل الولايات المتحدة والعديد من الدول الغربية الأخرى أن هذه النوازع أكثر أهمية من الظروف في تحديد سلوك الإنسان، وتبالغ في أهمية الميول والسمات الشخصية في تفسير أي سلوك، وفي الوقت نفسه تُسقِط المؤثرات الظرفية من حساباتها تمامًا. أتمنى أن تكون قراءتكم هذا الكتاب قد ساعدتكم في ملاحظة رسوخ هذا المبدأ الازدواجي وسيطرته على أسلوبكم في التفكير وعلى قراراتكم كما هو الحال عند الآخرين. فلننظر فيما هو قادم في بعض هذه الأمور التي توضح أهمية الظروف وفقًا لما عرضناه في دراستنا العملية لحياة السجن.

قدرة القواعد على تشكيل الواقع

اشتملت المؤثرات الظرفية في تجربة سجن ستانفورد على عدد من العوامل التي لم تكن أي منها لتُحدِث تأثيرًا كبيرًا وحدها ولكن معًا كانت لها قوة كبيرة. إحدى أهم الخصائص كانت تأثير القواعد. القواعد هي أساليب رسمية مُبَسّطة للتحكم في السلوكيات غير الرسمية المعقدة. مهمة القواعد هي تحديد الإجراءات التنظيمية، وتثبيت الأشياء الضرورية والمقبولة التي يُكافَأ عليها الفرد ومن ثمّ الأشياء غير المقبولة التي يُعاقَب عليها. بمرور الوقت تنفذّ القواعد بشكل اعتباطي ولا تعود صلاحيات السلطة القانونية مرتبطة بالقواعد ولكن تصبح غامضة أو تتغير وفقًا لأهواء المسؤولين عن تنفيذها.

التبرير الذي قدّمه الحرّاس لأكثر الأذى الذي عرّضوا السجناء له هو إنفاذ القواعد. تذكروا على سبيل المثال مدى معاناة السُجناء لحفظ سبع عشرة قاعدة اعتباطية اخترعها آمر السجن والحراس. انظروا إلى سوء استخدام القاعدة رقم (٢) المتعلقة بالالتزام بتناول الطعام في المواعيد المخصصة لذلك لمعاقبة كلاي ٤١٦ على رفضه أكل النقانق الرديئة.

لبعض القواعد أهمية فِعلية في تنسيق السلوك الجمعي بشكل فعّال مثل إنصات الجمهور أثناء كلام المُتحدِّث أو وقوف السائقين عند الإشارة الحمراء أو عدم تجاوز الناس للطابور، لكن العديد من القواعد هي مجرد أقنعة للتسلط من قبل صانعيها أو

(١) خطأ التنسيب الأساسي: (fundamental attribution error) في علم النفس الاجتماعي هو ميل الناس لزيادة التأكيد على السمات الشخصية وعزو سلوك الأفراد إليها وتجاهل المؤثرات والضغوط الظرفية التي ربما أثرت في إنتاج مثل هذا السلوك، فبسبب «خطأ التنسيب الأساسي» نميل لاعتقاد أن الناس قاموا بأفعال سيئة لأنهم سيئون ونتجاهل ما قد يكون للظروف والمواقف التي وضعوا فيها من تأثير. (المراجعة).

(٢) L. Ross, "The Intuitive Psychologist and his Shortcomings: Distortions in the Attribution Process," *Advances in Experimental Social Psychology*, vol. 10, ed L. Berkowitz (New York: Academic Press, 1977), pp. 173-220.

المسؤولين عن إنفاذها، وغالبًا ما تكون آخر قاعدة في أية قائمة هي العقاب حال عدم الالتزام بالقواعد السابقة. لذلك يجب وجود من يرحّب بتفعيل هذا العقاب، والأفضل أن يكون هذا على الملأ لردع مخترقي القانون المحتملين الآخرين. كانت للفنان الكوميدي ليني بروس عبارة طريفة يصف فيها وضع قوانين تنظيمية لمن يُسمَح له بإلقاء البراز من فوق سور جيرانه ومن لا يُسمح له بهذا، ويصف تطورات جعل الشرطة مسؤولة عن حماية قاعدة «لا براز في ساحتي الخلفية». القواعد وكذلك المسؤولون عن تنفيذها هم أركان رئيسية في التأثير الظرفي، لكن النظام هو من يعين الشرطة ويبني السجون لمن يُتَّهمون بخرق القواعد.

عندما تصبح القواعد حقيقة

«ما إن ترتدي الزي الموحد وتشرع في أداء دورك، أقصد عملك، وليكن عملك هو الحفاظ على مجموعة من الناس منضبطين؛ فبالتأكيد لن تكون الشخص نفسه ذا الملابس العادية في دور مختلف. تصبح حقًّا ذاك الشخص بمجرد أن ترتدي هذا الزي ذا اللون الكاكي وتضع النظارات الشمسية وتمسك بالعصا، ثم تؤدي الدور. هذا هو زيّك وعليك أن تتصرف بما يتطابق معه».

الحارس هيلمان

عندما يؤدي الممثلون شخصية خيالية فإنهم غالبًا ما يحصلون على أدوار لا تشبههم. يتعلمون كيف يتحدثون ويمشون ويأكلون بل ويفكرون ويشعرون وفقًا لما يتطلبه الدور الذي يؤدونه. يؤهلهم تدريبهم المهني للفصل بين الدور والهوية لتبقى ذواتهم الحقيقية في الخلفية أثناء تأدية دور يمكن أن يكون بعيدًا تمامًا عما هم عليه حقًّا، لكن هناك أوقات تتشوش فيها تلك الحدود الفاصلة حتى عند المحترفين ويسيطر عليهم الدور بعد إسدال الستار وإطفاء الكاميرا، يبتلعهم الدور ويؤثر في حياتهم خارج المسرح، فلا يعود للجمهور الآن أية أهمية لأن الدور قد أصبح في عقل الممثل.

مثال رائع عن هذا المعنى لدور تمثيلي تحوَّل إلى «حقيقي تمامًا» نراه في المسلسل التليفزيوني البريطاني (The Edwardian Country House) حيث تسعة عشر شخصًا تم اختيارهم من بين ثمانية آلاف متقدم عاشوا حياة الخدم البريطانيين في قصر ريفي أنيق في برنامج لـ«تلفزيون الواقع». وعلى الرغم من أن الشخص الذي اختير لتأدية دور كبير الخدم كان يُنتظر منه الالتزام بالمعايير الصارمة لتلك الفترة الخاصة بمنصبه على رأس التسلسل الوظيفي للخدم؛ إلا أن سهولة تحوله إلى رئيس مُستبدّ «أخافته». الفنان صاحب الخمسة والستين عامًا لم يكن مستعدًّا للانزلاق بسهولة في دور سمح له بممارسة سلطة مطلقة على بيت من الخدم الذين يرأسهم هو: «فجأة تكتشف أن التحدُّث ليس ضروريًا، كل ما كان عليّ فعله هو رفع إصبعي ليلتزموا الصمت، وهذه فكرة مخيفة، مريعة». لعبت امرأة صغيرة

دور الخادمة ولكن في حياتها الحقيقية كانت تعمل في مكتب استعلامات سياحي، بدأت تشعر وكأنها شخص غير مرئي. وصفت مدى السرعة التي تكيفت بها هي وآخرون مع أدوار الخدم: «كنت متفاجئة، ثم أرعبتني الطريقة التي سُحقنا بها جميعًا. تعلمنا بسرعة ألا نردّ على الإهانات التي توجه لنا وشعرنا بالذل»[١].

ترتبط الأدوار عادة بمواقف معيّنة أو مِهَن أو وظائف، مثل أن تكون مدرسًا أو حارس عقار أو سائق سيارة أجرة أو وزيرًا أو موظفًا اجتماعيًّا، أو في كنيسة أو في مصنع أو على المسرح. يمكن تنحية الأدوار مع عودة الشخص لحياته الطبيعية، لكن بعض الأدوار تكون خبيثة وليست مجرد نصوص نؤديها من وقت لآخر، يمكن أن تصبح ما نحن عليه في بعض الأحيان. نقبلها حتى عندما نقرّ في البداية أنها مصطنعة ومؤقتة ومرتبطة بالموقف الراهن. نصبح آباءً أو أمهاتٍ أو أبناءً أو بناتٍ، أو جيرانًا، أو رؤساءَ عملٍ، أو عُمَّالًا أو مساعدين، أو معالجين، أو عاهرات، أو جنودًا، أو شحَّاذين، أو لصوصًا، أو العديد من الأشياء الأخرى.

لنزيد من تعقيد الأمور علينا جميعًا أن نلعب أدوارًا متعددة، بعضها يتصارع فيما بينه وبعضها قد يتعارض مع مبادئنا ومعتقداتنا الأساسية كما حدث في تجربة سجن ستانفورد، ما قلناه في البداية: «أنه مجرد دورٌ تؤدّونه» ليكون مجرد تحذير؛ يُمكِن أن يكون له تأثير بالغ العمق لاحقًا عندما تتحقق السلوكيات التي يتطلبها الدور. «مهرج الفصل المدرسي» يحظى بالاهتمام الذي لا تسعفه قدراته الدراسية في الحصول عليه، لكن بعدها لا يتعامل معه أحد بجديّة، حتى الخجل يمكن أن يكون دورًا يتبناه الشخص في البداية ليتفادى اللقاءات الاجتماعية أو المواقف غير المريحة، لكن عندما يفرط الشخص في استخدامه يتحول إلى أن يكون خجولًا بالفعل.

قد يُقدم الناس على أفعال مريعة عندما يسمحون للدور الذي يلعبونه بتشكيل حدود صلبة تحاصر ما هو ملائم ومتوقع ومفروض في بيئة معينة تمامًا كما يفعل الشعور بالحَرَج، هذا التصلّب في أداء الدور يعطّل المبادئ الأخلاقية التقليدية والقيم التي تحكم حياتهم عندما يكونون في حالتهم الطبيعية. آلية الدفاع عن الأنا المعروفة باسم «الازدواجية»[٢] تسمح لنا بالربط بين الجوانب المتصارعة لمعتقداتنا وتجاربنا داخل غرف ذهنية منفصلة

---

(١) انظر الرواية بأكملها في وصف سارة ليال (*Sarah Lyall*) في مقال:

"The Manor Acclimated". *The New York Times*, May 26, 2002, p. 12.

(٢) (Compartmentalization) الازدواجية أو التقسيم: آلية نفسية تتيح للفرد الذي يعاني من صراع في المعتقدات أو القيم أو الأفكار.. إلخ أن يتجنب التنافر المعرفي، وذلك عن عبر السماح لهذه الأفكار والمشاعر المتصارعة بأن تتعايش معًا بالإقرار بها وفتح مجال للتفاعل بين حالات مختلفة مُقسّمة للذات. (المترجم).

حتى نتجنب التأويل والأحاديث الجانبية، حينئذٍ يمكن للزوج الصالح أن يتحوّل إلى خائن لا يشعر بالذنب، والقسيس إلى لوطي، والفلاح الطيب إلى سيد متسلط لا قلب له. نحتاج إلى تقدير مدى قوة تأدية الدور في تشكيل رؤانا سواء للأفضل أو للأسوأ، مثلما يحدث عندما نرى في دور المدرس أو الممرضة أنه تضحية تستمر مدى الحياة لصالح طلبة الفرد أو مرضاه.

التحوّل من معالج إلى قاتل

أسوأ السيناريوهات كانت تحوّل الأطباء النازيين الذين صار دورهم انتقاء السجناء في معسكرات الاعتقال من أجل الإعدام أو «التجارب». لقد ابتعدوا عن دور المعالجين ليوضعوا في دور جديد وهو المساعدة في القتل، كان دورهم ضروريًا من أجل الصالح العام بانفاق الجميع وهو ما قادهم إلى العديد من الدفاعات النفسية المتطرفة أمام واقع تواطؤهم في القتل الجماعي لليهود. نعود مرة أخرى إلى التفصيل الذي قدمه العالم والمعالج النفسي الاجتماعي روبيرت جاي ليفتون. عندما يدخل طبيب جديد إلى المشهد ويثير فزعه ما يشاهده، سيتساءل:

> ««كيف يمكن لهذه الأمور أن تحدث هنا؟»، ثم سيصل إلى إجابة عامة... توضح كل شيء. ما الأفضل للسجين؟ أن يموت في الطين أم أن يرتفع إلى السماء في (سحابة) من الغاز؟ وبهذا تسوّى الأمور بالنسبة للمبتدئين. كان القتل الجماعي بمثابة الحقيقة الخفية للحياة والتي كان ينتظر من الجميع الاعتياد عليها».

وضْفُ القتل الجماعي لليهود بأنه الحل النهائي أفاد غاية نفسية مزدوجة: «يدل على القتل الجماعي لليهود بدون جعل الأمر يبدو على هذا النحو؛ ومن ناحية أخرى يوجه التركيز بشكل أساسي إلى حلّ المشكلة». لقد حوّل الأمر برمته إلى معضلة صعبة يجب حلّها بأية وسيلة ضرورية من أجل تحقيق غاية برجماتية. أزاحت الممارسة الفكرية أية عواطف من جولات الأطباء اليومية لكن عملهم في اختيار السجناء من أجل القتل كان «مرهقًا ومرتبطًا بشرٍّ كبير»، فكان على هؤلاء الأطباء أصحاب المستوى التعليمي المرتفع أن يستخدموا أية وسائل نفسية دفاعية ممكنة تُجنّبُهم واقع تواطؤهم في أعمال القتل هذه. بالنسبة للبعض فقد أصبح «الألم النفسي» وفصل الفعل عن الوعي هو المعتاد، بالنسبة للبعض الآخر كان هناك حلّ شيزوفريني «باستخدام الازدواجية» حيث تجد الوحشية ورقيّ الأخلاق في الطبيب نفسه، فيستدعي في أوقات مختلفة مجموعات متنوعة من التأثيرات النفسية داخله: إحداها مبنية على «القيم المقبولة من الجميع» والخلفية التعليمية «للشخص الطبيعي»؛ والأخرى مبنية على أيديولوجيا [الأوشفيتز النازية] بقيم مختلفة إلى حدٍّ بعيد عن

تلك المقبولة بشكل عام، هذه النزعات المزدوجة كانت تتبادل مواقعها يومًا بعد يوم[1].

الأدوار المتبادلة والنصوص

تحتاج بعض الأدوار بالتأكيد إلى شراكة تبادلية؛ فحتى يكون لدور الحارس معنى يجب أن يلعب شخص ما دور السجين، ولا يمكن لأحد أن يكون سجينًا إلا إذا رحب آخر بأن يكون حارسًا. لم يكن هناك في تجربة سجن ستانفورد أي تدريب محدد مطلوب من أجل تأدية أي من الدورين ولا كتيب إرشادات عن أفضل الممارسات. تذكروا اليوم الأول وتعثُّر الحراس فيه وعبث السجناء حينما كان كل منهم يشعر بغرابة دوره، لكن سرعان ما انزلق المشاركون بسهولة في الأدوار المسندة إليهم، وأتى النص المبدئي لدور الحارس أو السجين من خبرات الشعور بالسلطة والشعور بالعجز الخاصة بالمشاركين، ورصدهم للتفاعلات بين والديهم (في العادة الأب هو الحارس، والأم هي السجين)، واستجابتهم للأطباء والمعلمين ورؤساء العمل وأخيرًا من الأفلام التي تتناول حياة السجن والتي شكلت مادتهم الثقافية. لقد أدى المجتمع مهمة التعليم نيابة عنا، كل ما علينا فعله هو رصد مدى الارتجال في الأدوار التي لعبوها، وهو ما سنفعله من خلال البيانات.

هناك وفرة في الأدلة على أن كل المشاركين تقريبًا مروا في وقت أو آخر بردود فعلٍ بعيدة عن متطلبات أداء الدور ونفذت بعمق داخل البنية النفسية لبيئة السجن. في البداية كانت بعض ردود فعل الحراس تأتي من التوجيه الذي تلقوه وهو التوجيه الذي أوجز خصائص البيئة التي رغبنا في صناعتها لمحاكاة واقعية السجن، لكن أيًا كانت تلك المتطلبات التي لُخِّصت لهم في هذه المرحلة ليكونوا ممثلين جيدين؛ فما كان ينبغي أن تعمل حين يشعرون أنهم بلا رقابة.

تقارير ما بعد التجربة عرّفتنا أن بعض الحراس كانوا أكثر قسوة عند انفرادهم بالسجين في دورة المياه خارج الساحة حيث يدفعونه تجاه مِبولة الحائط. كانت السلوكيات الأكثر ساديّة تحدث في نوبة الليل وفي وقت مبكر من نوبة الصباح؛ في الأوقات التي يعتقد الحرّاس أننا لا نراقبهم في أثنائها أو نسجّل ما يفعلوا، بطريقة ما تكون التجربة حينها «خارج نطاق التغطية». رأينا كذلك تزايد اعتداء الحراس على السجناء يومًا بعد يوم على الرغم من عدم مقاومة السجناء ومؤشرات تدهور حالتهم مع بلوغ كارثية السجن ذروتها. في إحدى اللقاءات المسجلة تذكر أحد الحراس - وهو يضحك - اعتذاره على دفع السجين في اليوم الأول، لكن في اليوم الرابع لم يكن يفكر في شيء سوى دفعهم وإهانتهم.

(١) R. J. Lifton, *The Nazi Doctors* (1986) pp. 196, 206, 210-11.

تحليل كريج هاني المميز يكشف التحول في السلطة الذي انغمس فيه الحراس. ألقوا نظرة على اللقاء الذي عقد مع أحدهم بعد أيام قليلة من انتهاء التجربة:

«عقدتُ لقاءات مع الحراس قبل بدء التجربة تمامًا كما فعلتُ مع السجناء، وشعرت أنني تعرّفتُ شخصياتهم ولو بشكل بسيط. ربما لهذا لم تتسرب في داخلي مشاعر عدائية تجاههم مع استمرار الدراسة وتحول سلوكهم إلى سلوك متعسف بشكل مفرط، لكن كان واضحًا لي أنني وبسبب إصراري على الحديث مع السجناء منفردًا بهم لتقديم الاستشارات النفسية ظاهريًا وتوجيههم من حين لآخر إلى الابتعاد عن السلوكيات العنيفة غير المبررة؛ بدأ الحراس ينظرون إليَّ على أنني خائن، لذلك كتب أحد الحراس في مذكراته في وصفه لحديثه معي «وبخني اختصاصي عِلم النفس كريج هاني بسبب تقييد وتغمية عين السجين قبل أن يغادر مكتبه، ورددت باستياء بأن هذا ضروري أمنيًا ومن جهة مقتضيات عملي كذلك»، إنما كان يبكّتني. في تحول غريب للأحداث وُضعت في مكاني الذي أستحق لإخفاقي في تبني المعايير التي تسود بيئة المحاكاة التي ساعدتُ في صناعتها بنفسي، والذي قام بذلك هو من وضعه في دوره باختيار عشوائي»[1].

لو نظرنا في التأثير المحتمل لتدريب الحُرّاس ستتذكّر أن السجناء على الجانب الآخر لم يتلقوا أي تدريب على الإطلاق. ماذا فعلوا وهم في الزنازين وحدهم يحظون ببعض الخصوصية للهروب من المناخ القمعي المتواصل في الساحة؟ بدلًا من التعارف والتحدث عن أمور لا تتعلق بالسجن رأيناهم مهووسين بتقلبات الموقف الحالي. كانوا يُعززون وضعهم بصفتهم سجناء بدلًا من إبعاد أنفسهم عنه. كذلك كان الأمر مع الحراس، فقد كشفت المعلومات التي جمعناها عنهم أثناء وجودهم في استراحتهم وهم يتجهزون للدخول أو الرحيل أنهم نادرًا ما كانوا يتكلمون في أمور شخصية أو معلومات لا تخص السجن. كانوا بدلًا من ذلك يتحدثون عن «السجناء المشاغبين» أو عن مشكلات السجن وكيفية تعاملهم معها، وعن انطباعاتهم وردود فعلهم تجاه الفريق البحثي، لكن لم يتحدثوا أبدًا عن الأمور التي يتحدث عنها الشباب الجامعي في حياتهم اليومية من تبادل نكات وضحك أو الإفصاح عن أية مشاعر شخصية لزملائهم وهو ما كانوا يستطيعون فعله بسهولة لتخفيف حدة الموقف أو إبعاد أنفسهم عن الدور. تذكروا وصف كريستينا ماسلاش السابق عن تحول الشاب الرقيق الحساس الذي قابلته لتوها إلى «جون واين» الهمجي، فبمجرد ارتدائه الزيّ رأينا سلطته في الساحة.

---

(1) Zimbardo, Maslach, and Haney, "Reflections on the Stanford Prison Experiment," p. 226.

لعب الكبار الأدوار في تجربة سجن ستانفورد

أرغب في إضافة نقطتين أخيرتين عن قوة الأدوار واستخدامها في تبرير الانتهاكات المستمرة قبل الانتقال إلى درسنا الأخير. دعونا نذهب إلى ما هو أبعد من الأدوار التي أديّت بجديّة تامة مثل القسيس ورئيس لجنة الإفراج المشروط والمحامي العام وأولياء الأمور في أيام الزيارة، لم يتوقف الأمر على قبول أولياء الأمور لطريقة عرضنا لظروف السجن على أنها خفيفة ومثيرة للاهتمام وليست عدائية ذات تأثير مُدمِّر فحسب؛ بل إنهم مكّنونا كذلك من فرض عدد من القواعد التعسفية عليهم كما فعلنا مع أبنائهم من قبل من أجل تقييد سلوكياتهم، اعتمدنا على لعبِهم دورَ الامتثال وطاعة القانون، وعلى كونهم مواطنين من الطبقة الوسطى يحترمون السلطة ونادرًا ما يعارضون النظام مباشرة. كنا نعرف أيضًا مدى صعوبة أن يتجاوز سجناؤنا الذين ينتمون للطبقة الوسطى الحراسَ مباشرة حتى عندما كانوا في شدة بأسهم وقد فاقوا الحراس عددًا بتسعة مقابل اثنين لوجود أحد الحرّاس خارج الساحة، لم يكن العنف جزءًا من سلوكهم الذي اعتادوا عليه في دورهم كما كان ليحدث لو كان المشتركون من طبقة أدنى والذين كانوا سيتولون الأمور بأنفسهم على الأرجح؛ بل إننا لم نجد أي دليل على مجرد تصوّر السجناء لخيار العنف الجسدي.

واقعية أي دور تعتمد على منظومة الدعم التي تبقي الدور ضمن حدوده ولا تسمح لأي واقع بديل بالتسلل. تذكروا عندما اشتكت والدة السجين رينش ١٠٣٧ من حالته المزرية، قمت تلقائيًا بتفعيل صلاحيات دوري داخل المؤسسة وعارضت ما قالته معرّضًا بأن هناك مشكلة شخصية لدى ١٠٣٧، لا خطأً وظيفيًا في سجني.

في وقت لاحق أصبح تحوّلي من أستاذ جامعي عطوف إلى باحث يركز اهتمامه على البيانات ثم إلى رئيس سجن قاسي القلب أمرًا مزعجًا، أقدمت على أمور غير لائقة وغريبة في هذا الدور الجديد الغريب مثل رفضي لهذه الشكوى المبررة التي قدمتها هذه الأم، أو توتري الشديد عندما رفض الضابط من قسم شرطة بالو ألتو نقل السجناء إلى سجن المدينة. أظن أن أحد أسباب سير العمل في السجن بهذه الكفاءة هو تقمصي للدور تمامًا، لكن بتبني هذا الدور بكل ما فيه من تركيز على الأمن وحفظ «سجني»؛ أخفقت في تقدير الحاجة إلى إنهاء التجربة بمجرد انهيار السجين الثاني.

الأدوار ومسؤوليتها عن التجاوزات

بقدر ما نتقمص الدور مع الاحتفاظ بقدرتنا على فصل أنفسنا عنه عندما تستدعي الحاجة؛ نكون أقدر على التخلص من مسؤوليتنا عن الأذى الذي نُلحقه بالآخرين من خلال أفعالنا المعتمدة على الدور الذي نؤديه، نتخلى عن مسؤوليتنا عن أفعالنا ونلقي باللوم على

الدور الذي نقنع أنفسنا بأنه غريب عن طبيعتنا. نجد في الدفاع عن قادة كتائب الحماية (الشوتزشتافل) النازية في محاكمة نورمبرج صورة مختلفة لنفس التكنيك الدفاعي الذي استخدمه حرّاس تجربتنا، فبدلًا من أن يقولوا: «لا تلوموني، كنت أؤدي دوري في ذلك الوقت وفي ذلك المكان، هذا ليس ما أنا عليه حقًا» كما قال حرّاسنا؛ قالوا: «كنت أنفذ الأوامر»!

تذكروا تبرير هيلمان لسلوكه المؤذي ضد كلاي ٤١٦ في لقاء تلفزيوني حين قال بأنه كان يجري «تجاربه الصغيرة الخاصة» ليرى إلى أي مدى سيتحمل السجناء الإهانة قبل أن يبدؤوا في التمرد. لقد فسّر تعمّده التصرف بحقارة بأنه يستحثهم على أن يكونوا صالحين، وسيكون تمّردهم هو الاستجابة المرغوبة لسلوكه القاسي. أين المغالطة في هذا التبرير الذي ألّفه بعدما انتهى كلّ شيء؟ سنجد المغالطة بسهولة في كيفية تعامله مع تمّرد النقانق الذي قام به كلاي ٤١٦، وتمرد «ابن الزنا» الذي قام به الرقيب، فهو لم يحترم ولم يقدّر تمردهم ولا مطالبتهم بحقوقهم؛ بل ردّ بعنف وبقسوة أكبر. كان الحارس هيلمان يستخدم كامل سلطته حتى يصير الحارس الكامل، القادر على الذهاب إلى ما هو أبعد من متطلبات الموقف ليصنع «تجاربه الصغيرة» ويشبع فضوله الشخصي ورغبته في اللهو.

في لقاء حديث مع مراسل من لوس أنجلوس تايمز (Los Angeles Times) عن الأبحاث التي أجريت لتحليل نتائج تجربة سجن ستانفورد (SPE)؛ قدم هيلمان وداج ٨٦١٢ المنطق نفسه الذي دفعهم إلى الإقدام على ما فعلوا، كان الأول «قاسيًا» والثاني «مجنونًا»، كانوا يقومون بأدوارهم ليسعدوا قلب زيمباردو[١]. أيعقل هذا؟ (ربما كانوا يمثلون بعض المشاهد من الفيلم الياباني (روشمون Roshmon)، حيث كانت لكل شخص وجهة نظر مختلفة فيما حدث).

الحجب وسلب الذاتية

إضافة إلى سلطة القواعد والأدوار تتزايد قوة المؤثرات الظرفية مع توحيد الزي والأطقم والأقنعة وكل وسائل إخفاء المظهر المعتاد الخاص بالشخص بغية حجب ذاتيته والتقليل من المحاسبة الشخصية. عندما يشعر الناس بأنهم مجهولون في ظرف ما وكأنما لا وجود لمن يعرف هويتهم الحقيقية (ولذا فلا أحد يهتم على الأرجح)؛ يمكن دفعهم بسهولة إلى التصرف على نحو معادٍ للمجتمع، ويحدث هذا على وجه الخصوص في بيئة تضمن تفعيل نزعات الشخص أو اتباع الأوامر التي تشمل بعض التعليمات التي يبغضها الشخص

---

(١) A. Zimbardo, "A Theater of Inquiry and Evil," *Los Angeles Times*, July 15, 2004, pp. A1, A24-25.

في العادة. النظارات الشمسية الفضية العاكسة التي أتينا بها كانت إحدى وسائل جعلنا أنا والحراس وآمر السجن نبدو منفصلين وبعيدين عن التعامل بشخصياتنا، فيكون التعامل مع صفاتنا في المكان. أعطى الزي الموحد هوية واحدة للحراس وكذلك فعلت ضرورة مناداتهم بلقب «سيدي الضابط الإصلاحي».

تسجل مجموعة من الأبحاث (التي سوف نطلع عليها في فصل لاحق) مدى تسهيل سلب الذاتية للعنف والتخريب والسرقة لدى البالغين كما لدى الأطفال عندما يكون الموقف داعمًا لهذه السلوكيات، وربما ترى هذه العملية في عمل وبليام جولدينغ «أمير الذباب». عندما يكون أفراد جماعة في حالة من سلب الذاتية تتغير وظائفهم الذهنية: يعيشون في لحظة آنية موسعة تجعل الماضي والحاضر بعيدَيْن وغير مترابطين، تسيطر المشاعر على التفكير المنطقي ويسبق الفعل التفكير، وفي هذه الحالة تتوقف العمليات الإدراكية والتحفيزية التي تحرّك سلوكياتهم لتكون مقبولة اجتماعيًا عن كونها دليلهم الإرشادي، فتجد بدلًا من ذلك أن المنطق الأبولوني[1] وإدراك النظام يسقطان أمام الفوضى الديونيسية، فيصير الشروع في الحروب بسهولة الشروع في الحب، بدون أي تفكير في العواقب.

أتذكر مقولة فيتنامية تعود إلى الراهب البوذي ثيت نات هانه (Thich Nhat Hanh): «لكي نحارب بعضنا يُلَوِّنُ أبناء الأم الواحدة وجوههم بألوان مختلفة». إنها طريقة لوصف دور حجب الذاتية في تسهيل العنف. من الجدير بالملاحظة كما سنرى أن أحد الحراس على الرصيف (Al) الشهير في مركز تعذيب أبو غريب صبغ وجهه أثناء فترات الخدمة بألوان فضية وسوداء على النحو الذي تفعله فرقة موسيقى الروك (Insane Clown Posse)، والتقطت له صورة من بين الصور العديدة التي التقطت لهذه الاعتداءات. سيكون لدينا الكثير لنقوله فيما هو قادم عن عمليات حجب الذاتية التي أسهمت في اعتداءات سجن أبو غريب.

التنافر الإدراكي الذي يعقلن الشر

إحدى النتائج المثيرة لتأدية دورٍ معلن يتناقض مع معتقدات الفرد الخاصة هي خلق حالة من التنافر الإدراكي. عندما تتضارب سلوكياتنا مع معتقداتنا ولا تكون أفعالنا صادرة عن مواقف ذات صلة بنا تحدث حالة تنافر إدراكي، وهي حالة توتُّر يمكن لها أن تدفع بالشخص إلى تغيُّر كبير سواء في سلوكه المعلن أو آرائه الخاصة من أجل خفض شدّة هذا

---

(١) تعدّ ثنائية أبولو (Apollo) رمز العقلانية عند الإغريق وإله الموسيقى والحقيقة، وديونيسوس (Dionysus) رمز الفوضى واللاعقلانية، وإله حصاد العنب وصناعة النبيذ؛ ثنائية أدبية وفلسفية تستخدم لإبراز هذا التناقض في العديد من الأعمال الأدبية والفلسفية. (المترجم).

التنافر. سيذهب الناس بعيدًا من أجل وضع المعتقدات والسلوكيات المتنافرة في حالة من التماسك الوظيفي، وكلما زاد التنافر زاد الحافز لتحقيق التناغم وزادت حدة التغيرات المنتظرة. لا يكون لديك الكثير من التنافر عندما تؤذي شخصًا ما إذا وُجِدَت لديك وفرة في الأسباب، مثل تهديد حياتك أو أن يكون هذا جزءًا من عملك بوصفك جنديًا أو أن تتلقى أمرًا من سلطة عليا، أو أن تعرض عليك مكافأة مقابل إقدامك على فعل مخالف لمعتقداتك السلمية.

مما يدعو إلى الاستغراب أن تأثير التنافر يتعاظم مع تناقص تبرير هذا السلوك! مثلًا، عندما يُقدم أحدهم على فعل بغيض مقابل قدر قليل من المال بدون تعرضه لأي تهديد، فيكون التبرير بالكاد يفي بالغرض أو غير كافٍ وعندها يتفاقم التنافر، وتتعاظم محاولات خفض التنافر عندما يشعر الشخص بحرية الاختيار أو عندما لا يلاحظ أو يقدّر بشكل كامل الضغط الظرفي الذي دفعه إلى فعل متناقض، وعندما لا يمكنه إنكار الفعل المتناقض علنيًا أو تعديله، لذلك يتركز ضغط التغيير على العناصر الأكثر ضعفًا في معادلة التنافر مثل القيم والاهتمامات والمعتقدات وحتى الرؤى، ولدينا عدد كبير من الأبحاث التي تؤيد هذه التوقّعات[1].

كيف للتنافر أن يتسبب في هذه التغيُّرات التي رصدناها في حراس تجربة سجن ستانفورد؟ تطوعوا باختيارهم العمل في نوبات طويلة صعبة مقابل أجر ضعيف يصل إلى أقل من ٢ دولار في الساعة، وكان التدريب الذي حصلوا عليه بخصوص كيفية تأدية هذا الدور الصعب ضعيفًا للغاية. كان عليهم أداء الدور بثبات لمدة ثماني ساعات لأيام وليالٍ طالما ارتدوا الزي الموحد وفي الساحة كانوا أو في وجود آخرين من سجناء أو أولياء أمورهم الزائرين، ثم يتعين عليهم العودة إلى هذا الدور بعد استراحة تصل إلى ست عشرة ساعة هي وقت راحتهم من العمل. ربما كان هذا المصدر القوي للتنافر سببًا رئيسيًا في قبولهم لسلوكيات هذا الدور العام وتقديم ردود فعل داعمة وإدراكية وعاطفية كانت سببًا في تصاعد السلوكيات الحازمة والمؤذية بمرور الوقت.

هناك المزيد، فبسبب التزامهم ببعض السلوكيات المتنافرة مع معتقداتهم الشخصية شعر الحراس بتعاظم ضغط الحاجة إلى عقلنة هذه التصرفات وتقديم أسباب تبرر إقدامهم على أمور تتناقض مع ما يؤمنون به حقًّا وما يدافعون عنه أخلاقيًّا. يمكن للبشر العقلانيين أن ينخدعوا ويتورطوا في تصرفات غير عقلانية في وجود العديد من الالتزامات المتنافرة

(١) L. Festinger, *A Theory of Cognitive Dissonance* (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957); G. Zimbardo, *The Cognitive Control of Motivation* (Glenview, IL: Scott, Foresman, 1969).

الخفية. يوفّر علم النفس الاجتماعي العديد من الأدلة على أن حدوث مثل هذا يؤدي بالأذكياء إلى الإقدام على الحماقات، وبالعقلاء إلى ارتكاب أفعال مجنونة، وبأصحاب المبادئ الأخلاقية إلى فعل ممارسات غير أخلاقية، ثم يقدمون بعدها تبريرات عقلانية «صالحة» لفعل ما لا يمكنهم إنكار أنهم فعلوه. البشر أقل مهارة في التفكير العقلاني منهم في مهارة العقلنة، أعني تبرير التناقضات بين أخلاقياتهم الشخصية وتصرفاتهم المنافضة لها، بهذه العقلنة يقنعون أنفسهم والآخرين أن ثمة اعتبارات منطقية تسبب في هذه القرارات، ولا يدركون دوافعهم الشخصية القوية في الحفاظ على اتساقهم مع ذاتهم أمام هذا التنافر.

قوة القبول المجتمعي

لا يدرك الناس عادةً القوة الأكثر تأثيرًا في مخزونهم السلوكي ألا وهي الحاجة إلى القبول المجتمعي. الحاجة إلى القبول والإعجاب والاحترام، إلى أن تبدو طبيعيًا ولائقًا. الاندماج هو أمر شديد القوة يدفعنا للقيام بالسلوكيات الأكثر حماقة وغرابة لمجرد أن الغرباء قالوا لنا أنها الطريقة الصحيحة لفعل الأمور. نضحك للعديد من عروض الكاميرا الخفية التي تكشف هذه الحقيقة لكن نادرًا ما نلاحظ المرات التي نكون فيها نحن أنفسنا «نجوم» الكاميرا الخفية في حياتنا الخاصة.

بالإضافة إلى تأثيرات التنافر كان لضغط التوافق تأثيره على حرّاسنا أيضًا، ضغط المجموعة الذي يشكله الحرّاس الآخرين له دور كبير في تحوّل الحارس إلى «لاعب لصالح الفريق»، وذلك بتوافقه مع المعايير الناشئة التي تتطلب نزع إنسانية السجناء بشتّى الوسائل. كان الحارس الصالح منشقًّا عن الجماعة وعانى في صمت ببقائه داخل الدائرة المجتمعية للحراس الآخرين في نوبته. في كل مجموعة كان هناك من يضاهي الحارس الصارم في المجموعة الأخرى.

البناء الاجتماعي للواقعية

في مقابل السلطة التي تقلدّها الحراس كل مرة ارتدوا فيها لباسهم الموحد الشبيه بالملابس العسكرية نجد عجز السجناء عند ارتدائهم الثوب المجعد بأرقام التعريف المحيكة على صدورهم. امتلك الحراس عصيًّا وصفارات ونظارات شمسية تخفي عيونهم؛ بينما امتلك السجناء سلاسل في أقدامهم وجوارب على رؤوسهم لتلمّ شعورهم الطويلة. هذه الاختلافات الظرفية لم تكن تكمن في الملابس أو التجهيزات؛ بل كان مصدر قوة الحراس يكمن في المادة النفسية التي تسربت في بناء كل مجموعة عن معنى هذه الأزياء الموحّدة.

حتى نفهم مدى أهمية المواقف علينا أن نكتشف كيف يتلقى الأشخاص الفاعلون في بيئة سلوكية معينّة هذه البيئة ويفسّرونها. إن المعنى الذي يعطيه الناس لمكوّنات المواقف المختلفة هو الذي يصنع الواقع الاجتماعي؛ فالواقع الاجتماعي يفوق كونه الأشياء المادية فحسب[1]، إنه كيفية نظر الأشخاص الفاعلين للموقف والمرحلة السلوكية الحالية التي تتضمن مجموعة متنوعة من العمليات النفسية، هذه الأشياء التي تتمثّل في الذهن هي معتقدات قادرة على تعديل الكيفية التي تتلقى بها الموقف، وفي الغالب تتعدّل بحيث تُلائم توقعات الفاعل وقيمه الشخصية.

تخلق هذه المعتقدات التوقعات التي يمكن أن تكتسب قوة بتحولها إلى تنبؤات تحقق ذاتيا. على سبيل المثال، في تجربة شهيرة قام بها عالم النفس روبيرت روزينثال وناظرة المدرسة لينور جاكبسون؛ تم إقناع المُعلّمين أن أولادًا مُعيّنين هم من النوعية التي تحقّق التفوّق الأكاديمي بشكل متأخر، فكان الأداء الأكاديمي لهؤلاء الطلّاب متفوقًا على الرغم من انتقائهم بشكل عشوائي[2]. لقد عدّل تقدير المعلّمين للمواهب الخفية في هؤلاء الأولاد من سلوكهم تجاههم على نحو دعّم أداءهم الأكاديمي، فأثبتت هذه المجموعة من الطلبة العادين «تأثير بجماليون»[3] بتحوّلهم إلى ما كان يُنتظر منهم أن يصبحوا عليه، أعني التفوق الأكاديمي. من المؤسف أن الأمر يحدث بصورة معكوسة عندما يتوقع المُعلّمون أداءً ضعيفًا من الطلبة المنتمين للأقليات أو الذكور، فيعامل المعلمون الطلبة بلا وعي منهم بطرق تدعم تلك الظنون مما يجعل أداء هؤلاء الطلبة أقل مما يستطيعون حقًّا.

في تجربة سجن ستانفورد كان بإمكان الطلبة المتطوعين أن ينسحبوا في أي وقت شاؤوا، لا أسلحة ولا ضوابط قانونية تجبرهم على البقاء، ولكنه اختيار شخصي منهم فحسب عندما وعدوا ببذل أقصى ما في جهدهم ليستمروا أسبوعين كاملين. كان العقد هو مجرد تعاقد بين باحثين أكاديميين ولجنة التجارب البشرية الخاصة بالجامعة ومجموعة من

---

(١) مثل الزنازين والأبواب والقضبان والأسِرّة والمقاعد والأصفاد... إلخ، في تجربة سجن ستانفورد. (المترجم).

(٢) R. Rosenthal and L. F. Jacobson, *Pygmalion in the Classroom: Teacher Expectation and Pupils' Intellectual Development* (New York: Holt, 1968).

(٣) (Pygmalion effect) تأثير بجماليون: يشير المصطلح إلى ظاهرة تأثير توقعاتنا في الآخرين، فتوقّع الأستاذ من الطالب - مثلاً - أن يحقق نتائج ممتازة في الاختبار، يؤثر إيجاباً في أداء الطالب نفسه، والعكس صحيح. وأصل المصطلح يعود لمسرحية لجورج برنارد شو، والتي يراهن فيها البروفيسور هيغنز الكولونيل بيكرينغ على أنه سيجعل من بائعة الورد التي تتحدث إنجليزية العامة إليزا دوليتل سيدة مجتمع من الطراز الرفيع تتقن إنجليزية النخبة، وشرع في تدريبها وتعليمها بالفعل ولكنه لم يؤمن في قرارة نفسه أنها من هؤلاء، فكان أن غادرت إليزا بعد حين ولم تعد. (المراجعة).

الطلبة على إجراء بحث. جميعهم افترضوا في البداية أنهم أحرار في الاختيار ومن ثمّ بإمكانهم ترك المكان وقتما شاؤوا، لكن وكما اتضح من الأحداث التي رأيناها في اليوم الثاني؛ بدأ السجناء يصدقون أنه سجن حقيقي يديره علماء نفس بدلًا من حكومة الولاية، أقنعوا أنفسهم بناءً على شائعة أطلقها داج ٨٦١٢ أن لا أحد يستطيع المغادرة برغبته، لهذا لم يقل أحد منهم: «أنا منسحب من هذه التجربة»، وبدلًا من هذا كانت استراتيجية الخروج بالنسبة للعديد منهم هي إجبارنا على إطلاق سراحهم بسبب اضطرابهم النفسي الشديد. سجنهم بناؤهم الاجتماعي لهذا الواقع الجديد في هذا الظرف القمعي الذي صنعته تصرفات الحراس العدوانية الهوائية، أصبح السجناء أنفسهم سجّاني أنفسهم.

جانب آخر من بناء الواقع في هذا البحث نجده في «اتفاق إطلاق السراح» الذي قُدم في نهاية جلسة الاستماع. صنعنا الموقف متوسلين بسلطة لجنة إطلاق السراح بحيث يرتبط الإفراج بتنازل السجين عن الأموال المستحقة له «بصفته سجينًا»، وعلى الرغم من استسلام أغلبهم للاتفاق وقبولهم بالمغادرة دون أي تعويض عن أيام عملهم في وظيفة بشر تُجرى عليهم التجارب؛ لم ينسحب أحد منهم حينها على هذا الأساس، ولكن قبلوا بواقع الإفراج بدلًا من حريتهم الشخصية في التصرف وفقًا لصالحهم الخاص، فسمحوا جميعًا بتقييدهم وتغطية رؤوسهم ثم اقتيادهم بعيدًا عن الحرية والعودة إلى قبو السجن.

نزع الإنسانية: الآخر كما لو كان لا شيء

«اقتل آسيويًا من أجل الرب»

(كتبت على خوذات الجنود الأمريكيين في حرب فيتنام)

من أسوأ الأشياء التي يمكن أن نفعلها مع بشر سوانا حرمانُهم من إنسانيتهم وتحويلهم إلى معدومي القيمة عن طريق ممارسة عملية نزع الإنسانية. يحدث هذا عندما نظن أن الآخرين لا يمتلكون نفس المشاعر والأفكار والقيم والأهداف التي لدينا في الحياة. تتضاءل أية سمات إنسانية يشاركنا فيها «الآخرون» أو تمحى تمامًا من إدراكنا. يحدث هذا عبر آليات نفسية هي العقلنة والإنكار والعزل. بعكس العلاقات الإنسانية الذاتية والشخصية والعاطفية، فإن العلاقات اللاإنسانية هي علاقات تشييئية، تحليلية، وخالية من المشاعر.

لنستخدم مصطلحات مارتن بوبر، العلاقات المؤنسنة هي «أنا - أنت»، بينما العلاقات اللاإنسانية هي «أنا - الشيء»، وبمرور الوقت يسقط فاعل عملية نزع الإنسانية نفسه في هذه الممارسة، وعندها تتغيّر الـ(أنا) لتصبح العلاقة «الشيء - الشيء»، أو بين الفاعل والضحية. يصبح تصوّر الآخرين على أنّهم «دون البشر» أو بشر سيئون أو وحشيّون

همج أو أقلّ بشريّة أو يجوز التخلّص منهم أو «حيوانات» أكثر سهولة إذا ما استُخدمَت الأسماء والصور النمطية والشعارات وصور البروباجاندا[1].

في بعض الأحيان تفيد عملية نزع الإنسانية في التكيُّف بالنسبة لموظّف مضطر إلى تعطيل استجابته العاطفية للطوارئ والأزمات أو لظروف العمل التي تتطلب اقتحام خصوصية الآخرين، قد يضطر الجرّاحون إلى القيام بهذا أثناء إجرائهم جراحات تنتهك جسد شخص آخر ومثلهم أول المستجيبين للكوارث. ينطبق الأمر ذاته على الوظائف التي تتطلّب التعامل مع عدد كبير من الحالات أو الأشخاص. تسمى هذه العملية في بعض الوظائف التي تقدم خدمات الرعاية مثل الطب النفسي السريري أو الخدمة الاجتماعية أو الطب؛ «بالاهتمام المنعزل». يدخل الفاعل في وضع متناقض، يجب أن ينزع إنسانية العُملاء حتى يتمكن من تقديم أفضل خدمة لهم[2].

يُسَهِّل نزع الإنسانية في العادة السلوك العدواني المؤذي مع من يخضعون له، من الصعب تخيل أن العبارات التالية قد أطلقها الحراس على سجنائنا من الطُّلّاب الجامعيين مثلهم والذين كانوا سيرتدون زي الحراس لولا انقلاب العملة: «جعلتهم يطلقون ألقابًا على بعضهم وينظفون المراحيض بأيدٍ عارية، اعتبرت السجناء قطيعًا من المواشي، وصار همي مراقبتهم حال أقدموا على شيء».

أو على حدّ قول حارس آخر: «سئمت من رؤية السجناء مرتدين تلك الخرق ومن شمّ رائحة أجسادهم التي ملأت الزنازين. رأيتهم يمزقون بعضهم بتوجيه منا».

خلقت تجربة سجن ستانفورد بيئة نازعة للإنسانية تمامًا كما يفعل السجن الحقيقي عبر مجموعة من الرسائل المتكررة باستمرار والتي تبدأ مع فقد الحرية مرورًا بفقد الخصوصية لتصل أخيرًا إلى فقد الهوية الشخصية. ينفصل السجناء عن ماضيهم ومجتمعهم وعائلاتهم ويستبدل بواقعهم واقع حالي يجبرهم على العيش مع سجناء آخرين في زنزانة مجهولة بلا أية مساحة للخصوصية، بقواعد قسرية وقرارات تعسفية من قبل الحراس تحدد تصرفاتهم. بصورة أوضح؛ في سجننا كما في جميع السجون التي عرفتها تُقمَع المشاعر وتُكبَت وتُشتت.

---

(1) V. W. Bernard, P. Ottenberg, and F. Redl, "Dehumanization: A Composite Psychological Defense in Relation to Modern War," in *The Triple Revolution Emerging: Social Problems in Depth*, eds. R. Perruci and M. Pilisuck (Boston: Little, Brown, (1968), pp. 16-30).

(2) H. I. Lief and R. C. Fox, "Training for 'Detached Concerns' in Medical Students," in *The Psychological Basis of Practice*, ed. H. I. Lief, V. F. Lief, and N. R. Lief (New York: Harper & Row, 1963); C. Maslach, "'Detached Concern' in Health and Social Service Professions," paper presented at the American Psychological Association annual meeting, Montreal, Canada, August 30, 1973.

في البيئات المؤسسية تُحجَّم المشاعر الإنسانية لتصل إلى درجة التسبب في ردود فعل متهورة غير متوقعة من الأفراد على الرغم من أن المتوقع هو إذعانهم. نُزِعت عن سجنائنا إنسانيتهم بطرق عدة من معاملة الحراس والإجراءات المهينة داخل المنشأة، لكنهم فاقموا الأمر بمنع جميع ردود الفعل العاطفية داخلهم باستثناء «الانهيار العصبي»، للعواطف والمشاعر أهميّتها بالنسبة للإنسان، ومراقبة العواطف أمر مهم في السجن؛ لأن العاطفة هي علامة على الضعف وتكشف عن سهولة السقوط فريسة للحراس أو للسجناء الآخرين. سوف نستكشف بشكل أعمق التأثيرات المدمرة لنزع الإنسانية عندما تتصل بالانفصال العاطفي في الفصل الثالث عشر.

الصدفة تشعّ بنورها على تجربة سجن ستانفورد

ما حوّل تجربتنا إلى نموذج شديد الأهمية لسيكولوجيا الشر هو ما وقع من أحداث مثيرة غير متوقعة بعد انتهاء التجربة بوقت قصير، مذبحة في سجن سان كوينتين بكاليفورنيا وأخرى في منشأة نيويورك الإصلاحية. ساعدت تلك الواقعتان على إبراز تجربةٍ أكاديميةٍ صغيرةٍ صُمّمت لاختبار المفهوم النظري لقوة الظرف. سأوجز الجوانب الأساسية فحسب لهاتين الواقعتين وتأثيرهما على تجربة سجن ستانفورد وعليّ شخصيًّا. رجاءً انظر (www.lucifereffect.com) لمعالجة أكمل للتفاصيل مع الصعود المتزامن لحزب الفهود السوداء وجماعة ويذر الأصولية (Weather).

بعد انتهاء التجربة بيوم واحد قُتل عدد من الحراس والسجناء في سجن سان كوينتين في محاولة هروب مزعومة تزعمها الناشط السياسي جورج جاكسون، وبعد ثلاثة أسابيع على الجانب الآخر من الدولة في نيويورك؛ تمرد السجناء في سجن أتيكا (Attica)، سيطروا على السجن واحتجزوا حوالي أربعين حارسًا وموظفًا مدنيًّا رهائن لمدة خمسة أيام، وبدلًا من التفاوض على مطالب السجناء بتغيير الأوضاع القمعية واللاإنسانية التي يتعرضون لها أمر عمدة نيويورك نيلسون روكفيلير (Neslon Rockfeller) القوات باستعادة السجن بما يلزم من وسائل، فقتلوا أكثر من أربعين سجينًا ورهينة في ساحة السجن وجرحوا كثرًا آخرين. وضع التقارب الزمني بين هاتين الحادثتين سجننا في بؤرة الأحداث، ودعيت لتقديم شهادات في العديد من اللجان بناءً على ما شاهدته وعرفته في تجربة سجن ستانفورد والسجون بشكل عام، وأصبحت أيضًا شاهدًا خبيرًا لستة من السجناء الذين تورطوا في مذبحة سجن سان كوينتين، وفي نفس الوقت قرر مسؤول إعلامي رآني في مناظرة مع آمر سجن سان كوينتين أن يصور فيلمًا تسجيليًّا عن تجربة سجن ستانفورد للتلفزيون الوطني (NBC) برنامج (Chronolog) في نوفمبر ١٩٧١م. ثم أجري لقاء مع مجلة، وهكذا استمرت تجربة سجن ستانفورد.

وضع تجربة سجن ستانفورد في إطار روح عصرها

حتى نحسن تقدير تحولات شخصيات الطلبة السجناء أو الحراس التي أحدثتها تجربتهم في سجننا الوهمي فمن الأفضل أن نستدعي روح هذا العصر، عصر نهاية الستينات وبداية السبعينات. كان وقت رفض السلطة، و«عدم الثقة في أي شخص يتجاوز الثلاثين من عمره»، ومعارضة «الجيش - المؤسسات الصناعية»، والمشاركة في مسيرات ضد الحرب، والمشاركة في قضايا الحقوق المدنية وحقوق المرأة، كان وقت تمرد الشباب على الامتثال المجتمعي والأبوي الذي قيد أهلهم في الخمسينيَّات، كان وقت تجربة الجنس والمخدرات وموسيقى الروك آند رول وإطلاق الشَّعر «وتركه يتدلى»، كان وقت أن تكون «هيبي» وأن تضم إلى ملتقيات «الهيبيز (be-in. love-in)»[1]، كان أيضًا وقت أن تكون «طفل زهور» من سان فرنسيسكو فتضع زهرة في شعرك، وأن تكون مسالمًا، وبالتحديد أن تُنادي بالفردانية، قدّم عالم النفس في هارفارد تيموثي ليري (Timothy Leary) [ت١٩٩٦م] وأحد أهم المفكرين المنظّرين لهذا الجيل وصفة ثلاثية للشباب في كل مكان: «لا تعيروا انتباهكم» للمجتمع التقليدي، «تحولوا» إلى المخدرات التي تغيّر العقول، «واهتموا» بطبيعتكم الداخلية.

انتشار ثقافة الشباب بتمردها الشديد على الظلم والقمع كان مرتكزًا على لا أخلاقية حرب فيتنام والأعداد اليومية المهولة من القتلى وعدم قبول الإدارة الاعتراف بخطئها والاستمرار سبع سنوات دامية. كانت تلك القيم في مهب الريح بين الحركات الشبابية الآسيوية والأوروبية، وكان الأوروبيون أكثر صلابة من الأمريكيين في مواجهة الأعراف والثوابت حيث تمردوا علانية على الأرثوذوكسية السياسية والأكاديمية، وفي معارضة مباشرة لما اعتبروه أنظمة حاكمة رجعية وقمعية؛ أحكم الطلبة في باريس وبرلين وميلان الحصون. كان العديد منهم اشتراكيين معارضين للشمولية الفاشية والشيوعية والقيود المالية البغيضة المفروضة على التعليم العالي.

مجموعة الطلبة الذين تطوعوا لدراستنا ينتمون لهذه الطبقة الشبابية المتمردة التي تحب أن تجرب بنفسها وترفض السلطة والإذعان، ربما كنّا ننتظر من الطلبة أن يكونوا أكثر قدرة على المقاومة، مقاومة الخضوع لسطوة «النظام» الذي فرضتُهُ عليهم، لم نتوقع أنهم سيتبنون هذه العقلية السلطوية عندما يصبحون حراسًا لأن أحدهم لم يكن ليختار دور الحارس لو تركنا لهم الحرية في ذلك، حتى الحارس القاسي هيلمان أراد دور السجين أكثر من الحارس لأنه وكما قال لنا: «معظم الناس يكرهون الحراس».

---

(١) ملتقيات الثقافات المضادة للثقافة السائدة، وكانت السمة الرئيسة لتلك الملتقيات هي المخدرات المهلوسة والجنس. (المترجم).

تقريبًا كل الطلبة كانوا يشعرون أن فرصة تحوّلهم إلى سجناء أقرب من فرصة تحولهم إلى حراس في المستقبل لأنهم لم يذهبوا إلى الجامعة لكي يصبحوا حراس سجن، ومن الممكن أن يقبض عليهم بسبب أي انتهاك يومًا ما، وقد ذكرت هذا لأشير إلى عدم وجود ميول أوليّة لدى من عُيّنوا في دور الحرّاس ليكونوا مُعتدين أو متسلطين بالصورة التي أصبحوا عليها، لم يأتوا إلى تجربة سجن ستانفورد بأية ميول لإيذاء الآخرين أو الاعتداء أو التسلط عليهم. لو أتوا إلى سجننا بشيء يُذكر فربما كان الاهتمام بالآخرين وفق ما تعارف عليه المجتمع في ذلك العصر. من المهم أن نبقي هذه الثقافة الزمانية والسياق الثقافي في أذهاننا ونحن ننظر في محاولات الاستنساخ اللاحقة لدراستنا من قبل باحثين في مجالات مختلفة تمامًا.

لمَ الأنظمة هي الأكثر أهمية؟

أهم درس تعلمناه من تجربة سجن ستانفورد هو أن الظروف يخلقها النظام، والنظام يوفر الدعم المؤسسي والصلاحيات والمصادر التي تسمح للظروف بأن تعمل وفق تلك الطرق. بعد أن أوجزنا الخصائص الظرفية لتجربة سجن ستانفورد اكتشفنا أن هناك سؤالًا رئيسيًّا نادرًا ما يطرح: من أو ما الذي جعل الظرف هكذا؟ من لديه القدرة على صناعة البيئة السلوكية والحفاظ عليها؟ وبناءً عليه فمن يمكن أن يتحمل مسؤولية النتائج؟ من يحصل على التقدير في حالة النجاح، ومن يُلام على الفشل؟ تكون الإجابة سهلة في حالة تجربة سجن ستانفورد، أنا المسؤول! لكن التوصل إلى هذه الإجابة لا يكون بهذه السهولة عندما نتعامل مع مؤسسات معقدة، كما في فشل منظومة تعليمية أو إصلاحية أو فساد شركات عملاقة أو النظام الذي صنع سجن أبو غريب.

تتضمن أنظمة السلطة الصلاحية أو التصريح المؤسسي بتصرف الأفراد وفقًا لما هو محدد لهم أو منع ومعاقبة ما يخالفه، يوفر النظام «سلطة عليا» تعطي صلاحية لعب أدوارٍ جديدة واتباع قواعد جديدة وتبني تصرفات يقيدها القانون والعرف والأخلاق في الغالب، وتأتي الصلاحية بتحديد هذه القواعد أكثر الأحيان متسترةً بعباءة الأيديولوجيا، والأيديولوجيا بدورها هي رمزٌ أو شيءٌ مفترضٌ الهدف منها هو تقنين وإضفاء الشرعية على أية وسيلة تفيد في تحقيق الغاية النهائية المرغوبة. الأيديولوجيا هي «الكبير» الذي لا يعارضه أحد أو يشكك فيه لأن هذا الكبير بالنسبة للغالبية في أزمنة وأماكن معيّنة يكون بوضوح على حق. من في السلطة يقدمون برنامج العمل على أنه صالح ونبيل في غايته وأنه ضرورة ذات قيمة أخلاقية عالية.

تصبح البرامج والسياسات والإجراءات القياسية التي تصمّم لتأييد الإيديولوجيا في

ذاتها مكونًا ضروريًا في بنية النظام، وتعدّ أية إجراءات يتخذها النظام منطقية وملائمة عندما تصبح الأيديولوجيا مقدسة.

في ذلك العصر الذي حكمت فيه الطغمة العسكرية حول العالم من البحر الأبيض إلى أمريكا اللاتينية في الفترة من الستينيات إلى السبعينيات؛ كان الحكام الديكتاتوريون يجمّلون دعوتهم إلى حمل السلاح بقولهم أنه دفاع ضروري في وجه خطر الاشتراكيين والشيوعيين الذي «يُهدِّد الأمن القومي»، فقادت نية هؤلاء القادة في إزالة هذا الخطر إلى ضرورة إجراء عمليّات تعذيب تقرّها الدولة من قبل الشرطة العسكرية والمدنية، وإلى شرعنة الاغتيالات التي قامت بها فرق القتل ضد كل من يشتبه بكونهم «أعداء الدولة».

نفس التهديدات المزعومة للأمن القومي في الوقت الحاضر في الولايات المتحدة أرعبت المواطنين وقادتهم إلى قبول التنازل طواعية عن بعض الحقوق المدنية الأساسية من أجل وَهْم الأمن. هذه الأيديولوجيا بدورها أصبحت مبرر العدوان العسكري على العراق. هذه الأيديولوجيا من صنع النظام الحاكم، وخلقت بدورها نظامًا فرعيًّا جديدًا لإدارة الحرب وإدارة الأمن الوطني وإدارة السجون العسكرية أو غيابها كأمر اعتيادي في التخطيط الجاد لما بعد الحرب.

كان من المفترض أن يساعدني إعجابي الأكاديمي بأساليب التحكم في العقول المسطورة في رواية جورج أورويل (١٩٨٤م)[(١)] على رؤية سلطة النظام من قبل التجربة من خلال حياتي المهنيّة. «الأخ الأكبر»[(٢)] هو النظام الذي يسحق قدرة الفرد على المبادرة ويقاوم هذا التطفل في النهاية. استمرت النقاشات حول تجربة سجن ستانفورد لسنوات عديدة في إغفال تحليل النظام لأن الموضوع الأساسي كان الصراع بين الأساليب التي تعتمد على النوازع الشخصية وبين تلك التي تعتمد على المؤثرات الظرفية في فهم السلوك الإنساني، ولم تظهر أية تحليلات تتناول النظام إلا بعد أن اشتركت بشكل شخصي في دراسة ديناميكيات الاعتداءات المنتشرة في العديد من السجون العسكرية في العراق وأفغانستان وكوبا.

أوضح لنا الفيزيائي الحائز على جائزة نوبل ريتشارد فيمان (Richard Feyman) أن مأساة المركبة الفضائية تشالنجر لم تكن بسبب خطأ بشري ولكن بسبب مشكلة منهجية عند

---

(١) P. G. Zimbardo, "Mind Control in Orwell's a948: Fictional Concepts Become Operational Realities in Jim Jones' Jungle Experiment," in *1984 Orwell and Our Future*, eds. M. Nussbaum, J. Goldsmith, and A. Gleason (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005). Pp. 127-54.

(٢) (Big Brother) الأخ الأكبر: استعارة من رواية جورج أورويل الشهيرة ١٩٨٤م، ويقصد بها أية مؤسسة أو شخص له سيطرة كاملة على حياة الأفراد الخاضعين لهذه السلطة. (المترجم).

«الإدارة الرسمية». أصرت الإدارة العليا في ناسا على الإطلاق على الرغم من شكوك المهندسين الذين عبروا عن تخوفهم من صُنَّاع إحدى المكونات المهمة (والتي اتضح أنها فعلًا سبب الكارثة). يقول فيمان: «ربما كان دافع وكالة ناسا هو الرغبة في تأكيد كفاءتهم للحكومة لضمان الدعم المالي»[1]. في الفصول الأخيرة سنتبنى الرأي القائل بأن النظام والموقف لهما وزنهما في فهم الأخطاء التي وقعت في تجربتنا، وكذلك في أبو غريب.

بعكس نظام ناسا الذي فشل عندما حاول الالتزام بشعار «أسرع، أفضل، أوفر»؛ نجح النظام النازي نجاحًا ساحقًا في عمليات القتل الجماعي حيث نجد هنا نظامًا متكامل الإحكام من أعلى لأسفل، مجلس هتلر الاستشاري، والسياسيين الاشتراكيين القوميين، وأصحاب البنوك، وأفراد الشرطة السرية النازية (الجيستابو)، وقوات كتائب الحماية (الشوتزشتافل)، والمهندسين، والأطباء، والمعماريين، والكيميائيين، والمشتغلين بالتعليم، وسائقي القطارات، وكُثُر غيرهم، كل منهم يقوم بمهمته في محاولة مكثفة للقتل الجماعي لليهود وأعداء الدولة الآخرين عبر أرجاء أوروبا.

كان عليهم بناء معسكرات الاعتقال مع معسكرات القتل والمحارق المصممة خصيصًا وتحسين كفاءة الغازات السامة أيضًا، كان على متخصصي الترويج والإعلان تصميم حملات في الأفلام والصحف والمجلات والصور التي تحقِّر اليهود على أساس أنهم يمثّلون خطرًا على الأمن القومي، وكان على المعلمين والمبشرين تجهيز الشباب ليصبحوا نازيين مطيعين طاعة عمياء قادرين على تبرير «الحل النهائي مع اليهود»[2].

طوّروا لغة جديدة بكلمات لا تبدو مؤذية ولكنها تخفي حقيقة وحشية الإنسان وقدرته على التدمير: [(Sonderbehandlung) المعاملة الخاصة، (Sonderaktion) الأفعال الخاصة، (Umsiedlung) إعادة التسكين، (Evakuierrung) الإخلاء]. «المعاملة الخاصة» كان الاسم الحركي للقتل ويختصر أحيانًا إلى (SB) لزيادة الفاعلية، وقد أوجز رئيس كتائب الحماية (الشوتزشتافل) رنهارد هيدريك المبادئ الرئيسية للأمن أثناء الحرب سنة ١٩٣٩م في تصريحه: «يجب أن نفرق بين من نعاملهم بالطرق العادية ومن تجب معاملتهم بطريقة خاصة [Sonderbehandlung]، أما الحالة الثانية فهم أصحاب طبيعة متمردة ويمثّلون خطرًا ويمكن

---

(١) اقتباس من ملحق فيمان (*Feynman*) في تقرير لجنة روجير (*Roger*) عن كارثة مركبة الفضاء، تشالنجر (*Challenger*). انظر نقاشه حول هذه التجربة في المجلد الثاني من سيرته الذاتية:

What do You Care What Other People Think? Further Adventures of a Curious Character

كما رواها لرالف ليتون (*Ralph Leighton*):

(New York: Norton, 1988).

(٢) G. Ziemer, *Education for Death: The Making of the Nazi* (New York, Farrar, Staus and Giroux, 1972).

استخدامهم كوسائل دعاية للعدو، ولهذا فهم مناسبون للقتل بلا أي احترام لشخوصهم وذلك بمعاملة خاصة لا رحمة فيها»[1].

بالنسبة للأطباء النازيين الذين وكّلوا بمهمة انتقاء السجناء للقتل أو التجارب؛ فدائمًا ما وُجد سؤال يتعلق بولاء آخر، «قَسَمي الولاء المتعارضين، تعارضٌ بين القتل الهمجي وبين لحظات الطيبة العابرة التي يمرّ بها الأطباء النازيون والتي كانت تظهر بشكل متواصل أثناء عملهم في الأوشفيتز، ولأن الفجوة بين هذين القَسَمين لم تتناقص؛ كان استمرار هذا الشعور المتناقض جزءًا أساسيًّا من الحالة النفسية العامة لأطباء معسكرات الشوتزشتافل التي مكنتهم من القيام بعملهم القاتل، أصبح الطبيب مندمجًا في نظام ضخم قاسٍ شديد الكفاءة... كان نجاح معسكرات الأوشفيتز عملًا جماعيًّا»[2].

---

(١) E. Kogon, J. Langbein, and Ruckerl, eds., *Nazi Mass Murder: A Documentary History of the Use of Poison Gas* (New Haven, CT: Yale University Press, 1993), pp. 5, 6.

(٢) Lifton, *The Nazi Doctors*, pp. 212, 213.

الفصل الحادي عشر

تجربة سجن ستانفورد، الأخلاقيات والامتدادات

«أبعدنا في الارتحال، وغدونا تحت رحمة زخم المسير، نمضي نحو الأبدية ولا ندري لِم، ليس بملكنا التوقف، ولا مطمع في تفسير»

توم ستوبارد
(Tom Stoppard, *Rosencrantz and Guildenstern*, 3, 1967)

رأينا كيف سيطر زخم الحركة التي ولّدها سجن ستانفورد المُقلّد على حياة أولئك القابعين بين جدرانه لتدفعهم في الغالب نحو الأسوأ. أجبت في الفصل السابق بصورة تقريبية عن سؤال كيف يمكن أن يتحوّل الناس جذريًّا وبسرعة، وأوضحت بشكل خاص كيفية عمل الضغوط الظرفية والنظامية معًا في الوقت نفسه لإفساد الطبيعة الإنسانية.

لم يكن وصف «التفاحات الفاسدة» في الوعاء الجيد ينطبق على الشبان المشاركين في بحثنا؛ بل على العكس، فقد أكّد تصميم تجربتنا على كونهم تفاحات صالحة في الأصل أفسدتها القوة الخبيثة لوعائنا الفاسد، لهذا السجن. كان سجن ستانفورد مكانًا صحيًّا نسبيًّا مقارنة بالطبيعة السامّة والمميتة للسجون المدنية والعسكرية الحقيقية. التغيرات التي طرأت على المتطوعين المشاركين من حيث كيف فكروا وشعروا وتصرفوا كانت نتيجة لعمليات نفسية معروفة تؤثّر فينا جميعًا بطرق مختلفة في مواقف متنوعة وإنْ بشكل غير مكثّف أو موسّع أو متواصل، لقد تورطوا في «ظرف شامل» يفوق تأثيره تأثير أغلب المواقف العادية التي نتعرض لها ونتقحّمها أو نخرج منها بشكل متكرر حسبما نشاء[1].

---

(١) إن مفهوم «الظرف الشامل» بمعنى الظرف الذي يُحدث تأثيرًا قويًا على فعّالية الإنسان، هو المفهوم الذي أورده إرفينج جوفمان لوصف تأثير المؤسسات على المرضى العقليين والسُجناء، كما استخدمه روبرت جاي ليفتون، لوصف مدى قوة تأثير الأساليب التي استخدمها النظام الشيوعي الصيني في الاستجوابات. الظرف الشامل هو الظرف الذي يُحاصر في داخله الفرد على المستويين العقلي والنفسي لدرجة أن جميع المعلومات وأنظمة المُكافأة الخاصة بالفرد تنحصر داخل سياق ذلك الظرف وتنفصل عن أي شيء خارجه. قمت مع كريج هاني بتوسيع المفهوم ليشمل المدارس الثانوية التي تشبه أنظمة تشغيلها السجون في بعض الأحيان. انظر: =

خذوا بعين الاعتبار إمكانية أن يكون كل منا طاهرًا أو عاصيًا، أنانيًا أو كريمًا، رقيقًا أو قاسيًا، تابعًا أو مسيطرًا، عاقلًا أو مجنونًا، طيّبًا أو شريرًا. ربما وُلِدْنا بِسَعةٍ كاملة من القدرات التي ينشط كل منها ويتطور بحسب الظروف الاجتماعية والثقافية التي تحكم حياتنا. أنا أجادل عن القول بأن الانحراف يمكن أن تؤدي إليه العمليات ذاتها التي تجعل البشر يفعلون أشياء رائعة. كلٌّ منا هو المنتج النهائي لعمليات التطوير والتخصيص التي امتدت عبر ملايين السنين من التطوّر والنموّ والتكيّف والتأقلم، لقد وصل جنسنا إلى مكانته المميّزة على الأرض بسبب قدرتنا الخاصة على التعلُّم واستخدام اللغة والتعقل والابتكار وتصوّر مستقبل جديد أفضل، كل كائن بشري يمتلك القدرة على صقل مهاراته ومواهبه وسماته لنرتقي إلى ما هو أعلى من مجرد البقاء، لنصل إلى الازدهار وتحسين أوضاعنا بصفتنا بشرًا.

فساد معتقد الكمال الإنساني

هل من الممكن أن يكون مصدر بعض شرور العالم أشخاصٌ عاديون عملوا في ظروف استثارت السوء في طبائعهم؟ فلنُجِبْ عن هذا السؤال ببعض الأمثلة العامة ثم نُعِد التركيز على العمليات البشرية الطبيعية الفاعلة في تجربة سجن ستانفورد. تمكننا الذاكرة من الاستفادة من أخطائنا والبناء على ما تعلّمناه لنبني مستقبلًا أفضل، لكنها أيضًا سبب الضغائن والرغبة في الانتقام والعجز المكتسب وإعادة اجترار الصدمة بما يغذّي الاكتئاب. على نحو مماثل فإن قدرتنا المذهلة على استخدام اللغة والرموز تمكننا من التواصل مع الآخرين بشكل شخصي أو تجريدي متجاوزين عقبات الزمان والمكان، توفّر لنا اللغة أساس التاريخ والتخطيط والتحكم الاجتماعي، لكن مع اللغة أيضًا تأتي الشائعات والأكاذيب والدعاية المغرضة والصور النمطية والقواعد القهرية، تقودنا عبقريّتنا الإنسانية إلى إبداع المؤلفات الأدبية والمسرح والموسيقى والعلوم والاختراعات مثل الكمبيوتر والإنترنت، ومع ذلك فإن هذه العبقرية نفسها يمكن أن تنحرف لتخترع غرف التعذيب وتقنياته، لتنتج الأيديولوجيات المريضة والأنظمة النازية الفعالة في إحداث دمار شامل. أيٌّ من سماتنا المميّزة يمكن أن تجد نقيضها المظلم كما في ثنائيات الحب والكره، الفخر والغرور، تقدير الذات ومقتها[1].

= E. Goffman, *Asylums Essays on the Social Situation of Mental Patients and Other Inmates* (New York: Doubleday, 1961); R. J. Lifton *Thought Reform and Psychology of Totalism* (New York: Norton, 1969); Haney and P. G. Zimbardo, "Social Roles, Role -Playing and Education: The High School as Prison," *Behavioral and Social Science Teacher*, vol. 1 (1973): 24-45.

(١) P. G. Zimbardo, *Psychology and Life*, 12[th] ed. (Glenview, IL: Scott, Foresman, 1989). Table "Way We Can Go Wrong" p. 689.

الاحتياج الإنساني الأساسي إلى الانتماء يأتي من الرغبة في الالتحاق بالآخرين، في التعاون، وفي قبول قوانين الجماعة، لكن تجربة سجن ستانفورد تظهر أن الحاجة إلى الانتماء يمكن أن تنحرف هي الأخرى لتتحوّل إلى امتثال مفرط وخضوع وربما إلى العداء بين «الجماعة الداخلية» و«الجماعة الخارجية»[1]. الحاجة إلى الاستقلالية والسيطرة اللتين تُعدّان القوتين المحوريّتين لتوجيه الذات والتخطيط؛ يمكن أن تنحرف لتصبح عجزًا أو ممارسة متطرفة للسيطرة على الآخرين.

دعونا ننظر في ثلاث حاجات إنسانية أخرى يمكن أن تذهب بنا في طريقين متناقضين:

أولًا: الحاجة إلى الاتساق مع الذات والعقلانية تمنحنا الحياة الطيبة المفعمة بالمعنى، لكن الالتزامات المتناقضة تجبرنا على احترام وعقلنة القرارات الخاطئة مثل بقاء السجناء عندما كان عليهم الانسحاب، وتبرير الحراس لإساءاتهم.

ثانيًا: الحاجة إلى معرفة وفهم بيئتنا وعلاقتنا بها تقودنا إلى الفضول والاكتشافات العلمية والفلسفة والعلوم الإنسانية والفنون، لكن البيئة المتقلّبة والعشوائية التي لا تُعقل ستكون قادرة على حَرْف هذه الاحتياجات الأساسية بما يقود إلى الإحباط والانعزال (كما حدث مع سجنائنا).

وأخيرًا، فإن الحاجة إلى الدوافع تُحفز الرحلات الاستكشافية والمغامرات والمخاطرات، لكنها تجعلنا كذلك معرّضين للإصابة بالضجر إذا ما وُضعنا في بيئة ساكنة، والضجر بدوره يمكن أن يصبح محفزًا قويًا للفِعل كما رأينا مع حراس نوبة الليل في تجربتنا حيث كانوا يمرحون بألعابهم، بالسجناء.

لكن دعوني أوضح نقطة فاصلة، فهْم «سبب» ما قد حدث ليس «بمسوِّغ» لما حدث، التحليل النفسي لا يهدف إلى اختلاق أعذار، وعلى الأفراد والجماعات الذين يُقدِمون على أفعال غير أخلاقية أو غير قانونية تحمُّل المسؤولية والخضوع للمحاسبة القانونية على ما تورطوا فيه، لكن تقدير شدة العقوبات المُنزلة بهم ينبغي أن تُراعى فيه القوى الظرفية والنظامية التي تسببت في مثل هذا السلوك[2].

في الفصلين التاليين سنتجاوز تجربة سجن ستانفورد لننظر في مجموعة كبيرة من

---

(1) (In-Group) جماعة داخلية: وهي الجماعة التي يعدّ الفرد ذاته جزء منها؛ (Out-Group) جماعة خارجية: هي جماعة اجتماعية لا يعد الفرد نفسه جزء منها. ويكون شعور الانتماء للمجموعة أو عدم الانتماء لها على أسس دينية، عرقية، جنسية، عمرية... إلخ. (المترجم).

(2) L. Ross and D. Shestowsky, "Contemporary Psychology's Challenges to Legal Theory and Practice," Northwestern Law Review 97 (2003): 108-14.

الأبحاث السيكولوجية التي تكمّل وتوسّع الأدلة التي طرحناها حتى الآن عن تأثير الضغوط الظرفية في تشكيل تفكير الإنسان وأفعاله. علينا قبل المضي قُدُمًا أن نعود إلى الوراء حتى نعالج بعض القضايا النهائية المفصلية التي أثارتها هذه التجربة. أولًا، وقبل كل شيء، هل استحق الأمر هذه المعاناة؟ لا شك في أن المشاركين في هذه التجربة قد عانوا بشدة، وكان على أولئك الذين تسببوا في هذه المعاناة أيضًا أن يدركوا أنهم تجاوزوا متطلبات دورهم إلى التسبب في إيلام وإذلالٍ لآخرين امتد لساعات في النهاية، لذلك فإن أخلاقيات هذه التجربة ومثيلاتها تحتاجُ أن يُنظر فيها بتأنٍ.

ليست الفضيلة كما قدّمها دانتي في (الكوميديا الإلٰهية: الجحيم) مجرد التنزّه عن المعاصي، سأناقش هنا كيف لعب العجز عن الفعل دوره في تجربة سجن ستانفورد. في الفصل التالي سأتعامل مع التأثيرات الأوسع للعجز عن الفعل في المجتمع، كحين يخفق المارة في التدخل عندما يكون تدخلهم ضروريًا.

بالإضافة إلى معالجة الأخطاء الأخلاقية للتقصير ومعالجة قضية الأخلاقيات المطلقة يجب أن نُركّز عميقًا في الأخلاقيات النسبية التي تسترشد بها أغلب الأبحاث العلمية. إن تحقيق التوازن في معادلة الأخلاقيات النسبية يتطلب موازنة المعاناة بالمكاسب، هل عادلت المعاناة التي تحملها المشاركون في هذه التجربة المنفعة العائدة على العلم والمجتمع من هذا البحث؟ بكلمات أخرى؛ هل تبرر الغاية العلمية الوسائل التجريبية؟ على الرغم من وجود الكثير من النتائج الإيجابية لهذه الدراسة إلا أن على القارئ أن يقرر بنفسه ما إذا كان ينبغي الشروع في مثل هذه الدراسة أم لا.

الأبحاث التي تستفز الأفكار تثمر أبحاثًا أخرى وتفتح المجال للتوسع وهو ما فعلته تجربة سجن ستانفورد. بعد التدبر في أخلاقيات تجربة سجن ستانفورد سنراجع بإيجاز بعض التطبيقات والتجارب المشابهة لهذه الدراسة وهو الأمر الذي سيمنحنا تقديرًا أفضل لأهميتها.

خواطر أخلاقية حول تجربة سجن ستانفورد

هل كانت تجربة سجن ستانفورد لاأخلاقية؟ الإجابة هي «نعم» بكل تأكيد من عدة أوجه، لكن هناك أوجه أخرى للنظر في هذا البحث تجعل من «لا» جوابًا منطقيًا. قبل النظر في الأدلة الموجودة في هذه التحليلات الاسترجاعية التي تؤيد كلًا من الإجابتين؛ أحتاج إلى توضيح سبب مناقشتي لهذه الأمور بعد عقود من بدء الدراسة وانتهائها، أعتقد أنني بالتركيز على هذه القضايا الأخلاقية سأتمكن من إضافة منظور أوسع من المعهود لهذا النقاش، قد يستفيد باحثون آخرون بتجنب الوقوع في نفس الشراك التي سقطنا فيها إذا ما

أصبحوا واعين ببعض إشارات الخطر الواضحة، وبالانتباه أكثر كذلك للاحتياطات الأخلاقية التي أبرزتها تجربة سجن ستانفورد. سأستخدم هذا البحث كوسيلة لتوضيح تعقيد الأحكام الأخلاقية المتضمَّنة في بحثٍ يتطلب التدخل في الكيفية التي يتصرف وفقها الإنسان بدون أن أتبنى موقفًا دفاعيًا أو أن أبرّر دوري في هذه الدراسة.

المبادئ الأخلاقية المطلقة

بهدف الإيجاز يمكن تقسيم المبادئ الأخلاقية إلى فئتين، «مطلقة» و«نسبية». حين نقول أن سلوكًا ما يتبع معايير أخلاقية مطلقة فثمة حينها مبدأ أخلاقي عالٍ لا يتغيّر أيًّا كانت الحيثيات من زمان أو ظروف أو أشخاص أو منفعة، وتتجسد هذه المبادئ الأخلاقية المطلقة في قواعد مجتمعية للسلوك.

يفترِض المعيار الأخلاقي المطلق قداسة الحياة الإنسانية، ولهذا لا يجب تحقير شأنها بأية طريقة ولو بغير قصد. في حالة البحث العلمي فلا مبرر هنالك لأية تجربة تسبب بالمعاناة للبشر، وبناءً على هذا الرأي فإن من المنطقي التمسُّك بعدم إجراء أي بحث نفسي أو طبّي ينتهك السلامة النفسية أو البيولوجية لأي إنسان مهما كانت فائدته العائدة على المجتمع بأكمله محتملة أو أكيدة.

أولئك الذين يتبنون هذه الرؤية يجادلون عن أن تلك الأمور التي تسبب المعاناة وإن كانت تجري باسم العلم أو في سبيل المعرفة أو الأمن القومي أو أي من هذه العناوين الرنّانة؛ فإنها تظل غير أخلاقية. في مجال علم النفس فإن هؤلاء الذين عُرفوا مؤخرًا بأصحاب التقليد الإنساني هم الأعلى صوتًا في المحاججة عن أن الهمّ الأساسي المتعلق بكرامة الإنسان ينبغي أن يُقدّم على الأهداف المعلنة للمجال؛ أي: التنبؤ بالسلوك والتحكُّم فيه.

تجربة سجن ستانفورد كانت بالقطع لا أخلاقية

على أساس هذه المبادئ الأخلاقية المطلقة فيجب الحكم على تجربة سجن ستانفورد بكونها غير أخلاقية، ذلك أنها جعلت مجموعة من البشر يتعرضون لقدر كبير من البؤس، كانت المعاناة التي تعرضوا لها أكبر بكثير من توقعاتهم عندما تطوعوا في البداية لدراسةٍ أكاديميةٍ عن «حياة السجن» تجريها جامعة مرموقة، بالإضافة إلى تصاعد هذه المعاناة بمرور الوقت وانتهائها إلى كرب شديد واضطراب عاطفي اضطررنا معه إلى الإفراج عن خمسة من السجناء اليافعين الأصحاء مبكرًا.

عانى الحراس أيضًا من إدراكهم شناعة ما ارتكبوه مستترين بأدوارهم من خلف النظارات المستخدمة للحجب، أمكنهم أن يروا ويسمعوا الألم والإذلال الذي تسببوا به

لزملائهم الذين لم يرتكب أحدهم ما يستحق عليه مثل هذه القسوة. إدراكهم للتعديات المفرطة في حق السجناء والتي لا يمكن إنكارها؛ كان أشد وقعًا عليهم بكثير من الاكتئاب الذي تعرض له المشاركون في بحث ستانلي ميلغرام عن «الطاعة العمياء للسلطة»، والذي سنبحثه بعمق في الفصل القادم[1]. طُعن في بحث ميلغرام بوصفه بعدم الأخلاقية[2]؛ لأن المشاركين كانوا متصوّرين لقدر الألم الذي كان من المفترض أن يتسببوا به أثناء صعقهم «ضحيتهم» البعيدة عنهم، «الدارس»[3]، لكن بمجرد انتهاء الدراسة اكتشفوا أن «الضحية» في الحقيقة كانت شريكًا في التجربة لم يتعرض لأي أذى ولكنه تظاهر بذلك فحسب. كان سبب اكتئابهم هو وعيهم بما كانوا سيتسببون به لو كان الصعق حقيقيًّا، لكن ـ وعلى النقيض ـ فإن الاكتئاب الذي تعرض له الحراس كان بسبب إدراكهم أن «الصعق» الذي مارسوه كان حقيقيًّا تمامًا، مباشرًا، ومتواصلًا.

ثمة خصيصة أخرى لهذه الدراسة يمكن أن تدمغها باللاأخلاقية هي عدم إعلام الطلبة الذين عُيّنوا في أدوار السجناء مُسبقًا بطبيعة الاعتقالات التي ستجري والتسجيل الرسمي في مقرات الشرطة، أو إعلام آبائهم الذين فاجأهم الحراس يوم الأحد بتدخل غير متوقع في حياتهم. أسأنا أيضًا في تلاعبنا بأولياء الأمور وجعلهم يظنون أن وضع أبنائهم ليس بالسوء الذي كان عليه عن طريق الإجراءات الخادعة التي أعملناها أيام الزيارة. لو تذكرون فقد كنا نخشى أن يعود أولياء الأمور بأبنائهم حال تحققهم من الطبيعة المؤذية لسجننا المُقلّد، ومن أجل إحباط أية إمكانية لمثل هذا والذي من شأنه أن ينهي الدراسة؛ جهزنا لهم «تمثيلية»، فعلنا هذا لا من أجل الحفاظ على سير العمل في السجن فحسب؛ ولكن كجزء أساسي من المحاكاة أيضًا، حيث أن هذا الخداع عادةً ما يحدث في كثير من السجون التي تخضع لمساءلة لجان المراقبة، حيث يقابل مسؤولو النظام الشكاوى والمخاوف حول الجوانب السلبية لوضعهم بفَرْش بساط أحمر جميل في ردهة الاستقبال.

هناك سبب آخر أيضًا لاعتبار تجربة سجن ستانفورد غير أخلاقية وهو الإخفاق في إنهاء الدراسة مبكرًا عن الوقت الذي أنهيناها فيه، كان عليّ إنهاؤها فور تعرض ثاني السجناء لاضطراب شديد في اليوم الثالث من التجربة، كان هذا كافيًا للدلالة على أن داج

(١) S. Milgram, *Obedience to Authority* (New York: Harper & Row, 1974).

(٢) واجه ميلغرام هجوماً بسبب ذلك، إلا أن نشر نتائج تجربة سجن ستانفورد خفّف من الضغط النقدي على ميلغرام، يروي زمباردو في فيلم وثائقي بعنوان «تجارب في السلوك الإنساني»، أن ميلغرام شكره شخصيًا وقال له: «لقد أزحت عني جانبًا من الغضبة الأخلاقية التي تعرضت لها». (المحرر).

(٣) D. Baumrind, "Some Thoughts on Ethics of Research: After Reading Milgram's 'Behavioral Study of Obedience,' *American Psychologist* 19 (1964): 421-23.

٨٦١٠ لم يكن يصطنع انهيارًا عاطفيًا في اليوم السابق، كان يجب علينا أن نتوقف في كل مرة يتعرض فيه سجين لاضطراب عنيف لكننا لم نفعل، لكن مع ذلك فقد كنت على الأرجح سأنهي الدراسة يوم الأحد بعد انتهاء الأسبوع «كنهاية طبيعية»، حتى إن لم تتدخل كريستينا تفرض إنهاءً مبكرًا، ربما كنت سأنهيها بعد أسبوع لأنني وفريق عملي الصغير كيرت بانكس وديفيد جافي كنا منهكين من العمل على مدار الساعة ومن الحاجة المستمرة في تحجيم اعتداءات الحراس.

في وقت لاحق وجدت أن السبب الحقيقي لعدم إنهائي الدراسة مبكرًا عندما بدأت تخرج عن السيطرة هو الصراع في داخلي بسبب دوري المزدوج كباحث رئيس ومن ثم حامي أخلاقيات البحث في التجربة، ومن جهة أخرى كرئيس للسجن مهووس بالحفاظ على أمنه واستقراره أيًا يكن الثمن. أود تصديق أنني لو كنت أراقب شخصًا آخر يؤدي دور رئيس السجن لكنت لاحظت دلالات الخطر وقرعت جرس الإنذار مبكرًا. أعي الآن أنه كان من الضروري وجود سلطة أعلى مني مسؤولة عن مراقبة مسار التجربة.

أشعر بمسؤوليتي عن خلق مؤسسة سمحت بمثل هذه الاعتداءات في سياق «علم نفس السجون». نجحت التجربة تمامًا في خلق بعض الأمور التي كانت أكثر سوءًا في السجون الحقيقية، لكن النتائج كانت على حساب معاناة البشر. أعتذر عن هذا وحتى يومنا هذا أتأسف لمساهمتي في هذه اللاإنسانية.

المبادئ الأخلاقية النسبية

تتبع أغلب الأبحاث نموذجًا أخلاقيًا نفعيًا، عندما يسمح مبدأ أخلاقي بتجاوزه من أجل بعض التطبيقات العارضة يُصبح نسبيًا، ويُحاكَم وفقًا لمعايير براغماتية تُوزن بحسب ما تقدمه التطبيقات من منفعة، ومن الواضح استرشاد هذا البحث بمثل هذا النموذج مثله مثل أغلب التجارب النفسية، لكن ما هي العناصر التي يجب أن نوليها اهتمامنا في معادلة التكاليف مقابل الأرباح؟ كيف ستوزن المنافع والمضارّ؟ من الذي سيحكم ما إذا كان الربح يكافئ الخسارة؟ تلك هي بعض الأسئلة التي يجب أن نواجهها إذا اعتبرنا أن المبادئ الأخلاقية النسبية؛ أخلاقية من الأساس.

تستند بعض الأجوبة إلى الرؤى التقليدية؛ كالوضع الحالي للمعارف المتعلّقة بالأمر، وجود حالات سابقة مشابهة، التوافق المجتمعي، قيم الباحث وإدراكه، ومستوى الوعي السائد في مجتمع معيّن في زمن معيّن، وتقوم المؤسسات البحثية والوكالات التي تمول الأبحاث وكذلك الحكومات بوضع خطوطٍ إرشادية رصينة وقيودٍ على الأبحاث البشرية الطبية وغير الطبية.

نجد في قلب المعضلة الأخلاقية لعلماء الاجتماع السؤال التالي: هل يمكن للباحث أن يوازن بين ما يعتقده ضروريًا لإجراء بحث مفيد اجتماعيًا أو نظريًا وبين ما يراه ضروريًا لحفظ صحة وكرامة المشاركين في البحث؟ حيث أن تحيزات الباحثين ستدفع بهم على الأرجح تجاه الأولى لا الثانية، يجب أن يعمل المراجعون الخارجيون وبخاصة لجان المراجعة التابعة للمؤسسات (IRBS) والمراجعون التابعون لجهات مانحة؛ كأمناء مظالم لصالح المشاركين في التجارب العاجزين نسبيًا، كما يجب أن يعمل هؤلاء المراجعون لصالح «العلم» و«المجتمع» في تحديد إمكانية السماح ببعض التحايل أو الانفعال العاطفي أو أية حالات أخرى غير مرغوب بها في التجربة وإلى أي مدى يمكن السماح بمثلها. هم يعملون على افتراض أن أي تأثير سلبي لمثل هذه الإجراءات هو تأثير مؤقت ولن يمتد إلى ما بعد انتهاء التجربة. دعونا ننظر كيف عملت تلك المصالح المتنافسة في تجربة سجن ستانفورد.

على الجانب النسبي من الأطروحة الأخلاقية قد يجادل أحدهم بأن تجربة سجن ستانفورد لم تكن «غير أخلاقية» بسبب ما يلي: تمت استشارة المجلس القانوني لجامعة ستانفورد وأصدروا «موافقة مسبقة» رسمية، كما أنهم حذّرونا عن متطلبات العمل والأمان والتأمين التي كان علينا الوفاء بها من أجل الموافقة على التجربة. «الموافقة المسبقة» التي وقع عليها جميع المشاركين نصّت على أن خصوصية المشارك قد تتعرض للانتهاك أثناء التجربة، وأنه قد يحصل على القدر الأدنى الكافي من الطعام، وأنه قد يفقد بعض حقوقه المدنية، وأن عليه توقُّع بعض التعديات. توقعنا من الجميع استكمال مدة الأسبوعين بأقصى طاقتهم. أخطرنا إدارة الرعاية الصحية للطلبة قبل بَدْء الدراسة لإعداد ترتيبات مسبقة حال استدعت الحاجة أي تدخل طبي لأي من المشاركين. حصلنا على موافقة رسمية مكتوبة من الوكالة الراعية للبحث، فرع فعالية المجموعة (Group Effectiveness Branch) التابع لمكتب الأبحاث البحرية (ONR)، وقسم علم النفس في جامعة ستانفورد، وكذلك لجنة المراجعة المؤسسية في الجامعة (IRB)[1].

بعيدًا عن إلقاء القبض على الطلبة من قبل الشرطة لم يكن هناك أي خداع لأي من المشاركين؛ بل قمت أنا وفريق عملي مرارًا بتذكير الحراس بعدم التعدّي على السجناء جسديًا، سواء أفرديًا أم جماعيًا، لكننا لم نبلغ بالمنع حد وقف العدوان النفسي.

هنالك عامل آخر يزيد من تعقيد تقييم مدى أخلاقية هذه الدراسة وهو أن سجننا كان مفتوحًا للغرباء الذين كان يُفترض بهم حماية حقوق المشاركين، تخيّل أنك كنت سجينًا

---

(١) انظر نسخة من (موافقة لجنة التجارب البشرية على المراجعة) على موقع: .www.prisonexp.org

يعاني في هذا المكان، لو كنت سجينًا عندنا؛ من الذي كنت سترغب بوجوده ليدعمك؟ من كان ليضغط على زرّ الخروج بدلًا منك إن لم تكن قادرًا على الضغط عليه بنفسك؟ هل سيكون القس الكاثوليكي/ قسّ السجن عندما رآك تبكي؟ لا أظن. ماذا عن أمك وأبيك، أصدقائك، وعائلتك؟ ألم يكونوا ليتدخلوا بعد ملاحظتهم تدهور حالتك؟ لم يفعل أي منهم هذا. ربما كان العون ليأتي من علماء النفس الكثر، وطلبة الدراسات العليا، أو السكرتاريا، أو فريق العمل في قسم علم النفس والذين شاهد بعضهم لقطات حية لأجزاء من دراستنا وشارك في جلسات استماع لجنة الإفراج المشروط أو تحدث إلى المشاركين أثناء اللقاءات أو عندما وضعوا في الخزانة أثناء فشلنا الذريع في حادثة «الاقتحام»؟ لم نأتِ أية نجدة من هذه المصادر.

كما قلنا، وقع كل من شارك في هذه التجربة في دور سلبي، قبلوا جميعًا طريقة تشكيلي للموقف والتي أعمتهم عن الصورة الحقيقية، وقاموا بعقلنة الموقف لأن المحاكاة بدت حقيقية أو بسبب واقعية أداء الدور أو بسبب تركيزهم الجزئي على التفاصيل الدقيقة للتصميم التجريبي. لم ير المشاركون العابرون في التجربة الكثير من الانتهاكات العنيفة أثناء حدوثها، ولم يرحب المشاركون الفاعلون بالكشف عنها بشكل كامل لغرباء عن المكان، ولا حتى لأصدقائهم المقربين وذويهم، ربما سيطر عليهم الخجل أو الزهو أو شيء من النزعة الذكورية، كثر أتوا ونظروا حولهم لكن لم يروا شيئًا ثم ذهبوا.

أخيرًا، الشيء الصحيح الذي فعلناه هو الشروع في استجواب موسع، لا لثلاث ساعات بعد التجربة فحسب، ولكن في مناسبات عديدة لاحقة حين عودة أغلب المشاركين مراجعة اللقطات المصورة ومشاهدة عرض شرائح الدراسة. حافظت على اتصالي بأغلب لمشاركين لسنوات عديدة بعد انتهاء التجربة، أرسل لهم نسخًا من مقالات، وشهاداتي في لمجالس النيابية، ولقطات مصورة من الأخبار، وأعلمهم ببرامج تلفزيونية قادمة ستتناول جربة سجن ستانفورد. عبر السنوات شاركني حوالي ستة من الطلبة في بعض الإذاعات لوطنية وما زلت على اتصال بعدد منهم بعد أكثر من ثلاثين عامًا على انتهاء التجربة.

ما كان مهمًا في جلسات الاستجواب الممتدة هو أنها منحت المشاركين الفرصة في لتعبير علانية عن مشاعرهم الجياشة ومنحتهم فرصة اكتساب فهم جديد لأنفسهم ولسلوكهم ير المألوف في بيئة فريدة وغريبة. الطريقة التي اتبعناها كانت عبارة عن «استخلاص علومات»[1] أوضحنا فيها أن بعض التأثيرات والمعتقدات التي تتطور أثناء تجربة ما يمكن

[1] L. Ross, M. R. Lepper, and M. Hubard, Perservance in Self-Perception and Social-Perception: Biased Attributional Processes in the Debriefing Paradigm," *Journal of Personality and Social Psychology* 32 (1975) 880-92.

أن تستمر إلى ما بعد انتهاء التجربة، كما شرحنا أسباب عدم حدوث هذا في دراستنا بالتحديد. أكدت لهم أن ما فعلوه كان انعكاسًا للطبيعة السلبية التي صنعناها في هذا السجن لا انعكاسًا لشخصياتهم، ذكّرتهم بأن اختيارهم تم بعناية وتم تحديدًا لأنهم أصحاء وطبيعيون، وبأن توزيعهم على الدورين كان عشوائيًا، لم يأتوا بأية اعتلالات للمكان؛ بل المكان هو الذي استدعى منهم صورًا مَرَضية مختلفة. كذلك أخبرتهم أن أقرانهم فعلوا وبصورة مشابهة كل الأشياء المهينة أو المضطربة التي قام بها أي سجين آخر، والأمر نفسه ينطبق على أغلب الحراس الذين كان سلوكهم مع السجناء عدوانيًا في بعض الأحيان، فقد أدّوا الدور كما فعل زملاؤهم في النوبة.

كذلك حاولت جعل جلسات استخلاص المعلومات دروسًا في التثقيف الأخلاقي وذلك عن طريق النقاش حول الصراعات الأخلاقية التي واجهتنا جميعًا أثناء التجربة بوضوح تام. أحد رواد التنظير في مجال التطوير الأخلاقي، لاري كولبرغ يرى أن نقاشات كهذه والتي تحدث في سياق الصراع الأخلاقي هي الطريقة الرئيسية وربما الوحيدة لرفع مستوى التطور الأخلاقي للفرد[1].

لعلّكم تذكرون أن البيانات التي وفرتها لنا قائمة تدقيق الحالة المزاجية التي ملأها الحُرّاس والسجناء على حد السواء قد عادت إلى معدّلات أكثر اتزانًا للحالة العاطفية بعد جلسة الاستجواب لتصل إلى مستويات قريبة نسبيًا من الحالة التي كانوا عليها قبل بدء الدراسة. يمكننا عزو التأثير السلبي قصير المدى لهذه التجربة المكثفة إلى ثلاثة عوامل:

أولًا: كان لدى هؤلاء الفتية أساس نفسي وذاتي صحي يستطيعون الرجوع إليه بعد انتهاء الدراسة.

ثانيًا: كانت التجربة محددة بذلك الزمان والمكان واللباس ونص الأحداث مما يمكنّهم من الإلقاء بكل شيء وراءهم دفعة واحدة دون أن يُعاد تفعيله في المستقبل.

ثالثًا: حرر الاستجواب المُفصّل الذي أجريناه الحراس والسجناء من مناخ الدراسة الذي جعلهم يتصرفون بصورة سيئة وبيّن خصائص الموقف الذي أثّر فيهم.

نتائج إيجابية بالنسبة للمشاركين

من الضروري حتى يتم اعتماد أي بحث ـ وفقًا للمقاربة التقليدية المتعلقة بالأخلاقيات النسبية للبحث ـ أن تفوق المكاسب العائدة على العلم أو الطب أو المجتمع التكلفة الواقعة على المشاركين، وعلى الرغم من أن نسبة المكاسب إلى التكلفة تبدو مقبولة

---

(١) L. Kohlberg, *The Philosophy of Moral Development* (New York: Harper & Row, 1981).

إلا أنني أرغب في تفنيد هذه الطريقة في النظر إلى لأمور. التكلفة الواقعة على المشاركين («موضوع البحث» في أيام تجربة سجن ستانفورد) كانت حقيقية ومباشرة ومحسوسة في مرّات كثيرة، وعلى النقيض فأيًا ما كانت المكاسب المتوقعة عند تصميم الدراسة أو المصادقة عليها فقد كانت محتملة وبعيدة وربما ما كانت لتُلاحظ. الكثير من الأبحاث العلمية الواعدة لا تحقق نتائج باهرة ولذا لا تُنشر ولا تُتداول في المجتمع العلمي، وحتى بعض الاكتشافات المهمة المنشورة قد لا تجد طريقها نحو تطبيقها عمليًا، وإن حدث فربما لا تلقى قبولًا أو يتضح أنها غير عملية بالنظر إلى الفائدة العائدة على المجتمع. وعلى الجانب الآخر فبعض الأبحاث البسيطة التي لم يكن لها أي تطبيق عملي واضح عند التخطيط لها في البداية اتضح لاحقًا أن لها تطبيقات في غاية الأهمية. على سبيل المثال، إحدى الدراسات البسيطة عن تكييف الجهاز العصبي اللاإرادي قادت مباشرة إلى استخدام الارتجاع البيولوجي كعامل مساعد في العلاج الطبي[1]، كما أظهر أغلب الباحثين اهتمامًا زهيدًا أو موهبة ضعيفة في تطبيق اكتشافاتهم في «الهندسة الاجتماعية» على المشكلات الشخصية والاجتماعية، بالنظر فيما سبق فإن الانتقادات تشير إلى أن «المكاسب» الضخمة في المعادلة الأخلاقية للبحث ربما لا تتحقق من حيث المبدأ أو الممارسة، في حين سيبقى الألم خسارة صافية وكذلك مجملة للمشاركين وللمجتمع.

كذلك يغيب تمامًا عن المعادلة الأخلاقية للبحث العلمي النظر في الربح العائد على المشارك. هل يفيدهم كونهم جزءًا من مشروع بحثي بطريقة ما؟ هل عوضت المكافأة المالية الشدة التي مرُّوا بها لمشاركتهم في بحث عن تقييم جوانب الشعور بالألم؟ هل يُقَدِّر الناس المعرفة التي يراكمونها لمشاركتهم في بحث علمي؟ هل يتعلمون شيئًا مميزًا عن أنفسهم من تجربة البحث؟ تعد جلسة استجواب وافية ومُفصّلة أمرًا ضروريًا لتحقيق هذه الغاية الثانوية بالنسبة للأبحاث التي موضوعها البشر[2]. لكن مثل هذه المكاسب لا يجب أن نفترضها أو نرجوها؛ بل يجب إثباتها تجريبيًا كنتائج معيارية[3] لأية دراسة تُجرى آخذة

---

(١) انظر بحث نيل ميللر عن التغذية الراجعة البيولوجية (*Biofeedback*) والتكيُّف الذاتي (Autonomic Conditioning)، والأمثلة التي قدمها عن كيف يُمكن للأبحاث الأساسية (Basic Research) أن تُفيد الأبحاث التطبيقية التي تستهدف نتائج محددة:

N. E. Miller, "The Value of Behavioral Research on Animals" *American Psychologist* 40 (1985): 423-40p N. E. Miller, "Introducing and Teaching Much-Needed Understanding of Scientific Process," *American Psychologist* 47 (1992): 848-50.

(٢) لمثال عن كيفية تحقيق هذا في واحدة من تجاربي عن استحداث الأمراض النفسية. انظر:

P. G. Zimbardo, "Discontinuity Theory: Cognitive and Social Searches for Rationality and Normality," in *Advances in Experimental Social Psychology*, vol. 31 ed. M. Zanna (San Diego: Academic Press, 1999) pp. 345-486.

(٣) (Outcome measures) نتائج معيارية: في العلاج الطبي أو النفسي النتيجة المعيارية هي اختبار يُجرى في بداية

ي الاعتبار «مدى أخلاقيتها». يغيب أيضًا في أغلب الاعتبارات لأخلاقيات البحث العلمي الإلزام الضروري للباحثين بالمشاركة في أنشطة اجتماعية خاصة بما يجعل من أبحاثهم نافعةً في مجال البحث الخاص بهم وفي تطوير مجتمعهم.

مكاسب شخصية غير متوقعة للمشاركين في تجربة سجن ستانفورد وفريق العمل

ظهر عدد من النتائج الإيجابية غير المتوقّعة لهذه الدراسة التي كان لها تأثير طويل المدى على بعض المشاركين وأفراد فريق العمل. بشكل عام، أشار معظم المشاركين في التقييم النهائي (الذي استكملوه من منازلهم في أوقات مختلفة بعد انتهاء الدراسة) إلى أنها كانت تجربة شخصية قيمة. تساعد تلك الإيجابيات إلى حدٍ ما في موازنة السلبيات الواضحة لتجربة السجن حيث أكد جميع المشاركين أنهم لن يتطوعوا لتجربة مماثلة مرة أخرى. فلنفحص بعض إيجابيات ما بعد الصدمة في تجربة سجن ستانفورد مقتبسين من تقيماتهم.

● داج، السجين ٨٦١٢: زعيم تمرد السجناء، كان أول سجين يعاني من اضطراب عاطفي شديد وقد أجبرتنا استجابته هذه على إطلاق سراحه بعد ستٌ وثلاثين ساعة. كانت التجربة مزعجة حقًّا بالنسبة له كما قال في لقاء أثناء تصوير فيلمنا الوثائقي [الغضب الكامن: تجربة سجن ستانفورد]:

> «كانت تجربة فريدة، لم أصرخ بأعلى صوتي في حياتي من قبل، ولم أصل في حياتي إلى هذه الدرجة من الضيق، كانت تجربة عن كونك عاجزًا عن السيطرة على الموقف والمشاعر على حد السواء. ربما لطالما وجدت صعوبة في السيطرة على نفسي، أردت أن أفهم نفسي، لذلك دخلت مجال علم النفس [بعد انتهاء التجربة]. سأدخل في مجال علم النفس وأتعلّم ما الذي يجعل الشخص يتصرف على نحو معين حتى لا يخيفني المجهول»[١].

في تقييم آخر أتمه بعد خمس سنوات من انتهاء الدراسة كشف داج أن اضطرابه كان تمثيليًّا في البداية حتى يُطلق سراحه لكن سرعان ما سيطر عليه الدور.

«اكتشفت أن الطريقة الوحيدة التي ستخرجني من التجربة هي ادّعاء المرض،

العلاج، مثلاً قياس ضغط دمّ المريض في بداية العلاج الطبي أو قياس درجة اكتئاب المريض في بداية العلاج النفسي ثم استخدام هذه النتيجة مع سير العلاج في قياس مدى تحسُّن أو تراجع الحالة. (المترجم).

(١) Details about *The Quiet Rage* Video: P. G. Zimbardo (Writer and producer) and K. Musen, (co-Writer and coproducer) *Quiet Rage: The Stanford Prison Experiment (Video)* (Stanford, CA: Stanford Instructional Television Network, 1989).

الجـدي في البداية وعندما لم ينجح هذا ادّعيت الإجهاد الذهني، لكن الجهد الذي بذلته في تقمّص الدور وحقيقة أنني ربما كنت بالفعل في حالة ضيق شديد جعلاني أضطرب فعليًا».

إلى أي مدى؟ قال: أن صديقته أخبرته أنه كان منزعجًا ومتوترًا إلى درجة أنه استمر في الحديث عن التجربة مدة شهرين بعد انتهائها.

حصل داج على درجة الدكتوراه في الطب النفسي السريري ليتعلم من إحدى النواحي كيف يتحكم أكثر في عواطفه وسلوكه. قدّم أطروحته عن الشعور بالعار (في حالة السجين) والذنب (في حالة الحارس)، أتم فترة تدريبه في سجن سان كوينتين بدلًا من العيادات الطبية المعتادة، وكان طبيبًا نفسيًا شرعيًا في مؤسسات سان فرنسيسكو وكاليفورنيا الإصلاحية لأكثر من عشرين عامًا. شهادته المؤثرة هي التي كانت وراء تسمية فيلمنا بـ[الغضب الكامن (Quiet Rage)]، حيث تحدث عن الميول الساديّة لدى الحراس التي يجب الحذر منها لأنها دومًا ما توجد حين تتفاوت مستويات السلطة والقوة، جاهزة للتسلل ثم للانفجار في صورة «غضب كامن». جزء من عمل داج هو مساعدة السجناء في الحفاظ على شعورهم بالكرامة على الرغم من الظروف المحيطة بهم وتمكين الحراس والسجناء من التعايش معًا بوديّة. هذه حالة تحوّلت فيها الآثار السلبية العنيفة المبدئية لتجربة سجن ستانفورد إلى رؤية ذات نتائج مستديمة على الفرد والمجتمع. الكثير من الألم والكثير من المكاسب للفرد ذاتِه موضوعِ التجربة.

• الحارس هيلمان: جون واين الشرس، ظهر في كل أعمال التصوير التلفزيونية عن الدراسة بسبب دوره المتسلط و«ابتكاراته الشريرة» في المهام والألعاب التي اخترعها للسجناء. تقابلنا مؤخرًا في محاضرة كنت ألقيها وصرّح لي بأنه بدلًا من الخمس عشرة دقيقة من الشهرة التي يحظى بها كل إنسان مرة في حياته - كما في عبارة أندي وارهول الشهيرة -؛ فقد كانت تجربة سجن ستانفورد بالنسبة له هي «خمس عشرة دقيقة من الخزي المتواصل». في معرض ردّه على سؤالي عما إذا كان يعتقد أن للمشاركة في التجربة أي تأثير إيجابي على حياته، أرسل لي هذه الرسالة:

«عشرات السنين من حمل أعباء الحياة رقّقت قلب ذلك المراهق المتغطرس مُتَبَلِّد المشاعر الذي كنت عليه سنة ١٩٧١م. لو قال لي أي شخص حينها أن ما أقوم به يؤذي السجناء، كنت سأردّ عليه بأنهم ضعاف مخنّثون، لكن ذِكرى ذوباني في دوري إلى درجة العمى عن رؤية آلام الآخرين ما زالت تلازمني كقصة تحذيرية تدفعني للتفكير بعناية في أسلوب تعاملي مع الآخرين. في الحقيقة يرى البعض أنني شديد الحساسية فيما يخص كوني صاحب أعمال حيث أتردد كثيرًا في اتخاذ بعض

القرارات مثل فصل الموظفين غير الأكفاء، لخشيتي من التسبب لهم بالمتاعب»[1].

• كريج هاني: استمر في دراسته في القانون بجامعة ستانفورد وحصل على الدكتوراه في القانون وكذلك الدكتوراه من قسم علم النفس وهو الآن أستاذ في جامعة كاليفورنيا بسانتا كروز حيث يُدَرِّس دورات في علم النفس والقانون وفي علم نفس المؤسسات. أصبح كريج أحد أهم مستشاري الأمّة فيما يخص أوضاع السجون، وواحدًا من بين عدد قليل من خبراء علم النفس المتاحين للعمل مع المحامين الذين يمثلون طبقة السجناء في الولايات المتحدة. كتب بإسهاب وعبقرية عن العديد من جوانب الجريمة والعقاب والإعدام والإصلاح، كما اشتركنا في عدد من الدوريات العلمية المتخصصة والكتب والمجلات التجارية[2]. تصريحه عن تأثير تجربة سجن ستانفورد فيه يُظهِر بوضوح أهمية التجربة:

«بالنسبة لي، كانت تجربة سجن ستانفورد تجربة بناءة غيّرت من مسيرتي المهنية. كنت قد أتممت لتويّ ثاني سنوات دراستي كطالب دراسات عليا في جامعة ستانفورد عندما بدأت مع فل زيمباردو وكيرت بانكس بالتخطيط لهذا البحث. بدأ اهتمامي بتطبيق علم النفس الاجتماعي على قضايا الجريمة والعقاب بالتبلور مع دعم الدكتور فل زيمباردو... وبعد فترة قصيرة من انتهاء التجربة بدأت في دراسة السجون الحقيقية ثم لاحقًا ركزت على التواريخ الاجتماعية التي أسهمت في تشكيل حياة المسجونين، لكن لم يغِبْ عني أبدًا النظر في دور المؤسسة وهو الأمر الذي استفدته من مراقبة وتقييم نتائج ستة أيام قصيرة في سجننا المُقلَّد»[3].

• كريستينا ماسلاش: بطلة تجربة سجن ستانفورد، تعمل الآن أستاذة في علم النفس في جامعة كاليفورنيا، بيركلي، ونائبة رئيس مجلس التعليم الجامعي، وعميدة كلية الآداب والعلوم، وأستاذة العام المتميزة في مؤسسة كارنيجي. تجربتها القصيرة والمؤثرة كان لها تأثير إيجابي أيضًا على القرارات التي اتخذتها في مسيرتها المهنية لاحقًا كما ذكرت[4]:

---

(١) رسالة بريد إلكتروني شخصية بتاريخ، ٥ يونيو، ٢٠٠٥.

(٢) C. Haney, "Psychology and Legal Change: The Impact of a Decade," *Law and Human Behavior* 17 (1993): 371-98; C. Haney, "Infamous Punishment: The Psychological Effects of Isolation," *National Prison Project Journal* 8 (1993): 3-21; C. Haney, "The Social Context of Capital Murder: Social Histories and the Logic of Capital Mitigation," *Santa Clara Law Review* 35 (1995): 547-609; C. Haney, *Reforming Punishment: Psychological Limits to the Pain of Imprisonment)* Washington, DC: American Psychological Association, 2006); C. Haney and P. G. Zimbardo, "The Past and Future of U.S. Prison Policy: Twenty-five Years After the Stanford Prison Experiment," *American Psychologist* 35 (1998): 709-27.

(٣) P. G. Zimbardo, C. Maslach, and C. Haney, "Reflections on the Stanford Prison experiment: Genesis, Transformations, Consequences," in *Obedience to Authority: Current Perspective on the Milgram Paradigmn*, ed. T. Blass (Manwah, NJ Erlbaums, 1999), quote pp. 221-225.

(٤) نفس المصدر، ص٢٢٠.

«بالنسبة لي كان الإرث المهم لتجربة السجن هو ما تعلمته من خبرتي الشخصية وكيف ساعد هذا في تشكيل إسهاماتي اللاحقة في علم النفس. ما تعلمته بصورة مباشرة كان سيكولوجيا اللاأنسنة، كيف يمكن لأشخاص صالحين أن يبلغوا مبلغ معاملة الآخرين بهذه الطريقة السيئة، كم يسهل على الناس أن يعاملوا الآخرين الذين يعتمدون على معونتهم أو حسن نواياهم بوصفهم أقل من البشر؛ كالحيوانات، في مكانة أدنى لا يستحقون الاحترام والمساواة. قادتني هذه الخبرة في تجربة سجن ستانفورد إلى إجراء أبحاث رائدة حول الاحتراق (Burn-out)، المخاطر النفسية للعمل المستنزف عاطفيًا في خدمة الآخرين، والتي يمكن أن تدفع بالأشخاص المخلصين لعملهم والعطوفين إلى التقليل من إنسانية أولئك الذين يُفترض أنهم قائمون على خدمتهم وإلى إساءة معاملتهم. حاولت في بحثي كشف أسباب ونتائج «الاحتراق» في البيئات الوظيفية المختلفة، حاولت رفد هذه النتائج بحلول عملية، وكذلك أُشجِّع تحليل وتغيير المُحَدِّدَات الظرفية للاحتراق بدلًا من التركيز على شخصيات بعينها فيما يخص أولئك الذين يقدّمون الخدمات. لذلك فإن قصتي في تجربة سجن ستانفورد ليست مجرد أداء دور ما في إنهاء الدراسة مبكرًا قبل الوقت المخطط له، ولكن دوري هو في بَدْء برنامج بحثي جديد استلهمته من تجربتي الشخصية في هذه الدراسة الفريدة»[1].

• [انظر الهامش عن وضع كيرت بانكس وديفيد جافي[2]].

• والآن عني أنا، فل زيمباردو: لقد غيّر ذلك الأسبوع الذي قضيته مع تجربة سجن ستانفورد من حياتي بطرق عديدة مهنية وشخصية. بالنسبة لي كانت النتائج الإيجابية العائدة عليّ من هذه التجربة كبيرة للغاية. تأثرت أبحاثي العلمية وكذلك أسلوبي في التدريس

---

(1) C. Maslach, "Burned-out," *Human Behavior*, September, 1976, pp. 16-22; C. Maslach, *Burnout: The Cost of Caring* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1982); C. Maslach, S. E. Jackson, and M. P. Leiter, *The Maslach Burnout Inventory*, (3rd ed.) (Palo Alto, CA: Consulting Psychologists Press, 1996); C. Maslach, and M. P. Leiter, *The Truth About Burnout* (San Francisco: Jossey-Bass, 1997).

(2) استكمل كيرت بانكس مسيرة أكاديمية مميزة، حيث حصل على درجة الدكتوراه في ثلاث سنوات فقط، وصار أول أمريكي من أصل أفريقي يعيّن كأستاذ دائم في قسم علم النفس من جامعة برينستون (*Princeton University*). ثم انتقل بعد ذلك للتدريس في جامعة هوارد (Howard University)، وقدّم خدمات عظيمة لهيئة خدمات الاختبارات التعليمية (Educational Testing Service)، وكان محررًا مؤسسًا في (*Journal of Black Psychology*)، وللأسف فقد توفي مبكرًا عام ١٩٩٨ بالسرطان.

كذلك ديفيد جافي (David Jaffe) الذي انطلق من تجربة سجن ستانفورد ليحقق مسيرة مميزة في الطب، ويعمل الآن مديرًا لقسم الطوارئ في مستشفى سان لويس للأطفال (St. Louis Children's Hospital)، وأستاذًا مشاركًا في طب الأطفال في جامعة واشنطن، سان لويس، ميسوري (Missouri).

وحياتي الشخصية، أصبحت عنصرًا فاعلًا في تغيير المجتمع من أجل تحسين أوضاع السجون وإبراز صور أخرى للاستخدام المسيء للسلطة من قبل المؤسسات.

بؤرة تركيزي في أبحاثي التي أجريتها في العقود الثلاثة التي تلت التجربة دفعتني إليها أفكار استخلصتها من التجربة قادتني إلى دراسة الخجل، ومنظور الزمن، والمعايير العادية للجنون. وبعد إيضاح الروابط بين بحث السجن هذا وما تلاه من أبحاث حديثة عن الخجل وبيان كيفية علاج من يعانون من الخجل الشديد؛ سأكشف بتفصيل أكبر الكيفية التي غيّرت بها هذه التجربة حياتي الشخصية.

الخجل كسجن مفروض على الذات

«أي سجن أكثر ظلمة من قلب المرء! وأي سجّان أكثر قسوة على المرء من نفسه؟»

ناثانيل هاثورن (*Nathaniel Hawthorn*)

في سجننا في القبو تنازل السجناء عن القدر الأساسي من حريّاتهم استجابة للتسلط المتعسف من قِبَل الحراس، كذلك في الحياة الحقيقية بعيدًا عن المختبر يتنازل الناس طواعية عن حرية التعبير والفعل والمشاركة لكن دون وجود حراس يجبرونهم على فعل هذا، فقد سلّموا بوجود ذلك الحارس المتطلب في دواخلهم بصفته جزءًا من صورتهم عن أنفسهم، الحارس الذي يقيد من عفويتهم وحريتهم واستمتاعهم بالحياة. وللمفارقة فهؤلاء الأشخاص أنفسهم تقمصوا صورة السجين السلبي الذي يخضع لتلك القيود التي فرضها بنفسه على كل أفعاله؛ أي: فعل يلفت الانتباه إلى الشخص فإنه يهدده بإهانة محتملة أو بشعور بالعار أو بالرفض المجتمعي ولذا يجب تجنّبه. يستجيب الفرد لهذا الحارس الداخلي بأن ينسحب من الحياة محتميًا بقوقعة، ويختار الإحساس بالأمان في سجن الخجل الصامت.

قادني التوسع في هذا المجاز المستلهم من تجربة سجن ستانفورد إلى التفكير في الخجل كنوع من الرهاب المجتمعي الذي يقطع حبال التواصل بين الناس ويجعل من الآخرين مصدر تهديد أكثر من كونهم موضع ترحيب. في السنة التالية لانتهاء دراستنا بدأتُ مبادرة بحثية مهمة، مشروع ستانفورد عن الخجل (Stanford Shyness Project) لفحص مُسبِّبات وروابط وتوابع الخجل عند البالغين والمراهقين. كانت دراستنا هي أول دراسة منهجية عن الخجل عند البالغين، وبمجرد أن حصلنا على ما يكفي من المعرفة قمنا بتطوير برنامج لمعالجة الخجل في «عيادة الخجل» الفريدة من نوعها سنة (١٩٧٧م). تلك العيادة التي لطالما كانت في عمل دؤوب طيلة ذلك الوقت في مجتمع بالو ألتو تديرها الدكتورة لين هنديرسون وهي الآن جزء من كلية علم النفس للدراسات العليا بجامعة الباسيفيك، كان

هدفي الأساسي في المعالجة والوقاية من الخجل تطويرَ وسائل تساعد الشخص الخجول على التحرر من سجنه الصامت الذي فرضه على نفسه. حققتُ هذا جزئيًا بكتابة عدد من الكتب الرائجة لعامة الناس عن كيفية التعامل مع الخجل لدى البالغين والأطفال[1]. تلك الأنشطة هي إضافة موازية للاعتقال الذي أُخضع له المشاركون في تجربة سجن ستانفورد.

الجنون في البشر العاديين

«أتعرف ما الذي فعلتَه؟ [شارلوك هولمز سائلًا سيجموند فرويد] لقد نجحتَ في اختطاف أساليبي، المراقبة والتدخل، ثم إقحامها في عقل الفرد»

نيكولاس ماير (Nicholas Meyer, *The Seven Percent Solution*)

إحدى أكثر مُخرجات تجربة سجن ستانفورد قوة هي الطريقة التي بدأ بها شبان أصحاء وطبيعيون في التصرف بطريقة مَرَضية خلال وقت قصير. في إجراءات انتقاء العينة التي اتبعتها في تجربتنا تم استبعاد أية نوازع مرضية مسبقة قد تكون عوامل مُسبِّبة للانحراف لاحقًا، فأردت فهم العمليات التي تؤدي إلى تطور الأعراض النفسية المرضية ابتداءً في الأشخاص العاديين، لذلك وبالإضافة إلى دفعي لدراسة الخجل والمنظور الزمني فقد أضافت الخبرات التي اكتسبتها من تجربة سجن ستانفورد توجهًا جديدًا لديّ في التنظير والبحث التجريبي عن كيف يبدأ البشر العاديون «بالجنون».

معظم ما نعرفه عن الأداء غير الطبيعي نحصل عليه من تحليلات استرجاعية تحاول أن تستكنه العوامل التي ربما تكون هي المسببة في الاضطراب العقلي الحالي لدى شخص معين، وهو ما يشبه إلى حدٍّ كبير استراتيجيات شارلوك هولمز التي يعتمد فيها على المنطق الاستنتاجي الذي يعود إلى الأسباب، حاولت بدلًا من ذلك بناء نموذج يركُز على العمليات المشاركة في تطور أعراض الخلل العقلي مثل الرهاب أو جنون الارتياب. يسعى الناس إلى إيجاد تفسيرات عندما تخيب توقعاتهم المتعلقة بأدائهم فتجدهم يحاولون فهم مكمن الخطأ، كما يحدث في الفشل الدراسي أو الاجتماعي أو الرياضي أو المهني أو الجنسي بحسب أهمية هذا الذي تناقضوا فيه في تقديرهم لذواتهم. عملية البحث العقلاني هذه تعتريها التشوهات بسبب التحيّزات المعرفية التي تُركُز على مستويات من التفسير غير ملائمة

(١) P. G. Zimbardo, "The Stanford Shyness Project," in *Shyness: Perspectives on Research and Treatment*, ed. W. H. Jones, J. M. Cheek, and S. R. Briggs. (New York: Plenum Press, 1986), pp. 17-25; P. G. Zimbardo, *Shyness: What It Is, What to Do About It* (Reading, MA: Addison-Wesley, 1977); P. G. Zimbardo and S. Rndl, *The Shy Child* (New York: McGraw-Hill, 1986); P. G. Zimbardo, P. Pilkonis, and R. Norwood, "The Silent Prison of Shyness," *Psychology Today*, May 1975, pp. 69-70, 72; L. Henderson and P. G. Zimbardo, "Shyness as a Clinical Condition: The Stanford Model," In *International Handbook of Social Anxiety*, L. Alden and R. Crozier (eds.) (Sussex, UK: John Wiley & Sons), pp. 431-47.

لتحليل الموقف الحالي، لذلك فإن الإفراط في استخدام تفسيرات تركز على «الناس» بوصفهم سببًا لردود الفعل ربما يحرف عملية البحث نحو تطوير خصائص وأعراض التفكير الارتيابي، وبالمثل فإن التفسيرات التي تركز على «البيئة» بوصفها سببًا لردود فعل المرء يمكن أن تجعل من البحث متحيزًا تجاه تطوير أعراض التفكير الرهابي.

وجد هذا النموذج الجديد للمعايير الإدراكية والاجتماعية «للجنون» في البشر العاديين الأصحاء ما يؤكده في تجاربنا المخبرية المحكمة، وجدنا على سبيل المثال أن الأعراض المرضية قد تتطور في ثلث المشاركين الطبيعيين خلال العمليات العقلية التي يحاولون عبرها فهم سبب اهتياج لا تفسير له. أثبتنا أيضًا أن الطلبة الجامعيين ذوي القدرة السمعية الطبيعية والذين عُرّضوا لتجربة صمم مؤقت عن طريق التنويم المغناطيسي بدؤوا بسرعة في التفكير والتصرف بارتياب معتقدين أن الآخرين كانوا عدوانيين معهم، لذلك فإن ضعف السمع غير المكتشَف في كبار السن قد يكون مساهمًا في تفاقم اضطرابات جنون الارتياب لديهم، والتي يمكن منعها أو معالجتها عن طريق أدوات مساعدة على السمع بدلًا من العلاج النفسي أو الاحتجاز في مؤسسات الرعاية.

بناءً على هذا قلت بأن بذور الجنون يمكن غرسها داخل أي شخص وستنمو استجابة لبلبلات نفسية مؤقتة كالتي تحدث خلال حياة من الخبرات العادية. الانتقال من نموذج طبي صارم القيود للاضطرابات العقلية إلى نموذج الصحة العامة؛ يشجع على البحث عن قوى ظرفيّة موجّهة ومؤثرّة في الاضطرابات الفردية والمجتمعية بدلًا من قصر البحث على رأس المريض. سنصبح في وضع أفضل فيما يخص منع ومعالجة الجنون والأمراض النفسية عندما نستصحب المعرفة الأساسية الخاصة بالعمليات الإدراكية والاجتماعية والثقافية لننتهي إلى تقدير أفضل للآليات الفاعلة في تحويل السلوك الطبيعي إلى سلوك مختل.

التدريس بتقليص صلاحياتي

إدراكي لمدى سهولة تحوّلي إلى شخصية سلطوية من خلال تجربة سجن ستانفورد قادني إلى إعادة هيكلة أساليب التدريس الخاصة بي بحيث أمنح للطلبة سلطة أكبر وأحدد دور الأستاذ ليقتصر على خبرته في مجاله بدلًا من التحكم المجتمعي. أسّست فترات «نقاش مفتوح» في بداية كل صف دراسي بحيث يتاح للطلبة في المحاضرات التي تحوي أعدادًا كبيرة انتقاد أي شيء يخص الدورة الدراسية أو تقديم آرائهم الخاصة فيها. تطور هذا ليأخذ شكل نشرة إعلانية على الإنترنت يتاح للطلبة فيها الحديث علانية عن الجوانب الإيجابية والسلبية للدورة الدراسية كل يوم على مدار الدورة الدراسية. قلّلتُ أيضًا من التنافس على الدرجات

العالية بعدم تقييم الأداء وفق طريقة المنحني الجرسي[1] واستبدلت بها معايير مطلقة مستمدة من درجة تمكُّن كل طالب من معايير خاصة بالمواد، وبدخول الامتحانات مع شريك في التعلم؛ بل وفي بعض الدورات ألغيت إعطاء الدرجات من الأساس.

التأثير الشخصي لتجربة سجن ستانفورد

في السنة التالية لانتهاء تجربة سجن ستانفورد (١٠ أغسطس، ١٩٧٢م) تزوّجت من كريستينا ماسلاش في كنيسة ستانفورد، وهو نفس المكان الذي جدّدنا فيه عهود الزواج بعد مرور خمسة وعشرين عامًا في حضور أولادنا. تؤثّر هذه البطلة في كل ما أفعله بأفضل طريقة يمكنكم تصورها، وبفضل هذه العلاقة تمكنت من انتزاع شيء من نعيم الجنة من براثن جحيم تجربة السجن هذه.

هناك تأثير شخصي آخر لهذه الدراسة التي استمرت لمدة أسبوع في تحويلي إلى مدافع عن التغيير المجتمعي المبني على الأدلة البحثية وترويجي لإصلاح السجون وجهدي المكرس لتبليغ الرسائل المهمة لتجربة سجن ستانفورد على أوسع نطاق، فلنراجع هذا ببعض التفصيل.

تعظيم الربح: نشر «الكتاب المقدس» في المجتمع

غيّرت تجربة سجن ستانفورد حياتي من عدة أوجه لكن واحدًا من أقوى التغيُّرات كان نتيجة حضوري اجتماع إحدى اللجان الفرعية لمجلس النوّاب الأمريكي بناءً على دعوة وجِّهَت لي، فتحولتُ فجأة من باحث أكاديمي إلى نصير للتغيير المجتمعي. في جلسة الاستماع عن إصلاح السجون في أكتوبر ١٩٧١م، لم تُرِد اللجنة الفرعية مجرد تحليلات ولكن أرادت توصيات لهذا الإصلاح. في خطابي المحفوظ في سجل المجلس دافعت بوضوح عن تدخل المجلس النيابي في هيكلة السجون من أجل تحسين أوضاع السجناء وكذلك فريق العمل الإصلاحي[2].

---

(١) المنحني الجرسي هي طريقة يستخدمها الأساتذة في تقيم مدى جودة تصميم الامتحانات، فإن كان عدد الطلاب الحائزين على الدرجات العليا في الامتحان وكذلك الحائزين على الدرجات الدنيا أقل من عدد الطلاب الحائزين على علامات متوسطة؛ فيعني ذلك: أن تصميم الامتحان جيد ومناسب، ودُعي بالمنحني الجرسي؛ لأن البيانات لدى وضعها في مخطط ترسم لنا نقاطًا تأخذ لدى وصلها شكل الجرس. (المراجعة).

(٢) P. G. Zimbardo, "The Power and Pathology of Imprisonment," *Congressional Record*, serial no. 15, October 25, 1971, Hearings Before Subcommittee No. 3 of the Committee on the Judiciary, House of Representatives, Ninety-Second Congress, First Session on Corrections, Part II, Prisons, Prison Reform and Prisoner's Rights: California (Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1971).

أخذ دفاعي صورة التوعية بضرورة إنهاء «التجربة الاجتماعية» للسجن حيث أن التجربة فشلت وفق ما أثبتته معدلات الانتكاس العالية، علينا اكتشاف أسباب هذا من خلال تحليلات أكثر شمولية للنظام ومن ثم التقدم بحلول بديلة عن الاعتقال، علينا أيضًا تحويل المقاومة إلى إصلاح حقيقي للسجون. شهادتي الثانية أمام اللجنة الفرعية للمجلس النيابي التي دارت حول اعتقال الأحداث (سنة ١٩٧٣م) انتقلت بي خطوة إلى الأمام لأصبح ناشطًا مجتمعيًا. تقدمتُ بتسع عشرة توصية لمعاملة أفضل للأحداث المعتقلين[1]، وسعدت كثيرًا عندما علمت بقبول قانون فدرالي جديد كانت شهادتي سببًا في صياغة جزء منه، فقد أسهم النائب بيرتش باي الذي رأس هذه التحقيقات في سنّ قانون يمنع احتجاز الأحداث قبل المحاكمة مع البالغين منعًا من تعرضهم للاعتداءات في السجون الفدرالية. كانت تجربة سجن ستانفورد عن تعرض الأحداث للإساءة في احتجاز ما قبل المحاكمة (بالطبع خلطنا الأمور بسبب جلسات استماع الإفراج المشروط التي لا تحدث في الحقيقة إلا بعد الإدانة وإصدار الحكم).

بالنسبة لي فإن إحدى أقوى النتائج القانونية لتجربة سجن ستانفورد هي تلك التي استفدتها من مشاركتي في المحاكمة الفدرالية لجوني سبين (Johnny Spain) و ف. بروكونير (V. Procunier) سنة (١٩٧٣م). وضع «سجناء سان كوينتين الستة» في العزل الانفرادي لأكثر من ثلاث سنوات لاتهامهم بالتورط في قتل حرّاس وسجناء وُشاة أثناء محاولة هروب جورج جاكسون، في ٢١ أغسطس، ١٩٧١م. بصفتي شاهدًا خبيرًا تجوّلت في منشآت مركز التأهيل الفائق التابع لسجن سان كوينتين والتقيت كلًا من السجناء الستة عدة مرات. خرج البيان المجهز الذي قدمته وشهادتي في المحكمة بعد يومين بنتيجة مفادها أن جميع الأوضاع في هذا السجن المتعلقة بالاحتجاز القسري المطوّل غير محدد المدة في ظل ظروف لاإنسانية كان بمثابة «عقاب قاسٍ غير معتاد» ولذا يجب تغييره، ووصلت المحكمة إلى استنتاج مشابه. إضافة إلى ذلك عملت طوال المحاكمة كمستشار نفسي لمحامي الادعاء.

قمتُ بتلك الأنشطة وغيرها بعد تجربة سجن ستانفورد من منطلق إحساسي بالمسؤولية الأخلاقية. لموازنة معادلة المبادئ الأخلاقية النسبية شعرت بضرورة التعويض عن الألم الذي مرّ به المشاركون في التجربة وذلك بتعظيم مكاسب هذه الدراسة العائدة على العلم والمجتمع. لخصت جهودي المبكرة في أحد فصول كتابٍ نشر سنة ١٩٨٣م بعنوان «تحويل

---

(١) P. G. Zimbardo, "The Detention and Jailing of Juveniles," (Hearings Before U.S. Senate Committee on the Judiciary Subcommittee to Investigate Juvenile Delinquency, September 10, 11, and 17, 1973) (Washington, DC: U.S. Government Printing Office, 1974), pp. 141-61.

البحث التجريبي إلى دفاع عن التغيير المجتمعي»[1].

قوة تأثير الإعلام والصور المرئية

نظرًا لكون تجربة سجن ستانفورد تجربة مرئية فقد استخدمنا صورًا منها لنشر رسالة عن قوّة المؤثرات الظرفية. أولًا، صنعنا عرض شرائح من ثمانين صورة تمت مزامنتها مع سرد صوتي مسجل لي بمساعدة من جورج وايت سنة ١٩٧٢م، ووُزّعت على أساتذة الجامعات بشكل أكبر كمادة تكميلية للمحاضرات، وقد ساعدَنا ظهور الفيديو على تحويل تلك الصور وعلى إدراج لقطات أرشيفية من الدراسة مع لقطات جديدة ولقاءات وسرد مصور في العرض. طور هذا المشروع فريق من طلبة جامعة ستانفورد رأسه كين موسين (Ken Musen) مخرج فيلم [الغضب الكامن: تجربة سجن ستانفورد] سنة ١٩٨٥م، والذي أصبح متوفرًا مؤخرًا بصيغة DVD بمساعدة سكوت بلوز سنة ٢٠٠٤. يضمن العرض الذي تصل مدته إلى خمسين دقيقة جودة أفضل وانتشارًا أوسع.

استنساخات وتوسيعات للتجربة

ننهي تحقيقنا في تجربة سجن ستانفورد بصفتها ظاهرة اجتماعية بنظرة عامة مختصرة حول كيفية استنساخ نتائجها أو إعادة إنتاجها وتوسيعها في نطاقات متنوعة. بعيدًا عن فائدتها في العلوم الاجتماعية فقد هاجَرت تجربة سجن ستانفورد إلى عوالم أخرى، في المجال العام حيث العروض التلفزيونية والأفلام التجارية وحتى المنتجات الفنية. قادت نتائجها الأساسية عن سهولة تحوّل الصالحين إلى مرتكبين للشرور إذا لم يوضع حد لسلطتهم المؤسسية إلى بعض التطبيقات الاجتماعية والعسكرية التي صُمّمت لمنع هذه النتيجة.

بسبب أهمية النظر في كامل الأبحاث النفسية التي تؤكد على نتائج تجربة سجن ستانفورد وتوسعها؛ سنكتفي هنا بإيجاز تلك الاستنساخات والتوسيعات، لكن هناك عرض أكمل لهذه المواد مع تعليقات ومراجع مفصلة على موقع: www.lucifereffect.com

استنساخ صلب في ثقافة أخرى

قام فريق من الباحثين في جامعة نيو ساوث ويلز (North South Wales) في أستراليا بتوسيع تجربة سجن ستانفورد وذلك بالإبقاء على عنصر واحد من عناصر تجربتنا وإضافة

(1) P. G. Zimbardo, "Transforming Experimental Research into Advocacy for Social Change," in *Applications of Social Psychology*, eds. M. Deutsch and H. A. Hornstein (Hillsdale, NJ: Erlbaum, 1983).

متغيرات تجريبية أخرى بغية استكشاف كيفية تأثير المؤسسات الاجتماعية في العلاقة بين السجناء والحراس[1]. صُمِّم نظام «الاحتجاز القياسي» لديهم على أساس نظام السجون متوسطة الحراسة في أستراليا وكان أقرب في إجراءاته إلى تجربة سجن ستانفورد. تنص النتيجة المركزية للباحثين والتي توصلوا إليها عبر البروتوكول التجريبي الصارم على أن: «نتائجنا تدعم تلك التي وصل إليها دكتور زيمباردو مع آخرين بأن العلاقات العدائية التصادمية في السجون تنشأ بشكل أساسي من طبيعة نظام السجن لا من السمات الشخصية للسجناء والضباط» (ص٢٨٣). هذه النتائج ضمن هذا التصميم للبحث ساعدت أيضًا على تنحية الشكوك حول مصداقية تجارب محاكاة كهذه، وذلك عن طريق توفير أُسس لتقييم التغيّرات السلوكية مستمدة من خصائص بِنيوية جرى تحديدها بموضوعية لسجون حقيقية[2].

تجربة الجناح النفسي المُقلّد

وُضع تسعة وعشرون من أعضاء مشفى إلجين الحكومي (Elgin) في إلينويس لمدة ثلاثة أيام في جناحٍ خاص بهم للأمراض العقلية حيث أدوا دور «المرضى»، وقام اثنان وعشرون من أعضاء فريق العمل بأداء أدوارهم العادية أثناء تسجيل مراقبين مدربين وكاميرات فيديو لما يحدث. «ما حدث هنا كان مذهلًا»، قالت مديرة البحث نورما جين أورلاندو. في وقت قصير بدأ المرضى الوهميون بالتصرف على نحو يصعب تمييزه عن تصرف المرضى الحقيقيين: حاول ستة منهم الهروب، انسحب اثنان منهم وانغلقا على نفسيهما، انهار اثنان وفقدا السيطرة، وأوشك واحدٌ على انهيار عصبيّ. مرّ أغلبهم بتوتر وقلق وإحباط ويأس. أبلغت الغالبية العظمى من أعضاء فريق العمل المرضى (أكثر من ٧٥٪) عن الشعور بما يلي: «الاحتجاز»، أنهم بلا هوية، كما لو كانت مشاعرهم غير مهمة، كما لو أن أحدًا لا يستمع لهم، أنهم لا يعاملون كأشخاص، أن لا أحد يكترث لشأنهم، نسوا أنها كانت تجربة، إنهم مرضى بالفعل. أحد أعضاء فريق العمل الذي لعب دور المريض اكتسب خبرات مهمة أثناء محنة نهاية الأسبوع هذه حيث قال: «اعتدت على النظر إلى المرضى وكأنهم مجموعة من الحيوانات؛ لم أعرف أبدًا ما يمرون به قبل هذا»[3].

---

(١) S. H. Lovibond, X. Mithiran, and W. G. Adams "The Effects of Three Experimental Prison Environments on the Behavior of Non-Convict Volunteer Subjects," *Australian Psychologist* 17 (1975): 152-60.

(٢) A. Banuazizi and S. Movahedi, "Interpersonal Dynamics in a Simulated Prison: A Methodological Analysis," *American Psychologist* 17 (1975): 152-60.

(٣) N. J. Orlando, "The Mock Ward: A Study in Simulation," In *Behavior Disorders: Perspectives and Trends*. O. Millon and R. G. Wahlers, eds. (3rd ed., Philadelphia: Lippincott, 1973), pp. 162-70.

النتيجة الإيجابية لهذه الدراسة التي كانت بمثابة استكمال لتجربة سجن ستانفورد كانت تشكيل منظمة من أعضاء فريق العمل الذين تعاونوا مع المرضى الحاليين والسابقين، لقد كرسوا أنفسهم لرفع وعي أفراد المستشفيات بسوء معاملة المرضى، كما عملوا بأنفسهم على تحسين علاقتهم بالمرضى وتحسين العلاقة بين الفريق الطبي والمرضى. لقد أدركوا قوة «الظرف الشامل» في تحويل سلوك المرضى وفريق العمل إلى وجوه غير مرحب بها، ثم حولوا ذلك إلى أساليب بناءة.

فشل تجربة مزيفة في التلفاز البريطاني

أُجريت تجربة تعتمد على نموذج تجربة سجن ستانفورد لبرنامج على تلفاز (BBC)، لكن نتائجها عارضت نتائج تجربة سجن ستانفورد لعدم استخدام الحراس القدر الكافي من العنف أو الوحشية. فلنذهب مباشرة إلى النتيجة اللافتة للنظر لتلك التجربة: تحكم السجناء بالحراس! أصبح الحراس «في ارتياب متزايد، مكتئبين ومكروبين وكان أكثر ما اشتكوا منه هو تعرضهم للسخرية»[1]. أكرر، ليس السجناء ولكن الحراس هم الذين تعرضوا للاضطراب لما مروا به في برنامج تلفاز الواقع هذا. العديد من الحراس لم يعد بإمكانهم التحمل أكثر وانسحبوا في حين لم يفعل أيٌّ من السجناء هذا. سرعان ما كانت للسجناء اليد العليا، عملوا كفريق لتقويض سلطة الحراس ثم اتحدوا جميعًا وقرروا تشكيل «اتحاد» سلمي بمساعدة واحد منهم تبنى دور منظم اتحاد العمال! يحتوي موقع «تأثير الشيطان» على الإنترنت على تحليلات نقدية لهذه التجربة المزيّفة.

تجربة سجن ستانفورد كتحذير من تجاوز السلطات

استخدامان غير متوقعين لتجربتنا كانا في ملاجئ النساء وفي برامج البحرية للإغاثة والإخلاء والمقاومة والهروب (SERE). أخبرني عدد من مديري ملاجئ النساء اللاتي تعرضن للاعتداء أنهم يستخدمون فيديو «الغضب الكامن» الخاص بنا من أجل توضيح مدى سهولة تحول القوة الذكورية إلى العدوان والتدمير. مشاهدة الفيلم ومناقشة نتائجه تساعد هؤلاء النسوة على عدم لوم أنفسهن لما تعرضن له، وعلى فهم أفضل للعوامل الظرفية التي حوّلت من أحبين إلى مجرمين معتدين. استُخدمت النظرية أيضًا في نسخ من النظرية النسوية عن العلاقات الجندرية المبنية على السلطة.

كل فرع من أفرع الجيش لديه نسخة خاصة به من برنامج (SERE). طُوّر هذا

(١) D. Derbyshire, "When They Played Guards and Prisoners in the US, It Got Nasty, In Britain They Became Friends," *The Daily Telegraph*, May 3, 2002, p. 3.

البرنامج بعد الحرب الكورية لتعليم الذين يقعون في أسر العدو كيفية الصمود ومقاومة صور الاستجواب العنيفة التعسفية والاعتداء، وفي القلب من هذا التدريب تقع المشقّة النفسية والبدنية التي يختبرها المتدربون لأيام داخل سجون مُقلّدة لمعسكرات حرب. هذه المحاكاة العنيفة المنهكة تُهيئهم للتعامل بشكّل أفضل مع الفظائع التي قد تواجههم حال تعرضهم للأسر والتعذيب.

نقلت لي مصادر مختلفة في البحرية أن رسالة تجربة سجن ستانفورد عن سهولة تحول السلطة إلى القسوة المفرطة قد تم إيضاحها في تدريباتهم باستخدام الفيديو وكذلك الموقع الإلكتروني. يفيد هذا في تحذير المدربين الذين ينفذون عمليات الأسر في برنامج (SERE) من دوافع «التجاوز» في الإساءة «للأسرى»، لذلك فإن واحدة من استخدامات تجربة سجن ستانفورد هي التدريب الإرشادي «للحارس» على ضبط النفس في بيئة تسمح للحراس بالتعدي على الآخرين «لصالحهم».

من ناحية أخرى فإن برنامج (SERE) بحسب ما يُطبّق من قبل الجيش في «فورت براج Fort Bragg» في نورث كارولينا؛ قد وجهت له انتقادات بإساءة استخدامه من قبل وزارة الدفاع، يقولون بأن كبار الضباط «عكسوا زر التشغيل» من التركيز على أساليب زيادة مقاومة الجنود الأمريكيين المعرضين للأسر إلى تطوير أساليب استجواب أكثر فاعلية مع الأسرى من «المحاربين الأعداء» وغيرهم من أعداء أمريكا المُفترضين، ووفقًا للعديد من الآراء فإن هذه الأساليب قد هاجرت من برامج (SERE) العسكرية لتصل إلى سجن خليج جوانتانامو المعروف باسم «جيتمو».

أدان أستاذ القانون الأمريكي م. جريج بلوتش وجوناثان هـ. ماركس وهو محام بريطاني في المحكمة العليا وناشط في مجال الأخلاقيات البيولوجية استخدام إجراءات الاستجواب تلك، والتي طوّرها جزئيًا علماء سلوكيون وأطباء، يقولان أن «البنتاغون باستخدامه أساليب برامج (SERE) ونموذج جوانتانامو في ميدان المعركة فإنه يفتح المجال لكثير من العدوان... تبنيّ نموذج (SERE) من قبل القادة المدنيين لوزارة الدفاع الأمريكية هو دليل آخر على أن التعذيب هو سياسة قومية وليس مجرد عمل أفراد فاسدين»[١]. عبّرت المراسلة الاستقصائية جين ماير في مقال في مجلة نيويوركر بعنوان «التجربة» عن مخاوف مشابهة[٢]. سأتطرق لمسألة سوء استخدام وزارة الدفاع لتجربة سجن ستانفورد في الفصل الخامس عشر.

---

(١) M. G. Bloche and J. H. Marks, "Doing Unto Others as They Did to Us." *The New York Times*, November 4, 2005.

(٢) J. Mayer, "The Experiment," *The New Yorker*, July 11 and 18, 2005, pp. 60-71.

كانت التكتيكات التي طورتها برامج (SERE) جزءًا من بروتوكول التدريب الدفاعي لأفراد الجيش حال تعرضهم للأسر، لكن بعد هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ الإرهابية، عُدّلت لتصبح جزءًا من ترسانة التكتيكات العدوانية لاستخلاص المعلومات من العسكريين أو المدنيين المعدودين من الأعداء، وكان هدفها هو جعل المُستجوَبين يشعرون بالضعف وجعلهم أكثر مرونة وتعاونًا في الكشف عن المعلومات المطلوبة. طُورت هذه التقنيات بمساعدة مستشارين من علماء سلوكيين ثم تم تحسينها على أساس التجربة والخطأ من طريق الممارسة العملية في تدريبات برامج (SERE) في فورت براج، نورث كارولينا، وبعض منشآت التدريب العسكري الأخرى. بشكل عام قللت هذه التكتيكات من استخدام التعذيب الجسدي واستبدلت به «التعذيب الناعم» العقلي. التكتيكات الرئيسية الخمسة لبرنامج (SERE) الهادفة إلى جعل الأسرى أو أي شخص تحت الاستجواب أكثر قابلية للكشف عن المعلومات والاعتراف هي:

- الإهانة والتحقير الجنسين.
- الإهانة على أساس الممارسات الدينية والثقافية.
- الحرمان من النوم.
- الحرمان الحسي والإفراط الحسي.
- التعذيب الجسدي من أجل تحقيق انتصارات على المستوى النفسي كالشعور بالخوف والاضطراب، مثل الغرق أو خفض حرارة الجسم (عن طريق التعريض لدرجات حرارة شديدة الانخفاض).

نرى تلك التكتيكات خاصة مقترحة في مذكرات وزير الدفاع رامسفيلد لاستخدامها في جوانتانامو وأيضًا في مذكرات الجنرال سانشيز (General Sanzhez) لاستخدامها في سجن أبو غريب، ولتنفيذها في تلك السجون وبقية الأماكن. هناك أيضًا أدلة مسجلة على أن فريقًا من المحققين وبعض الشخصيات العسكرية الأخرى من جوانتانامو زاروا برنامج (SERE) في فورت براج في أغسطس ٢٠٠٢. بسبب الطبيعة السرية لهذه المعلومات فإن أهم البيانات بالطبع هي مجرد استنتاجات عقلية مبنية على تقارير من مصادر مختلفة من العارفين بهذا الشأن.

هل من الممكن أن تكون وزارة الدفاع أخذت الرسالة الرئيسية لتجربة سجن ستانفورد عن قوة المؤثرات الظرفية ثم استخدمتها في برامج التدريب على التعذيب؟ لا أحب أن أصدق هذا؛ لكن مؤخرًا قدّم أحدهم نقدًا قوّى من هذا الزعم:

> «يبدو أن التعذيب في العراق قد انتفع من هذه التجربة... صناعة الظروف... وجعلها أسوأ بخفض عدد أفراد طاقم العمل، وبالأوضاع الخطرة، وبانعدام رقابة خارجية مستقلة، وبقليل من التشجيع (دون تعليمات محددة مطلقًا عن التعذيب) يبدأ

الحراس في التعذيب. والآن هذه الظروف وهذا التعذيب شائعين في السجون الأمريكية في العراق... الفائدة التي تحققها الإدارة الأمريكية من تجربة سجن ستانفورد هي أنها توفر غطاء للإنكار، فلا توجد أوامر بالتعذيب، لكن موقف يُنتظر منه أن يتسبب به»[١].

وقد ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أنه يفوق كونه مجرد زعم؛ لأن تجربة سجن ستانفورد قد أشير إليها في تقرير لجنة شليزينجر أثناء التحقيق في اعتداءات سجن أبو غريب. يقولون بأن «نشرة معلومات هذه التجربة كانت وثيقة رسمية تربطها بأوضاع السجون الأمريكية، وتكشف عن سلسلة مسؤولية القيادة عن السياسة المُتبنّاة». الرابط الأساسي لتجربة سجن ستانفورد في تقرير شليزينجر هو إبراز التقرير لقوة الظروف المَرَضية التي خلقناها في تجربتنا.

«ردود الفعل السلبية المعادية للمجتمع التي رُصدت لم تكن نتيجة لبيئة شكّلها دمج مجموعة من الشخصيات المنحرفة؛ بل نتيجة لظرف مَرَضي في أصله يمكن أن يُشوه سلوك الأفراد الطبيعيين ويُعيد توجيهه. يكمن الشذوذ هنا في طبيعة الموقف لا فيمن مرّوا به»[٢].

انتقالات إلى ثقافة شعبية

لدينا أمثلة ثلاثة توضح كيفية انتقال تجربتنا من البرج العاجي للبحث العلمي إلى مجالات الموسيقى والمسرح والفن، من فرقة روك إلى فيلم ألماني فإبداع فنان بولندي عرض «خطه الفنّي» سنة ٢٠٠٥ في معرض فينيسيا. «تجربة سجن ستانفورد» هو اسم فرقة روك من لوس أنجلس موسيقاهم العنيفة هي «مزيج من الهراء والضوضاء» وفقًا لقائد المجموعة الذي عرف عن تجربة سجن ستانفورد أثناء دراسته في جامعة كاليفورنيا (UCLA)[٣]. «التجربة» هو اسم فيلم ألماني عن التجربة عُرض على نطاق واسع حول العالم. الربط بين الفيلم والتجربة باعتباره مستلهمًا منها يمنح هذا «الخيال» الشرعية وجودة العالم الواقعي وفقًا لكلام كاتب النص. عمدًا يثير الفيلم حيرة المشاهدين تجاه ما حدث في دراستنا إضافة لسلب الحريات في حبكته بقصد الإثارة، ينتهي الفيلم بكونه عرضًا سوقيًا عن الجنس والسلوكيات الجنسية غير المبررة والعنف بلا أية قيمة هادفة.

---

(١) Gerald Gray and Alessandra Zierlinski, "Psychology and U.S. Psychologists in Torture and War in the Middle East," *Torture* 16 (2006): 128-33, quotes on pp. 130-31.

(٢) "The Schlesinger Report," in *The Torture Papers*, eds. K. Greenberg and J. Dratel (UK: Cambridge University Press, 2005), pp. 970-71.

لدينا الكثير لنقوله عن نتائج هذا التحقيق المستقل في الفصل الخامس عشر.

(٣) Richard Alvarez, review of Stanford Prison Experiment, *Cover*, September 1995, p. 34.

وعلى الرغم من أن بعض المشاهدين أعجبوا بالفيلم إلا أن الانتقادات كانت قاسية كالتي صدرت عن الناقدَيْن البريطانيَيْن المعروفَيْن. قال أحد نقاد مجلة الأوبزرفر: «"التجربة" هو نوع غريب من الإثارة لا يحمل أي قدر من الإبداع ويقدم نفسه كقصة أخلاقية محلية وربما (عالمية) تنحو نحو الشمولية الفاشية»[1]. وكان ناقد الغارديان أقسى: «أية حلقة من برنامج الأخ الكبير كانت ستكون أكثر عمقًا من هذا الهراء السخيف الغبي»[2]. خرج الناقد الأمريكي روجير إيبرت بدرس قيّم من الفيلم يسري على تجربة سجن ستانفورد كذلك: «ربما تحولنا الأزياء الموحدة إلى مجموعة من كلاب الصيد يقودها أنفضلهم، وقليل من يشذّ»[3].

صنع الفنان البولندي أرتور زميوسكي فيلمًا مدته ست وأربعون دقيقة بعنوان (Repitition)، يلقي فيه الضوء على أيام سبعةٍ قضاها متطوعون في سجنه المُزيف مقابل أجر مدفوع. كان الفيلم يُعرَض على رأس كل ساعة أمام جمهور كبير في الجناح البولندي وذلك في يونيو ٢٠٠٥ في معرض فينيسيا حيث أُقْدِم احتفالية بالفن المعاصر في العالم، وعُرض أيضًا في معارض وارسو وسان فرنسيسكو.

وفقًا لأحد النقاد فإن هذا الفيلم «يقول بأن تجربة زيمباردو التي كان لها من التلقائية في تصميمها قدر ما كان لها من الصرامة العلمية؛ ربما صُنعت كما تصنع الأعمال الفنية... لكن في السجن المقلّد يُنسى أمر الديكور الفني، وتبدأ اللعبة بالتقدم وفق قوة دفع خاصة بها، وتبتلع اللاعبين بشكل كامل في ديناميكيتها التي بدأت تمسهم في الصميم، يصير الحراس أكثر وحشية وتسلطًا، ويوضع من يعصي الأوامر في عزلة، وتحلق رؤوس الجميع. إلى هنا وبدأ قلة من السجناء ينظرون إلى الأمر على أنه موقف شرير وانسحبوا من التجربة بدلًا من أن يروا هذا كله على أنه مجرد لعبة مزعجة يستطيعون تحمّلها مهما تطلب الأمر (مقابل ٤٠ دولار في اليوم)»[4].

الموقع الإلكتروني لتجربة سجن ستانفورد، قوة الإنترنت

باستخدام لقطات مؤرشفة وعرض شرائح من اثنتين وأربعين شريحة يحكي لنا موقع (www.prisonexp.org) قصة ما حدث في تجربتنا على مدار ستة أيام مصيرية، ويتضمن الكثير من الوثائق والأسئلة الحوارية والمقالات واللقاءات وثروة من مواد أخرى للمعلمين والطلبة

(١) Philip French, review of "Das Experiment," *The Observer*, Online, March 24, 2003.

(٢) Peter Bradshaw, review of "Das Experiment," *The Guardian*, Online, March 22, 2002.

(٣) Roger Ebert, review of "Das Experiment," *Chicago Sun-Times*, Online, October 25, 2005.

(٤) Blake Gopnik, "A Cell With the Power to Transform," *The Washington Post*, Jun 16, 2005, pp. C1, C5.

وأي شخص آخر مهتم بأن يعرف أكثر عن التجربة والمؤسسات الإصلاحية في خمس لغات. أُطلق الموقع في ديسمبر ١٩٩٩م بمساعدة احترافية من سكوت بلوز ومايك ليستيك.

إذا دخلت على جوجل وبحثت عن «Experiment» فإنك على الأرجح ستجد أن تجربة سجن ستانفورد ستكون من أولى النتائج ظهورًا في محرّك البحث عبر العالم من بين ٢٩١ مليون نتيجة (وذلك في أغسطس ٢٠٠٦)، وفي أغسطس ٢٠٠٦ أيضًا كانت كلمة البحث «Prison» تضع موقع التجربة في المرتبة التالية بعد مكتب السجون الفدرالي للولايات المتحدة من بين أكثر من ١٩٣ مليون نتيجة.

في الأيام العادية يصل زوار موقع (www.prisonexp.org) إلى خمسة وعشرين ألف زائر، وقد جاوز عدد زياراته ٣٨ مليون زيارة منذ إطلاقه. مع بلوغ التغطية الإخبارية ذروتها فيما يتعلق باعتداءات سجن أبو غريب في مايو ٢٠٠٤؛ تخطّت زيارات موقع التجربة والموقع الأصلي (www.socialpsychology.org) حاجز (٢٥٠,٠٠٠) زيارة في اليوم. هذه الأرقام لا تشهد لاهتمام العامة بالبحث في علم النفس فحسب؛ ولكن تشهد أيضًا لحاجة الكثير من الناس إلى فهم ديناميكيات الاعتقال، أو بشكل عام، ديناميكيات السلطة والقمع. ربما تعكس البيانات أيضًا الاهتمام الأسطوري الذي حازته هذه التجربة في العديد من البلدان حول العالم.

إحدى النتائج الشخصية جدًا والواضحة لزيارة موقع تجربة سجن ستانفورد الإلكتروني نجدها في الرسالة التالية التي وصلتني من طالب في علم النفس في التاسعة عشرة من عمره، والذي يصف الاستفادة الشخصية التي حصل عليها من اطلاعه على هذه المعلومات، فقد مكّنته من فهم تجربة فظيعة مرّ بها أثناء وجوده في إحدى معسكرات التدريب العسكرية:

> «لم أحتج إلى الذهاب بعيدًا [في مشاهدة تجربة سجن ستانفورد] حتى غرقت في دموعي. في نوفمبر ٢٠٠١ انضممت إلى فرق المارينز الأمريكية سعيًا خلف حلم طفولتي. وحتى أختصر قصة طويلة؛ أصبحت ضحية اعتداءات نفسية وجسدية متكررة وغير قانونية. أظهر التحقيق أنني تعرضت للضرب غير المبرر أكثر من أربعين مرة. بقدر ما حاربت هذا صارت عندي لاحقًا ميول انتحارية، لذلك تم تسريحي من معسكر المشاة ولم يكن قد مضى على وجودي في هذه القاعدة سوى ثلاثة أشهر.
>
> ما أحاول إيضاحه هنا هو أن الأسلوب الذي نفّذ به حراسك واجباتهم وطريقة المدربين العسكريين لا يمكن تصديقها، لقد أذهلني التشابه بين حراسك وبين أحد المدربين على وجه الخصوص وقد حضر في ذهني على الفور. كنت أُعامل بنفس الطريقة وربما أسوأ في بعض الأحيان.

إحدى الوقائع البارزة كانت محاولة كسر اصطفاف عصبة منا، أُجبِرتُ على الجلوس في الوسط من مقر إقامتنا والصراخ في الجنود الآخرين: «لو كنتم تتحركون بسرعة أكبر لما مكثنا ساعات في فعل هذا» وكل منهم كان يحمل خزانة شديدة الثقل فوق رأسه، كانت الواقعة شديدة الشبه بقول «٨١٩ سجين سيئ». كل ما استطعت التفكير فيه بعد تلك الواقعة وبعدما أصبحت آمنًا في بيتي بعد بضعة أشهر؛ هو كم أرغب في العودة لأقول للجنود الآخرين أنه بقدر ما قال لهم المدرب د.ي. أنني جندي سيئ؛ لم أكن كذلك. [تمامًا كما أراد سجيننا ستو ٨١٩ أن يفعل]. وتصرفات أخرى شبيهة تقفز إلى ذهني مثل تأدية تدريبات الضغط كعقاب وحلق الرؤوس وعدم وجود هوية سوى مخاطبة الآخرين بصيغة «الجندي كذا وكذا» وهو ما يحاكي الدراسة.

المهم في كل هذا هو أن دراستك حتى وإن جرت منذ ٣١ عامًا؛ إلا أن قراءتي لها ساعدتني في فهم ما لم أكن قادرًا على فهمه من قبل، حتى بعد العلاج والاستشارات النفسية. ما قمتَ بإثباته أمدّني بمعرفة أكبر عن أمر أعالجه منذ سنة تقريبًا، وعلى الرغم من أن هذا لا يعذر سلوكهم بالتأكيد؛ لكنني الآن أفهم المنطق خلف تصرفات المدرب د. ي. والذي يصل به حد السادية وشره السلطة. باختصار دكتور زيمباردو، شكرًا لك».

رسم تصويري كامل عن كيفية صناعة جندي البحرية نجده في كتاب ويليام مارز «ماكينة البحرية»[1].

من المنطقي أن نخلص إلى أن هناك شيئًا ما في هذه التجربة الصغيرة كانت له قيمة خالدة لا بين علماء الاجتماع فحسب، ولكن بين عامة الناس كذلك. أؤمن الآن أن هذا «الشيء الما» المميز هو التحول الشديد للطبيعة الإنسانية، لا بفعل المواد الكيميائية الغامضة التي يستخدمها دكتور جيكل والتي حولته إلى السيد هايد الشرير، ولكن من طريق المواقف الاجتماعية والأنظمة التي تصنع هذه المواقف وتحافظ عليها. أشعر بسعادة أنا وزملائي لأننا استطعنا «أن نفسح لعلم النفس طريقًا إلى الوعي العام» بأسلوب مفيد ومثير وممتع يسمح لنا جميعًا أن نفهم أمورًا أساسية ومربكة عن الطبيعة الإنسانية.

الآن حان وقت توسعة الأساس التجريبي لنذهب إلى ما هو أبعد من تجربة واحدة ونحن ننتقل إلى الفصول التالية لنراجع عددًا من الأبحاث من عدة مصادر والتي سنفهم منها بشكل أكبر مدى أهمية المواقف في تحويل الأخيار إلى أشرار.

---

(١) W. Mares, *The Machine: The Making of the United States Marine* (New York: Doubleday, 1971).

الفصل الثاني عشر

استقراء الديناميكيات الاجتماعية: السلطة والتوافق والطاعة

«أؤمن بأنه في فترة ما من حياة كل البشر، وبين الطفولة وأرذل العمر في حياة أكثر البشر؛ تكون الرغبة في الوجود داخل الدائرة المحلية والرعب من المكث خارجها من أكثر العناصر سطوةً على حياتهم... من بين كل العواطف تكون العاطفة تجاه هذه الدائرة الداخلية هي الأقدر على صناعة إنسان لم يفسد بقدرٍ كافٍ ليتحول إلى شخص يقوم بأفعالٍ بالغة السوء»

كلايف ستابلس لويس[1]

تضللنا الدوافع والاحتياجات ذاتها التي عادةً ما تُفيدنا حال استثارتها أو تضخمها أو تلاعب المؤثرات الظرفية التي نفشل في إدراك مدى قوتها بها، لذا تكون الغلبة لانتشار الشر، فغواياته التي لا تعدو كونها مُجردّ تحوّل ضئيل، انحراف بسيط في طريق الحياة، شيءٌ من الغبش في مرآة الرؤية الجانبية؛ تقودنا إلى الكارثة.

أوجزت مسبقًا عددًا من العمليات النفسية في محاولة فهم تحولات الشخصية التي طرأت على الشبان الصالحين في تجربة سجن ستانفورد والتي كان لها دور أساسي في انحراف تفكيرهم ومشاعرهم وإدراكهم وتصرفاتهم. رأينا كيف أن الحاجة الأساسية إلى الانتماء والارتباط بالآخرين والشعور بقبولهم لنا ـ وهو الأمر المركزي في بناء الروابط المجتمعية والأسرية ـ قد انحرف في تجربة سجن ستانفورد ليتحول إلى خضوع وفق معايير

(1) كلايف ستابلس لويس (C. S. Lewis) [١٨٩٨ ـ ١٩٦٣م] أستاذ إنجليزية العصور الوسطى والنهضة بجامعة كامبريدج (Cambridge University)، وروائي وكاتب قصص الأطفال، ومتحدث ذو شعبية عن القضايا الدينية والأخلاقية. في أشهر كتبه (*The Screwtape Letters*) (١٩٤٤م)، شخّص شيطانًا قديمًا في الجحيم يكتب رسائل تشجع جهود الشياطين الجدد في العمل بكدٍ على الأرض. الحلقة الداخلية (The Inner Ring) كانت محاضرة ألقيت في مناسبة بجامعة الملك، بلندن [King's College]، أمام الطلبة سنة ١٩٤٤م.

جديدة سمحت للحراس بالتعدي على السجناء[1]. ورأينا كذلك أن الدافع الأساسي لاتساق توجهاتنا الخاصة مع سلوكنا المعلن قد أفسح المجال للتفكر في هذه الالتزامات المتعارضة وعقلنتها بممارسة العنف مع الرفاق[2].

سأجادل عن أن أشد التغيُّرات السلوكية تطرفًا و«السيطرة على العقول» لا تحدث بسبب أنماط غريبة من التأثير على الآخرين مثل التنويم المغناطيسي أو العقاقير النفسية أو «غسيل المخ»؛ بل سنجدها في التلاعب الممنهج بجوانب بسيطة من الطبيعة البشرية بمرور الوقت في بيئات محدودة[3].

أعتقد أن هذا هو المعنى الذي أراده الأديب الإنجليزي كلايف ستابلس لويس، فإحدى المؤثرات الشديدة في تحويل السلوك البشري ودفع الناس عبر الحدود الفاصلة بين الخير والشر تتأتى من رغبتنا الأساسية في أن نكون في «الداخل» لا في «الخارج». إذا تصوّرنا القوى المجتمعية على أنها مجموعة دوائر متحدة المركز مرتبة من الداخل إلى الخارج بحسب الأكثر قوة؛ سنتمكن حينها من تقدير مدى أهمية تركيزه على قوة الجذب المركزية لتلك الدائرة الأقوى.

إن حلقة لويس «الداخلية» هي القلعة المنيعة التي تراوغنا في القبول في مجموعة خاصة أو بعض المنظمات المميزة التي ترفع من شأنك وتعزز هويّتك بمجرد انضمامك لها، هذا الإغراء شديد الوضوح لأغلبنا، فمن ذا الذي يعرض عن كونه عضوًا في «الجماعة الداخلية»؟ من ذا الذي لا يريد أن يشعر بأنه حاول واستحق شرف الانضمام والصعود إلى محمية جديدة من محميات القبول المجتمعي؟

عُرِّف ضغط الأقران بأنه إحدى القوى المجتمعية التي تجعل الناس وخاصة المراهقين يقدمون على فعل أشياء غريبة - أي: شيء - في سبيل قبولهم، أما السعي نحو الحلقة الداخلية فتغذيه دواخلنا، لن يكون لضغط الأقران أثر بدون دفعة من ضغط ذاتي داخلك بأنهم يريدونك، وهذا ما يجعل الناس مستعدين لمعاناة طقوس مؤلمة ومهينة عند الانضمام إلى أخويات أو طوائف أو أندية اجتماعية أو خدمة عسكرية، وهذا ما يبرر للعديد من

---

(١) R. F. Baumeister and M. R. Leary, "The Need to Belong: Desire for Interpersonal Attachments as a Fundamental Human Motivation," Psychological Bulletin 117 (1995): 427-529.

(٢) R. B. Cialdini, M. R. Trost, and J. T. Newsome, "Preference for Consistency: The Development of a Valid Measure and the Discovery of Surprising Behavioral Implications," *Journal of Personality and Social Psychology* 69 (1995): 318-28. L. Festinger, *A Theory of Cognitive Dissonance (Stanford, CA: Stanford University Press, 1957).*

(٣) P. G. Zimbardo and S. A. Andersen, "Understanding Mind Control: Exotic and Mundane Mental Manipulations," in *Recovery from Cults, ed. M. Langone, (New York: W. W. Norton, 1993): A. W. Scheflin and E. M. Opton, Jr., The Mind Manipulators: A Non-Fiction Account* (New York: Paddington Press, 1978).

الناس القبول بمعاناة تمتد العمر في سبيل الترقيّ في السُلّم الوظيفي لشركاتهم.

تنشط هذه القوة التحفيزية بشكل مضاعف عن طريق ما يسميه لويس «رعب البقاء خارجًا»، إنه هذا الخوف من الرفض، خاصة عندما تأتي رغبة الإنسان بالقبول الاجتماعي في صورة روح المبادرة وإلغاء الاستقلال الشخصي. يمكن لهذا أن يحول الحيوانات الاجتماعية (البشر) إلى أشخاص انطوائيين، ومن الممكن أن يقود خطر الإبعاد المتوهَّم إلى فعل أي شيء تقريبًا لتجنب هذا الرفض المريع. تستطيع السلطات أن تضمن الطاعة التامة لا بإعمال سياسة الثواب والعقاب ولكن باستخدام سلاح ذي حدين، وهو إغراء القبول مع خطر الرفض، فهو دافع قوي للإنسان حتى إن الغرباء ليجدوا حافزًا من حصولهم على وعدٍ بتخصيص مكانٍ لهم على طاولة اجتماع تُحكى عليها الأسرار... «بيني وبينك»[١].

مؤخرًا ظهر مثال مقزز على تلك الديناميكيات الاجتماعية عندما حُكِم على سيدة في الأربعين من عمرها بأنها مذنبة بمعاشرة خمسة طلاب في المرحلة الثانوية وتوفير المخدرات والخمور لهم في حفلات جنسية أسبوعية في بيتها لمدة عام كامل. أخبرت الشرطة أنها فعلت هذا لأنها كانت تريد أن تكون «أمًا عصرية». في اعترافها أخبرت تلك الأم العصرية المحققين بأنها لم تكن تحظى أبدًا بقبول بين زملائها في المدرسة الثانوية، لكن بتنظيم تلك الحفلات بدأت تشعر بأنها «فرد من المجموعة»[٢]. فهي بذلك بكل أسف، أمسكت بالحلقة الداخلية الخاطئة.

استنتاجات الأبحاث حول التأثيرات العارضة

ليست تجربة سجن ستانفورد سوى نقطة في بحر الظروف الاجتماعية والبناءات الاجتماعية العريضة للواقع. رأينا كيف أنها ركّزت على العلاقة بين الأفراد داخل بيئة مؤسسية. ألقت العديد من الدراسات ـ التي سبقتها أو تلتها ـ الضوء على العديد من الجوانب الأخرى للسلوك الإنساني التي تُشَكِّلها المؤثرات الظرفية بطرق غير متوقعة.

من الممكن أن يقودنا الوجود داخل مجموعة إلى القيام بأشياء لم نكن لنقوم بها من

---

(١) بالإضافة إلى الضغوط التي تضعها معايير المجتمع على الفرد لتبنّي آراء الآخرين، فإن هناك بعض القوى العقلانية الفاعلة التي تؤثر فيه، وذلك لكون الآخرين يُمكن أن يقدموا للفرد معلومات قيّمة وآراء حكيمة:
M. Deutsch and H. B. Gerard, "A Study of Normative and Informational Social Influence upon Individual Judgement," Journal of Abnormal and Social Psychology 51 (1955): 629-36.

(٢) Associated Press (July 26, 2005). 'Cool Mom' Guilty of Sex with Schoolboys: She Said She Felt Like 'One of the Group'.

يتناول التقرير إقامتها حفلات جنس وسكر من أكتوبر ٢٠٠٣ وحتى أكتوبر ٢٠٠٤ في مدينة جولدين الريفية في كولورادو.

تلقاء أنفسنا ونحن بمفردنا، لكن التأثير يكون في الغالب غير مباشر ويشكل السلوك القياسي الذي تريد منا المجموعة محاكاته وممارسته، في حين يكون تأثير السلطة أكثر مباشرة دون أية مواربة: «تفعل ما يُملَى عليك»، لكن لأن الطلب يكون معلنًا وصريحًا في الغالب؛ يمكن للفرد أن يقرر العصيان وعدم اتباع القائد. حتى تفهموا ما أقصد فكِّروا في السؤال التالي: «إلى أي مدى سيذهب شخص صالح في المقاومة أو الإذعان لأمر شخصية ذات سلطة بإيذاء أو قتل غريب بريء؟». اختُبر هذا السؤال المستفز تجريبيًّا في دراسة جدلية عن الطاعة العمياء للسلطة، هي تجربة كلاسيكية ربما سمعت عنها بالفعل بسبب نتائجها «الصادمة»، لكن هناك قيمة كبرى موجودة في إجراءاتها التي سوف نستخرجها لتدعم سعينا إلى فهم أسباب استدراج الأخيار إلى فعل أشياء شريرة، سنراجع استنساخات وتوسيعات تلك الدراسة الكلاسيكية وسنعيد تكرار السؤال الذي فرض في كل الأبحاث المشابهة: ماذا مما هو خارجها يصدق عليها، ما أوجه التشابه بين عالم الواقع والتجارب المختبرية عن قوة السلطة؟

احذر: فقد تكون التحيزات الخادمة للذات مفعّلة الآن

قبل أن نلج تفاصيل هذا البحث يجب أن أحذركم من إحدى التحيزات التي ربما تكون مُفعّلة داخلكم مما سيمنعكم من الوصول إلى الاستنتاجات الصحيحة من كل ما سوف تقرؤونه الآن. أغلبنا يبني تحيزات أنانية داعمة وخادمة للذات تجعلنا نشعر بأننا مميزون، لسنا عاديين، وبالتأكيد «نحن أعلى من الأشخاص العاديين»[1]. تخدم تلك التحيزات الإدراكية العديد من الوظائف المهمة في دعم تقديرنا لذاتنا وحمايتنا من الصدمات العنيفة للحياة، تسمح لنا بتبرير الإخفاقات وتقدير النجاحات وعدم تحمُّل مسؤولية خطأ القرارات، تسمح لنا أن نرى عالمنا الخاص عبر موشورات ملونة بألوان قوس قزح. على سبيل المثال، تظهر الأبحاث أن (٨٦٪) من الأستراليين يقيّمون أداءهم في العمل بأنه أعلى من العادي، وكذلك ٩٠٪ من مديري الأعمال الأمريكيين يقيّمون أداءهم بأنه يفوق أداء أقرانهم. (تأسَّف على أدائهم الضعيف يا صديقي).

لكن هذه التحيزات لا تتكيف بشكل جيد مع المجتمع وتعمينا عن تشابهنا مع الآخرين وتبعدنا عن الواقع الذي يقول بأن البشر أشباهنا يسيئون التصرف في المواقف الصعبة. وكذلك تعني تلك التحيزات أننا لا نُعمل أبسط الاحتياطات الأساسية لتجنُّب أية

---

(١) فحصت التحيزات الخادمة للذات، الأنانية، التي توجد في مستوى فوق المتوسط بشكل موسع. لتحصل على موجز حول التأثيرات الرئيسية في مختلف مجالات التطبيق انظر:

D. Meyers, *Social Psychology*, 8th ed. (New York: McGraw-Hill, 2005), pp. 66-77.

نتائج غير مرغوب بها لسلوكنا لأننا نفترض أن هذا لن يحدث لنا، لذلك ندخل في مخاطرات جنسية، ومخاطرات في معاقرة الخمر والمقامرة، ومخاطرات بالصحة، وغير ذلك الكثير. في النسخ الأكثر تطرفًا من تلك التحيزات يؤمن أغلب الناس بأنهم أقل عرضة لتلك التحيزات التي تخدم الذات مقارنة بالآخرين، حتى لو أخبرهم أحد بها[١].

هذا يعني: أنك عندما تقرأ عن تجربة سجن ستانفورد أو عن الدراسات التي ستأتي في القسم التالي من هذا الفصل ربما تخلص إلى الظن بأنك لن تفعل ما فعلته الغالبية، وأنك بالطبع ستكون الاستثناء من القاعدة. هذا الاعتقاد غير المنطقي من المنظور الإحصائي (لأن أغلبنا نتشارك هذا الاعتقاد) يجعلك أكثر عرضة للسقوط أمام المؤثرات الظرفية لأنك تقلل من شأن قدرتها وكذلك تبالغ في تقدير قوتك. أنت مقتنع بأنك ستكون الحارس الصالح، أو السجين الشجاع أو المقاوم أو المتمرد أو الذي لا يذعن، وأهم من أي شيء آخر؛ البطل. ليت الأمر كان كذلك، الأبطال هم سلالة نادرة سنلتقي بعضهم في الفصل الأخير.

لذلك أدعوك إلى تنحية تحيزاتك الآن وتخيُّل أن ما فعلته الأغلبية في تلك التجارب هو أمر قد يحدث لك أنت أيضًا. على الأقل قل لنفسك من فضلك أنك لست واثقًا ما إذا كنت ستُستدرج بسهولة لفعل نفس الأشياء التي فعلها المشاركون العاديون في تلك الدراسات لو كنت مكانهم وخضعت لنفس الظروف. أطلب منك تذكُّر ما قاله السجين كلاي ٤١٦، صاحب تمرُّد النقانق، في لقاء ما بعد التجربة عندما التقى بمن كان يعذبه، الحارس جون واين، عندما سخر منه بقوله: «أي نوع من الحراس ستكونه لو كنت مكاني؟» فرد عليه بتواضع، «حقًا لا أعرف».

من خلال الإقرار بأننا جميعًا نخضع لنفس القوى الديناميكية في حالة الإنسان وتقديم التواضع على الفخر؛ سنتمكن من الاعتراف بقابليتنا للسقوط أمام المؤثرات الظرفية. فلنتذكر في هذا الشأن كيف عبّر الشاعر والأديب الإنجليزي جون دون ببلاغة رفيعة عن ترابطنا وتواكلنا:

> «يعود أصل الجنس البشري بأسره إلى كاتب واحد وكتاب واحد، لا يُمزَّق فصل من الكتاب مع موت أي إنسان؛ لكن تُعاد صياغته بلُغةٍ أفضل. إن إعادة صياغة كل فصل هي أمر ضروري... وعليه فإن كل جرس يقرع ليعلن عن عِظة دينية لا يدعو الواعظ فحسب، ولكن يدعو حشدًا من الناس ليأتوا كذلك، لذلك فإن هذا الجرس ينادينا جميعًا... لا يوجد إنسان هو جزيرة منعزلة، أو ذات كليّة... كل إنسان

(١) E. Pronin, J. Kruger, K. Savitsky, and L. Ross, "You Don't Know Me, but I Know You: The Illusion of Asymmetric Insight," *Journal of Personality and Social Psychology* 81 (2001): 639-56.

بموت يأخذ مني لأنني جزء من الجنس البشري، ولذلك لا تحاول أبدًا البحث عمن يُقرَع الجرس له، فأنّى قَرَع فهو يقرع لك».

(Meditations 27)

بحث سولومون آسك عن الإذعان: الانتظام في الصف

آمن عالم اجتماع آخر، وهو سولومون آسك[1]، بأن المواطنين الأمريكيين يمكن أن ينصرفوا باستقلالية حتى عند مواجهتهم أغلبية ترى العالم برؤية مختلفة عن رؤيتهم. الإذعان الحقيقي يتطلب أن تعارض مجموعة التصورات والمعتقدات الأساسية للفرد، أن (س) هو (ص) على الرغم من وضوح كذب هذا القول. توقّع آسك أن عددًا قليلًا من الناس سيذعنون في هذه الظروف وأن الغالبية ستعارض بقوة هذا الضغط الرهيب لرأي المجموعة لأنه خاطئ بوضوح.

ما الذي يحدث فعليًا لمن يواجهون واقعًا اجتماعيًا يناقض تصوراتهم الأساسية عن العالم؟ دعوني أجلسكم موضع المشارك في البحث حتى نكتشف هذا.

لنقل أن قد وقع عليك الاختيار للمشاركة في دراسة عن الإدراك البصري تبدأ بأخذ رأيك عن أحجام الخطوط، تعرض عليك أوراق وفي كلّ ورقة خطّ بطول مختلف ثم يطلب منك أن تقول بصوت مرتفع أي الخطوط مساوٍ في الطول لأيٍ من الخطين الآخرين. خط قصير، وخط طويل، وخط بنفس طول الخط الذي تُطلب المقارنة به، الأمر شديد السهولة بالنسبة لك. ترتكب أخطاء قليلة مثلك مثل الآخرين (أقل من ١ بالمائة في أغلب المرات)، لست وحدك في هذه الدراسة ويحيط بك العديد من المشاركين مثلك، من حولك سبعة أشخاص وأنت الثامن. تكون إجابتك مماثلة لإجاباتهم في البداية، جميعكم أصبتم، لكن بعد ذلك تبدأ الأمور غير المألوفة بالحدوث. بعد بعض المحاولات يقول كل منهم أنه يرى أن للخط الطويل نفس طول الخط المتوسط أو أن للخط القصير نفس طول المتوسط. أنت لا تعرف أن السبعة الآخرين هم من أعضاء الفريق البحثي لآسك وقد قيل لهم أن يقدموا إجابات خاطئة عند محاولات محددة حاسمة، وعندما يحين دورك ينظرون إليك جميعًا وأنت تنظر في الورقة ذات الخطوط الثلاثة، أنت ترى بوضوح شيئًا مختلفًا عما يرونه لكن هل ستفصح عن هذا؟ هل ستتمسك برأيك وتقول أنك تعرف أنك محق؟ أم ستتماشى مع ما يقوله الآخرون؟ تواجه ذات الضغط في اثنتي عشرة محاولة من أصل ثماني

(١) S. E. Asch, "Studies of Independence and Conformity: A Minority of One Against a Unanimous Majority," Psychological Monographs70 (1951): whole no. 416; S. E. Asch, "Opinions and Social Pressure," Scientific American, November 1955, pp. 31-35.

عشرة تعطي فيها المجموعة إجابات خاطئة، لكنهم يصيبون في ست محاولات أخرى.

لو كان حالك مثل حال أغلب المشاركين الـ ١٢٣ في دراسة آسك؛ فإنك ستخضع للمجموعة في ٧٠٪ من المرات الحاسمة التي أُعلن فيها الرأي الخاطئ عن عمد. ٣٠٪ من المستخدمين في البحث امتثلوا في أغلب المحاولات في حين كان ٢٥٪ قادرين على الحفاظ على استقلاليتهم طوال الاختبار. قال البعض بأنهم أدركوا الفارق بين ما رأوه وبين ما اتفقت عليه المجموعة لكنهم شعروا أنه سيكون من الأسهل أن يتماشوا مع البقية. بالنسبة لآخرين؛ خلق هذا التباين صراعًا كان حلّه هو تصديق أن المجموعة مصيبة وأن ما رأوه هم كان خطأ! كل من خضعوا كانوا يعتقدون قبل التجربة أن معدّلات الإذعان لديهم ضعيفة وقالوا أنهم لا يمتثلون للمجموعة وهو ما خالف ما حدث فعليًا، حافظوا على استقلاليتهم لكن في أذهانهم لا في أفعالهم.

أظهرت الدراسات التي استكملت ما بدأته هذه الدراسة أن الفرد عندما يواجه شخصًا واحدًا قدّم تقديرًا خاطئًا فإنه يتوتر بعض الشيء ولكن يحافظ على استقلاليته، لكن مع وجود عدد كبير وأغلبية من الأفراد يعارضونه، ترتفع نسبة الخطأ لتصل إلى (٣٢٪). مع ذلك وجد آسك ملحوظة أخرى تدعو للتفاؤل، فقد وجد طريقة مؤثرة لدعم الاستقلالية، وذلك بإعطاء الفرد المستخدم في البحث شريكًا تتفق آراؤه معه وهنا تقلصت قوة الأغلبية بشكل كبير. انخفض الدعم برأي مماثل من الأخطاء إلى ربع ما كانت عليه بدون شريك، وزاد تأثير المقاومة حتى بعد مغادرة الشريك.

تأتي إحدى الإضافات القيمة لفهمنا أسباب إذعان البشر من بحث يبرز آليتين أساسيتين تسهمان في الخضوع للمجموعة[1]: نخضع للحاجة إلى المعلومات: غالبًا ما يكون لدى الآخرين أفكار، آراء، وجهات نظر، ومعارف يمكن أن تساعدنا في استكشاف العالم بشكل أفضل خاصة عبر شواطئ أجنبية وموانئ جديدة. الآلية الثانية هي الاحتياجات المعيارية: غالبًا ما يقبلنا الآخرون عندما نتفق معهم بصورة أكبر مما يحدث عندما لا، لذلك فإننا نذعن لرؤيتهم عن العالم حيث تقودنا في هذا الحاجة إلى الانتماء، واستبدال أوجه التشابه بيننا وبينهم بالاختلافات.

الطاعة العمياء للسلطة: بحث ميلغرام باستخدام الصدمات

«كنت أفكر في طريقة أجعل بها لتجربة آسك عن الامتثال مغزى أكبر للإنسانية. لم أعجب بكون اختبار الإذعان قد دار على أخذ رأي المُستَخدمين في التجربة في

(١) M. Deutsch and H. B. Gerard (1955).

أطوال الخطوط. تساءلت عما إذا كان بإمكان المجموعات أن تدفع شخصًا إلى الإقدام على فعل ذي مغزى إنساني واضح، ربما على التصرف بعنف تجاه شخص آخر من خلال توجيه صدمات كهربائية متصاعدة في شدتها، لكن لدراسة تأثير المجموعة... يجب أن تعرف ما سيفعله المُشارك في التجربة دون أي ضغط من أية مجموعة. هنا تحول تفكيري إلى تصغير التحكم التجريبي. إلى أي مدى سيصل الشخص في امتثاله للأوامر التجريبية؟».

تلك التأملات من الأستاذ والباحث المساعد لسولومون آسك بدأت سلسلة مهمة من الدراسات نفّذها عالم النفس ستانلي ميلغرام، والتي صارت تعرف باسم أبحاث «الطاعة العمياء للسلطة». جاء اهتمامه بمسألة طاعة السلطة من اهتمام شخصي عميق بمدى طاعة النازيين أوامر قتل اليهود أثناء مذبحة الهولوكوست.

«قدّم نموذجي المعملي... تعبيرًا علميًا عن مخاوف عامة بشأن التسلط، عن خوف فُرض على أبناء جيلي وخصوصًا على اليهود أمثالي بسبب فظائع الحرب العالمية الثانية... حفّز تأثير الهولوكوست في نفسيتي اهتمامي بالطاعة وكان له دور في اختياري لفحصه بهذا الأسلوب تحديدًا»[١].

أرغب في إعادة صناعة الظروف التي واجهت المتطوع في هذا المشروع البحثي حتى تتمكن من تصورها، ثم سأذهب إلى تلخيص النتائج وإيجاز عشر دروس مهمة يمكن أن نخلص إليها من هذا البحث ويمكن تعميمها على مواقف أخرى تشهد تحوّلات سلوكية في حياتنا اليومية، ثم سننظر في توسعة هذا النموذج بعرض أشياء مشابهة من حياتنا الواقعية اليومية. (انظر: الهامش[٢] من أجل شرح علاقتي الشخصية بالأستاذ ستانلي ميلغرام).

---

(١) T. Blass, *Obedience to Authority: Current Perspectives on the Milgram Paradigm* (Mahwah, NJ: Erlbaum, 1999), p. 62.

(٢) في سنة ١٩٤٩م كان يجلس إلى جانبي بمدرستنا الثانوية في السنة النهائية زميلي ستانلي ميلغرام. كلانا كان يتسم بالنحافة والطموح والرغبة في عمل شيء لنفسينا بحيث نتمكن من الهرب من الحياة داخل حدود ذلك الغيتو. كان ستانلي هو الصغير اللامع الذي كنا نلجأ إليه للحصول على اجوبة اكيدة، اما انا فكنت طويل القامة ذا الشعبية المبتسم الذي قد يلجأ إليه الآخرون ليقدم لهم نصائح اجتماعية، وحتى في ذلك الوقت كنا في بدايات تبنينا لقدرة الظرف، كنت قد عدت إلى مدرسة مونرو بعد عام مريع في مدرسة نورث هوليود الثانوية حيث كان الجميع يتجنبني ويتحاشى صداقتي (بسبب شائعة عني كما علمتُ لاحقًا بأنني انتمي الى عائلة من المافيا الإيطالية من نيويورك)، ليتم اختياري كأكثر الأولاد شعبية في مونرو. تحدثت مع ستانلي مرة عن كيفية حدوث هذا التحول، واتفقنا على أنني لم أتغير ولكن الظرف هو الذي اختلف، عندما التقينا بعد هذا بسنوات في جامعة يال (Yale) سنة ١٩٦٠ وكان قد بدأ مسيرته المهنية كأستاذ مساعد في جامعة يال، وأنا في جامعة »

نموذج ميلغرام للطاعة

تخيل أنك رأيت الإعلان التالي في جريدة يوم الأحد وقررت التقدّم. الدراسة الأصلية لم تشمل سوى الرجال، لكن استخدمت النساء في دراسة لاحقة، لذلك أدعو كل القرّاء إلى المشاركة في هذا السيناريو المُتخيَّل.

Public Announcement

WE WILL PAY YOU $4.00 FOR ONE HOUR OF YOUR TIME

Persons Needed for a Study of Memory

•We will pay five hundred New Haven men to help us complete a scientific study of memory and learning. The study is being done at Yale University.

•Each person who participates will be paid $4.00 (plus 50c carfare) for approximately 1 hour's time. We need you for only one hour: there are no further obligations. You may choose the time you would like to come (evenings, weekdays, or weekends).

•No special training, education, or experience is needed. We want:

Factory workers	Businessmen	Construction workers
City employees	Clerks	Salespeople
Laborers	Professional people	White-collar workers
Barbers	Telephone workers	Others

All persons must be between the ages of 20 and 50. High school and college students cannot be used.

•If you meet these qualifications, fill out the coupon below and mail it now to Professor Stanley Milgram, Department of Psychology, Yale University, New Haven. You will be notified later of the specific time and place of the study. We reserve the right to decline any application.

•You will be paid $4.00 (plus 50c carfare) as soon as you arrive at the laboratory.

- -

TO:
PROF. STANLEY MILGRAM, DEPARTMENT OF PSYCHOLOGY, YALE UNIVERSITY, NEW HAVEN, CONN. I want to take part in this study of memory and learning. I am between the ages of 20 and 50. I will be paid $4.00 (plus 50c carfare) if I participate.

إعلان إلى الأفراد البالغين في مدينة نيو هافين للاشتراك في تجربة ميلغرام للطاعة، يتضمن في عنوانه ما يلي:

«إعلان عام.. سندفع أربعة دولارات مقابل ساعة من وقتك.. مطلوب أشخاص لدراسة عن الذاكرة»

= نيويورك، وقد بيّن أن ستانلي أراد الشعبية وأنا أردت الذكاء»، رغبات لم تتحقق.

يجب أيضًا أن أذكر اكتشافًا آخر عن شيء آخر مشترك بيني وبين ستانلي، كنت أنا من أنشأ المعمل الموجود في القبو في البداية الذي جرى تعديله لاحقًا ليصير المكان الذي انتقلت إليه تجارب الطاعة التي كان ستانلي يجربها في جامعة يال (Yale) (بعدما لم يعد بإمكانه استخدام المعمل الفخم الخاص بعالم الاجتماع ك. و. مور)، والذي كنت قد بنيته قبل سنوات لدراسة بالاشتراك مع إرفينج سارنوف من أجل اختبار توقعات سيجموند فرويد عن الاختلافات بين الخوف والقلق في تأثيرهما على الانتماء المجتمعي. صنعت مختبرًا صغيرًا في قبو بناية حيث كنا ندرس دورات تمهيدية لعلم النفس، وكان لمختبرنا اسمًا إنجليزيًا مبهجًا هو [قاعة لينسلي - تشيتندين/Linsley-Chittenden]. وكان مثيرًا أيضًا أن التجربتين، تجربته وتجربة سجن ستانفورد أجريتا في قبو.

تقابل باحثًا ينقل لك أسلوبه الجاد ومعطف المختبر الرمادي الذي يرتديه إحساسًا بالأهمية العلمية، يقوم بتحيتك أنت ومتقدم آخر عند وصولكما إلى معمل جامعة يال. أنت هنا لتساعد علم النفس في إيجاد طرق لتحسين التعلم والذاكرة باستخدام العقاب. يقول لك أن هذا البحث الجديد قد تترتب عليه نتائج عملية مهمة. المهمة مباشرة: أحدكما سيكون «المعلم» الذي سيعطي «المتعلم» مجموعة من الكلمات ليحفظها، أثناء الاختبار سيعطي المعلم كلمة مفتاحية، وعلى المتعلم أن يجيب بالكلمة الصحيحة، إن فعل قدم المعلم مكافأة شفهية مثل: «جيد» أو «هذا صحيح». وإن لم يفعل يضغط المعلم على زر موجود في جهاز صعق ذي مظهر جميل ينتج صدمات كهربائية مباشرة ليُعاقِب على الخطأ.



متعلم مربوط بجهاز الصدمات في إحدى تجارب ميلغرام

يحوي مؤلد الصدمات ثلاثين زرًا بدءًا من المستوى المنخفض (١٥ فولت) ويزداد بمقدار ١٥ فولت مع كل مستوى أعلى. يقول الباحث أنك مع كُلّ خطأ للمُتعلّم يجب أن تضغط الزر التالي الأعلى. المستوى (١٠) هو «صدمة قوية» بـ(١٥٠ فولت)، المستوى

(١٣) بـ(١٩٥ فولت) هو «صدمة شديدة جدًا»، المستوى ١٧ بـ(٢٥٥ فولت) هو «صدمة عنيفة»، المستوى ٢١ (٣١٥ فولت) هو «صدمة شديدة العنف»، ثم المستوى ٢٥ (٣٥٧ فولت) هو «خطر، أو صدمة حادة»، وعند المستويات ٢٩ و٣٠ (٤٣٥ فولت و٤٥٠ فولت) نجد على لوحة التحكم علامة (XXX) التي تدل على قمة الألم والقوة.

أجري اقتراع بينك وبين المتطوع الآخر لتحديد أي دور سيلعبه كل منكما؛ أنت ستكون المُعلِّم والمتطوع الآخر سيكون المُتعلِّم. (الاقتراع مزيف، المتطوع الآخر هو في الحقيقة شريك للباحث ويلعب دور المتعلِّم دائمًا). الباحث رجل ذو سلوك معتدل، بعمر متوسط يساعدك ويقتادك إلى الغرفة المجاورة. «حسنًا، الآن سنبدأ تجهيز المُتعلِّم بحيث يتلقى بعض العقاب»، يقول الباحث موجهًا حديثه لكليكما.



معلم يصعق متعلمًا امتثالًا لضغط السلطة في تجربة ميلغرام

يُقيِّد ذراعا المتعلم ويُعلَّق قطبٌ كهربائيّ برسغه الأيمن. سيوصل المولد الكهربائي الموجود في الغرفة المجاورة الصدمات للمتعلم إذا أخطأ فحسب. ستتحدث أنت والمتعلم عبر جهاز اتصال داخلي ومن يُجري التجربة يقف إلى جانبك. يجري عليك عيّنة من الصدمة، (٤٥) فولت، وهي وخزة خفيفة حتى يكون لديك تصوّر عن مستويات الصدمات، ثم يعلن الباحث عن بدء دورك في دراسة «تحسين الذاكرة».

في البداية يؤدي تلميذك عمله بشكل جيد لكن سرعان ما يبدأ في ارتكاب أخطاء، وتبدأ في ضغط أزرار الصدمات. يشتكي من أن الصدمات بدأت تؤذيه، تنظر إلى الباحث، فيشير إليك بالاستمرار. مع ازدياد شدة الصدمات إلى مستوى يجعل المتعلم يصرخ ويقول إنه لا يظن أنه يريد المواصلة، تتردد وتسأل ما إذا كان عليك أن تواصل أم لا، لكن الباحث يصر على أنك لا تملك خيارًا سوى المواصلة.

الآن بدأ المتعلم يشتكي من الأذى الذي يتعرض له فترفض المواصلة، لكن يُصرّ الباحث على أنك يجب أن تستمر. أخطاء كثيرة؛ ترجو من طالبك أن يستجمع تركيزه حتى يصل إلى الكلمات الصحيحة، لا تريد أن تؤذيه بهذه الصدمات الشديدة، لكن تذهب مخاوفك ورسائلك التحفيزية أدراج الرياح ويخطئ المرة تلو الأخرى. ومع اشتداد الصدمات يصرخ: «لا أستطيع تحمل الألم، دعوني أخرج من هنا!»، ثم يقول للباحث: «ليس لديك الحق في إبقائي هنا! دعني أخرج!» مرة أخرى تزداد شدة الصدمة فيصرخ: «أنا أرفض الإجابة من الآن فصاعدًا! دعوني أخرج من هنا! لا يمكنكم إبقائي هنا! أشعر بألم في قلبي!».

بالتأكيد لم نعد تريد أي شيء من هذه التجربة، تخبر الباحث أنك ترفض الاستمرار فأنت لست من نوعية الناس الذين يؤذون الغير بهذه الطريقة. تريد الخروج لكن يُلِّح الباحث عليك بالاستمرار ويُذكِّرك بالعقد وأنك وافقت على المشاركة إلى النهاية، بعد أن تضغط على زر (٣٠٠) فولت تقرأ الكلمة المفتاحية ولكن المتعلم لا يجيب. تقول للباحث: «إنه لا يجيب»، تريد منه أن يذهب إلى الغرفة المجاورة ليطمئن على المتعلم ويتأكد من أنه بخير لكنه لا يبدي أية مبالاة، ولن يذهب إلى الغرفة المجاورة ليطمئن على المتعلم؛ بل يقول لك «إذا لم يُجِب المتعلم في مدة مقبولة، لنقل خمس ثوانٍ، اعتبر الإجابة خاطئة»؛ لأن ترك السؤال يجب أن يُعاقَب عليه بنفس الطريقة، هذه هي القاعدة.

وأنت مستمر في الصعق بمستويات أكثر خطورة، ولا يصدر أي صوت من غرفة الصدمات الخاصة بالطالب. ربما يكون فقد وعيه وربما أسوأ! تشعر بتوتر شديد وتريد الانسحاب لكن مهما قلت فإنه لا ينجح في إخراجك من هذا الموقف الذي أزعجك إلى درجة لم تتصورها، قيل لك أن تتبع القواعد وأن تستمر في توجيه أسئلة الاختبار وصدمات الأخطاء.

حاول الآن أن تتخيل كيف كانت ستكون مشاركتك في دور المُعلِّم. أنا واثق من أنك ستقول لنفسك: «من المستحيل أن أستمر في هذا إلى النهاية!» بالتأكيد كنت ستنشق ثم تعصي الأمر وتذهب خارجًا. لن تبيع مبادئك الأخلاقية مقابل أربعة دولارات! لكنك ذهبت إلى النهاية وضغطت زر (XXX)، وأصرّ الباحث على أن تعيد الضغط على الزر مرتين إضافيتين من أجل قياسات أفضل! والآن يزعجك هذا الأمر بشدة. انس الأمر يا

سيدي، لا سبيل لأن أفعل هذا، أليس هذا ما ستقوله؟ إلى أي مستوى من الصدمات تتوقع أنك ستواصل قبل الخروج؟ إلى أي درجة سيصل الشخص العادي الذي يقيم في مدينة صغيرة إذا وضِع في هذا الموقف؟

النتيجة التي توقعها الخبراء

وصف ميلغرام تجربته لمجموعة مكونة من أربعين عالم نفس ثم طلب منهم أن يقدموا تقديرًا للنسبة المئوية للأمريكيين الذين سيصلون إلى المستويات الثلاثين كاملة. في المتوسط توقع الخبراء أن أقل من (١٪) سيصلون إلى النهاية، وأن الشخص السادي فقط هو الذي سيواصل في هذا السلوك السادي وأن أغلب الناس سيغادرون عند مستوى (١٥٠) فولت، وقد أخطؤوا تمامًا! أخطأ خبراء السلوك الإنساني هؤلاء تمامًا، **أولًا**: لأنهم تجاهلوا المُحدِّدات الظرفية للسلوك في وصف أسلوب إجراء التجربة، **ثانيًا**: لأن ما تعلّموه في علم النفس التقليدي قادهم إلى الاعتماد التام على المقاربة النزوعية في فهم السلوك غير المعتاد وتجاهل العوامل الظرفية، لقد سقطوا في «خطأ التنسيب الأساسي»!

حقيقة صادمة

في الحقيقة، اثنان من كل ثلاثة (٦٥٪) من المتطوعين في تجربة ميلغرام واصلوا الطريق صعودًا حتى توجيه صدمة (٤٥٠) فولت، أغلبية الناس، «المعلِّمين»، صَعقوا «المتعلم - الضحية» مرات ومرات على الرغم من رجائه المتواصل بالتوقف.

أدعوك الآن إلى تصور هذه التخمينات: كم كان مُعدّل الانسحاب عند وصول الصدمة إلى (٣٣٠) فولت حيث لا يصلنا من الغرفة إلا صمت المتعلِّم، واحتمالية أن يكون فقد وعيه؟ من سيستمر عند الوصول إلى هذه المرحلة؟ أليس من المنطقي أن أي عاقل سوف ينسحب ويرفض إلحاح الباحث بمواصلة صعق المتعلم؟

إليك ما قاله أحد «المعلمين» عن رد فعله: «لم أدرِ ما الذي يحدث. أعتقد، أتدري، أنني ربما أقتل هذا الشاب، أخبرت الباحث أنني لن أتحمل مسؤولية المواصلة، هذا كل ما في الأمر». لكن عندما طمأنه الباحث بأنه لن يتحمل أية مسؤولية امتثل المعلم المتخوِّف واستمر إلى النهاية[١].

وتقريبًا كل من استمر إلى النهاية فعل نفس الأمر، كيف يعقل هذا؟ لماذا واصلوا إلى تلك النهاية المُرّة؟ ربما يعود أحد أسباب هذا المستوى المذهل من الطاعة إلى أن المعلم

---

(١) T. Blass, *The Man Who Shocked the World* (New York: Basic Books, 2004), p. 116.

لا يدري كيف يخرج نفسه من هذا الموقف لا لمجرد الطاعة العمياء. انشق أغلب المشاركين بين وقت وآخر قائلين بأنهم لا يريدون المواصلة لكن لم يسمح لهم الباحث بالخروج، وكان باستمرار يختلق أسبابًا لتبرير أسباب بقائهم ويحثّهم على مواصلة اختبار متدربهم الذي يعاني الألم. في الغالب ينجح أسلوب الاحتجاج في إخراجك من موقف سيئ لكن لا يوجد شيء تقوله يؤثر في هذا الباحث المتبلّد الذي يصرّ على بقائك ومواصلتك الصعق عند الخطأ. تنظر إلى لوحة الصدمات وتتبين أن أسهل طريقة للخروج هي الوصول إلى الزرّ الأخير، ضغطات أخرى قليلة هي الطريق السريع للخروج بلا أي شجار مع الباحث ولا صرخات أنين من المتعلم الصامت الآن. ها هي! (٤٥٠) فولت، السبيل الميسورة للخروج والوصول إلى حريتك بدون أية مواجهة مباشرة مع الشخصية الحاكمة أو الاضطرار إلى إخفاء المعاناة التي سببتها بالفعل بهذا الألم الإضافي للضحية، إنها مسألة صعود ثم خروج لا أكثر.

متباينات في موضوع الطاعة

أجرى ميلغرام على مدار عام تسع عشرة تجربة مختلفة، كل منها بتنويعات مختلفة لنموذج: باحث/ معلم/ متعلم/ اختبار ذاكرة/ صعق عند الخطأ. في كل مرة كان ينوّع في متغير نفسي واحد ويراقب تأثيره في مدى الخضوع لضغط السلطة الظالمة لصعق «المتعلم - الضحية». في واحدة من تلك الدراسات أضاف النساء، وفي أخرى كان ينوّع في القرب والبعد سواء بين (الباحث والمعلم) أو (المعلم والمتعلم)، وأضاف بعض الرفاق الذين تمردوا أو أطاعوا قبل أن يحصل المدرس على فرصة البدء، وتنويعات أخرى.

في إحدى التجارب أراد ميلغرام أن يثبت أن نتائجه لم تكن بسبب قوة سلطة جامعة يال التي هي كل شيء في مدينة نيو هافن، لذلك وضع مختبره في مكتب في وسط المدينة، وأعاد تكرار التجربة كمشروع بحثي خاص بلا أية صلة واضحة بجامعة يال. لم يحدث أي اختلاف وسقط المشاركون أمام تعويذة التأثير الظرفي.

كشفت البيانات بوضوح عن سهولة تطويع الطبيعة الإنسانية، كل شخص تقريبًا يملك القدرة على الطاعة وكل شخص يملك القدرة على مقاومة ضغط السلطة. يعتمد الأمر على المتغيرات الظرفية التي يمر بها. استطاع ميلغرام أن يثبت أن معدلات الإذعان يمكن أن ترتفع إلى أكثر من (٩٠٪) من الناس ليصلوا إلى الحد الأقصى (٤٥٠) فولت، أو تقل عن (١٠٪) بإضافة متغير واحد حاسم في وصفة الامتثال.

هل تريد طاعة كاملة؟ اجعل المشارك في التجربة عضوًا في «فريق تدريس» تمنح فيه مهمة رفع مقبض مستوى الصاعق المخصص لمعاقبة الضحية إلى شخص آخر (حليف)، في

حين يساعد المشارك في التجربة في أجزاء أخرى من العملية. نريد من الناس أن يقاوموا ضغط السلطة؟ قدم لهم نموذجًا اجتماعيًا لأقران تمرّدوا. كان المشاركون يرفضون توجيه الصدمات أيضًا عندما يقول المتعلم أنه يرغب في أن يُصعَق؛ فهو سلوك مازوشي[1]، وهم ليسوا ساديّين. كانوا يترددون أيضًا في توجيه صدمات ذات مستوى مرتفع عند حلول الباحث محل المتعلم. كانت فرص توجيه الصدمات عند وجود المتعلم في مكان بعيد أكثر من تلك التي وُجِد فيها في مكان قريب. في كل من التنويعات الأخرى ومع هذا النطاق الواسع من الأمريكيين العاديين بأعمار متفاوتة ووظائف مختلفة من كلا الجنسين؛ كان سهلًا علينا استنباط المستويات المنخفضة والمتوسطة والمرتفعة من الطاعة بضغطة على زر الموقف وكأنما كان يدار «قرص الطبيعة الإنسانية» في داخلهم. هذه العيّنة الضخمة التي تصل إلى ألف مواطن عادي من خلفيات مختلفة تجعل نتائج دراسة ميلغرام عن الطاعة واحدة من أكثر الدراسات القابلة للتعميم في كل العلوم الاجتماعية.

«عندما نفكر في التاريخ الطويل القاتم للبشر، ستجد أن أفظع الجرائم ارتكبت باسم الطاعة أكثر منها باسم التمرد»

تشارلز بيرسي سنو (C. P. Snow, "Ether-Or," 1961)

عشر دروس مستفادة من دراسات ميلغرام، صناعة فخاخ لإسقاط الأخيار في الشرّ

فلنوجز بعض إجراءات هذا النموذج البحثي التي استدرجت العديد من المواطنين العاديين للتورط في هذا السلوك المؤذي. بهذا أريدك أن تستخرج أوجه التشابه بينها وبين استراتيجيات الإذعان التي يستخدمها «محترفو التأثير» في دنيا الواقع كالمشتغلين في المبيعات ومن ينتقون أفراد التشكيلات والجيوش ومصممي الإعلانات وآخرين[2]. هناك عشر أساليب بإمكاننا استخراجها من نموذج ميلغرام من أجل هذه الغاية:

١ - الترتيب المسبق لبعض صيغ الالتزامات التعاقدية مكتوبة أو شفهية، بغية التحكم في سلوك الشخص بطريقة قانونية زائفة. (في تجربة ميلغرام تم هذا عن طريق الموافقة المعلنة على قبول المهام والإجراءات).

٢ - إعطاء المشاركين أدوارًا ذات مغزى لتأديتها («معلم»، «طالب») تحمل معها قيمًا إيجابية اكتسبوها مسبقًا وتحفز تلقائيًا ردود فعل مخزونة فيهم.

---

(١) (masochism) المازوشية/المازوخية: تعني التلذذ المَرَضي بالألم. (المحرر).

(٢) انظر:

R. Cialdini, *Influence*, (New York: McGraw-Hill, 2001).

٣ ـ تقديم قواعد أساسية يجب اتباعها يتبين أن لها مغزى قبل استخدامها، لكنها تستخدم بعد ذلك بشكل تعسفي وغير شخصي لتبرير الطاعة العمياء. تتحكم الأنظمة في الناس أيضًا من طريق اختيار الحاكمين وتغييرهم إذا ما استدعت الحاجة مع الإصرار على أن «الحاكم يحكم» ولذلك اتباعه واجب (مثلما فعل الباحث في رداء المختبر في تجربة ميلغرام أو الحراس في تجربة سجن ستانفورد ليجبروا كلاي ٤١٦ على أكل النقانق).

٤ ـ تغيير معنى الفعل، الفاعل، والتنفيذ (من «إيذاء الضحية» إلى «مساعدة الباحث»، معاقبة الأول من أجل خدمة الغاية العظيمة، أعني البحث العلمي)، استبدال رواية مرغوبة بالواقع الأليم، طلاء الإطار بحيث تخفى الصورة الحقيقية. (يمكننا أن نرى نفس فكرة التسويغ في الدعاية، حيث يقال على سبيل المثال أن غسول الأسنان ذا الطعم السيئ مفيد لأنه يقتل الجراثيم، ومن الطبيعي أن تنتظر طعمًا قريبًا من طعم الدواء).

٥ ـ خلق فرص تَفرُّق المسؤولية أو الهروب من المسؤولية عن النتائج السلبية، سيتحمل المسؤولية آخرون أو لن يتعرض الفاعل للمساءلة القانونية. (في تجربة ميلغرام كانت الشخصية في موقع السلطة تقول عند توجيه السؤال من أي «معلم» أنه لن يتحمل مسؤولية أي شيء يحدث للمتعلم).

٦ ـ بدء طريق الوصول إلى أسوأ فعل شرير بخطوة أولى بسيطة لا تبدو ذات أهمية، «خطوة على الطريق» تفتح قليلًا المدخل إلى خضوع لاحق للضغط وتقود إلى منحدر منزلق[1]. (في دراسة الطاعة كانت الصدمة الأولى هي ١٥ فولت). وهو مبدأ مستخدم في تحويل الأطفال إلى إدمان المخدرات بجرعة خفيفة في البداية.

٧ ـ وضع خطوات تدريجية متوالية على الطريق بحيث تصعب ملاحظة الفرق بينها وبين الفعل السابق لها، «مجرد زيادة صغيرة». (مع زيادة مستوى العدوان في خطوات تدريجية، ١٥ فولت في كل مرة فحسب موزعة على ٣٠ زرًا، لا يظهر أي مستوى جديد من الأذى يختلف عن المستوى السابق بالنسبة للمشاركين في تجربة ميلغرام).

٨ ـ تغيير طبيعة الشخصية في موقع السلطة بشكل تدريجي (الباحث، في دراسة ميلغرام) من «عادل» عقلاني في البداية إلى «ظالم» وقاسي بل وغير عقلاني. يثير هذا التكتيك امتثالًا أوليًا للسلطة ثم يحصل الارتباك، ذلك أننا ننتظر من السلطة والأصدقاء الثبات. عدم إدراك حدوث هذا التحول يقودنا إلى امتثال طائش (وهو أحد أسباب العديد من «الاغتصابات» ومن أسباب استمرار الزوجات مع أزواجهن الذين يعتدون عليهن).

---

(١) J. L. Freedman and S. C. Fraser, "Compliance Without Pressure: The Foot-in-the-Door Technique," *Journal of Personality and Social Psychology* 4 (1996): 195-202; S. J. Gilbert, "Another Look at the Milgram Obedience Studies: The Role of the Graduated Series of Shocks," *Personality and Social Psychology Bulletin* 4 (1981): 690-95.

٩ ـ جعل «كلفة الخروج» عالية وزيادة صعوبة عملية الخروج عن طريق السماح بالتمرد اللفظي (وهو ما يجعل الناس يشعرون بشعور أفضل تجاه أنفسهم) مع الإصرار على التوافق السلوكي.

١٠ ـ تقديم أيديولوجيا أو كذبة كبيرة لتبرير استخدام أية وسيلة لتحقيق الهدف الأساسي المرغوب به ظاهريًا. (في بحث ميلغرام تأتى هذا من خلال تقديم تبرير مقبول أو منطق للتورط في هذا الفعل السيئ، مثل رغبة العلم في مساعدة الناس على تحسين ذاكرتهم عن طريق الاستخدام الرشيد للثواب والعقاب). في تجارب علم النفس الاجتماعي يعرف هذا التكتيك باسم «رواية التغطية» لأنها تغطي الإجراءات التي ستلي ذلك والتي يمكن أن يعارضها المشارك في التجربة بحجة أنها لا تحمل أي منطق في ذاتها. المكافئ لهذا في دنيا الواقع يعرف باسم «الأيديولوجيا». تعتمد معظم الأمم على أيديولوجيا ـ في العادة «تهديد الأمن القومي» ـ قبل الخروج إلى الحرب أو قمع المعارضة السياسية المنشقة. يقبل الناس بالتنازل عن حرياتهم الأساسية للحكومة إذا استشعروا خطرًا يتهدد أمنهم القومي، الحكومة هي التي تعرض عليهم هذه المقايضة. يجعلنا تحليل إريك فروم الكلاسيكي في كتابه «الهروب من الحرية» ندرك هذه التجارة الخاسرة التي استخدمها هتلر والحكام الديكتاتوريون الآخرون طويلًا لكسب السلطة والحفاظ عليها، يزعمون أنهم قادرون على توفير الأمن مقابل تنازل المواطنين عن حرياتهم التي ستمنح هؤلاء الحكام القدرة على التحكم في الأمور بشكل أفضل[1].

استنساخ وتمديد لنموذج ميلغرام للطاعة

شجّع التصميم الهيكلي والبروتوكول المفصّل لتجربة ميلغرام للطاعة على صدور الكثير من التكرارات التي قام بها باحثون مستقلون في العديد من البلدان. أجريت تحليلات مقارنة حديثة عن معدلات الطاعة في ثماني دراسات أجريت في الولايات المتحدة وتسعة تكرارات في بلدان أوروبية وأفريقية وآسيوية، وكانت معدلات الطاعة مرتفعة بين تلك الدراسات والبلدان المختلفة. تقاربت معدلات طاعة الأغلبية التي وصلت إلى (٦١٪) في الولايات المتحدة مع نظيراتها في البلدان الأخرى التي وصلت إلى (٦٦٪). تراوح مُعدَّل

(١) E. Fromm. *Escape from Freedom* (New York: Holt, Rinehart and Winston, 1941).
في الولايات المتحدة تسبب مخاوف الأمن القومي التي فرضها الإرهابيون وضخّمها مسؤولو الحكومة والعديد من المواطنين والسياسيون والقادة الوطنيون إلى قبول التعذيب كوسيلة للحصول على المعلومات التي يمكن أن تمنع هجمات مستقبلية. المنطق، الذي سوف أطرحه في الفصل الخامس عشر، ساهم في الاعتداءات التي اقترفها الأمريكيون في سجن أبو غريب.

الطاعة بين مستوى منخفض (٣١٪) إلى مرتفع (٩١٪) في الدراسات التي أجريت في الولايات المتحدة، ومنخفض (٢٨٪) في أستراليا إلى مرتفع (٨٨٪) في جنوب أفريقيا وبقية الدول. وكان هناك استقرار في معدلات الطاعة عبر عقود من الزمان وكذلك عبر المكان. لم نجد أي رابط بين وقت إجراء التجربة (بين ١٩٦٣ و١٩٨٥م) ودرجة الطاعة[١].

سلطة الأطباء على الممرضات في إساءة معاملة المرضى

إذا كانت العلاقة بين المعلمين والطلبة مبنية على الصلاحيات السلطوية فإلى أي مدى يزداد الأمر بين الأطباء والممرضات؟ إلى أية درجة يشق على الممرضة أن تعصي أمرًا من السلطة القوية للطبيب حتى وهي تعرف أنه مخطئ؟ قام فريق من الأطباء والممرضات باختبار درجة الطاعة في نظام السلطة لديهم عن طريق تحديد ما إذا كانت الممرضات سينفذن طلبًا غير مبرر لطبيب غير معروف في مستشفى حقيقية أو يعصينه[٢].

كل من الممرضات الاثنتين والعشرين تلقت اتصالًا من عضو من الفريق الطبي لم تلتق به من قبل وطلب منها التوجه مباشرة لإعطاء دواء لمريض بحيث يبدأ أثره في الظهور مع توقيت وصوله إلى المستشفى. أمرها بإعطاء هذا المريض ٢٠ ملليمترًا من عقار «أستروجين»، والورقة الملصوقة على علبة الأستروجين تقول بأنه لا مشكلة في إعطاء ٥ ملليمترات وحذرت من أن ١٠ ملليمترات هي أقصى جرعة يسمح بها، ولكنه طلب إعطاء ضعف هذه الجرعة.

كان الصراع في ذهن كل من تلك الممرضات يدور حول ما إذا كانت ستتبع الأمر الطبي الآتي من متصل غير معروف بإعطاء جرعة دوائية مفرطة أم ستتبع المعايير الطبية القياسية التي ترفض مثل تلك الأوامر غير الموثقة. عندما تعرضت اثنتا عشرة ممرضة لمعضلة هذا السيناريو الافتراضي قال عشرة منهن أنهن سيرفضن طاعة الأمر، لكن عندما واجهت الممرضات الأخريات الموقف الصعب بقرب وصول الطبيب (واحتمال غضبه من عدم اتباع أمره)؛ انهارت جميع الممرضات تقريبًا وأطعن الأمر. جميعهن عدا واحدة من بين اثنتين وعشرين ممرضة وضعن أمام الاختبار الحقيقي بدأن في تجهيز الدواء (الذي كان وهميًا في الحقيقة) من أجل إعطائه للمريض قبل أن يمنعهن أحد أعضاء الفريق البحثي من فعل هذا. كان من الواجب أن تمنح تلك المعارضة الوحيدة زيادة في راتبها وأن تُقلّد أوسمة الشرف التي ينالها الأبطال.

---

(١) Blass, *The Man Who Shocked the World*, Appendix, C, "The Stability of Obedience Across Time and Place".

(٢) C. K. Hofling, E. Brotzman, S. Dalrymple, N. Graves, and C. M. Pierce, "An Experimental Study in Nurse-Physician Relationships," *Journal of Nervous and Mental Disease* 143 (1966): 171-80.

هذا التأثير الشديد بعيد كل البعد عن أن يكون منفصلًا، فقد ظهرت معدلات مشابهة من حيث درجة ارتفاع الطاعة العمياء لسلطة الأطباء في دراسات استقصائية حديثة على عينة كبيرة من الممرضات. قال حوالي النصف (٤٦٪) من الممرضات بأنهن في الحقيقة يتذكرن مرة على الأقل «نفذت فيها أمر طبيب شعرت أنه قد يؤذي المريض»، وكانت تلك الممرضات المطيعات يحمّلن أنفسهن درجة مسؤولية أقل من تلك التي يتحملها الطبيب وهن يتبعن أمرًا غير ملائم للحالة. كذلك قلن بأن الأسس الأولية للسلطة الاجتماعية للأطباء هي «سلطتهم القانونية»، حق رعاية المريض بشكل كامل[1]؛ فالممرضة لم تكن إلا منفذة لما قيل لها أنه أمر مُبَرَّر، لكن مات المريض بعدها. يموت العديد من المرضى الموجودين في المستشفيات لأسباب غير مبررة كل عام بسبب أخطاء طاقم العمل والتي أفترض أن بعضها شمل طاعة عمياء من الممرضات والمساعدين التقنيين لأوامر الأطباء الخاطئة.

الطاعة الإدارية للسلطة

يندر أن يعاقب أصحاب السلطة في المجتمع الحديث بعقوبات جسدية كما في نموذج ميلغرام. العنف عن طريق وسيط هو الأكثر انتشارًا حيث تمرر السلطة أوامر بقصد إخضاع من ينفذها، أو ربما يشمل العنفُ التعدي اللفظي الذي يقلل من احترام الشخص العاجز لذاته وينتقص من كرامته. تتخذ السلطات غالبًا إجراءات عقابية لا تظهر توابعها بشكل مباشر، فمثلًا، من وسائل العنف غير المباشر إبداء رد فعل عدائي لشخص ما مع العلم بأن هذا سيؤثر على أدائه في عمله وسيؤثر بشكل سلبي على فرص حصوله على وظيفة.

قام فريق من الباحثين الهولنديين بتقييم مدى الطاعة المبنية على السلطة في ظروف مشابهة في سلسلة من التجارب المبتكرة التي شملت ٢٥ دراسة على حوالي ٥٠٠ مشارك في الفترة من ١٩٨٢ إلى ١٩٨٥م في جامعة أوتريخت (Utrecht)[2]. في «نموذج الطاعة الإدارية» الذي صنعوه أخبر الباحثُ المشاركَ الذي يؤدي دور المدير بأن يعدّ انتقادات مكتوبة في قائمة من ١٥ ملحوظة مزعجة ينتقد فيها المتقدم للوظيفة (وهو حليف مُدرب موجود في الغرفة المجاورة)، وطلب من الأفراد المُشاركين في التجربة أن يختبروا المُتقدِّم فإن نجح حصل على الوظيفة وإلا بقي عاطلًا.

طلب منهم مضايقته أثناء الاختبار، وتلك الملحوظات الخمس عشرة كانت مؤثرة في

---

(١) A. Krackow and T. Bloss, "When Nurses Obey or Defy Innppropriate Physician Orders: Attributional Differences." *Journal of Social Behavior and Personality* 10 (1995): 585-94.

(٢) W. Meeus and Q. A. W. Raaijmakers, "Obedience in Modern Society: The Utrecht Studies," *Journal of Social Issues* 51 (1995): 155-76.

أدائه للاختبار وتسيء لشخصيته على شاكلة «كان هذا غباءً منك»، ومع استمرار المديرين المشاركين في التجربة في زيادة درجة عدائية الملحوظات؛ «كانوا يضعون المتقدم تحت ضغط نفسي شديد حتى أن أداءه لم يكن مرضيًا مما أدى إلى إخفاقه في الحصول على الوظيفة». كذلك قيل لهم أن البحث سيستمر بغض النظر عن أي احتجاج من المتقدم؛ أي: اعتراض من المديرين المشاركين في التجربة كان يقابل بما يصل إلى أربع غمزات بالعين من الباحث الذي يجري التجربة بغية دفعهم إلى المواصلة في توجيه الملحوظات العدائية قبل أن يسمح لهم في النهاية بالتوقف حال إصرارهم عليه. أخيرًا، وهو الأهم من جميع ما سبق، كان يقال للمشاركين في التجربة أن القدرة على العمل تحت الضغط غير مهمة بالنسبة للوظيفة لكن كان عليهم مواصلة إجراء الاختبار بهذه الطريقة لأن من شأن هذا أن يساعد المجرب في مشروعه البحثي الذي كان يتعلق بدراسة تأثير الضغط على الأداء. لم تعد هناك أية فائدة من إيذاء شخص وتقليل فرص حصوله على الوظيفة أكثر من مساعدة الباحث في تجميع بعض البيانات، وبما إن الأفراد المشاركين في التجربة كانوا في وضع القيادة فقد كان بإمكانهم التوقف عن تقديم أية ملحوظات مزعجة في أي وقت يختارون.

عندما سئلوا عما إذا كانوا سيقومون بتوجيه جميع الملحوظات المزعجة في هذه الظروف؛ قالت مجموعة مختلفة من الهولنديين أنهم لن يمتثلوا لهذا. ومرة أخرى، كانت رؤية «البعيد عن الموقف» بعيدة تمامًا عن الرقم الأساسي حيث أذعن ٩١٪ من المشاركين في تلك التجربة للتسلط حتى النهاية، وقد استمر ذلك المستوى المرتفع من الطاعة حتى مع مشاركة مسؤولي شؤون الموظفين في التجربة على الرغم من الآداب المهنية لديهم في التعامل مع العملاء. كذلك وجدت مستويات عالية من الطاعة عند إرسال معلومات إلى المشاركين في التجربة قبل أسابيع من ظهورهم في المختبر حتى يكون أمامهم متسع من الوقت للتفكير في دورهم العدائي.

كيف يمكننا أن نولِّد مناخًا ملائمًا للعصيان؟ أمامك العديد من الخيارات: جعل عدد من الأقران يتمردون قبل أن يحين دور الشخص المستخدم في التجربة، كما في دراسة ميلغرام. أو قُلْ للمشارك في التجربة أنه سيتحمل المسؤولية القانونية إذا ما تعرض المتقدم الضحية للأذى وقرر مقاضاة الجامعة، أو لا تجعل ضغط السلطة يستمر إلى النهاية كما في حالات ترك التحكم للمشاركين في هذه التجربة، عندها لم يطع أي منهم بشكل كامل.

الطاعة الجنسية للسلطة: خدعة البحث والتعرية عبر الهاتف

نُفِّذت «خدعة البحث والتعرية عبر الهاتف» في عدد من مطاعم الوجبات السريعة في أرجاء الولايات المتحدة. تثبت هذه الظاهرة شيوع طاعة سلطة مجهولة إن كانت لها أهمية

ظاهرية. طريقة التنفيذ هي أن يتلقى مدير متجر مكالمة هاتفية من متصل يعرف نفسه على أنه شرطي - اسمه «سكوت» مثلًا - ويحتاج إلى مساعدة عاجلة في قضية موظف قام بالسرقة في هذا المطعم، يصرّ على أن ينادى بلقب «سيدي» في المكالمة وقد جمع مسبقًا معلومات عن طريقة عمل المطعم وبعض التفاصيل عن المنطقة. يعرف كذلك كيف يحصل على المعلومات التي يريدها بأسئلة مصوغة بمهارة كما يفعل سحرة المسرح و«قراء العقول». هو رجل ماهر في الخداع.

في النهاية يحصل الضابط «سكوت» على اسم الموظفة الجديدة الجذابة التي يقول أنها كانت تسرق من المحل ويعتقد أنها الآن تخفي بضاعة في ملابسها في هذه اللحظة بغاية التهريب، يريد منها أن تبتعد في غرفة منعزلة حتى يأتي هو أو رجل آخر من أجل اعتقالها، تحبس الموظفة هناك ويخيّرها «السيد الضابط» الذي يحدثها في الهاتف بين التعري لتخضع للتفتيش من قبل موظف زميل أو الذهاب بها إلى مقر الشرطة ليفتشوها بمعرفتهم. اختارت بثبات أن يجري تفتيشها في المكان لأنها تعرف أنها بريئة وأنه لا يوجد لديها ما تخفيه، وعليه وجه المتصل مساعد المدير إلى تعريتها للتفتيش والتأكد من أنها لا تخفي أموالًا أو مُخدِّرات، كل هذا والمتصل يصر على أن ينقل له من يقوم بالتفتيش تفاصيل مصورة عما يجري، وكاميرا الفيديو تسجل هذه الأحداث اللافتة، لكن كان هذا مجرد بداية الكابوس لتلك الموظفة الصغيرة البريئة مع المتصل المتلصص المستثار جنسيًا.

في الحالة التي كنت فيها شاهدًا خبيرًا؛ كان السيناريو الأساسي هو تورط طالبة الصف الثانوي المرتعدة ذات الثمانية عشر ربيعًا في سلسلة من النشاطات المخجلة المهينة، وطلب المتصل من مساعد المدير أن يأتي برجل أكبر سنًا ليساعده في حجز الضحية بحيث يستطيع هو العودة لمواصلة عمله في المطعم، ثم يأمر المتصل الضحية بالرقص وبالقيام بأفعال فاحشة في حين تتحرك الشرطة نحو المكان ببطء، استمرت تلك الشناعات لعدة ساعات وهم ينتظرون وصول الشرطة التي لم تصل أبدًا بالطبع.

يغري هذا التأثير الغيابي الغريب للسلطة الكثيرين بانتهاك سياسات المكان وربما مبادئهم الأخلاقية ليتحرشوا وربما يعتدوا جنسيًا على موظفة صغيرة العمر، أمينة ومنتظمة في صلاتها في الكنيسة. في النهاية فُصِل طاقم عمل المتجر ووجهت اتهامات لبعضهم ورفعت قضية ضد المطعم ووقع المجرمون في مأزق حقيقي، وكذلك من ارتكب هذه الخدعة والذي كان ضابطًا إصلاحيًا سابقًا قبض عليه وأدين.

أحد ردود الفعل المنطقية عند العلم بهذه الخدعة هو التركيز على سمات الضحية ومن اعتدوا عليها واعتبارهم سذجًا وجهلة وحمقى وغريبي الأطوار، لكن عندما نعرف أن هذه الحيلة نجحت في ستة وثمانين مطعم وجبات سريعة في اثنتين وثلاثين ولاية مختلفة في

ست سلاسل مطاعم مختلفة، ومع مساعدي مديري عدد من المطاعم في أنحاء البلاد تعرضوا للخداع، ومع ضحايا من كِلَا الجنسين؛ يجب حينئذ أن ينتقل تحليلنا من لوم الضحية إلى إدراك قدرة المؤثرات الظرفية الموجودة في هذا السيناريو، لذلك دعونا لا نقلل من شأن قدرة «السلطة».

فُصِلَت دونا سامرز (Donna Summers) مساعدة مدير في مطعم مكدونالدز بواشنطن ماونت في ولاية كنتاكي من عملها لأنها تعرضت للخداع على يدّ سُلطة ما وتورّطت في المشاركة في حيلة تتمثل في إجراء مكالمة، وهو ما يُبرِز إحدى المواضيع الرئيسية لسَردية تأثير الشيطان عن التأثير الظرفي، «تنظر إلى ما جرى وتقول لم أكن سأفعل هذا، لكن طالما لم تكن في هذا الظرف، في هذا الزمان، فكيف تعرف يقينًا كيف كنت ستتصرف؟ أنت لا تعرف»[1].

في كتابها «صناعة الوجبات السريعة، من مقلاة الزيت إلى المقلاة الكهربائية» (*Making Fast Food: From Frying Pan into the Fryer*)، خلصت عالمة الاجتماع الكندية إستير ريتر (Ester Reiter) إلى أن الطاعة لسلطةٍ ما هي أكثر سمة مطلوبة في عمال مطاعم الوجبات السريعة. «العملية التي تجري على خط التجميع تسلب العمال عن عمد أي تفكير أو حرية في التصرف، فهم ملحقات للآلة»، هذا ما قالته في إحدى اللقاءات المسجلة مؤخرًا. عميل مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) السابق دان جابلونسكي (Dan Jablonski) هو محقق خاص حقق في بعض من تلك الحيل، قال: «نجلس أنا وأنت هنا ونحكم على هؤلاء الناس ونقول: إنهم شديدو الحماقة، لكنهم لم يتعلموا استخدام الفطرة، تعلموا القول والتفكير بطريقة: «كيف أساعدك؟»»[2].

النازية: هل يمكن أن يحدث هذا في مدينتك؟

تذكر أن أحد دوافع ميلغرام للقيام بمشروعه البحثي هو فهم كيفية تحول عدد كبير من المواطنين الألمان «الصالحين» إلى التورط في عمليات قتل وحشية لملايين اليهود. بدلًا من تحميل الميول الشخصية للمواطن الألماني مسؤولية عمليات القتل الجماعي هذه؛ نجده يؤمن بأن خصائص الموقف لعبت دورًا حاسمًا، وأن طاعة السلطة كانت هي «الحافز القاتل» لهذا

---

(1) From *The Human Behavior Experiments*, transcript: Sundance Lock, May 9, 2006, Jigsaw Productions, p. 20. Transcript available on: www.prisonexp.org/pdf/HBE-transcript.pdf

(2) تلك الاقتباسات عن خدعة التفتيش والتعرية مأخوذة من مقال:
Andrew Wolfson, "A Hoax Most Cruel," in *The Courier-Journal*, October 9, 2004, available online at: Http://www.courier-journal.com/story/news/local/2005/10/09/a-hoax-most-cruel-caller-coaxed-mcdonalds-managers-/28936597/

القتل الوحشي. بعد أن أكمل بحثه وسع ميلغرام من نتائجه العلمية ليصل إلى توقع شديد الإثارة عن القدرة الخبيثة المنتشرة للطاعة على تحويل الأمريكيين العاديين إلى أفراد عاملين في معسكرات الموت النازية: «لو أعدّ نظام لمعسكرات الموت في الولايات المتحدة؛ سنجد عددًا كافيًا من الأشخاص لتلك المعسكرات في أية مدينة أمريكية متوسطة الحجم»[(١)].

دعونا ننظر في هذا التنبؤ المرعب في ضوء خمسة أبحاث مختلفة، ولكن مذهلة، في الصلة بين النازية وبين ترحيب البشر العاديين المختارين للتحرك ضد «عدو معلن للدولة». أول بحثين هما شرح قدّمه في الفصول الدراسية مُدرّسون مُبتكِرُون في المدارس الثانوية والإعدادية. الثالث هو لأحد طلابي السابقين في الدراسات العليا والذي تأكد من أن الطلاب الجامعيين الأمريكيين سيتبنون «الحل النهائي إذا ما قدمت لهم شخصية سلطوية التبريرات المناسبة لفعل هذا»، أما البحثان الأخيران فدرسا قوات كتائب الحماية (الشوتزتافل) والشرطة الألمانية.

خلق نازيين في صف دراسي في أمريكا

الطلبة في بالو ألتو بكاليفورنيا، في المدارس الثانوية كانوا غير قادرين على استيعاب مدى وحشية الهولوكوست. كيف ازدهرت تلك الحركة السياسية الاجتماعية العنصرية القاتلة، وكيف كان المواطن العادي جاهلًا أو غير مبالٍ بالمعاناة التي يسببها لرفقاء الوطن من اليهود؟ لهذا قرّر مدرسهم المُبدِع رون جونز تعديل أدوات الشرح حتى يجعل الرسالة التي يوجهها لأولئك الطلبة غير المصدقين رسالة ذات مغزى. ولفعل هذا، حوَّل أسلوبه التدريسي إلى أسلوب تجريبي.

بدأ في إخبار الطلبة بأنه سيحاكي بعض جوانب التجربة الألمانية في الأسبوع المقبل، وعلى الرغم من تحذيره المسبق فإن «تجربة» أداء الأدوار التي أجريت على مدار خمسة أيام كانت أمرًا جادًّا بالنسبة للطلبة ولكن صادمًا للمعلمين بمن فيهم منظم البحث وأولياء أمور الطلبة. اندمجت المحاكاة والواقع على نحو جَعَل هؤلاء الطلبة يصنعون نظامًا شموليًّا من المعتقدات والتحكم التعسفي يشبه إلى حدٍّ بعيد نظام هتلر النازي[(٢)].

---

(١) اقتباس من لقاء تلفزيوني عرض سنة ١٩٧٩م:
Robert V. Levine, "Milgram's Progress," *American Scientist Online*, July-August 2004. Originally in Blass, *Obedience to Authority*, pp. 35-36.

(٢) R. Jones, "The Third Wave," in *Experiencing Social Psychology*, ed. A. Pines and C. Maslach (New York: Knopf, 1978), pp. 144-5.

وانظر أيضًا المقال الذي كتبه رون جونز (Ron Jones) عن تدريب الموجة الثالثة (Third Wave) في موقع:
Https://libcom.org/history/the-third-wave-1967-account-ron-jones

أولًا، أسس جونز قواعد جديدة صلبة للصف الدراسي طاعتها ملزمة بدون نقاش. كل الإجابات يجب أن تكون من ثلاث كلمات أو أقل يسبقها كلمة «سيدي»، مع وقوف الطالب منتصب القامة إلى جانب طاولته. عندما لم يعارض أحد هذه القواعد التعسفية بدأ مناخ الفصل بالتغير، فقد الطلبة الأكثر طلاقة في الكلام مكانهم لصالح الأقل طلاقة، وأصبحت السيطرة للأقوى بدنيًا. سميت حركة الفصل «الموجة الثالثة»، وكانوا يقدمون تحية اليد المعقوفة مع ترديد شعارات معينة يجب ترديدها في صوت واحد عند الأمر بذلك، وفي كل يوم هناك شعار جديد قوي: «القوة من خلال الانضباط»، «القوة من خلال المجتمع»، «القوة من خلال الفعل»، و«القوة من خلال الفخر»، وهناك شعار واحد سنبقيه لوقت لاحق، وكانت المصافحة بطريقة معينة تكشف الدخلاء، ومن ينتقد يُبَلَّغ عن «خيانته». كانت أعمالهم تعكس الشعارات، فكانوا يعلّقون لوحات حول المدرسة، ويسجلون الأعضاء الجدد، ويُعلّمون الطلبة الآخرين أوضاع جنوس إلزامية، وهكذا.

تضخمت المجموعة التي بدأت بعشرين طالبًا في فصل التاريخ لتصل إلى أكثر من مئة عضو جديد متحمس في جماعة الموجة الثالثة، سيطر الطلبة بعد ذلك على الأمر وبدؤوا في الابتكار. أصدروا بطاقات عضوية خاصة، وطردوا ألمع الطلبة خارج الفصل. كانت الجماعة الداخلية الاستبدادية الجديدة سعيدة وكانت تعتدي على الزملاء السابقين أثناء إبعادهم عن الفصل.

ثم أفصح جونز بعد ذلك لأتباعه عن أنهم جزء من حركة موجودة على مستوى الأمة لاكتشاف الطلبة غير المرحبين بالمحاربة في سبيل التغيير السياسي، وهم «المجموعة المختارة من الشباب لهذه القضية»، هكذا قال لهم. كان هناك ملتقى مقرر في اليوم التالي لأحد المرشحين الرئاسيين ليعلن في التلفاز عن تشكيل برنامج جديد للموجة الثالثة للشباب، ملأ أكثر من مائتي طالب قاعة مدرسة كيبرلي الثانوية منتظرين بشغف ذلك الإعلان. موجة مبهجة من الأعضاء يرتدون أزياءً موحدة بيضاء مع شارات مصنوعة في البيت منتشرين في كل القاعة مع وقوف الطلبة أقوياء البنية كحراس على الباب، وأصدقاء المعلم يؤدون دور المراسلين والمصورين الذين يتنقلون بين «الأتباع المخلصين». فتح التلفاز، وانتظر الجميع الإعلان الكبير عن التجمع التالي للأتباع المخلصين... وطال انتظارهم، صاحوا: «القوة عبر الانضباط!».

بدلًا من هذا عرض المعلم فيلم ملتقى نورمبرج (Nuremberg) وظهر تاريخ الرايخ الثالث في صور طيفية. «على الجميع أن يقبل اللوم، لا يوجد من يستطيع إنكار تحمله جزءًا من المسؤولية»، وكان هذا هو المشهد الأخير من الفيلم ونهاية المحاكاة. فسّر جونز سبب ذهاب جميع الطلبة المجتمعين إلى ما هو أبعد بكثير من المقصد الذي بدأت

به المحاكاة، قال لهم إن الشعار الجديد يجب أن يكون «القوة عبر الفهم»، ثم خلص جونز إلى ما يلي: «لقد تم التلاعب بكم مدفوعين برغباتكم الشخصية إلى مكان تجدون أنفسكم فيه».

وقع رون جونز في مشاكل مع الإدارة لأن أولياء أمور الطلبة المنبوذين اشتكوا أن أولادهم يتعرضون للتحرش والتهديد من قبل النظام الجديد، لكن وعلى الرغم من هذا خلص إلى أن العديد من هؤلاء الأولاد تعلموا درسًا حيويًا للغاية من خلال المرور شخصيًا بتجربة إمكانية تحول سلوكياتهم بشكل جذري عن طريق طاعة السلطة في سياق شبيه بالفاشي. في مقاله الأخير عن «التجربة» قال جونز أنه «خلال السنوات الأربع التي درستُ فيها في مدرسة كيبرلي الثانوية، لم يقرّ أحد أبدًا بمشاركته في تجمع الموجة الثالثة، فقد كانت شيئًا أردنا جميعًا نسيانه». (بعد ترك المدرسة ببضع سنوات بدأ جونز العمل مع طلبة التعليم الخاص في سان فرنسيسكو، وقد صورت دراما وثائقية عالية الجودة لمحاكاة التجربة النازية هذه بعض التحولات التي طرأت على أولاد صالحين ليصبحوا جماعة شباب هتلر افتراضية)[١].

خلق وحوش صغيرة في المدرسة الابتدائية: العيون البنية ضد العيون الزرقاء

لا تقاس قدرة السلطة فقط من خلال مدى طاعة الأتباع لأوامرها، لكن أيضًا من مدى قدرتها على تعريف الواقع وتغيير طرق التفكير والتصرف المعتادة. مثال ذلك جان إليوت، مُدرِّسة محبوبة للصف الثالث في مدرسة صغيرة نائية بقرية رايسفيل، كان التحدي الذي أمامها هو كيفية تعليم الأولاد المنتمين لقرية زراعية صغيرة لا يوجد فيها عدد كبير من أبناء الأقليّات معاني «الأخوّة» و«التسامح». قررت أنها ستجري عليهم تجربة شخصية يشعرون فيها بأنهم الأقل شأنًا ثم في مرة أخرى يشعرون بالزعامة، في مرة ضحية للتعصب وفي مرة مرتكبين له[٢].

حدّدت المعلمة اعتباطيًا جزءًا من فصلها على أنهم الطبقة العليا في حين كان الجزء الآخر هم الطبقة السفلى على أساس ألوان العيون. بدأت في إخبار الطلبة بأن أصحاب

---

(١) (The Wave) دراما وثائقية، من إخراج أليكساندر جراشوف (Alexander Grasshoff)، ١٩٨١م.

(٢) W. Peters, *A Class Divided Then and Now* (expanded ed.) (New Haven, CT: Yale University Press, 1985 [1971]).

اشترك بيترس (Peters) في تصوير الفيلمين الوثائقيين اللذين حازا على جوائز، أولاً الفيلم الذي قدمه لمحطة (ABC)، بعنوان [The Eye of the Storm] (متوفر لدى [Guidance Associates, New York]) واستكماله الذي صوره لمحطة (PBS) برنامج [*Frontline*] الوثائقي بعنوان [A Class Divided] (متوفر على الإنترنت:

Www.pbs.org/wgbb/pages/frontline/shows/divided/etc/view.html.

العيون الزرقاء أرقى من أصحاب العيون البنية، وقدمت عددًا من الأدلة الداعمة لتوضح هذه الحقيقة، من قبيل أن جورج واشنطن كانت عيناه زرقاوتين في حين كانت عينا والد الطالب (الذي يشتكي الطالب من أنه يضربه) بنيتين.

لتبدأ مباشرة قالت السيدة إليوت: «الأطفال أصحاب العيون الزرقاء هم المجموعة «الأرقى»، وأصحاب العيون البنية هم المجموعة «الأدنى»»، ثم منحت أصحاب العيون الزرقاء الذين تزعم تفوقهم بعض الامتيازات الخاصة، في حين كان على أصحاب العيون البنية اتباع القواعد التي تفرض مكانتهم كأطفال من الدرجة الثانية بما يشمل ارتداء طوق يعرّف بمكانتهم المتدنية عن بعد.

رفض الأولاد أصحاب العيون الزرقاء الودودون في السابق اللعب مع أصحاب العيون البنية السيئين، واقترحوا إبلاغ مسؤولي المدرسة بأنه من المحتمل أن يكون أصحاب العيون البنية يسرقون أشياءهم، وسرعان ما بدأت شجارات بالأيدي في فترات الراحة، واعترف أحد الأولاد بضرب زميله «في المعدة» لأنه «سماني بصاحب العيون البنية، وكأنني شخص أسود، زنجي». وفي خلال يوم واحد بدأ أصحاب العيون البنية في أداء واجباتهم المدرسية بشكل ضعيف وأصبحوا محبطين، عابسين، وغاضبين. وصفوا أنفسهم بأنهم «حزينون»، «سيئون»، «أغبياء»، و«وضيعون».

وكان اليوم التالي هو وقت التحول إلى الاتجاه المعاكس، قالت السيدة إليوت للطلبة أنها أخطأت وأن الحقيقة هي أن أصحاب العيون البنية هم الطبقة الأعلى، وأصحاب العيون الزرقاء هم الأقل، وقدمت أدلة مزيفة جديدة لتدعم تلك النظرية الزائفة عن الخير والشر. تحول أصحاب العيون الزرقاء الآن من تسمية أنفسهم في السابق «سعداء»، «جيدين»، «ومهذبين» إلى مسميات إزرائية مشابهة لتلك التي استخدمها أصحاب العيون البنية في اليوم السابق. انهارت علاقات الصداقة القديمة بين الطلبة وحلت محلها العداوة التي استمرت حتى انتهاء هذا المشروع البحثي باستجواب الطلبة بحرص وبشكل كامل وإعادتهم إلى الحالة السابقة من الصداقة والمرح.

ذهلت المعلمة من التحول التام شديد السرعة للعديد من طلبتها الذين ظنت أنها تعرفهم تمامًا. خلصت السيدة إليوت إلى ما يلي: «تحوّل الأولاد الذين كانوا يتسمون بالتعاون والرصانة إلى طلبة مقززين، فاسدين من الصف الثالث... كان الأمر مريعًا!».

تبني «الحل النهائي» في هاواي: تخليص العالم من غير الأسوياء

تخيل أنك طالب جامعي من بين ٥٧٠ طالبًا آخرين في جامعة هاواي، في حرم مانوا في جامعة مسائية تقدم دروسًا في علم النفس. يغيّر اليوم أستاذك صاحب اللكنة الدنماركية

موضوع محاضرته الأساسي ليكشف خطرًا يتهدد الأمن القومي سببه الانفجار السكاني (موضوع ساخن في بداية السبعينيات)[1]. تصف السلطة الخطر الذي ينتشر في المجتمع والذي تفرضه الزيادة المتسارعة في أعداد الأشخاص غير الأسوياء بدنيًا وعقليًا. تُطرَح المشكلة بطريقة مقنعة على أنها مشروع علمي نبيل الغاية يتبناه العلماء ويهدف إلى صالح البشرية، ثم تعرض عليك المساعدة في «تطبيق إجراءات علمية تزيل غير الأسوياء عقليًا وعاطفيًا من الوجود»، ثم يستمرّ الأستاذ في تبرير الحاجة إلى إجراء مُماثل لعملية الإعدام التي تُستخدم كرادع عن جرائم العُنف، ثم يقول بأن آراءكم ستكون موضع تقدير لأنكم تُعدّون من نخبة الأذكياء أصحاب التعليم الراقي والقيم الأخلاقية المرتفعة. إنه لأمر رائع أن تظُنّ أنك عضو في هذه الصُحبة المُميَّزة. (تذكّر فتنة كلايف ستابلس لويس في «الحلقة الداخلية») وفي حالة وجود أي شكوك عالقة يُطَمئن الطلبة إلى أنهم سيجرون أبحاثًا أكثر دقة قبل الإقدام على أي فعل مع هؤلاء البشر غير الأسوياء.

كل ما يريده حتى الآن هو آراؤكم وتوصياتكم واستقصاء بسيط عليكم استكماله الآن مع بقية الطلبة في القاعة. تبدأ في الإجابة عن الأسئلة إذ قد تم إقناعك بأن هذه مسألة جديدة مهمة ورأيك يمكن أن يصنع الفارق فيها. تجيب بجدية عن كل سؤال من الأسئلة السبعة، وتكتشف أن هناك الكثير من التوافق بين إجاباتك وإجابات بقية المجموعة.

(٩٠٪) بالمئة يوافقون على أنه سيكون هناك دائمًا من هم أكثر أهلية للاستمرار في الحياة من الآخرين. وبخصوص قتل غير الأسوياء أراد (٧٩٪) شخصًا واحدًا مسؤولًا عن اتخاذ قرار القتل وآخر ينفذ الفعل، (٦٤٪) فضلوا إبقاء هوية من يقوم بالقتل مجهولة مع وجود شخص واحد يضغط زر القتل، وعلى الرغم من ضغط عدد من الأزرار فقد رأى (٨٩٪) أن عقاقير القتل الرحيم ستكون أسلوبًا أكثر فاعلية وإنسانية. وإن كان الأمر يحتاج تصريحًا قانونيًا فقد فضّل (٨٩٪) المساعدة في اتخاذ القرار، بينما فضّل (٩٪) المساعدة في صناعة القرار أو تنفيذ القتل أو كليهما. (٦٪) من الطلبة فحسب رفضوا الإجابة.

الأكثر إثارة هو أن (٩١٪) من مجموع الطلبة وافقوا على الرأي القائل بأن «في حالة وجود ظروف شديدة القسوة سيكون من العدل أن نقتل المحكوم عليهم بكونهم الأكثر خطورة على الصالح العام!». أخيرًا، كانت لدينا نتيجة مفاجئة في كون حوالي (٢٩٪) أبّدوا «الحل النهائي» حتى لو كان في حق أهلهم![2].

لذلك فإن هؤلاء الطلبة الجامعيين الأمريكيين (الملتحقين بالدِراسة المسائية ولهذا

(١) H. H. Mansson, "Justifying the Final Solution," *Omega: The Journal of Death and Dying* 3 (1972): 79-87.

(٢) J. Carlson, "Extending the Final Solution to One's Family," unpublished report, University of Hawaii, Manoa, 1974.

كانوا أكبر عمرًا من المعتاد في هذه المرحلة الدراسية)؛ كانوا يرحبون بتبني خطة إبادة تهدُف إلى قتل جميع من تحكُم عليهم السلطات بأنهم أقل أهلية للحياة منهم، ولم يحتاجوا إلّا لمُقدِّمة قصيرة من أستاذهم للاقتناع بهذا تمامًا، في هذه الحالة كان الأستاذ هو السُلطة. يمكننا الآن أن نرى كيف تحول الألمان العاديون والأذكياء بسهولة إلى تبني «حل هتلر النهائي» ضد اليهود، والذي نُفذ بالعديد من الطرق عبر منظومتهم التعليمية وعن طريق دعم الترويج الحكومي الممنهج.

تلقين العوام لتنفيذ عمليات قتل غير عادية

إحدى أوضح الصور في رحلتي الاستكشافية لفهم كيفية تحول البشر العاديين إلى التورط في أفعال شريرة غريبة عن ماضيهم وعن قيمهم الأخلاقية؛ تأتي من الاكتشاف اللافت للمؤرخ كريستوفر براونينج. فهو يتذكر أنه في مارس ١٩٤٢م كان حوالي (٨٠٪) من ضحايا الهولوكوست لا يزالون على قيد الحياة، وأتى «حل هتلر الأخير» عن طريق موجة واسعة من فرق القتل الجماعي في بولندا. تَطلَّب القتل الجماعي تحريك آلة قتل ضخمة في الوقت نفسه الذي كان الجيش الألماني يحتاج فيه جنوده الأقوياء على الجبهة الروسية المتداعية، ولأن أغلب اليهود البولنديين كانوا يعيشون في قرى صغيرة لا في المدن الكبيرة؛ كان السؤال الذي أثاره براونيج هو: «أين وجدت القيادة الألمانية العليا تلك القوة العاملة القادرة على تحقيق تلك الأرقام اللوجستية المذهلة في تلك السنة الحاسمة من الحرب؟»[١].

أتت إجابته من سجلات جرائم الحرب النازية التي سجلت أنشطة كتيبة الاحتياط (١٠١)، وهي وحدة مكونة من حوالي ٥٠٠ ألماني من هامبورج. كانوا أرباب أسر وسنهم أكبر من أن يلتحقوا بالجيش، كانوا من الطبقة العاملة والطبقة تحت المتوسطة ولا توجد لهم أية خبرة سابقة في الجيش أو الشرطة. كانوا مختارين جددًا أرسلوا إلى بولندا بدون أي تحذير أو تدريب في مهمة سرية لإبادة كل اليهود الموجودين في القرى البولندية النائية تمامًا. في ظرف أربعة أشهر فقط قتلوا ما يصل إلى (٣٨,٠٠٠) يهودي وهجَّروا (٤٥,٠٠٠) آخرين إلى معسكرات الاعتقال في تريبلينكا.

في البداية قال لهم قائدهم أنهم ذاهبون إلى مهمة صعبة عليهم الالتزام بها، لكن أضاف أن من حق أي فرد أن يرفض إعدام هؤلاء الرجال والنساء والأطفال. تشير السجلات إلى أن حوالي نصف الرجال في البداية رفضوا المشاركة وتركوا القتل لأفراد

---

(١) C. R. Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: HarperCollins, 1993), p. xvi.

الشرطة الاحتياطية، لكن مع مرور الوقت بدأت عملية النمذجة الاجتماعية في السيطرة، وكذلك شعورهم بالذنب بسبب عمليات إطلاق النار التي كان ينفذها أفراد الشرطة الاحتياطية هؤلاء، إضافة إلى ضغوط التوافق مع المجموعة المألوفة التي تنشأ بسبب سؤال: «كيف سيبدون في أعين رفاقهم». مع نهاية تلك الرحلة المميتة، كان ما نسبته (٩٠٪) من رجال الكتيبة (١٠١) يطيعون القادة طاعة عمياء، بما في ذلك في تنفيذ إطلاق النار. وقف كثير منهم بفخر لالتقاط صور لهم وهم يقومون بقتل اليهود، صور شبيهة بصور الاعتداء على السجناء في سجن أبو غريب حيث وضع رجال الشرطة هؤلاء تلك الصور بين «الصور التذكارية» الخاصة بهم باعتبارهم من قضى على الخطر اليهودي.

أوضح براونينج عدم وجود أية عمليات انتقاء خاصة لهؤلاء الرجال ولا تطوع منهم ولا مصلحة شخصية بالتقدم في المسيرة المهنية وقفت وراء عمليات القتل الجماعية تلك، لكن كانوا رجالًا عاديين تمامًا إلا في تلك اللحظة التي وضعوا فيها في هذا الموقف الجديد الذي سمح لهم فيه «المسؤولون» وشجّعوهم على التصرف بسادية ضد جماعة من الناس سموا اعتباطًا «بالأعداء». الأكثر وضوحًا في تحليل براونينج العميق لهذه الأفعال اليومية للشر الإنساني هو أن الرجال العاديين كانوا جزءًا من منظومة السلطة القوية، سلطة الدولة السياسية الشُرَطيّة المجهزة بتبريرات أيديولوجية لتدمير اليهود مع تلقين قاسٍ لالتزامات أخلاقية من انضباط وإخلاص وواجب تجاه الدولة.

من اللافت وفيما يخص حجتي عن وجود ارتباط بين البحث التجريبي ودنيا الواقع؛ أن براونينج قد قارن بين تلك الآليات المؤثرة في تلك الأرض البعيدة في ذلك الوقت البعيد وبين دراسات ميلغرام للطاعة وتجربتنا في سجن ستانفورد، ثم يواصل الكاتب: «يحمل سلوك حارس زيمباردو الطيفي شبَهًا غامضًا بالمجموعات التي ظهرت في شرطة احتياط الكتيبة ١٠١» (ص١٦٨). يظهر كيف تحول البعض إلى «الوحشية والقسوة»، السادية، الاستمتاع بالقتل، في حين كان الآخرون قساة، لكن عادلين في «اللعب بالقواعد»، وثمة أقلية ترقى إلى مكانة «الحراس الصالحين» الذين رفضوا القتل وقدموا بعض الأشياء لليهود.

اتفق عالم النفس إرفين ستاوب (الذي نجا في طفولته من غزو النازيين للمجر في «ملجأ إيواء») على أن جميع البشر حالة وقوعهم في ظروف معينة تتكون لديهم القدرة على العنف المفرط وتدمير الحياة الإنسانية، وقد وصل ستاوب من خلال محاولته لفهم جذور الشر في عمليات القتل والعنف الجماعية حول العالم إلى أن «الشر الذي ينشأ من التفكير العادي ويقوم به الناس العاديون هو الأصل وليس الاستثناء... تظهر أعظم الشرور من داخل عمليات نفسية عادية تتطور عادة بشكل تدريجي مع تواصُل الدمار». يشدّد على أهمية سقوط البشر العاديين في الظروف التي تعلّمهم ممارسة الأفعال الشريرة التي تطلُبها منهم

أنظمة سلطوية عليا: «التحول إلى جزء من منظومة يشكل وجهات النظر، ويكافئ الاستسلام للأفكار السائدة، ويجعل الشذوذ أمرًا صعبًا»[1].

ولأن صديقي العزيز وزميلي عالم الاجتماع جون ستينر عايش فظائع الأوشفيتز بنفسه؛ فقد عاد بعد عقود إلى ألمانيا لعقد لقاءات مع مئات من أفراد كتائب الحماية (الشوتزتافل) النازيين السابقين، من الجنود إلى الجنرالات. كان يبحث عمّا جعل هؤلاء الرجال يتبنّون هذا الشر الذي تعجز عن وصفه الكلمات. وجد ستينر أن العديد من هؤلاء الرجال كانت أرقامهم مرتفعة في مقياس الفاشية (F-Scale) وهو ما جذبهم إلى ثقافة العنف الفرعية في كتائب الحماية (الشوتزشتافل). يشير إليهم باسم «النيام»، بشر بسمات معينة خاملة وربما لا تظهر أبدًا إلا عندما ينْشط ظرف معين تلك النزعات العنيفة. يخلص ستينر إلى أن «الموقف كان المُحدِّد الأكثر مباشرة لسلوك أفراد الشوتزشتافل»؛ فالموقف هو الذي يحفّز «النيام» ليكونوا قتلة، لكن من خلال البيانات الضخمة المتوفرة عن اللقاءات التي عقدها، وجد ستينر أن هؤلاء الناس كانوا يعيشون حياة طبيعية خالية من العنف قبل السنوات العنيفة في معسكرات الاعتقال وبعدها[2].

تجربة ستينر الشخصية وكذلك على المستوى البحثي مع العديد من رجال (الشوتزشتافل) قادته إلى نتيجتين مهمتين حول القوة المؤسسية ودور شريعة القسوة: «للدعم المؤسسي لأدوار العنف آثارًا تتجاوز ما نرى بكثير، فعندما تكون العقوبات الاجتماعية ضمنية - ويزداد الأمر عندما تكون صريحة - فإنها تدعم تلك الأدوار، ويميل الناس إلى الانجذاب إلى تنفيذ تلك العقوبات الجماعية التي لن تشبع رغباتهم فحسب بسبب طبيعة عملهم في تلك الأدوار؛ ولكن لتشبههم بمنفذي الإعدام في شخصياتهم وأفعالهم».

استمر ستينر في وصف الكيفية التي تنتقي بها الأدوار من داخل الأشخاص سمات مُحدّدة للظهور: «صار واضحًا أنه ليس كل من يلعب دورًا همجيًا عنيفًا فالسادية من ضمن سماته الشخصية بالضرورة»، فمن يستمر في دور لا يعكس شخصيته يكون في الغالب قد غيَّر من قيَمه الشخصية (أي أنه تكيّف مع المُتوَقّع منه في ذلك الدور)، فقد كان هناك من

---

(١) E. Staub, *The Roots of Evil: The Origins of Genocide and Other Group Violence* (New York: Cambridge University Press, 1989), pp. 126, 127.

(٢) J. M. Steiner, "The SS Yesterday and Today: A Sociopsychological View," in *Survivors, Victims, and Perpetrators: Essays on the Nazi Holocaust*, ed. J. E. Dinsdale (Washington, DC: Hemisphere Publishing Corporation, 1980), pp. 405-56.

الاقتباسات في ص٤٣٣. وانظر أيضًا:

A. G.Miller, *The Obedience Experiments: A Case Study of Controversy in Social Science* (New York□Praeger, 1986).

بين أعضاء كتائب الحماية (الشوتزشتافل) من أحبوا أدوارهم واستمتعوا بها، وكان هناك من شعروا بالنفور والتقزز من الأوامر التي وجهت إليهم. (ففي أكثر من مرة أنقذ حياة الكاتب أحد أفراد الشوتزشتافل).

من المهم أن ندرك أن مئات الآلاف من الألمان الذين تحولوا إلى مرتكبين للشرور أثناء الهولوكوست لم يفعلوا هذا ببساطة لأنهم كانوا يتبعون أوامر السلطات، كانت طاعة لمنظومة سلطوية تسمح بقتل اليهود وتكافئ عليه ومبنية على أساس المعاداة الشديدة للسامية التي كانت موجودة في ألمانيا ودول أوروبية أخرى في هذا الوقت. أعطت سلسلة القيادة الألمانية للتعصب توجهًا واحدًا أمام المواطن الألماني العادي، الذي كان «منفذ الإعدام لدى هتلر»، في تحليل المؤرخ دانيل جولهاجين[1].

وعلى الرغم من أهمية ملاحظة الدور المُحفِّز لكراهية الألمان لليهود لكن كان في تحليلات جولدهاجين عيبان؛ العيب الأول هو أن الأدلة التاريخية تقول بأن معاداة السامية في بداية القرن التاسع عشر كانت أقل بكثير في ألمانيا منها في دول الجوار مثل فرنسا وبولندا، كما أخطأ أيضًا في تقليله من قوة تأثير نظام هتلر السلطوي الذي صنع شبكة مجَّدت التعصب العنصري، وفي تقليله من تأثير الظروف التي صنعتها السلطة على وجه الخصوص، مثل معسكرات الاعتقال، والتي كانت تجعل القتل الجماعي عملية ميكانيكية. اتّحدت التفاعلات بين المتغيرات الشخصية للمواطنين الألمان مع الفُرَص الظرفية التي يصنعها نظام مبني على التعصب على نحو دعّم الكثير من الأفراد نفسيًّا ليصبحوا منفذي الإعدام لدى الدولة سواء أبرغبتهم أو على غير رغبتهم.

عاديّة الشر

سنة ١٩٦٣م، نشرت متخصصة الفلسفة الاجتماعية حنة آرندت كتابًا صار بعد ذلك أحد كلاسيكيات عصرنا، «إيخمان في القدس»[2]، حيث توفِّر تحليلات مفصلة لمحاكمة أدولف إيخمان (Adolf Eichman) على جرائم الحرب، وهذا الرجل هو الشخصية النازية التي أشرفت شخصيًا على قتل ملايين اليهود، وكان دفاعه الوحيد عن أفعاله مماثلًا لشهادة بقية القادة النازيين: «كنت أتبع الأوامر فحسب». وفقًا لرؤية آرندت «[إيخمان] تذكر أنه قد يعيش تأنيب الضمير لو لم ينفذ الأوامر بإرسال ملايين الرجال والنساء والأطفال إلى حتفهم

(١) D. J. Goldhagen, *Hitler's Willing Executioners* (New York: Knopf, 1999). Also see the reviewby Christopher Reed, "Ordinary German Killers," in *Harvard Magazine*, March-April 1999, p. 23.

(٢) ترجم الكتاب للعربية بعنوان: «ايخمان في القدس - تقرير حول تفاهة الشر»، ترجمة نادرة السنوسي، وصدر عن دار ابن النديم عام ٢٠١٤. (المحرر).

بحماس شديد وحرص كبير» (ص٢٥)[1].

لكن الأكثر لفتًا للنظر في رأي آرندت بخصوص إيخمان هو أنه بدا شخصًا عاديًا تمامًا:

«حوالي ستة علماء نفس أجازوه كشخص «طبيعي»، «أكثر طبيعية مني أنا بعد أن فحصته»، قالها أحدهم متعجبًا، في حين وجد آخر أن وضعه النفسي العام، وسلوكه تجاه زوجته وأطفاله وأمه وأبيه وإخوته وأصدقائه كان «طبيعيًا بل ومرغوبًا»» (ص٢٥ ـ ٢٦).

من خلال تحليلاتها عن إيخمان، وصلت آرندت إلى النتيجة الشهيرة:

«كانت المشكلة مع إيخمان على وجه التحديد هي أن كثيرين يشبهونه، وأن هذه الكثرة لم تكن شاذة ولا سادية، كانت وما زالت طبيعية على نحو مخيف. إن هذه الطبيعية من وجهة نظر مؤسساتنا القانونية ومعاييرنا الأخلاقية في الحكم هي أفظع من معظم الجرائم مجتمعة لأنها عنت... أن نوعًا جديدًا من المجرمين، الذين هم في الواقع أعداء للجنس البشري، يرتكبون جرائم في ظروف تجعل إحساسهم بخطأ ما يفعلون يكاد يكون من المستحيل» (ص٢٧٦).

كان الأمر وكأنما يوجز لنا في هذه اللحظات الأخيرة الدرس الذي علمتناه هذه المسيرة الطويلة من الشرور الإنسانية، درس الخوف، كلمة وفكر تواجه عاديّة الشر. (ص٢٥٢).

تستمر كلمة آرندت «عاديّة الشرّ» في التردد بقوة بسبب عمليات القتل الجماعي التي انتشرت في أرجاء العالم والتعذيب والإرهاب اللذين أصبحا من السمات الأساسية المشتركة للمشهد العالمي. نُفَضِّل إبعاد أنفسنا عن هذه الحقائق الجوهرية، ونفضل أن نرى أن جنون مرتكبي الشرّ وأن العنف غير المبرر للطغاة هي مجرد نوازع شخصية لديهم. تحليلات آرندت هي أول تحليلات تُفنِّد هذا الرأي وترفضه وذلك من خلال رصدها لمدى السهولة التي يُمكِن أن تدفع بها المؤثراتُ الاجتماعية الأشخاصَ الطبيعيين إلى القيام بأفعال مريعة.

المعذبون ومنفذو الإعدام: هل هم مرضى أم أنها مقتضيات الظروف؟

لدينا بعض الشك في أن التعذيب المنهجي الذي يوقعه البشر على إخوتهم في الإنسانية من الرجال والنساء يمثّل أحد أكثر جوانب الطبيعة الإنسانية ظلمة. بالتأكيد فكرت

---

(١) H. Arendt, *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil*, revised and enlarged edition, (New York: Penguin Books, 1994), pp. 25, 26, 252, 276.

الاقتباسات التالية هي من ذات المصدر.

وزملائي في الشر النابع من الميول الشخصية لمن يقومون بالتعذيب في البرازيل، والذين استمرت أعمالهم القذرة لسنوات كرجال شرطة مخولين من قبل الحكومة بانتزاع اعترافات عن طريق تعذيب أعداء الدولة «المُخَرِّبين».

بدأنا في التركيز على من ينفذون عمليات التعذيب محاولين فهم نفسياتهم وكيفية تشكُّلها من خلال الظروف المحيطة، لكن كان علينا توسعة الشبكة التحليلية خاصتنا لتشمل رفاقهم في السلاح الذين اختيروا لتأدية فرع آخر من العمل العنيف؛ أعني منفذي الإعدام. فقد تشاركوا «نفس العدو»: رجال، ونساء، وأطفال، على الرغم من أنهم مواطنون لنفس الدولة وجيران، إلا أن «النظام» أعلن أنهم مصدر خطر على الأمن القومي للبلد لأنهم اشتراكيون وشيوعيون، ومن الضروري التخلص من بعضهم بشكل فعال، في حين يجب على الآخرين الذين ربما يحملون معلومات سرية أن يكشفوا عنها عن طريق التعذيب والاعتراف بخيانتهم أولًا ثم قتلهم.

بتأديتهم تلك المهمة، يمكن أن يعتمد منفذو التعذيب هؤلاء جزئيًا على «الابتكار في الشر» الذي نراه في أدوات وتقنيات تعذيب تم تحسينها على مدار قرون من الزمن، منذ وقت محاكم التفتيش الكاثوليكية وصولًا إلى العديد من الدول القومية الحديثة، لكن كان عليهم أيضًا أن يلجؤوا إلى شيء من الارتجال وهم يتعاملون مع بعض الأعداء لكي يتخطّوا المقاومة والقدرة على المناورة، فبعضهم ادعى براءته ورفض الاعتراف بجريمته، أو كانوا من القوة بما يكفي لئلا يشعروا بالتهديد من تكتيكات الاستجواب التعسفية تلك. لقد احتاج منفذو التعذيب وقتًا ورؤى جديدة عن ضعف الإنسان لكي يحسنوا من مهاراتهم. وعلى النقيض كانت مهمة فِرَق الموت أكثر سهولة. كانوا يتمكنون مع أغطية رأس تحجب هويتهم ومسدسات ومجموعات دعم من تأدية واجبهم تجاه الدولة بسرعة وبصورة غير شخصية، «مجرد عمل». أما بالنسبة لمن يقوم بالتعذيب فلا يمكن أن يكون ما يقوم به مجرد عمل؛ فالتعذيب يشمل دائمًا علاقة شخصية بين المُعذِّب والضحية، وهذه العلاقة ضرورية لكي يفهم المعذب أي أنواع التعذيب يَحْسُن به توظيفها، وأية درجة من العذاب يمكن أن يستخدمها مع شخص معين في وقت معين، فنوع التعذيب الخطأ أو تعذيب أقل من المطلوب معناه عدم الحصول على أي اعتراف، والإفراط معناه أن الضحية سيموت قبل الحصول على أي اعتراف، في كلتا الحالتين يخفق من يقوم بالتعذيب في تنفيذ مهمته ويتحمل غضب المسؤولين. إن تعلُّم تحديد نوع العذاب المناسب والدرجة الملائمة التي نحصد بها المعلومات المطلوبة يؤدي إلى مكافآت ضخمة ومديح من القيادة العليا.

أي نوع من الرجال يمكن أن يقدم على تلك الأفعال؟ هل يحتاجون إلى الاعتماد على نزعات سادية أو أي تاريخ مركَّب في حياتهم الشخصية يُمكِّنهم من تمزيق لحم إنسان

مثلهم ليل نهار لسنوات متوالية؟ هل عُمَّال العُنف هؤلاء هم سلالة بعيدة عن بقية البشرية؟ هل هم بذور سيئة، أو جذوع فاسدة، أو أزهار منتنة؟ أم أنه من المقبول أن نقول أنهم ربما يكونون بشرًا عاديين مدربين على تنفيذ تلك الأعمال المؤسفة عن طريق بعض التدريبات المحددة القابلة للتكرار؟

هل يمكن أن نحدد حزمة من الأوضاع الخارجية والمتغيرات الظرفية التي أسهمت في صناعة منفذي التعذيب والقتلة هؤلاء؟ لو كانت أعمالهم الشريرة لا تعود إلى عيوب داخلية وإنما إلى قوى خارجية أثّرت فيهم من مكونات سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وتاريخية، وتجريبية لتدريبهم كأفراد شرطة؛ فمن الممكن حينئذ تعميم هذه المؤثرات الخارجية عبر مختلف الثقافات والبيئات بما يساعدنا على اكتشاف المبادئ التشغيلية المسؤولة عن تلك التحولات الإنسانية المذهلة.

عقدتُ أنا وعالمة الاجتماع والخبيرة في الشأن البرازيلي مارثا هاجينز، وخبيرة علم النفس اليونانية وخبيرة التعذيب ميكا هاريتوس ـ فاتورروس لقاءات كثيرة مع عدد من «عمّال الموت»[1] هؤلاء في البرازيل! وسبق أن أجرت ميكا دراسة مماثلة عن منفذي التعذيب لدى المجلس العسكري اليوناني وكانت نتائجنا متشابهة بشكل كبير مع ما وصلت إليه في دراستها[2]. وجدنا أن المدربين يستبعدون أصحاب النزعات الساديّة لأنهم غير قابلين للسيطرة، فهم يستمتعون بالتسبب بالألم مما يجعلهم يبتعدون عن الهدف الأساسي وهو استخراج المعلومات. لذلك، من بين كل الأدلة التي جمعناها، فإن منفذي التعذيب وفرق الموت لم تكن لديهم أية سلوكيات منحرفة قبل ممارسة دورهم الجديد، ولم تكن لديهم كذلك أية نزعات شاذة أو مرضية في السنوات التي تلت عملهم بوصفهم منفذين للتعذيب أو منفذين للإعدام؛ فالتحول الذي طرأ عليهم كان قابلًا للتفسير بكونه نتيجة لعدد من العوامل الظرفية والمنهجية مثل التدريب الذي حصلوا عليه لتأدية هذا الدور، وقبول أيديولوجية الأمن القومي، ثم الإيمان المُلقَّن بأن الاشتراكيين والشيوعيين هم أعداء لدولتهم، كما أسهمت مؤثرات ظرفية أخرى في التوجه السلوكي الجديد وشملت جعلهم يشعرون بالتميز وبأنهم أرقى من رفاقهم الذين يؤدون الخدمات العامة لأنهم يُنتقوْن لتأدية مهام خاصة، والسرية التي تحيط الواجب الذي يؤدونه لا يعرف عنها سوى زملائهم في الجيش، وكذلك الضغط المستمر للوصول إلى نتائج بغض النظر عن الإرهاق والمشاكل الشخصية.

---

(١) للاطلاع على ملخص للأساليب والنتائج التفصيلية عن «عمال الموت»، انظر:
M. Huggins, M. Haritos-Fatouros, and P. G. Zimbardo, *Violence Workers: Police Torturers and Murders Reconstruct Brazilian Atrocities* (Berkeley: University of California Press, 2002).

(٢) M. Haritos-Fatouros, *The Psychological Origins of Institutionalized Torture* (London: Routledge, 2003).

سجّلنا عددًا كبيرًا من دراسات الحالة المفصلة التي ترصد إلى أي مدى كان أولئك الرجال المنفذون للتعذيب والأعمال الشنيعة أشخاصًا عاديين مخوّلين من قبل الحكومة لتأدية هذا الدور، وتدعمهم سرًّا المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) في هذه المرحلة من الحرب الباردة (١٩٦٤ - ١٩٨٥م) ضد الشيوعية السوفييتية.

العمل التفسيري «التعذيب في البرازيل» الذي كتبه أعضاء الأبرشية الكاثوليكية في ساو باولو؛ يقدم معلومات مفصلة عن تورط وكلاء الـ(CIA) على نطاق واسع في تدريب الشرطة البرازيلية على التعذيب[١]. تتفق معلومة كهذه مع كل ما نعرفه عن التعليم الممنهج عن الاستجواب والتعذيب في «مدارس الأمريكتين» لعمال من دول يشاركون نفس العدو؛ الشيوعية[٢].

لكن آمنتُ أنا وزملائي بأن تلك الأعمال يمكن أن يعاد إنتاجها في أي وقت وفي أية أمة طالما هناك هوس بتهديد الأمن القومي. قبل ظهور التجاوزات والمخاوف بسبب الحرب الحديثة «ضد الإرهاب»؛ كانت لدينا حرب مستمرة «ضد الجريمة» في العديد من المراكز الحضرية. أنتجت هذه «الحرب» في إدارة شرطة مدينة نيويورك قوات كوماندوز إدارة شرطة نيويورك (NYPD)، فرقة الشرطة الخاصة الممنوحة حرية التصرف في اصطياد من يرتكبون جرائم الاغتصاب والسرقة وقطع الطريق وفقًا لأوضاع المدينة. كانوا يرتدون بزّات مكتوب عليها شعار: «لا صيد يشبه صيد البشر». وكانت صيحة المعركة الخاصة بهم هي «نحن نملك الليل (We Own the Night)». إنها ثقافة مهنية للشرطة يمكن مقارنتها بثقافة منفذي التعذيب لدى الشرطة البرازيلية التي درسناها. إحدى أكثر جرائمهم شهرة هي قتل المهاجر الأفريقي أمادو ديالللو من غينيا، حيث أطلقوا عليه أربعين رصاصة عندما حاول سحب محفظته ليعطيهم بطاقة هويته[٣]. في بعض الأحيان «تحدث الأمور السيئة»، لكن في الغالب ترجع إلى المؤثرات الظرفية والمنهجية التي أحدَثَتها.

«جنود ٩/١١ مثاليون» و«شباب بريطاني عادي» يقومون بتفجيرنا

مثالان أخيران عن «طبيعية» مرتكبي عمليات القتل الجماعي يستحقان الذكر. الأول نجده في دراسة مفصلة عن مختطفي طائرات ٩/١١ الذين أسفرت هجماتهم الانتحارية الإرهابية في نيويورك وواشنطن عن مقتل ما يصل إلى ثلاثة آلاف مدني بريء، والثاني مصدره تقارير الشرطة في لندن عن الاشتباه في وجود مفجرين انتحاريين في مترو أنفاق

(١) Archdiocese of São Paulo, *Torture in Brazil* (New York: Vintage, 1998).

(٢) الموقع الرسمي للمدرسة: (www.ciponline.org/facts/soa.htm/) وانظر أيضًا هذا الموقع المهم (www.soaw.org/new/).

(٣) F. Morales, "The Militarization of the Police," *Covert Action Quarterly* 67 (Spring-Summer 1999): 67.

لندن وباص ذي طابقين في يونيو ٢٠٠٥، وهو ما أسفر عن أعداد كبيرة من القتلى وعدد من الإصابات الخطيرة.

خلفيات العديد من منفذي هجمات ٩/١١ التي درسها بدقة كبيرة المراسل تيري مكديرموت في تقريره الصحفي الذي أدرجه في كتاب بعنوان «جنود مثاليون»؛ تبرز بوضوح أن هؤلاء الرجال كانوا أشخاصًا عاديين للغاية في حياتهم اليومية[١]، لكن وصل مكديرموت إلى نتيجة مشؤومة لهذا البحث: «من المرجح أن هناك أعدادًا كبيرة للغاية غيرهم مثلهم تمامًا» في الخارج منتشرين في أرجاء العالم. عادت بنا إحدى المراجعات لهذا الكتاب إلى الوراء إلى دراسة «عادية الشرّ» لحنة آرندت ولكن بتعديل يجعلها توافق عصر الإرهاب، حيث قدم الناقد الذي يعمل في نيويورك تايمز ميشيكو كاكوتاني تعليقًا مخيفًا: «يحل الجنود المثاليون محل الرسومات الكاريكاتورية الضخمة «لعباقرة الشر» و«المتعصبين أصحاب العيون الشرسة» لنجد مكانها رسومات تصف منفذي ٩/١١ بأنهم أشخاص شديدو البساطة على نحو لافت، بَشر يسهل أن يكونوا جيرانك أو من يجلسون بجانبك على الطائرة»[٢].

تحقَّق هذا السيناريو في هجمات لاحقة منظمة على منظومة النقل في لندن من خلال فريق من المفجرين الانتحاريين، «قتلة بسطاء»، استقلوا باص نقل عام وقطار أنفاق بطريقة عادية تمامًا. وبالنسبة لأصدقائهم وأقاربهم وجيرانهم كان هذا الشباب المسلم «شابًا بريطانيًا عاديًا»[٣]. لا يوجد في ماضيهم ما يمكن أن يصنفهم كأشخاص خطرين، كل سماتهم سمحت «لهؤلاء الأولاد» بأن يتكيفوا بسهولة تامة في مدينتهم وفي وظائفهم. كان أحدهم لاعب كريكيت شديد المهارة أقلع عن شرب الخمر وابتعد عن النساء ليتبنى أسلوب حياة أكثر تدينًا، وكان الثاني ابنًا لرجل أعمال محلي يدير مطعم أسماك وبطاطا (نوع من المطاعم الشهيرة في إنكلترا)، والأخير كان مستشارًا يعمل بجِدّ مع الأطفال أصحاب الاحتياجات الخاصة وأصبح أبًا مؤخرًا وانتقل مع أسرته إلى بيت جديد. خلافًا لمختطفي طائرات ٩/١١ الذين أثاروا بعض الشكوك لكونهم أجانب يبحثون عن تدريبات طيران في الولايات المتحدة؛ كان هذا الشباب قد نشأ في إنكلترا، ولا يمكن أن تشك فيهم الشرطة مطلقًا. «هذا الفعل بعيد تمامًا عن شخصيته، بالتأكيد هناك من قام بغسيل عقله وجعله يقدم على هذا الفعل»، كان هذا رأي صديق أحدهم.

---

(١) T. McDermott, *Perfect Soldiers: The Hijackers: Who They Were, Why They Did It* (New York: HarperCollins, 2005).

(٢) M. Kakutani, "Ordinary but for the Evil They Wrought," *The New York Times*, May 20, 2005, p. B32.

(٣) Z. Coile, "'Ordinary British Lads,'" *San Francisco Chronicle*, July 14, 2005, pp. A1, A10.

يقول الخبير في هذا الشأن أندرو سيلك: «أكثر ما يفزع حيال المفجرين الانتحاريين هو أنهم طبيعيون تمامًا»[1]. في جميع الفحوصات التشريحية لأجساد الانتحاريين لم يجدوا أبدًا أية آثار لمخدرات أو كحول، فقد تحملوا عبء مهمتهم بذهن صافٍ والتزام شخصي.

تمامًا كما نرى في حوادث إطلاق النار في مدارس الولايات المتحدة، مثلًا حادثة مدرسة كولومباين الثانوية حيث يقول من يعتقدون أنهم يعرفون منفذي تلك الحوادث «كان ولدًا طيبًا، من أسرة محترمة... لا أصدق أنه أقدم على هذا»، وهذا يذكرنا بالنقطة التي أثرناها في الفصل الأول، إلى أي مدى نعرف هؤلاء الناس حقًا؟ وكافة توابع هذا السؤال وإلى أي مدى نعرف أنفسنا بما يجعلنا نثق في كيفية تصرفنا في موقف جديد تحت ضغط ظرفي شديد؟

الامتحان المستحيل للطاعة العمياء للسلطة: قتل أولادك بالأمر

يأتي إلينا توسع أخير لعلم النفس الاجتماعي للشر ليأخذنا من التجارب الصناعية في المختبرات إلى سياقات واقعية من قلب غابات غيانا، حيث تمكن القائد الديني الأمريكي من إقناع أكثر من تسعمائة من أتباعه بارتكاب عملية انتحار جماعي أو بأن يقتلهم أقاربهم وأصدقاؤهم، في ٢٨ نوفمبر، ١٩٧٨م. انطلق جيم جونز قس معبد الشعوب في سان فرنسيسكو ولوس أنجلوس ليعد مدينة اجتماعية فاضلة في تلك الدولة الأمريكية الجنوبية، حيث تسود الأخوة والتسامح فوق المادية والعنصرية التي يبغضها في الولايات المتحدة، لكن مع مرور الوقت وتغير المكان تحول جونز من الأب الروحاني الحنون لهذا التجمع الكبير من البروتستانت إلى ملاك الموت، كان تحوّلًا عنيفًا ذا أبعاد إبليسية. إلى هذه النقطة وكل ما أرغب فيه هو تأكيد الارتباط بين طاعة السلطة في مختبر ميلغرام وبين غابة نيو هافن، ساحة القتل[2].

تبخّرت أحلام أولئك الأعضاء المساكين لمعبد الشعوب بحياة أفضل في تلك المدينة الفاضلة المزعومة عندما ثبّت جونز العمل الجبري والحراسة المسلحة والتقييد التام

---

(١) A. Silke, "Analysis: Ultimate Outrage," *The Times* (London), May 5, 2003.

(٢) تأتي صلتي بهذه التجربة من تعرفي على شقيق أحد القلائل الذين نجحوا في الهروب من هذه المذبحة، شقيقته ديان لوي (Diane Louie)، وصديقها ريتشارد كلارك (Richard Clark). عرضت عليهما أن أقدم لهما الاستشارات النفسية عند عودتهما إلى سان فرانسيسكو وعرفت الكثير عن الفظائع التي شهداها. لاحقًا، أصبحت شاهدًا خبيرًا في محاكمة لاري ليتون (Larry Layton) إثر تآمر على قتل عضو الكونجرس ريان (Ryan)، ومن خلاله أصبحت صديقًا لشقيقته ديبي ليتون (Debbie Layton)، بطلة أخرى في مقاومة سيادة جيم جونز (Jim Jones). سنعرف أكثر عنهما في آخر فصل، حيث نتعرض لموضوع البطولة.

للحريات المدنية، ووجبات غير مشبعة تشبه التجويع، وعقوبات يومية تصل إلى حد التعذيب على أبسط خرق لأي من القوانين الكثيرة. عندما نجح أقارب المحتجزين القلقون عليهم في إقناع أحد أعضاء الكونجرس بالذهاب لتفتيش هذا التجمع مع فريق من الإعلاميين؛ رتّب جونز لقتل جميع أعضاء معبد الشعوب أثناء مغادرتهم. جمع تقريبًا جميع الأعضاء الذين كانوا في هذا التجمع وألقى عليهم خطبة طويلة حضهم فيها على إنهاء حياتهم عن طريق شرب السم، شراب السيانيد المشؤوم، ومن رفض الشرب أجبره عليه الحراس أو أطلقوا عليه النار وهم يحاولون الهروب، ويبدو أن أغلبهم أطاعوا القائد.

بالتأكيد كان جونز مصابًا بهوس الأنانية المَرَضي، فقد كانت كل خطبه وتصريحاته وحتى لحظات تعذيبه مسجلة، بما في ذلك تدريب الانتحار الأخير الذي لوى فيه جونز عنق الواقع وكذب وتوسّل، وقدّم مقارنات كاذبة تستدعي أيديولوجيا الحياة الآخرة، وأصرّ بشكل صريح على اتّباع أوامره أثناء توزيع طاقم عمله للشراب السام على أكثر من ٩٠٠ عضو منهم مجتمعين حوله، بعض المقتطفات من تلك الساعة الأخيرة توصل إحساسًا بتكتيكات الموت التي استخدمها لاستدعاء الطاعة التامة لسلطة أصيبت بالجنون:

«من فضلكم تناولوا شيئًا من هذا الدواء، الأمر بسيط، لن يصيبكم بأية تشنجات [بالتأكيد كانت تحدث تشنجات، وخاصة مع الأطفال]. . . لا تخافوا من الموت. ستَرَوْن، ستَجِدُون أرضًا يسكنها شعب صغير هناك، سيعذبون بعض الأولاد الموجودين هنا، سيعذبون أبناء شعبنا، سيعذبون كبارنا، لا يمكننا أن نترك هذا يحدث لنا. . . من فضلكم، هل يمكن أن نسرع؟ هل يمكن أن نسرع مع هذا الدواء؟ لا تدرون ما فعلتم، لقد حاولت. . . من فضلكم. من أجل الرب، فلنفعلها. لقد عشنا، عشنا كما لم يعش أي شعب من قبل أو أحب هذه المعيشة، نملك من هذا العالم قدر ما ستملكون. فلننهِ هذا، دعونا نُنْهِ أوجاعه. [تصفيق]. . . من يريد أن يذهب بولده فلديه حق الذهاب بولده، أعتقد أن هذا من الإنسانية. أريد الذهاب، أريد أن أراك تذهب، مع ذلك. . . لا يوجد ما يدعو للخوف، لا يوجد ما يخيف، إنه صديق، إنه صديق. . . جالس هناك، أظهروا حبكم لبعضكم. دعونا نذهب. دعونا نذهب. دعونا نذهب [صوت أطفال يبكون]. . . تخلّوا عن حياتكم بكرامة، لا تتخلوا عنها بالدموع والألم، لا يوجد شيء في الموت. . إنه مجرد انتقال إلى طائرة أخرى، لا تكونوا بهذا المظهر، توقفوا عن ذلك الهَوَس. . . لا يوجد سبيل لنا للموت، يجب أن نموت بشيء من الكرامة. يجب أن نموت بشيء من الكرامة. لن يكون أمامنا خيار آخر. الآن أمامنا بعض الخيارات. . . انظروا إلى الأطفال، إنه شيء يدعوكم إلى الراحة. يا إلٰهي [صوت أطفال يبكون]. . . أيتها

الأم، أيتها الأم، أيتها الأم، أيتها الأم، من فضلك. أيتها الأم، من فضلك، من فضلك، من فضلك. لا تفعلي - لا تفعلي هذا. لا تفعلي هذا. تخلي عن حياتك مع ابنك». [النص الكامل متاح على الإنترنت؛ انظر الهامش][1].

وقد فعلوا، وماتوا من أجل «الأب»، تستمر سلطة القادة المستبدين أصحاب الكاريزما أمثال جونز وهتلر حتى بعد تسببهم في أشياء فظيعة لأتباعهم؛ بل حتى بعد موتهم، فأي شيء جيد فعلوه مهما كان صغيرًا سيسود في عقول أتباعهم المخلصين ويطغى على موروث الأعمال الشريرة. انظر مثلًا إلى الشاب جاري سكوت الذي ذهب خلف هذا الأب إلى معبد الشعوب ولكن طُرِد بسبب عصيانه، في آخر تصريحاته في اتصال مع الإذاعة الوطنية (NPRI) التي أذيعت بعنوان «الأب يهتم بنا، آخر أفراد مدينة جونز»، من تقديم جيمس ريستون، يصف جاري كيف عوقب على خرقه لإحدى القواعد حيث تعرض للضرب والجلد والاعتداء الجنسي، وأُجبِر على تحمل خوف فظيع بتركهم ثعبانًا عاصرًا يزحف فوق جسده، لكن الشيء اللافت هو الاستماع إلى طريقة حديثه عن ردة فعله التي جعلته يتحمل كل هذا العذاب. هل يكره جيم جونز؟ مطلقًا، لقد صار «مؤمنًا حقيقيًا»، «وتابعًا مخلصًا». على الرغم من موت والده في مدينة جونز بجرعة من السم، وضربه هو نفسه وتعذيبه وإهانته؛ صرح جاري علنًا بأنه ما زال معجبًا «بأبيه» جيم جونز ويبجله. ولا حتى حزب رواية ١٩٨٤م لجورج أورويل يستطيع أن يحقق انتصارًا مماثلًا.

فلنذهب الآن إلى ما هو أبعد من التوافق وطاعة السلطة، فعلى الرغم من القوة الهائلة الكامنة فيهما، فهما مجرد بدايات. في صراع المجرمين المحتملين مع الضحايا، مثل الحراس والسجناء، أو المُعذِّبين والمُعذَّبين، أو المُفجّرين الانتحاريين والضحايا المدنيين، هناك عمليات مؤثرة في تغيير البنية النفسية لواحد أو لآخر. سلب الذاتية يحجب هوية المُجرِم، فتقلل المحاسبة والمسؤولية ورقابة الذات. نزع الإنسانية يسلب الضحايا المحتملين إنسانيتهم، ويجعلهم في مصاف الحيوانات، أو اللا شيء. سوف نبحث في الظروف التي تجعل ممن يمرون أثناء وقوع فعل شرير مراقبين سلبيين لا أبطالًا يتدخلون للمساعدة أو للإبلاغ عن فساد ما. ذلك الجزء من شر التقاعس هو حجر زاوية أساسي للشر؛ لأنه يجعل مقترفي الشر يعتقدون أن الآخرين الذين عرفوا بما يجري قبلوه وأقروه حتى إن كان ذلك بمجرد صمتهم.

---

(١) يعرف التفريغ النصي لخطاب الساعة الأخيرة لجيم جونز باسم [تسجيل الموت (Death Tape)] (FBI no. Q042)، وهو متاح مجانًا على الإنترنت، بتصريح من [Jonestown Institute] في أوركلاند، كاليفورنيا. حيث قام بالتفريغ النصي ماري مكورميك (Mary McCormick):

Http://jonestown.sdsu.edu/?page_id = 29081

نجد خلاصة ملائمة لتحقيقنا في ديناميكيات التوافق والطاعة عند عالم النفس بهارفارد، ماهرازين باناجي:

«ما قدمه علم النفس الاجتماعي لفهمنا للطبيعة الإنسانية هو اكتشاف أن هناك قوى أكبر منا تحدد حياتنا العقلية وتصرفاتنا، ويتقدم تلك القوى تأثير الظرف الاجتماعي»[1].

(1) M. Banaji, "Ordinary Prejudice," *Psychological Science Agenda* 8 (2001): 8-16; quote on p. 15.

الفصل الثالث عشر

فحص الديناميكيات الاجتماعية: سلب الذاتية، نزع الإنسانية، وشر التقاعس

«إن الرصيد التاريخي للبشر هو تلال من المؤامرات والتمرد والقتل والمذابح والثورات والنفي، وأسوأ ما قد يقود إليه البخل، والتعصب، والخيانة، والهمجية، والغضب، والجنون، والكراهية، والحسد، والشهوة، والحقد، والطموح... لا أستطيع أن أجزم بأن مواليدكم هم الأكثر خُبثًا بطبيعتهم الطُفيلية الكريهة التي جعلتهم يعانون باستمرار في زحفهم على سطح الأرض»

جوناثان سويفت[١]

ربما يكون استنكار جوناثان سويفت لجنسنا البشري ووصفنا بالهمج قاسيًا إلى حدٍّ ما، لكن خذ في اعتبارك أنه كتب هذا النقد قبل مئات السنين من بدءِ انتشار عمليات الإبادة الجماعية عبر أرجاء العالم، وقبل الهولوكوست. تعكس بنية فكره الأساسية موضوعًا رئيسيًا في الأدب الغربي عن أن «الجنس البشري» عانى تدهورًا كبيرًا مُنذ حالة الكمال الأصلية التي كان عليها، بدءًا من عصيان آدم للرب بخضوعه لغواية الشيطان.

أسهب الفيلسوف الاجتماعي جان جاك روسو في تفصيل موضوع التأثير المُفسِد للقوى الاجتماعية من خلال نظرته للبشر على أنهم «همج بدائيون، نُبلاء» تضاءلت فضائلهم من خلال احتكاكهم بمجتمع فاسد. وفي تناقض صارخ مع تصور البشر كضحايا أبرياء لمجتمع قوي السيطرة وفاسد، لدينا الرأي القائل بأن البشر يولدون أشرارًا في داخلهم بذور

(١) Jonathan Swift, *Gulliver's Travels and Other Works* (London: Routledge, 1906 [1727]).

تأتي إدانة سويفت لشركائه في الإنسانية بطريقة غير مباشرة في صورة هجوم لفظي على شخصيه البدلة جالبفر (Lemuel Gulliver) من قبل شخصيات بارزة كثيرة قابلها في رحلته إلى بروبينجانج (Brobdingnag) وأماكن أخرى. نحن البشر أبناء الرب موصوفون بأننا «مخلوقات مشوهة في أساسها»، نعرف أن نقائصنا لا علاج يعوضها؛ لأنه «لا يوجد وقت كافٍ لتصحيح النزوات والحماقات التي خضع لها أبناء الرب وإن كانت طبيعتهم قادرة على الوصول إلى أدنى قدر من الفضيلة والحكمة».

جينيّة فاسدة، فجنسنا تقوده دائمًا رغبات متوحشة، وشهيّة لا تشبع، وميول عدوانية لا تتوقف؛ إلا إذا تحوّل الناس إلى بشرٍ منطقيين وعقلانيين ورحيمين عن طريق التعليم والدين والأسرة، أو إذا تم التحكم فيهم عن طريق فرض الانضباط باستخدام سلطة الدولة.

ما موقفك من جدل العصور القديمة هذا؟ هل تعتقد أنك تولد صالحًا ثم يفسدك المُجتمع الشرير، أم أنّك تولد فاسدًا ثم يُصلحك المجتمع الصالح؟ قبل أن تقول رأيك أريد منك أن تضع رأيًا بديلًا في اعتبارك. من الممكن أن تكون في داخل كل منا القدرة على أن يكون معصومًا أو عاصيًا، وأن يكون كريمًا أو أنانيًا، وأن يكون مُهذّب الخلق أو همجيًا، وأن يكون مستبدًا أو خانعًا، مجرمًا أو ضحيةً، سجينًا أو حارسًا. ربما الظروف الاجتماعية هي التي تحدد أي الأنماط الذهنية والقدرات تتطور فينا. اكتشف العلماء أن الخلايا الجذعية المُضغيّة قادرة على التحوّل إلى أي نوع آخر من الخلايا أو الأنسجة، وأن خلايا الجلد العادية قادرة على التحوّل إلى خلايا جذعية. إنه لأمر مُغرٍ أن نتوسع في تلك التصورات البيولوجية أو ما يعرف الآن باسم «اللدونة الإنمائية»(١) للعقل البشري لتشمل أيضًا «لدونة» الطبيعة الإنسانية(٢).

يتشكّل ما نحن عليه عن طريق منظومة واسعة مُمتَدّة تحكُم حياتنا مثل الثروة والفقر، والجغرافيا والمناخ، والحقبة التاريخية، والهيمنة الثقافية والسياسية والدينية وكذلك أي مواقف خاصة نتعامل معها بصفة يومية. هذه العوامل المؤثرة جميعها تتفاعل بدورها مع طبيعتنا البيولوجية وشخصيّاتنا. ذكرتُ مسبقًا أن إمكانية الانحراف كامنة في تركيب العقل البشري، نزعتا الخير والشر معًا تُشكّلان الازدواجية الأساسية للطبيعة الإنسانية. هذا الفهم للطبيعة الإنسانية يُقدّم لنا صورة أكثر تعقيدًا وأكثر ثراءً لعظمة تصرفات البشر وألغازها.

سبق أن تناولنا تأثير الامتثال للمجموعة والانصياع للسلطة الذي يمكن أن يهيمن على روح المبادرة في الفرد ويدمّرها. فيما يلي سنضيف تفاصيل من أبحاث في مجالات سلب الذاتية ونزع الإنسانية وعدم اكتراث العابرين أو «شر التقاعس». ستكون المعلومات التي سنقدمها لكم بمثابة تمام بناء الأساس الذي يُمكّننا من تقدير وفهم كيف يُمكِن لأفراد عاديين صالحين وربما أنت نفسك أيها القارئ أن تسقط في بعض الأوقات لتقوم بأفعال فاسدة مؤذية ضد آخرين، أفعال سيئة تنتهك أي مفهوم للفطرة والأخلاق.

---

(١) (Developmental Plasticity) اللدونة الإنمائية: اللدونة في هذا السياق هي القدرة على التغير المورفولوجي أثناء عملية التطور الأولية وفقًا لمتطلبات الظروف المحيطة بدون أي تدخل وراثي أو تكييف. ومن ثم فاللدونة الإنمائية للعقل تعني قدرة العقل على التغير المورفولوجي وفقًا للبيئة المحيطة، مثل أن يكون مخ الفئران التي تعيش في بيئات أكثر تفاعلية أثقل وزنًا من مخ الفئران التي تعيش في بيئات منعزلة. (المترجم).

(٢) R. Weiss, "Skin Cells Converted to Stem Cells," *The Washington Post*, August 22, 2005, p. A01.

سلب الذاتية، الحجب والتخريب

تقترح رواية وليام جولدنج «أمير الذباب» أن تغييرًا بسيطًا في المظهر الخارجي للشخص يمكن أن يكون له تأثير قويّ في سلوكه العام. تحكي القصة عن مُترنمين بريطانيين طيّبين تحوّلوا إلى وحوش صغيرة قاتلة بمجرد أن قاموا بتلوين وجوههم. عندما نفد الطعام في جزيرتهم المُقفِرة حاول بعض الفتية بقيادة جاك ميريدو اصطياد خنزير وقتله، لكنهم لم يتمكنوا من القتل بسبب أخلاقهم المسيحية، لهذا قرّر جاك تلوين وجهه ليخفيه، وأثناء تلوين وجهه كان يرى انعكاسات مُرعبة لملامح الوجه الملوّن على المياه:

«نَظَر في دهشة، لا إلى نفسه؛ ولكن إلى شخصٍ غريب رائع. ضرب المياه وشرع يقفز على قدميه، كان يضحك بشدّة من فرط شعوره بالإثارة. وبرز أعلى جسده المنوتّر القناع الذي جذب أعين الفتية الآخرين وأفزعهم. بدأ يرقص ويضحك ضحكات مرتفعة متعطشة للدماء، ثم قفز تجاه بيل، كان القناع في ذاته بمثابة شيء يختفي خلفه جاك متحررًا من مشاعر العار ومن الضمير».

بعد أن اختفى الفتية الآخرون في عصابة جاك خلف أقنعة ملوّنة تمكنوا بسهولة من «قتل الخنزير، وقطع عنقه، وإسالة دمه»[1]، وبمجرد انتهائهم من هذا الفعل الغريب عنهم بقتل مخلوق آخر أصبحوا يستمتعون بقتل أعدائهم من الحيوانات والبشر على حد السواء، وبخاصة الفتى المُثقف الذي لقّبوه «الخنزير». السُلطة تُحدِّد الصواب، وقد انفتحت أبواب الجحيم بعد اصطياد قطيع الوحوش هذا الفتى القائد الطيّب رالف.

هل يوجد في علم النفس ما يثبت أن إخفاء المظهر الخارجي يمكن أن يؤثِّر بشكل قوي في العمليات السلوكية؟ فيما يلي حاولت الإجابة عن هذا السؤال من خلال مجموعة من الدراسات التي أسهمت في فتح مجال أمام موضوع بحثي جديد في سيكولوجيا سلب الذاتية والسلوك المعادي للمجتمع[2].

السلوك الصادم لامراة مجهولة الاسم

أول إجراء في هذه التجربة هو جعل الطالبات الجامعيات يعتقدن أنهن يتسببن في سلسلة من الصدمات الكهربائية المؤلمة لامرأة أخرى من خلال «قصة مختلقة» قابلة للتصديق، حيث تكون أمامهن فرص متعددة لصعق واحدة من امرأتين سبق لهنّ رؤيتهما

(١) W. Golding, *Lord of the Flies* (New York: Capricorn Books, 1954), pp. 58, 63.

(٢) P. G. Zimbardo, "The Human Choice: Individuation, Reason, and Order Versus Deindividuation, Impulse, and Chaos," in *1969 Nebraska Symposium on Motivation*, eds. W. J. Arnold and D. Levine (Lincoln: University of Nebraska Press, 1970).

والاستماع لهما من خلف زجاج ذي اتجاه واحد. وُزّعت الطالبات بشكل عشوائي، نصفهن محجوبات الهوية، والنصف الآخر لسن كذلك. في كل من المجموعات العشرة محجوبة الهوية التي تضم كل منها أربع طالبات؛ أخفينا الهويات باستخدام أغطية للرؤوس ومعاطف مختبر ذات قياس كبير واستبدلنا بأسمائهنّ أرقامًا، وقد تعامل معهُن المسؤول عن تنفيذ التجربة باعتبارهنّ مجموعات مكوّنة من أشخاص مجهولي الاسم، لا أفرادًا لكل منهم هوية مستقلة، وأخبرهن أن الهدف من تلك الاختبارات هو إخفاء سلوكهن غير اللفظي بحيث لا يتمكن الآخرون من تعقب ردود أفعالهن. وفي المقابل قُدّم لكل عضوة في مجموعة المقارنة شارة عليها اسمها حتى يشعُرن بتفرُّد الهوية، لكن بخلاف هذا كان كل شيء مطابقًا تمامًا لما في المجموعات محجوبة الهوية. كل مجموعة سواء مجموعات الهوية المحجوبة أو مجموعة المقارنة كانت مكونة من أربع فتيات ويُطلَب من كلتا المجموعتين بشكل متكرر صعق امرأتين «ضحيتين» خلال عشرين محاولة.

القصة المكذوبة التي قُلناها لهُنّ هي أن السيدتين المستهدفتين تخضعان لدراسة عن القدرة على الابتكار في الضغط، وكانت وظيفة المشاركات هي وضعهن تحت هذا الضغط عن طريق توجيه صدمات كهربائية مؤلمة أثناء قيامي بصفتي المسؤول عن تنفيذ التجربة خلال وجودي في الغرفة المجاورة خلف المرآة بتقديم اختبار التفكير المُبتَكِر.

بخلاف نموذج ميلغرام لم يكن هناك وجود لسلطة تضغط بشكل مباشر على الفتيات لجعلهن يتصرفن بقسوة بتوجيه تلك الصدمات الكهربائية المؤلمة لأنني لم أتفاعل معهن أثناء توجيه الصدمات الكهربائية. كان بإمكان الطالبات رؤيتي من خلال نافذة المراقبة وأنا مع كل من السيدتين في دراسة الابتكار المزعومة. لم يكن هناك كذلك أي ضغط عليهن للامتثال للمجموعة بسبب غياب التفاعل بين الفتيات، وغياب التفاعل راجع لوجود كل واحدة منهن في غرفة منفصلة والغرف كانت على صف واحد، وأخيرًا لم يكُن مُلزمات بتوجيه الصدمات باعتبار أن الامتناع سيُخِل بمبادئ الدراسة. إذا ما وجهت واحدة من المُشترِكات صدمة كهربائية فستدّعي المرأة المُستهدفة أنها تعرضت لصدمة كافية للتأثير على قدرتها على الابتكار، ولذلك فإن عدم توجيه الصدمات الكهربائية لن يُمثِّل عصيانًا ولا اعتراضًا، فبإمكان المشتركة أن تكون مُراقِبة سلبيّة لزميلاتها وهن يوجهن الصدمات بدلًا من أن تكون مُنفِّذة نَشِطة.

السلوك الذي كانت مطلوبة مراقبته هو مدة استمرار الضغط على زر الصدمة الكهربائية بعد ظهور إشارة البدء. لم تكن القضية هي الضغط على الزر ولكن متى سترفع إصبعها عن الزر أو كم ستبقيه لتوجه صدمة أطول للضحية. كان بإمكانهن اختيار عدم اتباع التعليمات ورفض الضغط على الزر من الأساس (لم تفعل واحدة منهن).

في اللقاءات المُسجّلة قلنا عن إحدى المشاركات معنا أنها شديدة الرقّة، وعن أخرى أنها «بغيضة»، فعلنا هذا بهدف صناعة سلوكيات مختلفة تجاههن في أذهان «صانعات الضغط». في الواقع كلتاهما كانتا شريكتان معنا في البحث تدربتا على تمثيل الألم عند إضاءة إشارة الصدمة وتقديم أداء مقنع يمكن للطالبات في الغرفة الأخرى مشاهدته.

قبل بدء التجربة وجّهنا صدمة كهربائية للمشتركات بمقدار (٧٥) فولت حتى نتأكد من إدراكهن أنها صدمة مؤلمة، بالطبع لم تتعرض المرأتان لأية صدمات على الإطلاق أثناء التنفيذ الفعلي للتجربة. في كل محاولة من العشرين يكون على المُشتركة أن تُقرِّر أولًا ما إذا كانت ستوجّه الصدمة الكهربائية وإن فعلت فعليها أن تُقرّر مُدّة توجيه الصدمة للسيدة التي تُعاني بوضوح بسبب ما يفعلنه بها، وبعد مُغادرة أول سيدة مُستهدفة بالصدمات استبدلنا الثانية بها لجولة جديدة من عشرين صدمة كهربائية، ولأن العضوات الأربع لمجموعة التجربة وكذلك لمجموعة المقارنة كُنّ موضوعات في مقصورات متلاصقة في صفّ واحد؛ لم يكن لأي من أعضاء الفريق أي تأثير مباشر على سلوك أخرى، وعلى الرغم من هذا كان لديهن إحساس الانتماء لمجموعة لأنهن استمعن إلى التسجيلات الصوتية معًا في البداية. من المهم تذكر أنه بخلاف التلاعب بمسألة حجب الهوية أو إبدائها في المجموعتين فإن بقية الأشياء كانت متطابقة تمامًا.

كانت النتائج واضحة، النساء محجوبات الهوية أنتجن ضِعف مدة الصدمات التي تسببت بها الأخريات في مجموعة الهوية الظاهرة، كما أن النساء محجوبات الهوية أيضًا صعقن الضحيتين بدرجة متساوية، الأولى التي قلنا عنها أنها مرحة والأخرى التي قلنا عنها أنها كئيبة، لم يُشكِّل الشعور المسبق أي فارق بمجرد وضع الإصبع على الزر، وقد ضاعفن مدة الصدمات مع التقدم في المحاولات العشرين، حيث استمررن في زيادة مدة الضغط على الزر على الرغم من تلوي الضحية وتأوهها أمامهن. على النقيض، ميزت النساء في مجموعات الهوية الظاهرة بين الهدفين اللطيفة والكئيبة حيث قللن من مدة صعقهن لتلك التي أعجبن بها بمرور الوقت بعكس الكئيبة.

الفتيات اللاتي حجبنا هوياتهُنّ تجاهلن أية مشاعر مُسبقة إعجابًا أو بُغضًا تجاه المستهدفة بالصدمات عندما كانت أمامهُنّ فُرصة إيذاء كل من السيدتان مما يدُل على تغيُّر شديد في عقلية تلك النسوة أثناء خضوعهن للتأثير النفسي لحجب الذاتيّة. تصاعد مُدّة توجيه الصدمات مع تكرار فُرص إلحاق ألم هذه الصدمات بالضحية تدل على الاستثارة العاطفية التي تمُر بها عضوات هذه المجموعة، وهذا السلوك المستثار يدعم الذات بما يجعل كُلّ فعل تتبعه ردة فعل أكثر قوةً وأقل خضوعًا لتحكُّم الفرد. بحكم التجربة، فإن هذا لا يحدث بسبب دوافع ساديّة لإيذاء الآخرين، وإنما بسبب شعور مُنعشٍ بالتحكُّم فيهم في هذه اللحظة.

تكرَّر هذا النموذج الأساسي بنتائج متشابهة في عدد كبير من المختبرات والدراسات الميدانية باستخدام أقنعة لإخفاء الهوية أو التعريض للضجيج الأبيض[1] أو القاء كرات من مادة الفلّين على الضحايا المستهدفين، ونُفِّذَت التجارب على أفراد عسكريين من الجيش البلجيكي وعلى أطفال مدارس وعلى عدد من الطلبة الجامعيين كذلك. وقد رصدنا ارتفاع مستوى شدّة أو مُدّة الصدمات بمرور الوقت في إحدى الدراسات التي كان المُعلّمون الذين يوجّهون الصدمات فيها مسؤولين عن تعليم الطُلّاب الضحايا، هُم أيضًا صعّدوا مستوى الصدمة مع استمرار جلسة التدريب[2].

لعلّك تتذكر اعتماد تجربة سجن ستانفورد على النظارات الشمسية الفضية التي تؤدي إلى حجب ذاتية فريق الحراسة وأفراد فريق العمل وكذلك الأزياء الرسمية الموحدة. نتيجة واحدة وصلنا إليها من كل تلك الدراسات وهي أن أي شيء وأي ظرف يجعل الناس يشعرون بأنهم مجاهيل أو محجوبون وكأنما لا يدري بهم أحد أو لا يهتم بأن يعرف عنهم أحد سيقلل من شعورهم بالمسؤولية الشخصية مما يخلق فرصًا أكبر لارتكاب الشر. ويتحقق هذا خصوصًا بإضافة عامل آخر، فإذا كان الظرف يسمح للأفراد بالتورط في سلوك مُعادٍ للمجتمع أو عنيف ضد آخرين، مثلما صنعنا في إعدادات بحثنا، فإنه يجعل الناس مُهيّئين لخوض الحروب. أمّا إذا كان الظرف يقلّص الشعور بالتمركز حول الذات في وجود الحجب فإنه يشجع على سلوكيات داعمة للمجتمع مما يجعل الناس جاهزين لنشر الحُب. (الحجب «كالتنكر» في الحفلات مثلًا يجعل منها أكثر اجتماعية). إذًا وجهة نظر ويليام جولدينج عن الحجب والعدوان مُثبتة وفقًا لعلم النفس لكن بطرق أكثر تركيبًا وإثارة مما وصف هو.

«بالتأكيد سيغير هذا الرداء من حالتي المزاجية»

ويليام شكسبير (*The Winter's Tale*)

بالتأكيد يمكن حجب الآخرين لا باستخدام الأقنعة فحسب، ولكن أيضًا من خلال طريقة التعامل معهم في مواقف معيّنة، عندما يعاملك الآخرون على أنك مجرد «آخر» لا يختلف عنهم يسيّره النظام لا على أنّك صاحب شخصيّة متفردّة ومستقلّة، أو عندما يتجاهلون وجودك فإن هذا يُشعِرك بأنك بلا هوية، ومن الممكن لهذا الشعور أن يحفّز سلوكًا معاديًا للمجتمع. حين عامل الباحث الطلبة الجامعيين في إحدى التجارب بإنسانية

(١) الضجيج الأبيض (white noise): هو مجموعة من الأصوات تشمل كافة الترددات الصوتية التي يستطيع الإنسان سماعها من أخفضها إلى أعلاها. (المترجم).

(٢) M. H. Bond and D. G. Dutton, "The Effect of Interaction Anticipation and Experience as a Victim on Aggressive Behavior," *Journal of Personality* 43 (1975): 515-27.

مرةً أو كأنهم «خنازير تجارُب» في أخرى؛ ففي أيهم سلبوه ممتلكاته في الأوقات التي لم يكن ينظر تجاههم فيها في رأيك؟ لاحقًا عندما وجد هؤلاء الطلبة أنفسهم وحدهم في مكتب الأستاذ ـ الباحث مع فرصة لسرقة العملات والأقلام من وعاء ممتلئ بهذه الأشياء؛ سرق من كانوا في حالة الحجب بمعدل أعلى مقارنة بمن عوملوا بطريقة إنسانية[1]، لذلك فإن للسلوك الطيّب فوائد كثيرة تتجاوز الطيبة في ذاتها.

الحكمة الثقافية: كيف تجعل المحاربين يقتلون في الحرب ولكن ليس في الوطن؟

دعنا نترك المختبرات لنعود إلى العالم الحقيقي حيث يمكن لموضوعات الحجب هذه أن تكون أكثر أهمية من الحياة أو الموت. فلننظر تحديدًا في الفرق بين المجتمعات التي تذهب بمحاربيها الشبان إلى الحرب بدون تغيير مظهرهم الخارجي، وتلك المجتمعات التي لها طقوس خاصة بتغيير الشكل عن طريق تلوين المحاربين لوجوههم وأجسادهم أو وضع أقنعة مثلما حدث في رواية أمير الذباب لوليام جولدنج، هل يحدث التغير في المظهر الخارجي فارقًا ذا أهمية في كيفية معاملة أعداء محاربين؟

طرح عالم الأنثروبولوجي ر. ج. واتسون[2] هذا السؤال بعد قراءته عملي السابق عن سلب الذاتية. كان مصدر البيانات الذي اعتمد عليه هو ملفات مجال العلاقات الإنسانية (*Human Relations Area Files*) التي تُسجَّل فيها معلومات عن الثقافات حول العالم في صيغة تقارير علماء الإنسانيات والبعثات التبشيرية وعلماء النفس وآخرين. وجد واتسون مجموعتين من البيانات عن مجتمعات لم يكن محاربوها يحدثون أي تغيير في مظهرهم الخارجي قبل الخروج للحرب وممارستهم للقتل أو التعذيب أو تشويه الضحايا. تغيير الملامح هو عنصر قاتل شديد الأهمية في قياس عمليّات القتل؛ بل هو الأكثر أهمية في قياس النتائج.

والنتائج نفسها أثبتت تمامًا صدق توقعنا بأن الحجب يدعم السلوكيات المُدمِّرة وخاصة مع الحصول على تصريح بانتهاج سلوكيات عنيفة محرمة في الأصل، حيث تمنح الحرب تصريحًا مؤسسيًا بقتل أو جرح الخصوم. وجد هذا الباحث أنه من بين ثلاثة وعشرين مجتمعًا تناولته مجموعات البيانات هذه؛ خمسة عشر شعبًا محاربًا يهتم بتغيير

---

(١) R. J. Kiernan and R. M. Kaplan, "Deindividuation, Anonymity, and Pilfering," paper presented at the Western Psychological Association Convention, San Francisco, April 1971.

(٢) R. J. Watson, Jr., "Investigation into Deindividuation Using a Cross-Cultural Survey Technique," *Journal of Personality and Social Psychology* 25 (1973): 342-45.

المظهر الخارجي كانوا من الشعوب الأكثر تدميرًا، ٨٠٪ منهم (١٢ من ١٥) كانوا يعتدون على أعدائهم بوحشية، وعلى النقيض في سبعة من المجتمعات التي لم يغيّر محاربوها مظهرهم قبل الخروج للحرب؛ لم يتورطوا في أية سلوكيات تدميرية. طريقة أخرى للنظر في هذه البيانات هي أن في (٩٠٪) من المرات التي يُقتَل فيها ضحايا المعارك أو يعذَّبون أو يشوَّهون؛ يكون هذا على يد مقاتلين غيَّروا مظهرهم ودخلوا في سياق حجب الذاتية قبل الخروج إلى الحرب.

تقول الحكمة الثقافية أن إحدى المكونات الرئيسية لتحويل الشباب العادي غير العنيف في طبيعته إلى محاربين قادرين على القتل مع صدور أول أمر؛ هو تغيير مظهرهم أولًا. كانت أغلب الحروب تدور حول عجائز يقنعون الشباب الفتيّ بإيذاء شباب آخرين مثلهم. يكون الأمر أيسر بالنسبة لهؤلاء الشباب إذا ما تغيَّر مظهرهم أولًا، تغيير الوجه المعتاد بوضع العتاد العسكري أو الأقنعة أو تلوين الوجوه. مع دخول الحجب المكان تتنحّى عاطفتهم المعتادة واهتمامهم بالآخرين، وعند الانتصار في الحرب تفرض عليهم ثقافتهم العودة إلى عاداتهم المألوفة وقت السلم. يحدث هذا التحول العكسي بسهولة بمجرد جعل المحاربين يخلعون الزي العسكري وينزعون الأقنعة ويزيلون الألوان التي تخفي وجوههم، فيرجعون إلى شخصياتهم السابقة وسلوكهم المسالم. لذلك كانوا بطريقةٍ ما يتصرفون وكأنما خرجوا في طقس اجتماعي جنائزي، واستخدموا نموذج (A-B-A) للتحليل السلوكي[١] الذي استخدمه سكوت فريزر في تجربة الهالوين[٢] بغير إدراك منهم، فيكونون مسالمين عندما تكون هويتهم محددّة، وعندما تُحجب الهوية يصبحون قتلة، وبعدها يعودون أشخاص مسالمين مع عودتهم إلى تحديد الهويّة.

توّلد بعض البيئات في من يعيشون ويتحركون فيها شعورًا بحجب مؤقت للهوية بدون الحاجة إلى أي تغيير في المظهر الخارجي. أجرى فريقي البحثي دراسة ميدانية تهدُف إلى

---

(١) نموذج [A-B-A]: يرصُد الباحث في هذا النموذج الخط الأساسي الأولي للسلوك، ثم يُقدِّم حافزًا لتغيير هذا السلوك، ثم يدرس التغيرات التي طرأت على الخط الأساسي للسلوك بعد التغيير. (المحرر).

(٢) أقام سكوت فريزر (Scott Fraser) في أوائل السبعينات حفلاً للهالوين لمجموعة طلاب مدرسة ابتدائية، ووضع لهم مسابقة، وهي عبارة عن عدة ألعاب بعضها عدوانية وتحتوي على درجة من العنف، ويحصل الفائز فيها على جائزة، ونفّذ التجربة على النحو التالي: (A) يشرع الطلاب بممارسة الألعاب التي تحتوي على عنف بدون الأزياء التنكرية، ثم في المرحلة (B) تقام الألعاب بعد ارتداء الطلاب للأزياء التنكريّة، ثم في مرحلة (A) تقام الألعاب مجدداً بدون الأزياء التنكرية.

كانت نتيجة التجربة أن ازداد العنف بين الطلاب بدرجة كبيرة بمجرد ارتدائهم تلك الأزياء، فقد ازداد معدل لعب الأولاد للألعاب التي تشتمل على عنف لأكثر من ضعف المستوى الأساسي الذي بدؤوا به، من ٤٢٪ في (A) إلى ٨٦٪ (B). (المحرر).

إثبات تأثير حجب الهوية بفعل المكان في تسهيل التخريب في المدينة. تذكر في الفصل الأول عندما تخلينا عن السيارات في الشوارع بالقرب من الحرم الجامعي لجامعة نيويورك في برونكس، وبالقرب من الحرم الجامعي لجامعة ستانفورد في مدينة بالو ألتو. فمنا بتسجيل لقطات فيديو لأعمال التخريب لتلك السيارات التي كانت مهجورة (منزوعة منها لوحات الأرقام، وأغطية المحرك مرفوعة). في بيئة حجب الهوية في برونكس وفي خلال ثمانية وأربعين ساعة وقف كثيرون لتخريب السيارة وكان أغلبهم بالغين يرتدون ملابس جيدة، حيث قاموا بنزع أي شيء ذي قيمة من السيارة أو مجرد الاكتفاء بتحطيمها، وتم كل هذا في وضح النهار. على النقيض وعلى مدار أسبوع؛ لم يتورط واحد في أي عمل تخريبي للسيارة المهجورة في بالو ألتو. وكانت هذه التجربة هي الدليل التجريبي الوحيد المستشهد به لدعم «نظرية النوافذ المحطمة» الخاصة بالجريمة في المدينة. لبعض الظروف المحيطة بالمكان دور في جعل بعض أعضاء المجتمع يشعرون بالتهميش، وبأن هويتَهُم محجوبة، ولا يوجد في محيطهم من يعرفهم، ولا يوجد من يعترف بتفردهم ومن ثَمَّ بإنسانيتهم، عندما يحدث هذا نساهم في تحويل هؤلاء الأفراد إلى مخربين محتملين وقتلة.

سلب الذاتية يحول طبيعتنا الأبولونية إلى طبيعة ديونيسية

لنفترض أن الجانب «الصالح» من البشر هو عقلانية أبولو وتنظيمه واتساقه مع ذاته وحكمته، في حين يكون الجانب «الفاسد» هو فوضوية ديونيسيوس واختلاله وتهوره وشهوانيته، السمة الأبولونية الأساسية هي كبح الرغبة ويقابلها إطلاق الرغبة عند ديونيسيوس. يمكن للناس أن يتحولوا إلى الشر عندما تتعطَّل أو تختل وسائل التحكم الإدراكي التي ترشد سلوكهم عادةً نحو اتجاهات مرغوب بها اجتماعيًّا ومقبولة على المستوى الشخصي. لتعطيل وسائل التحكم الإدراكي بعض النتائج، من بينها تعطيل الضمير، وتعطيل الوعي الذاتي، وتعطيل الشعور بالمسؤولية الشخصية، وتعطيل الإجبار، والالتزام، والأخلاق، والشعور بالذنب، والخزي، والخوف، وتحليل تصرفات الشخص من زاوية حسابات التكلفة - الربح.

الاستراتيجيتان الأساسيتان في إكمال هذا التحول هما: (أ) تقليل إشارات ونماذج المحاسبة الاجتماعية أمام الفاعل (لا يوجد من يعرف من أنا ولا من يكترث لهذا). (ب) تقليل الاهتمام بتقييم الذات. الاستراتيجية الأولى تمنع أي خوف من التقييم أو القبول المجتمعي ويحدث هذا بجعل الفاعل يشعر بأنه مجهول، بسلب الذاتية. وترتفع فاعلية الاستراتيجية الأولى عندما يتحرك الفرد داخل بيئة تشعره بالتهميش وتُبدِّد المسؤولية الشخصية. أما الاستراتيجية الثانية فهي تُعطِل مراقبة الذات ومراقبة الاتساق مع المبادئ

الشخصية بالاعتماد على تكتيكات تُغيِّر من حالة الشخص الواعية، يحدث هذا عن طريق استخدام المخدرات أو الكحوليات، أو إثارة عواطف قوية، أو التورط في أفعال تسبب انفعالات شديدة، أو الدخول في منحى ممتد داخل اللحظة الحاضرة بحيث لا ينشغل الفرد بالمستقبل، ويحول المسؤولية خارجًا تجاه الآخرين وليس داخليًّا تجاه الذات.

يخلق سلب الذاتية حالة نفسية فريدة يخضع فيها السلوك لمقتضيات الموقف المباشرة وللمحفِّزات البيولوجية والهرمونية. يحلّ الفعل مكان الفكر، وتسود الرغبة في تحقيق المتعة المباشرة على القدرة على تعطيل أو تأجيل إشباع هذه الرغبة، كما أن منع اتخاذ هذه القرارات يفسح الطريق أمام ردود فعل عاطفية طائشة. في الغالب تكون حالة الإثارة محفزًا لسلب الذاتية ونتيجة لها في الوقت ذاته، ويزداد تأثير سلب الذاتيّة في المواقف الجديدة غير محددة المعالم حيث تُلغى كافة ردود الفعل والسمات الشخصية المعتادة، وكذلك تزداد قابلية الشخص للسقوط أمام النماذج الاجتماعية والإشارات الظرفية، يصبح التورط في الحب بسهولة التورط في الحرب، يعتمد الأمر على متطلبات الظرف أو ما يستدعيه الظرف. على المستوى الأعلى، لا يوجد إحساس بالصواب والخطأ، لا يفكر الشخص في الإدانة تجاه الأفعال القانونية أو في الجحيم تجاه الأفعال غير الأخلاقية[1]. مع تعطيل القيود الداخلية، يصبح السلوك خاضعًا بشكل كامل لتحكُّم الموقف الخارجي، فيتفوق الخارجي على الداخلي. ما هو ممكن ومتاح يهيمن على ما هو صحيح وعادل، تفقد البوصلة الأخلاقية للأفراد والمجموعات في هذا الموقف اتجاهاتها القطبية.

التحول من العقلية الأبولونية إلى العقلية الديونيسية يمكن أن يكون سريعًا وغير متوقع، فيجعل الناس يقدمون على أفعال سيئة وهم يعيشون في اللحظة الحاضرة الممتدة بلا أي اهتمام بالنتائج المستقبلية لأفعالهم. تذوب القيود المعتادة المضروبة على الوحشية

---

(١) بعض المراجع المتاحة عن سلب الذاتية (Deindividuation):

E. Diener, "Deindividuation: Causes and Consequences," *Social Behavior and Personality* 5 (1977): 143-56; E. Diener, "Deindividuation: The Absence of Self-Awareness and Self-Regulation in Group Members, in *Psychology of Group Influence*, ed. P. B. Paulus (Hillsdale, NJ: Erlbaum, 1980), pp. 209-42; L. Festinger, A. Pepitone, and T. Newcomb, "Some Consequences of De-individuation in a Group," *Journal of Abnormal and Social Psychology* 47 (1952): 382-89; G. Le Bon, *The Crowd: A Study of the Popular Mind* (London: Transaction, 1995 [1895]); T. Postmes and R. Spears, "Deindividuation and Antinormative Behavior: A Meta-analysis," *Psychological Bulletin* 123 (1998): 238-59; S. Prentice-Dunn and R. W. Rogers, "Deindividuation in Aggression," in *Aggression: Theoretical and Empirical Reviews*, eds. R. G. Geen and E. I. Donnerstein (New York: Academic Press, 1983), pp. 155-72; S. Reicher and M. Levine, "On the Consequences of Deindividuation Manipulations for the Strategic Communication of Self: Identifiability and the Presentation of Social Identity," *European Journal of Social Psychology* 24 (1994): 511-24; J. E. Singer, C. E. Brush and S. C. Lublin, "Some Aspects of Deindividuation: Identification and Conformity," *Journal of Experimental Social Psychology* 1 (1965): 356-78; C. B. Spivey and S. Prentice-Dunn, "Assessing the Directionality of Deindividuated Behavior: Effects of Deindividuation, Modeling, and Private Self-Consciousness on Aggressive and Prosocial Responses," *Basic and Applied Social Psychology* 4 (1990): 387-403.

والشهوانية أمام سلب الذاتية المفسد، كما لو كانت هناك دائرة مغلقة داخل المخ تفصل قشرته الأمامية عن وظائف التخطيط واتخاذ القرارات، بينما الوظائف الأكثر بدائية تحت مسؤولية الجهاز الحوفي (limbic system)، وبهذا تكون السيطرة لمركز العاطفة والعنف في المخ.

تأثير الثلاثاء البدين (The Mardi Gras Effect): سلب الذاتية الجماعي مثل النشوة

في اليونان القديمة كان ديونيسيوس فريدًا بين الآلهة. كان يُنظَر إليه على أنه يخلق مستوى جديدًا من الواقع يتحدى المعتقدات وأساليب الحياة التقليدية، يحرر الروح البشرية من تقيُّدها الوقور بالحوار العقلاني والتخطيط المنظم، وهو كذلك صاحب قوة تدميرية، الشهوة بلا حدود والمتعة الذاتية بلا أية قيود مجتمعية، كان ديونيسيوس إله السكر والجنون، وإله الهوس الجنسي وشهوة الحرب. كان كل حالات فقدان الوعي الذاتي والعقلانية وتعطيل الزمن الخطي وترك الذات بشكل كامل لنزعات الطبيعة الإنسانية التي تلقي خلفها بالقيم السلوكية والمسؤولية العامة.

أصل «ماردي جراس» أو «الثلاثاء البدين» هو احتفالية وثنية سابقة على المسيحية تقر بها الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الآن وتقع في يوم الثلاثاء (الثلاثاء البدين، أو ثلاثاء الخلاص من الذنوب) تمامًا قبل أربعاء الرماد. يُعلِن اليوم المقدس عن بدء الصوم الكبير بكل شعائر التضحية والامتناع عن بعض الطعام وصولًا إلى أحد الفصح بعد ستة وأربعين يومًا. تبدأ احتفالات الثلاثاء البدين من اليوم الثاني عشر عيد الغطاس، عندما زار الملوك الثلاثة يسوع المسيح حديث الولادة.

عمليًا، فإن يوم الثلاثاء البدين هو احتفال بالشبق والسعي خلف المتعة والاستمتاع باللحظة، «بالخمر، والنساء، والغناء». كل اهتمام أو التزام يُنسى أثناء إطلاق المحتفلين سراح طبيعتهم الشهوانية في الاحتفالات الجماعية، إنها احتفالات عربدة تبعد السلوك عن القيود المعتادة والأفعال المبنية على التفكير العقلاني، لكن دائمًا ما يكون هناك شعور مسبق بأن الاحتفال مؤقت، وسرعان ما سيستبدل بقيود أكبر من المعتادة على المتع والشهوات الشخصية مع قدوم الصوم. «تأثير الثلاثاء البدين»؛ يعني: التخلي مؤقتًا عن القيود الإدراكية والأخلاقية على سلوك الفرد عندما يقرر جزء من مجموعة من المعربدين المتشابهين في التفكير أن يستمتعوا باللحظة بدون أي تفكير في النتائج والمسؤوليات، إنه حجب الذاتية في تصرفات المجموعة.

نزع الإنسانية والتعطل الأخلاقي

يُعد نزع الإنسانية ركنًا أساسيًا في فهمنا «لهمجية الإنسان مع الإنسان». تنزع الإنسانية عندما يبدأ بعض الناس في استبعاد بشر آخرين من المنظومة الأخلاقية التي تجعلهم بشرًا. يفقد الخاضعون لهذه العملية النفسية مكانتهم الإنسانية في عيون من يسلبونهم إياها، عندما يقوم الممارس باستبعاد البعض من دائرة الإنسانية؛ فإنه بذلك يُعطِّل الأخلاق التي في العادة تحكُم تصرفاته تجاه هؤلاء.

يُعد نزع الإنسانية عملية أساسية في التعصُّب والعنصرية والاضطهاد حيث يصِم الآخرين، ويكسبهم «هوية قبيحة». مثلًا، وصف عالم الاجتماع إرفينج جوفمان[1] العملية التي تجعل أصحاب الاحتياجات الخاصة يفقدون مصداقيتهم في المجتمع، فيمسون ناقصي البشرية، وموسومين بالعيب.

يمكن في أوضاع كهذه لأشخاص عاديين مستقيمين أخلاقيًا؛ بل ومثاليين في العادة أن يمارسوا أفعالًا تتسم بالوحشية المدمرة. عدم الاستجابة للسمات الإنسانية في الآخر تُسهِّل تلقائيًا من تلك الأفعال الهمجية، وبهذا تبتر القاعدة الذهبية: «أحبّ للآخرين ما تحب لنفسك»؛ فالأسهل أن تكون قاسيًا أو فظًّا تجاه «المفعول بهم» منزوعي الإنسانية، وأن تتجاهل متطلباتهم وتوسلاتهم، وأن تستخدمهم لخدمة أغراضك الخاصة؛ بل وأن تدمرهم إن كانوا مزعجين[2].

قال أحد القادة اليابانيين إن تقتيل المدنيين الصينيين كان يسيرًا على جنوده أثناء غزو اليابان للصين قبل الحرب العالمية الثانية، «لأننا كنا ننظر إليهم على أنهم أشياء، وليسوا بشرًا مثلنا». وكان هذا هو الوضع أيضًا في «اغتصاب نانكينج» سنة ١٩٣٧م، تذكر وصف نساء قبيلة التوتسي في (الفصل الأول) الذي ذكرته السيدة التي جهّزت بنفسها لاغتصابهنّ، لسن سوى «حشرات»، «صراصير». وبالمثل فإن عمليات الإبادة الجماعية النازية في حق اليهود بدأت أولًا بخلق دعاية إعلامية في الأفلام والملصقات والوعي الوطني تجاه هؤلاء البشر وكأنهم أدنى صور الحياة الحيوانية، ديدان أو فئران شرهة. قتل السود من قبل عصابات من البيض في المدن في أرجاء الولايات المتحدة ما كان يعد جريمة ضد الإنسانية

---

(١) E. Goffman, *Stigma: Notes on the Management of Spoiled Identity* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1963).

(٢) انظر:

C. Maslach and P. G. Zimbardo, "Dehumanization in Institutional Settings: 'Detached Concern' in Health and Social Service Professions; The Dehumanization of Imprisonment," paper presented at the American Psychological Association Convention, Montreal, Canada, August 30, 1973.

لأنهم موصومون بأنهم «زنوج» (niggers)[١].

وخلف مذبحة ماي لاي التي راح ضحيتها مئات المدنيين الفيتناميين على يد الجنود الأمريكيين، كان نزع الإنسانية يتم باستخدام لقب جوكس «Gooks» الذي أطلقه الجنود الأمريكيون على الشعب الآسيوي المختلف عنهم في الشكل[٢]. أصبح الجوكس في الماضي حجيجًا (Hajjis) اليوم في العراق أو رؤوس المناشف (Towel Heads) حيث تتفص مجموعة جديدة من الجنود من هؤلاء المواطنين والجنود المختلفين في الشكل. قال الرقيب ميا (Mejia): «نحاول تنحية حقيقة أنهم بشر ونراهم على أنهم أعداء فحسب»، وهو الشخص الذي فضل العودة إلى الوطن على الاستمرار فيما اعتبره حربًا بغيضة. «أتدري؟ يسمونهم حجيج تبذُل كل ما بوسعك لتسهيل قتلِهم وإساءة معاملتهم»[٣].

ولدينا تجارب مخبرية مُحكمة أثبتت قدرة تلك المُسميّات مع الصور الملحقة بها على خلق حوافز قوية. (ذكرنا بعضها في الفصل الأول، ونستكملها هنا).

نزع الإنسانية التجريبي: نزع إنسانية طالب جامعي زميل

صمَّم زميلي بجامعة ستانفورد ألبيرت باندورا مع طَلَبته تَجْرُبَة قوية تثبت قدرة المسميات النازعة للإنسانية على تغذية قدرة إيذاء الآخرين[٤].

قسَّم اثنين وسبعين طالبًا من جامعات قريبة إلى «فرق رقابية» من ثلاثة أفراد مهمتهم المعاقبة على القرارات غير المناسبة التي يتخذها الطلبة الآخرون الذين يفترض أنهم يعملون في مجموعة على اتخاذ قرار، وكان المستخدمون الحقيقيون في التجربة هم من يؤدون الدور الرقابي.

في كل من المحاولات الخمس والعشرين سمع المراقبون فريق اتخاذ القرار (الموجودين في غرفة مجاورة) يتخذون قرارات جماعية. قدَّم للمراقبين المعلومات التي تمكِّنهُم من تقييم درجة ملائمة القرار في كل محاولة. عند اتخاذ أي قرار سيئ تكون مهمة الفريق الرقابي هي العقاب على الخطأ بتوجيه صدمة كهربائية. بإمكانهم اختيار مستوى شدة

---

(١) R. Ginzburg, *100 Years of Lynching* (Baltimore: Black Classic Press, 1988). Also see the photographs of lynchings that were distributed on postcards in J. Allen, H. Ali, J. Lewis, and L. F. Litwack, *Without Sanctuary: Lynching Photography in America* (Santa Fe, NM: Twin Palms Publishers, 2004).

(٢) H. C. Kelman, "Violence Without Moral Restraint: Reflections on the Dehumanization of Victims and Victimizers," *Journal of Social Issues* 29 (1973): 25-61.

(٣) B. Herbert, "'Gooks' to 'Hajis.'" *The New York Times*, May 21, 2004.

(٤) A. Bandura, B. Underwood, and M. E. Fromson, "Disinhibition of Aggression Through Diffusion of Responsibility and Dehumanization of Victims," *Journal of Research in Personality* 9 (1975): 253-69.

الصدمة الكهربائية من (١) إلى (١٠) كحد أقصى في أية محاولة، والصدمة سيتلقاها كافة أعضاء فريق اتخاذ القرار.

قيل للمراقبين أن المشاركين ينتمون لطبقات اجتماعية مختلفة وأُشرِكوا في هذه التجربة لزيادة التنوع، لكن كُلّ مجموعة تضم أعضاء من نفس الخلفية الاجتماعية. وسبب تنفيذ الأمر بهذه الطريقة هو محاولة جعل المُسميّات السلبية تنطبق على المجموعة كلها.

وقد غيّر الباحثون خصيصتين في هذا الموقف الأساسي، كيفية تسمية «الضحايا» ومقدار مسؤولية المراقبين الشخصية عن الصدمات الكهربائية التي يقومون بتوجيهها. وُزِّع المتطوعون بشكل عشوائي على ثلاثة أنواع من التسميات (لا إنسانية، أو إنسانية، أو عادية)، ونوعان من المسؤولية (شخصيّة، أو موزّعة).

دعونا أولًا ننظر في المسميات وتأثيرها، وبعدها في أنواع المسؤولية. بعد وجود الجميع في مكان إجراء الدراسة، سمعت كل مجموعة من المشاركين (المراقبين) حوارًا عبر جهاز الاتصال الداخلي يجري بين باحث مساعد وبين المسؤول عن تنفيذ التجربة عن أوراق الاستبيان التي يُفترض أنهم ملؤوها، وقد لفت المساعد الانتباه إلى أن السمات الشخصية لهذه المجموعة أكّدت رأي الأشخاص الذين عيّنوهم. في وضع نزع الإنسانية، يوصف متخذو القرارات بأنهم مجموعة «من الحيوانات» المتعفنة. وعلى النقيض في المجموعة المؤنسَنَة يوصفون بأنهم «أذكياء، ولمّاحون، بَشَر بخلاف الآخرين». في حين لم يُقدّم أي تقييم للمجموعة الثالثة، العادية.

يجب أن نذكر أنه لم يحدث أي تفاعل أبدًا بين المشاركين وبين ضحايا الصدمات الكهربائية، ومن ثَمَّ لم يُتَح لهم التقييم بأنفسهم أو اختبار مصداقية التقييمات التي سمعوها، المُسميّات التي سمعوها وصلتهم بشكل غير مباشر عن طريق سماعهم لتقييم شخص ما للشباب الآخرين الذين يُفترض أنهم متطوعون مثلهم في التجربة. إذًا، هل كان للمسميات أي تأثير على الطلبة الجامعيين الذين كانوا يعاقبون من يراقبونهم؟ (في الحقيقة، لم يكن هناك «طلاب آخرون»، كان مجرد صوت مسجَّل).

بالتأكيد، ثبتت المسميات في أذهانهم وكان لها تأثير كبير على درجة معاقبة الطلبة لمن يشرفون عليهم. من أُلحِقت بهم أسماء تقلل من إنسانيتهم تعرضوا لصدمات أكبر، وكان مستوى الصدمات يرتفع بشكل تصاعدي خلال المحاولات العشرة، كان يتصاعد مع كل محاولة ليصل من متوسط سبعة إلى عشرة في كل من المجموعات المشاركة. من ألحق بهم مسمى «صالحون» تلقوا أقل مستوى من الصدمات، بينما من لم تلحق بهم أية أسماء؛ أي: المجموعة العادية، كانوا في الوسط بين طرفين.

كذلك أثناء المحاولة الأولى لم يكن هناك أي فارق في مستوى الصدمات بين المجموعات الثلاث، جميعهم وجهوا نفس المستوى المنخفض للصدمة. لو كنا أنهينا الدراسة هنا لكانت نتيجة البحث هي أن المسميات لم تشكل أي فارق، لكن مع كل محاولة ومع تضاعف مستوى اتخاذ القرارات الخاطئة؛ كان مستوى الصدمات بين المجموعات يتباعد. مجموعة توجيه الصدمات الكهربائية التي تعاقب أصحاب التسمية الحيوانية كانت تُزيد من مستوى الصدمات بمرور الوقت، وهي نتيجة مماثلة لما كان يحدث في الدراسات السابقة من تصاعد في مستوى شدة الصدمات والاستجابة العنيفة بمرور الوقت والممارسة أو الخبرة التي تحدث تأثيرًا داعمًا للذات. ربما لا تأتي المُتعة من السبب في الألم بقدر ما تأتي من الإحساس بالسلطة والسيطرة التي يشعر بهما الشخص في حالة السيادة وإعطاء الآخرين ما يستحقون. يشير الباحثون إلى قدرة المسميات على تجريد الآخرين من سماتهم الإنسانية.

على الجانب الإيجابي لهذه الدراسة فإن تلك المسميات الاعتباطية أدت إلى معاملة الآخرين باحترام إذا كانت مسميات إيجابية. من وُصفوا بأنهم «صالحين» تعرضوا لأذى أقل، لذلك فإن قدرة الأنسنة على تخفيف العقاب هي بنفس درجة الأهمية النظرية لنزع الإنسانية. هناك رسالة مهمة حيال إمكانية استخدام الكلمات والمسميات والخُطَب والألقاب النمَطية في الخير أو الشر. نريد أن نعيد صياغة ذلك القول القديم «قد تكسر العصي والحجارة عظامي، لكن الألقاب لن تؤذيني» ونغيّر تلك العبارة الأخيرة لتكون «لكن الأسماء السيئة يمكن أن تقتلني، والجيدة ستربحني».

أخيرًا، ماذا عن الاختلافات في المسؤولية عن الصدمة الموجهة؟ كان مستوى الصدمات يرتفع بصورة ملحوظة عندما يعتقد المشاركون أن مستوى الصدمة كان متوافقًا مع متوسط الفريق لا عندما يكون معتمدًا على القرار الشخصي للفرد. كما سبق ورأينا فإن تشتت المسؤولية عندما يحدُث في أية صورة يُقلِّل من فُرص منع الشخص لنفسه من إيذاء الآخرين. كذلك يُمكن أن نتوقع الوصول إلى أعلى مستويات الصدمات الكهربائية وتوقُّع الأذى عندما يقِلّ شعور الفرد بالمسؤولية ويكون الضحايا منزوعي الإنسانية.

عندما قام فريق باندورا بتقييم تبريرات المشاركين لأدائهم وجدوا أن نزع الإنسانية زاد من استخدام التبريرات التي تُبرِّئ الذات وهو ما كان يظهر في درجة شدة العقاب. تلك النتائج عن كيفية عدم محاسبة الناس أنفسهم على التصرف بطرق مؤذية للآخرين جعلت باندورا يُطوِّر نموذجًا مفاهيميًا هو «التعطّل الأخلاقي».

آليات التعطّل الأخلاقي

ينطلق هذا النموذج من أن أغلب الناس يتبنون معايير أخلاقية قياسية لأنهم يعيشون عمليات اجتماعية طبيعية خلال نشأتهم. هذه المعايير الأخلاقية هي بمثابة سلوكيات داعمة للمجتمع ورادعة عن السلوكيات المعادية له تحددها الأسرة والمجتمع المحلي. بمرور الزمن يَقبَل الفرد داخليًّا تلك المعايير الأخلاقية الخارجية التي فرضها الوالدان والمعلمون وسلطات أخرى لتتحول إلى قوانين تحكم السلوك الفردي. يصنع الناس سيطرة شخصية على أفكارهم وتصرفاتهم وتصبح تلك السيطرة مُرضية وتوفر شعورًا بقيمة الذات، ثم يتعلمون معاقبة أنفسهم لمنعها من التصرف وفقًا لسلوكيات غير إنسانية ومن أجل دعم السلوكيات الإنسانية وتنميتها. لا تكون الآليات المنظمة للذات ثابتة في علاقتها بالمعايير الأخلاقية للشخص بل تحكمها عملية ديناميكية، فيمكن للرقابة الذاتية أن تنشط انتقائيًّا ليأتي الشخص بسلوك مقبول؛ أو في أحيان أخرى يمكن فصل الرقابة الذاتية بعيدًا عن السلوك المكروه. يستطيع الأفراد والجماعات أن يحافظوا على إدراكهم للمعايير الأخلاقية من خلال عدم الالتزام بأخلاقياتهم المعتادة في أوقات معيّنة، ومواقف معيّنة، لأغراض معيّنة، فتكون مبادئهم الأخلاقية في وضع يشبه تثبيت ناقل الحركة في السيّارة على وضع اللاتعشيق (neutral gear) بما يجعلها تتحرك بسهولة شديدة مع إمكانية صدم المارة إلى أن تعود لاحقًا إلى الترس الكبير، أو الأساس الأخلاقي الراقي الذي كانت عليه.

يستمر نموذج باندورا في توضيح الآليات النفسية الخاصة التي يُنتِجها الأفراد من أجل تحويل تصرفاتهم المؤذية إلى تصرفات مقبولة أخلاقيًّا بعزل أنفسهم انتقائيًّا عن محاسبة الذات التي تنظم سلوكهم. ولأنها عملية إنسانية أساسية فإنها لا تساعد في تفسير العنف السياسي والعسكري والإرهابي فحسب، ولكن تفسّر أيضًا «المواقف اليومية التي تجعل الأشخاص المحترمين يقومون روتينيًّا بأعمال تدعم مصالحهم الشخصية ولكن لها نتائج مؤذية للإنسانية»[١].

(١) انظر كتابات ألبرت بندورا (Albert Bandura)، المطولة عن التعطل الأخلاقي:

A. Bandura, *Social Foundations of Thought and Action: A Social Cognitive Theory* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1986); A. Bandura, "Mechanisms of Moral Disengagement," in *Origins of Terrorism: Psychologies, Ideologies, Theologies, States of Mind*, ed. W. Reich (Cambridge, UK: Cambridge University Press, 1990) pp. 161-91; A. Bandura, "Moral Disengagement in the Perpetration of Inhumanities," *Personality and Social Psychology Review* (Special Issue on Evil and Violence) 3 (1999): 193-209; A. Bandura. "The Role of Selective Moral Disengagement in Terrorism," in *Psychosocial Aspects of Terrorism: Issues, Concepts and Directions*, ed. F. M. Mogahaddam and A. J. Marsella (Washington, DC: American Psychological Association Press, 2004), pp. 121-50; A. Bandura, C. Barbaranelli, G. V. Caprara, and C. Pastorelli, "Mechanisms of Moral Disengagement in the Exercise of Moral Agency," *Journal of Personality and Social Psychology* 71 (1996): 364-74; M. Osofsky, A. Bandura, and P. G. Zimbardo, "The Role of Moral Disengagement in the Execution Process," *Law and Human Behavior* 29 (2005): 371-93.

أي شخص سيكون قادرًا على أن يعزل ذاته أخلاقيًا عن أي سلوك مدمر أو شرير عندما ينشط في داخله واحد أو أكثر من الآليات الإدراكية الأربعة التالية:

أولًا، إعادة تعريف السلوك المؤذي بجعله سلوكًا كريمًا. بمعنى اختلاق تبرير أخلاقي لهذا التصرف وذلك بتبني ضرورات أخلاقية تسمح بالعنف، أو اختلاق مقارنات ملائمة تناقض سلوكنا الصالح بالسلوك الشرير لأعدائنا. (نحن نكتفي بتعذيبهم بينما هم يقطعون رؤوسنا). واستخدام لغة ملطّفة تحسّن من واقع أعمالنا الوحشية يتسبب في مثل هذا أيضًا. («أضرار جانبية»؛ أي: قتل المدنيين وسط الفوضى، أو «نيران صديقة»؛ يعني: إن الجندي قُتل بسبب حماقة أو نية مقصودة من زملائه).

ثانيًا، نقلل من شعورنا بالصلة المباشرة بين أفعالنا ونتائجها المؤذية بتفريق أو تبديل المسؤولية الشخصية. نبعد أنفسنا عن إدانة الذات حين لا نرى أننا العامل الأساسي في الجرائم ضد الإنسانية.

ثالثًا، نعدّل من كيفية تفكيرنا في الأذى الفعلي الذي وقع بسبب أفعالنا. يمكننا تجاهل أو تخفيف أو عدم تصديق النتائج السلبية لسلوكنا.

أخيرًا، نعيد بناء نظرتنا لضحايانا على أنهم يستحقون العقاب ونلومهم على النتائج، وبالطبع ننزع عنهم إنسانيتهم وننظر إليهم على أنهم أقل من أن يستحقوا الاهتمام الذي نوفره لرفاقنا في الإنسانية.

فَهْم «نزع الإنسانية» لا تبريرها

يجب أن نوضح مرة أخرى أن تلك التحليلات النفسية لا تهدف إلى تبرير أو تخفيف قسوة تلك السلوكيات غير الأخلاقية وغير الشرعية لمرتكبيها. نحن من خلال توضيح الآليات الذهنية التي يستخدمها الناس لفصل أنفسهم عن المعايير الأخلاقية لسلوكهم نصبح في وضع أفضل يمكننا من قلب العملية، ونعيد التأكيد على أنّ الحاجة إلى الالتزام الأخلاقي هي أمر حاسم في دعم مُشاركة الغير وجدانيًا (التعاطف الإنساني) بين البشر.

خلق أعداء الدولة معدومي الإنسانية

من بين المبادئ التشغيلية التي يجب أن نضيفها إلى ترسانة مُحفِّزات الأفعال الشريرة لدى الرجال والنساء الصالحين نجد ما تغرسه الدول القومية في مواطنيها لتحريضهم. نعرف عن بعض تلك المبادئ من خلال معرفتنا بكيفية تجهيز الدول شبابها لحروب مميتة أثناء تهيئة المواطنين لخوض غمار حروب يبدؤون فيها بالعدوان. توجد صيغة معيّنة للإعداد الذهني الإدراكي تُسهّل هذا التحوّل الصعب؛ إنه الترويج. «صور العدو» التي تختلقها

وسائل الإعلام الوطنية (بالتواطؤ مع الحكومة) لحقن أذهان الجنود والمواطنين بكراهية أولئك الذين يسري عليهم التصنيف الجديد، «عدوك». هذه التهيئة الذهنية للجنود هي أقوى الأسلحة وبدونها لن يتمكنوا من تصويب فوهة أسلحتهم إلى أحدهم لإطلاق النار عليه وقتله. إنها تحرض الخوف من الخطر الذي يتهدد المواطنين الذين يبدؤون في تخيل كيف ستكون الحياة إذا سيطر عليهم العدو، ثُمّ تحوُّل هذا الخوف إلى كراهية وقبول لتبني أعمال عدائية بغرض تقليص الخطر، قبولٌ قد يصل إلى حد الترحيب بإرسال ولدك ليموت، أو تُبتر إحدى أعضاؤه في معركة مع العدو الذي يهددك.

في رواية «وجوه العدو»[1] لسام كين نرى كيفية صناعة الصور النمطية للعدو باستخدام الترويج البصري الذي تستخدمه أغلب الدول ضد من يسمونهم «الآخرين» الخطرين، أو «الغُرباء» أو «الأعداء». الصور المرئية تخلق حالة هستيريا اجتماعية شاملة تركّز على العدو الذي يمكن أن يؤذي النساء والأطفال والبيوت وأسلوب حياة تلك الأمة، ويُمكِن أن يدمُر المعتقدات الأساسية والقيم. وقد مورس هذا النوع من الدعاية عبر العالم، وعلى الرغم من الاختلافات بين الدول في توظيف هذه الآلية إلا أننا نستطيع أن نضع كل هذه الدعاية في مجموعة واحدة يستخدمها «الإنسان العدواني». لخلق عدو شرير جديد في ذهن الأعضاء الصالحين لقبيلة ذات شرف؛ فالعدو هو المعتدي، أو المجهول، أو المغْتَصِب، أو المُلحِد، أو الهمجي، أو الجشِع، أو المجرِم، أو المعذِّب، أو القاتل، أو صورة تجريدية، أو حيوان. هنالك صور مخيفة عن الوطن نفتك به حيوانات يخاف منها الجميع من ثعابين، وفئران، وعناكب، وحشرات، وسحالي، وغوريلات عملاقة، وأخطبوط، أو حتى «خنازير إنجليزية».

نقطة أخيرة عن نتائج تبني التصور النازع لإنسانية آخرين مُختارين هي الأشياء التي لا تخطر على بال والتي قد نقبل بفعلها بهم بمجرد إعلانهم رسميًا بصفتهم أشخاصًا مختلفين وغير مرغوبين. أكثر من ٦٥,٠٠٠ أمريكي تعرضوا لسلب القدرة على الإنجاب (التعقيم) في الفترة (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠م) عندما استخدم المدافعون عن فكرة تحسين النسل تبريرات علمية لتطهير الجنس البشري بالتخلص من أصحاب السمات غير المرغوب فيها، ربما نتوقع هذا من أدولف هتلر ولكن ليس من أكثر فقهاء القانون احترامًا في أمريكا، أوليفر ويندل هولمز الذي قال بموجب رأي الأغلبية (١٩٢٧م) بأن قانونًا يقضي بالتعقيم الإجباري (بعيد كل البعد عن كونه غير دستوري) هو في الصالح العام:

---

(١) انظر:

S. Keen, Faces of the Enemy: Reflections on the Hostile Imagination (San Francisco, CA: HarperSanFrancisco, 2004 [1991]). Also well worth watching is his companion DVD (2004).

«سيكون الأفضل للعالم بأسره إن نحن عاقبنا المجرمين بقطع نسلهم بدلًا من الانتظار أو تركهم يموتون جوعًا بسبب بلاهتهم، يمكن للمجتمع أن يمنع هؤلاء الذين يظهر عليهم بوضوح أنهم غير مؤهلين لاستمرار نسلهم، فقد اكتفينا من أجيال البلهاء»[١].

فضلًا تذكر البحث الذي ذكرناه في الفصل الثاني عشر عن الطلبة من جامعة هاواي الذين رحبوا بتبني «الحل النهائي» للتخلص من غير الملائمين، حتى من أفراد أسرتهم إذا لزم الأمر.

للولايات المتحدة وإنكلترا كليهما تاريخ طويل من الدخول في «حروب ضد الأضعف». لديهم نصيب متساوٍ من أنصار تحسين النسل الصاخبين المؤثرين الذين وظفوا العلم لتبرير خطط إبادة أمم كاملة من غير الملائمين في الوقت نفسه الذي كانوا يعززون فيه من مكانة الأكثر ملائمة[٢].

شر التقاعس: العابرون السلبيون

«الشيء الوحيد الذي يحتاجه الشر لينتصر هو عدم قيام الصالحين بأي شيء»

رجل الدولة السياسي الإنجليزي إدموند بورك

«علينا أن نتعلم أن قبول نظام ظالم بسلبية هو نوع من التعاون مع هذا النظام، فهو يجعلك مشاركًا في شره»

مارتن لوثر كينج[٣]

يركز مأخذنا المعتاد على الشر على العنف والأعمال التدميرية، لكن الإخفاق في التصرف أيضًا يمكن أن يكون صورة من صور الشر عندما تستدعي الحاجة تقديم المُساعدة أو الانشقاق، أو العصيان، أو الإبلاغ. هذا الكورال الصامت الذي يسمع ولا يجيب هو

---

(١) انظر:

S. Keen, *Faces of the Enemy: Reflections on the Hostile Imagination* (San Francisco, CA: HarperSanFrancisco, 2004 [1991]). Also well worth watching is his companion DVD (2004).

(٢) مقتبس من:

Harry Bruinius, *Better for All the World: The Secret History of Forced Sterilization and America's Quest for Racial Purity* (New York: Knopf, 2006).

(٣) انظر:

F. Galton, *Hereditary Genius: An Inquiry into Its Laws and Consequences*, 2nd ed. (London: Macmillan, 1892; Watts and Co. 1950); R. A. Soloway, *Democracy and Denigration: Eugenics and the Declining Birthrate in England, 1877-1930* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1990); Race Betterment Foundation, *Proceedings of the Third Race Betterment Conference* (Battle Creek, MI: Race Betterment Foundation, 1928); E. Black, *War Against the Weak: Eugenics and America's Campaign to Create a Master Race* (New York: Four Walls Eight Windows, 2003); E. Black, *IBM and the Holocaust: The Strategic Alliance Between Nazi Germany and America's Most Powerful Corporation* (New York: Crown, 2001).

من أهم المساهمين في ارتكاب الشرّ والذي لا يُعترَف بدوره على نطاق واسع، لا المُنفِّذ فحسب. ذلك الحضور الصامت في الأماكن التي ترتكب فيها أعمال الشر يجعل من الخط الضبابي الفاصل بين الخير والشر أكثر ضبابية. وبعدها نتساءل: لماذا لا يساعد الناس؟ لماذا لا يتحركون في وقت يُحتاج فيه إلى عونهم؟ هل تلك السلبية هي عيب شخصي حيث الجمود واللامبالاة من صميم شخصيتهم؟ أم أن هناك، مرة أخرى، ديناميكيات اجتماعية غير واضحة هي ما تسبب في هذا؟

قضية كيتي جينوفيز (Kitty Genovese):
علماء النفس الاجتماعيون يتدخلون للإنقاذ متأخرين

في المراكز الحضرية الكبرى مثل مدينة نيويورك ولندن وطوكيو أو مدينة مكسيكو، يُحاط الفرد بعشرات الآلاف من البشر. نسير إلى جانبهم في الشوارع، ونجلس على مقربة منهم في المطاعم والمسارح والحافلات والقطارات، وننتظر في الصف معهم، لكن نبقى غير متصلين وكأنهم غير موجودين. بالنسبة لامرأة صغيرة من كوينز، لم يكونوا موجودين عندما احتاجتهم.

> لأكثر من نصف ساعة، شاهد ٣٨ مواطن محترم ملتزم بالقانون في منطقة كوينز بمدينة نيويورك رجلًا يطارد امرأة ويطعنها في ثلاث هجمات مختلفة في منطقة حديقة كيو. أرعبته أصوات الجيران وإضاءة أنوار غرف نومهم بشكل مفاجئ مرتين، لكنه في كل مرة يعود، يبحث عنها ويطعنها مرة أخرى. لم يتصل شخص واحد بالشرطة أثناء هذا الاعتداء، شاهِد واحد اتصل بالشرطة بعدما كانت المرأة قد ماتت بالفعل.
> (The New York Times, March 3, 1964).

ألقى تحليل جديد لتفاصيل تلك القضية بعض الشكوك حول عدد من شاهدوا تلك الوقائع تحدث أمامهم واستوعبوا ما كان يحدث حقًّا؛ لأن الكثيرين كانوا من العجائز الذين استيقظوا فجأة في وسط الليل. على الرغم من هذا لا يوجد شك في أن كثيرًا من سكان هذا الحي الجيد الهادئ في العادة سمعوا أصوات الصراخ ولم يتدخل أي منهم للمساعدة بأي شكل. ماتت كيتي وحدها على الدرجات حيث لم يعد بإمكانها التملص من قاتلها المخبول.

لكن بعد شهور قليلة من الواقعة ظهر دليل جديد عن المدى الذي يمكن أن تصل إليه سلبية المارة وانفصالهم عما يجري حولهم. تعرضت شابة في الثامنة عشرة من عمرها تعمل سكرتيرة للضرب والخنق والتعرية والاغتصاب في مكتبها، وعندما نجحت أخيرًا في الهروب من المعتدي وكانت عارية تنزف؛ ركضت أسفل درجات المبنى نحو الباب وهي

نصرخ: «ساعدوني! ساعدوني! اغتصبني!»، تابع حشد من أربعين شخص في الشارع المعتدي وهو يسحبها إلى أعلى ليواصل اعتداءه عليها. لم يتدخل أحد ليساعدها! كان مرور رجل شرطة بالصدفة هو ما منع مواصلة الاعتداء عليها واحتمالية قتلها (The New York Times, May 6, 1964).

الأبحاث النفسية عن تدخّل العابرين

أطلق علماء النفس الاجتماعيون جرس الإنذار بسلسلة من الأبحاث الرائدة عن تدخل العابرين. عارضوا الانحراف المعتاد للتحليلات التي تتبنى الرأي بأن الميول الشخصية كانت وراء التصرف الخاطئ للمارّة المتجمدين في نيويورك وذلك عن طريق السعي إلى فهم أسباب تعطُّل السلوك الداعم للمجتمع عند هؤلاء الأشخاص العاديين الذين وُجدوا أثناء حدوث هذا الموقف. وقتها كان كل من بيب لاتاني وجون دارلي[١] أستاذين جامعيين في جامعتي كولومبيا ونيويورك على الترتيب، لذلك كانا قريبين من قلب الحدث. كان مجال أبحاثهما مرتبط بالعديد من المُنشآت في مدينة نيويورك كالأنفاق ونواصي الشوارع والمختبرات.

وقد أسفر بحثهم عن نتيجة غير متوقعة، كلما ارتفع عدد شهود واقعة ما قلّ احتمال تدخلهم للمساعدة. أن يكون الشخص جزءًا من حشد متابع فإن هذا يعني: مباشرةً أن الشخص يفترض وجود آخرين متاحين للمساعدة، ولذلك يقل ضغط المبادرة الواقع عليه مقارنة بوجوده وحده في غياب أي متابعين آخرين. وجود آخرين يُضعف شعور الفرد بمسؤوليته الشخصية. لم تُظهِر اختبارات الشخصية أية علاقة واضحة بين ميول شخصية معيّنة وبين سرعة التدخل في أية أحداث طارئة[٢].

مواطنو نيويورك مثل مواطنو لندن مثل مواطنو برلين وروما وسكان المدن الكبرى الأخرى حول العالم؛ يرحبون بالمساعدة إذا طلب هذا منهم بشكل مباشر أو إذا كانوا وحدهم مع عدد قليل. كلما زاد عدد الحاضرين الذين يمكنهم التدخل للمساعدة في حالة الطوارئ زادت فُرَص توقعهم أن هناك شخص آخر سيتقدم، لذلك فليس من المطلوب منهُم التحرُّك تجاه أية مخاطرة شخصية، فلا يكون الوجوم والإخفاق في التدخل بسبب خوف الشخص على حياته من سيناريو عنيف فحسب؛ ولكن أيضًا بسبب عدم إدراك الشخص

---

(١) B. Latané and J. M. Darley, *The Unresponsive Bystander: Why Doesn't He Help?* (New York: Appleton-Century-Crofts, 1970).

(٢) J. M. Darley and B. Latané, "Bystander Intervention in Emergencies: Diffusion of Responsibilities," *Journal of Personality and Social Psychology* 8 (1968): 377-83.

لمدى جدية الموقف، وبسبب خوفه من القيام بشيء خاطئ يجعله يبدو كالأحمق أو تخوفه من تكلفة التدخل في شؤون الآخرين. هناك أيضًا مجموعة معايير أخرى ظهرت لمدى سلبية عدم الفعل.

المواقف الاجتماعية يصنعها الناس وهم قادرون على تعديلها. لسنا آليين مبرمجين على أداء مهام معينة في متطلبات ظرفية معينة؛ بل يمكننا تعديل أي برمجة باستخدام أفعالنا الخلّاقة البنّاءة. المشكلة هي أننا في كثير من الأحيان نقبل بتعريفات الآخرين للمواقف ونقبل قوانينهم بدلًا من الترحيب بالمخاطرة بتحدي تلك القوانين وفتح قنوات جديدة من الخيارات السلوكية. إحدى النتائج المهمة لذلك التوجه البحثي عن سلبية المارة واستجابتهم هو ظهور مجال بحثي جديد نسبيًا في علم النفس الاجتماعي عن تقديم المساعدة والإيثار «مُلخّص في الدراسة التي أجراها دافيد شرودر وزملاؤه»[1].

إلى اي مدى يظلّ السامريّ الطيّب طيبًا إذا كان على عجلة من أمره؟

قدم فريق من علماء النفس الاجتماعيين إثباتا عمليًا واضحًا عن أن الإخفاق في مساعدة الغرباء في محنتهم يكون على الأرجح بسبب متغيرات ظرفية لا بسبب النوازع الشخصية[2]. وهي إحدى الدراسات المفضّلة لديّ، لذلك فلنؤد معكم مرة أخرى دور المشاركين.

تخيل أنك طالب يدرس في كلية اللاهوت في جامعة برينستون، وأنك الآن على وشك تأدية عظة عن السامري الصالح لتسجيلها من أجل استخدامها فيما بعد في تجربة نفسية عن التواصل الفعال. تعرف نصًا من إنجيل لوقا، الإصحاح (١٠)، تحفظه جيدًا، إنه عن الشخص الوحيد الذي وقف ليساعد إنسانًا في محنة على قارعة الطريق من أورشليم إلى أريحا. يقول لنا الإنجيل أنه سيحصل على جزاء عمله في الجنة لكونه سامريًا صالحًا على الأرض، درس كتابي لنا جميعًا عن كيفية الاهتمام بفضيلة الإيثار.

تخيل أنك متوجه من قسم علم النفس إلى مركز التسجيل، تمر بغريب مكوّم في

---

(١) D. A. Schroeder, L. A. Penner, J. F. Dovidio, and J. A. Pilliavan, *The Psychology of Helping and Altruism: Problems and Puzzles* (New York: McGraw-Hill, 1995). Also see C. D. Batson, "Prosocial Motivation: Why Do We Help Others?" in *Advanced Social Psychology*, ed. A. Tesser (New York: McGraw-Hill, 1995), pp. 333-81; E. Straub, "Helping a Distressed Person: Social, Personality, and Stimulus Determinants," *Advances in Experimental Social Psychology*, vol. 7, ed. L. Berkowitz (New York: Academic Press, 1974), pp. 293-341.

(٢) J. M. Darley and C. D. Batson, "From Jerusalem to Jericho: A Study of Situational Variables in Helping Behavior," *Journal of Personality and Social Psychology* 27 (1973): 100-8.

الممر في حالة حزن شديد، إنه يتأوه على الأرض، بالتأكيد هو بحاجة إلى بعض المساعدة. الآن، هل من شيء يمنعك من التوقف لمساعدته ولتكون السامري الصالح؟ خاصة وأنت تردد مَثَل السامري الصالح في ذهنك في اللحظة نفسها؟

نعود إلى مختبر علم النفس، قيل لك أنك متأخر عن موعد التسجيل ولذا فعليك أن تسرع، وبالنسبة لطُلّاب اللاهوت الآخرين فقد جرى توزيعهم عشوائيًا بين حالتين، قيل لهم في الأولى أن ما زال أمامهم مُتسّع من الوقت للوصول إلى مكان تسجيل العِظة، وفي الثانية قيل لهُم أن الوقت أمامهم ضيق للغاية، لكن لماذا يُشكُل ضغط الوقت عليك (أو على الآخرين) أي فارق طالما كنت شخصًا صالحًا متدينًا، شخصًا يفكر في فضيلة التدخُل لمساعدة الغرباء في محنتهم كما فعل ذلك السامري الصالح من العصور القديمة؟ أنا مستعد للرهان على أنك ستفترض أنه لن يشكل أي فارق، وأنك في هذا الموقف ستقف لتقديم المساعدة مهما كانت الظروف المحيطة، وكذلك سيفعل طلبة الإكليريكية الآخرون الذين سيأتون لمساعدة الضحية.

حاول مرة أخرى، لو قبلت الرهان فقد خسرت. النتيجة من وجهة نظر الضحية هي: لا تكن ضحية في حالة حزن حين يكون الناس على عجلة من أمرهم. تقريبًا جميع طلبة الإكليريكية (٩٠٪) منهم تجاهلوا الفرصة المباشرة ليكونوا السامريين الصالحين لأنهم كانوا على عجلة من أمرهم لتقديم عظة لا عن شيء إلا عن كيف يكون الإنسان سامريًا صالحًا. امتُحنوا بتعارض المهام، هل سيختار العلم أم الضحية؟ فاز العلم، وتُركت الضحية تعاني. (كما يمكنك أن تتوقع الآن، كان الضحية ممثلًا حليفًا).

كلما زادت مدة الوقت الذي اعتقد طلبة الإكليريكية أنه متاح لهم، زاد احتمال تقديمهم المساعدة. لذلك فإن المُتغيِّر الظرفي الناشئ عن ضغط الوقت كان مسؤولًا عن تغيرات فيمن وقف للمساعدة ومن كان عابرًا سلبيًا. لم تكن هناك حاجة لإعادة تقديم رؤية الميول الشخصية والحديث عن كون طلبة اللاهوت مُتبلّدين أو غير مبالين كما كان عليه الأمر في حالة سكان مدينة نيويورك في قضية كيتي جينوفيز المسكينة. عندما أعيدت التجربة ظهرت نفس النتائج، لكن عندما كان طلبة الإكليريكية في طريقهم لأداء مهام أقل أهمية؛ توقف أغلبهم للمساعدة. الدرس الذي نتعلمه من هذا البحث ليس عمن وقف ومن لم يقف؛ بل ما هي الخصائص النفسية والظرفية لهذا الموقف لكي نفهم الظروف التي يخفق فيها الناس في مساعدة الآخرين الواقعين في مشكلة[1].

---

(١) C. D. Batson et al. "Failure to Help in a Hurry: Callousness or Conflict?," *Personality and Social Psychology Bulletin* 4 (1978): 97-101.

شر التقاعس داخل المؤسسات

في المواقف التي يُمارَس فيها الشر يكون لدينا مرتكبون له وضحايا وناجون، لكن كثيرًا ما يكون هناك مراقبون لما يحدث أو عارفون بما يحدث ولا يتدخلون للمساعدة أو لمواجهة الشر، وهم بتقاعسهم هذا يسمحون للشر بالاستمرار.

إنهم الصالحون من أفراد الشرطة الذين لا يتدخلون أبدًا لمنع وحشية زملائهم الذين يضربون الناس في الشوارع أو في الغرف الخلفية في أقسام الشرطة، أو الصالحون من القساوسة الذين يتسترون على خطايا زملائهم لأنهم يخافون على صورة الكنيسة الكاثوليكية، لقد عرفوا بالخطأ ولم يواجهوا الشر، وبهذا سمحوا لهؤلاء اللوطيين بالاستمرار في خطئهم لسنوات (على حساب مليارات تدفعها الكنيسة على سبيل التعويض وفقدان الكثير من الأتباع)[1].

بالمثل، كان هناك الكثير من الموظفين الصالحين الذين أشاحوا بأنظارهم بعيدًا أثناء تزوير الحسابات في شركات (Enron, World Com, Arthur Anderson)، وعدد كبير من الشركات الأخرى الفاسدة. وكما ذكرت سابقًا في تجربة سجن ستانفورد، لم يتدخل الحراس الصالحون أبدًا لينوبوا عن السجناء الذين يعانون في جعل زملائهم يخففون من حدة أسلوبهم وتغاضوا عن الاعتداءات المتصاعدة. كنت أنا، من شاهدت تلك الأفعال الشريرة واكتفيت بتحجيم العنف البدني من قبل الحراس بينما سمحت للعنف النفسي بأن يملأ جنبات السجن. تركت نفسي للأدوار المتصارعة بين الباحث وحاكم السجن، وغرقت في متطلباتهما المتعارضة والتي قللت من تركيزي على المعاناة التي تحدث تحت نظري، كنت أنا أيضًا مذنبًا بشر التقاعس.

على مستوى الدولة الأممية، عندما تكون هناك حاجة للتدخُلّ فإن هذا التقاعس يسمح بانتشار عمليات قتل وإبادة جماعية كما حدث في البوسنة ورواندا وكما حدث مؤخرًا في دارفور. الشعوب كالأفراد، في الغالب لا تريد التورط وتكتفي بإنكار جديّة الخطر والحاجة إلى تدخل سريع. هم أيضًا مستعدون لتصديق الدعاية التي يقدّمها الحُكّام عن

---

(١) "Abuse Scandal to Cost Catholic Church at Least $2 Billion, Predicts Lay Leader." (Associated Press, July 10, 2005).

انظر أيضًا: الفيلم الوثائقي (*Deliver Us from Evil*) الذي يتحدث عن الأب أوليفر أوجريدي (*Oliver O'Grady*)، المتهم بالتحرش المتسلسل بأولاد وفتيات صغار طوال مدة عقد أو عقدين في شمال كاليفورنيا، وقد كان الكاردينال روجير ماهوني (Roger Mahoney) على دراية بالشكاوى الكثيرة ضده لم يقم بعزل أوجريدي (*O'Grady*) بل كان يكرر نقل مدمن الجنس هذا إلى أبراشيات مختلفة، حيث يمكنه أن يواصل افتراس أجساد جديدة لضحاياه من الأطفال. [أخرجت الفيلم آمي بيرج (Amy Berg)، وقامت بالتوزيع شركة (Lionsgate Films)، أكتوبر ٢٠٠٦].

توسلات الضحايا. وفي الغالب يكون هناك ضغط داخلي على صناع القرار من «أصحاب الأعمال» الذين ينتظرون في الخارج.

إحدى أكثر الحالات التي تدعو للأسف والتي أعرّف بها عن شر التقاعس المؤسسي حدثت سنة ١٩٣٩م، عندما رفض حاكم الولايات المتحدة ورئيسها الخيّر فرانكلين روزفلت السماح لسفينة محملة باللاجئين اليهود بالرسو في الميناء. أتى القديس لويس من هامبورج، ألمانيا، إلى كوبا ومعه ٩٣٧ لاجئًا يهوديًا هاربين من الهولوكوست ونقضت حكومة كوبا معاهدتها السابقة بقبولهم. بقي اللاجئون لمدة اثني عشر يومًا في البحر مع قبطان السفينة وحاولوا بكل الطرق الحصول على تصريح من حكومة الولايات المتحدة لدخول ميناء ميامي التي كانت على مرمى البصر منهم، لكن لم يمنحوا حق دخوله أو دخول أي ميناء آخر، عادت السفينة عبر المحيط الأطلنطي. قُبِل بعض اللاجئين في بريطانيا وفي دول أخرى، لكن في النهاية مات العديد منهم في معسكرات الاعتقال النازية. تخيل أنك كنت قريبًا من الحرية ثم مِتّ كامل مُستَعْبَد.

«كان تقاعس القادرين على التصرّف، وعدم مبالاة العارفين عن الفساد، وصَمْت أصوات العدالة التي كانت سترفع الظُلم هي ما جعلت انتصار الشرّ مُمكِنًا عبر التاريخ»

هيل سيلاسي (*Haile Selassie*)، الإمبراطورة السابقة لإثيوبيا

لماذا تصنع الظروف والأنظمة فارقًا؟

من حقائق علم النفس أن تفاعل الشخصية مع الظروف يصنع السلوك الفردي. يتحرّك البشر داخل سياقات سلوكية مختلفة، لذلك فإن الإنسان هو مُنتَج بيئات مُختلِفة وهو نفسه يُنتج البيئات في المقابل[١]. البشر ليسوا مفعولًا بهم سلبيين تضربهم العوارض البيئية؛ بل في الغالب هم من يختار النمط الذي سيتبنونه أو الذي سيتجنبونه، ويمكنهم تغيير ذلك النمط بوجودهم أو بأفعالهم، يؤثرون في الآخرين في هذه البيئة المجتمعية ويحوّلون البيئات بعدة طرق. في أغلب الأحيان نكون فاعلين مؤثّرين في مسار الأحداث التي تقع في حياتنا وفي تشكيل مصيرنا[٢]. والسلوك الإنساني والمجتمع الإنساني كذلك يتأثران بشدة بالآليات البيولوجية وبالقيم الثقافية والممارسات[٣].

---

(١) L. Ross and R. E. Nisbett, *The Person and the Situation* (Philadelphia: Temple University Press, 1991).

(٢) A. Bandura, *Self-Efficacy: The Exercise of Control* (New York: Freeman, 1997).

(٣) R. Kueter, *The State of Human Nature* (New York: iUniverse, 2005). For a review of culture's psychological effects, see R. Brislin, *Understanding Culture's Influence on Behavior* (Orlando, FL: Harcourt Brace Jovanovich, 1993). Also see H. Markus and S. Kitayama, "Culture and the Self: Implications for Cognition, Emotion and Motivation," *Psychological Review* 98 (1991): 224-53.

يُعتبر الفرد عُملة التشغيل في مختلف البيئات المؤسسية الغربية الكبرى في الطب والتعليم والقانون والدين وعلم النفس. تساعد تلك المجالات في خلق الأسطورة القائلة بأن الفرد دومًا قادر على التحكم في سلوكه، والتصرف بإرادة حرّة وفق الاختيار العقلاني، وبالتالي فهو مسؤول شخصيًّا عن جميع أفعاله. يتوجب على الفرد المخطئ طالما لم يكن مريضًا عقليًّا أو لديه قصور في قدراته؛ إدراك أن ما يفعله خطأ وأن يعاقب بناءً على هذا. لا تعدّ العوامل الظرفية أكثر من مجموعة من الظروف الخارجية قليلة الصلة. في تقييم العوامل المختلفة التي أدّت إلى سلوكٍ ما؛ يراهن من يتبنون نظرية تفوّق الميول الشخصية بالكثير على الفرد وبالقليل على الظرف. كما تُعظِّم وجهة النظر هذه من الأفراد الذين لديهم القوة الداخلية والإرادة الصلبة التي تمكنهم من مقاومة كافة الإغراءات والمحفزات الظرفية. من يعيش منا على الجانب الآخر من المفاهيم يؤمنون بأن وجهة النظر هذه تنكر واقع ضعف البشر، الإقرار بهذا الضعف المشترك أمام المؤثرات الظرفية التي راجعناها في رحلتنا حتى الآن هو خطوة أولى في طريق دعم مقاومة تلك المؤثّرات المُهلِكة وبناء استراتيجيات فعّالة تُزيد من مرونة الأفراد والمجتمعات على حدّ السواء.

يجب أن يشجعنا الاعتقاد بقوة التأثير الظرفي على التواضع التام في محاولتنا استيعاب أفعال الشر «غير الواردة»، «وغير المعقولة»، «والخرقاء»، أعمال العنف، والتخريب، والإرهاب الانتحاري، والتعذيب، والاغتصاب. بدلًا من تبنّي أساس أخلاقي أعلى يُبعدِنا نحن معشر الصالحين عن الأشخاص الفاسدين ويُقدِّم خطًّا قصيرًا لتحليل العوامل السببية في هذا الموقف؛ يقدم المنهج الظرفي لهؤلاء «الآخرين» معروف «الإحسان النسبي». يُبَشِّر بأن أي فعل، خيرًا كان أو شرًّا، أقدم عليه أي إنسان، يمكن لك أنت أيضًا أن تقدم عليه إذا ما وُضِعْتَ تحت ضغط نفس المؤثرات.

تفرط منظومة العدالة الجنائية لدينا في اعتمادها على وجهات النظر المتمسكة بالفطرة، والتي يتبناها الرأي العام عن الأشياء التي تجعل الناس يقدمون على ارتكاب الجرائم، وغالبًا ما تكون المحددات الشخصية والمحفزة هي التي تؤخذ في عين الاعتبار فحسب، لقد حان الوقت الذي تأخذ فيه منظومة العدالة الشرعية بعين الاعتبار العدد الكبير من الأدلة التي تقدمها العلوم السلوكية القاضية بقدرة السياق المجتمعي على التأثير في السلوك والأعمال الإجرامية والأخلاقية كذلك. قدّم زميليّ لي روس ودونا شستوفسكي تحليلًا مفصلًا للتحدي الذي يضعه علم النفس المعاصر أمام النظرية القانونية والممارسة. وكان الاستنتاج النهائي هو أن المنظومة التشريعية يجب أن تتبنّى نموذج العلوم والممارسات الطبية في الاستفادة من الأبحاث الحديثة حيال ما يسير بشكل خاطئ وما يسير بشكل صحيح، في كيفية عمل العقل والجسد:

«لا يمكن أن يستمر عمل العدالة الجنائية مُضلَّلًا بأوهام اتساق السلوك مهما اختلفت

المواقف، وبالمفاهيم الخاطئة حول تفوّق الميول الشخصية على الظروف في توجيه السلوك، أو بسبب الإخفاق في التفكير بمنطق تفاعل «الشخص مع الموقف»، أو حتى بتلك المفاهيم الخيالية المريحة الخاصة بحرية الإرادة، إلا كما يضلل بأوهام السحر والمسّ الشيطاني»[(١)].

تقييم القدرة الظرفية

على مستوى الذات، يمكن أن نقول أنك لن تبدأ في تقدير قُدرة ظرف ما على تحويلك والتأثير فيك قبل أن تلجه أنت وآخرين، النظر في الموقف من الخارج لن يُحقّق لك هذا الفهم؛ فالمعرفة المُجرّدة حتى لو كانت بأدق التفاصيل لن تنقل لك الشُحنة العاطفية للمكان، ولا خصائصه غير اللفظية، ولا قوانينه الناشئة، ولا تورطك فيه وإثارة أن تكون مشاركًا فيه. تمامًا مثل الفارق بين أن تكون مشاهدًا في أحد برامج الألعاب وبين أن تنزل إلى ساحة المنافسة. ولهذا فإن للتعليم عن طريق التجربة تأثيرات شديدة القوة كما شاهدنا مع الاثبات العملي في الفصل الدراسي مع السيدة إليوت ورون جونز الذيْن ذكرناهما في الفصول السابقة. هل تتذكر خبراء علم النفس الأربعين الذين طُلِب منهم توقّع نتيجة بحث ميلغرام وكيف قلّلوا كثيرًا من تقديرهم لقوة تأثير تجربته؟ قالوا أن (١٪) قد يستمرون إلى النهاية ليصلوا إلى أعلى شدّة للصدمة الكهربائية، (٤٥٠) فولت، لكنك رأيت كيف أخطؤوا تمامًا، وأخفقوا في تقدير تأثير البيئة النفسية الاجتماعية القادر على جعل الأشخاص العاديين يفعلون أشياء لا يفعلونها في الظروف العادية.

ما مدى أهمية تأثير الظرف؟ حصرت مراجعة حديثة لمئة عام من البحث في علم النفس الاجتماعي أكثر من (٢٥,٠٠٠) دراسة شملت ٨ ملايين شخص[(٢)]. استخدم هذا الحصر الطموح أسلوب التحليل العلوي الإحصائي الذي يعد حصرًا كميًّا لنتائج مجموعة من الدراسات

---

(١) L. Ross and D. Shestowsky, "Contemporary Psychology's Challenges to Legal Theory and Practice," *Northwestern University Law Review* 97 (2003): 1081-1114; quote p. 1114.

سيكون مفيدًا أيضًا الاطلاع على النقد المطول عن تحليلات المكان والظرف في القانون والاقتصاد التي كتبها الباحثين في القانون:

Jon Hanson and David Yosifon, "The Situation: An Introduction to the Situational Character, Critical Realism, Power Economics, and Deep Capture," *University of Pennsylvania Law Review* 129 (2003): 152-346.

كذلك، بحثي مع شريكي كريج هاني الذي كتبناه عن الحاجة إلى إدراج العوامل السياقية في العدالة القانونية بشكل أكبر، انظر:

C. Haney, "Making Law Modern: Toward a Contextual Model of Justice," *Psychology, Public Policy and Law* 8 (2002): 3-36.

(٢) F. D. Richard, D. F. Bond, Jr., and J. J. Stokes-Zoota, "One Hundred Years of Social Psychology Quantitatively Described," *Review of General Psychology* 7 (2003): 331-63.

التي تكشف حجم توافق نتائج الدراسات التجريبية. في (٣٢٢) تحليلًا علويًا منفصلًا كانت النتيجة العامة هي أن مجموع تلك الدراسات في علم النفس الاجتماعي أخرجت أحجامًا أساسية للتأثير. والخلاصة هي أن قدرة الظروف الاجتماعية هي تأثير ثابت يمكن الاعتماد عليه.

أعيد تحليل مجموعة البيانات بالتركيز على الأبحاث المتعلقة بفهم متغيرات السياق المجتمعي والمبادئ التي تتدخل عندما يتورط البشر العاديون في التعذيب. وجدت الباحثة في جامعة برينستون، سوزان فيسك، ١٥٠٠ حجم تأثير منفصل تكشف عن تأثير ثابت للمتغيرات الظرفية على السلوك يمكن الاعتماد عليه. وأنهت دراستها بهذا الاستنتاج، «تبرز الأدلة التي يزودنا بها علم النفس الاجتماعي قدرة السياق المجتمعي، أو بعبارة أخرى، قدرة الظرف بين الأفراد. جمع علم النفس الاجتماعي قرنًا كاملًا من المعارف عبر الكثير من الدراسات المتنوعة عن كيفية تأثير الناس في بعضهم البعض في الخير والشر»[١].

النظر إلى الأمام نحو التفاحات، الأوعية، الناقل، والموزع

الآن حان وقت جمع معداتنا التحليلية لننتقل في رحلتنا إلى الأرض البعيدة في العراق لنحاول فهم ظاهرة غير عادية خاصة بعصرنا، وهي ظاهرة الصور المسجلة رقميًا للاعتداءات التي ارتكبت ضد المعتقلين العراقيين في سجن أبو غريب. جاء الكشف عن تلك الانتهاكات ضد الإنسانية من الرصيف A1، متجر الرعب الصغير، ليتردد في أرجاء العالم الذي شعر بالصدمة. كيف يمكن أن يحدث هذا؟ من المسؤول؟ لماذا التقطت الصور التي أظهرت ممارسي التعذيب وهم يرتكبون جرائمهم؟ شغلت تلك الأسئلة وأكثر وسائل الإعلام لشهور، ووَعَدَ رئيس الولايات المتحدة «بالوصول إلى الحقيقة». مجموعة من السياسيين والمثقفين زعموا عمدًا أنه عمل قِلّة «من التفاحات الفاسدة»، وأن المعتدين ليسوا سوى عصبة من «الجنود الفاسدين» الساديين.

خطتنا هي إعادة فحص ما حدث وكيف حدث. نحن الآن مستعدون لمواجهة تلك التحليلات المعتادة التي تعتمد على الميول الشخصية في إدانة مرتكبي الشر، «التفاحات الفاسدة» الموجودة داخل وعاء صالح؛ ببحثنا عن المؤثرات الظرفية وعن طبيعة هذا الوعاء الفاسد. سنراجع أيضًا ما انتهت إليه العديد من التحقيقات المستقلة في هذه الاعتداءات التي سوف تأخذنا إلى ما هو أبعد من العوامل الظرفية المُباشِرة لتضم النظام العسكري والسياسي إلى خلطتنا التفسيرية.

---

(١) S. T. Fiske, L. T. Harris, and A.J.C. Cudy, "Why Ordinary People Torture Enemy Prisoners," *Science (Policy Forum)* 306 (2004): 1482-83; quote, p. 1482.

انظر أيضًا تحليلات سوزان فيسك (*Susane Fiske*) في:

Social Beings (New York: Wiley, 2003).

الفصل الرابع عشر

الاعتداءات والتعذيب في أبو غريب: فهم أهواله وتشخيصها

«تجربة سجن ستانفورد الأيقونية هي بمثابة علامة تحذيرية من جميع عمليات الاعتقال العسكرية... حاول علماء النفس فهم لماذا وكيف يمكن للأفراد والمجموعات الذين يتبنون سلوكًا إنسانيًا عادةً أن يتصرفوا في بعض الأحيان بطرق مختلفة في مواقف معينة»

التقرير المستقل للجنة شليزنجر[١]

في ٢٨ أبريل ٢٠٠٤ كنت في العاصمة واشنطن من أجل تمثيل الجمعية الأمريكية لعلم النفس (APA) في اجتماع مجلس رؤساء المجتمعات العلمية. يندر أن يكون لديّ الوقت لمتابعة نشرات الأخبار في وسط الأسبوع إلا حينما أكون مسافرًا، وبينما كنت أتنقل بين المحطات التليفزيونية في غرفتي بالفندق؛ إذ بي أمام شيء جعلني أتجمّد مكاني؛ صور لا تُصدّق تظهر على شاشة قناة (CBS) في برنامج (60 Minutes)[٢]، رجال عرايا مكوّمون بشكل هرمي وجنود أمريكيون ترتسم على وجوههم ابتسامة عريضة على مقربة من تلك الكومة من السجناء. جندية تجُرّ سجينًا عاريًا في الأنحاء مقيدًا بطوق كلب حول عنقه. سجناء آخرون في حالة رعب على وشك التعرض لهجوم كلاب من سلالة الراعي الألماني شديدة الشراسة. ثم استمرت الصور كما لو كانت عرضًا إباحيًا، رجال عُراة يُجبَرُوْن على الاستمناء أمام جندية تدخن السجائر بيد، وتلوّح بالتحية العسكرية باليد الأخرى.

---

(١) التقرير النهائي للجنة المستقلة لمراجعة عمليات الاعتقال الخاصة بوزارة الدفاع. التقرير الكامل متاح على موقع تجربة سجن ستانفورد، صدر في ٨ نوفمبر، ٢٠٠٤:

Www.prisonexp.org/pdf/SchlesingerReport.pdf

(٢) تقرير متاح على:

www.cbsnews.com/stories/2004/04/27/60II/main614063.shtml

لم يكن من الممكن تصوّر الجنود الأمريكيين وهم يُهينون ويُعذّبون أسراهم بإجبارهم على ممارسات شاذة وفاحشة كهذه، لكن ها هم قد فعلوها. صورٌ أخرى يصعب تصديقها قد ظهرت ومن بينها صورة سجناء يقفون منحنين إلى الأمام في وضعيات مجهدة مع تغطية رؤوسهم بقطع قماشية خضراء أو بملابس داخلية نسائية ورديّة اللون. هل هؤلاء حقًا هم خيرة الشباب والشابات الذين بعث بهم البنتاغون عبر البحار من أجل الغاية النبيلة بجلب الديمقراطية والحرية إلى العراق التي تحررت مؤخرًا من الطاغية ـ المُعذّب صدام حسين؟

كان من المذهل بالنسبة لي رؤية المجرمين ظاهرين في كثير من الصور الفظيعة إلى جانب ضحاياهم، فارتكاب الشر شيء؛ وتسجيل جريمتك في صور ستبقى طويلًا عالقةً في ذاكرتنا شيء آخر.

ما الذي كان يدور في رؤوسهم أثناء التقاطهم تلك «الصور التذكارية»؟ ثم ظهرت أخيرًا تلك الصورة عن التعذيب النفسي والتي سرعان ما أصبحت أيقونية؛ صورة سجين مُغطّى الرأس يقف في وضع غير مستقر على صندوق وذراعاه ممدودتان وأسلاك كهربائية موصلّة بأصابعه. جعلوه يعتقد ـ بفضل العريف دافيز ـ أنه إذا سقط من على الصندوق وخذلته قدماه فسيتعرض للصعق، وقد رفعوا غطاء الرأس شيئًا ما حتى يرى الأسلاك الممتدة من الحائط إلى جسده، كانت أسلاكًا مزيفة هدفها خلق التوتر النفسي لا الألم الجسدي. لا نعرف كم من الوقت تركوه يرتعد خوفًا على حياته، لكن نستطيع أن نتخيل الشدّة التي تعرض لها بسبب هذه التجربة وأن نتعاطف مع هذا الرجل مغطى الرأس.

ظهرت على الشاشة اثنتا عشرة صورة على الأقل، كنت أرغب في إغلاق التلفاز لكن لم أستطع الإشاحة بناظري عن الشاشة، فقد أسرتني هذه الصور وخرقت كل التوقعات. قبل أن أبدأ بالتفكّر في نظريات حول ما من شأنه أن يتسبب في هذا الذي اقترفه الجنود؛ كنت متأكدًا كسائر أبناء الأمة أن هذا التعذيب هو صنيعة بعض التفاحات الفاسدة. خرج الجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة الأركان المشتركة في لقاء تلفزيوني ليعلن عن صدمته من هذه المزاعم وذهوله من صور هذا الفعل الإجرامي وذكر أنه واثق من عدم وجود أية أدلة على كون هذه الاعتداءات عملًا «نظاميًا»، لكنه أكد أنها من عمل قلة من «الجنود الفاسدين». وفقًا للمتحدث الرسمي للجيش فإن (٪ ٩٩,٩) من الجنود الأمريكيين كانوا يؤدون مهامهم بصورة مثالية خارج البلاد، بما يعني: أنه لا داعي للقلق حيال أقل من (٪١) من الجنود يرتكبون تلك الشناعات.



سجناء عرايا مكوّمون بشكل هرمي في سجن أبو غريب والجنود يلتقطون معهم الصورة مبتسمين



المجندة ليندي إنجلاند وهي تجُرُّ معتقلًا باستخدام طوق كلب حول عنقه

قال قائد اللواء مارك كيميت: «بكل صدق، أعتقد أننا جميعًا مستاؤون من أعمال أولئك القلة» وكان ذلك في لقاء مذاع في برنامج (60 Minutes). «نزداد حبًا لجنودنا كل يوم، لكنا بصراحة لا نفخر بهم في بعض الأحيان». من المريح اعتقاد أن ثمة قلة قليلة فقط من الجنود الفاسدين الذين يعملون حُرّاسًا في العديد من السجون الأمريكية متورطة في أعمال تعذيب همجي لا تخطر على بال[1].

لكن مهلًا، كيف يمكن للجنرال مايرز معرفة أنها واقعة فردية قبل إجراء تحقيق شامل في منظومته للسجون العسكرية في العراق وأفغانستان وكوبا؟ الفضيحة قد كُشِفَت للتوّ، لم يكن هناك متسع من الوقت ليجري أحدهم أي تحقيق دقيق لإصدار مثل هذا التأكيد. ثمة ما يثير الشكوك في هذا التصريح الرسمي الذي يعمد إلى تبرئة النظام وإلقاء اللوم على القِلّة الموجودة في قعر الوعاء. كان تصريحه شبيهًا بتصريحات رؤساء الشرطة حينما يثبت تورط بعض رجالهم في عمليات اعتداء على مشتبه به، فدائمًا ما يوجهون اللوم إلى القلة الفاسدة من رجال الشرطة لتشتيت الانتباه عن الممارسات المعتادة في الغرف الخلفية لأقسام الشرطة وإدارات الشرطة نفسها. هذا الاستعجال في إلحاق الحكم النزوعي بكون قلة من المعتدين «فتية سوء» هو أمر شديد الشيوع بين حماة النظام. وبنفس الطريقة يستخدمون مديرو المدارس وأساتذتها هذا الأسلوب للوم الطلبة «المشاغبين» بدلًا من أخذ الوقت الكافي في تقييم التأثيرات المنفرة للمناهج المملة أو أساليب التدريس ضعيفة الكفاءة لبعض المدرسين في الفصل والتي ربما حفّزت مثل هذه السلوكيات المشاغبة.

أدان وزير الدفاع دونالد رامسفيلد تلك الأعمال التي وصفها بأنها «بشعة» و«لا تتفق مع قيم أمّتنا». «أساءت الصور الفوتوغرافية التي رآها العامة لأفراد من الجيش الأمريكي إلى الجميع في وزارة الدفاع بلا شك وأغضبتهم»، وقال: «كل مخطئ يجب أن يعاقب، يجب أن نُقيّم الإجراءات، وأن نصحح المشكلة»، ثم أضاف تصريحًا آخر يخفف ـ بشكل غير مباشر ـ من وطأة اللوم على الجيش لضعف التدريب وعدم الإعداد المناسب لأفراد احتياط الشرطة العسكرية بما يتناسب مع مهام صعبة كهذه: «إذا كان هناك من لا يعرف أن ما يحدث في تلك الصور خاطئ ووحشي وهمجي وغير أخلاقي وضد قيم أمريكا، فأنا لا

---

(١) هناك أدلة على أن الجنرال مايرز (Myers) اتصل بشكل شخصي بدان راذر (Dan Rather) قبل أيام من الموعد المحدد لإذاعة اعتداءات سجن أبو غريب على برنامج (60 Minutes II) ليطلب من محطة CBS تأجيل إذاعة المقطع. وكان مبرره في طلب هذا التأجيل هو تجنب تعرض «قواتنا» وكذلك «جهود الحرب» للخطر. أذعنت محطة CBS وأجلت عرض المقطع لأسبوعين، وأخيرًا قررت إذاعته عندما اكتشفت أن مجلة (The New Yorker) تستعد لإعلان تفاصيل التحقيق الذي قام به الصحفي سيمور هيرش (Seymour Hersh)، وقد بدا من هذا الطلب أن النخبة العسكرية كانت على دراية «بمعضلة صورة الجيش» التي قد يسببها هذا الكشف الإعلامي.

أعرف أي تدريب يمكن أن أقدمه لشخص مثل هذا»[1]، لكن رامسفيلد كان سريعًا أيضًا في إعادة تسمية ما حدث بأعمال «الاعتداء» لا «التعذيب» حيث قال: «ما اتُّهموا به حتى الآن هو «اعتداءات» والتي أعتقد أنها تقنيًا تختلف عن التعذيب، لن أناقش كلمة تعذيب»[2]. سنأخذ وقتًا مستقطعًا جديدًا في حكايتنا: أية تقنية يتكلم عنها رامسفيلد؟[3]

مع نقل وسائل الإعلام الصور إلى جميع أنحاء العالم في أهمّ أوقات العرض على شاشات التلفاز وعلى الصفحات الأولى للجرائد والمجلات وعلى المواقع الإلكترونية طوال أيام؛ أطلق الرئيس بوش في عجالة برنامجًا غير مسبوق لاحتواء الأضرار لإنقاذ سمعة جيشه وإدارته وخاصة وزير الدفاع. وأعلن أنه سيُجري تحقيقات مستقلة في هذه الفضيحة للوصول إلى «عمق هذا الأمر». تساءلت ما إذا كان الرئيس سيأمر أيضًا بإجراء تحقيقات في هذه الفضيحة تصل إلى «القمة» بحيث نرى الصورة كاملة لا إطارها فحسب؟ الظاهر أنه سيفعل هذا لأن رئيس أركان عمليات قوات التحالف الجنرال مارك كيميت أصدر تصريحًا قال فيه: «كم أودّ أن أجلس أمامكم الآن لأقول أنها الحالات الوحيدة للاعتداء على السجناء التي عرفنا بها، لكننا على دراية بوجود حالات أخرى منذ أن وطأت أقدامنا أرض العراق». (ألا يتناقض هذا مع تصريحات الجنرال مايرز والتي أكد فيها أنها حادثة منفردة وليست منهجًا متبعًا؟)

في الحقيقة كان هناك العديد من حالات الاعتداء والتعذيب والقتل التي عُتّم عليها منذ فضيحة أبو غريب التي كشفت الغطاء عن هذا كله، فبحلول أبريل ٢٠٠٦؛ أُجري أكثر من أربعمائة تحقيق عسكري في ادعاءات مماثلة وفقًا للمقدم جون سكينر من وزارة الدفاع الأمريكية.

وعلى الرغم من كوني قد رأيت العديد من الصور البشعة عن اعتداءات مريعة أثناء إجرائي بحثًا عن التعذيب في البرازيل وكذلك أثناء إعداد بعض المحاضرات عن هذا

---

(١) Congressional Testimony: Donald Rumsfeld, Federal Document Clearing House, 2004.

(٢) مقتبس في:

Adam Hochschild, "What's in a Word? Torture," *The New York Times*, May 23, 2004.

قدمت سوزان سونتاج (Susan Sontag) معارضة أنيقة لمقالة أن هذه الأفعال كانت مجرد «اعتداءات» وليست «تعذيبًا» في مقالها:

"Regarding the Torture of Others," *The New York Times Magazine*, May 23, 2004, pp. 25 ff.

(٣) كان لوزير خارجية الفاتيكان، المطران جوفاني لايولو (Giovanni Lajolo) وجهة نظر مختلفة، «التعذيب؟ ضربة للولايات المتحدة تفوق ضربة الحادي عشر من سبتمبر لكن لم يوجهها الإرهابيون وإنما الأمريكيون ضد أنفسهم». قال محرر جريدة القدس العربي، التي تنشر باللغة العربية ومقرها لندن: «المنادون بالتحرير أسوأ من الحكام الديكتاتوريين، هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لأمريكا».

الموضوع؛ إلا أن هناك شيئًا مختلفًا لفت نظري بقوة وبدا مألوفًا لي في تلك الصور الآتية من ذلك المكان العجيب المسمى «أبو غريب». الفارق هو مستوى المرح وغياب الحياء الواضح على المجرمين، كان مجرد «لهو ولعب» وفقًا للجندية التي لم تشعر بالخزي فيما يبدو ليندي إنجلاند (Lynndie England)، والتي تتجاهل ابتسامة وجهها الكارثة من حولها. كان إحساسي بأن هذه الصور مألوفة لي يطاردني، ومع صدمة الانتباه أدركتُ أن بعض تلك الصور ذكّرني بأسوأ مشاهد تجربة سجن ستانفورد، كانت هناك حقائب تغطي الرؤوس وتعرية وألعاب امتهان جنسي وأوضاع غير لائقة تتكشف فيها أعضاء السجناء الخاصة، هذه الاعتداءات المشابهة لتلك مارسها طلبة جامعيون يؤدّون دور حُرّاس السجن مع طلبة جامعيين يؤدون دور السجناء، كما أن أسوأ الاعتداءات كانت تقع أثناء النوبة الليلية تمامًا كما حدث في دراستنا! إضافة إلى أن السجناء في الحالتين كانوا في الحبس الاحتياطي.

بدا لي الأمر وكأن أسوأ سيناريو محتمل لسجننا قد تحقق خلال شهور في ظل ظروف قاسية بدلًا من الظروف المخففة نسبيًّا لسجننا المُقلّد وجيز المدة. لقد رأيت ما يمكن أن يحدث مع أولاد صالحين حال انغماسهم في موقف يضمن لهم سلطة شبه مطلقة في التعامل مع من هم تحت مسؤوليتهم. في دراستنا لم يحصل الحراس على أي تدريب مسبق على دورهم الجديد وإنما على أدنى قدر من إشراف فريق العمل لكبح جماح اعتداءاتهم النفسية على السجناء. أعلم من خلال تصوّر ما كان من الممكن أن يحدُث حال إزالتنا كافة القيود التي تكبح الحُرّاس في سجننا أن ثمة ضغوطًا ظرفية شديدة وجدت في سجن أبو غريب وأُضيفت إليها كذلك ضغوط نظامية مسيطرة. كيف لي أن أعرف حقيقة السياق السلوكي الذي يكتنف هذا الموقف البعيد أو أن أكشف حقيقة النظام الذي صنعه وحافظ عليه؟ كان من الواضح لي أن النظام يصارع صراعًا مرًّا في سبيل إخفاء تورطه في عمليات التعذيب.

فهم اعتداءات غير مفهومة

بيَّنت لنا تجربة سجن ستانفورد أن حراسنا كانوا صالحين في البداية ثم فسد بعضهم بمرور الوقت بسبب مؤثرات ظرفية شديدة. كذلك أدركت لاحقًا مسؤوليتي وفريقي البحثي عن خلق النظام الذي جعل من هذا الموقف فعالًا ومدمرًا، لقد أخفقنا في صناعة قيود من أعلى تسلسل القيادة إلى أسفلها لمنع الاعتداء على السجناء، وحددنا مجموعة من الإجراءات التي شجعت عمليات اللاأنسنة ونزع الذاتية التي دفعت بالحراس إلى التصرف بأساليب شريرة مبتكرة. كان بمقدورنا استخدام سلطة النظام لإنهاء التجربة عندما بدأت تخرج عن السيطرة إلى أن قرعت كريستينا جرس الإنذار لتجبرني على الإقرار بمسؤوليتي عن تلك الاعتداءات.

وعلى النقيض بدأنا في محاولتنا لفهم اعتداءات أبو غريب من النهاية حيث الأفعال الشريرة المُسجّلة، من أجل ذلك سنُحلّل ما حدث بشكل عكسي مقارنة بالترتيب الذي اتبعناه في تحليل ما حدث في تجربتنا، سنبدأ أولًا بالتعرُّف على ما كان عليه الحُرّاس كبشرٍ عاديين قبل تعيينهم في حراسة السجون العراقية. هل يمكن أن نجد أية اعتلالات أتى بها الحُراس إلى السجن لنحسن التمييز بين ميولهم الشخصية وبين ما أضافه إليهم هذا الموقف المحدد؟ بعدها سنرى ما إن كان بإمكاننا الكشف عن طبيعة السياق السلوكي الذي أُقحموا فيه، وعن ماهية الواقع الاجتماعي الذي احتواهم في تلك البيئة المحددة وذلك الوقت المحدد.

علينا أخيرًا أن نكتشف بعض الأشياء عن هيكلية السلطة المسؤولة عن تصميم أوضاع العمل والعيش، وعن الحفاظ على استمرار هذه الأوضاع لمن يعيشون داخل السجن من سُجناء عراقيين وحراس أمريكيين. ما التبرير الذي يمكن أن يقدمه النظام لاستخدامه ذلك السجن بالتحديد لاستضافة «المعتقلين» لأجل غير مسمى بدون أي مسوّغ قانوني واستجوابهم باستخدام «تكتيكات تعسفية»؟ عند أي مستوى قرر النظام تعطيل العمل بمعاهدة جنيف وبالقواعد العسكرية الخاصة بالتعامل مع السجناء، تحديدًا منع أية أفعال همجية أو غير إنسانية أو مهينة داخل السجون؟ تلك القواعد التنظيمية توفّر أهم معايير السلوك المطلوب في معاملة السجناء في أية منظومة ديمقراطية وقت الحرب والسلم. لا تتبع الأمم تلك الإجراءات لحسن نواياها وطيبتها ولكن للتأكد من أن جنودهم سيتلقون معاملة مماثلة إذا ما قبض عليهم كأسرى حرب.

أما وأنني لم أُدرّب للعمل بصفتي محققًا استقصائيًا، ولا أملك ما يلزم للسفر إلى أبو غريب وعقد لقاءات مع المشاركين الأساسيين في تلك الاعتداءات؛ فلم يكن لديّ كبير اعتقاد بأنني سأتمكن من الوصول إلى قمة أو قاع هذه الظاهرة النفسية المثيرة للاهتمام، خسارة ألا أتمكن من الإفادة بفهمي لذلك العنف غير المنطقي بادي الرأي بناء على معرفتي الفريدة من الداخل والتي تأتّت من عملي بصفتي رئيس سجن ستانفورد. ما تعلمته من نموذج تجربة سجن ستانفورد حول التحقيق في الاعتداءات التي تحدث داخل المؤسسات هو الحاجة إلى تقييم عدد من العوامل (النزوعية، الظرفية، والنظامية) التي تقود إلى النتيجة السلوكية التي نحاول فهمها.

وقت تفتُّح زهر التفاح في العاصمة

بعثت الصدفة بالحظ السعيد في طريقي على حين غرة، فقد أدرك طالب سابق في ستانفورد يعمل في محطة الإذاعة الوطنية العامة في واشنطن أوجه التشابه بين الصور في أبو غريب والصور التي عرضتها في محاضرات دورتي عن تجربة سجن ستانفورد،

وتعقّبني في الفندق لإجراء لقاء لمحطة (NPR) الإذاعية بعد فترة قصيرة من ظهور القصة. كانت النقطة الأساسية في لقائي هي تحدي حُجّة «التفاحات الفاسدة» التي استخدمتها الإدارة وقدمتُ بدلًا منها مجاز «الوعاء الفاسد» بناء على التشابه بين الوضع في أبو غريب ونظيره في تجربة سجن ستانفورد. نُسِجَت على منوال لقائي الأول هذا العديدُ من اللقاءات الأخرى مع محطات إذاعية وتلفزيونية وجرائد في تقديم تصريحات مسجلة عن فكرة تفاحات مفروزة وأوعية خبيثة. كانت تعليقاتي مرغوبة في وسائل الإعلام لأنها يمكن أن تعضّد بلقطات فيديو واضحة وصور من سجننا التجريبي بما يجعل البث ممتعًا.

هذا الترويج المحلي ذكّر جاري مايرز المستشار القانوني لأحد أفراد الشرطة العسكرية أن بحثي كان مرتبطًا بالمُحدِّدات الخارجية لسلوك موكله المتعسف المُدّعى. دعاني مايرز لأكون شاهدًا خبيرًا للرقيب إيفان فريدريك تشيب رجل الشرطة العسكرية المسؤول عن النوبة الليلية على الرصيف A1 وB1 فوافقت، ومن أسباب موافقتي أن هذا سيتيح لي معلومات أحتاجها لأصل إلى فهم كامل لدور العناصر الثلاثية في التحليلات الوصفية لهذا السلوك الشاذ: الشخص، والموقف، والنظام الذي وضع هذا الشخص في هذا المكان ليرتكب هذه الجرائم.

بهذه الخلفية من المعلومات أملت في الحصول على تقدير أفضل للتحوّلات التي حفّزَت هذا السلوك غير السوي. وافقت على تقديم المساعدة اللازمة لموكل مايرز لكنني أوضحت أن تعاطفي كان مع جو داربي الذي كان شجاعًا بما يكفي ليكشف هذه الاعتداءات أكثر من كل من تورط في ارتكابها[١]. بناء على هذا انضممت إلى فريق دفاع الرقيب فريدريك وشرعت في رحلة إلى قلب هذا الظلام.

فلنبدأ تحليلنا بفهم أكبر لطبيعة المكان جغرافيًّا وتاريخيًّا وسياسيًّا، وبنيته ووظيفته في الفترة الأخيرة، ثم ننتقل بعدها لفحص الجنود والسجناء في سياقهم السلوكي.

---

(١) أردت حملة جمع تبرعات للبطل جو داربي في جميع أنحاء الدولة لتمنح له بمجرد خروجه من برنامج حماية الشهود. قالت مراسلة صحفية من جريدة (*USA Today*) أن جريدتها يمكن أن تنشر عن هذا «البطل المختبئ» وتأتي على ذكر الدعم المالي إذا تمكنت من تحديد مصدر يمكن للناس أن ترسل بالتبرعات إليه. حاولت طوال شهور بلا طائل مع عدد من المؤسسات لتكون هي القناة المعلنة لهذا الدعم المالي، منها (Amnesty International) والبنك المحلي حيث يسكن داربي، والبنك الذي أتعامل معه في بالو ألتو، وجمعية لضحايا التعذيب، وقدموا جميعهم أسبابًا واهية للرفض، ولكن تمكنت من إقناع رئيس الجمعية الأمريكية لعلم النفس (APA) السيدة ديان هالبرين (Diane Hal) بأن تقدم دعوة رئاسية لداربي، لكن قوبل الأمر بمعارضة شديدة من مجلس الإدارة، كان الأمر سياسيًا بحتًا بالنسبة للكثيرين.

المكان، سجن أبو غريب

تقع مدينة أبو غريب العراقية - حيث يوجد السجن - على بعد عشرين ميلًا (٣٢ كيلو متر) غرب العاصمة العراقية بغداد داخل المثلث السُنّي، مركز التمرُّد العنيف ضد الاحتلال الأمريكي. كان السجن في الماضي يسمى في وسائل الإعلام الغربية «مركز صدّام للتعذيب» لأنه المكان الذي استخدمه صدام لتعذيب المنشقين وإعدامهم علنًا مرتين أسبوعيًا أثناء فترة الحكم البعثي. ثمة مزاعم بأن بعض هؤلاء السجناء السياسيين والمجرمين استُخدموا في تجارب مشابهة للتجارب النازية كجزء من برنامج العراق للأسلحة الكيميائية والبيولوجية.

في فترة ما ضمّ هذا السجن الممتدّ الذي يمكن ترجمة اسمه لـ«والد الغريب»[1] قرابة الخمسين ألف شخص. وقد لازمته سمعته السيئة منذ وقت بعيد لأنه كان يأوي السجناء المضطربين بشدة في عصر ما قبل عقار الثورازين (theorazine) المضاد للذهان، بناه مقاولون بريطانيون سنة ١٩٦٠م ويغطي مساحة ٢٨٠ هكتار (١,١٥ كيلو متر مربع) وبه أربعة وعشرون برج حراسة تحيط به، كان بمثابة مدينة صغيرة ممتدة مُقسَّمة إلى خمسة مجمعات سكنية ذات أسوار، ويأوي كلٌّ منها نوعًا معينًا من السجناء. في قلب مدخلها يوجد برج بارتفاع ٤٠٠ قدم. بخلاف معظم السجون الأمريكية المبنية في مناطق نائية، كانت تشرف على أبو غريب منازل ضخمة ومكاتب (ربما بنيت بعد ١٩٦٠م). أما من الداخل فكانت كل زنزانة تعج بما يصل لأربعين شخصًا محتجزين في مساحة ١٢ قدم مربعة (٤ متر مربعة) يعيشون في ظروف مريعة.

قدّم العقيد بيرنارد فلين قائد سجن أبو غريب وصفًا لمدى قرب السجن من مهاجميه:

> «هو هدف سهل الكشف لأننا في حي سكني سيئ، العراق بأسره حي سيئ... هناك برج مبني على مقربة من حي سكني مجاور بحيث نستطيع النظر داخل غرف النوم، تدري، داخل الغرف مباشرة. هناك قناصة على الأسطح يطلقون النار على الجنود الذين يقومون بالحراسة من الأبراج، لذلك كنا في وضع حراسة مستمر محاولين الدفاع عن هذا المكان ومنع المتمردين من الدخول»[2].

بعدما أسقطت قوات الولايات المتحدة حكومة صدام في مارس ٢٠٠٣ تغير اسم

---

(١) قيل: سميت مدينة أبو غريب بهذا الاسم لوجود أشجار الغرب بالقرب منها. انظر: بشير يوسف فرنسيس، موسوعة المدن والمواقع في العراق. (المحرر).

(٢) اقتباس من:

"A Question of Torture." *PBS News Frontline*, October 18, 2005.

السجن للفصل بينه وبين ماضيه البغيض ليصبح وحدة بغداد المركزية للاعتقال (Baghdad Central Confinement Facility-BCCF)، وقد ذكر اسمه في العديد من التقارير الاستقصائية. مع سقوط نظام صدّام أُطلِق سراح جميع السجناء بما في ذلك العديد من المجرمين، وقد نهبوا السجن، كل ما يمكن نقله تعرض للسرقة، أبواب ونوافذ، حجارة، سمٍّ ما شئت وسأقول لك أن أحدهم سَرَقه. فُتِحت حديقة حيوانات أبو غريب وأطلق سراح جميع الحيوانات المفترسة البرية التي كانت بداخلها ولم يذكر هذا في وسائل الإعلام. جابت الأسود والنمور المفترسة شوارع المدينة لبعض الوقت إلى أن صيدت أو قتلت. وصف الرئيس السابق لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA)، بوب بابر (Bob Baber)، المشهد الذي رآه في هذا السجن البشع: «قمت بزيارة أبو غريب بعد يومين من تحريره، لقد كان أبشع مكان رأيته في حياتي، قلت لنفسي إن كان هناك من سبب للتخلص من صدام حسين، فإنه سيكون أبو غريب»، استمر في سرد اكتئابه مما رأى: «كانت هناك أجساد أكلتها الكلاب، وتعذيب. تدري، أسلاك كهربائية أيضًا تخرج من الحوائط. كان مكانًا بشعًا»[1].

أوصى ضباط بارزون من المملكة المتحدة بتدمير السجن أيضًا، لكن قررت السلطات الأمريكية إعادة بنائه بأقصى سرعة بحيث يصبح متاحًا للاستخدام في اعتقال من يتهم بارتكاب «جرائم ضد التحالف» والمشتبه بهم في قيادة التمرد، وأصحاب الجرائم الاعتيادية، وكان المسؤولون عن هذه الجموع المتنافرة من المعتقلين حراسًا عراقيين مثيرين للريبة. كان بين هؤلاء العديد من العراقيين المدنيين الذين لم يذنبوا، واعتقلوا أثناء عمليات تفتيش عشوائية من قبل قوات الجيش أو في نقاط تفتيش على الطرق السريعة «لنشاط مشبوه» وفيهم أسر بأكملها رجالًا ونساءً ومراهقين ليخضعوا للاستجواب للحصول على معلومات حول التمرد المتوقع ضد التحالف، وبمجرد إلقاء القبض عليهم لا يُخلى سبيلهم وإن ثبتت براءتهم؛ لأن الجيش كان يخشى انضمامهم للتمرد أو لعدم وجود من يريد تحمُّل مسؤولية اتخاذ قرار مثل هذا.

البرج هدف لقذائف المدافع

سرعان ما أصبح البرج الذي يصل طوله إلى ٤٠٠ قدم في مركز السجن هدفًا لأغلب هجمات المدفعية التي تطلق من أسطح المباني القريبة. في أغسطس ٢٠٠٣، قتل هجوم مدفعية أحد عشر جنديًا كانوا ينامون في خيام في الساحة في «موقع ضعيف التأمين». في

(١) CBS, *60 Minutes II*, April 28, 2004.

هجوم آخر مزقت قنبلةٌ خيمةً مليئة بالجنود من بينهم العقيد توماس باباس (Thomas Pappas)، رئيس لواء الشرطة العسكرية المتمركز في السجن، وعلى الرغم من أن باباس لم يتعرض لأذى إلا أن الجندي الشاب المسؤول عن قيادة سيارته تعرض لإصابة بالغة قتلته وجنودًا آخرين. تأثر باباس بشدة بذلك الرعب المفاجئ؛ حتى إنه لم يخلع سترته الواقية مرة أخرى. قيل لي أنه كان يرتدي السترة والخوذة الواقية بشكل مستمر حتى وهو يستحمّ، وقد وُصف لاحقًا بأنه «غير مناسب للمعارك» وعزل من الخدمة. لم تسمح له حالته العقلية المتدهورة بالإشراف على جنوده العاملين في السجن. كان باباس بعد هجوم المدفعية المرعب هذا يُبقي أغلب الجنود بين الجدران مما يعني: أنهم كانوا في الغالب ينامون في زنازين السجن الصغيرة، مثلهم مثل السجناء.

خلقت قصص موت الزملاء وعمليات القنص المستمرة والقنابل اليدوية وهجمات المدافع شعورًا بالخوف بين جميع العاملين داخل السجن الذي كان يتعرض لهجمات معادية قرابة العشرين مرة أسبوعيًا، وكان الجنود الأمريكيون والسجناء العراقيون والمعتقلون يتعرّضون للقتل بنيران معادية. مع مرور الوقت دمّرت الهجمات أجزاء من مجمع السجن وخلّفت وراءها مبانٍ محترقة وحطامًا في كل مكان.

كانت قذائف المدفعية متواترة حتى أنها صارت جزءًا من ذلك المناخ السريالي لجنون أبو غريب. يتذكر جو داربي النقاشات التي كانت تدور بين زملائه وهم يحاولون تخمين حجم ومواقع المدافع بعد سماع دوي الإطلاق؛ وما إذا كانت ٦٠ أو ٨٠ مم أو ربما كانت كبيرة بما يكفي لتصل إلى ١٢٠ مم، لكن ذلك الثبات النفسي في وجه الموت لم يستمر للأبد. قال داربي: «بدأ الجميع فجأة وبدون سابق إنذار يخافون من القذائف للمرة الأولى وذلك قبل أيام قلائل من مغادرة وحدتي لأبو غريب، كان أمرًا غريبًا، كنت أرى زملائي يتجمعون عند الحائط معًا، وكنت أجد نفسي أزحف إلى زاوية وأصلي، كان ثباتنا آخذًا بالانقشاع. هذا هو أحد الأشياء التي عليك أن تبقيها في ذهنك وأنت تنظر في الصور. كنا جميعًا مُخدَّرين بطريقة أو بأخرى».

وفقًا لمصدر معلومات عالي الرتبة عمل هناك لسنوات عديدة فقد بقي السجن مكانًا شديد الخطورة لتعمل أو تسكن فيه. في ٢٠٠٦ قررت قيادة الجيش التخلي عنه أخيرًا، لكن كان الأوان قد فات على إزالة آثار الدمار الذي أحدثه القرار السابق بإعادة تشغيله[1].

لم يكن هنالك في سجن أبو غريب الذي دمرته الحرب نظام تصريف صحي، وكأن

---

(١) أغلق سجن أبو غريب رسميًا في ١٥ أغسطس ٢٠٠٦ ونقل جميع السجناء المتبقين إلى سجن كوبر بالقرب من مطار بغداد.

الجنود ينقصهم ما يزيد من ألمهم ومعاناتهم، كانت مجرد ثقوب في الأرض ومراحيض نقّالة، وحتى هذه الأخيرة لم تكن بالعدد الكافي لجميع الجنود والسجناء لأنها لم تكن تُفرَّغ بانتظام، كانت تمتلئ، وفي درجات الحرارة شديدة الارتفاع في الصيف كانت الرائحة النتنة تزعج الجميع طوال الوقت. لم يكن هناك نظام استحمام ملائم لأنهم كانوا يرشّدون المياه، ولم يكن لديهم صابون كافٍ، وكانت الكهرباء تنقطع باستمرار لعدم وجود مولدات ذات كفاءة. كانت رائحة السجناء نتنة وكذلك المنشأة التي تأويهم. تحت أمطار الصيف الغزيرة ودرجات الحرارة المرتفعة التي تزيد على ١١٠ فهرنهايت (٤٥ درجة مئوية) كان السجن يتحول إلى فرن أو حمّام بخار. أثناء العواصف الرملية كانت ذرات الغبار تدخل في رئة الجميع محدثة احتقانًا أو عدوى فيروسية.

القائد الجديد يصل إلى الموقع، لكنه غائب عن الموقع

في يونيو، ٢٠٠٣ تولت ضابطة جديدة مسؤولية السجن العراقي الكارثي. كانت اللواء في قوات الاحتياط الجنرال جانيس كابرينسكي (Janis Kaprinski) التي تولت قيادة اللواء ٨٠٠ التابع للشرطة العسكرية والذي عمل في سجن أبو غريب، وكانت مسؤولة عن كافة السجون العسكرية الأخرى في العراق. كان التنصيب غريبًا لسببين: كانت كابرينسكي هي الأنثى الوحيدة في منصب قيادي في منطقة الحرب، ولم تكن لديها أية خبرة على الإطلاق تؤهلها لإدارة أي سجن، والآن يُفترض بها إدارة ثلاثة سجون كبيرة تضم سبعة عشر مركز اعتقال في أرجاء العراق وثماني كتائب من الجنود ومئات الحراس العراقيين وثلاثة آلاف وأربعمائة جندي احتياط جدد، وكذلك مركز الاستجواب الخاص بالرصيف A1. كانت مسؤولية جسيمة لتوضع على عاتق ضابط من جيش الاحتياط لا يمتلك الخبرة الكافية.

سرعان ما تخلت كابرينسكي عن موقعها في أبو غريب ـ وفقًا للعديد من المصادر - بسبب خطورته وظروفه المعيشية البشعة وانسحبت إلى حيث الأمن والأمان في معسكر فيكتوري (Victory) بالقرب من مطار بغداد. وبسبب غياب كابرينسكي عن المشهد معظم الوقت وكثرة سفرها إلى الكويت؛ لم تكن هناك رقابة يومية من أعلى الهرم المؤسسي لأسفله في المنشأة. زعمت كذلك أن قياداتها العليا أخبرتها أن الرصيف A1 هو «موقع خاص» وأنه ليس خاضعًا لرقابتها المباشرة لذلك لم تقم بزيارته أبدًا.

مجرد تعيين امرأة في موقع مسؤولية بصورة شكلية كان سببًا في تحفيز سلوكيات تميز على أساس الجنس بين الجنود قادت إلى انهيار الانضباط والنظام العسكري. «كان جنود الجنرال كابرينسكي في أبو غريب لا يولون أوامرها أي اعتبار في بعض الأحيان ولا يلتزمون بقانون الزي الموحد ولا بتحية الرتب الأعلى، وهو ما لعب دورًا في اختلال

المعايير الذي ساد في السجن» كما قال أحد جنود اللواء. الجندي الذي تحدّث أيضًا عن حالة الحجب ذكر أن القيادات الميدانية اعتادت تجاهُل أوامر الجنرال كابرنسكي، وقالوا أنهم ليسوا مضطرين للاستماع لها لأنها امرأة[١].

من المثير إذًا في تلك الظروف الفظيعة في أبو غريب أن تقول الجنرال كابرينسكي في لقاء مع (St. Petersburg Times) في ديسمبر ٢٠٠٣ أن كل شيء يسير بكفاءة عالية. قالت أن بالنسبة للعديد من السجناء العراقيين المسجونين في أبو غريب فإن «ظروفهم المعيشية الآن أفضل من تلك المتوفرة في منازلهم»، لكن في تلك اللحظة التي كانت تُجري فيها الجنرال كابرينسكي لقاء لطيفًا قبل الكريسماس كان الجنرال أنتونيو تاجوبا (Antonio Taguba) يجري تحقيقًا في بلاغات عن حوادث «اعتداءات سادية، سافرة، وغاشمة» ارتكبها جنود قوات الاحتياط في الفرقة ٣٧٢ التابعة للشرطة العسكرية، في النوبة الليلية في الرصيف A1.

لاحقًا تم إيقاف الجنرال كابرينسكي من الخدمة وتوبيخها ثم عُزلت من القيادة، كما تم تخفيض رتبتها إلى عقيد وتقاعدت من الخدمة. كانت الضابط الأول والوحيد الذي يُدان في تحقيقات الاعتداء على السجناء لخطاياها في التغافل والجهل، لم تدن بسبب ما فعلته ولكن بسبب ما لم تفعله.

في سيرتها الذاتية «جيش امرأة واحدة» روت القصة من وجهة نظرها[٢]. ذكرت زيارة فريق عسكري من جوانتانامو برئاسة الجنرال جوفري ميللر (Geoffrey Miller) الذي قال لها: «سنُغيّر طبيعة الاستجوابات في أبو غريب»؛ يعني: هذا «نزع قفازات الأولاد» والتوقف عن المعاملة الناعمة مع المشتبه بهم والبدء في استخدام تكتيكات تأتي لنا «بمعلومات يمكن التصرف على أساسها» نحتاجها في حربنا ضد الإرهابيين والمتمردين. أصر ميللر على أن الاسم الرسمي للسجن يجب ألا يكون منشأة بغداد المركزية للسجن (BCCF) بعد الآن، وأن اسمه الأصلي الذي ما زال يثير الخوف في نفوس أبناء الشعب العراقي يجب أن يعود؛ سجن أبو غريب.

قالت أيضًا أن الفريق ريكاردو سانشيز (Ricardo Sanchez) قائد قوات الولايات المتحدة في العراق شدّد على تأكيد الجنرال ميللر بأن السجناء والمعتقلين ليسوا سوى «كلاب» تجب معاملتهم بقسوة أكبر. من وجهة نظر كابرينسكي فإن قياداتها المباشرة ممثّلة في الجنرالين ميللر

---

(١) مذكور في:
"Iraq Prison Abuse Stains Entire Brigade," *The Washington Times* (www. washingtontimes.com), May 10, 2004.

(٢) Janis Karpinski with Steven Strasser, *One Woman's Army: The Commanding General at Abu Ghraib Tells Her Story* (New York: Miramax Press, 2005).

وسانشيز قد أعدّت أجندة جديدة للممارسات اللاإنسانية والتعذيب في أبو غريب[(١)].

الشخص، أحب أن أقدم لكم تشيب فريدريك

التقيته أول مرة في ٣٠ سبتمبر ٢٠٠٤ عندما رتَّب مستشاره القانوني للقاء بيني وبين زوجته مارثا (Martha) في سان فرنسيسكو. أثناء لقائنا الذي استمر لأربع ساعات قامت مارثا بزيارة بعض معالم المدينة حيث تناولنا الغذاء في منزلي في راشن هيل، ومنذ ذلك الحين وأنا أتبادل الرسائل بشكل كبير مع تشيب فريدريك وكنت أتبادل المحادثات الهاتفية ورسائل البريد الإلكتروني مع زوجته مارثا وأخته الكبرى ميمي فريدريك.

بعد فحص كافة سجلاته والتقارير المتوفرة عنه رتّبت لعقد لقاء مع الطبيب النفسي السريري في الجيش الدكتور ألفين جونز لإجراء تقييم نفسي شامل لفريدريك في سبتمبر ٢٠٠٤[(٢)]، راجعت تلك البيانات وكذلك التقييم المُعمّى المستقل[(٣)] على مقياس مينيسوتا متعدد الأطوار لتقييم الشخصية (Minnesota Multiphasic Personality Inventory-MMPI) الذي أجراه خبير تقييم. وأجريت كذلك تقييمًا لمدى الاستنزاف النفسي أثناء لقاءاتنا وقام خبير في ضغط العمل بتقييم نتائجه. فلنبدأ ببعض المعلومات العامة إضافة إلى بعض البيانات الشخصية من العائلة وبعض تقييمات فريدريك الأخيرة لنفسه، ثم نراجع التقييمات النفسية الرسمية.

كان تشيب رجلًا في السابعة والثلاثين من عمره في هذا الوقت، ابن عامل تنقيب عن الفحم في السابعة والسبعين من عمره وأمه ربة منزل في الثالثة والسبعين من عمرها من غرب فيرجينيا. نشأ في قرية لاك بارك بولاية ماريلاند. يصف أمه بأنها قوية الدعم وشديدة الاهتمام بأسرتها وأنه كان يمضي أوقاتًا ممتعة مع أبيه. أخته الكبرى ميمي ممرضة في الثامنة والأربعين من عمرها. تزوج من مارثا في فيرجينيا في يونيو ١٩٩٩م، التقيا عندما

---

(١) لقاء محطة راديو BBC4 مع الجنرال كاربينسكي في ١٥ يونيو، ٢٠٠٤. وقد عادت وذكرت هذه الاتهامات في مؤتمر قدمتُه وقد عقد في جامعة ستانفورد في ٤ مايو، ٢٠٠٦.

(٢) كان التقييم النفسي عبارة عن لقاء مع متخصص علم النفس العسكري ألفين جونز (*Alvin Jones*)، في أغسطس ٣١ وسبتمبر ٢، ٢٠٠٤، تلته مجموعة من الاختبارات النفسية شملت مقياس مينيسوتا متعدد الأطوار - *MMPI*، النسخة الثانية (MMPI-2)، مقياس عيادة ميلتون متعدد المحاور - ١١١ [*Milton Clinic Multiaxial Inventory-III*]، المقياس الموجز للذكاء (WASI). أرسل إليّ تقرير جلسات الاستشارة النفسية الرسمي وبيانات الاختبارات في سبتمبر ٢١، وكذلك إلى دكتور لاري بتلر (*Lary Beutler*) رئيس برنامج الدكتوراه في كلية باسيفيك لعلم النفس للدراسات العليا بالو ألتو [*Pacific Graduate Psychology School*]، وقد قدم قراءة مستقلة لنتائج الاختبارات بدون أية دراية بحالة أو اسم من خضع للاختبار. وقد أجرى تشيب قياس ماسلاش للاحتراق النفسي - *MBI* في منزلي أثناء لقاء معه، وأرسل ليقرأه الخبير الدكتور مايكل ليتر (*Michael Lieter*)، وحصلت على تقييمه الرسمي في أكتوبر ٣، ٢٠٠٤ دون ذكر أية معلومات عن خلفية من خضع للاختبار.

(٣) أي: بدون تحديد الشخص الخاضع للتقييم. (المراجعة).

كانت متدربة في مؤسسة إصلاحية كان يعمل فيها، وأصبح زوج أم لابنتيها.

يصف تشيب نفسه كما يلي: «شديد الهدوء وخجول نوعًا ما، متواضع ورقيق القلب، شديد السلاسة وشخص صالح في المجمل»[1]، لكن من المهم أن نضيف بعض التوصيفات الأخرى لنفسه، يخشى تشيب من أن يرفضه الآخرون ولذلك إن حصل أي خلاف في الرأي فإنه في الغالب يخضع للرأي المُخالف حتى يقبله المخالفون معه، ويُغيّر من طريقة تفكيره حتى يُشعِر الآخرين بالارتياح ولكيلا يجعلهم «يغضبون مني أو يكرهونني». لا يحب أن يكون وحده، يحب أن يكون بين الناس ويصاب بالإحباط إن قضى بعض الوقت وحده.

بعض أبحاثي التجريبية عن الخجل تدعم وجود صلة بين التوافق والخجل، فقد وجدنا أن الطلبة الجامعيين الذين يتسمون بالخجل تزداد احتمالية إذعانهم واتفاقهم مع الآخرين الذين يخالفونهم في آرائهم الشخصية عندما يعتقدون أنهم سيضطرون للدفاع علنًا عن وجهة نظرهم، ولا يفعلون ذلك عندما لا يخشون المواجهة العلنية[2].



فريدريك تشيب في ثكنة عسكرية بالعراق

---

(١) تقرير الاستشارة الفنية، ٣١ أغسطس، ٢٠٠٤.

(٢) لتلخيص عام لهذا البحث الخاص بالخجل انظر كتابي:
P. G. Zimbardo, *Shyness: What It Is, What to Do About It* (Reading, MA: Perseus Books, 1977).

سِجلّ فريدريك الإصلاحي وسِجل الخدمة العسكرية

عمل تشيب فريدريك قبل نقله إلى العراق ضابطًا إصلاحيًا في سجن بكينجهام الصغير متوسط التأمين بديلوين، فيرجينيا لمدة خمس سنوات بدءًا من ديسمبر ١٩٩٦م. كان مسؤولًا عن طابق فيه ما يتراوح بين ٦٠ و١٢٠ من السجناء. التقى بزوجته مارثا التي كانت مدربته في فترة التدريب المؤسسي. كانت النقطة الوحيدة السلبية في سجله هي لفت نظره لارتدائه الزي الخطأ، لكن تُوازن الكفة إشارةٌ إلى منعه نزيلًا من الانتحار. عمل فريدريك في صناعة النظارات الطبية (Lomb & Bausch) قبل أن يعمل في المؤسسات الإصلاحية.

تمكنتُ من مراجعة العديد من تقارير تقييم أدائه التي أجرتها إدارة فيرجينيا الإصلاحية، تعكس ملحوظات جميع الضباط الذين قيّموه مدى كفاءة تطوره خلال فترة الاختبار التي قضاها ليصبح ضابطًا إصلاحيًا، لقد فاق التوقعات في أغلب تقييمات الأداء.

«بَرَع الضابط الإصلاحي فريدريك في تأدية كافة المهام التي أسندت إليه في فترة الاختبار، وحقق جميع معايير الأداء المطلوبة». «أظهر الضابط فريدريك روح المبادرة وقام بعمل جيد». (أبريل ١٩٩٧م)

«يشغل الضابط فريدريك الموقع بكفاءة ويحافظ عليه بأسلوب آمن ونظيف. يعمل بكفاءة مع زملائه ومع السجناء. هو على دراية كاملة بما هو مطلوب منه وبالسياسات والإجراءات الثابتة. لا يمانع في مساعدة الآخرين في إتمام المهام المسندة إليهم». (أكتوبر ٢٠٠٠)

في المجمل كانت تقيماته تزداد إيجابية إلى درجة أن أداءه «فاق التوقعات»، لكن من المفيد ذكر هذه الملحوظة التي وردت في أحد التقارير الأخيرة: «لا توجد عوامل مؤثرة في الأداء بخلاف قدرته على التحكم»، من المهم أن نبقي هذا بالتحديد في أذهاننا لأنني سأجادل عن أن «هناك ضغوط ظرفية تتجاوز قدرته على التحكُم» قد أثرت سلبًا على أدائه في أبو غريب.

من الواضح أن فريدريك صار ضابطًا إصلاحيًا جديرًا بالثقة وشديد الفاعلية عندما كانت كافة الإجراءات والسياسات المطلوب اتباعها واضحة ومتاحة له في صيغة مكتوبة. واضح تمامًا أنه تعلم كيف يؤدي عمله وأنه كان يستفيد من رقابة ومراجعة رؤسائه. هو شخص يهتم بمظهره كذلك ويحرص على الحفاظ على سلوك مهني. كانت الأوضاع البشعة التي ذكرناها في سجن أبو غريب تتحدى تلك المزايا الأساسية في هوية فريدريك، وكان الأمر يزداد سوءًا في النوبة الليلية في الرصيف A1.

انضم تشيب إلى القوات المسلحة سنة ١٩٨٤م من أجل الحصول على المال والخبرة اللازمة للعمل وليكون مع بعض الأصدقاء، كما أن فِعْل هذا الأمر في ذلك الوقت كان يُعد عملًا وطنيًا. خدم لأكثر من إحدى عشرة سنة في قوات الحرس الوطني في وحدة الهندسة وأضاف إلى هذه الخدمة عشرة سنوات في الشرطة العسكرية لقوات الاحتياط. كانت أولى رحلاته إلى الكويت في مايو ٢٠٠٣ بعد تنشيطه رسميًا في المهمّات، ثم إلى مدينة صغيرة اسمها الحلة في جنوب بغداد حيث خدم مع ستة من أقرب أصدقائه في الفرقة ٣٧٣ التابعة للشرطة العسكرية، كان رقيب عمليات مسؤولًا عن إرسال الدوريات للخارج[١].

«كانت المهمة عظيمة، أحبّنا سكان المنطقة ولم تكن هناك حوادث كبيرة أو إصابات. كان مكانًا آمنًا حتى غادرناه [تسلمت المكان قوات التحالف البولندية]. حرصت على تعلُّم الثقافة، تعلمت قليلًا من اللغة العربية وحرصت على التفاعل مع الناس. كنت أرسل علب الحلويات إلى أطفالي [في هذه القرية] وكان أطفالي يرحبون بي دائمًا».

كذلك قال فريدريك أنه ظلّ فخورًا بتمكنه من جعل أولئك الأطفال يبتسمون لمجرد استماعه لهم وقضائه بعض الوقت في اللعب معهم[٢].

إحدى الدلائل على مثالية خدمة تشيب فريدريك هي مراجعة سجل الجوائز التي حصل عليها على مر السنين وشملت وسام الاستحقاق العسكري (ثلاث مرات)، ميدالية أفراد الاحتياط (أربع مرات)، الدفاع الوطني (مرتان)، ميدالية احتياط القوات المسلحة مع نيشان (M)، شريط التطور المهني لضباط الصف (مرتان)، ميدالية الحرب العالمية على الإرهاب، شريط التدريب في دول خارجية (مرتان)، وميدالية الحملة العسكرية الخارجية للحرب على الإرهاب. كان أيضًا على وشك الحصول على النجمة البرونزية لتعامله بفعالية مع حادثة إطلاق نار من قبل معتقل سوري في أبو غريب، لكنه لم يحصل عليها بعد ظهور صور الاعتداءات. هناك أمر آخر شديد الأهمية في رأيي خاصة بالنسبة لشخص ادُّعي عليه بعد ذلك أنه «جندي فاسد».

---

(١) كانت الفرقة ٣٧٢ شرطة عسكرية فرقة احتياط في جريبستاون، ماريلاند. كان أغلب أعضائها من القرى منخفضة الدخل في أبلاكيا (Appalachia) حيث تظهر إعلانات الوظائف العسكرية بشكل كبير في وسائل الإعلام المحلية هناك، وينضم الناس للجيش وهم في عمر المراهقة غالبًا من أجل الحصول على المال والسفر حول العالم، أو لأنهم يريدون مغادرة القرية التي كبروا فيها فحسب. كان أفراد هذه الفرقة مجموعة قوية الترابط. انظر:

Time magazine, *Special Report*, May 17, 2004.

(٢) لقائي مع تشيب، ٣٠ سبتمبر، ٢٠٠٤.

التقييم النفسي[1]

أحرز تشيب في اختبار الذكاء معدلًا عاديًا في قياسات الذكاء اللفظي وذكاء الأداء وفقًا للاختبارات القياسية.

ثمة مقاييس ثلاثة للشخصية وللوظائف العاطفية تحتوي على درجات تُقيِّم كيفية نظر الشخص إلى نفسه خلال مراحل الاختبار المختلفة هي مقياس الكذِب، ومدى الدفاع عن النفس، والإجابات الكاذبة. لم يبد تشيب ميلًا لإبراز نفسه في حالة إيجابية تمامًا أو سلبية تمامًا من ناحية وظائفه النفسية، لكن يهمنا ذِكر النتيجة النهائية: «تشير درجات المصداقية إلى أن المريض يُقيّم ذاته بكونه من أصحاب الفضائل الأخلاقية»، هذه النتيجة تصل بنا إلى أن المنحى النزوعي في الإلقاء باللوم على «التفاحة الفاسدة» من قبل المدافعين عن موقف الجيش والإدارة لا أساس له في الواقع.

«تُظهِر النتائج أن من أهم الأشياء التي تحفّز المريض في حياته هي العلاقات الطيبة مع الناس والداعمة. نتوقع أنه شخص خدوم وسهل الانقياد ومُتصالح ويبحث عن العلاقات الاجتماعية التي يستطيع من خلالها أن يجد الدعم العاطفي والحب والرعاية والأمان عند الآخرين. هو شخص ذو مزاج هادئ في الأغلب ويحاول تجنب الخلافات. يميل بشكل عام إلى التردد في التعبير عن مشاعره السلبية لخوفه أن يبتعد الناس عنه. سيبدي حاجة مفرطة للأمان والارتباط والحظوة بالرعاية، ولن يشعر بالراحة غالبًا في الأوقات التي يكون فيها بمفرده، وهذا يستبطن ميولًا للخضوع لرغبات الآخرين حتى يحتفظ بشعور الأمان»[2].

يتفق التقييم المستقل لشخصية فريدريك من قبل خبير الطب النفسي السريري الدكتور لاري بوتلر بشكل أساسي مع استنتاجات الطبيب النفسي العسكري. يقول أولًا: «يمكن أن نعتبر نتائج التقييم صالحة للاعتماد عليها وتوفر مؤشرات صحيحة عن أداء فريدريك»[3]. استمر الدكتور بوتلر ليقول بوضوح: «يجب أن نلحظ عدم الدليل على أي مرض ظاهر... فهو لا يبدي أية شخصية خطرة أو مرض نفسي من المحور ١ للأمراض النفسية».

معنى هذا أن تشيب لم يُظهِر أية أدلة على وجود شخصية سيكوباثية يمكن أن تخلق لديه

---

(١) موجز لتقرير دكتور ألفين جونز عن المقابلة ومجموعة من الاختبارات النفسية مع فريدريك (٣١ أغسطس، ٢ سبتمبر، ٢٠٠٤).

(٢) موجز دكتور جونز (Jones) لكافة نتائج الاختبارات.

(٣) تلك الاقتباسات وغيرها من «قراءة اختبارات العميل» في ٢٢ سبتمبر، ٢٠٠٤، من قبل دكتور لاري بتلر (Larry Beutler) في تقرير مكتوب لي.

ميولًا عدوانية نحو الآخرين في مكان عمله بلا ذنب، وهو أيضًا صاحب «معدل طبيعي صحي» فيما يخص الفصام والاكتئاب والهوس وكل الصور الأخرى من الأمراض النفسية الشائعة.

مع ذلك يشير الدكتور بوتلر إلى أن ثمة متلازمة من السمات النفسية المستبطنة التي من شأنها أن تثير القلق من أسلوب تشيب في القيادة إذا ما وجد في ظروف معقدة ومتطلبة كتلك التي واجهها في سجن أبو غريب:

> «تظهر الأبحاث في علم النفس الإدراكي أن القدرة على أداء مهام عمل مختلفة يمكن أن تتأثر سلبًا بالظروف المحيطة مثل التوتّر المزمن وأداء أكثر من مهمة في الوقت نفسه مما يضع حملًا زائدًا على مصادر الإدراك لدى الفرد. تنخفض قدرات الذاكرة وحل المشكلات والحُكم على الأمور واتخاذ القرارات إذا تمددت قدرات المُخ بسبب تأدية مهام أكثر من اللازم[1]. بناءً على هذا سأقول أن قدرات تشيب الإدراكية المعتادة تعرضت لحمل غير معتاد فرضتها عليه الضغوط الظرفية التي كان عليه مواجهتها ليلًا في عمله الجديد المجهد».

كيف كانت طبيعة العمل على الرصيف A1 أثناء النوبة الليلية من وجهة نظر تشيب؟ أدعوك أيها القارئ إلى تبني نفس العقلية التي استخدمتَها سابقًا في رحلتنا عندما تخيّلت نفسك أحد المشاركين أو المستخدَمين في العديد من التجارب النفسية. فلنضع أنفسنا مكان فريدريك تشيب لمدة أشهر قليلة من أكتوبر إلى ديسمبر ٢٠٠٣.

تفاحة فاسدة أم قطعة حجر كريم؟

قبل أن نترك تحليلاتنا النزوعية لننتقل إلى تحليل المؤثرات الظرفية التي أثرت في سلوكه؛ يجب أن نتذكر دومًا أن هذا الشاب لم يأت بأية اعتلالات إلى الموقف. لم أجد في ملفه الشخصي شيئًا ينبئ عن أن تشيب فريدريك يمكن أن يتورط في أي سلوك عدواني أو سادي؛ بل بالعكس؛ هناك الكثير مما في سجله يفترض أنه إن لم يُجبَر على العيش أو العمل في ظروف غير طبيعية فسيكون الجندي القدوة الذي يضع الجيش الأمريكي صورته على الإعلانات التي تدعو الناس إلى الالتحاق بالجيش. ربما كان الجيش سيستغل الرقيب إيفان فريدريك عميق الوطنية والمستعد لخدمة وطنه حتى آخر قطرة من دمائه، ربما كان سيصبح أفضل تفاحات وعائهم الصالح.

---

(١) توجد كتابات كثيرة عن التخمة الإدراكية والتخمة في الموارد الإدراكية. بعض المراجع:
D. Kirsh, "A Few Thoughts on Cognitive Overload," *Intellectica* 30 (2000): 19-51; R. Hester and H. Garavan, "Working Memory and Executive Function: The Influence of Content and Load on the Control of Attention," *Memory & Cognition* 33 (2005): 221-33; F. Pass, A. Renkl, and J. Swelle, "Cognitive Load Theory: Instructional Implications of the Interaction Between Information Structures and Cognitive Architecture," *Instructional Science* 32 (2004): 1-8.

ربما كان تشيب أحد المشاركين في تجربتنا في سجن ستانفورد الذين نعرف أنهم أولاد صالحون طبيعيون وأصحاء قبل نزولهم إلى قبو السجن، يمكننا مقارنة تشيب بهم عندما بدؤوا وهم أوراق بيضاء ولوحات نقية سرعان ما تحوّلت إلى لوحات مليئة بالخدوش الظاهرة بسبب البيئة المَرَضيّة للسجن. ما هي الظروف والمواقف التي نجحت في إخراج أسوأ ما في الجندي الذي كان سيصبح صالحًا في ظروف مغايرة؟ كيف انطبعت عليه هذه المواقف بطريقة لا يمكن إزالتها مشوهةً أداءه الذهني والسلوكي المعتاد؟ ما طبيعة «الوعاء» الذي وُضِعَت فيه تلك التفاحة التي كانت صالحة في السابق؟

الموقف، كوابيس وألعاب ليلية في الرصيف A1

اختير الرقيب فريدريك تشيب بسبب خبرته السابقة في المؤسسات الإصلاحية للعمل مع مجموعة صغيرة من قوات احتياط الشرطة العسكرية في النوبة الليلية في الرصيف A1 في أبو غريب. عمل خارج البلاد أربع مرات في «مواقع صلبة» داخل مبان إسمنتية لا في مخيمات محاطة بأسلاك شائكة. كانت إحدى تلك المهام في معسكر فيجيلانت (Camp Vigilant) «الذي سمي بعد ذلك باسم معسكر ريديمشن (Camp Redemption)»، الذي كان منقسمًا إلى أربعة مجمعات منفصلة. كانت لديهم منشأة خاصة لاستجواب المعتقلين على الرصيف A1، وكانت تلك الاستجوابات في الغالب تجرى عن طريق محققين مدنيين يتم التعاقد معهم ينضم لهم مترجمون تعينهم شركة تيتان (Titan Corporation) وتخضع لإشراف من المخابرات العسكرية والمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) وأفرع استخباراتية أخرى.

في البداية كان الرقيب فريدريك مسؤولًا عن حوالي أربعمائة سجين، كان هذا في بداية أكتوبر ٢٠٠٣ عندما حلت فرقته ٣٧٢ المتمركزة في كريبس تاون بماريلاند محل الفرقة ٧٢ التابعة للشرطة العسكرية من الحرس الوطني. كان قادرًا في البداية على إدارة المهمة المعقدة المُسندة إليه حتى وإن فاق هذا إدارة مائة سجين في سجن متوسط التأمين مما اعتاد عليه في الوطن، لكن بعدما أعلن الرئيس بوش إنجاز المهمة بفترة قصيرة لم يكن هناك أي دعم من المواطنين العراقيين؛ بل وعلى العكس من ذلك فُتحت أبواب الجحيم. خرج التمرد والإرهاب ضد قوات التحالف الأمريكية عن السيطرة، لم يتوقع أحد مدى ذلك من ناحية الانتشار والتنظيم والخطورة.

اختلطت الرغبة في الانتقام لموت العديد من الجنود بالخوف وعدم اليقين حول كيفية تحجيم هذه الفوضى. صدرت أوامر باعتقال كافة المشتبه بهم المحتملين في المدن أو في أية مواقع أخرى ظهر فيها التمرد، ومعنى هذا اعتقالات واسعة لأُسَر كاملة وخاصة الذكور البالغين. لم تكن منظومة الاعتقال قادرة على تحمُّل هذا العِبء، ولم تنجح مهمة السيطرة

على المعتقلين وإجراء الاستجوابات، وأصبحت الموارد الأساسية غير كافية في ظل ضغط الأعداد الكبيرة من السجناء التي تضاعفت في نوفمبر ثم وصلت إلى ثلاثة أضعاف في ديسمبر ليصبح العدد حوالي ألف سجين.

طُلب من تشيب أن يكون مسؤولًا عنهم جميعًا وأن يكون مسؤولًا كذلك عن اثني عشر فردًا تقريبًا من الشرطة العسكرية، ومشرفًا على حوالي سبعين فردًا من الشرطة العراقية ليقوموا جميعًا بحراسة أكثر من ألف عراقي مسجونين لتهم جنائية مختلفة. عملت الشرطة العراقية على الأرصفة ٢ و٣ و٤ المعروفة بتهريب الأسلحة وأشياء أخرى للسجناء بمقابل مالي، وعلى الرغم من أن متوسط أعمار السجناء كان في العشرين، لكن كان هناك أيضًا خمسون مراهقًا وأطفال كذلك في عمر العاشرة وكبار في الستين كلهم مجموعون في زنازين ضخمة. كانت السجينات والعاهرات وزوجات القيادات والرجال أصحاب النفوذ في حزب صدام ينزلن في الرصيف IB (برافو). كل من الرصيفين (ألفا) و(برافو) استوعبا ٥٠ سجينًا في وقت واحد. باختصار، فإن تولي أمر منشأة مركبة بدون موارد كافية وبأعداد سجناء مهولة ألقى بعبءٍ ثقيل جدًا على شخص لم تتجاوز خبرته السابقة التعامل مع عدد قليل من السجناء في سجون مدنية متوسطة التأمين في مدينة صغيرة في فيرجينيا.

التدريب والمساءلة

زيمباردو: «من فضلك حدثني عن تدريبك بصفتك حارسًا، قائد فريق حراسة في هذا السجن»[1].

فريدريك: «لا يوجد. لا تدريب لأداء هذا العمل، عندما نُقلنا لفورت لي (Fort Lee) حصلنا على محاضرة توعية ثقافية ربما استمرت لمدة خمس وأربعين دقيقة، ولم تناقش أية أمور سياسية أو دينية، كل ما هنالك أن لا تنادوهم بـ«العرب»، لا تنادوهم بـ«راكبي الجمال»، لا تنادوهم بـ«الرؤوس المغطاة بالمناشف»، لا تسموهم «الرؤوس المغطاة بخرقة»».

زيمباردو: «كيف تصف الإشراف عليك وإحساسك بالمسؤولية أمام قياداتك العليا؟».

فريدريك: «لا يوجد».

كانت نوبة فريدريك تبدأ في الرابعة مساءً وتستمر لاثنتي عشرة ساعة حتى الرابعة صباحًا، وسبق أن رفع تقريرًا بأن عددًا قليلًا للغاية من قادته كان يوجد في الرصيف ألفا

---

(١) جميع أسئلة المقابلة والأجوبة هي من اللقاء الذي عقد في منزلي في ٣٠ سبتمبر، ٢٠٠٤ وسجل صوتيًا وقام بالتفريغ النصي مساعدي مات إسترادا (Matt Estruda).

ليلًا أو كان يظهر مجرد ظهور ولو لفترة قصيرة في بداية النوبة، لم يكن يتلقى أي إشراف من الرقيب سنايدر لأن قائده المباشر لم يحصل على أي تدريب مهني في المؤسسات الإصلاحية على الإطلاق، لكن تشيب كان يقدم اقتراحات على فترات مختلفة وتوصيات بتغييرات مطلوبة لكل من سنايدر (Snider) وبرينسون (Brinson) وريس (Reese).

زيمباردو: «كنت تقدم توصيات؟».

فريدريك: «نعم، بخصوص تشغيل المنشأة طلبت عدم تقييد السجناء أثناء اقتيادهم إلى داخل الزنازين، وعدم تعرية السجناء إلا من يشوهون أنفسهم، وعدم الاحتفاظ بالسجناء من أصحاب الأمراض العقلية... من أولى الأشياء التي طلبتها بمجرد وصولي إلى هناك هو إجراءات التنظيم والتشغيل... كنت أستضيف أحداثًا ورجالًا ونساءً وسجناء يعانون من أمراض عقلية جميعًا في نفس المكان، إنه انتهاك واضح للقانون العسكري».

زيمباردو: «إذًا حاولت تصعيد الأمر إلى القيادات؟».

فريدريك: «كنت أتحدث مع أي شخص يأتي وأعتقد أن له بعض النفوذ... في الغالب كانوا يقولون لي «اجتهد في تقديم مقترحاتك فحسب، حافظ على عملك الجيد»، أرادت المخابرات العسكرية للأمور أن تسير بهذه الطريقة».

قال تشيب أن القيادات كانت في مرات أخرى تسخر منه أو تقدم له لفت نظر بسبب شكواه. كانوا يقولون له أن عليه القيام بأفضل ما يستطيع بالنظر إلى ظروف الحرب، لم تكن هناك أية إجراءات واضحة مكتوبة مطلقًا أو أية سياسات رسمية أو أي دليل إرشادي منظم. لم يكن تشيب فريدريك يتلقى الدعم الإجرائي الضروري من أجل اتباع التعليمات ومن أجل أن يكون القائد الذي أمّل أن يكونه يومًا في أهم مهمة في حياته، كان بمفرده في غياب كامل لأية منظومة دعم يمكن أن يعتمد عليها. كان هذا تحديدًا هو أسوأ مناخ عمل بالنسبة له، كانت كل هذه الأشياء هي بمثابة المكوّنات اللازمة لضمان الفشل بناء على احتياجات تشيب فريدريك الأساسية وقيمه الشخصية التي راجعناها لتونا في تقييمانه، وكانت هذه مجرد البداية.

عمل ليلي لا ينتهي

لم ينته الأمر عند عمل الجندي مدة نصف اليوم؛ بل كان يعمل طيلة أيام الأسبوع بدون يوم راحة لمدة أربعين يومًا! ثم يحصل بعدها على يوم راحة واحد ثم يعمل لأسبوعين قبل أن يتمكن من الحصول على يوم راحة جديد بعد أربعة ليال من العمل المتواصل. لا أتصور أية وظيفة بجدول عمل كهذا يُمكِن أن ينطبق عليها أي وصف إلا إنها غير آدمية. لم يكن هناك أي اعتراف من القيادة بضغط العمل الواقع على تشيب فريدريك أو باحتمالية تعرضه للإجهاد النفسي بسبب العجز في عدد الأفراد المدربين على

العمل داخل المنشآت الإصلاحية وإخفاق القيادات في تقدير مدى صعوبة ضغط العمل اليومي. كان عليه فعل ما يطلب منه والتوقف عن التذمر.

أين كان يذهب في الساعة الرابعة صباحًا عقب انتهاء نوبة عمله الطويلة؟ كان يذهب للنوم في جزء آخر من السجن، في زنزانة! كان ينام في زنزانة مساحتها ستة أقدام في ستة، لم يكن بها مرحاض والقوارض تجري من حوله، كانت قذرة لعدم وجود أدوات تنظيف ولا مياه كافية لتنظيف المكان، قال لي فريدريك في أحد لقاءاتي معه: «لم أجد أية أدوات للحفاظ على نظافة المنشآت، كان الصرف سيئًا، وكُنّا نجمع الفضلات في أوعية تبرُّز نقّالة، كانت القمامة في كل مكان... كان مكانًا قذرًا؛ بل كنا نجد أعضاءً بشرية داخل المُنشأة... كانت هناك مجموعة من الكلاب الضالة تحوم حول المكان [ما زالت موجودة من تلك الأيام التي كان صدام يعدم فيها السجناء ثم تدفن جثثهم في جزء من السجن لتنبش الكلاب قبورهم وتنهش أجسادهم]. كُنت في غاية الاستنزاف الذهني عند الاستيقاظ كل صباح، كان النوم هو كل ما أريد».

كان يفوت وجبة الإفطار أو وجبة الغداء وفي أغلب الأوقات يحصل على وجبة واحدة في اليوم كانت عبارة عن كميّات بسيطة من طعام مسبق التحضير لا مذاق له (MRES)، كانت معلبات الطعام العسكري المُجهزة للأكل منها مباشرة، قال تشيب: «كانت الكميات صغيرة للغاية بسبب كثرة عدد الجنود، كنت آكل الكثير من الجبن والمكسرات». مشاكل صحية أخرى تعرض لها هذا الرجل الرياضي ذو الشخصية الاجتماعية بسبب توقفه عن التدريب وعدم تمكنه من قضاء بعض الوقت مع أصدقائه بسبب تضارب مواعيد العمل. رويدًا رويدًا تحولت حياته بشكل كامل إلى التمحور حول رقابته على السجن وعلى أفراد احتياط الشرطة العسكرية الذين يعملون تحت قيادته، سرعان ما أصبحوا وفقًا لتعبير علماء النفس الاجتماعيين «الجماعة المرجعية»، وهي مجموعة جديدة من المعارف يُصبح لها تأثير كبير على الفرد.

لقد سحقه «موقف شامل» من ذلك النوع الذي وصفه عالم النفس روبيرت جاي ليفتون سابقًا بأنه كان يُسَهِّل السيطرة على عقول الأفراد في الطوائف وفي معسكرات أسرى الحرب في كوريا الشمالية.

آخرون كثر في المشهد الذي دام طوال الليل

جنديّا الاحتياط اللذان كانت خدمتهما تقع كثيرًا في النوبة الليلية هما العريف تشارلز جرانر (Charles Graner) وجندية الاختصاص ميجان أمبول (Megan Ambuhl). كان جرانر يتولى المسؤولية المباشرة عن الرصيف A1 أثناء النوبة الليلية؛ لأن تشيب كان يضطر للتنقل

للإشراف على بقية الأرصفة. في فترات الراحة كانت جندية الاختصاص سابرينا هارمان (Sabrina Harman) تأخذ مكانهما، وفي بعض الأحيان كان الرقيب جافال دافيز (Javal Davis). كانت جندية الاختصاص من الدرجة الأولى ليندي إنجلاند مُكلفة بمهمة كاتبة ملفات، لكنها كانت كثيرة التردد على المكان لزيارة حبيبها جرانر، وقد احتفلت بعيد ميلادها الحادي والعشرين على الرصيف، وكان جندي الاختصاص أرمين كروز (Armin Cruz) هو الآخر كثير التردد على الرصيف.

كان هناك أيضًا «مدربو الكلاب» وهم جنود يأتون إلى الرصيف ليستخدموا كلابهم في تخويف السجناء لإجبارهم على الاعتراف أو لإجبارهم على الخروج من الزنازين إذا كانت هناك شكوك في وجود أسلحة أو لمجرد استعراض القوة. أُرسلت خمس فرق مماثلة إلى أبو غريب في نوفمبر ٢٠٠٣ بناء على خبراتهم السابقة في سجن خليج جوانتانامو. أُدين اثنان من مدربي الكلاب هؤلاء بالاعتداء على السجناء، وهما الرقيب مايكل سميث (Michael Smith) والرقيب سانتوس كاردونا (Santos Cardona). كان يمر بالرصيف على فترات أيضًا أطباء وممرضات حال وجود مشاكل طبية وعدد من المتعاقدين المدنيين كذلك من شركة تيتان (Titan Corporation) المسؤولين عن التحقيق مع المُشتبه في امتلاكهم معلومات تخص التمرد أو في صلتهم بأنشطة إرهابية، وكثيرًا ما كانوا يطلبون مترجمين للتحدث مع السجناء. أفراد من مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) والمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) والمخابرات العسكرية كانوا دائمي الحضور أيضًا لإجراء استجوابات خاصة.

وكما يمكن أن تتوقع كانت زيارات الرتب العسكرية العالية نادرة خاصة في وسط الليل، لم تقم القائدة كابرينسكي بزيارة الأرصفة A/B طوال شهور خدمة تشيب إلا مرة واحدة من أجل جولة تلفزيونية. أحد أفراد الاحتياط في الوحدة قال بأنه رآها مرتين فقط في خمسة أشهر، وعدد قليل من الضباط قالوا بأنهم رأوها مرات قليلة في فترات بعد الظهيرة. كان تشيب يستغل فرصًا نادرة ليبلغ عن مشكلات في المنشأة ويقترح إجراء تغييرات كان يأمل أن تتم؛ لم يحدث شيء من هذا. كُثُر بلا زي رسمي ولا هوية يأتون ويذهبون إلى تلك الأرصفة، لم يكن مسموحًا لأحد أن يسأل عن أوراق اعتمادهم، كانوا يعملون بهويّات مجهولة تمامًا. كان المحققون المدنيون يوجهون أوامر لأفراد الشرطة العسكرية تخص ما يريدون منهم تجهيزه من أجل الاستجواب بما يخالف قواعد السلوك العسكري، فلا ينبغي للمدنيين توجيه أوامر لعسكريين، وكان الارتباك يزداد مع زيادة استخدام المتعاقدين المدنيين من أجل إتمام بعض المهام التي كانت تؤديها المخابرات الحربية في السابق.

كشفت مكاتبات تشيب ورسائل البريد الإلكتروني إلى الوطن أن أحد أهم وظائفه وبقية أفراد الشرطة العسكرية على الرصيف A1 كانت مساعدة المُحققين في أداء عملهم بفاعلية أكبر. «كانت المخابرات العسكرية تشجعنا وتقول لنا: «عمل عظيم»»، «في الغالب لم يكونوا يسمحوا للآخرين بمشاهدة الاستجواب لكنهم استثنوني لإعجابهم بطريقة إدارتي للسجن»، كان يشعر بالفخر عندما يرفع تقارير تفيد بأن رجاله يؤدون ما يطلب منهم على أكمل وجه بتليين المعتقلين قبل الاستجواب بحيث يقدمون للمحققين المعلومات التي يريدون. «كنا نساعد في جعلهم يعترفون من خلال أسلوب تعاملنا معهم... كُنّا نحقق معدّلًا مرتفعًا للغاية بأسلوبنا في دفعهم للانهيار، وفي الغالب كانوا ينهارون في غضون ساعات».

كانت رسائل تشيب إلى الوطن تلفت النظر إلى أن فرق استخبارات عسكرية بمن فيها من ضباط من المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) ولُغَويين ومترجمين من شركات دفاع خاصة متعاقدة هيمنت على كل ما يحدث في تلك المنشأة في أبو غريب. أخبرني أنهم لم يتمكنوا من تحديد هوية أي من هؤلاء المحققين الذين كانوا يخفون أسماءهم عن عمد، كانوا نادرًا ما يقدمون أسماءهم الموجودة على بطاقات التعريف وأغلبهم لم يكن يرتدي زيًّا عسكريًّا. تتفق رواية تشيب مع الروايات المتداولة في وسائل الإعلام عن أن الفريق سانشيز أصرّ على أن أفضل طريقة للحصول على معلومات من السجناء تكفي للتدخل هي وضعهم تحت ظروف شديدة القسوة باستخدام وسائل استجواب عنيفة في سرية تامة.

بعض قواعد عمل الأفراد في السجن سهلت على المتورطين إنكار المسؤولية عن أفعالهم وهو عامل ربما فتح الباب لحصول الاعتداءات، فوفقًا لمذكرة مُحدّثة بعنوان: «دليل تشغيلي (Operational Guidelines)» موجهة لمجمع الزنازين عالي التأمين الرصيف A1، فإن الاختصار «(MI) [مخابرات عسكرية (Military Intelligence)]؛ لن يستخدم في تلك المنطقة».

«كذلك أوصت المذكرة جميع أفراد الجيش في منطقة العزل بالتقليل من التعريف بهويتهم الحقيقية لهؤلاء المعتقلين المُزمع استجوابهم. استخدام أزياء رسمية معقمة [أُزيلت من عليها أية إشارة لهويتهم] هو أمر مطلوب بشدة وليس للأفراد أن ينادوا بعضهم بأسمائهم الحقيقية ورتبهم في منطقة العزل»[1].

(1) R. J. Smith and J. White, "General Granted Latitude at Prison: Abu Ghraib Used Aggressive Tactics," *The Washington Post*, June 12, 2004, p. A01

متاح على:

Www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A35612-2004Jun11.html

R. J. Smith and J. White, "General Granted Latitude at Prison: Abu Ghraib Used Aggressive Tactics," *The Washington Post*, June 12, 2004, p. A01, available at www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A35612-2004Jun11.html

كشفت تحقيقات الجيش نفسه صحة وصف فريدريك للاستراتيجيات شديدة العنف المستخدمة في السجن، فقد وجدوا أن المحققين حرضوا أفراد احتياط الشرطة العسكرية على تجهيز السجناء للاستجواب باستخدام العنف البدني والذهني. تشوَّش الحد التقليدي الفاصل بين تعامل أفراد الشرطة العسكرية مع إجراءات الاعتقال فحسب وبين أساليب المخابرات العسكرية في جمع المعلومات عندما طُلب من أفراد الاحتياط هؤلاء المشاركة في تجهيز المعتقلين للاستجوابات التعسفية. أذنب أفراد الشرطة العسكرية أيضًا باستخدام بعض أسوأ أنواع الاعتداء، فعلى سبيل المثال من أجل الحصول على معلومات من أحد الجنرالات العراقيين؛ قاموا بتبليل جسد ابنه ذي الستة عشر عامًا بشكل كامل ووضعه في الطين ثم تركه في البرد عاريًا، وقد نقل الرقيب صامويل بروفينانس (Samuel Provenance) [من الكتيبة ٣٠٢ مخابرات عسكرية] إلى عدد من وكالات الأنباء أن اثنين من المُحقِّقين تعدَّيا جنسيًّا على فتاة في عمر المراهقة وأن بقية الأفراد على علم بهذا الاعتداء. سنرى في الفصل التالي أن اعتداءات أبشع بكثير ارتكبها الجنود والمدنيون وكذلك فريق النوبة الليلية بقيادة تشيب فريدريك.

قال قائد اللواء الجنرال مارك كيميت، رئيس أركان قوات التحالف في العراق في لقاء مع دان راذر في برنامج (60 Minutes II): «أتمنى أن تضم التحقيقات [الخاصة بالتعدي على السجناء] بعض من حرّضوا عليها وليس من ارتكبوا تلك الجرائم فحسب؛ لأنهم يتحملون جزءًا من المسؤولية هم أيضًا».

كان لدى تشيب فريدريك في الحجز ما يقرب من خمسة عشر إلى عشرين «معتقلًا شبحًا»، وهم سجناء مُسجّلون على أنهم من اختصاص جهة (OGA)، اختصار لعبارة جهة حكومية أخرى (Other Governement Agency)؛ لأنهم كانوا مسؤولين من أصحاب المناصب العالية الذين يُفترض أن لديهم معلومات يقدمونها، وقد مُنِح المحققون حق استخدام كافة الوسائل الضرورية لانتزاع معلومات كافية للتدخل. كان هؤلاء المعتقلون «أشباحًا»؛ لأنهم لم يكونوا مسجلين في أية سجلات رسمية تثبت سابق وجودهم في هذا المكان، لم يسجلوا رسميًّا أبدًا، لا هويات لهم. أثناء لقائنا أفصح تشيب: «رأيت أحدهم بعد أن قامت قوات دِلتا بقتله، لقد قتلوا هذا الشاب، شعرت بأن أحدًا لم يهتم، لم يعرف أحد أبدًا ما حدث هناك»[1].

هذا الشاب كان معتقلًا شبحًا تعرض لضرب قاس من قبل وحدة سيلز (SEALS) ثم عُلِّق على حمَّالة أثناء استجوابه من قبل وكيل للمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) والذي خنقه حتى الموت، ثم وضعوه في الثلج ووضعوه في حقيبة موتى بعد أن غرزوا حقنة

---

(١) لقاء الرقيب تشيب فريدريك معي في ٣٠ سبتمبر، ٢٠٠٤.

وريدية في ذراعه (عن طريق طبيب) بحيث يتظاهر قتلته بأنه كان مريضًا سينقل إلى المستشفى في الصباح، وقبل نقله مع سائق سيارة أجرة قام بعض أفراد الشرطة العسكرية [جرانر (Graner) وهارمان (Harman)] من النوبة الليلية بالتقاط صور تذكارية مع جثته، للذكرى فحسب. (سنعود إلى تلك الحالة بتفصيل أكبر في الفصل التالي). إن تأثير مشاهدة أفراد الشرطة العسكرية لتلك الواقعة وغيرها من الاعتداءات الشنيعة التي اقترفتها أيادي بعض زوار الرصيف A1؛ كانت بالتأكيد تضع معيارًا اجتماعيًّا جديدًا لقبول الاعتداءات، فإذا كان الإفلات بالقتل أمرًا ممكنًا؛ أي ضرر يمكن أن يقع إذًا لمجرد ضرب بعض المعتقلين المقاوِمين أو إحراجهم بإجبارهم على اتخاذ أوضاع مهينة؟ هكذا فكّروا.

عنصر الخوف

داخل جدران ذلك السجن كانت هناك الكثير من الأشياء التي تستدعي الخوف، لا للسجناء فحسب؛ ولكن لفريدريك تشيب وبقية الحراس أيضًا. كما هو الحال في أغلب السجون فإن السجناء الذين يتوفر لهم الوقت والإمكانية سيقدمون على تحويل أي شيء تقريبًا إلى سلاح. كانت أسلحتهم هنا مصنوعة من معادن مأخوذة من الأسِرّة والنوافذ وقطع الزجاج وفرش أسنان حادة، كان الأقل ابتكارًا يرْشون الحراس العراقيين لتوفير مسدسات وسكاكين وخناجر وذخيرة. بمقابل مالي كان الحراس ينقلون أيضًا ملحوظات ومخاطبات بين أفراد الأسر. قال بعض الجنود من الفرقة ٧٢ شرطة عسكرية لفريدريك الذي حلّت وحدته محلها أن العديد من الحراس العراقيين فاسدون ويساعدون في محاولات الهروب بتقديمهم معلومات أمنية وخرائط المنشأة وملابس وأسلحة؛ بل ويُهَرِّبُون المخدرات إلى المعتقلين. وعلى الرغم من أن فريدريك كان مسؤولًا بشكل اسمي عن أولئك الحراس إلا أنهم كانوا يرفضون الخدمة في الأرصفة وكانوا يكتفون في الغالب بالجلوس في الخارج للتدخين وتبادل الحديث، تجب إضافتهم إلى بقية المصادر الأخرى لشعور تشيب المستمر بالإحباط والتوتر في إدارة منشأة مؤمّنة.

كثيرًا ما كان السجناء يهاجمون الحراس لفظيًّا، بعضهم كانوا يلقون عليهم بالبراز، والبعض الآخر يستخدمون أظافرهم الطويلة لخدش وجوه الحراس. من بين تسلسلات الأحداث نجد الواقعة غير المتوقعة الأكثر ترويعًا في هذا الرصيف والتي حدثت في ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٣، عندما قام أحد أفراد الشرطة العراقية بتهريب مسدس وذخيرة وخنجر إلى داخل زنزانة متمرد سوري مشتبه به. تبادلت قوة تشيب إطلاق النار معه وتمكنوا من إخضاعه بدون قتله، لكن رفعت تلك الواقعة مستوى تأهب الجميع داخل المكان ليكونوا في حذر دائم وخوف أكبر من تعرضهم لهجمات مميتة.

كان السجناء يحتجون لسوء مستوى الطعام الذي كان في الغالب غير صالح وغير كافٍ. كثيرًا ما كانت الاحتجاجات تتزايد مع وقوع هجمات مدفعية بالقرب من موقع أبو غريب «المكشوف». كانت المنشأة كما ذكرنا مسبقًا تتعرض لقصف يومي، وكان الجنود والسجناء يصابون ويُقتَلون في بعض الأحيان بسبب هجمات المدفعية. اعترف لي تشيب قائلًا: «كنت خائفًا طوال الوقت»، «لم يسبق لي أن كنت في منطقة حرب قبل العراق». على الرغم من هذا كان عليه تقبُّل الأمر والتصرُّف بشجاعة بمقتضى سلطته على السجناء وعلى زملائه أفراد الشرطة العسكرية والشرطة العراقية. تطلب الأمر من فريدريك أن يتظاهر بعدم الشعور بأي خوف وأن يبدو هادئًا مستجمعًا نفسه. هذا الصراع بين سلوكه الذي يجعله يبدو بهيئة الواثق وبين الحطام داخله كان يزداد سوءًا مع تزايد أعداد السجناء وتزايد إلحاح القيادات للحصول على «معلومات كافية للتدخل» من المعتقلين.

تحمَّل تشيب فريدريك إضافة إلى خوفه المكتوم الضغط والإرهاق الناتج عن متطلبات عمله الجديد المستنزفة التي لم يكن مستعدًا لها ولا مُدرّبًا عليها على الإطلاق. ضعوا في الاعتبار أيضًا التنافر الكبير بين قيمه الأساسية (النظام والأناقة والنظافة) وبين (الفوضى والقذارة) المحيطة به طوال الوقت. كان يفترض به إدارة المجمع بأكمله لكنه ذكر بأنه كان يشعر «بالضعف» لأن «لا أحد يتعاون معي، لم أتمكن من إحداث أي تغير بخصوص كيفية إدارة هذا المكان». بدأ يشعر أيضًا بأنه مجهول لأن «لا أحد يستمع إلى وجهة نظري، كان واضحًا أنه لا وجود للمُساءلة». فرضت عليه البيئة المحيطة به أيضًا حالة حجب كامل للهويّة بسبب قبحها القاحل. امتزجت فوضى المكان بفوضى الأشخاص لأن عدم ارتداء الزي الرسمي أثناء تأدية الخدمة أصبح هو الأساس، وكل من حوله وأغلب الزائرين والمحققين المدنيين كانوا يغدون ويروحون بلا اسم. لم يكن بالإمكان تحديد من في موضع المسؤولية، وأعداد لا نهائية من السجناء الذين لا يمكن تمييز واحد منهم عن آخر مرتدين الملابس البرتقالية أو عرايا؛ فهذه أسوأ بيئة يمكنني تصوّرها لسلب الذاتية.

التشابه مع تجربة سجن ستانفورد

الآن وبعد أن استقصينا بيئة العمل بإمكاننا أن نبدأ في تحديد أوجه التشابه بين الحالات النفسية التي مر بها تشيب فريدريك وزملاؤه في فريق الحراسة وتلك التي مر بها الحراس في تجربة سجن ستانفورد. سلب الذاتية التي صنعها حجب الشخص وفوضى المكان شديدة الوضوح، وكذلك نزع إنسانية السجناء بسبب أعدادهم الضخمة والتعرية القسرية والمظهر الموحد وعدم قدرة الحراس على فهم لغتهم. تحدث كين دافيز في فيلم وثائقي تلفزيوني عن كيفية زرع هذه اللاأنسنة في تفكيرهم: «لم ندرب على أعمال

الحراسة، قالت قياداتنا: «استخدموا خيالكم، حطموهم، نريدهم منهارين عند عودتنا». بمجرد وصول السجناء كانت تُغطى رؤوسهم بأكياس الرمل على الفور، كانوا يقيدونهم ثم يلقونهم على الأرض ويقومون بتعرية بعضهم. قيل لنا جميعًا أنهم ليسوا سوى كلاب [أليست عبارة مألوفة؟]، لذلك تبدأ تلك الصورة تنتعش في أذهان الناس، وفجأة تبدأ في النظر إليهم على أنهم دون البشر، ثم تفعل بهم ما لم يدر بخلدك يومًا أنك قد تفعل، وهنا صار الأمر مخيفًا»[1].

أثّر الملل في كلتا البيئتين وأذكته نوبات العمل الطويلة في تلك الليالي عندما كان كل شيء تحت السيطرة، كان الملل محفزًا قويًا للإقدام على أفعال ربما تجلب بعض المتعة، بعض الأحاسيس التي يمكن السيطرة عليها، قررت مجموعتا الحُرّاس بمبادرة شخصية القيام بأشياء ظنّوا أنها ستكون مُثيرة أو مُسليّة، وبالتأكيد زاد الأمر سوءًا بسبب غياب التدريب المتخصص على أداء مهمة صعبة ومعقّدة وضعف الرقابة من قبل فريق الإشراف، الذي جعل المساءلة تبدو غير ضرورية. في كلا السجنين سمح مشغلو النظام للحراس بالتحكم الكامل في السجناء، وكان الحراس يخافون من هروب السجناء أو احتجاجهم كما كان عليه الحال مع حراس ستانفورد مع أن النتائج أقل خطورة بكثير في حالة سجن ستانفورد. كان أبو غريب بالتأكيد مناخًا أكثر خطورة مقارنة بسجننا اللطيف نسبيًا في ستانفورد، لكن وكما أظهرت التجربة؛ كان تعسف الحراس وعدوانيتهم مع السجناء يتزايدان كل ليلة، وبلغت العدوانية ذروتها في سلسلة من الأفعال الجنسية التي تصل إلى سلوكيات مع السجناء كانت الهوموفوبيا دافعها. حدث الأمر نفسه بطرق أكثر انحرافًا ونطرفًا على الرصيف A1. وفي كلتا الحالتين كانت أسوأ الاعتداءات تقع في النوبة الليلية عندما يشعر الحراس بأن الرقابة عليهم في أدنى مستوى ومن ثم يتحررون من قيودهم الأولية.

يجب أن نوضح أن الضغوط الظرفية الموصوفة هنا ليست هي الحافز المباشر للحراس لفعل أشياء سيئة مثلما يحدث في نموذج بحث ميلغرام. باستثناء التحريض المباشر من قبل المحققين المدنيين «لتليين» المعتقلين من أجل إضعافهم فقد كانت المؤثرات الظرفية في أبو غريب - كما في سجن ستانفورد - هي التي خلقت حالة التحرر من القيود الاجتماعية والأخلاقية على الأعمال المسيئة. صار واضحًا أن مجموعتي حراس النوبة الليلية يمكن أن يفلتوا بالعديد من السلوكيات المحرمة بسبب تشتت المسؤولية، لم يعارض أحد قبول معاييرهم الجديدة التي كانت من قبل سلوكيات لا تخطر على بال. إنها ظاهرة

---

[1] ضمن تصريح كين دافيز (Ken Davis) في الفيلم الوثائقي:
"The Human Behavior Experiments," that aired on the Sundance Channel, June 1, 2006.

«إذا غاب القط لعب الفأر». يذكرنا هذا برواية جولدينج «أمير الذباب»، حيث أدى غياب الكبار إلى تسبب اللصوص المُقَنَّعين في الخراب، يجب أن يذكرك هذا ببحث الحجب والعدوانية في الفصل السابق.

من المفيد أن نذكر أن بعض الاستنتاجات التي وصلتْ إليها اللجنة المستقلة برئاسة شليزنجر قد قارنت بين حالة السجنين. فاجأتني أوجه التشابه الموصوفة في هذا التقرير بين الأوضاع المصطنعة في ستانفورد وبين الأوضاع الحقيقية تمامًا في سجن أبو غريب. يصف التقرير في الملحق (G) المكون من ثلاث صفحات الضغوطات النفسية وأسس المعاملة الوحشية مع السجناء والعوامل الاجتماعية النفسية التي تتدخل عندما يتصرف بشر طبيعيون تمامًا بطرق وحشية مع الآخرين:

> «بناء على المفاهيم الأساسية لمبادئ علم النفس الاجتماعي وإدراك العديد من عوامل الخطر البيئية المعروفة، كانت احتمالية التعامُل بشكل تعسُّفي قاسٍ مع المعتقلين أثناء الحرب العالمية على الإرهاب متوقعة تمامًا». [أغلب قيادات الجيش لم يعلموا أو تجاهلوا عوامل الخطر الواضحة الواقعة على جنودهم].

> «دراسة ستانفورد الشهيرة. . . تقدم رواية تحذيرية من عمليات الاعتقال العسكرية والتي كانت جيدة نسبيًّا في التجربة، وعلى النقيض في عمليات الاعتقال العسكرية الواقعية يعمل الجنود في ظلّ ظروف حربية ضاغطة بعيدة كل البعد عن أن تكون جيدة».

«حاول علماء النفس فهم كيف يمكن للأفراد والجماعات الذين غالبًا ما يتصرفون بإنسانية أن يتصرفوا بطرق مغايرة في ظروف معينة ولماذا».

إنه **تأثير الشيطان** من بين مفاهيم علم النفس الاجتماعي التي حددها تحقيق شليزنجر الذي يساعد في تفسير سبب حدوث السلوكيات المسيئة ومن بينها نجد سلب الذاتية واللاأنسنة وطريقة تصوير العدو والتفكير الجمعي والتعطل الأخلاقي والتسهيل المُجتَمَعي، وقد ناقشنا كل تلك العمليات سابقًا في بيئة تجربة سجن ستانفورد وكانت مؤثرة كذلك في أبو غريب باستثناء «التفكير الجمعي»، لا أعتقد أن هذا الأسلوب المتحيز في التفكير (الذي يدعم اتفاق المجموع مع رأي القائد) كان موجودًا بين حراس النوبة الليلية؛ لأنهم لم يخططوا لممارسة الاعتداء منهجيًّا.

في تحليل مستقل نشرته دورية (Science) العلمية أيّدت المختصة في علم النفس سوزان فيسك وزملاؤها الموقف الذي خرجت به تحقيقات شليزنجر حيث انتهت إلى أن: «أبو غريب قد نتجت بشكل جزئيّ من عمليات مجتمعية عادية، لا من شرّ فرديّ استثنائي». من بين العمليات المجتمعية نجد التوافق، والطاعة الاجتماعية للسلطة، واللاأنسنة،

والتعصب، والضغوط الظرفية، والتصعيد التدريجي للاعتداءات من الحد الأدنى إلى الحد الأقصى[(١)].

يقدم جندي سابق في العراق توثيقًا آخر لعلاقة تجربة سجن ستانفورد بفهم الديناميكيات السلوكية العاملة في السجون العسكرية في العراق، ويوضح كذلك لمَ تعدّ القيادة القوية أمرًا حاسمًا.

«بروفيسور زيمباردو

كنت جنديًا [أحد أهم وكلاء مكافحة التجسس] في الوحدة المتمركزة في سجن كوبر، أول مؤسسة اعتقال في بغداد بعد سقوط نظام حزب البعث. أستطيع الربط بين دراسة السجن خاصتك وما شاهدته في العراق. تعاملتُ بشكل موسع مع الشرطة العسكرية والمعتقلين خلال رحلتي وشاهدت العديد من أمثلة المواقف المقدمة في دراستك، لكن بعكس الجنود في أبو غريب كانت القيادة في وحدتنا قوية للغاية ولم تصل الأمور إلى أي مستوى يقارب ما حدث في أبو غريب. كانت قيادتنا تعرف القواعد وتضع المعايير القياسية وتقوم بالإشراف للتأكد من أن القواعد تتبع. كانت تجاوزات القواعد تخضع للتحقيق وعندما ينتهي؛ يُعاقَب المتجاوزون. مهام الاعتقال تنزع إنسانية الجميع، أعتقد أنني شعرت بالخدر بعد أول أسبوعين. المشاركة الفعالة لقيادتنا حفظتنا من نسيان من نحن وما سبب وجودنا هناك، لكن على أية حال استمتعت بقراءة موجز دراستك، أضافت الكثير من الوضوح لتفكيري.

بإخلاص: تيرانس بلاكيام»[(٢)].

الديناميكيات الجنسية على الرصيف A1

إحدى الخصائص غير المألوفة لفريق عمل النوبة الليلية على الرصيف A1 هي الخلط بين الشبان والشابات من الحراس، من الجدير بالذكر أنه في عرف هؤلاء الشبان الذين لا يخضعون لإشراف كانت النساء جميلات إلى حد بعيد. أضف إلى هذا الخليط المشحون عاطفيًا الشابة ليندي إنجلاند ابنة الـ٢١ عامًا التي كانت تلحق بتلك النوبة لتكون مع حبيبها الجديد تشارلز جرانر. سرعان ما انخرطت ليندي مع جرانر في مغامرات ساخنة قاما بتوثيقها بالفيديو والصور وقد حملت لاحقًا وولدت له طفلًا، لكن بالتأكيد كان هناك شيء

(١) S. T. Fiske, L. T. Harris, and A. J. Cuddy, "Why Ordinary People Torture Enemy Prisoners," *Science* 306 (2004): 1482-83; quote, p. 1483.

(٢) مراسلات بريد الكتروني بتاريخ ٣٠ اغسطس، ٢٠٠٦، بتصريح بطبعها. يعمل الكاتب الآن في مكتب الأمن بوزارة التجارة.

آخر يدور بين جرانر وحارسة الشرطة العسكرية ذات التسعة والعشرين عامًا ميجان أمبول؛ فقد تزوجا لاحقًا بعد أن حكم عليه بالسجن.

لم تهتم وسائل الإعلام التي ركزت على مُثلّث إنجلاند وجرانر وأمبول بحقيقة وجود عاهرات بين السجينات العراقيات كن يقمن بأفعال مشينة أمام أفراد جيش الاحتياط الذين كانوا يتلقطون صورًا لهن. كانت هناك أيضًا الأعداد الضخمة من الرجال العراقيين العرايا بسبب استراتيجية الإهانة المفروضة بأوامر عليا من جهة، ومن جهة أخرى لعدم وجود ما يكفي من ملابس السجن، ومن المفارقات أن بعض السجناء الذكور كانوا يرتدون ملابس النساء الداخلية وردية اللون بدلًا من الملابس الداخلية الخاصة بالرجال، وهو خطأ من إدارة الإمدادات، كانت خطوة صغيرة على طريق إجبار السجناء على ارتدائها في رؤوسهم لتكون صورة من صور الإهانة المُسلّية.

على الرغم من مطالبات تشيب المتكررة بفصل المعتقلين الصغار عن البالغين فقد قيل أن جماعة من السجناء العراقيين قامت باغتصاب ولد في الخامسة عشر من عمره ينزل معهم، ميّزت جندية الاختصاص سابرينا هارمان أحد هؤلاء الرجال على قدمه بقلم من نوع «شاربي» حيث كتبت: «أنا مُغتَصِب»، وميزت آخر أيضًا برسم وجه باستخدام أحمر الشفاه حول حلمته وكتابة رقم تعريفه في السجن بأحمر الشفاه كذلك على صدره العاري، كان المناخ الجنسي متفجرًا. هناك أدلة على أن حراس الشرطة العسكرية أدخلوا عصا مضيئة في مؤخرة أحد السجناء وربما يد مِكنسة أيضًا. كان عدد من الحراس يداومون على تهديد السجناء الذكور بأنهم سيقومون باغتصابهم. هناك أدلة أخرى على أن أفراد الشرطة العسكرية من الذكور كانوا يقومون باغتصاب المعتقلات. كان السجن يتحول إلى قلعة إباحية أكثر منه سجنًا عسكريًا.

[-----][1]

وصف جيمس شليزنجر الذي رأس واحدًا من تحقيقات مستقلة كثيرة ما رآه وسمعه عن أنشطة النوبة الليلية: «كان مثل بيت الحيوانات (Animal House)[2]»، كان الوضع يخرج عن سيطرة الجميع.

يتذكر تشيب فريدريك وقوع الاعتداءات وفقًا للترتيب الزمني التالي:

١ إلى ١٠ أكتوبر، ٢٠٠٣: تعرية، وتقييد إلى أبواب الزنازين، وارتداء ملابس

---

(١) في الأصل أورد المؤلف هنا صورة صادمة لسجناء عراقيين في سجن أبو غريب يُجبرون على ممارسات جنسية شاذة، وقد اضطررنا لحذفها. (المحرر).

(٢) يشير إلى الفيلم الكوميدي (Animal House) الذي أنتج عام ١٩٧٨م. (المحرر).

داخلية نسائية، وكان هذا استمرارًا لما كانت تقوم به الفرقة ٧٢ شرطة عسكرية.

١ إلى ٢٥ أكتوبر: أوضاع جنسية (في وجود المخابرات العسكرية، حيث تم تقييد السجناء معًا عرايا)، جندي مجهول كان يزعم أنه من جوانتانامو وعرّف جرانر ببعض الأوضاع الضاغطة التي كانت تستخدم هناك.

٨ نوفمبر: احتجاج في مجمع جانشي [أحد المجمعات المنفصلة داخل سجن أبو غريب]، نقل سبعة معتقلين إلى داخل الموقع الحصين (رصيف A1) وكانت بحوزتهم أسلحة متنوعة وكانوا يخططون لأخذ أحد أفراد الشرطة العسكرية كرهينة. كانت تلك هي ليلة الكومة الهرمية والتعدي بالضرب والأوضاع الجنسية والاستمناء مع وجود الكلاب طوال الوقت.

ملحوظات تحذيرية

ينتهي الجنرال تاجوبا إلى أن أفراد الشرطة العسكرية قد أُعِدّوا للتورط في بعض من تلك الاعتداءات عن طريق من هم أعلى منهم، يقول بأن محققي «المخابرات العسكرية» وبعض الوكالات الحكومية الأخرى كانوا يطلبون من حراس الشرطة العسكرية تجهيز السجناء بدنيًّا وذهنيًّا بأساليب تُسَهِّل عملية استجواب الشاهد».

يذهب تقرير الجنرال جورج فاي (George Fay) الاستقصائي إلى ما هو أبعد حيث ذهب إلى إدانةٍ أشد لدور أفراد المخابرات العسكرية في تلك الاعتداءات، يقول تقريره أنه على مدار سبعة أشهر: «طَلَب أفراد المخابرات العسكرية وشجَّعوا وتغافلوا وحرضوا أفراد الشرطة العسكرية [أفراد حراسة نوبة الليل] على الاعتداء على المعتقلين، و/أو المشاركة في الاعتداء على معتقل، و/أو انتهاك قواعد الاستجواب الثابتة والقانون التطبيقي»[١]. سنراجع التقريرين بشكل موسع في الفصل التالي لنركز على إخفاقات النظام وتورط القيادة.

دافع جرانر

كان عريف الاحتياط تشارلز جرانر بالنسبة للنوبة الليلية في سجن أبو غريب هو «جون واين» في النوبة الليلية في سجن ستانفورد. ذهب «جون واين» إلى ما هو أبعد بكثير

---

(١) سيكون لدينا الكثير لنقوله في الفصل التالي عن تقرير الجنرال فاي (*Fay*) الذي اشترك فيه مع الفريق جونز (*Jones*). جزء من التقرير موجود في:

Steven Strasser, ed., *The Abu Ghraib Investigations: The Official Reports of the Independent Panel and the Pentagon on the Shocking Prisoner Abuse in Iraq.* (New York: Public Affairs, 2004).

التقرير الكامل متاح على:

http://news.findlaw.com/hdocs/docs/dod/fay82504rpt.pdf.

من حدود الدور المسند إليه ليبتكر «تجاربه الصغيرة»، وتجاوز العريف جرانر حدود دوره بكثير باعتدائه على السجناء جسديًا ونفسيًا. من الجدير بالملاحظة أن كليهما يتمتعان بشخصية كاريزماتية تعكس الثقة بالنفس والتمسك بالرأي، وبسلوك جاد غير فوضوي كان يؤثر في الآخرين في نوبة عملهما، وعلى الرغم من أن الرقيب فريدريك كان قائده المباشر إلا أن جرانر كان هو المسيطر فعليًا على الرصيف A1 حتى في وجود تشيب. يبدو أن فكرة التقاط الصور كانت فكرته، فقد التُقطت العديد من الصور بكاميرته الرقمية.

عمل جرانر عضو قوات احتياط المارينز حارس سجن في حرب الخليج بدون أية تجاوزات تذكر. أثناء عملية عاصفة الصحراء كان يدير أكبر سجون أسرى الحرب لمدة ستة أسابيع، ومرة أخرى بدون أية حوادث. ذكر أحد أعضاء فرقته تلك أنه: «من نوعية الأشخاص القادرين على الاحتفاظ بالروح المعنوية عالية». ذكر زميلٌ آخر لجرانر أنه «شاب ظريف واجتماعي وسريع البديهة في المزاح»، أضاف: «مما رأيته لم تكن فيه خصال شريرة»، لكن بحسب عضو آخر في وحدة جرانر كانت ستقع مواجهة عنيفة بينه هو وبعض الجنود الآخرين مع السجناء العراقيين لولا توجيه القادة الميدانيين للجنود بالانضباط والسيطرة على أنفسهم.

أضاف أحد جيران جرانر - والذي عرفه لثلاثين عامًا - إلى التقييم الإيجابي: «كان شابًا صالحًا حقًا، ليس لدي سوى كل خير لأقوله عنه، لم يتسبب في أية مشكلة أبدًا». تذكر والدته فخرها بذكره في كتاب الشرف السنوي: «لقد جعلت والدك فخورًا بك، أنت الأفضل»[١].

لكن وعلى الجانب الآخر نجد أن جرانر اعتدى بدنيًا على زوجته التي طُلِّقَت منه في النهاية. تقول روايات وسائل الإعلام أنه عوقب أكثر من مرّة أثناء عمله حارسًا في سجون مشددة الحراسة.

على الرصيف A1 في النوبة الليلية أزيلت كل القيود المفروضة على سلوكيات جرانر المعادية للمجتمع، ثمة فوضى وعلاقات حميمية عارضة بدلًا من الانضباط العسكري، لم يكن هناك أي وجود لأية بنية سلطوية في المكان، ومع التحريض المستمر من أفراد المخابرات العسكرية على «تليين» المعتقلين للاستجواب سقط جرانر بسهولة.

---

(١) M. A. Fuoco, E. Blazina, and C. Lash, "Suspect in Prisoner Abuse Has a History of Troubles," *Pittsburgh Post-Gazette*, May 8, 2004.

تحوّل تشارلز جرانر إلى شخصية شهوانية تمامًا في هذا المكان القلق، دخل في علاقة جنسية مع ليندي إنجلاند ووثّقها بالعديد من الصور، جعل معتقلة عراقية تكشف عن صدرها وموضع عفتها وقام بتصويرها، قيل أن جرانر أجبر السجناء على الاستمناء جماعيًا وأمر الرجال وهم عرايا بالزحف على الأرض «بحيث تمسّ عوراتهم الأرض»، وهو يصيح فيهم بأنهم: «شواذ ملعونون»[1]، وكان هو أول من فكّر في جمع السجناء العرايا في كومة هرمية، وعندما قامت مجموعة من السجناء المغطاة رؤوسهم بحقائب بالاستمناء، قال لعشيقته ليندي إنجلاند مازحًا بأن هذه هي «هدية عيد ميلادها»[2].

كتب إليّ تشيب فريدريك بعد محاكمته عن جرانر: «لا ألقي باللوم كله عليه، لقد كانت لديه طريقة تجعلك تعتقد أن كل شيء على ما يرام. أشعر بندم شديد على أفعالي ولو عاد بي الزمن إلى أكتوبر ٢٠٠٣؛ فسأدير الأمور بشكل مختلف... أتمنى لو كنت أقوى...»[3].

ما زال تشيب فريدريك يشعر بالندم بسبب خضوعه لتأثير جرانر. لدينا هنا مثال على أن ثمة نزوعًا لفريدريك نحو التوافق والإذعان، تذكر الاستنتاجات النهائية لتقييمه النفسي: يخشى تشيب من أن يرفضه الآخرون ولذلك إن حصل أي خلاف في الرأي فإنه في الغالب يخضع للرأي المُخالف حتى يقبله المختلفون معه، ويُغيّر من طريقة تفكيره حتى يُشعِر الآخرين بالارتياح ولكيلا يجعلهم «يغضبون مني أو يكرهونني»، من الممكن أن يؤثر الآخرون عليه وهو يعتقد أنه قد اتخذ قراره. للأسف فقد عطّل عقلَه التوترُ والخوف والإرهاق وتأثير جرانر.

ماخذ بديل على تشارلز جرانر

في الفيلم الياباني الكلاسيكي راشمون لأكيرا كوروساوا قدّم كل شخص من مجموعة المتورطين في الواقعة ذاتها وصفًا لما حدث مختلفًا تمامًا عن الآخرين. سبق وذكرت أن هذا هو ما حدث في تجربة سجن ستانفورد، فقد قال «جون واين» وداج ٨٩١٢ كل منهما عن نفسه في لقاء إعلامي أن الأول كان يتصنّع السلوك السادي والثاني كان يدعي الجنون، قدّم الحارس السابق هيلمان لاحقًا رواية أخرى لما حدث:

«لو كنت سألتني في ذلك الوقت عن انطباعي كنت سأقول أنهم مخنثون ضعاف أو

---

(١) شهادة محلل المخابرات العسكرية في جلسة الاستماع السابقة لمحاكمة جرانر (Graner).

(٢) إقرار الحقائق في قضية الولايات المتحدة وفريدريك، ٥ أغسطس، ٢٠٠٤.

(٣) تواصل شخصي بيني وبين تشيب فريدريك من فورت ليفنورث، ١٢ يونيو، ٢٠٠٥.

أنهم يمثلون لأنني لم أكن لأصدق أن ما أقوم به يمكن أن يصيب أي شخص بانهيار عصبي. كان مجرد نوع من التنفيس، أردنا أن نكون مُحركي العرائس في المكان وأن نجعلهم يقومون ببعض الأمور»[1].

سجناء وحراس آخرون ذكر بعضهم أنها كانت تجربة مريعة وقال آخرون أنها لم تكن شيئًا ذا بال. الواقع إلى حدٍّ ما هو ما يتبناه المرء في عقله، وبالنسبة لمن كانوا في أبو غريب فقد تأثرت حياتهم بشدة بسبب الواقع الحربي والمحاكمات العسكرية ووسائل الإعلام.

في كل التحقيقات وُصِفَ تشارلز جرانر بأنه التفاحة الفاسدة في المجموعة، سادي شرير قام باعتداءات مشينة في حق المعتقلين. قُدّم سجله السابق من المشاكل التي تسبب بها في المنشآت الإصلاحية في الولايات المتحدة بوصفه دليلًا على أنه جاء بطبيعته العنيفة المعادية للمجتمع إلى الرصيف A1. كانت مبالغةً غير مسؤولة من وسائل الإعلام.

على العكس من ذلك ففحص ملف أداء جرانر في المؤسسة الإصلاحية في جرين كاونتي، بنسلفانيا، يكشف أنه لم يتهم أبدًا أو يشتبه به أو يعاقب على أية إهانة أو إساءة معاملة تجاه أي سجين.

بل إننا نجد تناقضًا شديدًا بين صورة جرانر الوحش القاسي غير المسؤول وصورة جرانر الجندي الصالح في تقييم أدائه في الشهر نفسه الذي وقعت فيه الاعتداءات. في نوفمبر ١٦، ٢٠٠٣، في تقرير تطوّر الأداء رقم (٤٨٥٦) الذي قدّمه قائد السرية النقيب برينسون لجرانر، خُصّ بالذكر لأدائه الجيد:

«العريف جرانر، أنت تقدم أداءً جيدًا على الرصيف A1 التابع لمركز بغداد الإصلاحي (BCF) كضابط صف مسؤول عن منطقة تمركز المخابرات العسكرية. تلقيتَ الكثير من التقدير من أفراد الشرطة العسكرية وعلى وجه الخصوص من المقدم [مخفي: على الأرجح المقدم جوردان]. استمر في تأدية واجبك بهذا المستوى وستساعدنا على النجاح في مهمتنا».

ثم لفت نظره إلى ضرورة ارتداء الزي العسكري للحفاظ على مظهر عسكري ملائم (وهو أمر لا يفعله أحد في ذاك الرصيف). تحذير آخر أقرّ بأنه والآخرين يعملون في ظروف عالية التوتّر في هذا الرصيف. وطُلِب من جرانر أن يحذر من تأثير هذا التوتر على سلوكياته خاصة فيما يتعلق باستخدام القوة في التعامل مع معتقل معين. لكن نسخة جرانر من «استخدام القوة» مقبولة لدى قائده الذي أضاف: «أدعم قراراتك بنسبة مئة بالمئة إذا

(١) الحارس هيلمان في «تجارب السلوك الإنساني»، (Human Behavior Experiments)، ١ يونيو، ٢٠٠٦.

اعتقدت أنك يجب أن تدافع عن نفسك»(١).

---

(١) DEVELOPMENTAL COUNSELING FORM.

DEVELOPMENTAL COUNSELING FORM

For use of this form, see FM 22-100; the proponent agency is TRADOC

DATA REQUIRED BY THE PRIVACY ACT OF 1974

AUTHORITY: 5 USC 301, Departmental Regulations; 10 USC 3013, Secretary of the Army and E.O. 9397 (SSN)

PRINCIPAL PURPOSE: To assist leaders in conducting and recording counseling data pertaining to subordinates.

ROUTINE USES: For subordinate leader development IAW FM 22-100. Leaders should use this form as necessary.

DISCLOSURE: Disclosure is voluntary.

PART I - ADMINISTRATIVE DATA

Name (Last, First, MI)	Rank/Grade	Social Security No.	Date of Counseling
Graner, Charles	CPL/E-4		14 NOV 03

Organization	Name and Title of Counselor
372nd Military Police Company	CPT [redacted] / Platoon Leader

PART II - BACKGROUND INFORMATION

Purpose of Counseling: *(Leader states the reason for the counseling, e.g. performance/professional growth or event-oriented counseling, and includes the leader's facts and observations prior to the counseling.)*

Performance

o Performance in Tier 1 at BCF

PART III - SUMMARY OF COUNSELING

Complete this section during or immediately subsequent to counseling.

Key Points of Discussion:

CPL Graner, you are doing a fine job in Tier 1 of the BCF. As the NCOIC of the "MI Hold" area, you have received many accolades from the MI units here and specifically from LTC [redacted]. Continue to perform at this level and it will help us succeed at our overall mission.

I am concerned about two matters related to your performance. First, SFC [redacted] has spoken to you about your appearance while on duty. I require all soldiers to maintain the Army's uniform and appearance standards at all times and encourage them to exceed them when possible. I want to reinforce this issue with you now.

Second, due to the higher level of stress associated with working in tier 1, I am concerned that it does not affect your performance. Many times you have to deal with security detainees that are of the highest intelligence value. These detainees often try to incite our soldiers to aggressive acts by taunting them or not responding to commands. In addition, tier 1 houses the isolation cells for the hard site prison. These cells are filled with detainees whose noncompliance and/or aggressive behavior has placed them in isolation. Also, tier 1 holds detainees with overall health issues. These detainees add to the stress of working in tier 1.

There was an incident on 14 NOV 03 involving a security detainee whose actions in your words required you to use force to regain control of the situation. The detainee received abrasions and cuts on his face from the incident. Let me state first and foremost, you have an inherent right to self-defense that cannot be taken away from you. I 100 percent support your decision when you believe you must defend yourself. You stated that you continued your actions through the approved levels of force. You stated you used the appropriate level of force up through the continuum of the use of force to control the situation. Then you stated that you ceased all use of force and sought medical attention for the detainee. Statements from other MP working that evening do not shed any light on the incident. Unless other evidence presents itself, I accept your version of events.

OTHER INSTRUCTIONS

This form will be destroyed upon: reassignment (other than rehabilitative transfers), separation at ETS, or upon retirement. For separation requirements and notification of loss of benefits/consequences see local directives and AR 635-200.

DA FORM 4856, JUN 1999 — EDITION OF JUN 85 IS OBSOLETE — USAPA V1.00

قدّم جندي احتياط الشرطة العسكرية كين دافيز رواية مؤيدة تمامًا عن حوار جرى بينه وبين جرانر:

في إحدى الليالي وبعد أن أنهى نوبة عمله كان صوته [جرانر] مبحوحًا،

قلت: «جرانر، هل أنت مريض؟».

فقال: «لا».

قلت: «حسنًا، ماذا هنالك؟».

فقال: «حسنًا، عليّ أن أصرخ، وأن أقوم بأشياء أخرى تجاه المعتقلين وأشعر أنني مخطئ معنويًا وأخلاقيًا، ماذا الذي عليّ فعله برأيك؟».

قلت: «إذًا لا تفعل تلك الأشياء».

قال: «ليس أمامي خيار آخر».

قلت: «ماذا تقصد؟».

فقال: «في كل مرة تنفجر القنابل حول الأسلاك الشائكة أو داخل حدود السور يأتون إليّ ويقولون لي أن هناك أمريكيًا آخر قد فقد حياته وإن لم تساعدنا فيَدُك ملطّخة بدمائهم»[1].

بناءً على إدراكي لضغط العمل الرهيب في الرصيف A1؛ أفترض أن استدعاء بعض متخصصي الصحة العقلية لمساعدة الحراس على التعامل مع ذلك الخراب بشكل بنّاء كان أمرًا ضروريًا. تم تعيين طبيب نفسي في أبو غريب لعدة أشهر لكنه لم يعالج أيًا من أفراد الشرطة العسكرية أو يقدم لهم الاستشارات لهم وقد كانوا في حاجة إلى خبرة كهذه وإلى من يتعامل مع المعتقلين المصابين بأمراض عقلية. بدلًا من ذلك ذُكر أن وظيفته الأساسية كانت مساعدة المخابرات العسكرية في إجراء الاستجوابات بفاعلية أكبر. أكدت ميجان أمبول: «لم تكن هناك أية ادعاءات موثوقة عن أي لواط أو اغتصاب ولا أية صور أو فيديوهات لأعمال مشابهة، على الأقل ليس من قبل أي من السبعة المتورطين في التحقيقات»، ثم واصلت قائلة: «لدي كل الصور والفيديوهات من بداية التحقيقات، كنت أقضي حوالي ١٣ ساعة يوميًا في هذا المكان، لا اغتصابات أو لواط»[2]. هل سنعرف حقيقة ما حدث هناك؟ ومن يلام على تلك الفظائع التي وقعت في أبو غريب؟

الصور التذكارية: فساد موثّق رقميًا

في الحروب التي تدور بين عدة دول وفي المواجهات مع المجرمين أو الجنود أو الشرطة أو حراس السجون غالبًا ما تتم الاعتداءات والتجاوزات والتعذيب وقتل الأعداء أو

---

(١) نفس المصدر. تقرير جندي الشرطة العسكرية كين دافيز (*Ken Davis*) عن «تجارب السلوك الإنساني» (The human Behavior Experiments).

(٢) www.supportmpscapegoats.com.

المشتبه بهم أو الأسرى بطريقة شديدة القسوة والوحشية. هذه الأفعال متوقعة (ولكن ليست مقبولة) في مناطق الحرب، عندما تكون حياة الأفراد مهددة باسم نداء الواجب وعندما يعتدي «الأجانب» على جنودنا؛ فحينها لا نقبل سلوك موظفي الحكومات الديمقراطية الأمنين على أنفسهم من أي تهديد في حين يبيت أسرانا عُزّلًا مهددين.

كان للصور الرقمية الآتية من أبو غريب تأثير فريد في الناس من كل أنحاء العالم. لم نر من قبل أدلة مصورّة على اعتداء جنسي وتعذيب من قبل حراس سجن أو رجال ونساء يبدو عليهم فيها استمتاعهم بأفعالهم الشنيعة، ثم تكون لديهم الجرأة بعد ذلك ليتخذوا أوضاعًا للتصوير وهم يرتبكون أعمالهم الهمجية. كيف فعلوا هذا؟ لماذا وضعوا بصمتهم الشخصية على تلك الاعتداءات؟ فلننظر في بعض التفسيرات المحتملة.

القوة الرقمية

إحدى الإجابات البسيطة هي أن التكنولوجيا الحديثة تتيح لأي شخص أن يُصبح مصوّرًا فوتوغرافيًّا، ثم يمكنه بسهولة دون انتظار نشر الصور على شبكة الإنترنت بدون أية رقابة من معامل طبع الصور، ولأن تلك الكاميرات صغيرة الحجم وذات سعة تخزينية كبيرة ورخيصة الثمن نسبيًّا؛ فهي واسعة الانتشار حتى يستطيع أي شخص التقاط مئات الصور مباشرة. وكما تعطي مدونات الإنترنت والبث الشبكي الشخصي الناس العاديين فرصة اختبار لحظات من الشهرة العابرة، فكذلك امتلاك صور غير مألوفة يمكن أن تُنشر في أرجاء العالم عن طريق مجموعة من المواقع الشبكية؛ يمنح الآخرين بعض لحظات المجد[١].

فكّروا في حقيقة أن أحد مواقع الجنس شجّع مرتاديه من الذكور على رفع صور عارية لزوجاتهم وعشيقاتهم مقابل إمكانية مشاهدة مقاطع إباحية. دُعِي الجنود أيضًا إلى مقايضة صور موقع الحرب بحق الولوج إلى مشاهد إباحية وقد فعل ذلك كثير منهم. كان هناك تحذير شديد من بعض تلك الصور، مثل صورة لمجموعة من الجنود الأمريكيين يبتسمون أمام بقايا جثة محترقة لمواطن عراقي مع تعقيب «رضيع عراقي محترق».

صور تذكارية من عصور أخرى

تُذَكِّرنا تلك «الصور التذكارية» بإعدام أو حرق رجال ونساء سود أحياء في الولايات المتحدة في ثمانينيات القرن التاسع عشر وثلاثينيات القرن العشرين مع وقوف المتفرجين ومقترفي تلك الأفعال للتصوير. رأينا في الفصل السابق كيف أن تلك الصور ترمز لأسوأ

(١) كتب المؤلف هذه الفقرة قبل انتشار الأجهزة الذكية واشتهار شبكات التواصل الاجتماعي! (المحرر).

صور نزع الإنسانية؛ لأن هذه الصور التي وثقت تلك الأعمال غير المقدسة وبالإضافة لكونها تصور تعذيب وقتل الأمريكيين السود بسبب «جرائم» كاذبة في الغالب ضد البيض؛ فقد كانت تُطبَع على بطاقات بريدية تُشتَرى لتُهدى إلى الأهل والأصدقاء. كانت بعض الصور تُظهِر أطفالًا صغارًا مبتسمين بصحبة والديهم لمشاهدة تعذيب رجال ونساء سود يقتلون بوحشية. هناك ثبت صور وثائقي لكثير من تلك البطاقات البريدية في كتاب حديث اسمه (Without Sanctuary)[1].

صور أخرى التقطها الجنود الألمان إبان الحرب العالمية الثانية لبعض جرائمهم ضد اليهود البولنديين والروس. ذكرنا في الفصل السابق أن «رجالًا عاديين»، مجرد رجال ألمان قدامى من شرطة الاحتياط قد قاوموا في البداية قتل العائلات اليهودية بإطلاق النار، قاموا مع مرور الوقت بتوثيق أعمال القتل التي نفذوها بأنفسهم[2]. يوجد كذلك مخزون مرئي كبير لإعدامات ومنفذيها كما يمكن أن نرى في كتاب جانينا ستراك[3]، وُثقت أيضًا مذبحة الأتراك ضد الأرمن في صور موجودة على موقع مخصص لتلك المذبحة[4].

هناك نوع آخر من الصور التذكارية في عصور ما قبل حقوق الحيوان، وهي صور صيادين مبتهجين بالقرب من سمكة مارلين أو نمر أو دب أشهب عقب صيده. أذكر صورة لأرنست همينجواي في وضع مماثل لكن الصور الكلاسيكية الأيقونية لصياد شجاع هي صورة الرئيس الأمريكي روزفلت يقف مزهوًا خلف وحيد قرن ضخم اصطاده لتوه، للرئيس السابق صورة أخرى مع ابنه كيرميت يجلسان فوق جاموس ماء بلا اكتراث ويمسكان بندقيتين كبيرتين[5]. تلك الصور التذكارية كانت بمثابة إعلان عن سلطة الرجل وسيادته على

---

(1) Allen et al., *Without Sanctuary: Lynching Photography in America* (2000).

(2) Browning, *Ordinary Men* (1993).

(3) Janina Struk, *Photographing the Holocaust: Interpretations of the Evidence* (New York: Palgrave, 2004).

(4) www.armenocide.am.

(5) للمزيد عن الصور التذكارية لتيدي روزفلت وابنه كيرميت، انظر:

"On Safari with Theodore Roosevelt, 1909" www.eyewitnesstohistory.com/tr.htm.

من المثير أن الهدف المُعلن للرحلة كان «جمع» أنواع من أجناس الحيوانات، ولكنها كانت في الحقيقة رحلت صيد قتل فيها ٥١٢ حيوان من بينهم ١٧ أسدًا، ١١ فيلًا، وعشرين وحيد قرن. من المثير للسخرية أن حفيد ثيودور روزفلت، كيرميت كان رئيس عملية المخابرات المركزية في إيران المعروفة باسم أياكس (Ajax)، أول انقلاب عسكري ناجح للوكالة، والذي عزل فيه الرئيس الإيراني (المنتخب ديمقراطيًا) محمد مصدق سنة ١٩٥٣. كان دافع الوكالة هو مواجهة الخطر الشيوعي الآتي من بقاء مصدق في السلطة. وفقًا لستيفين كينزير (Stephen Kinzer)، صحفي متقاعد من النيويورك تايمز، كانت تلك العملية هي النموذج لنصف قرن تلاها نجحت فيه الولايات المتحدة والمخابرات في عزل (أو دعم عزل) رؤوس الدولة في جواتيمالا (١٩٥٤)، ثم كوبا، شيلي، الكونغو، فيتنام، والأكثر صلة بدراستنا، صدام حسين في العراق (٢٠٠٣). ذكر كينزر (Kinzer) أيضًا =

الوحوش الجبارة الموجودة في الطبيعة التي تفوقت عليها مهارته وشجاعته والتكنولوجيا. من المثير للفضول أن هؤلاء المنتصرين يبدون عابسين في الصور، نادرًا ما تجدهم مبتسمين، هم منتصرون في معركة ضد خصوم أقوياء، هم بطريقة ما يقفون وقفة داوود الصغير بمقلاعه أمام جالوت العملاق.

العارضون يؤدون من أجل محبي الفضائح

تُبدي الوجوه المبتسمة لحراس النوبة الليلية في سجن أبو غريب جانبًا مختلفًا للصور التذكارية هو الجانب الفضائحي. تبدو بعض الصور وكأن الاعتداءات كانت مجرد وسائل متاحة لأولئك المتباهين حتى يوثقوا المدى الذي يمكن أن يصلوا إليه في هذا الوضع غير المألوف. توَقَّع هؤلاء المتباهون أن لهم جمهورًا يشاهد تلك الصور خلسة ويستمتع بمشاهدة تلك الطرائف، لكنهم أخفقوا في إدراك أن مشاركة تلك الملفات وسهولة توزيعها يمكن أن يجعل الصور بعيدة عمن التقطها ومن الممكن أن يفقدوا السيطرة على من شاهدها ومن لا، وبسبب هذا قُبِض عليهم متلبّسين من قبل السلطات.

باستثناء الصورة التي صارت رمزًا للتعذيب، صورة الرجل مُغطى الرأس مع أسلاك كهربائية موصلة بيده وصور الكلاب تهدد السجناء؛ كانت أغلب الصور التذكارية ذات طبيعة جنسية، هذا الربط بين التعذيب والجنس خلق طابعًا إباحيًا مربكًا، لكنه كان مع ذلك مثيرًا بالنسبة للكثير ممن شاهدوا تلك الصور. جميعنا مدعوون إلى ذلك السجن السادي المازوشي لننظر في تلك الفظائع عن قرب، وعلى الرغم من بشاعة النظر إلى تلك الاعتداءات؛ يستمر الناس في النظر إليها.

فاجأتني رغبة الناس في مشاهدة هذه الصور الفاضحة المنتشرة بقوة الآن على شبكة الإنترنت، هناك موقع فضائحي إباحي يزعُم أنه يجتذب ٢,٢ مليون زائر يوميًا.

دوافع مركبة وديناميكيات اجتماعية

السلوك الإنساني شديد التعقيد، غالبًا ما يكون هناك أكثر من سبب خلف أي فعل، وفي أبو غريب كانت تلك الصور الرقمية فيما أعتقد نتيجة عدد من الدوافع والديناميكيات

* أن المناخ العام في تلك الدول بعد الانقلاب غاب عنه الاستقرار وساد الصراع الأهلي وأعمال عنف لا تحصى. كان لتلك العمليات آثار عميقة يتردد صداها إلى اليوم حيث الألم الكبير الذي خلفته لدى قطاعات كبيرة من العالم جيَّشتهم ضد الولايات المتحدة. للعودة إلى الوضع السابق خططت الولايات المتحدة لعمليات مخابرات مضادة وربما خططت لشن حرب ضد إيران. فضح هذا سيمور هيرش (*Seymour Hersh*)، صديقنا من جريدة (*The New Yorker*) الذي حقق في ماي لاي و أبو غريب، في:
www.newyorker.com/fact/content/?050124fact
S. Kinzer, *All the Shah's Men: An American Coup and the Roots of Middle East Terror* (Hoboken, NJ: Wiley, 2003);
S. Kinzer, *Overthrow: America's Century of Regime Change from Hawaii to Iraq* (New York: Times Books, 2006).

الداخلية، بالإضافة إلى الميول الجنسية والرغبة في الاستعراض. المكانة والسلطة، والانتقام والقصاص، وانعدام الذاتية اليائس؛ من المرجّح أن كل هذه الأسباب تداخلت وقتما حدثت الاعتداءات والتُقطت الصور. علينا أن نضع في الاعتبار كذلك أن بعض الاعتداءات قوبلت بالتغافل وكانت من صنع المحققين.



أحد الحراس في أبو غريب صبغ وجهه بألوان على النحو الذي يفعله أفراد فرقة موسيقى الروك (Insane Clown Posse)

صور مجهّزة لاستخدامها في تهديد المعتقلين

هناك سبب واضح بسيط لتلك الصور التذكارية في أبو غريب، فقد طلب المحققون المدنيون والعسكريون من أفراد الشرطة العسكرية أن تلتقط لهم صور بتلك الوضعيات مع المعتقلين. واحدة من النسخ الأخرى للرواية ترويها لنا الضابطة المتقاعدة جانيس كابرنسكي وقد ذكرها كذلك بعض الجنود المتهمين حيث كانت فكرة الصور في البداية من أجل استخدامها في تهديد المعتقلين لمساعدة المُحققين. قالت كابرنسكي في ٤ مايو، ٢٠٠٦ أثناء انعقاد مؤتمر في جامعة ستانفورد: «أعدوا تلك الصور ليحصلوا على اعترافات، ليختصروا مدة التحقيق، كانوا يُخرِجُون أجهزة الكمبيوتر ويعرضون الصور على السجناء ويطلبون منهم الاعتراف وإلا سيصبحون في قاع هذه الكومة في اليوم التالي، كان الأمر مقصودًا وينفذ بشكل منهجي»[1].

(١) هذه الملحوظات من تلك المسجلة في المؤتمر والتي تحدثت فيها جانيس كابرنسكي في جزء من النقاش عن «الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبها بوش»، ٤ مايو، ٢٠٠٦. شكّك محقق عسكري متقاعد في هذه الرواية القائلة =

بالتأكيد كان هناك تحضير لالتقاط بعض الصور بوجود أفراد الشرطة العسكرية يبتسمون ويشيرون إلى شيء تجب ملاحظته في المشهد. الصورة اللاإنسانية لليندي إنجلاند وهي تجُرُّ معتقلًا باستخدام طوق كلب حول عنقه هي من ذلك النوع على الأغلب، من غير المرجح أنها ذهبت إلى العراق بطوق كلب في حقيبة المهمات، لكن كل ما كان يحتاجه هذا التسهيل المجتمعي حتى يقوم بدوره هو إعطاء مسؤول ما تصريحًا بالتقاط صورة أو أكثر للاعتداءات، وهذا التصريح فتح الباب أمام هذه الأعمال الليلية التي نُفذت بكثير من الشر المبتكر. بمجرد أن بدأ الأمر لم يكن له أن ينتهي لأنه كان بمثابة تنفيس عن حالة الملل التي يشعر بها أفراد الشرطة العسكرية، وكان كذلك بمثابة انتقام وإثبات سيادة وتسلية بألعاب جنسية، لم ينته حتى أطلق جو داربي صافرة الختام لِيُنْهي العرض.

تحقيق المكانة والانتقام

فلنقرّ بضعف مكانة أفراد احتياط الشرطة العسكرية بشكل عام داخل الجيش وهو ما كان زائدًا مع أفراد احتياط الشرطة العسكرية الذين يعملون في النوبة الليلية في سجن بشع، تبينوا أنهم في قاع الوعاء، يعملون في ظروف مريعة ويتلقون أوامر من مدنيين ولا يملكون أية فرصة للتظلم لدى القيادات التي لم تهتم بما يحدث هناك. الوحيدون الأقل مكانة في المشهد كانوا هم السجناء أنفسهم.

لذلك أفادت طبيعة الاعتداءات وكذلك توثيقها هيمنة اجتماعية لا لبس فيها لكل حارس على السجناء عبر هذه المقارنة التي تبدأ من عند الحراس إلى أسفل عند السجناء. كان التعذيب والاعتداء تدريبًا على ممارسة السلطة الخالصة من أجل إثبات سيطرتهم المطلقة على من هم أقل منهم، وكانت هناك حاجة للصور لدى بعض هؤلاء الحراس ليقنعوا أنفسهم بتفوقهم ولنشر مكانتهم العالية بين زملائهم، أعطتهم تلك الصور «حق التبجح». من المحتمل أيضًا تدخّل العنصرية إلى حد ما مع سلوكيات سلبية تجاه العرب بوصفهم آخر شديد الاختلاف، كان هذا استمرارًا للعداء الذي بدأ منذ ١١ سبتمبر، ٢٠٠١، هجمات إرهابية ضد كل شخص ذي بشرة بنيّة من أية خلفية عربية.

كان الدافع الأكثر مباشرة هو انتقام الجنود لزملائهم الذين قتلوا أو جرحوا بجراح خطيرة بسبب المتمردين العراقيين. واضح أن الانتقام قاد إلى الاقتصاص من السجناء الذين احتجّوا أو الذين قيل أنهم اغتصبوا مراهقًا صغيرًا؛ فالسجناء السبعة مثلًا الذين جمعوا في الكومة

* بوجود تصريحات من المحققين للشرطة العسكرية بالتقاط الصور: «لا أعتقد بأن هناك أي «تصريح» من المحققين إن وجد تصريح في الأساس... في مسيرتي كمحقق والتي امتدت لأكثر من عقدين وكمشرف على عمليات الاستجواب؛ سمعت عن كل الطرق الموجودة ولا أستطيع تصديق أن المحقق لن يتوقف عندما يصبح على شفا التورط في أعمال غير قانونية ذات طبيعة مشكوك فيها بالنسبة لسير عملية الاستجواب، أما أن يتآمر مع الآخرين فهو أمر يعتمد على مدى الثقة فيهم». حصلت على هذا في ٣ أغسطس، ٢٠٠٦؛ المصدر يفضل إخفاء اسمه.

الهرمية كانوا قد أرسلوا إلى الرصيف A1 على خلفية احتجاجهم في سجن جانشي وإيذائهم حارسة شرطة عسكرية أثناء ذلك، كانت الإهانة والضرب «التلقينهم درسًا» عن نتائج خروجهم عن السيطرة، وكذلك كان السجين الوحيد الذي ضربه تشيب فريدريك بقوة في صدره هو ذلك الذي قيل أنه قذف حجرًا على حارسة شرطة عسكرية. كان إجبار المعتقلين على الاستمناء وغيره أمام جنديات ثم توثيق الإهانة تكتيكًا لإشعارهم بالعار، كانت السيناريوهات الجنسية هي طريقة الشرطة العسكرية في معاقبة المعتقلين الذين يرون أنهم تجاوزوا الحدّ.

سلب الذاتية وتأثير الثلاثاء البدين

كيف ننظر إلى مفهوم ليندي إنجلاند بأن الأمر برمته كان «لهوًا ولعِبًا»؟ هذه الحالة أعتقد يمكن عزوها إلى سلب الذاتية. حجب الشخص أو المكان الذي ذكرناه سابقًا يمكن أن يخلق حالة ذهنية مختلفة، عندما تمتزج هذه الحالة الذهنية مع تفرّق مسؤولية الشخص عن أفعاله بين عدة أفراد يؤدي ذلك إلى هدر الذاتية، ومن ثم يتورط الفاعلون في أعمال بدنية شديدة بدون أي تخطيط عقلاني أو اعتبار للنتائج. يفسح الماضي والمستقبل المجال لحاضر مباشر في رؤية تلذذية للزمن. إنها مساحة عقلية تهيمن فيها العاطفة على المنطق، وتُحلّ القيود التي تكبح العاطفة.

إنه «تأثير الثلاثاء البدين» حيث يعيش الشخص اللحظة خلف قناع يخفي هويته ليُوغل في نزعاته الشهوانية والعنفية والأنانية التي عادةً ما يكبحها. ينشأ هذا السلوك كرد فعل على مقتضيات موقف مباشر بدون أي تخطيط أو تفكير سيئ مسبق. رأينا ما حدث عندما تسللت ظاهرة «أمير الذباب» هذه إلى مختبري في جامعة نيويورك عندما بدأت امرأة في توجيه صدمات متزايدة إلى ضحاياها، صنع بعض حراس تجربة سجن ستانفورد هذا التأثير مرةً أخرى. في هذه المواقف كما في سجن أبو غريب؛ أزيلت القيود الاجتماعية المعيارية ضد العنف والأعمال المعادية للمجتمع بسبب مرور الناس بفترات مطولة من الحرية السلوكية.

مثلما لم أُشجّع حراسي على التصرف بساديّة لم يشجع الجيش حراسه على التورط في اعتداءات جنسية ضد السجناء، لكن ساد في كلتا الحالتين مبدأ عام بحرية التصرف مما خلق إحساسًا لدى الحراس بإمكانية فعل أي شيء يرغبون في فعله لغياب المحاسبة الشخصية وإمكانية الإفلات بأي فعل طالما لا رقيب. في هذا السياق يضمر التفكير الأخلاقي العادي وتتحدث الأعمال بصوت أعلى من صوت التعاليم القديمة، وتجد النزعات الديونيسية تسحق العقلانية الأبولونية، ثم يعمل التعطل الأخلاقي بعدها على تغيير المنظر أمام من سقطوا في شباكه.

اعتداءات مشابهة قام بها الجنود البريطانيون وجنود النخبة الأمريكيون

لو كانت المبادئ النفسية التي أجادل أنها كانت فعالة في الرصيف A1 مرتبطة بالظرف لا بالشخص؛ سنجد إذًا اعتداءات مماثلة ارتكبها جنود آخرون في نفس منطقة القتال، ولدينا

بالفعل مثالان على الأقل لسلوك مشابه بالكاد لاحظتهما وسائل إعلام الولايات المتحدة.

اعتدى الجنود البريطانيون المتخذين من سجن البصرة مركزًا لهم على الأسرى جنسيًا وأجبروهم على محاكاة أوضاع اللواط مع بعضهم بعد تجريدهم من ملابسهم تمامًا. صدمت تلك الصور الرأي العام البريطاني الذي لم يُصدِّق أن شبابه يُمكِن أن يُقدِموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة بل وتوثيقها، كما كانت حقيقة أن أحد هؤلاء المعتدين هو بطل معركة سابقة تم تكريمه كانت بمثابة خرق كبير لتوقعات الرأي العام البريطاني، والأسوأ هو ما ذكرته محطة (BBC) في ٢٩ يونيو، ٢٠٠٤: «تتبادل القوات البريطانية صور الاعتداءات»، وكان العنوان الفرعي «الجنود البريطانيون يتبادلون فيما بينهم مئات الصور التي تسجل أعمال وحشية ضد السجناء العراقيين». بعض الجنود الذين عملوا في فرق النخبة (Queen's Lancashire Regiment) قدّموا بعض هذه الصور لجريدة (Daily Mirror)، وإحدى هذه الصور تُظهِر سجينًا مُغطى الرأس يُضرَب بظهر بندقية ويبولون عليه في وجود مُسدس مُصوّب إلى رأسه. زعم الجنود وجود العديد من الصور لاعتداءات مماثلة تبادلوها فيما بينهم فيما أسموه «ثقافة تبادل الصور»، لكن قيادات الجيش أتلفت تلك الصور حيثما وجدتها في حقائبهم عند مغادرتهم العراق.

في ١٢ مايو، ٢٠٠٥، أذاع برنامج (60 Minutes II)، إذاعة كولومبيا (CBS)، الذي يقدمه دان راذر فيديو منزليًا صنعه أحد الجنود الأمريكيون يكشف ما كانت عليه الأوضاع في سجن بوكا وأبو غريب. يُظهر الفيديو مدى احتقار جندية صغيرة لسجين عراقي حيث تقول: «لدينا سجينان ماتا بالفعل... لكن من يهتم؟ فهذا أقل ما أهتم لشأنه». اتُهم العديد من الجنود الآخرين الذين كانوا في سجن بوكا بالاعتداء على السجناء هناك، أخبروا راذر أن «المشكلة بدأت من تسلسل القيادة، تسلسل القيادة نفسه الذي كان مسؤولًا في أبو غريب عندما التقطت صور الاعتداءات هناك»[1].

مثال آخر موثق على فقدان السيطرة هذا يشمل جنود الفرقة ٨٢ من القوات المحمولة جوًا التي تمركزت في قاعدة العمليات الأمامية (ميركيري) بالقرب من الفلوجة، كانت مكان اعتقال مؤقت للمتمردين والأسرى قبل نقلهم إلى أبو غريب. «القتلة المجانين هو الاسم الذي أطلقه [مواطنو الفلوجة] علينا لأنهم يعرفون أنهم حال القبض عليهم واحتجازهم عندنا قبل ذهابهم إلى أبو غريب؛ سيكون سجنهم بمثابة الجحيم». يواصل هذا الرقيب روايته ليصف كيف كانوا يحطمون (الشخص الخاضع للسيطرة) [Person Under Control,] (PUC)] عن طريق ضربه أو تعذيبه بشدة، يواصل قائلًا: «الجميع في المعسكر كان يعرف

(١) تقرير شبكة (CBS) متاح على: http://www.cbsnews.com/news/a-gis-iraq-prison-video-diary/

أنك إذا أردت أن تنفّس عن إحباطك فكل ما عليك فعله هو الظهور في خيمة (PUC)، كان ترويحًا عن النفس بطريقة ما».

تحدث رقيب آخر من نفس الوحدة عن دوافعه للاعتداء الذي شمل كسر أقدام المعتقلين باستخدام مضرب بيسبول حديدي: «كنت في بعض الأيام أصاب بملل شديد، لذلك كنا نحبس الجميع في زاوية ثم نجعلهم يتكومون في شكل هرمي، كان هذا قبل أبو غريب ولكنه شبيه به تمامًا. فعلنا هذا من أجل الإثارة».

نقيب الجيش يان فيشباك (Ian Fishback)، ضابط في وحدة النخبة تلك، شهد لمنظمة مراقبة حقوق الإنسان (HRW) في سبتمبر ٢٠٠٥ باعتداءات كثيرة على السجناء كانت تحدث في ذلك السجن، كشف عن أن جنوده أيضًا كانوا يوثقون ما يفعلون بصور رقمية. «[في جبهة العمليات الأمامية ميركوري] قالوا إنهم كانت لديهم صور مماثلة لما حدث في أبو غريب لكن أتلفها الجنود، أحرقوها. ما قاله نصًا كان: «وقع الجنود في [أبو غريب] في المتاعب بسبب ما طلب منا القيام به، لذلك أتلفنا الصور»[(١)]. سوف نلتقي مع النقيب مرة أخرى في الفصل التالي حيث كان وصفه المفصل للاعتداءات التي ارتكبتها وحدته مماثلًا لتلك التي وقعت في الرصيف A1، باستثناء الاعتداءات الجنسية.



تشيب فريدريك مع الرجل «مغطى الرأس»، الصورة الأيقونية للتعذيب في سجن أبو غريب

(١) تلك التقارير وغيرها متاحة على موقع منظمة مراقبة حقوق الإنسان (HRW):
"Leadership Failure: Firsthand Accounts of Torture of Iraqi Detainees by U.S. Army's 82nd Airborne Division," September 24, 2005, available at http://hrw.org/reports/2005/us0905.

محاكمة إيفان فريدريك

بذل فريق المحققين والقضاة العسكريين جهدهم في إعداد قضايا أفراد الشرطة العسكرية السبعة المتهمين بحماس كبير. (لو كانت القيادة العسكرية المسؤولة في أبو غريب كرست، ولو جزءًا يسيرًا من هذا الاهتمام وهذه المصادر في مراقبة وحفظ الانضباط لما احتجنا إلى تلك المحاكمات). كانت خطتهم بسيطة ومُلزِمَة: بعد جمع الأدلة الكافية والشهادات سيساومون المُدّعى عليهم بحيث تُخفَّض أقصى العقوبات المحتمل إيقاعها بهم إنْ هم اعترفوا بالذنب وشهدوا على زملائهم في الشرطة العسكرية. بدأت المحاكمات بأقل الأفراد تورطًا مثل الجندي جيريمي سيفيتس «ليبدؤوا في التخلي عن بعضهم» وصولاً إلى الثلاثة الكبار: فريدريك وجرانر وإنجلاند.

وُجِّهَت لفريدريك خمس تهم، ولِيَفي بالجزء الخاص به من الصفقة قَبِل المتهم فريدريك جميع التهم الموجهة إليه على أنها صحيحة قابلة للإثبات، مُتفِقة مع الأدلة:

١ ـ التآمر على إساءة معاملة السجناء.

٢ ـ إهمال أداء الواجب.

٣ ـ إساءة معاملة المعتقلين.

٤ ـ التعدي بالضرب.

٥ ـ أعمال مشينة مع آخر. (المقصود هنا هو إجبار عدد من المعتقلين على ممارسة الاستمناء أمام الجنود ذكورًا وإناثًا وأمام معتقلين آخرين وتصويرهم أثناء ذلك).



فريدريك يجلس فوق أحد السجناء

المحاكمة

عُقدت محاكمة فريدريك في بغداد في ٢٠ و٣١ أكتوبر، ٢٠٠٤ على الرغم من تحرك مستشار الدفاع لنقلها إلى الولايات المتحدة، وحيث أنني رفضت الذهاب إلى مكان خطير مثل هذا، قدمت شهادتي في القاعدة البحرية في نابلس، إيطاليا، في مؤتمر مرئي في غرفة عالية التأمين. كان موقفًا صعبًا لأن شهادتي كانت متقطعة في البداية بسبب تأخر وصول الصوت. ثانيًا، كانت الصور الآتية من قاعة المحكمة تتوقف في بعض الأحيان مع صعوبة التحدث من خلال شاشة بدون أي تفاعل مباشر مع القاضي، وما زاد من صعوبة الأمر بعدُ أنهم طلبوا مني عدم استخدام أية ملحوظات مكتوبة أثناء تقديم شهادتي ما يعني: أنه عليّ استدعاء مئات الصفحات من ذاكرتي من خمسة تقارير استقصائية قرأتها بحرص شديد، إضافة إلى جميع المعلومات العامة الأخرى التي جمعتها عن فريدريك وأوضاع الرصيف A1.

بما أن فريدريك قد قَبِل بالفعل بالمساومة باعترافه أنه مذنب؛ كانت شهادتي مركزة بالكامل على تحديد المؤثرات النظامية والظرفية في سلوكه والتي تسببت بها لشاب صغير طبيعي للغاية بيئةٌ غير طبيعية. أوجزت أيضًا نتائج التقييم النفسي، الجوانب الإيجابية لشخصيته قبل تعيينه في الرصيف A1، ومقتطفات من لقاءات عقدتها معه. كل هذا الجهد كان يهدف لدعم فرضية أن فريدريك لم يأت بأية ميول مَرَضيّة إلى هذا السياق السلوكي؛ بل جادلت بأن الموقف قد أخرج سلوكيات شاذة تورط بسببها وهو يشعر بالأسف والذنب حيالها.

أوضحت أيضًا أن محاولتي فهم كيفية تأثُّر تصرُّفات فريدريك بديناميكيات اجتماعية ظرفيّة لا يعني تورطي في تبرير هذه التصرفات، ولكنها تحليلات مفاهيمية لا تؤخذ بالقدر الكافي من الجدية عادةً عند إصدار الأحكام القضائية. قمت كذلك من خلال تعريف المحكمة بخبراتي وعلاقتي بالأمر بإيجاز الخصائص الأساسية وبعض أوجه التشابه بين تجربة سجن ستانفورد وجو الاعتداءات في سجن أبو غريب. (شهادتي كاملة موجودة في الصفحات من ٢٩٤ إلى ٣٣٠ من «التفريغ النصي لمحاكمة فريدريك تشيب،» أكتوبر ٢٠٠٤، للأسف ليست متوفرة على الإنترنت).

أسقط المدعي الرائد مايكل هولي أطروحتي عن المؤثرات الظرفية تمامًا، قال: إن فريدريك يعرف الصواب من الخطأ وحصل على تدريب عسكري جيد لأداء المهمة، وأنه بشكل أساسي اتخذ قرارات بالتورط في سلوكيات غير أخلاقية مؤذية وهي المتهم بها وهو في كامل قواه العقلية، لذلك وضع كل اللوم على نوازع فريدريك لارتكاب الشرّ عن عمد، وقام بدفع أية مؤثرات نظامية أو ظرفية بعيدًا عن اعتبار المحكمة، وقال أيضًا: إن معاهدة جنيف كانت سارية فكان على هؤلاء الجنود إدراك قيودها. وهذا غير حقيقي كما سنرى في

الفصل التالي، فقد غيّر الرئيس بوش ومستشاريه القانونيين تعريف هؤلاء المعتقلين وتعريف التعذيب في مجموعة من المذكرات القانونية بما جعل معاهدة جنيف لاغية أثناء هذه «الحرب على الإرهاب».

الحكم

تطلب الأمر من القاضي العسكري العقيد جيمس بول (James Pohl) ساعة واحدة فقط حتى يصدر حكم مذنب بكل التهم المذكورة، وحُكم على فريدريك بالسجن لثماني سنوات. كان تأثير شهادتي في تخفيف شدة عقوبته ضعيفًا وكذلك كان الالتماس البليغ الذي قدمه المحامي جاري مايرز. كل العوامل النظامية والظرفية التي فصّلتُ القول فيها لم تكن ذات قيمة كبيرة في ساحة العلاقات الدولية العامة التي يديرها الجيش وإدارة بوش. كان عليهم أن يُظهروا للعالم وللشعب العراقي أنهم «يتعاملون مع الجريمة بحزم»، وأنهم سيقدمون على معاقبة تلك القلة الفاسدة من الجنود بسهولة، تلك «التفاحات الفاسدة» الموجودة في وعاء جيش الولايات المتحدة الصالح، فبمحاكمتهم والحكم عليهم وسجنهم فحسب ستزول تلك البقعة التي لطخت الجيش الأمريكي[1].

رفض تشارلز جرانر الاعتراف بأنه مذنب وحُكم عليه بعشرة سنوات. ليندي إنجلاند في سلسلة محاكمات معقدة حكم عليها بثلاث سنوات. حكم على جيريمي سفيتس بسنة واحدة، في حين حكم على جافال ديفيس بستة أشهر. حصلت سابرينا هارمان على حكم مخفف بستة أشهر نظرًا لمعاملتها الحسنة سابقًا للعراقيين قبل تعيينها في أبو غريب. أخيرًا، تم تسريح ميجان أمبول دون مدة تقضيها في السجن.

بعض المقارنات ذات الصلة

لا شك في أن التجاوزات التي تورط فيها تشيب فريدريك أحدثت ألمًا نفسيًا وعاطفيًا للسجناء المسؤول عنهم، وتسببت في مشاعر غضب وإهانة لذويهم. أقرّ بأنه مذنب وأُدين وحكم عليه بحكم قاسٍ، لكن من وجهة نظر العراقيين كان الحكم ضعيفًا للغاية. كان قاسيًا للغاية من وجهة نظري بناءً على العوامل التي كوّنت الاعتداءات وغذّتها. من المفيد أن نقارن الحكم الذي صدر بحقه بالحكم الذي صدر بحق جندي آخر في حرب أخرى حيث أُدين باعتداءات كبرى ضد مدنيين.

---

(١) ألغيت ستة أشهر من عقوبة الثماني سنوات المحكوم بها على تشيب فريدريك بأمر من الجنرال القائد، ثم طرح منها ثمانية عشر شهرًا بقرار من لجنة تطبيق الرأفة العسكرية ولجنة إطلاق السراح المشروط (أغسطس، ٢٠٠٦)، بناء على طلبات كثيرة وتبريرات للتساهل معه في إفاداتي وإفادات آخرين.

واحدة من البقع القديمة التي لوثت شرف جيش الولايات المتحدة الأمريكية حدثت أثناء حرب فيتنام عندما قام جنود سرية تشارلي (Charlie Company) بغزو قرية ماي لاي بحثًا عن مقاتلي الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام. لم يجدوا أحدًا هناك لكن الضغوط المزمنة والإحباط وخوف أولئك الجنود انعكس في صورة غضب لا يمكن تصوره حيال المدنيين المحليين. قتلوا أكثر من ٥٠٠ من النساء والأطفال وكبار السن الفيتناميين تحت وابل من الرصاص من مسافة قريبة وبحرقهم أحياء في أكواخهم، واغتُصبت الكثير من النساء ونُزعت أحشاؤهن بل وتعرض بعضهن للسلخ! سُجِّل وصف مريع لهذه الشناعات من قبل بعض الجنود في فيلم بعنوان [لقاء مع قدامى محاربي ماي لاي (Interviews With My Lai Vets)]. قدم سيمور هيرش تقريرًا مفصلًا عن الاعتداءات في كتابه (My Lai 4) الذي فضحهم أمام الرأي العام بعد سنة من الواقعة.

أدين جندي واحد فقط بتلك الجرائم هو الملازم ويليام كالي (William Calley). تمت تبرئة قائده النقيب إرنست مدينا (Ernest Medina) الذي كان موجودًا أثناء «مهمة ابحث واقتل» من كل التهم والذي ذكر أنه كان يطلق النار بنفسه على المدنيين، ثم استقال من الخدمة. كان النقيب مدينا، المعروف باسم: «الكلب المجنون»، فخورًا للغاية برجاله في سرية تشارلي زاعمًا: «أصبحنا أفضل سرايا الكتيبة». ربما كان هذا تسرعًا في الحكم سابقًا لأوانه.

أدين الملازم كالي بتهمة قتل أكثر من مئة مدني فيتنامي في ماي لاي عمدًا. خُفِّضَ الحُكم عليه من السجن مدى الحياة إلى ثلاث سنوات ونصف قضاها في ثكنة عسكرية تحت إقامة جبرية ولم يقضِ يومًا واحدًا في السجن، وأغلب الناس لا يعرفون أنه قد صدر بحقه عفو فيما بعد عن أعمال القتل الجماعي تلك وأعيد إلى مجتمعه ليصبح متحدثًا عامًا مقابل أجر ورجل أعمال بارز. هل كان الأمر ليختلف لو كان كالي مجرد مجند لا ضابط؟ هل كان سيختلف لو كانت هناك صور تذكارية أخذها جنود سرية تشارلي تعطي قوة وواقعية فشلت الكلمات التي وصفت تلك الوقائع في تقديمها؟ أعتقد هذا.

مجموعة أخرى من المقارنات ذات الصلة يحفزنا إليها جعلُ جنود الشرطة العسكرية يصطفون ضد جنود آخرين اتهموا مؤخرًا وحكم عليهم في المحاكم العسكرية لارتكابهم جرائم متعددة. صار جليًا أنه على الرغم من تشابه التهم أو كونها أسوأ، فإن الأحكام كانت أخف بكثير.

- ضابط الصف فريدريك: كانت أقصى العقوبة على الجرائم سجن ١٠ سنوات، وعزل غير شرفي، وتقليص إلى أدنى رتبة. بعد المساومة حُكم عليه بالسجن ٨ سنوات، وعزل غير شرفي، وتقليص إلى أدنى رتبة، ومصادرة كافة أمواله بما فيها مدخرات ٢٢ عامًا خاصة بالتقاعد.

• رقيب أول برايس: أدين بالاعتداء، وإساءة المعاملة، وتعطيل العدالة. أقصى العقوبة: سجن ٨ سنوات، وعزل غير شرفي، وتقليص إلى أدنى رتبة. تلقى عقوبة بالرد إلى رتبة رقيب، ولم يسجن، ولم يعزل.

• العريف جرانر: أدين بالاعتداء، وإساءة المعاملة، والتآمر غير اللفظي، وبارتكاب أعمال مشينة، وإهمال الواجب. أقصى العقوبة: سجن ١٥ سنة، وعزل غير شرفي، وتقليص لأدنى رتبة. تلقى عقوبة السجن ١٠ سنوات، وعزلًا غير شرفي، وردًا إلى أدنى درجة، وغرامة.

• العسكري براند: أدين بالاعتداء، وإساءة المعاملة، واليمين الزور، والتشويه. أقصى العقوبة: سجن ١٦ سنة، وعزلًا غير شرفي، وردًا إلى أدنى رتبة. تلقى عقوبة الرد إلى أدنى رتبة فقط.

• الجندية إنجلاند: أدينت بالتآمر، وإساءة المعاملة، والأعمال المشينة. أقصى العقوبة: السجن ١٠ سنوات، وعزلًا غير شرفي، وردًا إلى أدنى رتبة. تلقت عقوبة السجن ٣ سنوات.

• النقيب مارتين: أدين بالاعتداء الخطير، والاعتداء، وتعطيل العدالة، وسلوك لا يليق بضابط. أقصى العقوبة: سجن ٩ سنوات. تلقى عقوبة السجن ٤٥ يومًا.

إذًا، يتضح تمامًا أن ميزان العدالة العسكرية لم يكن عادلًا في تلك الجرائم المتشابهة. أعتقد أن الصور التذكارية أضافت ثقلًا كبيرًا لتحيز القرارات القانونية ضد أفراد الشرطة العسكرية من النوبة الليلية. لمجموعة أكبر من تلك المقارنات وقائمة من ٦٠ جنديًا حوكموا عسكريًا ونوازعهم وكذلك توضيحات للتاريخ عن اعتداءات أبو غريب، من فضلك ارجع إلى موقع: www.supportmpscapegoats.com.

تحوّل حارس السجن إيفان فريدريك إلى السجين رقم ٧٨٩٦٨٩

تركيزنا في محاولة فهم **تأثير الشيطان** كان على فهم تحولات السمات الإنسانية. ربما يكون التحول من مكانة حارس السجن إلى سجين عاجز واحدًا من أكثر التحولات قسوة وندرة. تلك هي بكل أسف حالة من كان ضابطًا إصلاحيًا جيدًا وجنديًا مخلصًا وزوجًا محبًا. فقد صعقه وربما حطمه الحكم الذي أصدرته المحكمة العسكرية ضده، ثم المعاملة القاسية التي تعرض لها بعد ذلك في الحجز. اختُزل تشيب فريدريك الآن في الرقم ٧٨٩٦٨٩ بصفته سجينًا في سجن (Warehouse Road) في الثكنات التأديبية الخاصة بالولايات المتحدة في فورت ليفنورث (Fort Leavenworth). بعد الحكم عليه في بغداد نقل تشيب إلى الكويت حيث وضع في عزل انفرادي مع أنه لم يمثل أية خطورة لا على

نفسه ولا على غيره، ويصف الأوضاع هناك بأنها تذكره بأرصفة أبو غريب، لكن ساء حاله عندما نقل إلى السجن في ليفنورث.

الآن تحسَّنت معاملة فريدريك تشيب بعد انتهاء كافة محاكمات سجن أبو غريب. صار يذهب إلى مدرسة تعليم الحلاقة في السجن لأنه لن يعود إلى عمل الضابط الإصلاحي مرة أخرى. «كم أود العودة إلى الجيش لأثبت ذاتي، سأكون ذلك الشخص الذي لا يتنازل عن شيء من شخصيته ويصنع فارقًا... كنت مستعدًّا تمامًا للموت في سبيل وطني وعائلتي وأصدقائي. أردت أن أصنع الفارق... أنا فخور بأنني قضيت معظم حياتي بوصفي رجلًا بالغًا في خدمة بلدي»[1].

هل لاحظت التشابه مع ستيو ٨١٩ سجين تجربة سجن ستانفورد الذي أصرّ على العودة إلى السجن ليري زملاءه أنه ليس سجينًا سيئًا؟ يذكرنا هذا أيضًا بالتجربة الكلاسيكية في علم النفس الاجتماعي التي كشفت أن ولاء الفرد للمجموعة يكون أكبر كلما زادت معاناة الالتحاق بها[2].

ملحوظات أخيرة

سننتقل في الفصل التالي من تركيزنا على الجنود بصفتهم أفرادًا متورطين في إطار سلوكي همجي إلى النظر في الدور الذي لعبه النظام في خلق ظروف غذت الاعتداءات والتعذيب في أبو غريب والعديد من السجون العسكرية الأخرى. سنفحص تعقيدات المؤثرات النظامية المؤثرة في صناعة وحفظ «ثقافة التعدي». سنراجع أولًا مقتطفات من العديد من التحقيقات العسكرية المستقلة في تلك الاعتداءات، سيسمح لنا هذا بقياس مدى اعتبار تلك التحقيقات للمتغيرات النظامية كإخفاق القيادة وضعف أو غياب التدريب المُتَخَصِّص للمهمة وضعف الموارد وأولويات الاستجواب - الاعتراف؛ بصفتها عوامل أساسية فيما حدث في النوبة الليلية في أبو غريب، ثم سنفحص بعد ذلك تقارير منظمة مراقبة حقوق الإنسان (HRW) في اعتداءات أخرى مشابهة وأخرى أسوأ واعتداءات أبلغ عنها ضباط من قوات النخبة ٨٢ المحمولة جوًّا في العراق. سنوسع من بحثنا لنحقق في الأساليب التي صنع بها الجيش وتسلسل القيادة في الحكومة ظروفًا مشابهة في سجون عسكرية أخرى لتسهيل «الحرب على الإرهاب» خاصتهم، وكذلك «الحرب على التمرد»، سنفعل هذا باستخدام لقاءاتٍ وتحليلاتٍ أذيعت في وثائقي برنامج (Frontline) على محطة

---

(١) تواصل شخصي، ١٢ يونيو، ٢٠٠٥.

(٢) E. Aronson and J. Mills, "The Effect of Severity of Initiation on Liking for a Group," *Journal of Abnormal and Social Psychology* 59 (1959): 177-81.

(PBS) بعنوان «مسألة التعذيب (A Question of Torture)» في (١٨ أكتوبر، ٢٠٠٥)، والذي فصّل دور إدارة بوش وتسلسل القيادة في الجيش في السماح بتلك الاعتداءات في سجن خليج جوانتانامو ثم نقلها إلى أبو غريب وغيره.

سأبدل الأدوار من خبير سلوكيات تحول إلى صحفي استقصائي في هذا الفصل إلى مُدَّعٍ قانوني في الفصل التالي. سأتهم أعضاءً مختارين من تسلسل القيادة في الجيش بإساءة استخدام صلاحياتهم لتفعيل التعذيب في سجن خليج جوانتانامو، ثم باستيراد تلك التكتيكات في أبو غريب. لقد أعطوا تصريحًا للشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية بتوظيف تكتيكات التعذيب تلك تحت أسماء مستعارة وأخفقوا في توفير القيادة والمراقبة والمساءلة والتدريبات المتخصصة الضرورية لأفراد الشرطة العسكرية في النوبة الليلية في الرصيف A١، سأجادل بأنهم من أجل هذا مذنبون بخطيئتي المشاركة والإغفال.

من خلال وضع النظام أمام محاكمة افتراضية سننتهي إلى وضع الرئيس بوش ومستشاريه موضع الاتهام بسبب إعادة تعريفهم للتعذيب بأنه تكتيك مقبول وضروري في حربهم الشاملة الضبابية ضد الإرهاب، وهم أيضًا متهمون بحرمان المتمردين وكل «الأجانب» المعتقلين عسكريًا من الحقوق المكفولة لهم بموجب معاهدة جنيف. وزير الدفاع رامسفيلد متهم أيضًا بصناعة مراكز استجواب يخضع فيها «المعتقلون» لمجموعة من «الاعتداءات» شديدة التعسف لهدف غير مُتيقَّن بالحصول على اعترافات ومعلومات، وربما يكون مسؤولًا عن انتهاكات أخرى للمعايير الأخلاقية الأمريكية مثل «إسناد تعذيب» المعتقلين ذوي القيمة العالية إلى دول أجنبية وفقًا لبرنامج «التسليم الاستثنائي».

أتعمد بيان أن النظام من بوش إلى تشيني إلى رامسفيلد نزولًا في هرم القيادة؛ قد أرسى أسس هذه الاعتداءات، وإذا كانت الأمور تسير بهذا الشكل فإن هذا معناه أن مجتمعنا الديمقراطي لا يزال أمامه عمل كثير قبل أن يتأكد من عدم وقوع أية تجاوزات في المستقبل، وذلك من خلال الإصرار على تعديل النظام للخصائص الهيكلية والسياسات التنفيذية المتبعة في مراكز الاستجواب.

أخيرًا، أدرك أن تشديدي على أوجه التشابه بين تجربتنا الصغيرة في سجن ستانفورد والواقع الخطر لسجون مناطق الحرب قد يبدو مبالغًا فيه لدى بعض القراء. ليست الاختلافات المادية هي التي تعنينا ولكن الديناميكيات النفسية الأساسية القابلة للمقارنة في كليهما[1]. أود أن أشير أيضًا إلى أن العديد من المحققين المستقلين قاموا بتلك المقارنات

---

(١) ذكر لي ضابط في الجيش، «أنا نفسي استخدمت مصطلح «الشبه بستانفورد» عندما كنت أريد توصيف السلوكيات السادية غير المعهودة من جهة الأشخاص المسؤولين عن غيرهم».

مثل تقرير شليزنجر [المقتبس منه في بداية هذا الفصل] وتقرير متخصص الشيفرات السابق في البحرية ألان هينسلي في تحليله للمدعى عليهم المتهمين بتلك الاعتداءات حيث يقول:

«في حالة أبو غريب لدينا نموذج مفصل في دراسة زيمباردو المبنية على عوامل تكاد تكون مطابقة وأدلة تجريبية موجودة مسبقًا تفيد التنبؤ بيقين شبه تام بالأحداث التي سوف تقع بدون أي اتفاق على تنفيذها بين المشاركين»[١].

أود إنهاء هذه المرحلة من رحلتنا بتحليل رئيس مجلس إدارة مجلة نيوزويك في بغداد، رون نورلاند، لما يعتقد أنه سار بشكل خاطئ في حرب بدأت بنوايا حسنة:

«ما الذي سار بشكل خاطئ؟ الكثير، لكن فضيحة أبو غريب كانت أكبر نقطة تحول، فقد تسبب الاعتداء على السجناء امتناع قطاع عريض من الشعب العراقي عن تأييد أمريكا، وفوق كل هذا لم تنجح هذه الأساليب. لا توجد أدلة على أن إساءة المعاملة والإهانة بهذا القدر أدت إلى حماية حياة أمريكي واحد أو قادت إلى القبض على مزيد من الإرهابيين على الرغم من مزاعم الجيش بأن السجن قد استخلص «معلومات كافية للتدخل»»[٢].

---

(١) هينسلي (Hensley) هو خبير موثق في اضطراب الكرب وطبيب مجاز من الأكاديمية الأمريكية لخبراء اضطراب الكرب النفسي، وهو الآن مستشار للعمليات النفسية وضد الإرهاب في الحكومة الفدرالية. هينسلي (Hensley) يدرس الدكتوراه في جامعة (Capella) في تخصص اضطراب ما بعد الكرب، درس اعتداءات سجن أبو غريب بإسهاب. كان مما قاله: «يمكن أن نؤكد مصداقية التأكيدات الموجودة في تلك الورقة بناء على تحليل مجموعة تمثل المدعين، فلو كانت هناك صلة بين بيانات متشابهة فإن هذا يمكن أن يشير إلى صلاحية تأثير زيمباردو في منشأة أبو غريب للسجن، مما يفسر السلوك المنحرف».

(p. 51). A. L. Hensley. "Why Good People Go Bad: A Psychoanalytic and Behavioral Assessment of the Abu Ghraib Detention Facility Staff".

قدمت خطة الدفاع إلى مجلس دفاع المنطقة في واشنطن العاصمة، ١٠ديسمبر، ٢٠٠٤.

(٢) R. Norland, "Good Intentions Gone Bad," *Newsweek*, June 13, 2005, p. 40.

الفصل الخامس عشر

محاكمة النظام: تورط القيادة

مهّدت التصريحات الختامية للمدعي العام للجيش الرائد مايكل هولي في محاكمة الرقيب إيفان فريدريك - والتي اتسمت بنبرة وطنية - الطريق أمام تحليلاتنا عن استخدام التعذيب ضد «المقاتلين غير الشرعيين» والمعتقلين في السجون العسكرية في العراق وأفغانستان وكوبا:

«وسأذُكِّرَك يا سيدي الكريم بأن العدو مثلنا تمامًا، يُقاتل في سبيل مبدأ أخلاقي، ومن الممكن أن يكون هذا هو حال جميع أعدائنا الآن وفي المستقبل. وسأطلب منك أيضًا أن تُفكِّر في الأعداء الذين يمكن أن يستسلموا لنا في المستقبل، هذه هي النتيجة المثالية التي نُريدها. نريدهم أن يشعروا بالخوف أمام القوة العسكرية لجيش الولايات المتحدة الأمريكية بما يجعلهم يستسلمون ويخضعون، لكن إذا عرِف الأسير أو العدو أنه سيتعرض إلى معاملة مهينة، فما الذي سيجعله إذًا يتوقف عن القتال حتى آخر أنفاسه؟ وأثناء القتال، أليس مُحتملًا أن تُسلب حَيَوَات بعض جنودنا؟ حياة أفراد نقدر على حمايتها فقط بتغيير سلوكياتنا؟ هذا السلوك [سلوك فرد الشرطة العسكرية المُتَّهَم بممارسة التعذيب] له تأثير طويل المدى، له تأثير على الجنود العاديين، والمُشاة، والقوات الخاصة، والمارينز، والطيارين الذين من الممكن أن يتعرضوا للأسر في المستقبل وعلى المعاملة التي سيتلقونها، وسأتوقف هنا».

استمر المدعي العام في توضيح أن كرامة الجيش هي التي تتعرض للخطر في محاكمة «الجنود السبعة العاملين في سجن أبو غريب»:

«أخيرًا يا سيدي، فإن كرامة جيش الولايات المتحدة عزيزة وغالية. لدينا ثقة مُقدَّسة في أن جيش الولايات المتحدة فوق كل الجيوش، جيشنا. فنحن نحمل المسؤولية الكبيرة ونملك القدرة، القدرة على استخدام القوة ضد الآخرين. والشيء الوحيد الذي يفصل بيننا وبين فرض قوتنا بظلم والتحول إلى خصوم أو عصابة مجرمة هو أننا نشعُر بشرف فعل الشيء الصحيح، نتبع تلك الأوامر التي تُوجَّه لنا ونقوم بالعمل

المُشرِّف، وهذا السلوك [الاعتداء والتعذيب في سجن أبو غريب] يحطّ من شرفنا. ونحن كأي جيش آخر، نريد أساسًا أخلاقيًا راقيًا نتجمع حوله نحن أيضًا»[١].

كانت تصريحاتي الختامية في محاكمة فريدريك تلقائية وغير مكتوبة. مهّدت فيها لبعض المواضيع الرئيسية التي سنناقشها في هذا الفصل، والتي توفر مساحة كاملة لطرح موضوع الحضور القوي للمؤثرات الظرفية والنظامية الشديدة في تلك الاعتداءات. ومنذ جلسة المحاكمة في (أكتوبر ٢٠٠٤)، ظهرت أدلة إضافية تؤكد تمامًا تورط مجموعة من قيادات الجيش في الاعتداءات والتعذيب على الرصيف A1 في سجن أبو غريب. إليك نص حديثي:

«تُشير تقارير فاي وتقارير تاجوبا إلى أن منع هذا [الاعتداء] كان ممكنًا لو أدرك أفراد الجيش احتمالية تعرضهم لتلك المحاكمات، في هذه الحالة ما كانت أحداث أبو غريب لتقع، لكن القيادات تعاملت مع سجن أبو غريب بلا اكتراث، لم يكن من ضمن أولوياتهم كالمتحف المعماري في بغداد من قبل [الذي نهبت ثرواته بعد «تحرير» بغداد والجنود يشاهدون بلا مبالاة]، كانت لهما أولوية منخفضة [بالنسبة للجيش] في ظلّ أوضاع مؤسفة. لذلك أعتقد أن الجيش هو الذي يُحاكَم، خاصة الضباط الأعلى رُتبة من الرقيب فريدريك، من كان لزامًا عليهم إدراك ما يحدث، ثم وقفه، كان عليهم التصدي لهذا، هم من يجب أن يحاكموا. أو إذا كان الرقيب فريدريك مسؤولًا إلى حدٍّ ما، أيًا كان الحكم الذي سيصدر ضده، أعتقد أنه يجب تخفيفه بسبب مسؤولية تسلسل القيادة بالكامل»[٢].

في هذا الفصل سنمضي في العديد من الاتجاهات التي ستكشف لنا ما خلف الستارة السوداء التي وضِعَت لإخفاء الدور المحوري للعديد من اللاعبين الرئيسيين في دراما أبو غريب من المخرجين وكتّاب النص ومديري المسرح الذين جعلوا تلك المسرحية المأساوية ممكنة. بطريقة ما لم يكن أفراد الشرطة العسكرية سوى مُمَثّلين ثانويين، أو «ست شخصيات تبحث عن مؤلف»، أو مخرج.

مهمتنا هي تحديد المؤثرات النظامية الخارجية بالنسبة للموقف داخل موقع الاستجواب العنيف في سجن أبو غريب. علينا تحديد كافة الأطراف على مستوى القيادة التي تورطت في صناعة المواقف والظروف المؤثرة في انهيار إنسانية أفراد الشرطة العسكرية

---

(١) إفادة ختامية في ٢١ أكتوبر، ٢٠٠٤، من الرائد مايكل هولي (*Michael Holley*) أثناء المحاكمة العسكرية للرقيب فريدريك تشب في بغداد، ٢٠ و٢١ أكتوبر، ٢٠٠٥، صفحات ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢) رأيي الختامي المُرتجل، ٢١ أكتوبر، ٢٠٠٤، ص. ٣٢٩.

هؤلاء. من خلال عرضنا للتسلسل الزمني لتلك القوى المتداخلة سأُبَدِّل دوري لأتحول من شاهد دفاع خبير إلى مُدَّعٍ. في هذا الدور، سأقدم نوعًا جديدًا من الشر الحديث، «الشر الإداري»، الذي يشكل أساس تورط سلسلة القيادة السياسية والعسكرية في وقائع الاعتداء والتعذيب تلك[1]. يمكن أن تتسبب المؤسسات العامة أو الخاصة على حد سواء بتعذيب بل وقتل الناس؛ لأنها تعمل داخل إطار قانوني لا إطار أخلاقيّ، وذلك على يد من يتبعون العقلانية الباردة في تحقيق أهداف أيديولوجياتهم وخطتهم الكبرى من خلال معادلة التكلفة والربح، أو الحد الأدنى من الربح. في هذه الأوضاع، تجد هؤلاء يُبرِّرون غايتهم.

التحقيق في اعتداءات أبو غريب يكشف أخطاء النظام

أجرى البنتاجون اثنَي عشرَ تحقيقًا على الأقل استجابة لتقارير تفيد بحدوث اعتداءات لا في أبو غريب فحسب، ولكن في السجون العسكرية في كل أرجاء العراق وأفغانستان وكوبا. راجعت عن كثب نصف تلك التقارير تجهيزًا لدوري في الدفاع عن العريف إيفان فريدريك. في هذا القِسْم من الكتاب سأوجز بترتيب زمني بعض التقارير الرئيسية وأوضح استنتاجاتها عن طريق وضع بعض الاقتباسات منها كما هي بدون تصرُّف. سيوفر لنا هذا فهمًا لكيفية تقييم كبار المسؤولين في الجيش والحكومة قضايا التعذيب والاعتداء. ولأن جميع تلك التقارير باستثناء تقرير واحد كانت بناءً على طلب من الجيش وفق تعليمات محددة بالتركيز على المرتكبين؛ أخفق معظمها في توجيه اتهامات للقيادات العسكرية والسياسية بسبب دورها في خلق الظروف والمواقف التي

---

(١) «الشرّ الإداري» تجده في تركيز عملاء الوكالة على الإجراءات الصحيحة، فالإجراءات الصحيحة هي الوسائل الأكثر فاعلية للوصول إلى الغاية. يقوم هؤلاء الإداريون بهذا بلا إدراك لكون هذه الوسائل التي يستخدمونها بعيدة عن القيم وغير قانونية وغير أخلاقية، وهم غافلون عن واقع هذه الاعتداءات وعن العواقب الشنيعة التي تصنعها سياساتهم وممارساتهم. أولئك المدانون بالشر الإداري يمكن أن يكونوا شركات، شرطة أو قطاعات إصلاحية، أو جيش أو مراكز حكومية، وكذلك المجموعات الثورية الأصولية.

كما رأينا منذ أربعين سنة في نهج روبيرت مكنامارا (*Robert McNamara*) في حرب فيتنام؛ فإن الاعتماد على عقلية علمية تحليلية مع نهج تقني - منطقي - تشريعي في القضايا الاجتماعية والسياسية يفتح المجال لمؤسسةٍ ما وأعضائها بالتورط في شر مقنّع تختفي أخلاقيته. نرى أحد مظاهر هذا في سماح الدولة لوكلائها بالتورط في أعمال تعد في الظروف العادية بعيدة عن القيم، غير قانونية، وشريرة، وذلك بإعادة صياغتها على أنها ضرورية للدفاع عن الأمن القومي. تمامًا كما حدث في الهولوكوست وفي اعتقال اليابانيين للأمريكيين أثناء الحرب العالمية الثانية باعتبارها أمثلة على الشرور الإدارية، وكذلك برنامج التعذيب الذي وضعته إدارة بوش في «حربها على الإرهاب» من وجهة نظري.

هذا المفهوم العميق «للشر الإداري» طوره جي ب. أدامز (*Guy B. Adams*) وداني ل. بالفور (*Danny L. Balfour*) في كتابهما المثير للجدل:

Unmasking Administrative Evil, re. ed. (New York: M. E. Sharpe, 2004).

تسببت في تلك الاعتداءات. الاستثناء الوحيد كان تقرير شليزنيجر الذي طلبه وزير الدفاع رامسفيلد.

النظر إلى أسفل عبر تسلسل القيادة وليس إلى أعلى في تلك التقارير يجعلها ضيقة الأفق، لكنها توفر لنا نقطة انطلاق في دعوانا ضد تسلسلات الإدارة العسكرية، وهي الدعوى التي سنؤيدها بعد ذلك بمواد إضافية وتقارير فرعية لجنود شهود تورطوا في التعذيب بأنفسهم[1].

كانت تقارير رايدر هي أول علامة تحذيرية

قام ضابط الجيش، قائد الشرطة العسكرية دونالد رايدر (Donald Ryder)، برتبة عميد بتجهيز أول التقارير في (٦ نوفمبر، ٢٠٠٣) بأمر من اللواء سانشيز. عُيِّن رايدر في أغسطس رئيسًا لفريق تقييم بناءً على طلب من وحدة البحث الجنائي العسكرية، قوة المهام المشتركة (٧) (CJTF-7)، وإدارة الخدمات الدفاعية المتعددة (DoD)، وفرقة مهام تشمل أفرادًا من الجيش والبحرية والمارينز والقوات الجوية والمدنيين العاملين في وزارة الدفاع.

شمل هذا الملف مراجعة لمنظومة السجون في العراق بالكامل وقدّم توصيات لتحسينها. في النهاية خلُص رايدر إلى وجود انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان، وكذلك عجز في الموارد البشرية وفي التدريب على نطاق واسع. أثار تقريره مخاوف حيال عدم وضوح الحدود بين الشرطة العسكرية التي كان منوطًا بها حماية السجناء وبين المخابرات العسكرية وهي الفِرَق المخصصة لاستجواب السجناء، فقد سجَّل أن أفراد المخابرات العسكرية حاولوا تجنيد أفراد الشرطة العسكرية ليشتركوا في أنشطة هدفها «تجهيز» السجناء للاستجواب.

تعود هذه العلاقة المشوشة بين الشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية إلى أيام حرب أفغانستان، الحرب التي تعاونت فيها الشرطة العسكرية مع المخابرات العسكرية على «إعداد ظروف مناسبة للقاءات قادمة» كناية عن كسر إرادة السجناء. دعا رايدر إلى تثبيت الإجراءات «تحديد دور جنود الشرطة العسكرية... والفصل بوضوح بين أفعال الحراس وأفراد المخابرات العسكرية»، كان على تقريره أن يذهب إلى كل المسؤولين عن أنظمة السجون العسكرية.

---

(١) للاطلاع على التسلسل الكامل لاعتداءات سجن أبو غريب والترتيب الزمني للأحداث والتقارير الاستقصائية، ينظر أحد المصادر الجيدة التي يمكن الاعتماد عليها وهو متاح على:

www.globalsecurity.org/intell/world/iraq/abu-ghurayb-chronology.htm.

وعلى الرغم من إسهامه القيِّم فقد «قلّل رايدر من أهمية تحذيره»، وفقًا للصحفي سيمور هيرش، «لأنه انتهى إلى أن الموقف لم يصل بعد إلى حد الأزمة على الرغم من أن بعض الإجراءات كانت معيبة، قال: «لا وجود لشرطة عسكرية تمارس عن عمد أساليب احتجاز غير لائقة». تذكر ذلك التقرير الذي ظهر أثناء وقوع أشد الاعتداءات في شتاء ٢٠٠٣ على الرصيف A1، لكن قبل كشف الجندي المتخصص جو داربي في ١٣ يناير، ٢٠٠٤. كشفت مقالة هيرش في مجلة نيويورك تايمز في ٥ مايو، ٢٠٠٤ عن الفضيحة وقالت عن تقرير رايدر «كان التحقيق الذي أجراه عبارة عن فشل تام في أفضل الأحوال وفي أسوءها مجرد غطاء»[١].

كان تقرير تاجوبا شاملًا وقاسيًا[٢]

بمجرد ظهور تلك الصور البشعة على السطح ووصولها للقيادات العليا للجيش وفريق التحقيق الجنائي في يناير ٢٠٠٤؛ اضطر الجنرال سانشيز إلى التحرك بعيدًا عن عمل رايدر الهادف للتغطية. اختير العميد أنتونيو م. تاجوبا لإجراء تحقيقات أكثر توسعًا في مزاعم الاعتداء على المعتقلين ومحاولات الهروب غير المُسَجَّلة للسجناء والإخفاق الواسع في الانضباط والمحاسبة. قام تاجوبا بعمل مثير للإعجاب من حيث إجراء تحقيقات مُفَصَّلة ومُوسَّعة أُعلِنَت نتائجها في مارس ٢٠٠٤. وعلى الرغم من أن نتائج هذه التحقيقات كان من المفترض أن تظلّ سِريّة إلا أنها شملت اتهامات مباشرة للضباط بالإهمال في تأدية واجبهم تُعادِل اتهامات أخرى قوية ضد ضباط زملاء، واحتوت على بعض الأدلة و«الصور»، مما أضعف من فُرَص عدم تسربها إلى وسائل الإعلام (ربما مقابل أموال طائلة).

تم تسريب تقرير تاجوبا إلى جريدة نيويوركر، وكُشِف عن نتائجه الأساسية والصور في تحقيق هيرش الصحفي، لكن هذا لم يحدث إلّا بعد تسريب الصور أولًا إلى منتجي برنامج (60 Minutes II) وعرضها في ٢٨ أبريل، ٢٠٠٤. (ستذكر أن هذا هو ما دعاني إلى بدء هذه المغامرة).

لم يهدر تاجوبا أي وقت في رفض تقرير زميله الجنرال: «بكل أسف، فإن العديد من

---

(١) فضح الصحفي الاستقصائي سيمور هيرش (*Seymour Hersh*) قصة اعتداءات أبو غريب في مقاله: "Torture at Abu Ghraib. American Soldiers Brutalize Iraqis: How Far Up Does the Responsibility Go? *The New Yorker*, May 5, 2004, p. 42.

متاح على: Http://www.newyorker.com/magazine/2004/05/10/torture-at-abu-ghraib

(٢) متاح على: Http://news.findlaw.com/nytimes/docs/iraq/tagubarpt.html#ThR1.14

المشكلات النظامية في تقييم [رايدر] هي نفس القضايا التي تخضع لهذا التحقيق»، كتب: «في الحقيقة، العديد من تلك الاعتداءات التي عانى منها المعتقلون وقعت أثناء وقت إجراء التقييم وقريبًا منه». يواصل التقرير: «على عكس نتائج تقرير العميد رايدر، أجد أن لدى الأشخاص المُعيَّنين في سرايا الشرطة العسكرية (372nd)، و(800th) أوامر بتغيير إجراءات عمل المُنشأة لإعداد الظروف المطلوبة لإجراء تحقيقات المخابرات العسكرية». أوضح تقريره تمامًا أن ضباط المخابرات العسكرية، والمخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، ومتعاقدين مخصوصين، وبعض الوكالات الحكومية الأخرى «طلبوا من أفراد الشرطة العسكرية تجهيز ظروف مادية وذهنية تُسهِّل استجواب الشهود».

لتأكيد هذه الاتهامات اقتبس تاجوبا تصريحات أقسم على صحتها العديد من الحراس حول تورط أفراد المخابرات العسكرية والمُحقِّقين الذين نفّذوا الاستجوابات.

قالت الجندية المُتَخَصِّصة سابرينا هارمان من سرية الشرطة العسكرية (372nd) في تصريحها الذي أقسمت على صحته بخصوص حادثة وَضْع المعتقل فوق صندوق خشبي مع توصيل أسلاك كهربائية بأصابع يده وأصابع قدمه وعضوه التناسلي «أن مهمتها كانت إبقاء المُعتقَل مستيقظًا»، قالت: «كانت المخابرات العسكرية تتحدث مع مسؤول التعذيب [كذا]، كانت المخابرات العسكرية تريد منهم أن يتكلموا، وكانت مهمة مسؤول التعذيب وكذلك فريدريك هي تنفيذ بعض الأمور لصالح المخابرات العسكرية ووكالات حكومية أخرى لجعل هؤلاء الناس يتكلمون».

قدَّم تاجوبا شهادة العريف جافال دافيز حول ما رآه بخصوص تأثير المخابرات العسكرية ووكالات حكومية أخرى على أفراد الشرطة العسكرية:

«شاهدت السجناء في قسم المخابرات العسكرية، الجناح A1، يُجْبَرُوْن على القيام بأمور مختلفة أُشَكِّك فيها من الناحية الأخلاقية. كان يقال لنا في الجناح A1 أن لهم قواعد مختلفة عن [الإجراءات التشغيلية القياسية (Standard Operational Procedures, SOP)] في المعاملة. لم أر أبدًا أية قواعد ولا القواعد القياسية في هذا المكان، ليس إلا حديث الجندي المسؤول عن A1 العريف جرينير [كذا][1]. قال بأن الوكلاء والمخابرات العسكرية طلبت منه تنفيذ بعض الأمور، لكن لم يحدُث هذا كتابةً حتى لا يتمكن من تقديم أية شكاوى [كذا]». عندما سُئِل عن سبب اختلاف القواعد في B1/A1 عن بقية الأجنحة، قال العريف دافيز: «كان السجناء في بقية الأجنحة سجناء عاديين بينما

(١) ما بين المعقوفين إضافة من المؤلف لبيان التزامه بالنقل الحرفي، وإلا فالصحيح أن اسم العريف تشارلز جرانر (Charles Graner) (المحرر).

الموجودين في AI/BI هم معتقلون من قبل المخابرات العسكرية». عندما سئل عن سبب عدم إبلاغه القيادة عن تلك الانتهاكات قال العريف دافيز: «لأنني افترضت أنهم لم يكونوا يتصرفون من تلقاء أنفسهم، بالتأكيد هناك من تحدث معهم. [لاحظ شر التقاعس يعمل مرة أخرى]. كذلك فإن الجناح يعود إلى أفراد المخابرات العسكرية الذين كانوا يَظْهَرُون هناك ويُصَدِّقون على الاعتداءات». قال العريف دافيز أيضًا أنه سمع أفراد المخابرات العسكرية يوسوسون للحراس بالاعتداء على السجناء. عندما سُئِل عما قاله فرد المخابرات العسكرية قال: «ألينوا هذا الشاب لأجلنا». «تأكدوا من حصوله على ليلة سيئة». «تأكدوا من أنه تلقى المعاملة المناسبة». قال بأن هذه التعليقات وُجِّهَت إلى العريف جرينير [كذا] وكذلك الرقيب فريدريك. أخيرًا قال العريف دافيز: «بحسب ما فهمت كان أفراد المخابرات العسكرية يشكرون الرقيب على طريقة تعامله مع سجنائهم. من الأمثلة على ما كانوا يقولون له: «عمل جيد، إنهم ينهارون بسرعة، إنهم يجيبون عن جميع الأسئلة، إنهم يعطوننا معلومات مفيدة، أخيرًا»، حافظ على عملك الجيد، أشياء من هذا القبيل».

تُذكِّرنا تصريحات الجندي المتخصص جاسون كينيل من السرية (372nd) بحُرّاس تجربة سجن ستانفورد وهم يسحبون مراتب السجناء، والملاءات والملابس والوسائد على خلفية انتهاكهم القواعد:

«رأيتهم عرايا، لكن أفراد المخابرات العسكرية يأمروننا بسحب المراتب الخاصة بهم والملاءات والملابس». لا يتذكر من مِن أفراد المخابرات العسكرية وجَّهَهُ للقيام بهذا، لكن قال معلقًا: «لو أرادوا مني تذكُّر هذا كان عليهم إعطائي أوامر مكتوبة»، وبعد كل هذا يقولون له: «لم تنجح في فعل أي شيء يشعر السجناء بالعار».

كان هذا مثالًا واحدًا على التناقضات المستمرة في واقع الموقف الذي يحدُث فيه الاعتداء، والتشجيع غير الرسمي لأفراد الشرطة العسكرية على الاعتداء على السجناء من قبل أفراد المخابرات العسكرية ووكلاء آخرين موجودين على هذا الرصيف، كانوا يعطون أوامر شفهية مباشرةً من أحد جانبي الفم، ومن الجانب الآخر تقول التصريحات الرسمية «لا يمكننا التغاضي عن تعذيب السجناء أو السماح بغير معاملتهم بطريقة إنسانية»، وقد خلق هذا السلوك فيما بعد حالة إنكار مقبولة منطقيًّا.

حدد تقرير تاجوبا أن القيادات العسكرية العليا التي علِمت بأمر الاعتداءات المفرطة ضد السجناء طلبت إجراء محاكمة عسكرية، لكنها لم تتابع الأمر أبدًا. تراخيهم مع علمهم بالاعتداءات كان بمثابة تأكيد على أن أحدًا لن يدفع ثمن التعدي على السجناء.

نحن أمام إخفاق في التواصل والتعليم وتوفير القيادة

قدّم تاجوبا العديد من الأمثلة على عدم تدريب أفراد احتياط الشرطة العسكرية بالشكل اللائق، وعدم توفير مصادر المعلومات التي قد يحتاجونها للتصرف في المواقف التشغيلية الصعبة بصفتهم حراسًا في سجن أبو غريب، يقول التقرير:

«هناك ضعف عام في المعرفة وفي توظيف وإدراك المتطلبات القانونية والتنظيمية والتلقينية والقيادية الأساسية داخل اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية والوحدات التابعة لها... لم يوجد أي توافق على أسلوب معاملة السجناء بعد عمليات النقل من منشأة سجن إلى أخرى، من معسكر إلى آخر؛ بل بين النوبة والأخرى في المناطق (الداخلة في نطاق مسؤولية اللواء ٨٠٠)».

يقول التقرير أيضًا:

«منشآت السجن في بوكا وأبو غريب كانت ممتلئة بأعداد تفوق قدرتها الاستيعابية القصوى بكثير، في الوقت نفسه استمر القصور في عدد أفراد الحراسة والموارد. هذا الخلل في التوازن تسبب في ظروف معيشية سيئة، ومحاولات هروب، وفجوة في المسؤولية بين مختلف المنشآت. كما حدّ ازدحام المنشآت من القدرة على تحديد القيادات الانفصالية بين المعتقلين المُحتَمَل تورطهم في خطط الهروب والتمرد داخل المنشأة».

سجَّل تاجوبا العديد من وقائع محاولات الهروب والتمرد، ووصف المواجهات المميتة بين أفراد الشرطة العسكرية والمعتقلين. في كل مرة، يعيد التقرير نفس النتيجة: «لا توجد معلومات عن أية نتائج أو عوامل مساهمة أو إجراءات إصلاحية يمكن تقديمها لفريق التحقيق».

وبشكل خاص كان تاجوبا متخوفًا تحديدًا من حقيقة أن القيادة العسكرية كانت على دراية بأن أفراد الشرطة العسكرية لم يحصلوا على التدريب المناسب لأداء المهمة، وعلى الرغم من هذا، لم يتخذوا أية إجراءات لإصلاح الأمر:

«وجدت أن أفراد اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية لم يكونوا مدربين على النحو الملائم لتأدية مهمة تشمل تشغيل سجن أو مؤسسة عقابية في مجمع سجون أبو غريب. أتَّفِق مع تقييم رايدر في أن وحدات اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية لم تتلقَ أية تدريبات خاصة بالمؤسسات الإصلاحية أثناء فترة تعبئتهم. ولم تُحدَّدْ لوحدات الشرطة العسكرية أية مهام دقيقة قبل التعبئة وأثناء تدريبات التعبئة وبعدها، ولذلك لم يتمكنوا من التدرب على أداء مهمة محددة».

إضافة إلى الضعف الشديد في الموارد البشرية، كانت جودة مستوى معيشة السجناء

في مؤسسة أبو غريب الإصلاحية متردية للغاية. لم تكن هناك غرفة طعام ولا محالّ ولا حلاق ولا أماكن للترفيه والاستجمام. كان هناك عدد كبير من الهجمات الانتحارية والهجمات العشوائية بالبنادق وأسلحة الآر بي جي، وتهديد خطير للجنود والمعتقلين في المنشأة. كان مجمع السجون مزدحمًا بشدة وافتقر اللواء المسؤول عنه إلى الموارد والأفراد اللازمين للتعامل مع المشكلات اللوجستية الخطيرة. أخيرًا، بسبب الماضي واعتياد الجنود في اللواء على بعضهم فقد أثّرت الصداقات على مستوى حزم القيادات وعلى العلاقات بين الرئيس والمرؤوس.

تاجوبا يستهدف القادة المهملين، المعيبين

من أهم الخصائص الاستثنائية في تقرير الجنرال تاجوبا مقارنة بكل التحقيقات الأخرى في اعتداءات سجن أبو غريب؛ ترحيبه بتحديد القيادات التي أخفقت في ممارسة القيادة العسكرية، والتي تستحق نوعًا من العقاب العسكري. إن تحديد بعض الأسباب التي جعلت الجنرال يستهدف عددًا من القيادات العسكرية على أساس دورها في خلق منظومة قيادة وهمية بدلًا من نموذج القيادة العسكرية هو موضوع يستحق أن نخصص له بعض الوقت لمناقشته. كانت هي القيادات المنوط بها توفير الهيكل الانضباطي لأفراد الشرطة العسكرية العاجزين:

«مع احترامي لأفراد اللواء ٨٠٠ المنتدبين في أبو غريب، أرى أنه كان هناك خلل واضح وضعف في التواصل الفعّال بين القائد واللواء «٢٠٥ مخابرات عسكرية» المسؤول عن قاعدة العمليات المتقدمة أبو غريب بعد ١٩ نوفمبر ٢٠٠٣، والقيادة في اللواء «٨٠٠ شرطة عسكرية» المسؤول عن عمليات المعتقلين داخل قاعدة العمليات المتقدمة. لم يكن هناك أي تخطيط لتوزيع المسؤولية بين القيادتين، وثمة تنسيق ضعيف على مستوى القيادة، ولم يحدث أي دمج للوظيفتين. حدث التنسيق على أدنى مستوى ممكن برقابة ضعيفة من القيادة...».

من قراءتي لتحليلات تاجوبا، يجب أن أنتهي إلى أن سجن أبو غريب كان بمثابة «مأوى حيوانات» على مستوى الضباط، وكذلك كان لدى أفراد احتياط الشرطة العسكرية المسؤولين عن نوبة الليل على الرصيف A1. تعرض اثنا عشر ضابط صف للتوبيخ أو العقاب (الخفيف) بسبب سوء سلوكهم، أو إهمال الواجب، أو ضعف في القيادة، أو شرب الكحول في أوقات غير مسموح بالشرب فيها. كان النقيب ليو ميرك (Leo Merck) هو أحد الأمثلة الواضحة على هذا، قائد السرية ٨٧٠ شرطة عسكرية، الذي يُزعم أنه التقط صورًا عارية للمجندات بدون علمهن. مثال ثانٍ يشمل ضابط الاحتياط الذي ثبت إهماله

في الواجب لترويعه الضباط الصغار وإطلاق النار من البنادق (M-16) الآلية بدون أي مبرر أثناء خروج السيارات مما أدى إلى تفجير خزانة وقود عن غير قصد.

أوصى تاجوبا بعزل أو توجيه مذكرات لوم رسمية لاثنى عشر فردًا في مواقع قيادية كان يُفترَض بهم أن يُمثّلوا النموذج الذي يُحتذى به والقدوة للجنود النظاميين والاحتياط الذين يعملون تحت إمرتهم.

لكن لا يقع اللوم على الجيش فحسب، لقد ذكر هذا التحقيق عددًا من المدنيين والمترجمين الذين اشتركوا في خطأ توريط جنود الشرطة العسكرية في استجوابهم للمعتقلين على الرصيف A١؛ حيث تورطوا شخصيًا في الاعتداءات. يحدد تقرير تاجوبا من بينهم المتهمين التالي ذكرهم: ستيفين ستيفانوفيتش (Steven Stephanowicz)، مختص استجواب متعاقد مع جيش الولايات المتحدة، من شركة (CACI)، ملحق باللواء ٢٠٥ مخابرات عسكرية، وجون إسرائيل (John Israel)، مترجم مدني متعاقد مع جيش الولايات المتحدة، من شركة (CACI)، ملحق باللواء «٢٠٥ مخابرات عسكرية».

اتُّهم ستيفانوفيتش «بأنه سَمَح/ووجّه أفراد الشرطة العسكرية الذين لم يكونوا مُدَرَّبين على أساليب الاستجواب إلى تسهيل عملية الاستجواب عن طريق إعداد الظروف الملائمة له بما لا يتفق مع صلاحياتهم وفقًا للقواعد والسياسات التنظيمية. وبالتأكيد كان يعرف أن توجيهاته تصل إلى حدّ الاعتداء البدني» (أُضيف الخط المائل للتأكيد على الأهمية). هذا ما قاله فريدريك وجرانر تمامًا بأنهما تم تشجيعهما على القيام بهذا عن طريق هؤلاء المدنيين الذين بدا أنهم هم في موقع المسؤولية عن الأحداث في الرصيف AI بقصد الحصول على أية معلومات مفيدة من المعتقلين بأية وسيلة ممكنة.

يظهر تأثير شر التقاعس أيضًا في أن تاجوبا ذَكَر العريف سنيدر لـ«الإخفاق في الإبلاغ عن جندي تحت قيادته المباشرة يعتدي على المعتقلين ويدعس أياديهم تحت قدمه في وجوده».

قبل أن نترك تقرير تاجوبا وننتقل إلى بعض النتائج الموجودة في العديد من التحقيقات الأخرى المستقلة يجب ألا نغفل الاستنتاج القوي الذي وصل إليه بخصوص مسؤولية بعض ضباط الجيش والموظفين المدنيين الذين لم يُطلبوا للمحاكمة من الأساس وقت التقرير، ولم توجّه لهم أية اتهامات تتعلق بالاعتداءات في سجن أبو غريب:

«ارتكب العديد من جنود جيش الولايات المتحدة العديد من الجرائم السافرة والخروقات الجسيمة للقانون الدولي في مجمع سجون أبو غريب وسجن بوكا بالعراق. كذلك أخفق عدد من كبار القيادات في اللواء ٨٠٠ شرطة عسكرية واللواء ٢٠٥ مخابرات عسكرية على حد السواء في الالتزام بالقواعد المنصوصة والسياسات

والإرشادات القيادية لمنع الاعتداء على المعتقلين في مجمع سجون أبو غريب وسجن بوكا في الفترة من أغسطس ٢٠٠٣ إلى فبراير ٢٠٠٤...».

وأشك على وجه الخصوص في تورط كل من العقيد توماس باباس، والمقدم ستيف ل. جوردان، والسيد ستيفانوفيتش، والسيد جون إسرائيل بصورة مباشرة أو غير مباشرة في الاعتداءات في مجمع سجون أبو غريب، وأوصي بشدة بإجراء انضباطي عاجل وفقًا لما هو موصوف في الفقرات السابقة، وكذلك ببدء إجراءات التحقيق وفقًا للمادة ١٥ لتحديد المسؤولية كاملة.

دعوني أضيف هذا الملحق:

لم يُتهم أحد من ضباط القيادة في هذه الاعتداءات عدا العميد كاربينسكي التي وُبخت وخفضت رتبتها إلى مقدم ثم استقالت، والمقدم ستيفن جوردان الذي كان الوحيد الذي خضع لمحاكمة وبالكاد وُبخ لدوره في هذه الاعتداءات، لكن المثال الأوضح على إخفاق عدالة الجيش والقيادة كان مع اللواء أنتونيو تاغوبا، وما ذلك إلا لدقة تقريره وتفصيله في توثيق تورط العديد من الضباط والجيش بشكل عام والمحققين المدنيين. لقد أُخبر تاغوبا بأنه لن يُمنح ترقية مطلقًا، وبوصفه واحدًا من أعلى ضباط الجيش رتبة من أصول فليبينية؛ فقد كانت هذه الإساءة لإخلاص تاغوبا في قيامه بعمله، لا على النحو الذي أمل به ضباط الجيش؛ سببًا في دفعه إلى التقاعد المبكر بعد مسيرة مميزة في الجيش.

تقرير فاي - جونز يوسع دائرة اللوم إلى أعلى وإلى الخارج[1]

ساعد الفريق أنثوني ر. جونز (Anthony R. Jones) والعميد جورج ر. فاي (George R. Fay) في قيادة التحقيق في المزاعم القائلة بأن اللواء ٢٥٠ مخابرات عسكرية تورط في الاعتداء على المعتقلين في أبو غريب. حققا أيضًا في احتمالية تورط أية مؤسسات أو شخصيات أعلى من ذلك اللواء في الاعتداءات بأية صورة[2]. وعلى الرغم من أن

---

(١) نجد جزءًا من تقرير فاي - جونز (*Fay/Jones*) في:
Steven Strasser and Craig R. Whitney eds., *The Abu Ghraib Investigations: The Official Reports of the Independent Panel and the Pentagon on the Shocking Prisoner Abuse in Iraq* (New York: PublicAffairs, 2004).

كما نجد التقرير كاملاً في:

Http://news.findlaw.com/hdocs/docs/dod/fay82504rpt.pdf

انظر أيضًا:

Strasser and Whitney *The 9/11 Investigations: Staff Reports of the 9/11 Commission: Excerpts from the House-Senate Joint Inquiry Report on 9/11: Testimony from Fourteen Key Witnesses* (New York: Public Affairs, 2004).

(٢) ذكر أن قائد القيادة المركزية الأمريكية (*CENTCOM*) الجنرال جون أبازيد (*John Abizaid*) طلب وجود ضابط أعلى رتبة من اللواء فاي (*Fay*) ليقود التحقيقات بحيث يتمكن من عقد لقاءات مع كبار الضباط وهو ما لا =

تقريرهما يدعم نظرية تفوّق النوازع الشخصية التي تُلقي باللوم على الأفراد المُرْتَكِبِين للاعتداء، مرةً أخرى «تلك المجموعة الصغيرة من الجنود والمدنيين الفاسدين أخلاقيًّا»؛ لكنه يوسِّع دائرة الأسباب لتصل إلى العوامل الظرفية والنظامية بطرق كاشفة.

«لا يمكن فهم الأحداث التي وقعت في أبو غريب بشكل منفصل»، هذا هو مغزى فاي - جونز في توضيح كيف أن «المناخ العملياتي» أسهم في تلك الاعتداءات. يستمر التقرير اتفاقًا مع التحليلات النفسية الاجتماعية التي كنت قدمتها في تفصيل المؤثرات الظرفية والنظامية المؤثرة داخل وحول البيئة السلوكية، فلنتأمل في مغزى الفقرات الثلاث التالية المقتطعة من تقريرهما:

«وجد الفريق جونز أن على الرغم من عدم تورط ضباط المستوى الأعلى في تنفيذ أية انتهاكات وقعت في أبو غريب؛ لكنهم يتحمّلون مسؤولية ضَعْف الرقابة على المُنشأة، والإخفاق في الاستجابة السريعة لتقارير اللجنة الدولية لمنظمة الصليب الأحمر، وإصدارهم منشورات محددة لسياسة العمل لم تشمل أية سياسات واضحة بخصوص كيفية التنفيذ على المستوى التكتيكي».

«وجد العميد فاي أنه منذ ٢٥ يوليو ٢٠٠٣ إلى ٦ فبراير ٢٠٠٤ طلب سبعة وعشرون فردًا من اللواء ٢٠٥ مخابرات عسكرية وشجعوا وحرّضوا أفراد الشرطة العسكرية على الاعتداء على المعتقلين/أو شاركوا في الاعتداء و/أو تجاوزوا إجراءات الاستجواب المعروفة والقوانين والنظم التطبيقية أثناء عمليات الاستجواب في أبو غريب».

«فشل قادة الوحدات المتمركزة داخل سجن أبو غريب أو القيادات المسؤولة عن الوحدات المتمركزة هناك في الإشراف على الوحدات والأفراد الخاضعة لقيادتهم وفي متابعة ومراقبة سير العمل في هذه المهمة عالية الأهمية على الأرض بشكل مباشر. فشلت تلك القيادات في تدريب الجنود، فشلت تلك القيادات في التعلُّم من الأخطاء وفي توفير التدريب المتخصص للمهمة المستمرة. . . كما أن غياب القيادة الفعّالة كان سببًا في تأخير اكتشاف التجاوزات العنيفة والجنسية ومن ثم اتخاذ إجراءات لوقفها وإنهاء حوادث سوء الفهم والالتباس. . . لم تكن الاعتداءات لتحدث حال اتباع عقيدة الجيش والتدريب المخصص لأداء المهمة». [الخط المائل لتأكيد المقصد].

يوجِز التقرير المشترك لهذين القائدين العديد من العوامل التي وجدا أنها أسهمت في

= يستطيع اللواء فاي (*Fay*) القيام به بموجب القواعد التنظيمية العسكرية، لكن يمكن للفريق جونز (*Jones*) أن يقوم به.

تلك الاعتداءات في أبو غريب، وفقًا للتقرير هناك سبعة عوامل هي الأسباب الرئيسية للاعتداءات:

* «الميول الإجرامية للفرد» (النوازع الشخصية المزعومة لأفراد احتياط الشرطة العسكرية).

* «إخفاق القيادة». (عوامل نظامية).

* «خلل في التنظيم بين القيادة في اللواء والدرجات الأعلى» (عوامل نظامية).

* «تعدد الوكالات/ المنظمات المتورطة في عمليات التحقيق في أبو غريب». (عوامل نظامية).

* «الإخفاق في انتقاء، وإجازة، ثم قبول المحققين المتعاقدين/ المحللين/ اللغويين» (عوامل نظامية).

* «الضعف الواضح في فهم أفراد الشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية لأدوارهم ومسؤولياتهم في عمليات الاستجواب» (عوامل ظرفية ونظامية).

* «ضعف الأمان والتأمين في أبو غريب» (عوامل ظرفية ونظامية).

نرى ستة عوامل مؤثرة في وقوع الاعتداءات من أصل سبعة في تقرير فاي - جونز هي عوامل نظامية وظرفية، وعامل واحد فقط نزوعي. ثم يستمر في التوسع في هذه الرؤية بإبراز العديد من الإخفاقات النظامية التي لعبت دورًا محوريًا في تسهيل تلك الاعتداءات:

> «إذا نظرنا فيما هو أبعد من المسؤولية الشخصية ومسؤولية القيادة، سنجد أن المشكلات النظامية هي الأخرى أسهمت في خلق ذلك المناخ المُتَقَلِّب الذي وقعت فيه الاعتداءات. يحدد التقرير اثني عشر إخفاقًا نظاميًا بدءًا من العقيدة والسياسات المُتَّبَعَة وصولًا إلى قضايا القيادة والسيطرة مرورًا بقضايا الموارد والتدريب».

• التعاون في أنشطة غير قانونية للمخابرات المركزية الأمريكية باعتباره «عمل فريق»:

فوجئت بوجود نقد مفتوح مُعلَن لدور المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) في تلك الاستجوابات العدوانية في هذا التقرير الذي من المفترض أن يكون سريًا:

> «التغييب المُمنهَج لمُحاسبة المُحققين على أفعالهم أثَّر بشكل واسع في عمليات التعامُل مع المُعتقلين في أبو غريب. لا نعرف تحديدًا تحت أي مُسمّى كان للمخابرات المركزية (CIA) الحق في وضع معتقلين مثل (المعتقل - ٢)[1] في أبو

(١) سوف نتحدث بشكل أكبر عن هذا المعتقل، مناضل الجمادي (Manadel al-Jamadi) لاحقًا.

غريب، وسبب هذا الغموض هو عدم وجود مذكرات تفاهم بين المخابرات المركزية وقوات المهام المشتركة (CJTF-7). نجح ضابط المخابرات المتمركز في أبو غريب في إقناع العقيد باباس والمقدم جوردان بأن يسمحا لهم بالعمل بعيدًا عن القواعد الثابتة الخاصة بالمكان. (الخط المائل للتأكيد على الأهمية)».

- **صناعة مناخ غير صحيّ للعمل:**

طريقة تنفيذ الأعمال السريّة التي نفّذها وكلاء المخابرات المركزية الأمريكية الذين كانوا «فوق القانون ويتجاوزونه» أسهمت في صناعة البيئة السرطانية التي تحدث عنها فاي - جونز في تحليلاتهما النفسية:

«موت المعتقل ٢٨، وحوادث مثل السلاح المعبأ في غرف الاستجواب، كانت معروفة على نطاق واسع داخل المجتمع الأمريكي (للمخابرات العسكرية والشرطة العسكرية أيضًا) في أبو غريب. نتج الشك والضيق عن ضعف المسؤولية الشخصية وعن كون بعض الناس فوق القواعد. أسهم الاستياء في خلق مناخ غير صحي وجد في أبو غريب. بقيت قضية موت المعتقل ٢٨ غير محسومة».

أُشير إلى الاستخدام العمليّاتي لحجب الشخصية ليكون درعًا واقيًا من أجل الإفلات من المُحاسبة على جرائم القتل: «استخدم ضباط المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) الذين عملوا في أبو غريب أسماءً مستعارة ولم يستخدموا أبدًا أسماءهم الحقيقية».

- **عندما يتضح أن المزاعم الخادمة للذات للشرطة العسكرية حقيقية:**

تؤيد تحقيقات فاي - جونز مزاعم تشيب فريدريك وبقية أفراد نوبته بأن كثيرًا من الاعتداءات كانت بتحريض ودعم من عدد من أفراد المخابرات العسكرية الذين يعملون في وحدتهم:

«قال أفراد الشرطة العسكرية أثناء محاكمتهم أن تصرفاتهم كانت بناء على توجيهات من المخابرات العسكرية، وعلى الرغم من أنها تصريحات تدعم موقفهم في القضية إلا أن لتلك المزاعم أساس في الحقيقة. كان للمناخ الذي صنع في أبو غريب تأثيره في وقوع تلك الاعتداءات، وفي الواقع لم تكتشف القيادات العُليا هذا لفترة طويلة. بدأنا في التعرية والإهانة وفرض الضغط العصبي والتدريبات البدنية ثم وصلنا إلى الاعتداء البدني والجنسي على يد مجموعة صغيرة منحرفة أخلاقيًا من الجنود والمدنيين غير الخاضعين لأية رقابة».

كان الجنرالان اللذان أجريا التحقيق يوضحان بشكل متكرر الدور الكبير الذي لعبه

القوى الظرفية والنظامية في هذه الاعتداءات، لكن لا يمكنهما التخلي عن السمات المزاجية للمجرمين كفلة «من الفاسدين أخلاقيًا»، من الذين يسمون بالتفاحات الفاسدة داخل وعاء بلا عيوب ملئ عن آخره «بالسلوك النبيل لأغلب الجنود».

• الكلاب اللطيفة تقوم بأعمال قذرة:

كان تقرير فاي - جونز هو أحد أوائل التقارير التي تُفصّل وتُخطّئ بعض التكتيكات «المقبولة» المستخدمة لزيادة فاعلية عمليات الاستجواب. فمثلًا يذكر التقرير أن من أدخل استخدام الكلاب هو الجنرال جوفري ميللر من سجن جوانتانامو في كوبا، لكن أضاف التقرير «استخدام الكلاب في الاستجواب «لإخافة» المعتقلين كان يحدث بدون التصريحات اللازمة».

بمجرد السماح باستخدام الكلاب المكمّمة لإخافة السجناء لم يأخذ الأمر طويل وقت حتى أزيلت الكمامات بشكل غير رسمي بغرض زيادة عنصر الخوف. حدد تقرير فاي - جونز المحقق المدني [رقم ٢١، موظف خاص بشركة (CACI)] الذي استخدم كلبًا غير مكمّم أثناء أحد التحقيقات وصرخ في فرد من أفراد الشرطة العسكرية أثناء استخدام كلب ضد أحد المعتقلين طالبًا منه إعادة الكلب. ولإيضاح شراسة هذا الكلب بالقدر الكافي لعضّ السجين وتمزيق لحمه، تركوه يُمزّق مرتبة السجين أمام عينه. محقق آخر (جندي ١٧، كتيبة ٢ مخابرات حربية) اتُّهم بالإخفاق في الإبلاغ عن الاستخدام غير الملائم للكلاب عندما ترك مُدرّب الكلاب «يجنّ جنونه» ويخيف المعتقلين الصغار بإرسال كلب غير مكمّم داخل زنزانتهم. أخفق المحقق كذلك في الإشارة إلى أن مدربي الكلاب كانوا يتحدثون عن المنافسات بينهم في إخافة السجناء إلى الحد الذي يجعلهم يتبرزون في سراويلهم. زعموا أنهم بالفعل جعلوا العديد من المعتقلين يتبولون على أنفسهم عند تهديدهم باستخدام الكلاب.

• السجناء العرايا هم سجناء سُلبوا إنسانيتهم:

استخدام التعرية كحافز لإبقاء السجين متعاونًا استورد من سجون أفغانستان وجوانتانامو. عندما حان وقت استخدام هذا التكتيك في أبو غريب قال تقرير فاي - جونز: «تشوشت الخطوط الفاصلة بين الصلاحيات والآراء القانونية الرشيدة، فقد نقلوا استخدام التعرية إلى مسرح العمليات العراقي. استخدام الملابس [التعرية] كان مقصودًا على الأرجح لتجريد المعتقلين من إنسانيتهم بما يسمح بوقوع مزيد من الاعتداءات الجسيمة [على يد الشرطة العسكرية]».

- **تحديد المَلُومين: ضباط، مخابرات عسكرية، محققون، محللون، مترجمون وأطباء:**

انتهى تقرير فاي - جونز إلى إدانة جميع من ثبت تورطهُ في الاعتداء على المُعتقلين في أبو غريب وهم سبعة وعشرون فردًا محددة أسماؤهم أو أرقام تعريفهم. المهم بالنسبة لي هو عدد من علموا بالاعتداءات وحضروها بشكل شخصي أو شاركوا بأية طريقة ولم يفعلوا شيئًا لمنعها أو الإبلاغ عنها. قدموا «إثباتًا اجتماعيًّا» لأفراد الشرطة العسكرية على أن الاستمرار في فعل أي شيء أرادوه مقبول تمامًا، ابتساماتهم والوجوه الصامتة كانت توفر الدعم المجتمعي من الشبكة المحيطة من فريق التحقيقات الذي يُحيّيهُم باستمرار على التجاوزات التي من المفترض أن يوبخوهم عليها. مرةً أخرى، نرى شر التقاعس يُسْهِل فعل الشر.

في مواقف كثيرة كان الأطباء والممرضات مذنبين لعدم مساعدتهم الضحايا في محنتهم أو لرصدهم الوحشية التي يعاملون بها ثم الإشاحة بالنظر إلى الجهة الأخرى، والأسوأ أنهم كانوا يوقّعون على شهادات وفاة مزيفة تزوّر طبيعة الجروح والكسور، انتهكوا قسم أبقراط «وباعوا أرواحهم لتكون نفايات»، وفقًا لأستاذ الطب وأخلاقيات الطب ستيفين. هـ. مايلز، في كتابه «خيانة قسم»[١].

يجب أن يُسكِّن هذا التحقيق الشامل الذي أجراه جنرالان من الجيش أية مزاعم بأن حراس الشرطة العسكرية في نوبة الليل على الرصيف A1 اعتدوا على السجناء وعذبوهم بسبب دوافع منحرفة ونزعات ساديّة؛ بل الصورة الواضحة هي مجموعة مركبة من المسببات. العديد من الجنود والمدنيين تم تحديدهم بكونهم تورطوا بصور مختلفة في عمليات الاعتداء والتعذيب. بعضهم كانوا منفّذين، وبعضهم كانوا يسهّلون العملية والبعض الآخر كانوا مراقبين أخفقوا في الإبلاغ عن الاعتداءات. نرى كذلك فيلقًا من الضباط أشير إلى مسؤوليته عن تلك الاعتداءات بسبب القيادة السيئة وصناعة ظروف فوضوية من الممكن أن تسحق فريدريك تشيب ومن يعملون تحت قيادته.

لكن اللواء سانشيز لم يتورط مباشرة في أي خطأ وفقًا لتلك التحقيقات، ومع ذلك لم يكن بعيدًا تمام البعد عن الأمر وفقًا للجنرال بول ج. كيرن، الذي قال للمراسلين: «لم نجد الجنرال سانشيز مذنبًا، لكنّا نجد أنه مسؤول عما فعل وليس عما حدث»[٢]، الآن،

(١) Steven H. Miles, *Oath Betrayed: Torture, Medical Complicity, and the War on Terror* (New York: Random House, 2006).

(٢) Eric Schmitt, "Abuses at Prison Tied to Officers in Military Intelligence," *The New York Times*, August 26, 2004.

هذا تلاعب أنيق بالألفاظ: الجنرال سانشيز ليس «مذنبًا» لكنه مجرد «مسؤول عن» كل شيء! لا يمكننا أن نكون أكثر عطاءً من هذا الضابط عندما يخضع للمحاكمة.

ستحول بعد ذلك إلى تحقيق خاص أمر بإجرائه رامسفيلد ولم يرأسه جنرال آخر؛ بل وزير الدفاع السابق جيمس شليزنجر. لم تجر تلك اللجنة أية تحقيقات جديدة مستقلة ولكن عقدت لقاءات مع كبار قادة وزارة الدفاع، وقدم تقريرهم العديد من الخصائص المهمة للقضية التي نحن بصددها.

تقرير شليزنجر يحدد المسؤولين(١)

هذا هو آخر تحقيق استقصائي نقدّمه. سيدعم هذا التحقيق قضيتنا الخاصة بأدلة قيّمة عن دور المؤثرات الظرفية والنظامية في تلك الاعتداءات في أبو غريب. يهمنا بشكل خاص توصيف العديد من أوجه القصور في مركز عمليات الاعتقال، فهي تشير إلى مسؤولية القيادة العليا والقيادة المباشرة، وتكشف أساليب التستر على الاعتداءات بعد تقديم جو داربي الأسطوانة المدمجة إلى المحقق الجنائي العسكري.

الأمر الذي فاجأني وربما لم أتوقعه بالمرّة وهو أكثر ما أُقَدِّره في هذا التقرير؛ كان القسم المُخصّص لتفصيل الأبحاث في مجال علم النفس الاجتماعي المتعلقة بفهم وتفسير الاعتداءات التي وقعت في أبو غريب. للأسف وضع هذا القسم في الملحق (G) في نهاية التقرير مما قلل من فرص اطلاع القُرّاء عليه. تناول هذا الملحق في تقرير شليزنجر كذلك أوجه الشبه بين الموقف في أبو غريب وبين التجاوزات والاعتداءات التي حدثت في تجربة سجن ستانفورد.

اعتداءات عسكرية على نطاق واسع

أولًا، تذكر التقارير أن الاعتداءات منتشرة بشكل واسع في كل منشآت الجيش الأمريكي (مصطلح «التعذيب» لا يستخدم أبدًا). في ذلك الوقت، نوفمبر ٢٠٠٤، رُصدت ٣٠٠ حادثة اعتداء مزعومة على السجناء في مناطق العمليات المشتركة مع ٦٦ حالة اعتداء

---

(١) استجوب أعضاء اللجنة المستقلة المسؤولون عن مراجعة تقرير وزارة الدفاع عن عمليات الاعتقال وزيرَ الدفاع دونالد رامسفيلد (*Donald Rumsfeld*) أثناء تقديم التقرير النهائي في ٢٤ أغسطس، ٢٠٠٤. كان من بين الأعضاء الأربعة للجنة وزير الدفاع السابق هارولد براون (*Harold Brown*)، والممثل السابق لوزارة الدفاع تيلي فلاور (*Tillie Flower*)، والجنرال تشارلز هورنر (*Charles Horner*)، ووزير الدفاع السابق جيمس شليزنجر (*James R. Schlesinger*) رئيس اللجنة. التقرير الكامل وكذلك الملحق (G) متاح على:

Http://pdf.prisonexp.org/SchlesingerReport.pdf

من قبل القوات في جوانتانامو وفي أفغانستان، و٥٥ أخرى في العراق. ثلث تلك الحوادث كان مرتبط بعمليات الاستجواب، وقعت على الأقل ٥ حالات وفاة مسجلة أثناء الاستجوابات. حدثت ٢٤ حالة وفاة إضافية لمعتقلين أثناء إجراء التحقيق. تلك الأرقام المشؤومة تبدو وكأنها تملأ «الفراغ» الذي أشار إليه فاي - وجونز في تقريرهما عن الاعتداءات على الرصيف (AI). أغلبها حوادث اعتداءات ارتكبها الجنود لكنها ربما تكون أقل فظاعة من عملية القتل والإيذاء في منشآت الاعتقال العسكرية الأخرى التي سوف نزورها لاحقًا.

أكبر مواضع التوتر وتفاقم الأوضاع

حدد تقرير شليزنجر خمس مناطق توتر غذت تلك الاعتداءات، وهي:

* تدريب غير ملائم للمهمة لأفراد الشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية
* نقص في المعدات والموارد
* ضغط المحققين لإنتاج «معلومات كافية للتدخل» (مع أفراد بلا خبرة ولا تدريب ومعتقلين زادت مدة اعتقالهم قبل البدء في استجوابهم عن ثلاثين يومًا).
* القيادة التي كانت «ضعيفة»، بلا خبرة، وتعمل داخل بنية مشوشة شديدة التعقيد
* عمل المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) وفق قواعدها الخاصة، بدون محاسبة لأي فرد من هيكل القيادة العسكرية المباشرة.

ما لدينا هنا هو إخفاق جديد للقيادة

مرةً تلو المرة يوضح هذا التقرير الفشل التام للقيادة على جميع المستويات، وإسهامه في تلك الاعتداءات التي ارتكبت في نوبة الليل سيئة السمعة لأفراد الشرطة العسكرية:

«تجنب السلوك الشاذ الذي كان يجري في نوبة الليل في مجمع الزنزانات ١ في أبو غريب كان ممكنًا بالتدريب المناسب والقيادة والمراقبة».

«تلك الاعتداءات... تمثل سلوكًا منحرفًا وإخفاقًا في القيادة والانضباط».

لقد كانت هناك اعتداءات غير مصوَّرة أثناء عمليات الاستجواب واعتداءات أثناء جلسات الاستجواب في كل مكان في أبو غريب، لكن لم تكن تلك الاعتداءات مجرد إخفاق من بعض الأفراد في اتباع القواعد المعروفة، وهي كذلك أكبر من مجرد إخفاق عدد قليل من القيادات في إعمال الضبط والربط كما ينبغي، لقد كانت لدينا هنا مسؤوليات مؤسسيّة وفردية على مستوى عالٍ لكل منهما.

حاول الجنرال ريتشارد مايرز رئيس اللجنة المشتركة لرؤساء فرق العمل تأجيل إعلان

الصور على التلفاز في أبريل ٢٠٠٤؛ لأنه تبين بالتأكيد أن لها أهمية محتملة، وعلى الرغم من هذا، كما ذكرت سابقًا، فإن هذا الجنرال لم يجد حرجًا في التصريح علانية بأنه كان يعرف أن هذه الأحداث لم تكن «نظامية»، وإنما أفعالًا إجرامية «القلة من التفاحات الفاسدة».

علم النفس الاجتماعي للمعاملة غير الإنسانية للآخرين

من بين اثني عشر تحقيقًا آخر في الاعتداءات في منشآت الاعتقال العسكرية، كان تقرير شليزنجر فريدًا من حيث تقديمه لنظرة تفصيلية في القضايا الأخلاقية التي برزت في هذه القضية، وتلخيصه الضغوط النفسية والمؤثرات الظرفية الحاضرة في سجن أبو غريب، لكن مع الأسف وضع هذان الموضوعان في نهاية التقرير، «الأخلاقيات» في الملحق (H)، و«الضغط وعلم النفس الاجتماعي» في الملحق (G) في حين كان يجب إبرازهما في الحقيقة.

تحديد اللجنة للتشابهات بين تجربة سجن ستانفورد وسجن أبو غريب يهمني بصفة شخصية. دعونا نراجع بشكل مختصر النقاط الرئيسية التي أثيرت في هذا القسم من تقرير شليزنجر:

> «المعاملة السيئة للمعتقلين أثناء حرب عالمية ضد الإرهاب هو أمرٌ متوقَّع تمامًا بناءً على الفهم الأساسي لمبادئ علم النفس الاجتماعي والعديد من مؤشرات الخطر البيئية... بعض الدراسات في مجال علم النفس الاجتماعي تقترح أن لظروف الحرب وديناميكيات عمليات الاعتقال مخاطر كامنة حول سوء معاملة البشر، ولذلك يجب التعامل معها بحذر شديد وتخطيط حريص وتدريب».

لكن ذكر التقرير بأن معظم قيادات الجيش لا يعرفون علامات الخطر، كذلك أوضح تقرير شليزنجر أن فهم الأسس النفسية للسلوك العدائي لا يعذر المجرمين كما قلت سابقًا في هذا الكتاب: «تلك الظروف لا تعذر ولا تعفي الأفراد الذين تورطوا عن قصد في سلوك غير أخلاقي أو غير قانوني» حتى في وجود «ظروف معينة ضاعفت من احتمالية المعاملة العدائية».

الدروس المستفادة من تجربة سجن ستانفورد

أعلن تقرير شليزنجر صراحة أن «دراسة ستانفورد الشهيرة تقدم رواية تحذيرية من كل عمليات الاعتقال العسكرية». على النقيض من بيئة أبو غريب في مناخ جيد نسبيًّا في تجربة سجن ستانفورد؛ أوضح التقرير أن «في عمليات الاعتقال العسكرية، يعمل الجنود في

أوضاع حربية ضاغطة بعيدة كل البعد عن أن تكون جيدة». القصد هو أننا يمكننا أن نتوقع من وضع القتال هذا إنتاج اعتداءات أكثر عنفًا على يد الشرطة العسكرية مقارنة بما شهدناه في سجننا المُقلّد. استمر تقرير شليزنجر في استكشاف القضية المحورية التي كنا نتعامل معها طوال رحلتنا مع **تأثير الشيطان**.

«حاول علماء النفس فهم كيف ولماذا يتحول أولئك الذين يعاملون الآخرين بإنسانية في الغالب إلى التصرف بطرق مخالفة في ظروف معينة». من بين المفاهيم التي أبرزها هذا التقرير ليساعد في تفسير كيفية حدوث اعتداءات أبو غريب من قبل مجموعة من الأفراد الإنسانيين العاديين ما يلي: سلب الذاتية، نزع الإنسانية، طريقة تصوير العدو، والتفكير الجمعي، والتعطل الأخلاقي، والقبول المجتمعي، وعدد آخر من العوامل البيئية.

أحد العوامل البيئية التي حددها التقرير كان تعرية المعتقلين الذي كان منتشرًا على نطاق واسع. «تطور استخدام نزع الملابس كأسلوب للاستجواب إلى شيء أكبر، فقد وصل الأمر إلى إبقاء مجموعات من المعتقلين عرايا لفترات طويلة في أبو غريب». في ذلك التحليل الدقيق عن الدور المركزي لاستخدام التعرية القسرية في الاعتداء على المعتقلين من قبل أفراد الشرطة العسكرية وآخرين على الرصيف A1 ذكر تقرير شليزنجر أن النية الأولية كانت جعل المعتقلين يشعرون بأنهم أكثر ضعفًا ومن ثم أكثر امتثالًا للمحققين، لكن فسر كيف أدى هذا التكتيك في النهاية إلى ظروف لا إنسانية في هذا الرصيف.

بمرور الوقت «من المحتمل أن قد أصبح لهذه الممارسة تأثيرًا نفسيًا في الجنود وكذلك المحققين. ارتداء الملابس هو ممارسة اجتماعية أصيلة، ولذلك من الوارد أن قد كان لنزع الملابس تأثير غير مقصود نزع عن المعتقلين إنسانيتهم في عيون من كانوا يتعاملون معهم... يُقلّل نزع الإنسانية من الحواجز الأخلاقية والثقافية التي غالبًا ما تكون مانعة... للسلوك المتعسف تجاه الآخرين».

الشيء المشترك بين تلك التقارير الاستقصائية وبين الأخرى التي لم ندرجها هو عنصرين رئيسيين. جميع التقارير تحدد عددًا من العوامل الظرفية والبيئية المساهمة في الاعتداءات في أبو غريب، لكن لأن القيادات العسكرية العليا أو وزير الدفاع دونالد رامسفيلد هي من سمحت بكتابة تلك التقارير؛ فإن كُتّابها امتنعوا عن إلقاء اللوم على من هم في المستويات العليا في تسلسل القيادة.

لكي نركّز بشكل أكبر على الصورة الكبيرة سنترك الآن تأسيس الأدلة على قضيتنا لننتقل إلى تقرير آخر لمنظمة حقوق الإنسان، أكبر منظمة تعمل في الدفاع عن حقوق الإنسان في العالم. (انظر: www.hrw.org)

تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان، الإفلات بجريمة التعذيب؟[1]

«الإفلات بجريمة التعذيب؟» هو عنوان مستفز لتقرير منظمة حقوق الإنسان (HRW) الصادر في (أبريل ٢٠٠٥)، الذي يشدد على الحاجة إلى تحقيقات مستقلة فعليًا في كثير من الاعتداءات والتعذيب وعمليات قتل السجناء من قبل أفراد في الجيش الأمريكي ومدنيين، وتدعو إلى التحقيق مع كل مهندسي تلك السياسات التي سمحت بتلك الانتهاكات الوحشية لحقوق الإنسان.

من الممكن أن نفكر في سجن التعذيب في أبو غريب والمنشآت الشبيهة في جوانتانامو والسجون العسكرية الأخرى في أفغانستان والعراق على أنها صُمِّمَت من قبل «مهندسين بارزين»، بوش، وتشيني، ورامسفيلد، وتينيت. ثم يأتي «المُبَرِّرُون»، المحامون الذين ابتكروا لغة ومفاهيم جديدة شَرْعَنَت «التعذيب» بطرق ووسائل جديدة، المستشار القانوني للرئيس ألبرتو جونزالس، وجون يو، وجاي بيبي، ويليام تافت، وجون أسكورف. كان «أفراد المقدمة» في تصميم مُهِمَّة التعذيب قيادات عسكرية مثل الجنرالات ميلر، وسانشيز، وكابرينسكي، ومن يعملون تحت إمرتهم. أخيرًا يأتي التقنيون، الجنود الموكلون بمهمة تنفيذ العمل اليومي من استجواب تعسفي، اعتداء، تعذيب وهم جنود المخابرات العسكرية، وكلاء المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، محققون مدنيون متعاقدون وعسكريون، مترجمون، أطباء، وأفراد شرطة عسكرية، ومن ضمنهم فريدريك تشيب وزملاؤه في نوبة الليل.

بعد وقت قليل من الكشف عن صور الاعتداءات في أبو غريب وعد الرئيس بوش بأن «المخطئين سيقفون بين يدي العدالة»[2]، لكن أشار تقرير منظمة حقوق الإنسان إلى أن أفراد الشرطة العسكرية من الرتب المتدنية هم الذين حوكموا فحسب، ولم يحاكم أي شخص من أولئك الذين صنعوا تلك السياسات والأيديولوجيا وسمحوا بتلك الاعتداءات. «في أشهر التدخل»، خرج تقرير منظمة حقوق الإنسان بما يلي:

---

(١) انظر [www.hrw.org]. مصدر قيّم آخر للاطلاع تجده في تقرير الإذاعة الكندية (*CBC*)، برنامج (Fifth *Estate*) بعنوان (A Few Bad Apples) الذي أذيع في ١٦ نوفمبر، ٢٠٠٥. وركز على الأحداث التي وقعت في الرصيف A1 في ليلة ٢٥ أكتوبر، ٢٠٠٣، عندما قام عدد من الجنود بتعذيب السجناء تحت نظر آخرين. وهي الواقعة المذكورة في الفصل الرابع عشر، وقد بدأ هذا بشائعات عن أن هؤلاء السجناء اغتصبوا طفلاً ثمّ تبين أن ذلك لم يكن حقيقيًا. الموقع الإلكتروني لشبكة (*CBC*) هو مصدر جيد لترتيب الأحداث التي أدت إلى الاعتداء، ومقالات سيمور هيرش (*Seymour Hersh*) عن أبو غريب، مذكرات بوش، رامسفيلد، وسانشيز، متاحة على: www.cbc.ca/fifth/badapples/resource.html

(٢) انظر: https://georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2004/05/20040506-9.html

«لقد صار واضحًا أن عمليات التعذيب والاعتداء لم تكن في أبو غريب فحسب، ولكن في عدد كبير من منشآت الاعتقال عبر أنحاء العالم، وفي حالات كثيرة أدى الاعتداء إلى القتل أو إلى الصدمات العصبية العنيفة، وكان عدد كبير من هؤلاء الضحايا مدنيين ليست لهم أية صلة بتنظيم القاعدة أو الإرهاب. ثمة أدلة أيضًا على أن اعتداءات تجري في «مواقع سرية» في الخارج حول العالم حيث من المرجح وقوع حوادث تعذيب، لكن إلى يومنا فإن المخططين الوحيدين الذين مَثلوا بين يدي العدالة هم من المستوى الأدنى في تسلسل القيادة، والأدلة تقول الكثير والكثير، لكن هناك حاجز منيع يحمي مهندسي تلك السياسات المسؤولة عن تلك الاعتداءات».

كذلك يُقدِّم التقرير أدلة تؤكد أن قيادات مدنية وعسكرية كبرى تشمل وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ومدير المخابرات المركزية الأمريكية جورج تينيت، والفريق ريكاردو سانشيز القائد الأعلى السابق في العراق، والعميد جوفري ميللر القائد السابق لسجن جوانتانامو في كوبا اتخذت قرارات وأصدرت سياسات سهَّلت انتهاكات خطيرة واسعة للقانون. تفرض الظروف بقوة أنهم إما كانوا يعرفون بحدوث تلك الاعتداءات، أو أنهم كانوا على علم بأنها كانت ستحدث بسبب قراراتهم. هناك أيضًا بيانات كثيرة تؤكد عند وضعها مع الأدلة حدوث تلك الاعتداءات وقد أخفقوا في التحرك لمنعها.

الأساليب التعسفية التي أجازتها القيادات البارزة ووُظفت على نطاق واسع على مدار السنوات الثلاث الأخيرة تتضمن تكتيكات أدانتها قيادة الولايات المتحدة مرارًا حين مارسها الآخرون لكونها همجية ولكونها تعذيبًا.

بقدر ما كانت صور الاعتداءات التي جرت في الرصيف A1 في نوبة الليل مزعجة إلا أنها تتضاءل أمام العديد من عمليات قتل المعتقلين من قبل الجنود والمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) ومدنيين آخرين. قال ريد برودي المستشار الخاص لمنظمة مراقبة حقوق الإنسان (HRW): «إذا كانت الولايات المتحدة ترغب في محو وصمة أبو غريب فإنها تحتاج إلى التحقيق مع من هم في المناصب العليا الذين أمروا بتلك الاعتداءات أو غضوا الطرف عنها وأن يكونوا صريحين بخصوص ما سمح به الرئيس»، وأضاف: «على واشنطن أن ترفض بوضوح إساءة معاملة المعتقلين باسم الحرب على الإرهاب»[1].

(١) "Abu Ghraib Only the 'Tip of the Iceberg.'" *Human Rights Watch Report*, April 27, 2005.

كثير من المعتدين، قليل من المُعاقَبين، الضباط يحصلون على جولة مجانية

دعونا نوضح الأمور بخصوص الانتهاكات في حق المعتقلين في العراق وأفغانستان وخليج جوانتانامو في كوبا. تشير تصريحات عسكرية حديثة إلى تسجيل أكثر من ٦٠٠ اتهام بالاعتداء في ٢٠٠١. من بينها ١٩٠ لم تجرَ بشأنها أية تحقيقات أو لا توجد تحقيقات معروفة بخصوصهم؛ «المُعتَدين الأشباح». وثمة على الأقل ٤١٠ خرج التحقيق فيها بالنتائج التالية: ١٥٠ تعرضوا لإجراءات عقابية، ٧٩ حوكموا عسكريًا، ٥٤ وجد أنهم مذنبون، ١٠ حكم عليهم بأكثر من سنة في السجن، ٣٠ حكم عليهم بأقل من سنة، ١٤ لم يدخلوا السجن، ١٠ تمت تبرئتهم، وهناك ١٥ حالة قيد الانتظار أو أسقطت عنهم التهم، ٧١ عوقبوا إداريًا لا قضائيًا. إذا قمنا بعملية جمع بسيطة سنجد أن ٢٦٠ قضية تم حفظها لعدم كفاية الأدلة في أبريل ٢٠٠٦، وقت نشر التقرير[1]. أحد مدربي الكلاب العريف مايكل سميث (Michael Smith) حكم عليه بستة أشهر في السجن لاستخدامه الكلب غير المكمم في تعذيب السجناء، تمسك بأقواله: «كنت أنفذ الأوامر بتليين السجناء من أجل الاستجواب». ذُكر أيضًا أنه قال: «لم يكن يفترض بالجنود أن يكونوا ناعمين حنونين»، وهو لم يكن كذلك[2].

في ١٠ أبريل، ٢٠٠٦، لم تكن هناك أية أدلة على أن الجيش حاول مجرد محاولة محاكمة ضابط واحد على الأقل على أساس مسؤولية القيادة عن إدارة الاعتداءات شخصيًا أو من هم تحت إمرتها. في التقرير المفصل عن كل الاعتداءات التي جرى التحقيق فيها، اتهم خمسة ضباط فقط جنائيًا، ولم يتهم أحدهم على أساس عقيدة المسؤولية. تكون القيادة العسكرية رحيمة مع الضباط الذين يخطئون بإخضاعهم لجلسات استماع غير قضائية ومذكرات إدارية تستخدم للمخالفات الصغيرة وتسفر عن عقوبات ضعيفة. هناك أيضًا أكثر من ٧٠ حالة انتهاكات جنائية خطيرة، من بينها ١٠ عمليات قتل و٢٠ حالة اعتداء. يمتد

---

(١) E. Schmitt, "Few Punished in Abuse Cases," *The New York Times*, April 27, 2006, p. A24.

الموجز مبني على أساس التقرير الكامل الذي أعده مركز جامعة نيويورك لحقوق الإنسان والعدالة الدولية بالتعاون مع منظمة مراقبة حقوق الإنسان (*HRW*) وكذلك (Rights First). جمع الباحثون إحصاءات ١٠٠,٠٠٠ ملف حصلوا عليها استنادًا إلى قانون حرية تداول المعلومات. وقد رصدوا أن ثلثي الاعتداءات وقعت في العراق.

(٢) "Abu Ghraib Dog Handler Gets 6 Months," *CBS News Video Report*, May 22, 2006.

متاح على:

www.cbsnews.com/stories/2006/03/22/iraq/main1430842.shtml

هذا التساهل إلى المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) في ١٠ حالات اعتداء على الأقل ارتكبها ٢٠ متعاقدًا مدنيًا يعملون مع المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) أو الجيش. لذلك يتضح أن الاعتداء على المعتقلين كان منتشرًا بصورة أبعد بكثير من حدود أبو غريب، والأكثر بعد أن هناك إخفاقًا عامًا في تحمل مسؤولية القيادة في جميع تلك الحالات الكثيرة من اعتداء وتعذيب[١].

صعود منظمة مراقبة حقوق الإنسان في تسلسل القيادة

بعد التوثيق المُفصَّل للاعتداءات واسعة النطاق التي ارتكبها جنود الشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية والمخابرات المركزية الأمريكية (CIA) والمتعاقدون المدنيون الذين عملوا كمحققين، واصلت منظمة حقوق الإنسان (HRW) الطريق صعودًا لتقترب من القيادة في اتهاماتها بالمسؤولية الجنائية عن جرائم الحرب والتعذيب.

«في حين توجد عقبات سياسية كبيرة أمام التحقيق مع وزير الدفاع أثناء شغله منصبه وبعض كبار المسؤولين الآخرين؛ كانت طبيعة الجرائم جادة للغاية، وتكاثرت الأدلة المتوفرة الآن على الأخطاء، وسيكون عدم صعود حكومة الولايات المتحدة بالتحقيقات إلى المستويات الأعلى بمثابة تهاون واضح. ستبقى جميع مظاهر «الاشمئزاز» تجاه صور أبو غريب التي يبديها الرئيس جورج و. بوش وآخرون بلا معنى حتى تتم محاسبة جميع من صمّم أو أجاز تلك السياسات غير القانونية في أبو غريب. إن لم تحدث محاسبة حقيقية على تلك الجرائم سيستمر مرتكبو تلك الفظائع حول العالم لسنوات قادمة بالإشارة إلى معاملتهم للسجناء لتجنب أي انتقاد لممارساتهم. عندما تسحق القانون حكومة بقوة وتأثير حكومة الولايات المتحدة القانون أمام التعذيب فإن هذا يدعو الباقين ضمنيًا إلى تبني نفس الأعمال. تحتاج واشنطن إلى تأكيد مصداقية ادعاءها بأنها نصيرة حقوق الإنسان، تلك المصداقية التي حطّمها الكشف عن التعذيب، وسيستمر تدمير تلك المصداقية إذا ما استمرت سياسات التعذيب واستمر تحصين صناع هذه السياسة»[٢].

---

(١) التقرير الكامل عن الاعتداءات وإخفاق محاكمات الضباط المذنبين متاح على:
Http://humanrightsfirst.info/PDF/06425-etn-by-the-numbers.PDF.

(٢) التقرير الكامل لمنظمة مراقبة حقوق الإنسان (*HRW*) شاملاً للاقتباسات التي استخرجتها منه متاح على:
Http://www.hrw.org/reports/2005/us0405/1.htm

وهناك قسم إضافي على(/2.htm).

نزع حصانة مهندسي السياسة غير المشروعة

يقر قانون الولايات المتحدة وكذلك القانون الدولي بمبدأ «مسؤولية القيادة» أو «المسؤولية العليا»، والتي يمكن من خلالها إدانة الأفراد المدنيين والعسكريين جنائيًا على جرائم ارتكبها من هم تحت قيادتهم. هناك ثلاثة عناصر مطلوبة لتحقق تلك المسؤولية: **أولًا**: يجب أن توجد علاقة رئيس ـ مرؤوس. **ثانيًا**: يجب أن يكون الرئيس على علم بأن المرؤوس كان على وشك ارتكاب جريمة أو أنه قد ارتكب الجريمة بالفعل أو أن يكون لدى الرئيس سبب يدعوه للعلم بذلك. **ثالثًا**: من الضروري أن يكون الرئيس قد أخفق في اتخاذ الاحتياطات المطلوبة لمنع الجريمة وعقاب المجرم.

يُعاقِب على جرائم الحرب والتعذيب بموجب مادة جرائم الحرب لسنة ١٩٩٦م ومادة منع التعذيب لسنة ١٩٩٦م من القانون الموحد للعدالة العسكرية (Uniform Code of Military Justice-UCMJ). تواصل منظمة حقوق الإنسان بالقول أن لديها انطباعًا أوليًّا بضمن فتح تحقيقات جنائية مع أربعة مسؤولين: وزير الدفاع دونالد رامسفيلد، المدير السابق للمخابرات المركزية الأمريكية جورج تينيت، الفريق ريكاردو سانشيز، العميد جوفري ميللر.

يمكنني هنا إيجاد بعض التبريرات التي أدت إلى اعتبار كلٌ من هؤلاء مسؤولًا عن أعمال التعذيب والاعتداء التي ارتكبت على مرأى منهم. تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان يقدم وصفًا كاملًا وأدلة مؤيدة.

محاكمة وزير الدفاع دونالد رامسفيلد

قال رامسفيلد [للجنة مجلس الشيوخ للخدمات المسلحة (Senate Armed Services Committee)]: «لقد وقعت تلك الأحداث أمام عيني. بصفتي وزيرًا للدفاع أنا مسؤول عنها. أتحمل المسؤولية كاملة»[1].

تؤكد منظمة حقوق الإنسان أن «الوزير رامسفيلد يجب أن يخضع للتحقيق على خلفية ارتكابه لجرائم حرب وتعذيب نفذتها قوات الولايات المتحدة في أفغانستان والعراق وجوانتانامو بناءً على عقيدة «مسؤولية القيادة»؛ فالوزير رامسفيلد خلق الأوضاع التي سمحت للقوات بارتكاب جرائم حرب وتعذيب عن طريق تهميش معاهدة جنيف[2] والحط

(١) شهادة وزير الدفاع رامسفيلد أمام الكونجرس في جلسة استماع مجلس الشيوخ عن إساءة معاملة السجناء:
Senate Armed Services Committee on Mistreatment of Iraqi Prisoners, Federal News Service, May 7, 2004.

(٢) www.genevaconventions.org/.

منها وكذلك جميع المعاهدات المناهضة للتعذيب بتصديقه على إخفاء المعتقلين عن منظمة الصليب الأحمر الدولية». يواصل تقرير منظمة حقوق الإنسان:

«من أول أيام أفغانستان كان الوزير رامسفيلد على علم من خلال التقارير، إما تقارير منظمة الصليب الأحمر الدولية أو الأخبار المنتشرة في الصحافة؛ عن ارتكاب القوات لجرائم حرب ويشمل ذلك أعمال تعذيب، لكن لا توجد أدلة على أنه استخدم سلطاته محذرًا أن إساءة المعاملة يجب أن تتوقف. لو فعل ذلك كنا سنتجنب العديد من الجرائم التي ارتكبتها القوات.

يمكن أن يحدد التحقيق أيضًا ما إذا كانت أساليب الاستجواب القانونية التي صدَّق وزير الدفاع دونالد رامسفيلد على استخدامها في جوانتانامو هي نفسها التي أدت إلى المعاملة غير الإنسانية للمعتقلين هناك قبل إلغائه هذا التصديق على استخدامها بدون تصريح. يمكن أيضًا فحص ما إذا كان وزير الدفاع رامسفيلد قد صدَّق على برنامج سري يحرض على الإكراه الجسدي والإهانة الجنسية للسجناء في العراق كما يزعم الصحفي سيمور هيرش. إذا كان أي من الأمرين حقيقيًا؛ فمن المحتمل إذًا أن يكون وزير الدفاع رامسفيلد بالإضافة إلى مسؤوليته القيادية متورطًا بوصفه مُحرِّضًا على الجرائم ضد المعتقلين».

سمح رامسفيلد بسلسلة من أساليب الاستجواب التي تجاوزت معاهدة جنيف والمعاهدة المناهضة للتعذيب لاستخدامها ضد المعتقلين في جوانتانامو، ثم انتقلت بعد ذلك إلى سجون أفغانستان والعراق. من بين تلك الأنشطة المستخدمة لإعداد السجناء للاستجواب نجد ما يلي:

- استخدام أوضاع مجهدة (مثل الوقوف) لمدة أربع ساعات كحد أقصى والعزل لمدة تصل إلى ٣٠ يومًا.
- من الممكن أن يوضع غطاء على رأس المعتقل أثناء نقله من أجل الاستجواب.
- الحرمان من الضوء والمحفزات السمعية.
- إزالة كل وسائل الراحة (بما في ذلك الوسائل الدينية).
- التشذيب القسري (حلق اللحية... إلخ).
- نزع الملابس.
- استغلال الخوف المَرَضي إن وجد لدى بعض المعتقلين (مثل الخوف من الكلاب) لخلق الضغط العصبي.

من ذلك أيضًا إجراءات تشغيلية قياسية دعت إلى تعريض المعتقلين لدرجات حرارة وبرودة وضوء وضوضاء شديدة.

حذرت لجنة الصليب الأحمر الدولية (CIRC) وزارة الدفاع مرارًا من تعذيب المعتقلين والاعتداء عليهم في مايو ٢٠٠٣ (قبل الكشف العلني عن سجن أبو غريب) ومرة أخرى في فبراير (٢٠٠٤)[١]، فقد ذكرت منظمة الصليب الأحمر الدولية مزاعم باعتداءات على السجناء في عدد من المنشآت العسكرية، وقدمت طلبات متكررة باتخاذ خطوات عاجلة في سبيل وقف تلك الاعتداءات. قوبلت تلك المخاوف بالتجاهل، وزادت حدة الاعتداءات، وأُبعِد مفتشو منظمة الصليب الأحمر الدولية. قدمت المنظمة بثقة إلى مسؤولي قوات التحالف في تقريرها الصادر في فبراير ٢٠٠٤ الانتهاكات التالية ضد «أشخاص مكفولةٌ حمايتهم محرومين من حريتهم» أثناء اعتقالهم من قبل قوات التحالف، شددت منظمة الصليب الأحمر الدولية على ما يلي:

- الوحشية عند الاعتقال قبل الاحتجاز مما كان يؤدي في بعض الأحيان إلى الوفاة أو الإصابات الخطيرة.
- الإكراه النفسي والبدني أثناء الاعتقال لضمان الحصول على معلومات.
- الاحتجاز لفترات طويلة في زنازين خالية من الضوء.
- الاستخدام المفرط غير الملائم للقوة الذي يؤدي إلى الموت أو الإصابة أثناء فترات الاعتقال.

علّق مارك دانر أستاذ الصحافة بجامعة كاليفورنيا على كل الوثائق ذات الصلة في كتابه [التعذيب والحقيقة: أمريكا، أبو غريب والحرب على الإرهاب (Torture and Truth: America, Abu Ghraib and the War on Terror]. انتهى دانر في تحقيقه المُفَصَّل إلى: «عندما تقرأ الملفات تجد أن وزير الدفاع دونالد رامسفيلد كان متورطًا بصفة شخصية في التصديق على الإجراءات التي تجاوزت القانون العسكري والقانون المدني فيما يتعلق بحدود معاملة السجناء»[٢].

محاكمة المدير السابق للمخابرات المركزية الأمريكية جورج تينيت

اتهمت المنظمة الدولية لحقوق الإنسان مدير المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) جورج تينيت بارتكابه عددًا من الانتهاكات. قامت المخابرات المركزية الأمريكية في قيادته

---

(١) «تقرير لجنة الصليب الأحمر الدولية (*ICRC*) عن معاملة قوات التحالف لأسرى الحرب وأفراد آخرين خاضعين للحماية بموجب معاهدة جنيف في العراق أثناء الاعتقال والسجن والاستجواب»، فبراير ٢٠٠٤، انظر:
http://download.repubblica.it/pdf/rapporto_crocerossa.pdf

(٢) اقتباس من:
"A Question of Torture." PBS *Frontline*. October 18, 2005.

ـ ويقال بتوجيه منه شخصيًا ـ بتعذيب المعتقلين عن طريق «الإيهام بالغرق» ومنع أدويتهم عنهم، واستخدمت الـ(CIA) أساليب أخرى تتضمن الخنق، وترك السجين في أوضاع مجهدة، وتعريضه لأضواء وأصوات شديدة، والحرمان من النوم، وجعل السجناء يعتقدون أنهم تحت سلطة قوات أجنبية معروفة بممارسة التعذيب بشكل مستمر. تركت الـ(CIA) تحت إدارة جورج تينيت المعتقلين لحكومات أخرى كانت تقوم بتعذيبهم. وتحت إدارته وضعت الـ(CIA) المعتقلين في مواقع سرية تجعلهم بلا أية حماية، ولا أي مصادر للعلاج من أي نوع، ولا أي اتصال مع العالم الخارجي، وتحت رحمة سجانيهم بشكل كامل، متجاوزة بذلك الحماية القانونية التي يتمتعون بها. هؤلاء المعتقلين الذين وضعوا في اعتقال طويل بلا اتصال قد «اختفوا» تمامًا.

هل تَذكرون تقرير فاي ـ جونز الذي انتهى إلى أن «ممارسات الاعتقال والاستجواب لدى الـ(CIA) أدت إلى ضعف المحاسبة، وإلى الاعتداء، وإلى تقليل التعاون الداخلي بين الوكالات المختلفة وإلى أوضاع غير صحية زادت من سمية المناخ في أبو غريب». في الحقيقة عملت الـ(CIA) بقواعدها الخاصة البعيدة عن القانون.

طوّرت الـ(CIA) في إدارة تينيت ممارسات موَسّعَة تستخدم «المعتقلين الأشباح». كم عددهم؟ لن نعرف أبدًا بصورة يقينية، لكن قال الجنرال بول كيرن الذي أشرف على تحقيق فاي ـ جونز، [لجنة مجلس الشيوخ للخدمات المسلحة (Senate Armed Services Committee)]: «عدد [المعتقلين الأشباح] كبير ربما يصل إلى ١٠٠». أبقت الـ(CIA) الرقم بعيدًا عن السجلات في أبو غريب ليبقى بعيدًا عن عين منظمة الصليب الأحمر الدولية.

«رجل الثلج»، مقتولًا، ومرميًا

يذكر تقرير فاي ـ جونز واحدة من حالات «السجين الشبح» تلك: «في نوفمبر ٢٠٠٣ جُلِب معتقل عراقي اسمه مناضل الجمادي[1] إلى السجن عن طريق السيلز البحرية (SEALS)، وقام باستجوابه أحد وكلاء المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)، لم يُسجّل رسميًا أبدًا. الجمادي «عُذِّب حتى الموت»، لكن أُخفي سبب موته كالمعتاد».

سلطت المحققة الاستقصائية جين ماير الضوء على الدور الشنيع الذي لعبته الـ(CIA) في عملية القتل والتستّر المريعة. يثير تحقيقها المذهل «استجواب قاتل (A Deadly

(١) ورد الاسم في بعض المصادر العربية: «مناضل الجميلي» ﷺ، انظر مثلاً: تقرير صحيفة الشرق الأوسط عن ظروف مقتله، عدد ٩٣٤٢، الصادر بتاريخ ١٩ ربيع الثاني ١٤٢٥هـ/٨ يونيو ٢٠٠٤م. (المحرر).

(Interrogation)» في مجلة نيويوركر (١٤ نوفمبر، ٢٠٠٥) السؤال: «هل يمكن أن تقتل الـ(CIA) سجينًا بشكل قانوني؟».

قضية الجمادي على وجه الخصوص مُهمةٌ لنا لفهم السياق السلوكي في أبو غريب الذي عمل فيه تشيب فريدريك و«الجنود الفاسدون» الآخرون. لقد سحقتهم البيئة التي رأوا فيها المعتقلين الأشباح يتعرضون لمعاملة همجية بشكل دوري، يعذبون بل ويقتل بعضهم. لقد رأوا المجرمين أمام أعينهم «يفلتون بجريمة القتل».

ما حدث للمعتقلين العاديين كان بالتأكيد مجرد «ألعاب تسلية» مقارنة بما حدث لهذا المعتقل الشبح مناضل الجمادي المعروف باسم رجل الثلج، فهم يعرفون أنه تعرض للضرب والخنق حتى الموت، ثم وضعت جُثته في الثلج.

كان الجمادي هدفًا ذا قيمة عالية للاستجواب، يُقال إنه كان يورد القنابل للمتمردين. ألقى فريق من قوات سيلز البحرية القبض عليه في منزله خارج بغداد في ٤ نوفمبر، ٢٠٠٣، في الساعة ٠٢:٠٠ صباحًا، وقد انتهى بعيون سوداء من شدّة التورّم وقطع في وجهه، وربما اثني عشر ضلعًا مكسورًا بسبب المقاومة العنيفة. سلّمت قوات سيلز (SEALS) الجمادي إلى الـ(CIA) في أبو غريب من أجل الاستجواب بقيادة مارك سوانر. اصطحب وكيل المخابرات هذا مترجمًا وأخذا الجمادي إلى غرفة احتجاز وقاما بتعريته تمامًا، وبدأ يصرخ في وجهه ويسأله عن أماكن الأسلحة.

وفقًا لرواية ماير (Myer) المنشورة في نيويوركر، فإن سوانر طلب من فرد الشرطة العسكرية أن يأخذ السجين إلى الرصيف A1، إلى غرفة الاستحمام من أجل الاستجواب. تلقى اثنان من أفراد الشرطة العسكرية أوامر من (هذا المدني المجهول الاسم) بتقييد السجين إلى الحائط على الرغم من كونه مستسلمًا تمامًا. طلب منهم أولًا تعليقه في وضعية تعذيب معروفة باسم «التعليقة الفلسطينية». (استخدمت لأول مرة أثناء محاكم التفتيش الإسبانية وكانت تُعرف باسم سترابادو)[1]. بعد مغادرتهم الغرفة، يتذكر أحد أفراد الشرطة العسكرية: «سمعنا كثيرًا من الصراخ». بعد أقل من ساعة مات مناضل الجمادي.

---

(١) (Palestine Hanging) «التعليقة الفلسطينية»: وضعية تعذيب وحشية تقيّد فيها أكف الضحية خلف ظهره، ثم يربط من خلال تعليق يديه المقيدتين من المعصمين بالسقف مما يؤدي عادةً إلى خلع الكتفين، وربما تؤدي إطالة مدة هذه الوضعية إلى الموت. (المحرر).



المجندة سابرينا هارمان تبتسم فوق جثة مناضل الجمادي وهي تشير رافعة إبهامها

قال والتر دياز (Walter Diaz) حارس الشرطة العسكرية المكافأ بالخدمة وقتها: «لم يكن هناك أي داعٍ لمعاملته بهذه الوضعية، خاصةً وأنه كان مقيدًا ولم يقاوم على الإطلاق». عندما طلب سوانر من فرد الشرطة العسكرية أن ينزل الرجل الميت من على الحائط؛ يقول دياز: «خرج الدم من أنفه وفمه وكأنه صنبور فُتح».

كانت مشكلة المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) الآن هي كيفية التصرف مع جثمان القتيل الضحية. أُبلغ النقيب دونالد ريس قائد الشرطة العسكرية والعقيد توماس باباس قائد المخابرات العسكرية بالحادثة المؤسفة التي وقعت أثناء نوبتهم. لم يكن هناك ما يدعوهم للقلق لأن الـ(CIA) تولت الأمر بيدٍ خفية. أُبقي الجمادي في غرفة الاستحمام حتى صباح اليوم التالي موضوعًا في الثلج مربوطًا بشريط لاصق شفاف لتأخير تحلل جثمانه، وفي اليوم التالي حقن الطبيب حقنة وريدية في ذراع «رجل الثلج» وأمر بنقله خارج السجن على نقالة وكأنه ما زال على قيد الحياة ولكنه مريض حتى لا يحزن السجناء الآخرون الذين قيل لهم أنه تعرض لأزمة قلبية. حمل سائق سيارة أجرة محلّي الجثمان بعيدًا إلى مكان غير معروف، تم إتلاف جميع الأدلة ولا توجد أية أدلة مكتوبة لأن الجمادي لم يسجل رسميًا. برّأت القوات الخاصة البحرية سيلز (SEALS) من مسؤوليتها في التعامل مع الجمادي، لم يُعرَف الطبيب، وبعد سنوات استمر مارك سوانر في عمله في الـ(CIA) بلا أية تهم جنائية ضده؛ فقد حفظت القضية.

من بين جميع صور الرعب المسجلة في كاميرا العريف جرانر كانت هناك صور كثيرة لنفس الشخص، «رجل الثلج»، مُسجَّلة لتبقى في الذاكرة لأجيال القادمة. أولًا، كانت هناك صورة لسابرينا هارمان (Sabrina Harman) الفتاة الجذابة، مبتسمة مائلة فوق جسد الجمادي المضروب بشدة وهي تشير رافعة إبهامها، ثم ظهر جرانر في الصور ليضيف ابتسامة تؤكد على ابتسامتها قبل أن يذوب «رجل الثلج» بعيدًا. بالتأكيد كان تشيب وبقية حراس نوبة الليل قد علموا لتوّهم بما جرى في الأسفل. إن كان من الممكن أن يعالج أمر كهذا بمثل هذه السهولة؛ فإن سجن الرصيف A1 إذًا هو بمثابة «غرفة اللعب» حيث يمكن أن يحدث أي شيء. لو لم يلتقطوا تلك الصور ثم يقوم داربي بإطلاق الإنذار؛ ربما لم يكن العالم ليعرف أبدًا عما جرى في هذا المكان الذي كان سريًّا في السابق.

ومع ذلك استمرت الـ(CIA) بلا تقييد من أي قانون يمكن أن يمنع وكلاءها من تعذيب الناس وقتلهم حتى في الحرب العالمية ضد الإرهاب. من المثير للسخرية أن سوانر أقر بأنه لم يحصل على أية معلومات مفيدة من هذا المعتقل الشبح المقتول.

محاكمة الفريق ريكاردو سانشيز

مثل رامسفيلد، أقرّ الفريق ريكاردو سانشيز علانية بمسؤوليته: «باعتباري قائدًا بارزًا في العراق، أتحمل مسؤولية ما حدث في أبو غريب»[1]، لكن من المفترض أن تترتب على تلك المسؤولية نتائج وألا توظف بوصفها فرصة للظهور في وسائل الإعلام. تضيف منظمة حقوق الإنسان أن ذلك القائد مع أربعة آخرين يجب أن يحاكموا على جرائم التعذيب وجرائم الحرب. يقول تقريرها:

> «يجب أن يخضع الفريق سانشيز للتحقيق في جرائم الحرب والتعذيب بصفته مسؤولًا مباشرًا أو في ظل عقيدة «مسؤولية القيادة»، فقد أجاز الجنرال سانشيز أساليب استجواب تنتهك معاهدة جنيف والمعاهدات المناهضة للتعذيب. بحسب منظمة حقوق الإنسان؛ كان يعرف، أو كان يجب أن يكون على علم، بأن التعذيب وجرائم الحرب كانت تمارس من قبل القوات العاملة تحت قيادته المباشرة، لكنه أخفق في اتخاذ الإجراءات اللازمة لإيقاف تلك الأفعال».

أُحاكِم الجنرال سانشيز في هذا الكتاب لأنه في الحقيقة، بكلمات تقرير منظمة حقوق الإنسان، «أصدر قواعد استجواب وتقنيات تنتهك معاهدات جنيف والمعاهدة المناهضة

(١) شهادة الفريق ريكاردو سانشيز أمام لجنة الخدمة المسلحة بمجلس الشيوخ، جلسة استماع عن الاعتداء على السجناء (*Hearing on Iraq Prisoner Abuse, May 19, 2004*).

للتعذيب، وكذلك كان على علم أو من الضروري أنه كان يجب أن يكون على علم بالتعذيب وجرائم الحرب التي ترتكبها القوات التي تعمل تحت قيادته».

بسبب نقص «المعلومات التي تقتضي التدخل» والتي يتحصّل عليها في جوانتانامو على الرغم من شهور من الاستجواب المتواصل، كان الضغط يزداد على الجميع من أجل الوصول إلى الأدلة التي تدين الإرهابيين وفعل هذا مباشرة بكل الوسائل الضرورية. ذكر مارك دانر رسالة بريد إلكتروني أرسلها نقيب المخابرات العسكرية النقيب ويليام بونس إلى زملائه يحثهم فيها على تقديم «قائمة أسماء من يرغبون في التحقيق معهم» في منتصف أغسطس ٢٠٠٣. قال وقد غمس رسالته بنذير شؤم لما كان سيحدث في أبو غريب: «سننزع قفازاتنا أيها السادة بخصوص هؤلاء المعتقلين». استمرت رسالته، «أوضح العقيد بولتز [الثاني في ترتيب قيادة المخابرات العسكرية في العراق] تمامًا أننا نريد تحطيم أولئك الأشخاص؛ فالخسائر تتزايد ونريد أن نساعد في حماية زملائنا الجنود من أية هجمات أخرى»[(١)].

رأس الجنرال جوفري ميللر ـ الذي كان قد اختير لتوه ليكون مسؤولًا عن منشآت الاعتقال في جوانتانامو ـ فريقًا زائرًا من المتخصصين قام بزيارة العراق في الفترة من أغسطس إلى سبتمبر ٢٠٠٣. كانت مهمته هي نشر سياسات استجواب جديدة قاسية أمام الجنرال سانشيز وكابرينسكي وضباط آخرين. «وضع الجنرال ميللر أصبعه على صدر الجنرال سانشيز وقال له أنه يريد المعلومات»، بحسب رواية الجنرال كابرينسكي[(٢)]. لم يكن ميللر قادرًا على تحريك هؤلاء الضباط من حوله إلا بدعم واضح من رامسفيلد وضباط بارزين آخرين، استنادًا إلى نجاحاتهم المزعومة في جوانتانامو.

صاغ سانشيز قواعد الاستجواب الجديدة في نشرة أعلنت في ١٤، سبتمبر، ٢٠٠٣، قدم فيها معايير أكثر قسوة مقارنة بممارسات الشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية[(٣)]. بعضها كان هدفه المعلن هو «صناعة الخوف وصدمة الأسر وإرباك المعتقلين». كان مصدر تلك الأساليب الجديدة المصدق عليها رامسفيلد من طريق ميللر، من ذلك أيضًا:

> «وجود كلاب عسكرية: استغلال رُهَاب العرب من الكلاب مع الاحتفاظ بإجراءات الأمان أثناء الاستجواب. يمكن أن تستخدم الكلاب المكممة في ظل تحكم... مدربها في كل الأوقات لمنع أي احتكاك بالمعتقلين.

---

(١) Mark Danner, *Torture and Truth: America, Abu Ghraib and the War on Terrorism* (New York: The New York Review of Books, 2004), p. 33.

(٢) جانيس كابرنسكي، لقاء عن قضية التعذيب:
"A Question of Torture," PBS *Frontline*, October 18, 2005.

(٣) مذكرة الفريق ريكاردو سانشيز إلى القيادة المركزية، الاستجواب وسياسة المقاومة المضادة متاح على:
Http://nsarchive.gwu.edu/torturingdemocracy/documents/20030914.pdf

إدارة النوم: يسمح للمعتقل بالنوم لأربع ساعات كحد أقصى كل أربع وعشرين ساعة، ولا تتجاوز فترة الإيقاظ ٧٢ ساعة متواصلة.

الصياح، الموسيقى الصاخبة والضوء: يستخدم هذا لخلق الرعب وإرباك المعتقل وإطالة مدة صدمة الأسر، وبصوت تحت التحكم لمنع الإصابات.

ضغط السجن: استخدام أوضاع مجهدة (الجلوس، الوقوف، الركوع، التمدد... إلخ) لمدة لا تزيد عن ساعة. استخدام التقنيات لا يزيد عن ٤ ساعات وبفترات راحة مناسبة بين الأوضاع.

إشارات مزيفة: إقناع المعتقلين أن أشخاصًا من دولٍ غير الولايات المتحدة سيحققون معهم».

أشار تقرير شليزنجر إلى اثنتي عشرة تقنية لسانشيز تجاوزت المسموح به في كتيب التعليمات العسكرية ٣٤ ـ ٥٢ وكانت كذلك أكثر عنفًا من تلك المجازة للاستخدام في جوانتانامو، فقد ظهرت مذكرة سانشيز للعلن في مارس ٢٠٠٥ على إثر دعوى قضائية رفعتها منظمة (FDIA). حدث هذا بعد عام من كذب الجنرال سانشيز على مجلس الشيوخ في شهادة مع حلف اليمين (في مايو ٢٠٠٤) بأنه لم يأمر أبدًا أو يصدق على استخدام أية وسائل تهديد باستخدام الكلاب أو الحرمان من النوم أو الضوضاء المفرطة أو إحداث الخوف. يجب أن يحاكم على كل ما ذكر أعلاه.

رأي بطلنا المبلّغ عن الفساد جو داربي في مدى تورط القيادات العسكرية في إدارة الاعتداءات على المعتقلين يقول فيه: «لم يعرف أحد في القيادة بتلك الاعتداءات لأنه لم يوجد من بينهم من اهتم بما يكفي ليعرف، كانت هذه هي المشكلة الحقيقية. كامل بنية القيادة كانت غافلة، تعيش في عالمها الخاص الصغير. لذلك لم تكن مؤامرة؛ بل كان إهمالًا بكل بساطة، لم يكترثوا»[1]. أُجبر الجنرال سانشيز على التقاعد مبكرًا (١ نوفمبر، ٢٠٠٦) من قبل النخبة العسكرية العليا لدوره في فضيحة أبو غريب، أقر قائلًا «هذا هو السبب الرئيسي، السبب الوحيد، لإجباري على التقاعد»[2].

محاكمة العميد جوفري ميللر

تؤكد منظمة حقوق الإنسان أن «العميد جيوفر ميللر بصفته قائدًا لمجمع سجون محكوم بصرامة في خليج جوانتانامو في كوبا؛ يجب أن يخضع للتحقيق على خلفية دوره ومسؤوليته المحتملة في جرائم حرب وأعمال تعذيب ارتكبت ضد المعتقلين هناك». كان

(١) Joseph Darby interview, *GQ magazine*, September 2006.

(٢) Guardian Unlimited, November 2, 2006, "U.S. General Says Abu Ghraib Forced Him Out".

أيضًا على «علم ـ أو كان يجب أن يعلم ـ بأن القوات التي تعمل تحت قيادته كانت ترتكب جرائم حرب وأعمال تعذيب ضد المعتقلين في جوانتانامو». كذلك، «من المحتمل أن الجنرال ميللر قدّم أساليب استجواب للعراق كانت هي السبب الأقرب للتعذيب وجرائم الحرب التي ارتكبت في أبو غريب».

كان الجنرال ميللر قائد قوات المهام المشتركة ـ جوانتانامو (JTF-GTMO) من نوفمبر ٢٠٠٢ حتى أبريل ٢٠٠٤ حيث أصبح رئيس أركان عمليات الاعتقال في العراق، وبقي في منصبه حتى ٢٠٠٦. أرسل إلى جوانتانامو ليحل مكان الجنرال ريك باكوس (Rick Baccus) الذي قالت قياداته أنه كان «يدلل» السجناء بإصراره على الالتزام بإرشادات معاهدة جنيف بدقة. باختصار، «سجن إكس» تحول إلى «سجن دلتا» بوجود ٦٢٥ سجينًا، و١٤٠٠ فرد شرطة عسكرية ومخابرات عسكرية، والكثير من الضغط.

كان ميللر مُجدِّدًا وطوّر فرق استجواب متخصصة أدخلت لأول مرة مع قوات المخابرات العسكرية والشرطة العسكرية لِتخترق الخط المنيع السابق في الجيش. في سبيل اقتحام رؤوس السجناء؛ اعتمد ميللر على الخبراء. «جلب علماء سلوكيات، كانوا علماء نفس وأطباء نفسيين [عسكريين ومدنيين]، وكانوا يبحثون عن نقاط الضعف النفسية، عن مكامن الهشاشة وعن أنسب الأساليب للتلاعب بالسجناء بهدف جعلهم يتعاونون، كانوا يبحثون عن النقط الحساسة النفسية والثقافية»[1].

حاول ميللر باستخدام السجل الدوائي للسجناء جعل المحققين يبعثون الإحباط في نفوس السجناء ويحطمونهم. قاوم السجناء؛ كانت هناك إضرابات عن الطعام، أقدم ١٤ سجينًا على الأقل على الانتحار[2]. مؤخرًا، انتحر ثلاثة معتقلين في جوانتانامو بشنق

---

(١) *The New Yorker*'s Jane Mayer, quoted on "A Question of Torture," PBS *Frontline*, October 18, 2005.

(٢) مؤخرًا في (يونيو ٢٠٠٦)، دخل ٩٠ معتقلاً في جوانتانامو في إضراب مفتوح عن الطعام لإعلان رفضهم لاعتقالهم غير المبرر. تجاهل قائد البحرية هذا الفعل؛ لأنه لا يعدو كونه أكثر من أسلوب «لفت الانتباه». اضطر الضباط إلى عملية إطعام إجباري يومية عبر أنابيب أنفية لستة منهم على الأقل بواسطة أطباء ليمنعوا موتهم. وعلى الرغم من أن هذا في حد ذاته هو نوع جديد من التعذيب إلا أن المسؤولين زعموا أنه آمن وإنساني. انظر:
Ben Fox, "Hunger Strike Widens at Guantanamo," Associated Press, May 30, 2006, and Andrew Selsky, "More Detainees Join Hunger Strike at Guantanamo," Associated Press, June 2, 2006.

في فصل سابق، ذكرت دور الإضراب عن الطعام مع السجناء السياسيين في إيرلندا وأماكن أخرى لأشير إلى التشابه مع أسلوب سجننا كلاي ٤١٦. من أشهر المضربين الإيرلنديين الذين ماتوا في سبيل قضيتهم بوبي ساندز (*Bobby Sands*)، ومن اللافت أن منظم الإضراب في جوانتانامو، بنيام محمد الحبشي (Binyam Mohammed alHabashi)، قال أنه إما أن تحترم مطالبهم هو والمضربين الآخرين، أو أن يموتوا مثل بوبي ساندز الذي «كان لديه الحافز يستمده من قناعاته وجوّع نفسه حتى الموت. لا يوجد من ظن ولو للحظة بأن إخوتي هنا أقل شجاعة». انظر:

أنفسهم داخل زنازينهم باستخدام الملاءات، لم يسبق لأي منهم أن وجهت له أية اتهامات رسمية بعد الاعتقال لسنوات عديدة. قال أحد متحدثي الحكومة الرسميين ليدينها بشكل علني أنها تحرُّكات للفت الانتباه إليهم[(١)]، وبدلًا من الإقرار بأن تصرفات السجناء هي علامات على يأس واضح؛ قال أحد لواءات البحرية أنها ليست أعمالًا نابعة من اليأس ولكنها «حرب شاذة ضدنا».

خُرِّضت فِرَق استجواب ميللر الجديدة على أن تكون أكثر قسوة بناء على تصريح وزير الدفاع الرسمي الذي سمح فيه باستخدام أشد وسائل التعذيب عنفًا وشراسة. أصبح سجن أبو غريب معمل تجارب ميللر الجديد لاختبار فرضياته حول الوسائل الضرورية للحصول «على معلومات صالحة للتدخل» من السجناء الممانعين. ذهب رامسفيلد إلى جوانتانامو مع مساعده ستيفين كومبون للقاء ميللر والتأكد من أنهما يلعبان نفس اللعبة.

تذكروا أن الجنرال كابرينسكي ذكرتْ أن ميللر قال لها: «يجب أن تُعاملي السجناء معاملة الكلاب، إذا كنت تعتقدين أن هناك أي اختلاف بينهم وبين الكلاب فستفقدين السيطرة على عملية الاستجواب منذ البداية... والأمر ينجح. هذا هو ما نفعله في جوانتانامو»[(٢)].

كذلك نتذكر قول كابرينسكي أن ميللر: «أتى إلى هناك وقال لي أنه سيحول عمليات الاعتقال في أبو غريب إلى نسخة من جوانتانامو»[(٣)]. ذكر العقيد باباس أن ميللر أخبره أن

= Kate McCabe, "'Political Prisoners' Resistance from Ireland to GITMO: 'No Less Courage,'" www.CounterPunch.com, May 5, 2006.

(١) "GITMO Suicides Comment Condemned. U.S. Officials' "Publicity Stunt" Remark Draws International Backlash." Associated Press, June 12, 2006.

كانت المسؤولة الحكومية كولين جرافي (*Colleen Graffy*)، نائبة مساعدة في وزارة العلاقات العامة، وضابط البحرية هو هنري هاريس (*Henry Harris*).

(٢) لقاء جانيس كابرنسكي:

"A Question of Torture," PBS *Frontline*, October 18, 2005.

مشار إليه أيضًا في:

"Iraq Abuse 'Ordered from the Top,'" BBC, June 15, 2004, http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/americas/3806713.stm

عندما وصل ميللر (*Miller*) إلى أبو غريب قال: «أرى أنكم تعاملون السجناء بطريقة شديدة اللطف. في جوانتانامو يعرف السجناء من المسؤول، ويعرفون هذا من البداية». وقال: «عليكم أن تعاملوهم مثل الكلاب، وإذا فكرتم أو شعرتم شعورًا مختلفًا فستفقدون السيطرة»، متاح على:

Https://uncensored.co.nz/2006/02/22/bush-on-trial-for-crimes-against-humanity/(رابط بديل)

(٣) Scott Wilson and Sewell Chan, "As Insurgency Grew, So Did Prison Abuse," *The Washington Post*, May 9, 2004. *Also see Janis Karpinski, One Woman's Army* (New York: Hyperion, 2005), pp. 196-205.

استخدام الكلاب في جوانتانامو أثبت فاعلية في إعداد المناخ الملائم للحصول على المعلومات من السجناء وأن استخدام الكلاب بدون الكمامات لا بأس به»[١].

وللتأكد من الالتزام بأوامره؛ كتب ميللر تقريرًا وحرص على أن يترك لفريقه أسطوانة مدمجة عليها تعليمات مفصّلة يجب اتباعها، ثم أعلن الجنرال سانشيز القواعد الجديدة بعد ذلك والتي حسَّنَت العديد من التقنيات المستخدمة في جوانتانامو. وقد أوضح المقاتل المتقاعد الجنرال بول كيرن العديد من المشكلات التي ظهرت بسبب تطبيق التكتيكات المستخدمة في جوانتانامو داخل أبو غريب: «أعتقد أن الأمر أصبح محيرًا. أقصد، وجدنا في أجهزة الكمبيوتر في أبو غريب مذكرات [لوزير الدفاع رامسفيلد] مكتوبة لتستخدم في جوانتانامو لا أبو غريب. سبَّب هذا الأمر بعض الارتباك»[٢]. لجميع الأسباب المذكورة أعلاه أضيف الجنرال جوفري ميللر إلى قائمة المدعى عليهم في المحاكمة على جرائمهم ضد الإنسانية[٣].

عجزت منظمة مراقبة حقوق الإنسان في اتهاماتها عن الصعود إلى قمة منظومة المسؤولية عن الاعتداءات والتعذيب في أبو غريب: نائب الرئيس ديك تشيني والرئيس جورج و. بوش، أما أنا فلن أتردد، سأضيفهما لاحقًا إلى قائمتنا من المدعى عليهم في المحاكمة. سنوجه إليهم تهم لدورهم في إعداد الأجندة التي أعادت تعريف طبيعة التعذيب، وتعطيل الحماية المكفولة للسجناء بموجب القانون الدولي، وتشجيع المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) على التورط في سلسلة من التكتيكات غير المشروعة والمميتة بسبب هوسهما بما يسمى بالحرب على الإرهاب.

نحتاج في البداية إلى فحص سؤال ما إذا كانت الاعتداءات في الرصيف A1 هي حوادث منفصلة قامت بها قلة من التفاحات الفاسدة أم أن السلوك العنيف كان جزءًا من نمط واسع مُصدَّق عليه ومُقرّ بشكل ضمني وممارس على نطاق واسع، اعتداءات مارسها الكثير من العسكريين والمدنيين المتورطين في عمليات اعتقال واحتجاز واستجواب المتمردين المشتبه بهم. وسيكون ادعائي أن وعاء التفاح بدأ بتفاحات فاسدة في القمة انتقل فسادها إلى أسفل.

---

(١) Jeffrey R. Smith, "General Is Said to Have Urged Use of Dogs," *The Washington Post*, May 26, 2004.

(٢) General Kern in "A Question of Torture," PBS *Frontline*, October 18, 2005.

(٣) اللواء جوفري ميللر، تقاعد من الجيش في ٣١ يوليو، سنة ٢٠٠٦. اختار التقاعد دون السعي خلف أية ترقية أو نجمة ثالثة؛ لأن تاريخه كان بغيضًا بسبب مزاعم دوره المباشر في التعذيب والاعتداء في أبو غريب وجوانتانامو وفقًا لمصادر في الجيش والكونجرس.

تعذيب، تعذيب في كل مكان، وتشويه أيضًا

تمامًا كما فعل في اليوم التالي للكشف عن الصور؛ استمر الجنرال ريتشارد مايرز في إنكار وجود اعتداءات شائعة في النظام ككل، بدلًا من الاعتراف استمر في إلقاء اللوم على «أفراد الشرطة العسكرية السبعة في أبو غريب». قال علانية (في ٢٥ أغسطس، ٢٠٠٥): «أعتقد أن لدينا على الأقل ١٥ تحقيقًا في أحداث أبو غريب وأننا تعاملنا مع الأمر. أقصد، هي صور قليلة - إذا كانت فقط نوبة الليل في أبو غريب، وهو ما كان - فإنه عدد ضئيل من الجنود اشترك في هذا، إنه مؤشر جيد جدًا على أن الأمر لم يكن مشكلة شائعة»[1].

هل قرأ أيًا من تلك التقارير؟ لو لم يقرأ إلا التقارير المستقلة التي أوردتها هنا لرأى بوضوح أن تلك الاعتداءات تتجاوز بكثير أولئك الجنود السبعة الذين ظهروا في الصور من الرصيف A1. تلك التحقيقات تورط قيادات الجيش والمحققين المدنيين والمخابرات العسكرية والمخابرات المركزية وتتهمهم بصناعة الظروف والأوضاع التي جعلت تلك الاعتداءات والتجاوزات ممكنة؛ بل والأسوأ هو مشاركتهم في اعتداءات أفضت إلى موت بعض المعتقلين.

ربما تتذكر أن تقارير لجنة شليزنجر أوردت ٥٥ حالة اعتداء على معتقلين في كل أرجاء العراق، و٢٠ حالة وفاة بين المعتقلين كذلك أثناء استجوابات بطيئة. أورد تقرير ناجوبا الكثير من الاعتداءات الهمجية «الممنهجة» والتجاوزات غير القانونية والاعتداءات على المعتقلين في سجن أبو غريب (المكتوب بخط مائل أضفته أنا). تقرير آخر من البنتاجون سجّل ٤٤ ادعاءًا عن جرائم حرب مشابهة في أبو غريب. نقلت اللجنة الدولية للصليب الأحمر أن معاملتها للسجناء في العديد من السجون العسكرية تشمل القهر النفسي والبدني الذي يساوي التعذيب في قسوته. كذلك يذكر التقرير أن هذه الوسائل التي استخدمها المحققون في أبو غريب «يبدو أنها كانت جزءًا من إجراءات التشغيل التي اعتمدها أفراد المخابرات العسكرية لاستخراج معلومات من المعتقلين». ولقد رأينا لتوّنا الإحصاءات الأخيرة التي تشير إلى حدوث ٦٠٠ حالة اعتداء وتعذيب في مختلف السجون

---

(١) إفادة الجنرال مايرز (*Myers*) عن استمراره في لوم أفراد الشرطة العسكرية «التفاحات الفاسدة» على كل الاعتداءات التي وقعت في أبو غريب مع تجاهله أو إسقاطه لكل الأدلة الآتية من العديد من التحقيقات المستقلة والتي تكشف عن تورط واسع لضباط كبار وعن العديد من الإخفاقات النظامية؛ تشير إما إلى جهله أو رجعيته. متاح على:

Http://www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/torture/etc/script.html

العسكرية الأمريكية في العراق وأفغانستان. هل ما نتحدث عنه هنا يبدو وكأنه حديث عن قلة من التفاحات الفاسدة في سجن فاسد واحد؟

الكشف عن اعتداءات على السجناء على نطاق واسع قبل ابو غريب

على الرغم من أن القيادات الإدارية المدنية منها والعسكرية سعت إلى تهميش الاعتداءات وعمليات التعذيب في العراق لتقف عند مجموعة قليلة من الجنود الذين يعملون في نوبة الليل على الرصيف A1 في شتاء ٢٠٠٣، إلا أن بعض الوثائق العسكرية الجديدة تكذب تلك المزاعم. في ٢ مايو، ٢٠٠٦، أصدر اتحاد الحريات المدنية الأمريكي (ACLU) سجلات تكشف عن أن مسؤولين بارزين في الحكومة كانوا على علم بحالات الاعتداء الشديدة على المعتقلين في العراق وأفغانستان قبل أسابيع من الإعلان عن فضيحة أبو غريب. فصّلت ورقة معلومات بعنوان ادعاءات الاعتداء على المعتقلين في العراق وأفغانستان (Allegation of Detainee Abuse in Iraq and Afghanistan) تعود إلى ٢ أبريل، ٢٠٠٤ القول في ٦٢ تحقيقًا مستمرًا عن اعتداءات وقتل للمعتقلين على يد القوات الأمريكية.

الحالات تشمل الاعتداء، واللكم، والركل، والضرب، وإعدامات وهمية، واعتداءات جنسية، وتعرية المعتقلين، وضربهم وصعقهم بجهاز صاعق كهربائي، وإلقاء الحجارة على أطفال عراقيين مقيدين، وخنق المعتقلين باستخدام الأوشحة ولفها حول أعناقهم، والاستجواب تحت تهديد السلاح. ٢٦ حالة على الأقل انتهت بموت المعتقل، ومرت بعض تلك الحالات بإجراءات محاكمات عسكرية. تجاوزت تلك الاعتداءات أبو غريب لتصل إلى سجن بروكر، وسجن بوكا، ومراكز احتجاز أخرى في الموصل، وسامراء، وبغداد، وتكريت في العراق، وكذلك أرغون في أفغانستان. (انظر الهامش[١] لتحصل على تقرير المنظمة الأمريكية للحريات المدنية بالكامل).

ذُكر في أحد تقارير البنتاجون لدراسة التحقيقات الاثني عشر عن الاعتداءات التي ارتكبها الجيش والتي قادها الجنرال ريتشارد فورميكا (Richard Formica)؛ أن قوات العمليات الخاصة الأمريكية استمرت في استخدام تكتيكات استجواب عنيفة غير مجازة مع المعتقلين لفترة أربعة شهور في بداية ٢٠٠٤، كان هذا بعد اعتداءات أبو غريب ٢٠٠٣

(١) أكثر من ١٠٠,٠٠٠ صفحة من ملفات حكومية ظهرت لتفصّل في الاعتداءات وتعذيب المعتقلين والتي يمكن أن يُبحث عنها في المحرك البحثي لموقع الجمعية الأمريكية للحريات المدنية (ACLU) (www.aclu.org/torturefoiasearch) القصة الكاملة عن المعلومات العسكرية الخاصة بأبريل ٢٠٠٤ موجودة على:

www.rawstory.com/news/2006/New_Army_documents_reveal_US_knew_0502.html

بفترة طويلة على الرغم من اعتماد قرار وقف تلك التكتيكات. بعضهم لم يكن يقدّم له سوى المياه والمكسّرات لفترات تصل إلى سبعة عشر يومًا، يبقون عراة محبوسين في زنازين صغيرة لا يمكنهم فيها الوقوف ولا الاستلقاء لفترات تصل إلى أسبوع، يتجمدون، ويحرمون من النوم، ويخضعون للإجهاد الحسي. وعلى الرغم من تلك النتائج لم يتلق الجنود أي لوم. اعتقد فورميكا أن الاعتداءات لم تكن «مقصودة» ولم تكن بسبب أي «إخفاق شخصي» بل بسبب «إخفاق سياسات غير مناسبة»، وأضاف إلى غسيل اليد هذا أنْ بناءً على ما رصده؛ «لا يبدو أن أيًا من المعتقلين في حالة أسوأ من غيره بسبب تعرضه لمعاملة سيئة»[1] تعليق غريب حقًا!

قوات المارينز تقتل العراقيين بدم بارد

لقد ركّزْتُ على فهم طبيعة الوعاء الفاسد للسجن الذي يمكن أن يفسد الحراس الصالحين، لكن هناك وعاء أكبر وأكثر دموية، نتحدث عن وعاء الحرب. في كل الحروب، في كل الأزمان، في كل البلدان، يتحوَّل الأشخاص العاديون، حتى الأخيار منهم؛ إلى قَتَلة. هذا هو ما يتدرب الجنود على فعله. تحت الضغوط الشديدة لوضع الحرب مع الإرهاق والخوف والغضب والكراهية والانتقام السريع؛ من الممكن أن يفقد الرجال بوصلة الأخلاق ويذهبوا إلى ما هو أبعد من قتل محاربي الأعداء. إن لم يكن هناك انضباط تام يجعل كل جُندي يدرك أنه مسؤول عن تصرفاته الخاضعة لرقابة قياداته المباشرة؛ فمن الممكن أن يخرج الغضب في صورة اغتصابات جماعية لا يمكن تصورها وقتل لجنود الأعداء والمدنيين كذلك. نعرف أن هذا حدث بالفعل في ماي لاي، وفي مذابح عسكرية أخرى أقل شهرة مثل مذبحة «قوة النمر» في فيتنام. خضعت وحدة النخبة المقاتلة لمحاكمة طويلة امتدت لسبعة أشهر على خلفية قتل مدنيين غير مسلحين[2]. بكل أسف فإن وحشية الحرب وميدان المعركة التي غمرت المدينة تكررت مرة أخرى في العراق[3].

---

(١) Eric Schmitt, "Outmoded Interrogation Tactics Cited," *The New York Times*, June, 17, 2006, p. A11.

(٢) فازت جريدة (*The Toled Blade*) ومراسلوها بجائزة (*Pulitzer*) لتحقيقهم في جرائم ارتكبتها «قوات النمر (Tiger Forces)» في فيتنام، حيث خلفوا على مدار سبعة أشهر عددًا كبيرًا من الجرائم في حق المدنيين ومن المصابين بعاهات مستديمة وهو ما أخفاه الجيش لثلاثة عقود. كانت وحدة الكوماندوز ١٠١ المحمولة جوًا واحدة من أعلى الوحدات في فيتنام. حقق الجيش في ادعاءات جرائم حرب ارتكبوها من تشويه وتعذيب وقتل وهجمات قمعية ضد المدنيين ووجدوا أسباب محتملة لإدانة ١٨ جندي لكن لم يوجهوا أية اتهامات لهم. انظر:
"Buried Secrets, Brutal Truths," www.toledoblade.com
يتفق الخبراء على أن التحقيق المبكر في فضيحة قوات النمر كان يمكن أن يجنبنا فضيحة ما لاي لستة أشهر.

(٣) ذكر الصحفي الأمريكي نير روسن (*Nir Rosen*) الذي عاش في العراق لثلاث سنوات ويتحدث اللغة العربية وباللهجة العراقية أن قد «تحول الغزو إلى جريمة كبرى واسعة النطاق ضد الشعب العراقي، ولكنه كان في جزء =

حذّر الخبراء العسكريون من أن الجنود الذين يقاتلون أعداء يصعب الوصول إليهم في حرب غير متكافئة سيصعب عليهم ضبط أنفسهم في ذلك الضغط، حتى المدربون منهم على استخدام التقنيات العالية. «المعركة ضغط، والسلوك الإجرامي تجاه المدنيين هو عارض تقليدي لضغط المعركة. إذا أتيت بعدد كافٍ من الجنود لمعركة ملائمة؛ سيتحول بعضهم إلى قتل المدنيين»، وفقًا لمسؤول بارز في مركز الأبحاث العسكرية في واشنطن[1].

يجب أن نُقِر بأن الجنود هم قتلة مُدرّبون بكفاءة عالية أتموا تدريبات شديدة القسوة في معسكرات الإعداد، وميدان المعركة هو أرض الاختبار بالنسبة لهم. يتعلمون قمع مبادئهم الأخلاقية السابقة المأخوذة من الوصايا العشرة «لا تقتل». يعمل التدريب العسكري الجديد على إعادة توجيه عقولهم ليتقبلوا القتل في وقت الحرب كرد فعل طبيعي، وهو تدريب معروف باسم «علم القتل (Killology)». صاغ هذا المصطلح المقدم المتقاعد ديف جروسمان وهو الآن أستاذ في ويست بوينت (West Point) يدرس العلوم العسكرية، وقد فسره في كتابه «عن القتل»، وعلى موقعه الإلكتروني[2].

لكن في بعض الأحيان يُمكِن أن يَخْرُج «عِلم صِناعة القَتَلَة» عن السيطرة ليجعل القتل أمرًا اعتياديًا. فكّروا في رد فعل جندي في الحادية والعشرين من عمره قتل لتوه مدنيًا في العراق رفض أن يتوقف للتفتيش. «كان الأمر وكأنه لا شيء. قتل الناس هنا مثل سحق نملة، أقصد، أنت تقتل شخصًا والأمر ينتهي إلى قول، حسنًا، فلنتناول بعض البيتزا. أقصد، ظننت أن قتل شخص هو تجربة تؤثر في حياتك بالكامل، لكن عندما فعلتها وجدتني أقول «حسنًا، فليكن»»[3].

في ١٩ نوفمبر، ٢٠٠٥، انفجرت قنبلة في مدينة «حديثة» العراقية مما أسفر عن مقتل جندي مارينز من الجيش الأمريكي وإصابة اثنين آخرين. في الساعات التالية أُبلغ عن مقتل

= كبير منه غير ملحوظ بالنسبة للشعب الأمريكي ووسائل الإعلام»؛ انظر:

Nir Rosen, "The Occupation of Iraqi Hearts and Minds," June 27, 2006, http://truthdig.com/dig/item/20060627_occupation_iraq_hearts_minds/

وانظر أيضًا التعليقات على الأمر من الصحفية هيفاء زنكنة:

Haifer Zangana, "All Iraq is Abu Ghraib. Our Streets Are Prison Corridors and Our Homes Cells as the Occupiers Go About Their Strategic Humiliation and Intimidation," *The Guardian*, July 5, 2006.

(١) Anna Badkhen, "Atrocities Are a Fact of All Wars, Even Ours: It's Not Just Evil Empires Whose Soldiers Go Amok," *San Francisco Chronicle*, August 13, 2006, pp. E1, E6. Quote by John Pike, director of GlobalSecurity.org, on p. E1.

(٢) Dave Grossman, *On Killing: The Psychological Cost of Learning to Kill in War and Society* (Boston: Little, Brown, 1995). Grossman's website is: www.killology.com

(٣) Vicki Haddock, "The Science of Creating Killers: Human Reluctance to Take a Life Can Be Reversed Through Training in the Method Known as Killology," *San Francisco Chronicle*, August 13, 2006, pp. E1, E6. Quote by former Army private Steven Green, p. E1.

١٥ مدنيًا عراقيًا باستخدام عبوة ناسفة وفقًا لتحقيقات المارينز، أغلقت القضية. كان عدد مماثل من العراقيين يقتل بهذه الطريقة كل يوم، لكن رجلًا من المدينة (طاهر ثابت) سجل فيديو لرصاصة مستخرجة من جسد أحد القتلى من المدنيين ثم سلمها إلى لجنة مجلة التايم في بغداد، وأدى هذا إلى تحقيقات أكثر جدية في مقتل ٢٤ مدنيًا على يد كتيبة المارينز تلك. يبدو أن قوات المارينز دخلت ثلاثة بيوت بشكل منظم وقتلت أغلب قاطنيها وفيهم ٧ أطفال و٤ نساء باستخدام البنادق والقنابل، وأردَوْا ٧ سائقي سيارات أجرة قتلى بإطلاق النار عليهم، كما قتلوا كذلك قائد سيارة أجرة ومعه ٤ طلبة وقفوا بالقرب منهم.

كانت هناك محاولة تعتيم واضحة من قبل ضباط المارينز البارزين عندما تبينوا أن جرائم قتل المدنيين على يد المارينز تلك لم يكن لها أي مبرر وأن جنودهم لم يلتزموا بقواعد الاشتباك. في مارس ٢٠٠٦ عُزل قائد الكتيبة واثنان من مساعديه من الخدمة، قال أحدهم: إن العزل كان «لأسباب سياسية». سنتناول العديد من التحقيقات هنا وربما نجد قيادات أعلى متورطة. من المهم أن نضيف إلى تلك الرواية الفظيعة أن جنود المارينز هؤلاء من السرية الثالثة من فرقة كيلو (Kilo Company)؛ كانوا جنودًا على مستوى عالٍ من الخبرة، وكانت تلك هي المهمة الثانية أو الثالثة لهم خارج البلاد، سبق أن اشتبكوا في قتالات عنيفة في الفلوجة حيث قتل حوالي نصف رفاقهم أو تعرضوا لإصابات خطيرة في المعركة، لذلك كان بداخلهم الكثير من الغضب ومشاعر الانتقام قبل حادثة مذبحة مدينة «حديثة»[(١)].

كانت الحرب جحيمًا بالنسبة للجنود لكنها دائمًا تكون أسوأ للمدنيين وخاصة الأطفال الموجودين في مناطق القتال وعندما يفقد الجنود بوصلة الأخلاق ويتعاملون معهم بوحشية. في حادثة جديدة قيد التحقيق قتلت القوات الأمريكية ما يصل إلى ١٣ مدنيًا في مذبحة إسحاقي في العراق. بعضهم وُجدوا مُقيّدين بحبال ومصابين بطلق ناري في الرأس ومن بينهم العديد من الأطفال. أقر المسؤولون في الجيش الأمريكي بأنهم قتلوا مدنيين «غير محاربين»، وقالوا أن الأسباب هي «قتل جانبي» (مثال آخر على تسميات مُحَسَّنة تصاحب عملية التعطّل الأخلاقي)[(٢)].

تخيلوا ما يحدث عندما يعطي ضابط بارز تصريحًا لجنوده بقتل المدنيين. اتُهم ٤ جنود بقتل ٣ رجال عراقيين غير مسلحين في غارة على المنازل في مدينة تكريت في

---

(١) David S. Cloud, "Marines May Have Excised Evidence on 24 Iraqi Deaths," *The New York Times*, August 18, 2006; Richard A. Oppel, Jr., "Iraqi Leader Lambasts U.S. Military: He Says There Are Daily Attacks on Civilians by Troops," *The New York Times*, June 2, 2006.

(٢) D. S. Cloud and E. Schmitt, "Role of Commanders Probed in Death of Civilians," *The New York Times*, June 3, 2006; L. Kaplow, "Iraqi's Video Launched Massacre Investigation," Cox News Service, June 4, 2006.

العراق، حيث قال لهم قائد اللواء العقيد مايكل ستيل: «اقتلوا كل المتمردين الذكور الإرهابيين»، وقد ذكر الجندي الذي أفشى قاعدة الاشتباك الجديدة هذه أنه تعرّض للتهديد من قبل زملائه إذا ما أخبر أي شخص عن عمليات القتل تلك[١].

إحدى أسوأ فظائع الحرب هي اغتصاب النساء المدنيات البريئات من قبل الجنود بشكل يشبه ما هو مسجل في مذبحة نساء التوتسي من قبل ميليشيات الهوتو في رواندا والتي تحدثنا عنها في الفصل الأول. ظهر ادعاء جديد عن ارتكاب فظائع مماثلة في العراق حيث اتهمت مجموعة من جنود الولايات المتحدة (قسم القوات المحمولة جوًّا ١٠١) أمام محكمة فدرالية باغتصاب فتاة في الرابعة عشرة من عمرها بعد قتل والديها وأختها ذات الأعوام الأربعة، ثم أطلقوا عليها النار في رأسها وأحرقوا أجسادهم جميعًا. الأدلة واضحة على أنهم تعمدوا القيام باعتداء دموي عن طريق تغيير زيهم الموحد أولًا (بحيث لا يمكن التعرف عليهم) بعد أن شاهدوا الفتاة تعبر نقطة التفتيش، ثم ذهبوا لقتل الأسرة قبل الاعتداء على الفتاة، وألقى الجيش في البداية باللوم على المتمردين[٢].

فلنذهب فيما يلي إلى ما هو أبعد من التعميمات المجردة والإحصاءات والتحقيقات العسكرية لنستمع إلى العديد من المحققين الخاصين بالجيش الأمريكي يتحدثون عما شاهدوه وفعلوه هم أنفسهم في اعتدائهم على المعتقلين، فقد خرجوا كما سنرى في وسائل الإعلام وفي ساحات القضاء العسكري وتحدثوا عن اعتداءات منتشرة وأنماط من التعذيب شاهدوها ومارسوها بأنفسهم.

سننظر بإيجاز أيضًا في البرنامج الذي كُشف عنه مؤخرًا في جوانتانامو والذي يسمح للمحققات الصغيرات في السن، تسميهن وسائل الإعلام «جميلات التعذيب»، بتوظيف العديد من الإغراءات الجنسية في تكتيكات الاستجواب. وجودهن وكذلك التكتيكات التي يستخدمنها مُصرّح بها بالتأكيد من زملاء الموقع؛ فهن لم يقررن تحويل السجن في كوبا إلى «معسكر إباحي» من تلقاء أنفسهن. سنعرف أن أفراد احتياط الشرطة العسكرية الوضيعين في الرصيف A1 ليسوا وحدهم من تورط في أعمال اعتداء وضيعة، وأن الجميع وفيهم جنود النخبة وكبار ضباط الجيش مارسوا أعمالًا أكثر وحشية وعنفًا ضد السجناء.

أخيرًا، سنرى مدى انتشار ممارسات التعذيب التي تكاد تكون بلا حدود لأن

---

(١) MSNBC.COM. "Peers Vowed to Kill Him if He Talked, Soldier Says." Associated Press report, August 2, 2006.

متاح على:

Http://www.nbcnews.com/id/14150285#UWNIvSjvyu00

(٢) T. Whitmore. "Ex-Soldier Charged with Rape of Iraqi Woman, Killing of Family." June 3. 2006. http://edition.cnn.com/2006/LAW/07/03/iraq.charge/

Julie Rawe and Aparisim Ghosh. "A Soldier's Shame." *Time*. July 17. 2006. pp. 38-39.

الولايات المتحدة «ترسل المعتقلين إلى بلاد أخرى» للتعذيب في برامج معروفة باسم «العودة» و«تسليم استثنائي» وحتى «تسليم متبادل». سنكتشف أن صدّام حسين ليس وحده من عذّب هؤلاء الناس، وأن الولايات المتحدة فعلت نفس الشيء، وأن النظام العراقي الجديد كان يعذّب رجال القرى والنساء في سجون سرية في جميع أنحاء العراق. لا يمكنني إلا أن آسف على حال العراقيين عندما ينهال عليهم التعذيب من كل حدب وصوب وفي العديد من الصور المختلفة.

التالي: شهود المحاكمة

كان الجندي المتخصص المتقاعد أنثوني لجورانيس (Anthony Lagouranis) محققًا في الجيش لمدة خمس سنوات (٢٠٠١ إلى ٢٠٠٥) تخللتها مهمة عمل في العراق في ٢٠٠٤. على الرغم من عمله أولًا في أبو غريب إلا إنه اختير للعمل في وحدة استخباراتية خاصة عملت في منشآت اعتقال مختلفة في جميع أنحاء العراق. عندما يتحدث عن «ثقافة الاعتداء» التي تسللت إلى الاستجوابات في العراق نجده يتحدث عن أرقام وبيانات في كل أرجاء العراق وليست مقصورة على الرصيف A1 فحسب[١].

ثم لدينا الرقيب روجير بروكاو (Roger Brokaw)، متقاعد، عمل في أبو غريب لستة أشهر بصفته محققًا بدءًا من ربيع ٢٠٠٣. ذكر بروكاو أن قليلًا فقط ممن تحدث معهم، ربما ٢٪، كانوا متمردين خطرين، وأن أغلبهم حددتهم الشرطة العراقية وكانوا في الغالب أفرادًا عاديين هم على خلافات معهم لا أكثر ولم يرتكبوا أية جريمة. قال الرجلان أن أحد أهم أسباب القصور الشديد في جمع المعلومات هو أن السجون كانت تعج بأشخاص لا يملكون أية معلومات مهمة. كثُرٌ اعتقلوا في جولات جمع لذكور عائلات بأكملها في منطقةٍ ما على خلفية أعمال تمرد، ولقِلّة أعداد المحققين مقارنة بالأعداد الضخمة للسجناء تصبح المعلومات التي لدى البعض عديمة الفائدة وقت تمكن المحقق من استجوابهم.

تسلل الإحباط إلى الجميع لأنهم يبذلون جهدًا كبيرًا والنتائج ضعيفة للغاية. قاد هذا الإحباط كذلك إلى كثير من القسوة كما يمكن أن نتوقع من فرضية الإحباط ـ القسوة القديمة. الوقت يمر، والتمرد يتصاعد، والضغط عليهم يزداد من قادة الجيش ومن قبل قادتهم المدنيين الأعلى في سلسلة القيادة. أصبح استخراج المعلومات أمرًا شديد الأهمية.

بروكاو: «كانوا يقبضون على الناس لأي سبب، سقوط طاقيّة أحدهم مثلًا. كانت هناك نسب يلزمونا بتحقيقها، نسب لاستجواب عدد من الناس أسبوعيًا ورفع تقارير إلى القيادات».

---

(١) Roger Brokaw and Anthony Lagouranis, on "A Question of Torture," PBS *Frontline*, October 18, 2005, available at www.pbs.org/wgbh/pages/frontline/torture/interviews.html

لاجورانيس: «نادرًا ما كنا نحصل على معلومات من السجناء، وألقي باللوم في هذا على جلب سجناء أبرياء لم تكن لديهم أية معلومات ليقدموها لنا».

بروكاو: «لم يكن ثمة سبب يدعو لوجود ٩٨٪ من الأشخاص الذين تحدثت معهم هناك، كانوا يأخذونهم بلا أي سبب واضح ويدخلون ويقتحمون البيوت ويسحبون هؤلاء الأشخاص ويزجون بهم في معسكرات الاعتقال. [قال] العقيد باباس أن هناك الكثير من الضغط منه للحصول على معلومات. احصلوا على معلومات «فلنحصل على معلومات، نحمي حياة جندي آخر إذا توفرت لدينا هذه المعلومات، أتعرفون، إذا وجدنا تلك الأسلحة، إذا وجدنا أولئك المتمردين، سنحفظ حياة جنودنا». وأعتقد أن هذا قاد إلى فكرة التغاضي عن أي شيء يقوم به المحققون أو الشرطة العسكرية لتلين أولئك الناس».

ذكر بروكاو أيضًا أن الرسالة الخاصة «بنزع القفازات» جاءت من تسلسل القيادة لتعطي معنى لهذا التعبير المجازي المستخدم في رياضة الملاكمة(١).

بروكاو: «سمعت تلك العبارة، «سننزع قفازاتنا». قالها العقيد جوردان ذات ليلة خلال أحد اجتماعاتنا، «سننزع قفازاتنا. وسيعرف هؤلاء لمن الكلمة هنا»، وكان يتحدث عن المعتقلين».

مع زيادة خطورة التمرد على قوات التحالف أكثر من أي وقت مضى وانتشاره؛ زاد الضغط على الشرطة العسكرية والمخابرات العسكرية أكثر من أي وقت مضى للحصول على تلك المعلومات الكافية للتدخل غير الموجودة.

أضاف لاجورانيس بعض التفاصيل: «الأمر الآن منتشر في كل أرجاء العراق. نعم، تعذيب الناس في منازلهم، تقوم وحدات المشاة بتعذيب الناس داخل منازلهم. كانوا يستخدمون أشياء، كما قلت، مثل الحرق. كانوا يسحقون أقدام الناس برأس فأس، يكسرون عظامهم وأضلاعهم. أندري، كان الأمر شديد الخطورة فعلًا». أضاف، «عندما كانت الوحدات تخرج لاقتحام بيوت الناس والقيام بتلك الغارات كانوا يبقون في البيوت ويعذبونهم».

إلى أي مدى كان يُسمح للمخابرات العسكرية والشرطة العسكرية بالتجاوز سعيًا خلف المعلومات؟

لاجورانيس: «جزء من هذا كان للحصول على معلومات، ولكن جزءًا آخر كان مجرد سلوك ساديّ. لا تريد إلا أن تستمر في الدفع والدفع والدفع لترى إلى أي مدى يمكنك أن

---

(١) معنى «نزع القفازات» بشكل عام هو مقاتلة خصم بيد عارية، إزالة الحماية التي توفرها تلك القفازات المخصصة للقتال تعني القتال بعنف بدون تقيد بالقواعد المعتادة في القتال بين خصمين.

نذهب. من الطبيعي أن تصاب بإحباط شديد وأنت مع شخص لا تستطيع أن تحصل منه على ما تريد مع امتلاكك كامل السيطرة عليه. وهذا هو ما تفعله كل يوم طيلة اليوم. وفي مرحلة ما، تتمادى أكثر».

ما الذي سيحدث عندما تضيف إلى ذلك الخليط المتقلب الخوف الشديد والانتقام بصفتها محفزات نفسية؟

لاجورانيس: «إذا شعرت بالغضب حقًّا بسبب إلقاء القذائف عليك، أقصد، صواريخ يقذفونها من أسلحة آر بي جي علينا؛ فليس هناك ما تستطيع فعله حيال الأمر، والناس يموتون من حولك بسبب هذا العدو غير المرئي، ثم تدخل غرفة التحقيق مع هذا الشخص الذي تعتقد أنه ربما يكون المسؤول عن تلك الأشياء، تريد الذهاب إلى أقصى مدى ممكن».

إلى أي مدى كانوا يتجاوزون؟

لاجورانيس: «أتذكر أن كبير ضباط الصف المسؤول عن منشأة الاستجواب سمع عن استخدام قوات سيلز (SEALS) للمياه المجمدة لخفض حرارة جسد الأسرى. كانوا يقيسون حرارته من فتحة الشرج ليتأكدوا أنه لن يموت، كانوا يبقونه بحرارة منخفضة». المكافأة على إعطاء المعلومات هي إذابة الجليد قبل الموت!

النمذجة الاجتماعية هي أسلوب نفسي قوي آخر كان يستخدم عندما يلجأ المحقق إلى استراتيجية مماثلة أثناء الليل في حاوية نقل بضائع معدنية تستخدم كغرفة استجواب.

لاجورانيس: «كنا نبقيهم في درجة حرارة منخفضة في هذا المناخ، اسم هذا الأسلوب هو «التلاعب المناخي»، مع [شدة] صوت الموسيقى والأضواء الساطعة، بعدها كنا نُدخِل عليهم الكلاب المدربة، وعلى الرغم من أنها كانت محكومة ومكممة، لكن السجين لم يكن يعرف هذا لأنه معصوب العينين، كانت كلاب الراعي الألماني ضخمة، لهذا كنت أسأل السجين وإن لم تعجبني الإجابة أشرتُ إلى المدرب بحيث يجعل الكلب ينبح ويقفز على السجين، لكنه لم يكن قادرًا على عضّه... في بعض الأحيان كانوا يتبولون في ملابسهم من شدة الخوف، خاصة عندما تكون أعينهم معصوبة. هذا موقف مرعب لأي شخص، وهو شيء كنت أتلقى الأوامر لأقوم به وجعلت ضابط الصف يوقع على كل ما كان يُطلَب مني».

يُسَهِّل التعطّل الأخلاقي على الناس القيام بأمور سيرفضونها بالتأكيد في المواقف العادية.

لاجورانيس: «لأنك تشعر أنك بالفعل بعيد عن المجتمع الطبيعي، هل تفهمني؟ عائلتك وأصدقاؤك ليسوا هناك ليروا ما يحدث. الكل يشارك في هذا الذي لا أعرف كيف

أُسميّه، هل هو مرض نفسي، أو ربما سأقول أوهام عن طبيعة ما نفعله هناك، وسأستخدم كلمة وهم لأنني لا أجد كلمة أفضل للتعبير عن هذا. هذه الأمور التي تُصبح مقبولة بشكل أكبر كُلما نظرت حولك تتحطم لديك الحواجز التي تحول بينها وبينك! لقد شعرت بهذا بنفسي، أتذكر وجودي داخل حاوية نقل بضائع في الموصل، بقيت مع هذا الشاب [سجين يخضع للاستجواب] طوال الليل. في البداية تشعُر بأنك منعزل بشدة، منعزل جسديًا ومعنويًا، ثم تشعر بعدها أنك تستطيع فعل ما يحلو لك بهذا الشاب، وربما تتملكك هذه الرغبة أيضًا».

يشرح لنا كيف تصاعد العنف وأكل من نفسه هذا المحقق الشاب الذي سيمضي بقية حياته وهو يُدرِك الشر الذي ارتكبه باسم بلاده.

لاجورانيس: «كل ما تريده هو أن تستمر وتستمر وتستمر، أن ترى إلى أي مدى يمكنك أن تصل. يبدو الأمر وكأنه جزء من الطبيعة الإنسانية. أقصد، أثق أنك قرأت عن تلك الدراسات التي أجريت في السجون الأمريكية حيث تضع مجموعة من الناس موضع مسؤولية تجاه مجموعة أخرى وتمنحهم السلطة عليهم، فيتحول الأمر بسرعة شديدة إلى وحشية وتعذيب، أتدري؟ إذًا الأمر شائع». [أيمكن أن نقول أنه يشير إلى تجربة سجن ستانفورد؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن تجربة سجن ستانفورد وصلت إلى بعض الناس على أنها أجريت في سجن حقيقي].

الحاجة إلى قيادة قوية لمنع الاعتداءات أمر ضروري

لاجورانيس: «لقد رأيت الأمر [الوحشية والاعتداء] في كل منشأة اعتقال ذهبت إليها. إذا غابت القيادة الحازمة التي تقول «لن نتهاون مع أية اعتداءات»... ستجد الاعتداءات والتجاوزات داخل كل منشأة. حتى الأشخاص مثل أفراد الشرطة العسكرية الذين يحاولون الحصول على معلومات سيفعلون هذا لأنه أمر يقوم به الآخرون في نفس المكان طالما لم تكن هناك سيطرة داخلية من قيادة أعلى».

بعد أن شاهدنا حالات أسوأ من «الاعتداء قامت بها قوات استطلاع المارينز في شمال بابل»، لم يعد بإمكان لاجورانيس أن يتحمل أكثر. بدأ في كتابة تقارير عن الاعتداءات وتصوير الإصابات وتسجيل أقوال لسجناء يُقسمون على صحتها، ثم أرسل كل تلك المعلومات إلى قيادة المارينز. كيف استقبلت تلك الاتهامات؟ تمامًا كما ردت القيادات العليا على فريدريك تشيب، لم يتلق أي رد[1].

---

(١) T. R. Reid, "Military Court Hears Abu Ghraib Testimony: Witness in Graner Case Says Higher-ups Condoned = Abuse," *The Washington Post*, January 11, 2005, page A03.

لاجورانيس: «لم يأتِ أحد لينظر فيما يحدث، لم يتحدث معي أحد في الأمر، شعرت وكأنما كنت أرسل تلك التقارير إلى لا مكان ولم يحقق أي شخص فيها، أو لم يكن لديهم سبيل للتحقيق فيها، أو ربما لم تكن لديهم رغبة في ذلك». [يضيف صمتُ المسؤولين لمسةَ القذرة على ذلك الشذوذ].

من الحالات الخاصة التي تبيّن إلى أي مدى يمكن أن يصل فريق الاستجواب في سجن جوانتانامو نجد قضية «السجين ٣٦٠»، اسمه محمد القحطاني، يُعتَقَد أنه «الخاطف العشرون» في هجمات ٩/١١ الإرهابية. اعتُدي عليه بكل الطرق التي يمكنك تصورها، جعلوه يتبول على نفسه، وحُرِم من النوم والطعام لأيام، وروّعوه باستخدام كلب هجوم شرس، قوبلت مقاومته المستمرة باعتداءات أكثر. أُجبِر على ارتداء حمالة صدر نسائية ووضع لباسٌ نسائي داخلي على رأسه، سخر منه المحققون وسمَّوه بالشاذ جنسيًّا؛ بل وضعوا طوق كلب حول عنقه وجعلوه يقوم بألعاب الحيوانات، جلست فوقه ظهره امرأة محققة أملًا في إثارته، ثم انتقدته لانتهاكه معتقداته الدينية. كشفت التقارير الاستقصائية من مجلة التايم عن تفاصيل دقيقة ساعة بساعة؛ بل دقيقة بدقيقة من سجل استجواب القحطاني السرّي الذي استمر لشهر[1]. إنه مزيج من التكتيكات القاسية الوحشية ممزوجة ببعض التكتيكات الأخرى السخيفة أو الغبية؛ أي: محقق شرطة محنك كان سينجح في استخراج معلومات أكثر من هذا السجين في وقت أقل وباستخدام تكتيكات أكثر كرامة.

عندما علم مستشار القوات البحرية ألبرتو مورا (Alberto Mora) بهذه الاعتداءات، استاء بشدة مما اعتبر أنها ممارسات غير قانونية لا يليق بالجيش أو الحكومة التغاضي عنها، وقد قال مورا في تصريح بليغ يقدم لنا الإطار الأساسي لفهم معنى التغاضي عن تلك الاستجوابات العنيفة:

«إذا كنا سنتوقف عن التعامل مع السلوكيات الوحشية القاسية على أنها غير قانونية ونعتبرها بدلًا من ذلك تكتيكات سياسية؛ فإن هذا سيبدل العلاقة الأساسية بين المواطن والحكومة، سيدمر كامل مفهوم حقوق الفرد. يعترف الدستور بأن للفرد

= «خفضت رتبة فريدريك الرقيب إلى جندي بعد أن حكم عليه بأنه مذنب في اعتداءات أبو غريب، قال إنه استشار ستة ضباط من نقيب إلى مقدم فيما يخص تصرفات الحراس ولم يقل له أحد أبدًا أن يتوقف. ذكر أيضًا أن مسؤولاً من المخابرات المركزية، والذي عرّفه باسم «الوكيل روميرو»، قال له بأن «يجهّز» مشتبهًا به في التمرد للاستجواب. قال له الوكيل بأنه لا يهتم بما فعله الجنود، «فقط لا تقتلوه». شهادة فريدريك متاحة على:

http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/articles/A62597-2005Jan10.html

(١) A. Zagorin, and M. Duffy, "*Time* Exclusive: Inside the Wire at Gitmo," *Time*, www.time.com/time/magazine/article/0,9171,1071284,00.html.

حقوقًا مكتسبة لا يتفضل عليه القانون أو الدولة بها، وله حق أصيل في حفظ كرامته، ومن بين هذه الحقوق حق عدم التعرض لمعاملة همجية قاسية. ينطبق هذا على كل البشر وليس فقط في أمريكا، ينطبق حتى على المصنفين بوصفهم «أعداء محاربين خارجين على القانون»، لو استثنيتهم سينهار الدستور بالكامل. هذه القضية يمكن أن تُحوّل كل شيء»[1].

والآن أطلب منك أيها القارئ العزيز في دورك كمُحلَّف أن تعقد مقارنة بين بعض هذه التكنيكات المُخَطَّط لها وبين تلك التي يُدَّعَى أنها تصدر عن «عقول منحرفة» في الرصيف A1 كما تظهر الصور، كما نجد من بين العديد من صور المعتقلين بألبسة نسائية داخلية على رؤوسهم، تلك الصورة البشعة للبندي إنجلاند وهي تجرّ المعتقل على الأرض من طوق كلب ربطته حول عنقه. يبدو منطقيًا الآن أن نخلص إلى أن الألبسة النسائية الداخلية على الرؤوس وطوق الكلب وسيناريوهات نزع الإنسانية بأكملها معدةٌ مسبقًا من قبل المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) وفريق تحقيق الجنرال ميللر الخاص الآتي من جوانتانامو، ومن ثم أصبحت أساليبَ استجواب مقبولة في مناطق الحرب، لكن يمنع التصوير!

جنود النخبة يفعلون الأمر ذاته:
الفرقة ٨٢ المنقولة جوًّا تكسر العظام وتتلف الصور

ربما أشد الأمثلة وضوحًا على قضيتي ضد هيكل القيادة بالكامل هو النقيب يان فيشباك، أحد أوائل خريجي ويست بوينت والنقيب بفرقة النخبة المحمولة جوًّا التي تخدم في العراق. بدأت رسالته الأخيرة إلى السيناتور جون ماكين (John McCain) التي اشتكى فيها من الاعتداءات الكثيرة التي ترتكب ضد السجناء على النحو الآتي:

«أنا خريج ويست بوينت وأعمل حاليًا نقيبًا بفرقة المشاة العسكرية. خدمت في جولتَيْ قتال مع الفرقة ٨٢ المحمولة جوًا في كل من أفغانستان والعراق. وأثناء خدمتي في الحرب العالمية على الإرهاب قادتني أفعال قياداتي وتصريحاتهم إلى الإيمان بأن سياسات الولايات المتحدة غير ملتزمة باتفاقية جنيف في أفغانستان والعراق».

في عدد من اللقاءات مع منظمة مراقبة حقوق الإنسان، كشف النقيب فيشباك بتفاصيل

---

(١) مقتبس من:

Jane Mayer, "The Memo," *The New Yorker*, February 27, 2006, p. 35.

رؤية النتائج المخيفة لذلك الالتباس في القيود القانونية المفروضة على المحققين، كانت رسالته مدعومة من قبل عريفين في وحدته في قاعدة العمليات الأمامية في معسكر ميركوري بالقرب من الفلوجة[1]. (وعلى الرغم من أني ذكرت هذا في الفصل السابق لكن سأقدم هنا نسخة أكمل عن سياق المعلومات التي كشف عنها النقيب فيشباك من المعلومات نفسها).

في رسالته إلى السيناتور ماكين شهد فيشباك على اعتياد ضرب السجناء على وجوههم وأجسادهم، وتقييدهم بشكل دوري في أوضاع تؤدي إلى انهيارهم بدنيًّا، وإجبارهم على تدريبات تقودهم إلى فقدان الوعي، وجمع السجناء كذلك في أكوام هرمية هناك في أبو غريب. اعتداءات مشابهة كانت تحدث قبل وأثناء وبعد الكشف عن فضيحة اعتداءات أبو غريب.

«عندما كنا في ميركوري، قاعدة العمليات الأمامية، كان لدينا سجناء يجمعهم الحراس في كتل هرمية، ليسوا عُراةً ولكن يُجمعون في كتل هرمية. كان لدينا سجناء يؤدون تدريبات مجهدة للغاية لمدة تصل إلى ساعتين مرة واحدة... في مرة أُلقيت على أحد السجناء مياهٌ باردة ثم ترك في العراء طوال الليل. [مرة أخرى نفس ما ذكره لاجورانيس في إطار تكتيك التعريض لظروف قاسية]. في إحدى الحالات أخذ أحد الحراس مضرب بيسبول وضرب أحد السجناء على ساقه بقوة، وهذه الأفعال الإجرامية كلها يرتكبها ضباط الصف».

شهد فيشباك بأن القيادات أدارت الاعتداءات وغضّت الطرف عنها: «كانوا يقولون لي «أولئك الناس هم عبوات ناسفة موقوتة» قتلوا آخرين في الأسبوع الماضي. لذلك يجب أن نكسرهم، وأن نفعل هذا بقسوة... لكن يجب أن تفهم أن هذا ما يحدث هنا طوال الوقت». (تذكر النقاش السابق حول القوانين الناشئة في ظروف خاصة حيث تتحول بعض الممارسات الجديدة بسرعة إلى المعيار القياسي الواجب الالتزام به).

ومن المثير للدهشة أن فيشباك ذكر أن هذا الجُندي سجّل اعتداءاته رقميًّا:

«[قاعدة العمليات الأمامية (Mercury)] قالوا أنهم يمتلكون صورًا شبيهة بصور التعذيب الصادرة عن سجن أبو غريب، وبسبب هذا التشابه أحرقوها؛ لأنهم [الجنود في أبو غريب] تعرضوا لمشكلات كبيرة بسبب نفس ما طُلب منهم فعله، لهذا دمروا الصور».

---

[1] تفاصيل اللقاء مع نشب والرقيبين متاحة على:
Human Rights Watch's report "Leadership Failure: Firsthand Accounts of Torture of Iraqi Detainees by the Army's 82nd Airborne Division," September 2005, vol. 17, no. 3(G), Hrw.org/reports/2005/us0905/1.htm

كما نُشر خطاب فيشباك (*Fishback*) إلى السيناتور مكاين (*McCain*) على:
Http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2005/09/27/AR2005092701527.html

أخيرًا، أطلق النقيب فيشباك حملة امتدت لسبعة عشر شهرًا نقل خلالها جميع مخاوفه وشكاواه إلى قياداته، وقوبلت باللامبالاة ذاتها التي قوبلت بها شكاوى المحقق أنتوني لاجورنيس وفريدريك تشيب، وقد نشر خطابه لجون ماكين والذي ساعد في دعم موقف ماكين من تعطيل إدارة بوش الالتزام ببنود معاهدة جنيف بخصوص التعامل مع الأسرى.

«جميلات التعذيب»، رقصات إباحية في غرف اعتراف جوانتانامو

يكشف الشاهد التالي عن نوع جديد من الفساد طوره الجيش (ربما بالتعاون مع المخابرات المركزية) في سجن جوانتانامو. قال إريك سار (Erik Saar) وهو مترجم عسكري عمل في هذا السجن: «استُخدم الجنس كسلاح لخلق حاجز بين المعتقل وعقيدته الإسلامية». ذهب ذلك المجند الشاب إلى معسكر جوانتانامو وهو يشع بالحماسة الوطنية، ويؤمن أنه قادر على المساعدة في الحرب على الإرهاب، لكن سرعان ما تبين أنه لا يساعد على الإطلاق، فكل ما كان يحدث هناك كان «خطأ». في لقاء إذاعي مع آيمي جودمان (Amy Goodman) في برنامج (Democracy Now) في ٤ أبريل، ٢٠٠٥؛ قدّم سار أدلة تفصيلية دقيقة عن التكتيكات الجنسية التي كانت تستخدم مع السجناء، تكتيكات شاهدها بنفسه. استُكمِل هذا اللقاء في تحقيق طويل بعنوان: «داخل المعتقل: شهادة جندي مخابرات عسكرية على الحياة في جوانتانامو»[1].

كان سار الذي يتحدث اللغة العربية بطلاقة أثناء تلك الشهور الستة التي خدم فيها هناك مسؤولًا عن ترجمة أسئلة المحقق الرسمي للسجناء ثم يكرر رد السجين للمحقق بالإنجليزية. كان في دور «يشبه دور كايرانو»[2] المطلوب منه استخدام كلمات متطابقة المعنى في عملية الترجمة حتى ينقل المعنى المقصود تمامًا للمُحقِّق والمعتقل على حد السواء. اشتملت الخدعة الجديدة على استخدام امرأة جذابة لتقوم بدور المحقق. قال سار: «كانت تلك المحققة تستثير السجناء أثناء التحقيق لتجعلهم يشعرون بالاستياء من أنفسهم... كانت تلتصق بظهورهم، وتتحدث إليهم عن جسدها... مما يُشعِر السجين بالصدمة والغضب».

ترك سار منصبه لأنه كان واثقًا تمامًا من أن «أسلوب الاستجواب هذا غير مجدٍ بالمرة ولا يحمي قيم الديمقراطية»[3]. سكّت الكاتبة بمجلة نيويورك تايمز مارين داود

---

(١) Erik Saar and Viveca Novak, *Inside the Wire: A Military Intelligence Soldier's Eyewitness Account of Life at Guantanamo* (New York: Penguin Press, 2005).

(٢) شخصية [كايرانو Cayrano] من مسرحية (Cayrano de Bergerac) الذي كان يحب فتاة لا تحبه. (المترجم).

(٣) Eric Saar, radio interview with Amy Goodman, "Democracy Now," Pacifica Radio, May 4, 2005. Https://www.democracynow.org/2005/5/4/inside_the_wireÔâmilitary_intelligence

مصطلح «جميلات التعذيب» ليلازم المحققات اللاتي استَخْدَمن الإغراء الجنسي للتأثير في السجناء للحصول على معلومات واعترافات(١). فلنذهب «داخل الأسلاك الشائكة» للحصول على تفاصيل أكمل عن ماهية التحقيقات.

ذكر سار لقاء عنيفًا يمكن أن يصنف في القواعد العسكرية على أنه «اقتحام أنثوي للمساحة الخاصة». كان الضحية «هدفًا مهمًا» في الحادية والعشرين من عمره، سعودي الجنسية، يقضي الكثير من وقته يصلي في زنزانته. قبل بدء إجراءات الاستجواب تم «تعفيم» المحققة «بروك (Brooke)» والمترجم سار وذلك بإخفاء اسميهما للحفاظ على حالة الحجب، ثم قالت بروك: «المعتقل الذي ستتحدث معه هو حثالة وربما سنضطر إلى رفع مستوى الأداء قليلًا»؛ لأنه كما بيَّنَت: «يرفض الحديث، لذا سأبدأ معه من أعلى مستوى، نحتاج إلى تجربة شيء جديد الليلة». كان يُعتَقَد أن المعتقل السعودي حصل على دروس في الطيران مع مختطفي طائرات ٩/١١، لذلك كان هدفًا مهمًّا. ذكر سار «أنه عندما كان محققو الجيش يستجوبون معتقلًا غير مُتعاون كانوا يزيدون قسوة تكتيكات الاستجواب بسرعة كبيرة: الصياح، والمواجهة، ولعب دور الشرطي الفاسد، وينسون تمامًا أمر بناء العلاقة».

قالت المُحقِّقة بروك مواصلة حديثها: «كل ما أحتاجه هو جعله يشعر أنه لا يملك خيارًا سوى التعاون معنا، ربما أحتاج إلى إشعاره بالقذارة حتى لا يتمكّن من العودة إلى زنزانته وقضاء ليله يُصلّي، أحتاج إلى وضع حاجز بينه وبين ربه»(٢)، وعندما رفض السجين الاستجابة لأسئلتها قرَّرَت أن تكون أكثر قسوة.

«فاجَأتني»، يقول سار، والدهشة تعلو وجهه: «بدأت في حلّ أزرار قميصها ببطء، وبحركات مثيرة وكأنها إحدى راقصات الإثارة كاشفة عن بلوزة بنيّة عسكرية شديدة الضيق تُبرز صدرها... ثم تحركت ببطء من خلفه والتصقت بظهره»، ثم قالت ساخرة: «هل يُعجبك هذا يا فاريك(٣)؟»، ثم دارت حوله وجلست أمامه ووضعت يديه عليها وحدثته قائلة: «ألا يعجبك ذلك؟»، وعندما نظر السجين نحو سار تحدّت ذكورته: «هل أنت لوطي؟ لماذا تنظر إلى صدري باستمرار؟... هو يعتقد أنه جميل، ماذا عنك؟» [أومأ سار موافقًا].

قاوم السجين وبصق عليها، لم تنزعج المحققة وتمادت أكثر، بدأت تحل أزرار بنطالها ثم سألت السجين:

---

(١) Maureen Dowd, "Torture Chicks Gone Wild," *The New York Times*, January 30, 2005

(٢) الاقتباسات عن سار (*Saar*) والمحققة بروك (*Brook*) مأخوذة من:
Inside the Wire, pp. 220-228.

(٣) «Fareek» هكذا نطقت اسم فاروق. (المترجم).

«فاريك، هل تعرف أنني في فترة الحيض؟... بِم تشعر وأنا ألمسك؟» [ثم أخرجت يدها من لباسها الداخلي وبدت يدها ملطخة بدم الحيض]. قالت له: «للمرة الأخيرة أسألك، من طلب منك أن تتعلم الطيران؟ من أرسلك إلى مدرسة الطيران؟»، ثم همست في أذنه وهي تلطّخ وجهه بما يعتقد أنه دم حيض: «أنت أيها اللعين»، «ما ظن إخوانك بك عندما يرونك في الصباح ملطخًا بدم حيض امرأة أمريكية على وجهك؟»، ثم قالت وهي تقف مبتعدة: «بالمناسبة، لقد قطعنا المياه عن زنزانتك الليلة، لذلك سيبقى الدم على وجهك حتى الغد»، ثم اندفعت خارجة وقد تركنا الغرفة... لقد فَعَلَت ما ظنَّت أنه أفضل ما باستطاعتها لتحصل على المعلومات التي يطلبها رؤساؤها. أية قذارة فَعَلت؟ وأية قذارة نقوم بها في هذا المكان.

بالفعل، سؤال جيد للغاية، لكن سار لم يحصل على إجابة واضحة من أي شخص.

معلومات أخرى عن الجرائم والسلوكيات المنحرفة في جوانتانامو

كشف إريك سار عددًا من الممارسات الأخرى التي كانت خادعة وغير أخلاقية وغير قانونية. كانت هناك تعليمات مشددة له ولبقية أفراد فريق التحقيق بعدم التحدث مع مراقبي منظمة الصليب الأحمر الدولية مطلقًا.

عند زيارة أي من كبار الشخصيات لمتابعة عملية استجواب «عادية» كانوا يُجهّزون «أوضاعًا مزيّفة». إعدادات «وهمية» تجعل المشهد يبدو طبيعيًا ومعتادًا. يُذكّرنا هذا بنموذج معسكرات اعتقال اليهود التي أنشأها النازيون في تريسيندات (Teresienstadt) في تشيكوسلوفاكيا، فقد كانوا يخدعون منظمة الصليب الأحمر الدولية ويجعلونهم يعتقدون أن السجناء سعداء بوضعهم الجديد. يصف إريك سار كيف كانوا يُعقّمون كل شيء على أعلى مستوى:

«أحد الأشياء التي تعلمتها عندما انضممت لفريق الاستخبارات هو أن زيارات الشخصيات المهمة (إما أن تكون زيارات عامة أو زيارات تنفيذية من جهات حكومية أعلى أو إحدى جهات المخابرات أو حتى زيارة لأحد وفود الكونجرس) دائمًا ما تسبقها جهود مكثفة لجعل المُحقّقين يأتون بمعتقل سبق له التعاون في التحقيق ثم وضعه في غرفة التحقيق وإعادة استجوابه في وجود الشخصية المهمة التي تتابع ما يجري من غرفة المراقبة. هم يجدون شخصًا متعاونًا في الأساس يستطيعون الجلوس معه وتبادل الحديث بشكل عادي، ربما يكون شخصًا تعامل مع المخابرات في السابق وقدم معلومات مفيدة، ثم يعيدون الحوار أثناء زيارة الشخصية المهمة.

بصفتي رجُل مخابرات أشعر بالإهانة إزاء هذا التصرف، ولكي أكون صادقًا معك

فلا أعتقد أنني الوحيد الذي يشعُر بهذا؛ لأن وجود مجتمع المخابرات بشكل عام هدفه توفير معلومات لصناع السياسة، معلومات صحيحة تساعدهم في اتخاذ القرار الصائب. وجود مجتمع المخابرات كما قلت لك هدفه تقديم المعلومات الصحيحة، لذلك فإن فكرة صناعة عالم خيالي يجعل معتقل جوانتانامو يبدو للزائرين على غير حقيقته يحطم كل شيء نحاول تحقيقه في عملنا المخابراتي».

«تصدير» التعذيب

كُشف المزيد من الأدلة عن عمليات تعذيب سريّة منتشرة للحصول على المعلومات باستخدام القوة ضد المشتبه بهم غير المتعاونين في برامج عمل المخابرات المركزية الأمريكية (CIA). هذه العمليات تتلخص في نقل المعتقلين إلى دول أجنبية وافقت على القيام بالعمل القذر نيابة عن الولايات المتحدة، وهذه البرامج معروفة باسم (التسليم) أو (التسليم الاستثنائي). تشهد هذه العمليات نقل عشرات وربما مئات المعتقلين إلى دول أجنبية وغالبًا ما يتم ذلك باستخدام طائرات رجال أعمال تستأجرها الـ(CIA)[١]، ومن المُرجّح أن الرئيس بوش صرَّح للـ(CIA) «بإخفاء» أو «تسليم» المعتقلين لدول تشتهر بتعذيبهم ومسجلّة بهذا لدى (منظمة العفو الدولية)[٢]. أُبعد هؤلاء السجناء عن أي تواصل لفترة طويلة في معتقلات سرية في أماكن «غير معروفة». في عمليات «التسليم العكسي» تعتقل السلطات الأجنبية «المشتبه بهم» في بيئة غير حربية بعيدًا عن ميدان المعركة ثم ينقلونهم إلى المعتقلات وفي الأغلب إلى معتقل خليج جوانتانامو بلا أدنى قدر من الحماية القانونية التي يكفلها القانون الدولي لهؤلاء.

---

(١) انظر القصة الرائعة:

A. C. Thompson and Trevor Paglen, "The CIA's Torture Taxi," San Francisco *Bay Guardian*, December 14, 2005, pp. 15 and 18.

كشفت التحقيقات أن الطائرة البوينج رقم (N313P) مملوكة لشركة خاصة ولا يوجد لها أي تاريخ يخص هبوطها في أية قاعدة عسكرية في العالم، ووجد أنها استخدمت في اختطاف مواطن ألماني من أصل لبناني، خالد المصري (Khaled El-Masri). ويُدّعى أنها واحدة من أصل (٢٦) طائرة تحت تصرف المخابرات المركزية تستخدم في عمليات التسليم المماثلة، وفقًا لخبير الجمعية الأمريكية للحريات المدنية (*ACLU*) ستيفن وات (*Steven Watt*).

(٢) انظر:

Human Rights Watch, "The Road to Abu Ghraib," June 2004, www.hrw.org/reports/2004/usa0604/ See also John Barry, Michael Hirsh, and Michael Isikoff, "The Roots of Torture," *Newsweek*, May 24, 2004, http://europe.newsweek.com/roots-torture-128007?rm=eu

«وفقًا لمصادر مطلعة فإن إدارة الرئيس سمحت للمخابرات المركزية بتجهيز سلسلة من منشآت الاعتقال السرية خارج الولايات المتحدة واستجواب المحتجزين فيها بقوة غير مسبوقة».

قال رئيس مركز الحقوق الدستورية مايكل راتنير (Michael Ratner) عن هذا برنامج:

«أتذكر تصدير التعذيب، المهم في هذا الأمر هو أن المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) كانت تنفذ اعتقالات في أي مكان في العالم أثناء الحرب العالمية على الإرهاب، وعندما لا ترغب في تنفيذ عمليات التعذيب أو الاستجواب العادية بنفسها كانت ترسل هؤلاء الأشخاص إلى دول أخرى لأجهزة المخابرات التي لدينا علاقات وثيقة معها، مثل مصر والأردن»[١].

كان مايكل شوير أحد الضباط البارزين في (CIA) المسؤولين عن برنامج التسليم هذا، يقول كأمر واقع:

«كنا نأخذ الناس إلى بلادهم الأصلية في الشرق الأوسط في حالة امتلاك هذه الدول لإجراءات استثنائية لهم وقبلت استلامهم. لا يُعامل هؤلاء وفقًا لقوانين الولايات المتحدة؛ بل وفقًا لقوانين فلنقُل المغرب، أو مصر، أو الأردن...»[٢].

لا شك في أن أساليب الاستجواب في تلك الدول كانت تشمل طرائق تعذيب لا تريد الـ(CIA) أن تعرف شيئًا عنها طالما كانت تُثمِر عن «معلومات» مفيدة تأتيها، لكن من الصعب في عصر التقنيات المتطورة أن يبقى هذا البرنامج خفيًا لفترة طويلة. قاد بعض حلفاء أمريكا تحقيقًا بخصوص حوالي ثلاثين طائرة على الأقل مشكوك في تورطها في برنامج التصدير أو التعذيب. كشف التحقيق أن المشتبه بهم كانوا يُنقَلون إلى معتقلات قديمة في شرق أوروبا منذ أيام الاتحاد السوفيتي[٣].

في تقديري تشير برامج تصدير التعذيب تلك إلى أن الـ(CIA) والمخابرات العسكرية كانوا يكرهون تعذيب السجناء، ولكنهم اعتقدوا أن وكلاء المخابرات في تلك الدول يعرفون كيف يقومون بالأمر بصورة أفضل، لقد استمروا في تحسين أساليب «الدرجة الثالثة» لفترة أطول مقارنة بالولايات المتحدة. ما عرضناه هنا هو أقل القليل من أنواع التعذيب التي لا حصر لها التي تستخدم في التنكيل بالمعتقلين في السجون العسكرية الأمريكية، وهدفي من هذا هو دحض تأكيدات الإدارة الأمريكية بأن هذه الاعتداءات ليست «مُنَظَّمة».

عمليات التشريح وتقارير الوفاة الخاصة بالمعتقلين المحتجزين في المنشآت العراقية

---

(١) Frontline, "The Torture Question," transcript, p. 5.

(٢) نفس المصدر.

(٣) Jan Silva, "Europe Prison Inquiry Seeks Data on 31 Flights: Romania, Poland Focus of Investigation into Alleged CIA Jails," Associated Press, Nov. 23, 2005.

والأفغانية تكشف أن حوالي نصف الوفيات الأربعة والأربعين المذكورة وقعت أثناء عمليات استجواب بمعرفة قوات سيلز (SEALS) أو المخابرات العسكرية أو المخابرات المركزية الأمريكية (CIA). كان القتل يحدث بسبب تكتيكات استجواب تعسفية منها التغمية، والتكميم، والخنق، والضرب بأدوات صلبة، والإغراق الوهمي، والحرمان من النوم، والتلاعب المفرط بدرجات الحرارة. قال المدير التنفيذي للمنظمة الأمريكية للحريات المدنية (ACLU) أنثوني روميرو بوضوح تام أنه «ليس لديه شك في كون عمليات الاستجواب أدَّت إلى وفيات. وبقي كبار الضباط الذين عرفوا بالتعذيب مكتوفي الأيدي، وكل من صنع ودعم تلك السياسات يجب أن يحاسب»[١].

التصعيد لأعلى مستوى: محاسبة ديك تشيني وجورج بوش

كانت حقيقة كون هذه الاعتداءات ليست أفعالًا فردية لبعض الجنود الذين تجاوزوا القواعد تزداد وضوحًا كل يوم في الأشهر التي تلت ظهور صور التعذيب في أبو غريب، ولكنها كانت نتيجة لقرارات اتخذتها إدارة بوش تهدف إلى تطويع وتجاهل؛ بل وتنحية القواعد. سياسات الإدارة هذه هي التي صنعت المناخ الملائم لتعذيب المعتقلين في أبو غريب وفي مناطق متفرقة في العالم.

يلفت هذا التصريح الموجز من تقرير منظمة مراقبة حقوق الإنسان (HRW) «الولايات المتحدة: تفلت بجرائم التعذيب United States: Getting Away With Torture؟» انتباهنا إلى المستوى الأعلى من تسلسل القيادة وصولًا إلى نائب الرئيس ديك تشيني والرئيس جورج بوش.

الحرب على الإرهاب تُرسّخ التحوّل إلى نموذج التعذيب

بما يتفق مع إخفاقات الرئاسة السابقة في «الحرب على المسميات»، على الفقر والمخدرات، أُعلِنت الحرب الأمريكية على الإرهاب على خلفية أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١. كان أساس تلك الحرب الجديدة هو أن الإرهاب هو التهديد الأول «للأمن القومي» و«الأرض الوطن» ومواجهته واجبة بكل الوسائل الممكنة. استُخدِم هذا الأساس الأيديولوجي تقريبًا من قبل كل الأمم كأداة للحصول على تأييد شعبي وعسكري لعمليات العُدوان والقمع. استخدمته بحُرية ديكتاتوريات اليمين المتطرفة في البرازيل واليونان

(١) "21 Inmates Held Are Killed, ACLU Says," Associated Press, October 24, 2005; full report by ACLU, "Operative Killed Detainees During Interrogations in Afghanistan and Iraq," October 24, 2005, www.aclu.org/news/NewsPrint.cfm?ID=19298&c=36.

والعديد من الدول الأخرى في فترة الستينيات والسبعينيات لتبرير عمليات إعدام نفذتها فرق الموت ضد مواطني بلدهم الذين صُنِّفوا «أعداء للدولة»[١]. استخدم الجناح اليميني المسيحي الديمقراطي في إيطاليا «استراتيجية صناعة التوتر» أثناء نهاية السبعينيات ليرفع درجة الخوف من إرهاب أصحاب الألوية الحمراء (شيوعيون أصوليون) كوسيلة للسيطرة السياسية. والمثال الكلاسيكي هو تسمية هتلر لليهود بأنهم سبب انهيار ألمانيا اقتصاديًا سنة ١٩٣٠م، وأنهم كانوا الخطر الداخلي الذي برَّر برنامجًا خارجيًّا يهدف إلى الاحتلال وإلى إبادتهم في ألمانيا وكل الدول التي يحتلها النازيون.

الخوف هو السلاح النفسي الذي توظِّفه الدولة لترويع المواطنين إلى حد التضحية بحُريّاتهم الأساسية وبالحماية المكفولة لهم في ظلّ سيادة القانون مُقابِل الأمن الموعود من قبل حكومَاتِهم التي تملُك صلاحيات كاملة. الخوف هو الجزء الأساسي الذي جعل الأغلبية الشعبية ومجلس الشيوخ يدعمون الحرب الاستباقية على العراق ويتمسكون بطيش في النهاية بالعديد من سياسات إدارة بوش. أولًا انتشر الخوف بطريقة مشابهة لوصف جورج أورويل من توقُّع هجوم نووي على الولايات المتحدة وحلفائها بفعل ترسانة «أسلحة الدمار الشامل» التي يمتلكها صدام حسين. فعلى سبيل المثال، قبيل التصويت في مجلس الشيوخ على إعلان الحرب؛ أخبر الرئيس بوش المجلس والأمة أن العراق هي «أمة شيطانية» تهدد أمن أمريكا حيث قال: «بناء على هذه الحقائق، لا يجب أن يتجاهل المواطنون الأمريكيون التحالُفات ضدنا. نحن أمام أدلة واضحة على الخطر، لا يمكننا أن ننتظر حتى نحصل على إثبات نهائي، لن ننظر دُخان السلاح بعد ضربِنا، والذي قد يكون سحابة عش الغراب»[٢]. لم ينشر صدام سحابة عش الغراب فوق أمريكا بل فريق بوش هو من فعل.

طوال السنوات التي تلت تلك التصريحات استمر جميع أعضاء فريق عمل بوش في ترديد تلك التصريحات المخيفة في خطاب تلو الآخر. أعدّ قسم التحقيقات الخاصة التابعة للجنة الإصلاح الحكومي وممثله هنري واكسمان تقريرًا عن تصريحات إدارة بوش عن العراق، وقد استخدمت لإعداد هذا التقرير قاعدة بيانات عامة تجمع كافة تصريحات بوش، وتشيني، ورامسفيلد، ووزير الخارجية كولين باول، ومستشارة الأمن القومين كونداليزا رايس. ووفقًا لهذا التقرير، خرج هؤلاء المسؤولون الخمسة بعدد (٢٣٧) تصريحًا كاذبًا أو

---

(١) M. Huggins, M. Haritos-Fatouros, and P. G. Zimbardo, *Violence Workers: Police Torturers and Murderers Reconstruct Brazilian Atrocities* (Berkeley: University of California Press, 2002).

(٢) White House, President Bush Outlines Iraqi Threat: Remarks by the President on Iraq (October 7, 2002). Https://georgewbush-whitehouse.archives.gov/news/releases/2002/10/20021007-8.html

فضلًا عن التهديد العراقي خلال (١٢٥) لقاءً علنيًا، بمتوسط (٥٠) تصريحًا لكل منهم. في شهر سبتمبر ٢٠٠٢ في أول ذكرى لهجمات ٩/١١، سُجّلت كذلك لإدارة بوش خروجها بخمسين تصريح مضلل للجمهور[١].

تعقّب الكاتب رون سوسكيند الحائز على جائزة بوليتزر في تحليله الاستقصائي الكثير من تصويرات إدارة بوش للحرب على الإرهاب وصولًا إلى تصريحات تشيني عقب ٩/١١ مباشرة، حيث أعلن تشيني: «لو كان هناك احتمال بمقدار ١٪ أن عالمًا باكستانيًا يساعد تنظيم القاعدة على تطوير سلاح نووي؛ سنتعامل مع الأمر كأنه حقيقة مُثبتة. الأمر لا يحتمل تحليلات... إنه وقت الرد». كتب سوسكيند في كتابه «عقيدة الواحد بالمئة» (The One Percent Doctrine)، «بما أن الأمر مُعلَن فإن هذا المعيار سيصبح هو المعيار القياسي لاتخاذ القرارات التي ستُشكِّل الأحداث وردود الفعل في الإدارة لسنوات قادمة». ذكر أن الحكومات الفدرالية الكبيرة بكل أسف لا تنجح في العمل بكفاءة وفاعلية إذا ما تعرَّضت لأنواع جديدة من الضغوط مثل الحرب على الإرهاب، أو التنافُر الإدراكي الناشئ عن تمرد غير متوقَّع أو تمرد المقبوض عليهم.

نستطيع أن نرى نموذجًا آخر عن الترويج للخوف في تسييس دلالات خطر الإرهاب عن طريق نظام تحذير يستخدِم (الإشارات اللونية) أطلقه قسم الأمن الوطني التابع لإدارة بوش. أعتقد أن الهدف الأساسي كان توظيفه أثناء الكوارث الكبرى لنقل المواطنين والتجهُّز للخطر، لكن بمرور الوقت لم تحمل الإشارات اللونية المُبهَمة أية نصائح حقيقية للمواطنين ليتحركوا على أساسها وقت الخطر. عند التحذير من إعصار مثلًا يُطلب من المواطنين إخلاء منازلهم، وعند التحذير من زوبعة يُطلب منهم الانسحاب إلى داخل سراديب الحماية من العواصف، لكن عند التحذير من هجوم إرهابي متوقَّع يقال لنا أن «نتوخى الحذر»، وبالطبع أن نستمر في الذهاب إلى عملنا بصورة طبيعية. لم يشرح لنا أحد أبدًا سبب عدم حدوث كثير من هذه الهجمات على الرغم من مصادرهم «الموثوقة» المزعومة. تحريك جميع القوات الوطنية في كل مرة ترتفع فيها درجة الخطر يُكلف خزينة الدولة مليار دولار شهريًا على الأقل ويتسبب في حالة من التوتر غير الضروري بين المواطنين. وفي النهاية فإن إذاعة درجات الخطر على الشاشات بألوان محددة لم يكن أكثر مصداقية من الحكومة التي انتهجت طريقًا عالي التكلفة لضمان استمرار خوف المواطنين من الإرهاب على الرغم من عدم وجود أية هجمات إرهابية على الإطلاق.

---

(١) "Iraq on the Record: The Bush Administration's Public Statements on Iraq," prepared by the House of Representatives Committee on Government Reform-Minority Staff 's Special Investigations Division, March 16, 2004: Http://downingstreetmemo.com/docs/iraq_on_the_record.pdf

أوضح الكاتب والفيلسوف الوجودي الفرنسي ألبير كامو أن الترويع مسلك معروف؛ فالإرهاب يصنع الخوف والخوف يمنع الناس من التفكير بعقلانية، ويجعلهم يتخيّلون العدو في صور مُجردّة مثل الإرهابيين أو المتمردين الذين يهددوننا والذين يجب تدميرهم. بمجرد أن نبدأ في تقسيم الناس إلى كينونات أو صور مُجرّدة فإنهم يتحولون مباشرة في أعيننا إلى «وجوه الأعداء»، وهذا يُحفّز النزعات والميول البدائية التي تنحو منحى القتل والتعذيب حتى لدى الأفراد العاديين المُسالمين[1].

أتمسك هنا بانتقادي «لعلامات التحذير المُتَخَيَّلة» لأنها مُختلّة وشديدة الخطورة، ولدينا بعض الأدلة الإحصائية على أن نسب تأييد وقبول الرئيس بوش كانت مرتبطة بترديده لتلك الكلمات التحذيرية[2]. القضية هنا هي أن إدارة بوش كانت تستغل فكرة العدو الرابض على أبوابنا وتُغذيها لزيادة مُعدّلات قبول الرئيس وتأكيد صلاحياته الكاملة على الأمّة التي تُقاتِل الآن.

تسميته «القائد الأعلى» وتوسعة الصلاحيات التي يكفلها له الكونجرس بشكل ضخم للغاية جعل الرئيس بوش ومستشاريه فوق كل قانون وطني ودولي مما جعل سبيل تقنين سياساتهم هو إعادة صياغة التفسير القانوني الرسمي. بوش وإدارته هم الذين زرعوا بذور الشر التي أينعت في سجن أبو غريب بحديثهم عن التهديد الثلاثي للأمن القومي، وخوف المواطنين وضعفهم، واستخدام الاستجوابات ـ التعذيب من أجل الانتصار في الحرب على الإرهاب.

نائب الرئيس تشيني في منصب «نائب رئيس التعذيب»

أطلق أحد أعداد صحيفة واشنطن بوست على ديك تشيني لقب «نائب رئيس التعذيب» بسبب محاولاته المضنية في تجاوز تعديل ماكين لقانون ميزانية وزارة الدفاع[3]، وكان هذا التعديل ينص على المعاملة الإنسانية للسجناء المحتجزين في السجون العسكرية الأمريكية، وقد عمل تشيني بقوة على كسب التأييد للاستثناء من هذا القانون لصالح المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) وذلك لتمكينها من استخدام جميع الوسائل التي تراها ضرورية للحصول على معلومات من المشتبه بهم لديها. جادل تشيني عن أن ذلك التقييد سيكبل يد

(١) Adam Gopnik, "Read It and Weep," *The New Yorker*, August 28, 2006, pp. 21-22.

(٢) Philip Zimbardo with Bruce Kluger, "Phantom Menace: Is Washington Terrorizing Us More than Al Qaeda?" *Psychology Today*, 2003, 34-36; Rose McDermott and Philip Zimbardo elaborate on this theme in the chapter "The Politics of Fear: The Psychology of Terror Alerts," in *Psychology and Terrorism*, eds. B. Bonger, L. M. Brown, L. Beutler, J. Breckenridge, and Philip Zimbardo (New York: Oxford University Press, 2006), pp. 357-70.

(٣) *The Washington Post*, October 26, 2005, p. A18.

عملاء المخابرات الأمريكية ويعرضهم للمحاكمات بسبب جهودهم المبذولة في الحرب على الإرهاب. (وقد رأينا مدى الهمجية والموت التي يمكن أن تتسبب بها جهودهم).

لا أتوقع أن تمرير هذا القانون قلّل من شغف تشيني واهتمامه بدعم استخدام الـ(CIA) كافة الوسائل الممكنة للحصول على اعترافات ومعلومات استخباراتية من المشتبه بتورطهم في منظمات إرهابية، والمحتجزين بشكل سريّ. ويؤكد هذا ثبات تشيني على تصريحاته التي خرج بها في أعقاب هجمات (٩/١١). في حوار تلفزيوني مع الإذاعة الوطنية (NBC) في برنامج (Meet the Press) صرّح قائلًا:

«إذا أردنا تحقيق شيء سيكون علينا مواصلة العمل حتى وإن كان لعملنا جانب مظلم. كثير من الأمور التي علينا إنجازها يجب أن نُتمها في سريّة، بدون أي نقاش، وباستخدام الموارد والأساليب المتاحة لوكالاتنا الاستخباراتية، هذا إذا أردنا النجاح. هذا هو العالم الذي يعمل فيه هؤلاء، ولهذا يجب علينا استخدام كافة الوسائل لتحقيق غايتنا المنشودة»[١].

في لقاء مع الإذاعة الوطنية (NPR)، اتهم الوكيل السابق لوزارة الخارجية كولن باول والعقيد لورنس ويلكيرسون فريق تشيني - بوش المُحافظ بأنهم أصدروا تعليمات إدارية أدت إلى الاعتداء على السجناء من قبل الجنود في العراق وفي أفغانستان. أوجز ويلكيرسون مسار التعليمات الإدارية في هذا الشأن:

«كان واضحًا لي أن مكتب نائب الرئيس (تشيني) يقوم بمراجعات دقيقة لحسابات وزير الدفاع (رامسفيلد) وصولًا إلى القيادات الأدنى في ميدان القتال بصيغة دقيقة عنت لمن يوضع في ميدان القتال شيئين فقط: ليست لدينا معلومات كافية، ونحتاج إلى الحصول على أدلة... أوه، وبالمناسبة، إليكم بعض الطرق التي تستطيعون بها الحصول عليها».

أشار ويلكيرسون إلى دافيد أدينتون مستشار تشيني، «محام خبير، مكّن الرئيس بحكم منصبه كقائد أعلى من الإفلات من الالتزام بمعاهدة جنيف»[٢]، يقودنا هذا مباشرة إلى قمة هرم السلطة.

---

(١) ÌëÓÂûö öåðíð Chenneý ëÓ ªüäûlá úÍÃÎª úlò ììם

Meet the Press with Tim Russert, September 16, 2001, at Camp David, Maryland.

متاحة على:

Http://edition.cnn.com/2009/POLITICS/04/24/pm.dark.side/index.html?iref=nextin

(٢) مقتبس من:

Maureen Dowd, "System on Trial," *The New York Times*, November 7, 2005.

الرئيس جورج بوش «القائد الأعلى للحرب»

بصفته قائدًا مسؤولًا عن حرب مفتوحة على الإرهاب العالمي، اعتمد الرئيس جورج بوش على فريق من المستشارين القانونيين من أجل تثبيت أساس قانوني استباقي لدرجة العُنف في الحرب على العراق، وإعادة تعريف ماهية التعذيب، وخلق قواعد اشتباك جديدة، وتقييد حريات المدنيين عبر ما يسمى بالعمل الوطني، والسماح بالتجسس غير القانوني، والتنصت على المكالمات الهاتفية، والتجسس على الهواتف الخلوية للمواطنين الأمريكيين. وكالمعتاد يتم كل هذا باسم حماية الأمن القومي لأرض الوطن في حرب عالمية ضد ما تعرفونه جيدًا.

مذكرات التعذيب

في مذكرة صدرت في ١ أغسطس، ٢٠٠٢، لوزارة العدل، تُعرَف في الصحافة باسم «مذكرة التعذيب (Torture Memo)»، وُضِع تعريف جديد للتعذيب لا يعتمد على الأسلوب ولكن على النتيجة النهائية حيث قالت المُذكِّرة أن الألم الجسدي يجب أن «يعادل في شدته أي ألم ناتج عن إصابة جسمانية خطيرة، أو توقُّف أحد الأعضاء، أو تَلَف وظائف الجسم، أو الموت». ويتماشى مع هذه المُذكّرة القانونُ القائل بأن مُحاكمة أي شخص بجرائم تقتضي وجود «نية» لدى المُدعى عليه «بإحداث ألم جسدي أو ذهني شديد». تعريف «التعذيب الذهني» كان ضيِّقًا للغاية ولا يشمل سوى التصرفات التي تؤدي إلى «إيذاء نفسي قوي لفترة طويلة، تستمر لشهور أو لسنوات مثلًا».

استمرت المذكرة لتؤكد على أن وثيقة ١٩٩٤م ضد التعذيب يمكن اعتبارها غير دستورية لأنها تتداخل مع صلاحيات الرئيس باعتباره القائد الأعلى. أعطت خطوط إرشادية أخرى من محامي وزارة العدل الرئيس القدرة على إعادة تفسير معاهدة جنيف بما يوافق أغراض الإدارة في حربها على الإرهاب. لن يُعامل المقاتلون المقبوض عليهم في أفغانستان، ولا الجنود المشتبه في انتمائهم للقاعدة وطالبان، ولا المتمردون، ولا كل من يعتقل ويحتجز؛ باعتبارهم أسرى حرب، ولذلك لا يكفُل القانون لهم أية حقوق مماثلة لحقوق أسرى الحرب. بالنسبة «للأعداء غير المحاربين» فيمكن احتجازهم في أية منشأة في العالم لمدد غير محدودة بدون أية استشارة قانونية أو تهم محددة موجهة لهم. ويبدو أيضًا أن الرئيس صدّق على برنامج الـ(CIA) المعروف باسم «الاختفاء» الخاص بالإرهابيين مرتفعي القيمة.

الأدلة ظرفية لكنها مقنعة، فمثلًا في كتابه «حالة الحرب: التاريخ السري للمخابرات الأمريكية وإدارة بوش» يخلص جيمس رايزن إلى وجود «اتفاق سري بين القيادات العليا

بإبعاد بوش عن الموضوع بما يوفر له القدرة على إنكار تورط الـ(CIA) في استخدام أساليب استجواب عنيفة»[1].

نجد وصفًا أقل تحفظًا للعلاقة بين الرئيس بوش وفريقه من المستشارين القانونيين من أستاذ القانون أنثوني لويس، بعد أن راجع المذكرات المتاحة بدقة:

«تبدو المذكرات وكأنها توصيات محامٍ فاسد لزعيم مافيا عن كيفية الالتفاف على القانون من أجل البقاء خارج السجن. تجنُّب المحاكمة كان أحد الموضوعات الأساسية للمذكرات... موضوع آخر أكثر إزعاجًا هو أن الرئيس يمكن أن يأمر بتعذيب سجين حتى لو كان ذلك محرمًا بموجب القانون الفدرالي والمعاهدات الدولية المناهضة للتعذيب التي وقعت عليها الولايات المتحدة»[2].

القُرَّاء مدعوون لقراءة جميع المواد المتعلقة التي أوجزتها هنا (التحقيقات الاستقصائية، وتقارير منظمة الصليب الأحمر الدولية، وغيرها) مع «مذكرات التعذيب» الثمانية والعشرين التي قدمها مستشارو الرئيس بوش القانونيون ورامسفيلد وباول وبوش وآخرون مهدوا الطريق لشَرْعَنَة التعذيب في أفغانستان وجوانتانامو والعراق. في كتاب مهم يصل عدد صفحاته إلى ١٢٤٩ صفحة بعنوان «أوراق التعذيب: الطريق إلى أبو غريب» حررته كارين جرينبيرج وجوشوا دراتيل؛ جُمِعَت جميع أوراق المذكرات لتكشف عن المهارات الفاسدة لمُحامِي الحكومة[3]. يقدم لنا هذا الكتاب نظرة عميقة توضح كيف أن تلك «المهارات التي قدمت الكثير لحماية المواطنين الأمريكيين في أكثر دولة تهتم بسيادة القانون يمكن أن يساء استخدامها لتكون سببًا في الشر»[4].

---

(١) James Risen, *State of War: The Secret History of the C.I.A. and the Bush Administration* (New York: Free Press, 2006).

(٢) Anthony Lewis, "Making Torture Legal," *The Washington Post*, June 17, 2004:
Http://www.washingtonpost.com/wp-srv/nation/documents/dojinterrogationmemo20020801.pdf
وانظر مذكرة وزارة الدفاع الأمريكية الصادرة في ٦ مارس ٢٠٠٣ والتي تتضمن نصائح لرامسفيلد (Rumsfeld) بخصوص أساليب الاستجواب:
www.news.?ndlaw.com/wp/docs/toture/30603wgrpt/.

(٣) K. J. Greenberg, and J. L. Dratel, eds., The Torture Papers: The Road to Abu Ghraib (New York: Cambridge University Press, 2005).
بعض تلك المواد متاحة على:
www.Thinking Piece.com/pages/books.html.

(٤) اقتباس من:
Lewis, in Introduction to *The Torture Papers*, p. xiii.
جدير بالذكر أن مجموعة صغيرة من محامي وزارة العدل عينتهم جميعًا إدارة بوش تمردوا على المسوغات القانونية المقترحة لتوسعة صلاحيات الرئيس للتجسس على المواطنين وتعذيب الأعداء المشتبه بهم. كشف صحفيو جريدة (Newsweek) «التمرد الداخلي Palace Revolt» (فبراير ٢٠٠٧) ووصفوه بأنه «لمحة جانبية من =

كتب أستاذ القانون جوردان باوست [نقيب سابق وقاضٍ مشاور في المحاكم العسكرية] عن مستشاري جورج بوش القانونيين الذين أعدوا تلك التبريرات لتعذيب المعتقلين: «لم يحدث منذ العصر النازي أن تورط هذا العدد من المحامين بهذا الوضوح في جرائم دولية تتعلق بمعاملة معتقلين واستجوابهم أثناء الحرب».

يرأس هؤلاء المستشارين المحامي ألبرتو جونزالس الذي ساعد في صياغة مذكرة قانونية تعيد تفسير «التعذيب» كما ذكرنا أعلاه. لم ينفِ الرئيس بوش وجونزالس تلك المذكرات التي تقدم أقصى تعريف للتعذيب قبل الكشف عن صور أبو غريب. قورن تكريس جونزالس لتوسيع صلاحيات الرئيس في إطار الحرب على الإرهاب بجهود المحامي النازي صاحب التأثير الكبير كارل شميت (Carl Schmitt). ساعدت أفكار شميت عن تحرير القائد التنفيذي للأمة من القيود القانونية وقت الطوارئ في تعطيل الدستور الألماني ومَنْح هتلر الصلاحيات الكاملة، وقد كتب كاتب السيرة الذاتية لجونزالس أنه شخص محبوب صعد «كرجل عادي» بلا أية توجهات ساديّة أو سيكوباتية[1]، لكن في دوره المؤسسي كانت المذكرات القانونية التي كتبها مسؤولة عن تعطيل الحريات المدنية وعن أساليب الاستجواب الهمجية مع المشتبه في تورطهم في الإرهاب في خرق للقانون الدولي[2].

استجوابات جوانتانامو تواجه معارضة من إدارة التحقيق الجنائي في وزارة الدفاع

وفقًا لتقرير أذاعته قناة (MSNBC) فقد قال قادة إدارة التحقيق الجنائي في وزارة الدفاع أنهم حذّروا مرارًا أبرز مسؤولي وزارة الدفاع (بداية من ٢٠٠٢ إلى سنوات بعدها) من أن أساليب الاستجواب القاسية التي تستخدمها فرق استخبارات منفصلة لن تأتي بمعلومات موثوقة ويمكن أن تُعامل في المؤسسات الدولية باعتبارها جرائم حرب تلحق الخجل بالأمة عندما تُعلن، وقد قوبلت مخاوف المحققين الجنائيين الخبراء بتجاهل واسع من قبل كل من هم في تسلسل القيادة ويقودون التحقيقات في جوانتانامو وأبو غريب لصالح أساليب الاستجواب التعسفية التي يفضلونها. أكد ألبرتو مورا المستشار العام السابق للبحرية دعمه لأعضاء الفريق الجنائي: «ما يجعلني شديد الفخر بجميع هؤلاء الأفراد هو

= الشجاعة»، وقد دفع بعضهم غاليًا ثمن الدفاع عن مبدأ «أمة القانون» لا الأشخاص حيث طردوا وحرموا من الترقيات ودفعوهم لترك الخدمة.

(١) B. Minutaglio, *The President's Counselor: The Rise to Power of Alberto Gonzales* (New York: HarperCollins, 2006).

(٢) R. J. Gonzalez, Review of Minutaglio's *The President's Counselor*, *San Francisco Chronicle*, *July 2, 2006*, *pp. M1 and M2*.

قولهم «نحن لن نكون جزءًا من هذا حتى وإن تلقينا أوامر به». هم أبطال، ولا يمكن أن نصفهم أية كلمات أخرى. يثبتون قدرًا كبيرًا من الشجاعة والكرامة الشخصية في وقوفهم دفاعًا عن القيم الأمريكية وعن منهج نعيش جميعًا من أجله». في النهاية لم يتمكن هؤلاء المحققون من منع الاعتداءات، لكنهم قللوا منها بمجرد ضغطهم على وزير الدفاع ليتراجع عن بعض أساليب الاستجواب الأكثر قسوة التي سبق وصرح بها[١].

هوس الحرب على الإرهاب

بإمكاننا أن نرى هوس بوش بالحرب على الإرهاب الذي دفعه إلى المُضيّ قُدُمًا في هذا الطريق الخطر الذي صنعه قول السيناتور باري جولدواتر (Barry Golwater): «التطرف في الدفاع عن الحرية ليس إثمًا... التهاون في السعي خلف تحقيق العدالة ليس فضيلة». بناء على هذا سمح الرئيس بوش بمراقبة المواطنين الأمريكيين من قبل وكالة الأمن القومي الأمريكي (NSA) بدون أية تصريحات قانونية مما أسفر عن عمليات فحص بيانات ضخمة، مساحات ضخمة من المكالمات الهاتفية والبيانات المنقولة عبر الإنترنت جمعتها وكالة الأمن القومي وأرسلتها إلى مكتب التحقيقات الفدرالي (FBI) من أجل التحليل حتى أن سعتها التخزينية كانت تفوق بكثير إمكانيات الأجهزة المتوفرة لمعالجة البيانات[٢].

يحتاج هذا النوع من الرقابة على المواطنين إلى «مدخلٍ خلفيّ» لأغلب وسائل التواصل الموجودة على الأرض الأمريكية التي تصلها بالخارج، وإلى تعاون شركات الاتصالات الكبرى كذلك بحسب تقرير مفصل في نيويورك تايمز نشر في يناير (٢٠٠٦)[٣]. كشف التقرير عن الفساد الذي ينتج عن إسناد تلك الصلاحيات للرئيس بلا أية قيود قانونية أو رقابة من مجلس الشيوخ، وقد تسبب هذا في عقد مقارنة بين بوش الذي شعر بأنه فوق القانون وبين الرئيس نيكسون الذي «أطلق كلاب المراقبة المنزلية سنة ١٩٧٠م» ودافع عن فعل هذا بتأكيده «عندما يفعل رئيس هذا فمعناه أنه قانوني»[٤] يقول بوش الآن الشيء نفسه بالإحساس ذاته بالحصانة.

---

(١) Online: "Gitmo Interrogations Spark Battle Over Tactics: The Inside Story of Criminal Investigators Who Tried to Stop the Abuse.", October 23, 2006.
Http://www.nbcnews.com/id/15361458/ns/world_news-terrorism/t/gitmo-interrogations-spark-battle-over-tactics£

(٢) "FBI Fed Thousands of Spy Tips. Report: Eavesdropping by NSA Flooded FBI, Led to Dead Ends," *The New York Times*, January 17, 2006.

(٣) Eric Lichtblau and James Risen, "Spy Agency Mined Vast Data Trove, Officials Report," *The New York Times*, December 23, 2005. Also Adam Liptak and Eric Lichtblau, "Judge Finds Wiretap Actions Violate the Law," *The New York Times*, August 18, 2006.

(٤) Bob Herbert, "The Nixon Syndrome," *The New York Times*, January 9, 2006.

نجد هذا الشعور بالعلو فوق القانون أيضًا في استخدام بوش بشكل غير مسبوق «للقرارات الرئاسية». في عملية تمرير قانون في مجلس الشيوخ يؤكد الرئيس على حقه في عدم الالتزام بالقانون الذي وقعه لتوه. استخدم الرئيس بوش هذا الأسلوب أكثر من أي رئيس آخر في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية بمعدل ٧٥٠ مرة، أسلوب عدم الالتزام بالقوانين التي مررها الكونجرس عندما تتعارض مع تفسيره للدستور. يشمل ذلك وضعه قيودًا خاصة على تعديل ماكين ضد التعذيب(١).

لكن تأكيد الرئيس بوش على سلطته التنفيذية قوبل بقرارات لاحقة من المحكمة العليا تُقيّد سلطاته، حيث ألغت مخططات إدارة بوش لمحاكمة معتقلي جوانتانامو أمام محاكم عسكرية لأن هذا غير مصرح به في القانون الفدرالي ويُعد انتهاكًا للقانون الدولي. وفقًا لنيويورك تايمز: «كان هذا الإلغاء بمثابة أكبر إخفاق لإدارة بوش في سعيها لتوسعة صلاحيات الرئيس»(٢).

للمفارقة صارت إدارة بوش نفسها في رغبتها في تخليص العالم من شرور الإرهاب مثالًا بارزًا على «الشر الإداري». هي إدارة تسبب الألم والمعاناة والموت وترحب باستخدام إجراءات رسمية منطقية وفعالة للتعمية على جوهر ما تفعل مُتجاهلةً حتى محاولة تبرير الوسائل التي تستخدمها لتحقيق ما تعتبره غايات عُليا(٣).

أؤمن بأن النظام يتكوّن من عملاء ووكالات يمكن لسلطاتهم وقيمهم تعديل قواعد «السلوكيات الثابتة» وكذلك المتوقعة داخل مجال تأثيرها. بمعنى أن النظام أكبر من مجموع قياداته الذين يخضعون هم أنفسهم لقوة المؤثرات المحيطة بهم. بمعنى آخر، يجب أن

---

(١) C. Savage, "Bush Challenges Hundreds of Laws." *The Boston Globe*, April 30, 2006.

(٢) L. Greenhouse, "Justices, 5-3, Broadly Reject Bush Plan to Try Detainees." *The New York Times*, June 30, 2006.

قام محامٍ من البحرية بتمثيل موكله المعتقل في جوانتانامو وقد حرمته إدارة بوش من الترقية لقيامه بواجبه بجدية وبأمانة، لم يجعل الملازم تشارلز سويفت (Charles Swift) موكله يعترف بأنه مذنب أمام المحكمة العسكرية كما طلب منه، بل خلص إلى أن لجنة التحقيق غير دستورية، وقدم دعمًا لقرار المحكمة العليا برفضها - يعني: لجنة التحقيق - في قضية حمدان ضد رامسفيلد، وقد أنهى حرمانه من الترقية مسيرة عشرين عامًا مميزة في الجيش. وفقًا لعدد جريدة نيويورك تايمز، «بدفاعه عن السيد حمدان وشهادته أمام الكونجرس التي بدأت في يوليو ٢٠٠٣م، فعل السيد سويفت ما كان على أي فرد أن يفعله ليكشف الخطايا الشنيعة لخليج جوانتانامو ولجان السيد بوش غير القانونية». من مقال:

"The Cost of Doing Your Duty," *New York Times*, October 11, 2006, p. A26.

(٣) Guy B. Adams and Danny L. Balfour, *Unmasking Administrative Evil* (New York: M. E. Sharpe, 2004).

نجد قراءة لا تقل أهمية لفهم مدى الفوضى التي تسببت بها إدارة بوش بسياساتها المعيبة في العراق وإنكار الناتجون لواقع ميدان المعركة في:

Thomas Ricks, *Fiasco: The American Military Adventure in Iraq* (New York: Penguin Books, 2006).

بوضع الأفراد الذين يلعبون أدوارًا محورية في خلق نظام يتورط في سلوكيات غير قانونية وغير أخلاقية؛ موضع المسائلة على الرغم من الضغوط الظرفية التي يتعرضون لها.

أعضاء لجنة المحلفين، قراركم فضلًا

لقد قرأت هنا عددًا من شهادات العديد من شهود العيان كجزء رئيسي من التقارير الموجزة التي أوردتها لجان تحقيق مستقلة، وكذلك أجزاء من التحليلات المفصلة لمنظمة مراقبة حقوق الإنسان (HRW)، الصليب الأحمر، الجمعية الأمريكية للحريات المدنية (ACLU)، أمنستي الدولية (Amnesty)، برنامج الإذاعة العام (PBS) وبرنامج الخط الأمامي (Frontline) عن طبيعة الاعتداءات والتعذيب التي تعرض لها السجناء المحتجزون لدى الجيش الأمريكي.

هل تصدّق الآن أن إساءة معاملة المعتقلين في أبو غريب في الرصيف A1 من قبل العريف إيفان تشيب فريدريك وبقية أفراد الشرطة العسكرية في نوبة الليل كان انحرافًا، حادثة منفصلة سببها قلة من «التفاحات الفاسدة»، أو «الجنود الفاسدين»؟

هل تعتقد أن تلك الاعتداءات وذلك التعذيب كانت أم لم تكن جزءًا من برنامج «ممنهج» للاستجواب بالإكراه؟ هل تتخطى تلك الاعتداءات وذلك التعذيب في تلك الاستجوابات مدى أعمق بكثير وأبعد من وقت محدد ومكان محدد ومجموعة من الفاعلين في أبو غريب في الرصيف A1 في نوبة الليل؟

بناء على اعتراف أفراد الشرطة العسكرية هؤلاء بالذنب بخصوص ما هو موضح في الاعتداءات المصورة، هل تعتقد الآن أنه كان هناك ما يكفي من المؤثرات الظرفية (الوعاء الفاسد) والضغوط النظامية (صُنَّاع الوعاء الفاسد) التي أثرت فيهم بما يستوجب تخفيف الحكم الصادر في حقهم؟

هل تقبل وهل أنت مُستَعِدّ الآن للحكم بتورط كبار القيادات السياسية الآتي ذكر أسمائهم في الاعتداءات التي جرت في أبو غريب والعديد من المنشآت العسكرية الأخرى والسجون التي تديرها سرًّا المخابرات المركزية الأمريكية (CIA): نائب الرئيس ديك تشيني، الرئيس جورج بوش؟

استمرار الدعوى القضائية

مع ذلك من الممكن أن تحتاج أيضًا إلى النظر في ملحوظة حول محاكمة حدثت مؤخرًا حاكمت إدارة بوش على «جرائمها ضد الإنسانية»[1].

(١) في يناير ٢٠٠٦م، عقدت محكمة في مدينة نيويورك من قبل اللجنة الدولية للتحقيق في الجرائم ضد الإنسانية =

دع الشمس تشرق

حسنًا، لقد وصلنا إلى نهاية رحلتنا الطويلة معًا. أُثَمِن قُدْرَتكُم على المواصلة على الرغم من أننا قابلنا معًا بعضًا من أسوأ ما في الطبيعة الإنسانية. لقد كان الأمر شاقًا عليّ بشكل خاص بسبب رجوعي إلى مشاهد تجربة سجن ستانفورد. وكان صعبًا عليّ أيضًا مواجهة عدم قدرتي على المساعدة في الحصول على حُكْم أفضل في حالة قضية فريدريك تشيب. على الرغم من كوني شخصًا متفائلًا على الدوام؛ إلا أن شرور القتل الجماعي والمذابح والقتل العَمد والتعذيب وأمور أخرى بشعة يفعلها البشر مع آخرين مثلهم تمامًا جعلت من نظرتي الإيجابية تجاه وضع الإنسانية مأزومة، لكن ما زال لديّ أمل بأن تحركنا بشكل جماعي سيكون له أفضل الأثر في مواجهة **تأثير الشيطان**.

في المرحلة الأخيرة من رحلتنا سندع الشمس تشرق لتُنير تلك الجوانب المظلمة من نفسية الإنسان، إنه وقت إبراز كُلّ ما هو إيجابي وإزالة كُل ما هو سلبي. سأفعل هذا بطريقتين: **أولًا**: سأُقدّم لك نصائح عميقة عن كيفية مقاومة المؤثرات الاجتماعية التي لا ترغب في السماح لها بالسيطرة عليك وكذلك أغلبنا في كل يوم.

---

* التي ارتكبتها إدارة جورج بوش. من بين تهم أخرى وجهتها تلك المحكمة لإدارة بوش نجد التهم الستة التالية بما يتفق مع تهم تواطؤ القيادة التي رفعتها على رامسفيلد (Rumsfeld)، تينيت (Tenet)، تشيني (Chenney)، وبوش (Bush):

- التعذيب. التهمة ١: أعطت إدارة بوش صلاحية استخدام التعذيب والاعتداء في انتهاكٍ لقانون حقوق الإنسان الدولي والدستور المحلي والقانون الوضعي.

- التسليم. التهمة ٢: سمحت إدارة بوش بنقل («تسليم») أشخاص في حماية الولايات المتحدة إلى دول أجنبية معروفة بممارسة التعذيب.

- اعتقال غير قانوني. التهمة ٣: سمحت إدارة بوش بالاعتقال مفتوح المدة لأشخاص معتقلين في مناطق حرب أجنبية ودول أخرى بعيدة عن أية مناطق حرب وحرموهم من الحماية المكفولة لهم بموجب اتفاقيات جنيف في معاملة سجناء الحرب، ومن الحماية المكفولة لهم بموجب الدستور الأمريكي.

التهمة ٤: سمحت إدارة بوش بجمع واعتقال عشرات الآلاف من المهاجرين بناء على ادعاءات، وقبضت عليهم بلا تهم أو محاكمات في انتهاك لقانون حقوق الإنسان الدولي والدستور المحلي وقانون الحقوق المدنية.

التهمة ٥: استخدمت إدارة بوش قوات الجيش لتوقيف واعتقال مواطنين لمدد غير محددة بلا تهم، وحرمتهم من حق التظلم ضد اعتقالهم في المحاكم الأمريكية.

- القتل. التهمة ٦: ارتكبت إدارة بوش جرائم قتل بتصريحها للمخابرات المركزية بقتل من يحددهم الرئيس، سواء أمواطنين أمريكيين كانوا أم لا، في أي مكان في العالم.

لمزيد من المعلومات عن هذه المحاكمة ونتائجها انظر:

www.bushcommissionindictments_files/bushcommission.org/indictments.htm

- ثلاثة فيديوهات لشهادات من لجنة التحقيق في جرائم بوش تجدها على: www.BushCommission.org

وفي حين نُحسن تقدير مدى قُدرَة المؤثرات الظرفية على التأثير في أغلبنا بما يدفعنا لانتهاج سلوكيات سيئة في سياقات سلوكية عديدة؛ سأوضح أيضًا أننا لسنا عبيدًا لقدرتها.

من خلال فهم كيفية عمل تلك القوى ستتمكن من المقاومة والمواجهة ومنعها من اقتيادنا إلى غواية غير مرغوب بها. تلك المعرفة يمكن أن تحررنا من الخضوع لقبضة الامتثال، الانصياع، الاستدراج، وصور أخرى من المؤثرات والإكراه المجتمعي.

مع استكشافنا لنقاط الضعف وللتحولات شديدة السهولة للطبيعة الإنسانية عبر رحلتنا؛ نُنْهي بملحوظة شديدة الإيجابية حيث نحتفي بالبطولة والأبطال. أتمنى أن تكون الآن أكثر قُدرة على تقبل أن البشر العاديين والصالحين كذلك، يمكن أن يخضعوا للغواية فينصرفوا على نحو شرير تحت ضغط قوى ظرفية ونظامية. إذا كان الأمر كذلك فهل أنت مستعد لقبول الفرضية المعاكسة؟ أن جميعنا أبطال مُحتملون ننتظر الموقف المناسب الذي يسمح لنا بإظهار «القُدرات الصحيحة» التي نمتلكها؟ دعونا نتعلم كيف نقاوم الاستدراج ونحتفي بالأبطال.

الفصل السادس عشر

مقاومة المؤثرات الموقفية وتكريم البطولة

«كل مخرج هو مدخل لمكان آخر»

- توم ستوبارد

(Tom Stoppard, *Rosencrantzand Guildenstern are dead*)

وصلنا إلى نهاية رحلتنا في الأماكن المظلمة التي تأسر عقولنا وعقول رفاقنا. شهدنا مواقف تكشف الجانب المظلم للطبيعة الإنسانية وتفاجأنا مما قد يصل إليه الصالحون في التعدي على الآخرين من حيث السهولة والمدى. كان محورنا محاولة فهم كيفية حدوث مثل هذه التحولات بشكل أفضل. وعلى الرغم من وجود الشر في كل مكان، إلا إننا في هذا الكتاب شاهدنا عن قرب ولادته في السجون ومناطق الحرب، فهذان المكانان بالتحديد دائمًا ما يتحولان إلى بوتقة قاسية ينصهر فيها النفوذ والسلطة والسيادة، وعندما بحجبهم غطاء السرية تتعطل إنسانيتنا وتسلبنا هذه البوتقة السمات التي يبجلها بنو البشر مثل الاهتمام بالآخرين والطيبة والتعاون والحب.

أمضينا الكثير من وقتنا في السجن المزيف الذي صنعته مع زملائي في قبو قسم علم النفس في جامعة ستانفورد. تحولت جنّة بالو ألتو المفترضة في أيام قليلة إلى حفرة من الجحيم. شباب سليم عقليًا وبدنيًا ظهرت عليهم أعراض مَرَضية انعكست في صورة توتر حاد وإحباط ويأس مروا به عندما كانوا في دور السجناء. أقرانهم الذين وقع عليهم الاختيار عشوائيًا لدور الحراس كانوا كثيرًا ما يتجاوزون الخط المسموح به من العبث إلى التعدي الجاد «على سجنائهم». في أقل من أسبوع، تقهقرت تجريبية سجننا المقلّد في وعينا الجماعي لتحل محلها الواقعية عند السجناء والحراس وفريق عمل السجن الذي بدا حقيقيًا للجميع. كان سجنًا يديره مجموعة من علماء النفس لا الولاية.

الفحص الدقيق الذي أجريته عن طبيعة هذه التحولات والذي لم يُنفّذ من قبل بهذه الدقة والإحكام؛ كان هدفه تقريب القارئ قدر ما يمكن من هذا المكان الخاص الذي بتيح لنا مقارنة قوة الفرد بقوة المؤسسة. حاولت أن أجعل القُراء يفهمون العملية التي أصبح من خلالها للمتغيرات الظرفية الصغيرة مثل تحديد أدوار اجتماعية ووضع معايير

وأزياء موحدة؛ هذا التأثير القوي على جميع الموجودين داخل منظومتها.

على المستوى المفاهيمي، اقترحت حين محاولة تفسير أية سلوكيات شاذة أو تحولات في الشخصية أن نولي العمليات الظرفية والنظامية أهمية أكبر مما اعتدنا عليه، إذ السلوك البشري دائمًا ما يخضع للمؤثرات الظرفية. هذا السياق يوجد ضمن سياق آخر أكبر وأشمل؛ فالسياق الأكبر الذي يخضع فيه الفرد للمؤثرات الظرفية هو منظومة سُلطوية مُصمَّمة بحيث تحمي استمراريتها. التحليلات التقليدية التي يقدمها معظم الناس - ومن ضمنهم المشتغلون في مؤسسات قانونية ودينية وطبية - تُركِّز على الفاعل باعتبار أنه العامل السببي الوحيد، وهم بهذا يُقللون من أو يتجاهلون تأثير المتغيرات الظرفية والمحددات النظامية التي تُشَكِّل المُخرَجات السلوكية وتحول الفاعلين.

كلّي أملٌ في أن تدحض الأمثلة والمعلومات المؤيدة لها المُقدَّمة في هذا الكتاب ذلك الخطأ الأساسي في عزو ونسبة أفعال الناس إلى نوازعهم وميولهم بشكل رئيسي. أضفنا الحاجة إلى الإقرار بقوة الظروف ومُوَجِّهات السلوك التي يوفرها النظام الذي يصوغ السياق الاجتماعي ويثبته.

انتقلنا من (جعلهم يصدّقون) أنه سجن إلى الواقع المؤلم في سجن أبو غريب في العراق. ظهرت أوجه تشابه مفاجئة بين العمليات النفسية الاجتماعية الفاعلة في هذين السجنين، الوهمي والآخر الحقيقي تمامًا. في أبو غريب قصرنا تحليلنا على جندي صالح واحد، الرقيب إيفان تشيب الذي حدث له تحول مزدوج، من جندي صالح إلى حارس سجن فاسد ثم إلى سجين يتعرض للتعذيب. كشف تحليلنا، تمامًا كما حدث في تجربة سجن ستانفورد، العوامل الشخصية والظرفية والنظامية التي لعبت دورًا حاسمًا في تغذية الاعتداءات والتعذيب الذي انهال به فريدريك وأفراد عسكريون ومدنيون آخرون على السجناء الموكلة إليهم حمايتهم.

تحوّلتُ بعد ذلك من دور الباحث المتمرس في العلوم الاجتماعية إلى دور المُدَّعي العام، ومن خلال هذا الدور كشفت لكم جرائم نخبة القيادة في الجيش وفي إدارة بوش والتي جعلتهم متورطين في صناعة الظروف التي سمحت بوجود مثل هذه الاعتداءات الوحشية على نطاق واسع في أغلب السجون العسكرية الأمريكية. أؤكد مرة أخرى على الأمر ذاته الذي كررته كثيرًا، أطروحتي في هذا الكتاب لا تعني إنكار مسؤولية أفراد الشرطة العسكرية هؤلاء عن أفعالهم ولا إنكار كونهم مذنبين، أطروحتي هي محاولة لفهم وتفسير هذه الجرائم لا لتبريرها. فهم الكيفية التي حدثت بها هذه الأمور وإدراك الضغوط الظرفية التي أثَّرت في الجنود يمكن أن يُساعد في تعديل الظروف المُحيطة التي حفَّزت هذه السلوكيات غير المقبولة؛ فالعقاب وحده ليس كافيًا. «الأنظمة الفاسدة» تصنع «مواقفًا

وظروفًا فاسدة» وتلك بدورها تصنع «سلوكيات فاسدة» حتى لدى الأشخاص الصالحين.

دعونا للمرة الأخيرة نضع تعريفًا للفرد والظرف والنظام. الفرد هو فاعل في مرحلة من حياته تسترشد فيها حريتُه السلوكية ببنيته الجينية والبيولوجية والعضوية والنفسية. الظرف هو السياق السلوكي الذي من خلال وظائفه في الإثابة والمعاقبة وسنّ المعايير؛ يُعطي معنىً وهوية لدور ووضع الفاعل داخل الموقف. النظام يتكون من الوكلاء والوكالات الذين تصنَع أيديولوجياتهم وقيمهم وسلطتهم المواقفَ والظروف، وتُحدد الأدوار والتوقعات عن السلوكيات المقبولة داخل نطاق تأثير النظام.

في هذه المرحلة الأخيرة من رحلتنا سنُقدّم بعض النصائح التي ستساعدنا على تجنُّب وقهر المؤثرات الظرفية السلبية التي تؤثر فينا جميعًا من وقت لآخر. سنرى معًا كيف نقاوم عوامل التأثير غير المرغوب بها والتي تُحيط بنا كُلّ يوم. لسنا عبيدًا للمؤثرات الظرفية، لكن علينا تعلم أساليب مقاومتها ومواجهتها. في جميع المواقف التي استعرضناها معًا في هذا الكتاب كُنّا دائمًا ما نجد قِلّة ثابتة على قيمها، والآن حان وقت زيادة عدد أفراد هذه الأقليّة الثابتة، وذلك من خلال تدَبُّر كيفية تمكّنهم من المقاومة.

جَعَلتُكَ نُدرِك أنّك ربما تنصرف بنفس طريقة المشاركين في هذه الدراسة التي صمّمناها وكذلك في سجن أبو غريب إذا ما تعرضتَ لظروف معيّنة؛ والآن أريد منك أن تتصوّر نفسك بطلًا قادرًا على المقاومة! حان وقت تكريم الطبيعة الإنسانية الصالحة والأبطال الذين يعيشون بيننا والمُخيّلة البطولية الموجودة فينا جميعًا.

تعلم كيفية مقاومة التأثيرات السيئة

يعاني المصابون باضطراب جنون العظمة من صعوبة كبيرة في الاتفاق مع، أو الإذعان أو الاستجابة لرسالة تهدف إلى إقناعهم بشيء ما، حتى عندما يقدمها لهم معالجوهم النفسيين أو الذين يحبونهم. أسلوبهم المتهكّم وانعدام الثقة في الآخرين يصنعان حاجزًا يمنعهم من الاندماج في معظم اللقاءات الاجتماعية، ولأنهم يعاندون الضغط المجتمعي بشدّة؛ فهم نموذج جيّد للحصانة من التأثير المجتمعي لكن مع دفع ثمن باهظ من صحّتهم العقلية. على الطرف الآخر نجد الأشخاص السُذّج الذين يثقون في الآخرين بلا قيد أو شرط وهؤلاء يُعتبرون أهدافًا سهلة لأي محتال.

القصد هنا هو أننا بدلًا من أن نمتاز عن الأفراد الذين خُدِعوا بافتراض أنهم أصحاب سمات شخصية سلبية مثل الغباء أو السذاجة؛ نحتاج أن نفهم لماذا وكيف يُمكِن لبشر مثلنا أن يُخدعوا بهذا الشكل، ثم بعد ذلك سنكون في وضع يسمح لنا بالمقاومة والتوعية لمقاومة هذه الخدع.

ثنائية الانفصال مقابل الانغماس

في الحالة الإنسانية هناك ثنائية من الانفصال مقابل التشبُّع، والشك النقدي مقابل التورط. فَصْل أنفسنا عن الآخرين خوفًا من أن نتعرض «للخداع» هو وضع دفاعي متطرف، لكن من الصحيح أيضًا أننا كلما كُنّا أكثر انفتاحًا على محاولات إقناعهم لنا صرنا أكثر عرضة لإمكان تحكمهم بنا، لكن الانفتاح والإشباع العاطفي مع الآخرين ضروريان من أجل سعادة الإنسان. نريد أن تكون مشاعرنا قوية وأن نولي ثقتنا الكاملة وأن نتصرف بتلقائية وأن نشعر بارتباطنا بالآخرين. نريد «الإشباع» الكامل في المعيشة. ولبعض الوقت على الأقل نريد تعطيل نزوعنا إلى التقييم وهجر تحفظنا الأوّلي المُتخوِّف، نريد أن نرقص بعاطفة مع زوربا اليوناني[1].

مع ذلك علينا أن نُعيد تقييم مدى انغماسنا في المجتمع بانتظام؛ فالتحدّي الذي يواجهه كل منا هو كيفية التنقل بين القُطبَين بأفضل طريقة ممكنة، بين الانغماس بشكل كامل وبين الابتعاد بصورة ملائمة. إن معرفة متى نستمر في علاقتنا مع الآخرين، ومتى ندعم أو نُخلِص لقضية أو لعلاقة بدلًا من هجرها؛ هي سؤال حساس سنواجهه على الدوام. نعيش في عالم يهدف فيه بعض الناس إلى استغلالنا، وفي هذا العالم نفسه هناك آخرون يريدون منا أن نشاركهم ما يؤمنون أنها أهداف إيجابية متبادلة. كيف يمكن أن نميز هذا من ذاك؟ هذا هو السؤال، عزيزي هاملت وعزيزتي أوفيليا.

قبل أن نبدأ في مناقشة وسائل مُحدّدة لمكافحة أساليب التأثير والتحكُّم في العقول يجب أن نأخذ في الاعتبار احتمالات أخرى. أولًا وَهْم الحصانة الذاتية القديم[2]. هُم نعم، أمّا أنا فلا! بالتأكيد أقنعتك رحلتنا النفسية بمدى قوة تأثير المؤثرات الظرفية التي أبرزناها وتأثيرها في أغلب الناس، لكن ليس أنت، أليس كذلك؟ من الصعب أن يكون التقييم الفكري وحده كافيًا للتأثير في سلوكياتنا، ما يسري على الآخرين نظريًّا لا يسري عليك عمليًّا، أنت مختلف، تمامًا مثل بصمات الأصابع، لا توجد بصمتان متطابقتان، لا يوجد شخصان لهما نفس الكود الجيني أو التطوري أو السمات الشخصية.

يجب أن نُقدِّر الفوارق الفردية ولكن يجب أن ندرك أيضًا أن هذه الفوارق تتضاءل

---

(١) *Zorba the Greek* is Niko Kazantzakis's classic novel, written in 1952.

قام بتأدية شخصية البكسيس زوربا (*Alexis Zorba*) الممثل أنتوني كوين (*Anthony Quinn*) في فيلم أنتج سنة ١٩٦٤م بنفس الاسم وأخرجه مايكل كاكويانيس (*Michael Cacoyannis*) وشاركه البطولة آلان باتس (*Alan Bates*) في دور الرئيس الخجول الذكي الذي كبح جموح زوربا وثبّط شخصيته المرحة.

(٢) B. J. Sagarin, R. B. Cialdini, W. E. Rice, and S. B. Serna, "Dispelling the Illusion of Invulnerability: The Motivations and Mechanisms of Resistance to Persuasion," *Journal of Personality and Social Psychology 83 (2002): 526-41.*

وتضعف أمام المؤثرات الظرفية، وفي هذه الحالات يستطيع خُبراء السلوكيات توقّع الكيفية التي سيتصرف بها أغلب الناس حتى دون معرفة مسبقة بهم من خلال طبيعة السياق السلوكي فحسب. يجب أن نتذكر أن حتى أفضل الدراسات النفسية لا يمكنها توقع كيفية تصرف كل فرد في موقف مُعيّن، دائمًا ما تظهر فوارق بين الأفراد لا يُمكن تفسيرها.

برنامج الخطوات العشرة لمقاومة التاثيرات السيئة

إذا أخذنا في الاعتبار بعض المبادئ النفسية الاجتماعية التي غذّت الشر والتي شاهدناها في رحلتنا؛ فلنستخدم هذه المبادئ لجعل الناس يؤكدون على الإيجابي ويتخلصون من السلبي في حياتهم. باعتبار تنوع المؤثرات المختلفة فمن الضروري أن نخص كل نوع بمقاومة تلائمه، فلمحاربة الالتزامات الخاطئة الشاذة تكتيكات مختلفة لمواجهة أساليب الإخضاع التي تُستخدم للتأثير فينا. لعدم الانجرار وراء الخُطَب القوية التي يلقيها ذوو النفوذ نستخدم مبادئ مختلفة عن تلك التي نحتاجها مع أولئك الذين ينزعون عنا إنسانيتنا ويحوّلونا لإمّعات. أساليب مقاومة التفكير الجَمْعي تختلف أيضًا عن أساليب تعديل تأثير وسطاء التوظيف.

كتبت هذا الموجز من أجلكم، لكنه يُناقش عُمقًا وخصائص تفوق ما يسعنا الحديث عنه هنا، والحل هو أن أجعله متاحًا لك مجانًا على موقعنا الذي أسسناه ليكون ملحقًا لهذا الكتاب www.LuciferEffect.com. ويمكنك هكذا أن تقرأه بأريحية وتدوّن ملحوظاتك وتدرس المراجع التي بُني عليها وتتأمل سيناريوهاتك لاستراتيجيات المقاومة هذه في تطبيق عملي في حياتك. حين تقابل تأثيرًا اجتماعيًا معينًا استخدم عليك أو على آخرين تعرفهم يمكنك أن تعود إلى هذا المرشد لإيجاد حلول عما يجب أن تفعله في المرة القادمة حتى تكون في وضع أفضل وتسيطر على هذا التحدي.

أقدم لك برنامجي المكوّن من عشرة خطوات لمقاومة التأثيرات الاجتماعية الضارة ودعم المقاومة الشخصية وقيم المواطنة. يستخدم البرنامج أفكارًا ذات استراتيجيات تأثير متنوعة ويوفر أساليب بسيطة وفعّالة للتعامل معها. يكمن مفتاح المقاومة في تطوير ثلاثة أمور: الوعي الذاتي، والحساسية للظرف، وفطنة الشارع. سترى مدى أهميتها في العديد من استراتيجيات المقاومة العامة هذه.

(١) **لقد أخطأت!** دعونا نبدأ بالتشجيع على الاعتراف بالأخطاء، لأنفسنا أولًا ثم للآخرين، بأن نقبل القول بأن الخطأ جزء من طبيعة البشر. لقد أخطأت في حُكمِك أو اتخذت قرارًا خاطئًا، كانت أمامك كل الأسباب التي جعلتك تؤمن بأنه قرار صحيح عندما اتخذته لكنك الآن تعرف خطأك. قل الكلمات الست السحرية: «أنا آسف»، «أنا

أعتذر»، «سامحني». قل لنفسك أنك سوف تتعلم من أخطائك وتصبح أفضل بسببها. لا تستمر في إهدار أموالك ووقتك ومواردك في استثمار سيئ، تحرك. القيام بهذا علنًا يقلل من الحاجة إلى تبرير أخطائنا ومن الاستمرار في دفع أنفسنا لقرارات سيئة أو غير أخلاقية. الاعتراف بالخطأ يُقلِّل التنافر الإدراكي حيث يختفي عندما نعترف بالواقع. «تمزيق الطُعم» بدلًا من الاستمرار في الخطأ له ثمن ستدفعه مباشرة، لكن مكاسبك ستستمر لوقت طويل.

(٢) أنا مُنتبه! في مواقف عدة يقوم أشخاص أذكياء بأفعال غبيّة لأنهم يفشلون في الانتباه إلى السمات الأساسية للكلمات أو الأفعال التي يستخدمها صنّاع التأثير ويخفقون في ملاحظة إشارات ظرفية واضحة، كثيرًا ما نستخدم بشكل تلقائي سيناريوهات بالية ربما كانت ستفيدنا في الماضي، لكن لا يجب أن نتوقف أبدًا عن إعادة تقييم صلاحيتها في المواقف الجديدة هُنا والآن[١]. باتباع نصائح الباحثة بجامعة هارفارد إلين لانجير علينا أن نحول حالتنا المعتادة من الغفلة الطائشة إلى «الانتباه» خاصة في المواقف الجديدة[٢]، لا تتردد أبدًا في ضرب رأسك لتفيق، عندما نتعرض لمواقف مألوفة تسود العادات القديمة حتى لو لم تعد صالحة أو خاطئة، يجب أن نتوقف عن التلقائية وأن نعطي لأنفسنا دائمًا لحظة تأمل للتفكير في معنى الموقف المباشر أمامنا، أن نفكر قبل أن نتصرف، ألا نتحرك أبدًا بطيش في ظروف تخاف الملائكة وأصحاب الحس العالي من خوض غمارها، ولأفضل النتائج عليك أن تضيف «التفكير النقدي» إلى جانب الانتباه[٣]. ابحث عن الأدلة التي تؤيد ما لديك، وليكن لديك إلحاح على أن تكون الأيديولوجيات مُحكَمة بما يكفي لتمكينك من الفصل بين الكلام الفارغ والأمور الجوهرية. حاول تحديد ما إذا كانت الوسائل الموصى بها تبرر الغايات المؤلمة، تخيل سيناريوهات عن كيفية انتهاء اللعبة وفقًا للعواقب المستقبلية المتوقعة لأي شيء تقوم به حاليًا. ارْفُض الحلول البسيطة كحل سريع للمشاكل الشخصية أو الاجتماعية، ادعم التفكير النقدي من بدايات حياة الأطفال، وحذّرهم من إعلانات التلفاز الخادعة والادعاءات المتحيزة، والمنظورات المشوَّهة التي

---

(١) عندما اشتعل الحريق سنة ١٩٧٩ في متجر (*Woolworth*) في مدينة مانشستر الإنجليزية هرب أغلب الناس، مات عشرة في الحريق في حين كان بإمكانهم الهرب بسهولة إلى منطقة الأمان. ذكر رئيس فريق الإطفاء أنهم هربوا؛ لأنهم كانوا يتبعون خطة المطعم لا خطة النجاة، فقد انتهوا من عشائهم ومكثوا ينتظرون لدفع حسابهم، فلا أحد يغادر المطعم إلا بعد دفع حسابه. لم يرد أحد منهم أن ينصرف على نحو مختلف عن الآخرين لذلك انتظروا جميعًا، وماتوا جميعًا. وصفت هذه الواقعة في أحد البرامج التلفزيونية التي شاركتُ فيها واسمه:
"The Human Zoo", Insight Media, New York.

(٢) E. J. Langer, Mindfulness (Reading, MA: Addison-Wesley, 1989).

(٣) D. F. Halpern, *Thought and Knowledge: An Introduction to Critical Thinking*, 4th ed. (Mahwah, NJ: Erlbaum, 2003).

نقدم إليهم، ساعدهم على أن يُصبِحوا أكثر حكمة وأكثر حذرًا في استهلاك المعرفة[1].

(٣) **أنا مسؤول!** تحمُّل الشخص مسؤولية قراراته وأفعاله يضع الفاعل في مقعد القيادة نحو الأفضل أو الأسوأ، السماح للآخرين بالتساهل في مسؤوليتهم وتفريقها يجعلهم قادة ذوي قوة من المقعد الخلفي ويجعل السيارة تتحرك برعونة إلى الأمام بلا قائد مسؤول. نصبح أكثر مقاومة للتأثير الاجتماعي الضار بتمسكنا بالإحساس بالمسؤولية الشخصية وقبول كوننا في موضع مساءلة عن أفعالنا. طاعة السُلطة تعمينا عن إدراك أن تشتيت المسؤولية يخفي تورطنا في أفعال مشبوهة. يضعف امتثالك للمجموعة بقدر عدم قبولك بتوزيع المسؤولية، عندما ترفض توزيع المسؤولية بين أفراد العصابة أو الأخوية أو المحل التجاري أو السريّة العسكرية أو الشركة. تخيل دائمًا مستقبلًا توضع فيه أفعال اليوم موضع تساؤل ولن يقبل فيه أحد بأعذارك، «أنك كنت تنفذ الأوامر»، «الجميع كان يفعل هذا».

(٤) **سأؤكد على فرادة هويتي!** لا تسمح للآخرين بتحويلك إلى إمعة، بوضعك في فئة أو في صندوق أو في خانة تحوّلك إلى مُجرَّد شيء. أكِّد على استقلاليتك، قل اسمك وقدم أوراق اعتمادك بأسلوب مهذب وبصوت مرتفع وواضح. صمم على نفس التصرف مع الآخرين، انظر في العينين (أزل كل النظارات الشمسية التي تخفيها)، وقدّم معلومات عن نفسك تعزز من هويتك الفريدة. أوجد أرضية مشتركة مع المتحكمين في مواقف التأثير واستخدمها لتدعم أوجه الشبه. الحجب والسريّة يخفيان الأفعال الخاطئة ويضعفان التواصل الإنساني، ومن الممكن أن يتحولا إلى أرض ترعى فيها السلوكيات اللاإنسانية حيث من يتلذذون بالسُخرية من الآخرين والمغتصبين وممارسي التعذيب والإرهابيين والطغاة. اذهب إلى ما هو أبعد من استقلالية الذات واحرص على تغيير الظروف المجتمعية التي تجعل الناس يشعرون بأنهم لا يؤبه لهم، ادعم بدلًا من ذلك ممارسات تجعل الآخرين يشعرون بالتميُّز بحيث يشعرون هم أيضًا بقيمتهم. لا تسمح أبدًا بالصور الذهنية السلبية أو تمارسها، يمكن للكلمات والمسميات والنكات أن تكون قاتلة إذا استخدمتها في السخرية من الآخرين.

(٥) **أحترم السلطة العادلة لكن أتمرد على السلطة الظالمة!** اعمل في كل موقف على التمييز بين من هم في السلطة ويستحقون الاحترام بسبب خبراتهم وحكمتهم وسيادتهم ومكانتهم الخاصة، وبين السلطة الظالمة التي تطلب الطاعة بلا أي أساس تستند إليه. كثر ممن يتولون مقاليد السلطة قادة مزيفون وأنبياء كذبة، يستغلون أوضاعهم ويجيدون الدعاية

(١) C. Poche, P. Yoder, and R. Miltenberger, "Teaching Self-Protection to Children Using Television Techniques," *Journal of Applied Behavior Analysis*, vol. 21 (1988): pp. 253-61.

لأنفسهم ولا يجب احترامهم بل يجب عصيانهم وتقييمهم ونقدهم علانية، يمكن للآباء والمعلمين والقادة الدينيين أن يلعبوا دورًا أكثر فاعلية في تعليم الأطفال هذا التميز. يجب أن يكونوا مهذبين ومحترمين عندما تبرر هذه المواقف أمامهم، ويكونوا أيضًا أطفالًا جيدين حكماء بمقاومة تلك السلطات التي لا تستحق احترامهم، بهذا سنقلّ طاعتنا العمياء للسلطات الدعيّة والتي لا يشكل صالحنا أهم أولوياتها.

(٦) **أريد المجموعة، لكن أقدر استقلاليتي!** إغراء القبول في جماعة اجتماعية مرغوبة هو أكبر من إغراء هذا الخاتم السحري الأسطوري في قصة سيد الخواتم، وربما تدفع بعض الناس لفعل أي شيء في سبيل ذلك والذهاب إلى أقصى مدى ليتجنبوا رفضهم من قبلها. نحن حيوانات اجتماعية بالفعل، وعادة ما تفيدنا روابطنا الاجتماعية وتساعدنا في تحقيق أهداف مهمة لا يمكننا تحقيقها وحدنا، لكن في بعض الأوقات لا يكون التوافق مع معايير المجموعة في صالح المجتمع، من الضروري أن نحدد متى نتبع المعايير ومتى نرفضها. في النهاية نحن نحيا داخل عقولنا، في روعة العزلة، ولذلك يجب أن نكون مرحبين ومستعدين لإعلان استقلالنا بغض النظر عن الرفض المجتمعي الذي يمكن أن ينجم عن هذا، ليس ذلك سهلًا خاصة لصغار السن الذين لم ترسخ ثقتهم في أنفسهم بعد، وللبالغين الذين تتطابق ذواتهم مع عملهم، يكاد يكون الضغط عليهم ليصبحوا «لاعبي فريق» ويضحوا بآدابهم الشخصية لصالحه أمرًا لا يقاوم. المطلوب هو أن نأخذ خطوة للخلف، أن لا نعبأ بالآراء، وأن نجد مجموعة جديدة تدعم استقلالنا وقيمنا، ستكون هناك دومًا مجموعة أخرى مختلفة أفضل لنا.

(٧) **سأكون حذرًا من الإطار!** من يصنع الإطار يصبح الفنان، أو الفنان المزيف. كثيرًا ما يكون الأسلوب الذي تؤطر به القضايا أكثر فاعلية وتأثيرًا من النقاشات الداخلية الهادفة إلى الإقناع، كما يمكن ألا تبدو الأطر المؤثرة على أنها هادفة للتأثير على الإطلاق، مجرد تسجيلات صوتية أو صور أو شعارات وشارات تؤثر فينا دون أن ندري بوجودها وتُشَكِّل توجُّهنا نحو أفكار أو قضايا تدعمها. نرغب في أمور نُصوَّر لنا على أنها «نادرة» حتى عندما تكون وفيرة. نكره الأشياء التي تؤطر وكأنها خسائر محتملة ونفضل الأخرى المقدمة لنا باعتبارها مكاسب حتى لو كانت نسبة التكهنات الإيجابية إلى السلبية متساوية[١]. لا نريد فرصة ٤٠٪ لخسارة (س) أمام (ي)، لكن نريد فرصة ٦٠٪ لربح (ي) على (س). بيّن عالم اللغويات جورج لاكوف في كتاباته بوضوح أن إدراك تأثير الإطار

---

(١) D. Kahneman and A. Tversky, "Prospect Theory: An Analysis of Decision Under Risk," *Econometrica* 47 (1979): 262-91. A. Tversky and D. Kahneman, "Loss Aversion in Riskless Choice: A Reference-Dependent Model," *Quarterly Journal of Economics* 106 (1991): 1039-61.

الذي يوضع داخله الشيء له أهمية كبيرة، وأنا يجب أن نحذر من قوة هذا الإطار لنصلح تأثيره الغادر في عواطفنا وأفكارنا وأصواتنا[١].

(٨) **سأضبط منظوري الزمني!** يمكن أن نُدفع إلى أشياء بعيدة عما نؤمن به عندما نترك أنفسنا أسرى لحظة حالية ممتدة. عندما نتوقف عن الشعور بالتزاماتنا الماضية وإحساسنا بالتزاماتنا المستقبلية فإننا ننفتح على ظرفٍ مغرٍ يجعلنا نتورط في تجاوزات «أمير الذباب». ستعتمد على منظورات مؤقتة تمتد لما هو أبعد من اللذة اللحظية أو الهلكة اللحظية «بعدم سباحتك مع التيار» عندما يكون الآخرون من حولك مُعتَدِين وخارجين عن السيطرة. ستقحم نفسك على الأرجح في حسابات التكلفة مقابل المكسب لتُقيّم تصرفاتك في ضوء النتائج المستقبلية المتوقعة، أو يمكنك المقاومة بأن تكون واعيًا كفاية بإطار زمني يمضي محتويًا قيمك الشخصية ومعاييرك. ستكون في موقف أفضل يسمح لك بالتصرف بمسؤولية وبحكمة أكبر عن طريق بناء منظور متوازن للزمن يمكنك فيه استدعاء الماضي والحاضر والمستقبل وفقًا للظرف والمهمة المطلوبة تأديتها مقارنة بأن يكون منظورك الزمني معتمدًا على إطار واحد أو اثنين فقط. يضعُف التأثير الظرفي عندما يجتمع الماضي والمستقبل لمنع تجاوزات الحاضر[٢]. على سبيل المثال، تشير الأبحاث إلى أن الجنتايل (Gentiles)[٣] الصالحون الذين ساعدوا في إخفاء اليهود الألمان من النازيين؛ لم يقترفوا هذا النوع من العقلنة الذي قام به جيرانهم لابتداع أسباب تُبرِّر عدم المساعدة. اعتمد هؤلاء الأبطال على بنية أخلاقية مشتقة من ماضيهم، ولم يسقطوا من حساباتهم مستقبلًا سيعودون فيه للنظر إلى هذا الموقف الفظيع ويسألوا أنفسهم ما إذا كانوا قد فعلوا الشيء الصحيح عندما اختاروا الخضوع للخوف والضغط المجتمعي[٤].

(٩) **لن أضحّي بالحريات الشخصية أو المدنية لوَهْم الأمن.** الحاجة إلى الأمن هي مُحَدِّدٌ قوي للسلوك الإنساني. يمكن التلاعب بنا على نحو يجعلنا نتورط في أفعال غريبة عنا عندما نواجه خطرًا مزعومًا على أمننا أو عند الوعد بالتأمين من الخطر. كثيرًا ما يمتلك مرتزقة التأثير السلطة علينا بتقديم عقد يشبه عقد فاوست الذي باع فيه روحه للشيطان:

---

(١) G. Lakoff, *Don't Think of an Elephant: Know Your Values and Frame the Debate* (White River Junction, VT: Chelsea Green, 2004). G. Lakoff and M. Johnson, *Metaphors We Live By*, 2nd ed. (Chicago: University of Chicago Press, 2003).

(٢) P. G. Zimbardo and J. N. Boyd, "Putting Time in Perspective: A Valid, Reliable Individual Differences Metric," *Journal of Personality and Social Psychology* 77 (1999): 1271-88.

(٣) بالنسبة لليهود هم الغرباء المؤمنون غير المنتمين للديانة اليهودية. (المترجم).

(٤) Andre Stein, *Quiet Heroes: True Stories of the Rescue of Jews by Christians in Nazi-Occupied Holland* (New York: New York University Press, 1991).

ستكون في أمن من الأذى إذا تنازلت عن بعض حرياتك الشخصية أو المدنية لهذه السلطة. سيقنعك خادم الشيطان مِفِستوفيليس بأن قدرته على الحماية تعتمد على قيام جميع الناس بتقديم تضحيات بسيطة بهذا الحق أو ببعض حُرّياتهم الهامشية، ارْفُض الاتفاق، ولا تُضحي أبدًا بحريّاتك الأساسية مقابل وعد بالأمان لأن تضحياتك ستكون حقيقية ومباشرة أما الأمن فوهم بعيد. ينطبق هذا على ترتيبات الزواج التقليدية، وكذلك في التزام المواطنين الصالحين بمصالح دولتهم عندما يعد قائدها بالأمان والأمن القومي على حساب التضحية الجماعية بوقف القانون والخصوصية والحريات. يذكرنا إريك فروم في كتابه الشهير «الهروب من الحرية» بأن هذه هي الخطوة الأولى التي يتخذها أي قائد فاشي في أي مجتمع ديمقراطي شكلًا.

(١٠) **يمكنني أن أعارض نظامًا ظالمًا**. يتهاوى الأفراد أمام قوة النظام الذي وصفناه، أنظمة الجيش والسجون وكذلك أنظمة العصابات والطوائف والأخويات والمؤسسات، وحتى العائلات المُضْطَرِبَة. لكن المقاومة بالتنسيق مع الآخرين من أصحاب العقلية ذاتها يمكن أن تتحد وتصنع الفارق. القسم التالي من هذا الفصل سيصف أشخاصًا غيّروا الأنظمة بترحيبهم بالمخاطرة والتحذير من فسادها أو العمل البنّاء في سبيل تغييره، ربما تكون المقاومة بإبعاد الشخص لنفسه عن موقف شامل جميع المعلومات والمُكافآت والعقوبات فيه مُخططٌ لها، وقد تشمل أيضًا رفض التفكير الجمعي وتسجيل كافة المزاعم والأخطاء، وربما بتلقّي مُساعدة من السلطات المعنية أو بعض الناصحين أو صحفيين استقصائيين أو بعض رفاق الثورة. النظام نفسه يمتلك قدرة عملاقة على مقاومة التغيير بل والثبات في وجه الهجمات الشريفة. تصبح التصرفات البطولية التي تسعى إلى مقاومة الأنظمة الظالمة وصناع الوعاء الفاسد أكثر فعالية حال تحفيز الآخرين للانضمام إلى القضية. النظام قادر على إعادة تعريف موقف الفرد بالقول أنه مصاب بوهم، ولو كانا شخصين سيقول النظام أنهما مصابان بمرض الجنون الثنائي، لكن بثلاثة أشخاص في صفك ستصبحون قوة لا يستهان بها.

برنامج الخطوات العشرة هذا هو مجرد انطلاقة نحو بناء المقاومة الفردية والجماعية للتأثيرات الضارة ومحاولات الإقناع غير المشروعة. وكما ذكرنا سابقًا، ستجد مجموعة أكثر اكتمالًا من التوصيات ومراجع لأبحاث عن الموضوع في موقع (Lucifer Effect) الإلكتروني تحت عنوان «Resisting Influence Guide».

قبل أن ننتقل إلى المحطة الأخيرة من رحلتنا، والتي سنحتفي فيها بالأبطال؛ أودّ إضافة توصية عامة نهائية: ابتعد عن الفساد المالي وقبول الرشاوى، والخطايا الصغيرة مثل الغِش والكذب والنميمة ونشر الشائعات والضحك على النكات العنصرية أو التي تميّز بين الجنسين أو السُخرية أو الاستهزاء. تبدأ الأفعال الشريرة الجسيمة بخطوات صغيرة ربما

بدت تافهة، لكن تذكر أن الشر منحدر زلق ما أن تتخذ فيه خطواتك الأولى حتى تهوي، وتصبح مداخل إلى سقطات أخلاقية أكثر خطورة. فهي أمور يسيرة تسهّل التفكير أو التصرف بأسلوب مدمّر مع المخلوقات التي نحيا معك.

تناقضات البطولة

امرأة شابة تتحدى رجلًا في السلطة يكبرها عمرًا وتجبره على الإقرار بتواطئه في أفعال بغيضة تُقتَرف على عينه. ذهبت إلى أبعد من هذا وساعدت على وقف اعتداء الحراس على السجناء الذين لا ذنب لهم، هل فعلها «بطولي» بالنظر إلى أن هناك كثيرين آخرين رأوا معاناة السجناء وأخفقوا جميعًا في التحرك ضد النظام عندما تبينت لهم التجاوزات؟

نريد أن نحتفي بالبطولة والأبطال على أنها أفعال خاصة يقوم بها بشر مميزون، لكن أغلب الناس الذين يصنفون في هذه المكانة الأعلى يصرون على أن ما فعلوه ليس مميزًا، وهو ما يجب أن يفعله أي شخص في هذا الموقف. يرفضون اعتبار أنفسهم «أبطالًا»، ربما أتى رد الفعل هذا من مفهوم راسخ لدينا جميعًا بأن الأبطال هم أشخاص خارقون، شريحة أرقى من العامة. ربما لا يتعلق الأمر بتواضعهم ولكن بعدم فهمنا لماهية البطولة بشكل عام.

فلننظر الآن إلى الأفضل في الطبيعة الإنسانية وتحول العادي إلى بطولي، جميعًا سنفحص مفاهيم وتعريفات بديلة للبطولة ونقترح طريقة لتصنيف أنواع مختلفة من الأعمال البطولية ثم نحدد بعض الأمثلة التي تقع في هذه الفئات، وأخيرًا نصمم جدولًا من التباينات بين عاديّة الشر وعاديّة البطولة، لكن فلنعد أولًا إلى الشخصية التي بدأنا هذا القسم بالحديث عنها والتي كانت السبب في إنهاء تجربة سجن ستانفورد.

ربما تتذكرون (من الفصل الثامن) كريستينا ماسلاش التي كانت قد حصلت مؤخرًا على درجة الدكتوراه من قسم علم النفس في جامعة ستانفورد والتي جمعتني بها علاقة عاطفية. عندما رأت مجموعة من السجناء المُقيَّدين يُقتَادون إلى دورة المياه بحقائب على رؤوسهم والحراس يصيحون فيهم بالأوامر ورأت لا مبالاتي الواضحة تجاه معاناتهم، انفجرت.

رأيها الذي كتبته بعدها عما شعرت به في هذه اللحظة وكيف فسَّرَت تصرفها يخبرنا الكثير عن ظاهرة البطولة المُعقَّدة[1].

---

(1) هذه القطعة من الصفحات ٢١٦ ـ ٢٠ من تأملات كريستينا ماسلاش في معنى تجربة سجن ستانفورد في الفصل الذي كتبته بالاشتراك معنا أنا وكريج هاني:

P. G. Zimbardo, C. Maslach, and C. Haney, "Reflections on the Stanford Prison Experiment: Genesis, Transformations, Consequences," in Obedience to Authority: Current Perspectives on the Milgram Paradigm, ed. T. Blass (Mahwah, NJ: Erlbaum, 2000).

«ما تلقّاه كان انفجارًا عاطفيًا شديدًا مني (وأنا غالبًا ما أسيطر على مشاعري). كنت غاضبة وخائفة ودمعت عيناي، قلت شيئًا مثل: «ما تفعله بهؤلاء الفتية فظيع!».

إذًا ما هي القصة المهمة التي نستخلصها من دوري «باعتباري من أنهت» تجربة سجن ستانفورد؟ أعتقد أن هناك العديد من الموضوعات التي يمكن إبرازها. أولًا، دعني أخبرك بما لم تكن عليه القصة، فبعكس الأسطورة الأمريكية المعتادة (والتافهة)؛ لم تكن تجربة سجن ستانفورد مجرد قصة عن الشخص المتفرّد الذي يهزم الأغلبية؛ بل هي قصة عن الأغلبية، عن كيفية اندماج جميع من كانت له علاقة بدراسة السجن (مشاركين، وباحثين، ومراقبين، ومستشارين، وأسر، وأصدقاء) فيها تمامًا، إن قدرة الظرف على ابتلاع الشخصية وأفضل النوايا هو مفتاح القصة هنا.

لماذا إذًا كان رد فعلي مختلفًا؟ تكمن الإجابة في حقيقتين: دخلت الموقف مؤخرًا وكنت «غريبة». لم أكن خلافًا للجميع من المشاركين الذين ارتضوا الدراسة. لم يكن لي خلافًا للجميع أي دور داخل سياق السجن. لم أكن خلافًا للجميع هناك كل يوم، أسير مع الموقف وتغيره وتصاعده ببطء، لذلك كان الموقف الذي دخلته في نهاية الأسبوع ليس هو الموقف «نفسه» بالنسبة للآخرين، فقد كان ينقصني تاريخ إجماعهم الأولي والمكان والمنظور، أما بالنسبة لهم فقد كانوا يرون الموقف داخل نطاق الحياة الطبيعية، ولكنه لم يكن كذلك بالنسبة لي؛ بل كان مستشفىً للأمراض العقلية.

لم أمتلك بصفتي غريبة عن المكان خيار وجود قوانين اجتماعية معينة يمكنني عصيانها، لذلك أخذ تمردي صورة مختلفة من خلال مواجهة الموقف نفسه، هذه المواجهة رآها آخرون فعلًا بطوليًا لكن في الوقت نفسه لا يبدو الأمر بطوليًا، على العكس، كان موقفًا مفزعًا شعرت فيه أنني المنشقّة الوحيدة حيث يشكك الناس والظرف نفسه في حُكْمي وربما في جدارتي كباحثة في علم النفس الاجتماعي».

بعد ذلك أظهرت كريستينا مزايا شخصيّة عميقة. حتى يستحق الجموح الشخصي أن يعد «بطوليًا» فإن مسعاه يجب أن يكون إلى تغيير النظام وتقويم الظلم وتصحيح الخطأ.

«كان عليّ أيضًا أن أفكر في عقلي فيما كنت سأفعله حال قرر فيل استكمال التجربة على الرغم من اعتراضي الشديد عليه، هل كنت سأذهب إلى السلطات العليا مثل رئيس القسم أو عميد الكلية أو لجنة التجارب البشرية لأحذر من هذا؟ لا يمكنني تأكيد هذا وأنا سعيدة أنني لم أصل إلى هذا، لكن كان هذا الفعل جوهريًا في ترجمة قيَمي إلى أفعال ذات معنى. عندما يشكي أحدهم من ظلم ما ثم لا تسفر الشكوى إلا عن تعديلات تجميلية في حين يستمر الموقف بلا تغيير؛ فلا يستحق هذا التمرد والعصيان إذًا أن يُعطيا قيمة كبيرة».

بعدها توسّع كريستينا النقاش حول نقطة أثرناها في بحث ميلغرام، حيث ذكرنا أن المعارضة اللفظية لم تكن سوى بلسم الأنا بالنسبة «للمُعلِّم» لتمنحه شعورًا أفضل حيال الأشياء الفظيعة التي كان يرتكبها في حق «من يتعلم منه». كان العصيان السلوكي ضروريًا لمواجهة السلطة، لكن في حالة تجربة ميلغرام لم يكن هناك أي عصيان يفوق الانسحاب في صمت حيث خرج كل مدرس مشارك من الموقف العصيب بدون تغييره بطريقة بناءة. كتبت كريستينا فيما كان على الأقلية التي تتسم بالبطولة أن تفعله بعد معارضتها السلطة ببلاغة غير مسبوقة:

«ما أهمية رفض ثلث المشاركين الاستمرار إلى النهاية في دراسة ميلغرام؟ لنفرض أنها لم تكن تجربة وأن قصة ميلغرام كانت حقيقة، وأن الباحثين كانوا يدرسون دور العقاب في التعليم والتذكر وكانوا يختبرون حوالي ألف مشارك في مجموعة من التجارب للإجابة عن سؤال عملي عن القيمة التعليمية للعقاب الموجه بتروٍّ. إذا عصيت ورفضت الاستمرار وحصلت على أجرك ثم غادرت في صمت فلن يمنع فعلك البطولي الـ ٩٩٩ الباقين من المرور بنفس الموقف العصيب، سيكون حدثًا معزولًا بدون أي تأثير اجتماعي إلا عند الذهاب إلى الخطوة التالية بمواجهة بنية البحث وادعاءاته بأكملها. يجب أن يترجم عصيان الفرد إلى عصيان منهجي يفرض التغيير على الظرف أو الوكالة نفسها لا على بعض ما يحدث. من السهل على المواقف الشريرة أن تهادن نوايا المعارضين الأخيار أو حتى المتمردين الأبطال بمنحهم ميداليات على أفعالهم وشهادات تقدير لإبقاء آرائهم لأنفسهم».

ما هي خلطة البطولة والأبطال؟

متى لا يصبح «بطلًا» الشخص الذي يقوم بأعمال ترتقي إلى البطولة على أساس المعايير التي سنحددها فيما هو قادم؟ وفي أي ظروف يمكن أن يصنف الفعل على أنه فعل جبان لا بطولي؟

كان لتصرف كريستينا نتيجة إيجابية بإنهاء موقف خَرَج عن السيطرة وبدأ في التسبب بأذى يزيد عن المقصود في بدايته. هي لا تعتبر نفسها بطلة لأنها كانت ببساطة تعبّر عن مشاعر شخصية ومعتقدات تُرجمت (من خلالي كباحث رئيسي) إلى تحقيق رغبتها حيث لم تحتج إلى «كشف الفساد» عند سلطات أعلى لتدخل من أجل إيقاف التجربة الخارجة عن المسار.

قارن وضعها بوضع بطلين محتملين في الدراسة، السجين كلاي ٤١٦ والسجين «الرقيب». كلاهما عارضا سلطة الحراس علنًا وتألما بسبب هذا. هزّ إضراب كلاي عن الطعام ورفضه أكل النقانق سيطرة الحراس التامة وكان على رفاقه التوحد لدعم حقوقه لكن

هذا لم يحدث، أما الرقيب فرفض التلفظ بألفاظ بذيئة على الرغم من الأذى الذي تعرض له من الحارس «جون واين»، كان على رفاقه أن يروا بصفته جموحًا بطوليًا بجمعهم على عدم الخضوع لمثل هذا الاعتداء، لكن هذا لم يحدث، لم؟ في الحالتين تحركا وحدهما، بدون مشاركة قيمهما أو نواياهما مع السجناء الآخرين، بدون طلب الدعم والاعتراف. لذلك سهل على الحراس نعتهما بالـ«مشاغبين» وتصويرهما بوصفهما مجرمين مسؤولين عن معاقبة الحراس لبقية السجناء. كان يمكن لأفعالهما أن تعتبر بطولة، لكن لا يمكن اعتبارهما بطلين لأنهما لم يتحركا لتغيير النظام المعتدي بأكمله عن طريق ضم المزيد من المنشقين إليهما.

جانب آخر للبطولة يظهر في نموذج هذين الشابين؛ البطولة ومكانة البطل هي وصف اجتماعي، شخص مختلف عن الفاعل هو من يمنح هذا الشرف للفاعل والفعل، يجب أن يحدث توافق مجتمعي على إيجابية وأهمية نتائج الفعل حتى نعتبره بطوليًا، وحول الفاعل حتى يسمى بطلًا. انتظروا! ليس بهذه السرعة! الانتحاري الفلسطيني الذي قُتِل في حادث تسبب في قتل مدنيين يهود أبرياء يُسَمَّى بطلًا في فلسطين وشيطانًا في إسرائيل، وبالمثل يمكن النظر للمعتدين على أنهم مقاتلون في سبيل الحرية أو وكلاء جبناء للإرهاب، يعتمد هذا على من يمنحهم اللقب[١].

معنى هذا أن البطولة مرتبطة بالثقافة والزمن. تعرض أسطورة الإسكندر الأكبر إلى يومنا هذا أمام الأطفال في القرى النائية بتركيا في مسارح العرائس، الإسكندر في المدن التي وجدت فيها مراكز القيادة الخاصة به وتزاوج جنوده من أهلها هو بطل عظيم، لكن في المدن التي احتلها بسبب شغفه المشهور عنه بفكرة حُكم العالم؛ وصِفَ الإسكندر بأنه الشرير الأكبر حتى بعد أكثر من ألف سنة من موته[٢].

من الضروري ليصبح البطل جزءًا من تاريخ أية ثقافة أن يُسجِّل أعمالَ البطل المثقفون ومن يجيدون كتابة التاريخ وتناقله عبر التقليد الشفوي المتواتر. الفقراء والسكان الأصليون والمحتلون والأميون لديهم القليل من الأبطال المعترف بهم على نطاق واسع لأنهم لا يدوِّنون أفعالهم.

---

(١) تجد المفاهيم البديلة للإرهاب الانتحاري في:

Fathali Moghaddam, *From the Terrorists' Point of View: What They Experience and Why They Come to Destroy Us* (New York: Praeger, 2006).

(٢) لتفاصيل كاملة انظر في الرأي الرائع لمايكل وود (*Michael Wood*) في محاولته لتتبع رحلة الإسكندر في فتوحاته:

In the Footsteps of Alexander The Great: A Journey from Greece to Asia (Berkeley: University of California Press, 1997).

كذلك الفيلم الوثائقي الشهير لمحطة (*BBC*) لرحلة وود الذي أنتجته شركة (*Maya Vision*).

تعريف الأبطال والبطولة

لم نُبحَث البطولة بأسلوب منهجي في العلوم السلوكية[١]. الأدب هو من يستكشف الأبطال والبطولة بشكل أفضل، وكذلك الفن والأساطير والسينما. العديد من مصادر البيانات تُسجِّل أمراض الوجود البشري مثل القتل والانتحار ومعدلات الجريمة وأعداد السجناء، ومعدلات الفقر ومعدل الفصام في شعب ما، لكن لا تتوفر لدينا بيانات مماثلة عن التصرفات الإيجابية للبشر، لا نحتفظ بالعديد من أعمال الخير الطيبة أو التكافل في مجتمع ما على مدار سنوات، لا نعرف بالأعمال البطولية إلا من طريق الصدفة، فتقودنا تلك المعدلات المنخفضة إلى الاعتقاد بأن البطولة نادرة وبأن الأبطال استثنائيون. على الرغم من ذلك يتجدد الاهتمام بأهمية مناقشة الخير في الطبيعة الإنسانية بسبب الدراسات الجديدة والدقة التجريبية لحركة علم النفس الإيجابي بقيادة عالم النفس مارتين سيليجمان وزملائه، صنعت هذه المجموعة تحولًا في النموذج نحو إبراز الإيجابي في الطبيعة البشرية وتقليل تركيز علم النفس الطويل المدى على السلبي[٢].

تُبرز المفاهيم المقبولة حاليًا للبطولة بشكل أساسي مخاطرها المادية دون مناقشة أية مكونات أخرى للأعمال البطولية بالشكل المناسب، مثل نبل الغاية والتضحيات الشخصية السلمية. تنتج عن تحليلات الفضائل البشرية من قبل خبراء علم النفس الإيجابي مجموعة من ستة فئات رئيسية للسلوك الفاضل تحظى بإجماع عام بين الثقافات، يشمل هذا التصنيف: الحكمة والمعرفة، والشجاعة، والإنسانية، والعدل، والاعتدال، والتجاوز. والشجاعة والعدل والتجاوز هي السمات الأكثر أهمية للبطولة من بينها جميعًا. يشمل التجاوز معتقدات وأعمالًا تذهب إلى ما هو أبعد من الذات.

تجعلنا البطولة نُركِّز على ما هو صحيح في الطبيعة الإنسانية، نهتم بروايات الأبطال

---

(١) العديد من الأفكار التي ناقشناها في هذا القسم كانت بالتعاون مع زينو فرانكو (*Zeno Franco*) وعرضت بتفصيل أكبر في المقال الذي اشتركنا في كتابته:

"Celebrating Heroism: a Conceptual Exploration," 2006

وقد اشتركت أيضًا في بحث جديد يسعى إلى فهم مصفوفة القرارات وقت مقاومة الأفراد ضغط المجتمع عليهم ليطيعوا سلطته. أول دراسة لي بالتعاون مع بييرو بوكاريو (*Piero Bocchario*) اتممناها مؤخرًا في جامعة باليرمو، صقلية، إيطاليا، بعنوان:

"Inquiry into Heroic Acts: The Decision to Resist Obeying Authority".

(٢) M. Seligman, T. Steen, N. Park, and C. Peterson, "Positive Psychology Progress," *American Psychologist* 60 (2005): 410-21.

وانظر أيضًا:

D. Strumpfer, "Standing on the Shoulders of Giants: Notes on Early Positive Psychology (Psychofortology)," *South African Journal of Psychology* 35 (2005): 21-45

لأنها بمثابة تذكير بأن البشر قادرون على مقاومة الشر وعدم الاستسلام للغواية والارتقاء وتلبية النداء، عندما يفشل الآخرون في التحرُّك.

تصف العديد من المعاجم الحديثة البطولة بأنها «المروءة» و«الإقدام» وهي من سمات الشجاعة الأساسية، والشجاعة تجعلنا أبطالًا، لكن المعاجم القديمة التي كانت تجد صعوبة في تفكيك المفهوم تقدم لنا فوارق دقيقة بين الكلمات التي نستخدمها لوصف الأعمال البطولية. على سبيل المثال في قاموس (Webster's Revised Unabridged Dictionary, 1913)، يُلحَق مصطلح البطولة بالشجاعة والإقدام والجَلَد والمروءة والبسالة[1].

ابطال الجيوش

أغلب أمثلة البطولة تاريخيًا برزت شجاعتها في أعمال شملت الجرأة والبطولة والمخاطرة بالتعرض لإصابات جسدية خطيرة أو للموت. وفقًا لعالمي النفس أليس إيجلي وسيلوين بيكير يظهر في البطل مزيج يجمع بين الشجاعة ونُبل الغاية لا الشجاعة وحدها[2]. فكرة النبل في البطولة تعتبر ضمنية في الغالب ومحيّرة، وغالبًا ما يكون خطر فقد الحياة أو أحد الأطراف أو تقديم تضحية شخصية أكثر وضوحًا. إن النموذج البطولي لبطل الحرب موجود منذ العصور القديمة حتى عصر الصحافة الحديثة.

أخيل، قائد القوات اليونانية في حرب طروادة غالبًا ما ينظر إليه باعتباره بطلًا نمطيًا[3]. كان دخول أخيل في المعركة نابعًا من التزام بقانون عسكري وصَف تصرفاته بكونها باسلة، وعلى الرغم من كون أعماله بطولية إلا أن الهدف المسيطر عليه كان السعي خلف المجد والشهرة التي تجعله خالدًا في أذهان البشر بعد موته.

تقول المؤرخة لوسي هيوز ـ هاليت أن «البطل يجب أن يضحي بنفسه ليحيا الآخرون، أو أنه هو نفسه يعيش إلى الأبد في ذاكرة الآخرين. . . أخيل سيقدم على أي شيء بما في ذلك التضحية بحياته نفسها ليؤكد على تفرُّده وليمنح حياته الخاصة قيمة وليهرب من النسيان»[4]. ربما تبدو لنا فكرة رغبة الفرد في المخاطرة بسلامته الشخصية

---

(١) *ARTFL Project: 1913 Webster's Revised Unabridged Dictionary.* Http://humanities.uchicago.edu/orgs/ARTFL/forms_unrest/webster.form.html.

(٢) A. Eagly and S. Becker, "Comparing the Heroism of Women and Men," *American Psychologist* 60 (2005): 343-44.

(٣) Lucy Hughes-Hallett, *Heroes* (London: HarperCollins, 2004).

(٤) نفس المصدر، ص١٧. علينا أيضًا أن نتذكر أن أخيل بعدما مات وأصبح روحًا قال لأوديسيوس أنه كان يفضل العيش كخادم على الموت بطلاً. لم يُعرّف هوميروس البطولة على أنها مهارة القتال والشجاعة، لكن على أنها بناء وصيانة روابط الولاء والخدمات المتبادلة بين الرجال. من الممكن أن يكون قطيع الخنازير بنفس قدر بطولة ◄

مُقابل تخليده في ذاكرة الأجيال فكرة عتيقة آتية من أزمان غابرة، لكنها ما زالت تضمن مكانة مهمة في تقييمنا للسلوك البطولي الحديث.

كذلك فإن الرؤية التاريخية للبطل تقترح أن هناك شيئًا فطريًا في الأبطال، كتبت هيوز، «كتب أرسطو أن هناك بشرًا مثل الآلهة، استثنائيون، فيفوقون وبصورة طبيعية بفضل مواهبهم الرائعة كل الأحكام الأخلاقية أو الرقابة الدستورية: «لا يوجد قانون يحتوي رجالًا من هذا العيار: هم أنفسهم القانون»». نشأ أحد تعريفات البطولة من هذا المفهوم الأرسطي: «إنه تعبير عن روح متفوقة تصاحبها الشجاعة والكرامة وازدراء التنازلات التي تقدمها الغالبية من غير الأبطال في حياتهم، هي سمات تُعد بطولية على نطاق واسع... [الأبطال] قادرون على فعل شيء لحظي مثل قهر عدو أو إنقاذ غريق أو حفظ نظام سياسي أو إتمام رحلة لا يستطيع شخص آخر أن يتمها»[1].

الأبطال المدنيون

إن كان أخيل بطل الحرب؛ فإن سقراط يحظى بنفس المكانة بصفته بطلًا مدنيًا، كانت تعاليمه تهدد سلطات أثينا حتى أصبح هدفًا لرقابة الحكومة التي حكمت لاحقًا بموته بسبب رفضه التخلي عن أفكاره. عندما نساوي بين البطولة العسكرية لأخيل والبطولة المدنية لسقراط يتضح لنا أن الأعمال البطولية تظهر في صورة خدمات تقدم للآخرين أو مبادئ أخلاقية أساسية للمجتمع، البطل في الغالب يعمل بالقرب من القوى البنّاءة والمدمرة على حد السواء. تقول هيوز أن «أجنحة الفُرْصَة مغطاة بريش الموت»، أن الأبطال يُعَرِّضُون أنفسهم لخطر الموت سعيًا للخلود. كل من أخيل وسقراط مثالان واضحان على البطولة، لقيا حتفهما في سبيل خدمة مبادئ سلوكية مختلفة اختارا أن يعيشا بها.

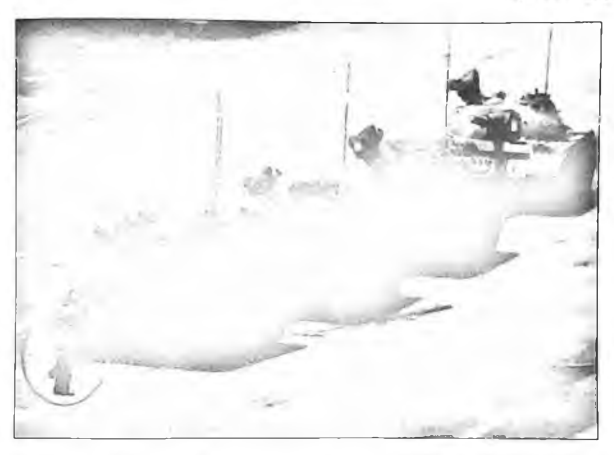
اختيار سقراط لأن يموت في سبيل أفكاره يفيدنا كمعيار أبدي يذكرنا بقوة البطولة المدنية. يقال أن سقراط استدعى لحظة الحكم عليه صورة أخيل ليدافع عن قراره بالموت بدلًا من الخضوع للقانون المتعسف الذي يسكت معارضيه.

---

* أخيل (وهو كذلك في ملحمة الأوديسا حيث وفر الحماية لأوديسيوس) إذا تمسك بقواعد الاحترام والاحترام المتبادل. «إنْ خدمك والدي أوديسيوس بعمله الذي أتمه أو بوعد وفى به فساعدني»، قالها تليماخوس أثناء زيارته للأبطال الناجين من موقعة طروادة بحثًا عن أبيه. رأي هوميروس في البطولة مختلف هنا عن رأي هيوز - هاليت.

(1) نفس المصدر، ص٥ - ٦. هذا هو تعريف أرسطو للبطل «التراجيدي». ماكبث بطل بهذا المعنى لكنه مع ذلك شرير ومعروف بهذا، من الضروري أن يسقط البطل التراجيدي؛ لأنه يعتقد «أنه هو القانون»، كما رأينا في شخصية كريون (*Creon*) في مسرحية أنتيغون.

انظروا إلى الفعل الجريء «المتمرد غير معروف» واجه صفًّا من سبع عشرة دبابة كانت تهدف إلى سحق مسيرة الحرية لحركة الديمقراطية الصينية في ميدان تانمين، بيمنج في ٥ يونيو، ١٩٨٩م.



وقف هذا الشاب في وجه صف من الدبابات لمدة ثلاثين دقيقة ثم صعد فوق الدبابة التي في المقدمة ليقول للجندي وفقًا للتقارير: «لم أنت هنا؟ مدينتي في فوضى بسببك. عد، استدر وتوقف عن قتل أهلي». أصبح ذلك الرجل المجهول «رجل الدبابة» مباشرة نموذجًا دوليًّا للمقاومة، واجه أعلى اختبار للشجاعة الفردية بشرف ورسم للأبد صورة الفخر هذه لشخص يقف بشجاعة في وجه آلة عسكرية ساحقة. نُشرت صورة هذه المواجهة في جميع أنحاء العالم وجعلت منه بطلًا دوليًّا. هناك روايات متضاربة حول ما حدث له إثر هذا الفعل، فقد قال البعض بأنه سجن، وآخرون قالوا بأنه أعدم، وقيل بأنه هرب. بغض النظر عما حدث له فإن مكانته كبطل مدني أصبحت معترفًا بها عندما اختارته مجلة التايمز واحدًا من بين أهم مئة شخصية مؤثرة في القرن العشرين في (أبريل ١٩٩٨م).

تختلف المخاطر الجسدية التي يتعرض لها المدنيون الذين يقومون بأعمال بطولية عن المخاطر الجسدية التي يتعرض لها العسكريون.

أبطال الخطر الجسدي مقابل أبطال الخطر الاجتماعي

أحد التعريفات التي يقدمها علماء النفس تذكر الخطر الجسدي على أنه السمة المحددة للأبطال. بالنسبة لبيكر وإيجلي فالأبطال «هم أشخاص يختارون أن يُخاطِروا نيابة عن شخص أو مجموعة أكبر من الأشخاص على الرغم من احتمالية الموت أو التعرض لتوابع جسدية خطيرة بسبب هذا الفعل»[1]. هناك دوافع أخرى للبطولة، مثل البطولة المدفوعة بالمبدأ، هي بطولة معترف بها لكنها ليست موضحة. من المثير أن يدعوا علماء النفس إلى نموذج شديد الضيق للبطولة ويستثنوا صورًا أخرى من الخطر الشخصي الذي يمكن أن يصل إلى مرتبة الأعمال البطولية مثل المخاطرة بمسيرة الشخص المهنية واحتمالية التعرض للسجن أو خسارة المكانة.

كذلك تربط المفاهيم المختلفة للبطولة بين أفكار الشجاعة والعدل والتجاوز التي طورها سليجمان وزملائه باعتبارها جزءًا من تصنيفهم لمنظومة الفضائل ونقاط القوة، فمثلًا فضيلة الشجاعة تنبني على أربع نقاط قوة تشمل المصداقية، الجرأة (شبيهة الإقدام)، الثبات (شبيه الجَلَد)، والحماس. العدل أيضًا هو فضيلة أخرى، عمليًا فإن تصور خدمة قضية نبيلة أو فكرة متعلقٌ في النهاية بالعدل؛ كإلغاء الاستعباد مثلًا. أخيرًا؛ فالتجاوز هو فضيلة أخرى تلامس البطولة طالما كان القوة التي تعزز الروابط مع عالم أكبر وتعطي قيمة لأعمالنا ووجودنا. وعلى الرغم من أن أدب البطولة لم يتحدث عن التجاوز لكن يمكن أن نفهمه من تصور قاموس (Webster 1913) للجَلَد في السلوك البطولي. التجاوز يسمح للفرد المنخرط في عمل بطولي بأن يبقى منفصلًا عن التوابع السلبية المتوقعة أو الواضحة التي ستتبع تصرفه، من أجل أن يكون بطوليًا يجب أن يرتقي فوق الأخطار المباشرة التي تتبع البطولة بالضرورة إما بإعادة صياغة طبيعة هذه المخاطر أو بتغيير قيمتها بنسبتها إلى قيم «أعلى».

تصنيف جديد للبطولة

بدأت دراسة أوسع لهذا الموضوع الجذاب في صورة حوارات مع زميلي في علم النفس زينو فرانكو مدفوعًا بالتفكير في السلوكيات البطولية المرتبطة بتجربة سجن ستانفورد. في البداية وسَّعنا مفهوم المخاطر البطولية، ثم اقترحنا تعريفًا أشمل للبطولة، وأخيرًا صنعنا لها تصنيفًا جديدًا. بدا واضحًا أن هذا الخطر أو هذه التضحية لا يجب أن تقتصر على خطر مباشر على سلامة الجسد أو الموت. يمكن لمكونات الخطر في البطولة أن تكون أي تهديد

(١) S. Becker and A. Eagly, "The Heroism of Women and Men," *American Psychologist* 59 (2004): 163-78; quote, p. 164.

خطير لمستوى المعيشة. على سبيل المثال قد تشمل البطولة سلوكًا يستمر في التعرض لمخاطر طويلة المدى على الصحة أو لنتائج مالية خطيرة، أو خسارة مكانة اجتماعية أو اقتصادية، أو النبذ من المجتمع. ولأن هذا يوسع من تعريف البطولة بشكل كبير فقد أصبح ضروريًا أيضًا أن نحدد بعض صور البطولة الواضحة التي يمكن في الحقيقة أن تكون «بطولة زائفة».

ليس كل المتمردين أو المحاربين أو القديسين أبطالًا؛ فالبطل يجب أن يجمع بين نُبل الغاية والتضحية، وفي بعض الأحيان يُعطى الأفراد مكانة بطولية غير مُستحقة بسبب رغبة وكالة أو حكومة. هؤلاء «الأبطال المزيفون» هم صناعة الإعلام وتدعمهم قوى نظامية لها قدرات كبيرة»[١].

يكافأ الأبطال على أعمالهم البطولية بطرق كثيرة، لكن إذا كانوا يتوقعون تحقيق مكاسب ثانوية لحظة إقدامهم على العمل البطولي فإنهم لا يستحقون إنزالهم منازل الأبطال، أمّا إذا كانت هذه المكاسب الثانوية مُستحقَّة بناء على أفعالهم بدون انتظارها مسبقًا عندها يرتقي الفعل ليكون بطوليًا؛ فالعمل البطولي يُركِّز على فائدة المجتمع أكثر من فائدة الفرد.

يمكن تعريف البطولة على أنها تمتلك أربع سمات أساسية: (أ) يجب أن تكون عملًا تطوعيًا، (ب) يجب أن تشمل مخاطرة أو تضحية محتملة مثل خطر الموت أو التهديد المباشر للسلامة الجسدية أو تهديد طويل المدى للصحة أو تدهور خطير محتمل في مستوى المعيشة، (ج) يجب أن تكون لصالح فرد أو مجموعة أو المجتمع بالكامل، و(د) يجب أن تكون بلا مكاسب ثانوية خارجية منتظرة وقت الإقدام على الفِعل.

البطولة في خدمة فكرة نبيلة لا تكون في الغالب البطولة التي تُعرِّض الجسد للخطر، لكن بطولة المخاطرة بالجسد تكون في الغالب قرارًا لحظيًا يتخذ لحظة التصرف، كما أن تضرُّر أو فُقدان أحد الأعضاء أو الموت في بطولة المخاطرة بالجسد هو أمر محتمل وليس مؤكَّد وبشكل عام يبتعد البطل عن الموضع الذي نفَّذ فيه عمله البطولي بعد فترة قصيرة، لكن على الجانب الآخر فهناك رأي يقول بأن بعض أعمال البطولة المدنية تفوق بطولة

---

(١) نرى البطولة المصنّعة في أسوأ صورها في مثال استغلال القوات المسلحة الأمريكية السافر للجندية جيسكا لينش (*JessicaLynch*). المبالغة في الأعمال الكاذبة حولت لينش (*Lynch*) من مصابة عادية فاقدة للوعي تعرضت للأسر إلى بطلة حاصلة على وسام شرف بدعوى أنها قاتلت سجانيها القساة وحدها تمامًا في سيناريو مختلق بشكل كامل، صُنع لحاجة الجيش إلى بطل في وقت لم تكن فيه الكثير من الأخبار الجيدة تصل إلى الوطن من العراق. كشف فيلم وثائقي لشبكة (*BBC*) الكثير من الكذب والخداع في صناعة تلك البطلة المزيفة، وعلى الرغم من هذا فإن قصة الجندية لينش (*Lynch*) الخاصة كانت جيدة للغاية لتروى في الدراما الوثائقية لشبكة (*NBC*) وتبرز في المجلات الكبرى ونعاد في كتابها الذي ربحت منه مليون دولار مقدمًا انظر:

"Saving Pvt. Jessica Lynch," BBC America documentary, July 18, 2003; Rick Bragg, *I Am a Soldier, Too: The Jessica Lynch Story* (New York: Vintage, 2003).

المخاطرة الجسدية. أشخاص مثل نيلسون مانديلا ومارتن لوثر كنج وألبرت شفيتزر معروفون بأعمالهم البطولية المدنية. وفقًا لهذا الرأي فإن الخطر المصاحب للمخاطرة الجسدية هو تهلُكة، أما الخطر المصاحب للبطولة المدنية فتضحية.

التضحية تتبعها تكلفة غير محدودة بزمن، فكثيرًا ما يكون لدى الأبطال المدنيين الوقت الكافي لمراجعة أعمالهم وتقييم نتائج قراراتهم، كان يمكن لجميعهم أن يختاروا الانسحاب من القضية التي دعموها لأن تكلفة أفعالهم كبيرة للغاية لكنهم لم يفعلوا، كل من هؤلاء الأفراد خاطر بمستوى معيشته على مستويات عديدة. لأعمالهم نتائج خطيرة؛ كالاعتقال، السجن، التعذيب، تهديد أفراد العائلة، وربما الاغتيال.

يمكن أن نقول بأن دعم أرقى الأفكار المدنية في وجه الخطر هو المفهوم الرئيسي للبطولة. إن مواجهة الخطر المهدد للسلامة الجسدية هو ما يمكن أن تقابله أثناء تأدية أعمال بطولية، يتم تذكيرنا بأن البطولة «هي ازدراء للخطر، لا من جهل أو طيش أعمى ولكن من إخلاص نبيل لبعض القضايا العظيمة وثقة عادلة بالقدرة على مواجهة الخطر بروح القضية». ربما يهدد الخطر الحياة مباشرة أو يكون مترصدًا بنا، انظروا تصريح نيلسون مانديلا في بداية السبعة والعشرين عامًا من السجن لمعارضة طغيان الفصل العنصري:

«كرستُ نفسي طوال حياتي لمعاناة الشعب الأفريقي، حاربت ضد هيمنة البيض، وحاربت ضد هيمنة السود. أحببت فكرة مجتمع ديمقراطي حر يعيش فيه الجميع معًا في تناغم وفرص متساوية. هي فكرة آمل أن أعيش لها وأن أحققها، لكن إذا استدعت الحاجة فأنا مستعد للموت في سبيلها»[١].

بناء على هذا التعريف الأكثر مرونة للبطولة صنعتُ مع زينو فرانكو تصنيفًا فاعلًا يشمل اثنتي عشرة فئة فرعية للبطولة، فئتان للبطولة العسكرية، النوع الذي يشمل المخاطرة بسلامة الجسد، وعشرة فئات مدنية تُمثّل الخطر الاجتماعي. يحدد التصنيف أيضًا سمات الاضطهاد لكل نوع من أنواع الأبطال هؤلاء، وكذلك صور الخطر التي يمكن أن يتعرضوا لها، ويعطي أمثلة قليلة مشتقة من مصادر تاريخية ومعاصرة.

وضعنا التصنيف بداهة بناء على المنطق ومراجعة أعمال كتابية، فليس مبنيًا على أساس تجريبي ولا ثابت ولكن وفقًا لنموذج حيوي متاح للتعديل عبر الاكتشافات البحثية الجديدة وقدرة القراء على الإضافة. سيكون واضحًا أن الفئات الفرعية والتعريفات والمخاطر والقدوات المقدمة جميعها متصلة ثقافيًا وزمنيًا، تعكس منظورًا ما بعد حداثي أوروبي أمريكي من الطبقة الوسطى، وإدراج منظورات أخرى سوف يثريه ويوسعه بالتأكيد.

---

(١) A. Brink, "Leaders and Revolutionaries: Nelson Mandela," www.time.com/time/time100/leaders/profile/mandela.html.

	الفئة الفرعية	التعريف	الخطر/التضحية	القدوة
البطولة العسكرية	١ ـ أبطال عسكريون مرتبطون بواجبات عسكرية معرضون لمخاطر جدية.	أفراد ينخرطون في الجيش أو في وظائف مهمتها الاستجابة للطوارئ تشمل تعريض أنفسهم باستمرار لموقف شديدة الخطورة، ويجب أن تفوق الأعمال البطولية منطلبات نداء الواجب.	الإصابات الخطيرة والموت.	ـ آخيل ـ من يمنحون أوسمة الشرف ـ هيو طومون ـ الأدميرال جيمس ستوكديل
البطولة المدنية	٢ ـ أبطال مدنيون غير مرتبطين بواجبات معرضون لمخاطر جسدية.	مدنيون يحاولون حماية الآخرين من الأذى الجسدي أو الموت عالمين أنهم يعرضون حياتهم للخطر.	إصابات خطيرة. الموت.	ـ أبطال كارنيجي
البطولة المجتمعية، الجلد، الشجاعة، والإقدام	٣ ـ شخصيات دينية	كرسوا حياتهم لقضايا دينية نجد أعلى المبادئ أو لفتح أراضٍ دينية/روحانية جديدة. غالبًا ما يكونون معلمين ومثلًا للعامة.	التضحية بالنفس في طريق الزهد. إزعاج تقليد ديني.	ـ بوذا ـ محمد [ﷺ] ـ القديس فرانس أسي ـ الأم تيريزا

	الفئة الفرعية	التعريف	الخطر/التضحية	القدوة
البطولة المجتمعية، الجلد، الشجاعة، والإقدام	٤ ـ الشخصيات السياسية الدينية	رجال دين تحولوا إلى سياسيين ليحدثوا تغييرًا أوسع، أو سياسيون أصحاب إيمان روحاني عميق يحرك ممارستهم السياسة.	الاغتيال. الاعتقال.	ـ ماهاتما غاندي ـ مارتن لوثر كينج ـ نيلسون مانديلا ـ الأسقف ديزموند توتو
	٥ ـ الشهداء	شخصيات سياسية أو دينية تعرض حياتها لخطر شديد عن قصد في بعض الأحيان في سبيل قضيتها.	موت محقق أو شبه محقق في سبيل القضية أو الفكرة.	ـ المسيح ـ سقراط ـ السيدة جان دارك ـ خوسيه مارتي ـ ستيف بيكو
	٦ ـ قادة سياسيون أو عسكريون	يقودون أمة أو مجموعة في وقت الشدائد، عملهم هو توحيد الأمة، تقديم رؤية مشتركة، وربما كانت لهم سمات تراها المجموعة ضرورية لنجاتها	الاغتيال. المعارضة. الإقصاء من العمل. حملات تشويه. السجن.	ـ أبراهام لينكون ـ روبرت لي ـ فرانكلين روزفيلت ـ وينستون تشرتشل ـ فاكلاف هافيل

	الفئة الفرعية	التعريف	الخطر/التضحية	القدوة
البطولة المجتمعية، الجلد، الشجاعة، والإقدام	٧ ـ المغامرون/ المستكشفون/ المكتشفون	أشخاص يستكشفون مناطق جغرافية غير معروفة أو يستخدمون وسائل تنقل غير مثبتة سلامتها	الصحة. إصابات خطيرة. الموت. خسارة فرص (طول الرحلة).	ـ أوديسيوس ـ الإسكندر الأكبر ـ أميليا أيرهارت ـ يوري غاغارين
	٨ ـ أبطال الاكتشافات العلمية	أفراد يستكشفون مناطق غير معروفة في العلم، يستخدمون وسائل بحث جديدة غير مثبتة، أو يكتشفون معلومة علمية جديدة ذات قيمة للبشرية	عدم القدرة على إقناع الآخرين بأهمية ما وجدوه. الطرد من العمل. الخسائر المادية.	ـ جاليليو جاليلي ـ إديسون ـ مادام كوري ـ أينشتاين
	٩ ـ السامريون الصالحون	أفراد يقدمون المساعدة للمحتاجين، يشمل هذا أعمال إيثار قد لا ينجم عنها مخاطر مباشرة تهدد السلامة الجسدية	عقوبات من السلطات الاعتقال التعذيب الموت التكاليف الطرد من العمل	ـ منقذو ضحايا الهولوكوست ـ هاريت توبمان ـ ألبرت شوايتزر ـ ريتشارد كلارك

	الفئة الفرعية	التعريف	الخطر/التضحية	القدوة
البطولة المجتمعية، الجلد، الشجاعة، والإقدام	١٠ ـ من يفوقون التوقعات./المبخوس حقهم	أشخاص يهزمون الإعاقة أو الظروف الصعبة لينجحوا ويقدمون نموذجًا للآخرين	الفشل. الرفض. السخرية. الحسد.	ـ هوراتيو ألجير ـ هيلين كيلر ـ إلينور روزفلت ـ روزا باركس
	١١ ـ أبطال البيرقراطية	موظفون في مؤسسات كبيرة في قضايا جدلية داخل أو بين الشركات؛ يثبتون على المبادئ على الرغم من الضغط الشديد	تعريض مسيرة عملية ناجحة للخطر. الإقصاء من العمل. خسارة المكانة الاجتماعية. خسائر مادية. خسارة المصداقية. مخاطر على الصحة.	ـ لويس باستور
	١٢ ـ كاشفو الفساد	أشخاص يدركون وجود أنشطة غير قانونية أو أخلاقية في مؤسسة ما ويبلغون عنها بدون انتظار مكافأة	تعريض مسيرة عملية ناجحة للخطر. الإقصاء من العمل. خسارة المكانة الاجتماعية. خسائر مادية. خسارة المصداقية. الانتقام الجسدي.	ـ رون ريدنهاور ـ ديبورا لايتون ـ كريستينا ماسلاش ـ جو داربي

نماذج لأبطال

من شأن ذكر بعض النماذج من الواقع جعل مفهوم البطولة أكثر إنسانية وبيان صوره المختلفة. سأقدم عددًا من الأفراد المثيرين للاهتمام والذين أعرفهم. بما أننا ذكرنا إن المواقف تصنع الأبطال فيمكننا أن نستخدم بعض العلامات الظرفية الكبرى حتى نجمعهم، مثل الفصل العنصري، وعمليات الانتحار والقتل الجماعي في جونز تاون.

أبطال الفصل العنصري

طليعة جهود دعم الحرية والكرامة الإنسانية هم نوع خاص من الأبطال الذين يرحبون بالانخراط في معارك تمتد طوال حياتهم ضد القمع الممنهج. في العصور الأخيرة سلك ماهاتما غاندي ونيلسون مانديلا مسالك بطولية قادتهما إلى تفكيك نظامين للفصل عنصري. في ١٩١٩م بدأ غاندي المقاومة السلمية ضد حكم بريطانيا للهند، سُجِن لعامين وفي العشرين عامًا التالية كافح من أجل تحرير الهند ومن أجل مُعاملة بالمثل للطبقة الهندوسية ومن أجل التسامح الديني. أجّلت الحرب العالمية الثانية الاعتراف بحق الهند في تقرير المصير، لكن سنة ١٩٤٨م أُعْلِنَت الدولة الاستقلال عن بريطانيا أخيرًا. اغتيل غاندي بعدها بفترة قصيرة لكنه صار قدوةً في المقاومة السلمية للقمع[١].

بَنَتْ جنوب أفريقيا نظامًا للفصل العنصري تم تشريعه رسميًا سنة ١٩٤٨م واستمر حتى سنة ١٩٩٤م، وكان النظام يستعبد السكان الأصليين السود، حوكم نيلسون مانديلا بسبب تحريضه على الإضراب والاحتجاج بجانب اتهامات أخرى سنة ١٩٦٢م، قضى سبعة وعشرين عامًا في الاعتقال في سجن جزيرة روبين سيئ السمعة. أثناء فترة اعتقاله استخدم مانديلا ورفقاء السجن نظام السجن نفسه لخلق مقاومة رمزية أفادت في دفع سكان جنوب أفريقيا والعالم إلى إنهاء نظام الفصل العنصري، كان قادرًا على تحويل الهويات الذاتية التي صنعها لأنفسهم سجناء ينتمون لأجيال مختلفة وذلك عن طريق جعْلهم يفهمون أنهم سجناء سياسيون يتصرفون بكرامة لدعم قضيتهم، وفي أثناء ذلك ساعد على تحويل السلوكيات والمعتقدات لدى العديد من الحراس ومواجهة نظام السجن بأكمله[٢].

---

(١) D. Soccio, *Archetypes of Wisdom*, 2nd ed. (Belmont, CA: Wadsworth, 1995).

(٢) W. F. Cascio and R. Kellerman, *Leadership Lessons from Robben Island: A Manifesto for the Moral High Ground* (manuscript submitted for publication).

ابطال مناهضة الشيوعية

التهديد اليومي المحسوس ووحشية السيادة الوطنية لنظام شيوعي في أوروبا الشرقية أتى لنا ببطل مميز، فاكلاف هافيل. هافيل عظيم القدر عظمة دالاي لاما، وعادي كأي عامل مسرح أو كاتب، لكنه كان مُخَطِّط «الثورة المخملية» التي أطاحت بالنظام الشيوعي في التشيك سنة ١٩٨٩م، قبل أن ينجح في النهاية في إقناع الحكومة بأن الشمولية الشيوعية كانت تدمر كل ما تدافع عنه تشيكوسلوفاكيا. تعرض هافيل للاعتقال عدة مرات على مدار خمس سنوات، كان القائد في صياغة الميثاق ٧٧ من البيان الرسمي ومنظم حركة حقوق الإنسان الخاصة بالمفكرين والطلبة والعمال في تشيكوسلوفاكيا. عُرِف هافيل بصفته داعمًا قويًا للمقاومة السلمية بتفصيله لمفهوم «ما بعد الشمولية» التي واجهت أهل بلده ليؤمنوا بأن لهم القدرة على تغيير النظام القمعي الذي يدعمونه عن عمد بخضوعهم لسلطته. في خطابات كتبها من داخل السجن إلى زوجته وفي خطبه، أوضح هافيل أن أول خطوة للإطاحة بنظام اجتماعي وسياسي غير مقبول هو أن يتبيّن المواطنون أنهم يعيشون كذبة. جعل المجلس الفدرالي هذا الرجل الخجول الصادق رئيسًا له، وعندما خضعت الحكومة الشيوعية في النهاية لسلطة الشعب انتُخِب فاكلاف هافيل في انتخابات ديمقراطية نزيهة ليصبح أول رئيس لجمهورية التشيك. وهو مستمر الآن[1] بصفته مواطنًا عاديًا ذا شهرة في معارضة الظلم السياسي ودعم جهود السلام العالمي[2].

ابطال حرب فيتنام

نرى في أعمال جيمس ستوكديل (James Stockdale) وهيو طومسون (Hugh Thomson) نوعين بينهما اختلاف كبير من البطولة العسكرية تحت الضغط الشديد. صعد ستوكديل وهو زميل سابق بجامعة ستانفورد في معهد هوفر (ومحاضر زائر في دورتي عن التحكم بالعقول) إلى رتبة نائب أميرال قبل موته عن عمر يناهز ٨١ عام في يوليو ٢٠٠٥. يعده كثيرون أحد أوضح أمثلة البطولة العسكرية في القرن العشرين بسبب تحمله جلسات تعذيب شديدة بشكل متكرر لمدة سبع سنوات من السجن دون أن يخضع لجماعة الفيتكونغ التي أسرته. يكمن السر وراء نجاح مقاومته في دراسته سابقًا للفلسفة التي أتاحت له

---

(١) توفي فاكلاف هافيل عام ٢٠١١م. (المحرر).

(٢) من حسن حظي أنني أمضيت أيامًا قلائل مع هافيل فاكلاف (*HavelVaclav*) أثناء تكريمي من مؤسسة هافيل (*Havel*) بمنحي جائزة على أبحاثي وكتاباتي في أكتوبر ٢٠٠٥م. أوصي بمجموع خطاباته إلى زوجته من داخل السجن والمقدمة السياسية الموجودة في أول الكتاب:
Paul Wilson: Václav Havel, *Letters to Olga: June 1979-September 1982* (New York: Knopf, 1988).

استدعاء تعاليم الفلاسفة الرواقيين. سمح تركيز ستوكديل لنفسه بالابتعاد نفسيًا عن التعذيب والألم وتركيز تفكيره على تلك الأشياء التي يمكن أن يتحكم بها داخل السجن، خلق قانونًا سلوكيًا عنيدًا لنفسه وللآخرين الذين أسروه، يتطلب النجاة في ظروف الصدمات العنيفة ألا يكسر العدو أبدًا عزيمة الشخص، مثلما عذب الرومان أبيكتيتوس منذ ألف سنة قبل هذا[1].

تميّز هيو طومسون لشجاعته الكبيرة في معركة قاتلة لكن ضد جنوده! إحدى أفظع الحوادث في تاريخ الجيش الأمريكي كانت مذبحة ماي لاي التي وقعت في ١٦ مارس، ١٩٦٨م، أثناء حرب فيتنام. حوالي ٥٠٤ مدني فيتنامي حوصروا وقتلوا في قرية سون مي (المكونة من مي لاي ٤ ومي كي ٤) من قبل الجنود الأمريكيين وضباط سرية تشارلي، النقيب إرنست مدينا والملازم ويليام كالي[2]. أصدرت قيادة الجيش أوامر بتدمير «بينكفيل Pinkville» (اسم رمزي لقرية فيتكونغ الشيوعية) كردٍّ على الخسائر العسكرية بسبب الكمائن والفخاخ البشرية، وحين لم يجدوا أي محاربين أعداء هناك جمع الجنود كل سكان القرية، العجائز والنساء والأطفال والرضع وفتحوا عليهم النار حتى قتلوهم جميعًا (بعضهم أحرق حيًا واغتصب وسلخت فروة رأسه).

أثناء حدوث هذه المذبحة هبطت طائرة هليكوبتر يقودها ضابط الصف هيو طومسون والتي كانت تطير فوقهم لتوفر غطاءً جويًا، حيث نزل منها وساعد مجموعة من الفيتناميين الذين بدا أنهم ما زالوا أحياء، وأثناء عودة طومسون وطاقمه المكوّن من فردين إلى الطائرة بعد وضع علامات دخانية؛ رأوا النقيب مدينا يهرول مع جنوده ليطلق النار على المصابين. طار طومسون بطائرته عائدًا إلى وادي ماي لي حيث كان الجنود على وشك تفجير كوخ مليء بالجرحى الفيتناميين، وأمر بوقف المذبحة وهدّد بفتح النار من الهليكوبتر على أي جندي أو ضابط أمريكي يرفض الأمر.

وعلى الرغم من أن الملازمين كانا أعلى رتبة من طومسون إلا أنه لم يجعل الرتبة

---

(١) D. Soccio, *Archetypes of Wisdom* (Belmont, CA: Wadsworth, 1995).

(٢) S. Hersh, *My Lai 4: A Report on the Massacre and Its Aftermath* (New York: Random House, 1970).

إحدى أكثر الروايات تفصيلاً عن مذبحة ماي لاي وتشمل الأشخاص المتورطين والصور والأحداث التي أدت إلى محاكمة الملازم ويليام كالي (*William Calley*) موجودة في:

Doug Linder in his "Introduction to the My Lai Courts-Martial," http://famous-trials.com/mylaicourts/1656-myl-intro

صور المذبحة التقطها مصور عسكري من بين أفراد فرقة تشارلي، رونالد هيبرلي (Ronal Haeberle)، باستخدام كاميرته الشخصية؛ امرأة مقتولة وأطفال ورضع وعجزة فيتناميين، ولم تصوّر جرائم مماثلة بالكاميرا الرسمية الخاصة بالجيش. كشفت صور هيبرلي كذب ادعاءات الجيش بأن من قتلوا كانوا متمردين وليسوا مدنيين أبرياء غير مسلحين، لكن بعكس أبو غريب لم تضم أياً من صوره صوراً لجنود أمريكيين يتخذون أوضاعاً للتصوير.

تقف في طريق مبادئه الأخلاقية، عندما أمر بإخراج المدنيين من الكوخ عارضه الملازم بأنه سيخرجهم بالقنابل اليدوية، ردّ طومسون رافضًا التراجع: «يمكنني أن أفعل أفضل من هذا، ابق وجنودك مكانكم وسأفتح عليكم النار»، ثم أمر بطاقرتي هيليكوبتر لإخلاء أحد عشر فيتناميًّا مصابًا. عادت طائرته لتنقذ طفلة رآها ما تزال متشبثة بأمها الميتة، ولم تصدر أوامر وقف إطلاق النار إلا بعد إبلاغ طومسون قياداته بالمذبحة[1].

بسبب هذا التدخل والتغطية الإعلامية الكبيرة التي حظي بها؛ أصبح طومسون شخصيةً غير مرغوب بها في الجيش وطُلِب منه قيادة أخطر طائرة هليكوبتر مرارًا وتكرارًا. أطلق عليه النار خمس مرات وكُسِر عموده الفقري وعانى من آلام نفسية مستديمة بسبب تجربته المؤلمة، تطلب الأمر ثلاثين عامًا قبل أن يعترف الجيش بعمله البطولي وحصل على وسام البطولة مع زميليه جلين أندريوتا ولورنس كولبيرن، أعلى أوسمة الشجاعة في الجيش سنة ٢٠٠٦. (وعلى النقيض عومل الملازم كالي كأنه بطل وكُتِبَت أغنية تكريمًا له دخلت في قائمة بيلبورد لأفضل ٤٠ أغنية سنة ١٩٧١م)[2].

كاشفو الفساد في حرب العراق

نرى صورًا أقل درامية من البطولة عندما يواجه شخص ما النظام بأمور لا يرغبون في سماعها، في حالتنا هذه عن تواطؤ ضباط وجنود آخرين في اعتداءات على مدنيين، كان جو داربي المجند الاحتياطي الذي كشف عمله البطولي عن انتهاكات سجن أبو غريب.

الآن نعرف جيدًا كل الأحداث التي أحاطت بالاعتداءات التي تعرض لها سجناء أبو غريب في الرصيف A1 على يد أفراد الشرطة العسكرية وآخرين تورطوا في جمع المعلومات الاستخباراتية من خلال الاستجوابات. توقفت هذه السلوكيات المخجلة عندما ظهرت صور الإهانة والتعذيب وجذبت انتباه الرأي العام، كان شابًا عاديًّا هو من قام بهذا الفعل الرائع الذي تسبب في وقف الرعب، تطلب ما أقدم عليه قدرًا كبيرًا من الجلَد من وجهة نظر من أعرفهم في الجيش؛ لأنه كان احتياطيًّا متخصصًا في الجيش برتبة متدنية لَفَت نظر ضابط أعلى إلى شيء فظيع يحدث تحت نظره.

عندما رأى داربي الصور للمرة الأولى على أسطوانة مدمجة أعطاها له رفيقه تشارلز جارنر ضحك ظنًّا منه أنها ظريفة. «بالنسبة لي، عندما رأيت هذا الهرم من العراقيين العرايا

---

(1) T. Angers, *The Forgotten Hero of My Lai: The Hugh Thompson Story* (Lafayette, LA: Acadian House Publishing, 1999).

(2) كانت كلمات الأغنية المهداة إلى الملازم كالي تقول: «سيدي، التزمت بالأوامر وبذلت ما بوسعي، من الصعب أن نحكم على العدو وأن نحدد الصالح، لكن لا يوجد بيننا من لم يفهم».

أول مرة كان مضحكًا... عندما ظهر فجأة بهذه الطريقة، ضحكت»، قال داربي في لقاء سُجِّل معه مؤخرًا(١)، لكن عندما رأى المزيد من هذه الصور، صور فاضحة جنسيًّا، وصور تُظهِر الضرب تغير رد فعله. «لم أستقبل الأمر بطريقة جيدة، لم أتوقف عن التفكير فيه، بعد حوالي ثلاثة أيام عقدت العزم على التبليغ عن هذه الصور». كان قرارًا صعبًا بالنسبة لداربي لأنه تبين تمامًا الصراع الأخلاقي الذي أمامه. «عليك أن تفهم أنني لست من نوعية الناس الذين يشون بالآخرين... لكن كان هذا يتجاوز كل الحدود بالنسبة لي، كان لزامًا عليّ أن أختار بين ما أعرف أنه صحيح أخلاقيًّا وبين إخلاصي لجنود آخرين، لا يمكن أن أقوم بالأمرين»(٢).

كان داربي يخشى أن يقتص منه زملاؤه في السَّرية إلا أن يبقى دوره في الأمر مجهولًا(٣). صنع أسطوانة أخرى من الصور وكتب خطابًا عنها ووضعهما في غلاف مقوى وسلمها إلى عميل في قسم التحقيقات الجنائية قائلًا بأن أحدهم تركها في مكتبه. بعد فترة قصيرة استجوبه عميل خاص تايلر بيرون وجعله يعترف: «أنا من وضعته هناك»، ثم قدَّم شهادة مُحلَّفة. كان قادرًا على إبقاء هويته مجهولة حتى «أعلن» وزير الدفاع دونالد رامسفيلد فجأة اسم داربي في جلسة استماع عن هذه الاعتداءات بالكونجرس أثناء تناول داربي عشاءه في قاعة الطعام مع مئات الجنود، ابتعد بسرعة عن الموقع وأخفوه لاحقًا في حجز عسكري بغرض حمايته لسنوات عديدة بعد هذا: «لا أشعر بالندم على أي من هذا»، قال داربي مؤخرًا: «رضيت عن قراري قبل تسليم الصور، أدري أنه إذا عرف الناس أنه كان أنا فلن يحبني أحد».

كان هذا الكَشْف سببًا في إجراء عدد كبير من التحقيقات الرسمية في الاعتداءات التي تقع في هذا السجن وفي كل المنشآت العسكرية الأخرى التي تأوي معتقلين. نجح داربي في وَقْف الكثير من التعذيب والعدوان وأحدث تغييرات كبيرة في طريقة إدارة سجن أبو غريب(٤).

ساعدت في ترتيب حصول داربي على شارة تكريم رئاسية من جمعية علم النفس الأمريكية في ٢٠٠٤. لم يستطع لقرابة ثلاث سنوات تسلُّم هذا التكريم لأنه كان مضطرًا للبقاء مع زوجته وأمه في حجز عسكري للحماية بسبب التهديدات الكثيرة بالانتقام التي

(١) تحدث جو داربي لأول مرة منذ كشفه جرائم أبو غريب في لقاء مع ويل هيلتون (*Wil S. Hylton*):
Http://www.gq.com/story/joe-darby-abu-ghraib

(٢) K. Zernike, "Only a Few Spoke Up on Abuse as Many Soldiers Stayed Silent," *The New York Times, May 22, 2004, p. 1.*

(٣) E. Williamson, "One Soldier's Unlikely Act: Family Fears for Man Who Reported Iraqi Prisoner Abuse," *The Washington Post*, May 6, 2004, p. A16.

(٤) تواصل شخصي مع العقيد لاري جيمس (*Larry James*)، ٢٤ أبريل، ٢٠٠٥.

تلفوها. أخيرًا اعتُرِف بداربي كبطل عندما تلقى جائزة جون كينيدي للشجاعة سنة ٢٠٠٥، وقالت كارولين كينيدي رئيسة مكتبة مؤسسة جون كينيدي: «يجب أن نعترف بالأفراد الذين يرحبون بالمخاطرة في سبيل دعم الصالح الوطني وتبني قيم الديمقراطية الأمريكية وأن نشجعهم في كل مكان في حكومتنا. بلدنا مدين للمتخصص بالجيش الأمريكي جوزيف داربي لدفاعه عن سيادة القانون، المبدأ الذي تتبناه أُمّتنا».

أبطال جونز تاون

كان ديبي لاتون وريتشارد كلارك الناجيين الوحيدين من بين ٩١٣ مواطنًا أمريكيًا قضوا في عمليات قتل وانتحار جماعية في جونز تاون، جيانا، في ١٨ نوفمبر، ١٩٧٨م. ديبي من عائلة ثرية، متعلمة بيضاء من أوكلاند، كاليفورنيا، بينما ريتشارد من سان فرنسيسكو، من عائلة متواضعة من الأفارقة الأمريكيين أصلهم من مسيسيبي، أصبحا صديقين عندما وصلا إلى منطقة الخليج بعد الهروب من كابوس جونز تاون. يصل كلاهما إلى مرتبة الأبطال من عدة أوجه، كانت ديبي هي كاشفة الفساد، وريتشارد هو السامري الصالح.

انضمت ديبي إلى جماعة معبد الشعوب التي أسسها جيم جونز وكانت في الثامنة عشرة من عمرها، كانت تابعة مخلصة لسنوات عديدة حتى صارت أمينة صندوق المعبد، وكانت تؤتمن على نقل ملايين الدولارات خارج جونز تاون لتودعها في حسابات سرية في بنوك سويسرية. أمها وأخوها لاري كانا أيضًا أعضاء في الجماعة، لكن تبين لها بعد فترة أن جونز تاون هي معسكر اعتقال وليست المدينة الفاضلة الموعودة حيث تسود المساواة ونمط الحياة المستديم بين جميع الأعراق، كان حوالي ألف عضو من المخلصين يخضعون لعمل شاق وشبه تجويع واعتداءات جسدية وجنسية. يحيط بهم حراس مسلحون وجواسيس يخترقون حياتهم؛ بل وصل الأمر إلى أن جونز كان يجبرهم على تنفيذ تدريبات على الانتحار بانتظام تسمى «الليالي البيضاء»، وهو الأمر الذي أرعب ديبي عندما أدركت أنها كانت تجهزهم في حقيقة الأمر لانتحار جماعي.

قررت ديبي بسبب شعورها بالخطر الكبير أن تترك جونز تاون وأن تنقل خبر الهلاك المتوقّع الذي سيحل بأقاربها إلى الحكومة وإلى من يهمه الأمر، لم تستطع أن تخطر أمها المريضة بخطتها للهروب خوفًا من رد فعلها العاطفي الذي قد يثير شك جونز. بعد تنفيذ مجموعة معقدة من المناورات هربت ديبي ومباشرة أخطرت السلطات بالظروف السيئة في جونز تاون وحذرتهم مما تؤمن أنه مأساة وشيكة الحدوث.

في يونيو ١٩٧٨م أرسلت إفادة إلى حكومة الولايات المتحدة لتحذر من انتحار

جماعي محتمل. في سبعة وثلاثين نقطة مفصلة بدأت بقولها: «بخصوص خطر حدوث انتحار جماعي من قبل أعضاء معبد الشعوب واحتماليته، أعلن أنا، ديبورا لايتون بلاكي، ما يلي مع درايتي بعواقب شهادة الزور: إن هدف هذه الإفادة هو لفت انتباه حكومة الولايات المتحدة إلى وجود ما يهدد حياة مواطنين أمريكيين يعيشون في جونز تاون، جيانا».

بعد ستة أشهر تحقق توقعها بشكل مخيف، استجداؤها العون قوبل بكل أسف بالتشكيك من قبل المسؤولين الحكوميين الذين رفضوا تصديق أن قصة غريبة مثل هذه يمكن أن تكون حقيقية، لكن بعض أقاربها صدقوها وشجعوا عضو الكونجرس بكاليفورنيا ليو ريان على التحقيق، وقد صحب ريان في رحلته صحفيون ومصور تلفزيوني وبعض أقارب سكان جونز تاون، وفي حين كان ريان على وشك العودة مخدوعًا تمامًا بما شاهده من ظروف معيشية مثالية؛ قرّرت العديد من الأُسر العودة مع ريان في حمايته، لكن كان الأوان قد فات على هذا، أصبح جونز مهووسًا تمامًا في هذا الوقت ورأى أن هؤلاء لو خرجوا سيفضحون حقيقة جونز تاون مما دفعه لقتل ريان وبعض من معه، وبعدها جهّز لحفل تناول سُمّ السيانيد من قبل أتباعه المنهكين. خطاب الساعة الأخيرة الشهير الذي لخّصنا أجزاء منه في الفصل الثاني عشر متاح بالكامل على الموقع الإلكتروني (Jonestown)[١].

كتبت ديبي لايتون تفسيرًا بليغًا عن كيفية خداعها هي وآخرين كثر باستدراجهم من قبل هذا المبشر الشيطاني، تحوُّل جيم جونز المشابه لتحوُّل الشيطان (Lucifer) من راعٍ ديني حسن النوايا إلى ملاك موت موضح جدًا في كتابها (Seductive Poison)[٢]. قلت في موضع آخر أن هناك متشابهات لافتة بين تكتيكات التحكم بالعقول التي استخدمها جونز وبين تلك التي وصفها جورج أورويل في روايته ١٩٨٤م بما يجعل من جونز تاون حقل تجريب لأكثر تكتيكات السيطرة على العقول تطرفًا، وربما كانت مدعومة من المخابرات المركزية الأمريكية (CIA)[٣].

---

(١) الخطبة الأخيرة لجيم جونز:

Http://jonestown.sdsu.edu/AboutJonestown/Tapes/Tapes/DeathTape/death.html.

(٢) D. Layton, *Seductive Poison: A Jonestown Survivor's Story of Life and Death in the People's Temple'New York: Doubleday, 2003)*. *Also see her website, www.deborahlayton.com*

(٣) افكاري عن الربط بين تكتيكات التحكم في العقول التي استخدمها جيم جونز والتي وصفها جورج أورويل في رواية ١٩٨٤م مع جرعة من التكتيكات التي تستخدمها المخابرات المركزية في برنامج (MKULTRA) موجودة في الفصل الذي كتبه:

P. G. Zimbardo, "Mind Control in Orwell's *1984*□ Fictional Concepts Become Operational Realities in Jim Jones' Jungle Experiment," in *1984: Orwell and Our Future*, eds. M. Nussbaum, J. Goldsmith, and A. Gleason (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2005).

كان ريتشارد رجلًا براجماتيًا بسيطًا، يتحدث ببطء لكنه راصد جيد للأماكن وللناس من حوله، قال إنه بمجرد وصوله إلى جونز تاون أحس بأن هناك شيئًا خطيرًا يجري، لم يكن أحد يتسم في الأرض الموعودة، كان الجميع جياعًا في أرض الخير المفترضة، كان الناس يهمسون ولا يضحكون أبدًا، لم يكن العمل يأتي قبل اللعب مطلقًا؛ إذ لا وقت هنالك للهو. كان صوت جونز يعلو ليل نهار، سواء أبنفسه أم بصوت مسجل، كان يفصل بين الجنسين في ثكنات مختلفة، وكانت ممارسة الجنس ممنوعة حتى بين المتزوجين بدون تصريح من جونز. لم يستطع أحد المغادرة ولم يعرف أحد أين كانوا وسط غابة في أرض أجنبية تبعد آلاف الأميال عن الوطن.

وضع ريتشارد خطة للهروب، تطوع لوظيفة لم يرغب فيها أحد في «حظيرة الخنازير» التي كانت في منطقة منعزلة عن المجمع السكني المترامي الأطراف. كان المكان مثاليًا بالنسبة لهروب ريتشارد من خطب جونز التي تخدر العقول ليشق طريقه عبر الغابة نحو الحرية، وبمجرد أن أعد خطة الهروب بعناية وحرص أخبر ديان بها وقال إنهما سيهربان معًا عندما يحين الوقت. أقدم ريتشارد عن قصد على خطوة خطيرة مستخفًا بمنظومة جونز الموسعة للتجسس، حيث أبلغ عددًا قليلًا من الأسر بتخطيطه للهروب. وفي صباح الأحد، ١٨ نوفمبر، أمر جونز الجميع بأخذ يوم للراحة والاحتفال بعودة عضو الكونجرس ريان إلى أمريكا برسالة عن العمل الجيد الذي يتم هنا في هذه المدينة الفاضلة الاشتراكية، وكانت هذه إشارة ريتشارد للخروج. جمع فريقًا من ثمانية أشخاص وتظاهر بالخروج للتنزه، ثم قادهم عبر الغابة إلى بر الأمان، وبمجرد وصولهم إلى العاصمة في جورج تاون، كان جميع أصدقائهم وأهاليهم قد ماتوا.

توفي ريتشارد كلارك مؤخرًا وفاة طبيعية وهو يعرف أنه وقع على الاختيار الصحيح عندما وثق في حدسه، في فطنته التي اكتسبها من الشارع، «وكاشفات التناقض» التي لديه. لكن فرحته بإنقاذ حياة هؤلاء الذين اتبعوه كانت أكبر من أي شيء آخر، ريتشارد بطل عادي، خرج من قلب الظلام[١].

---

* وتفصيل عن جيمس تاون (*Jimstowen*) بصفتها تجربة مدعومة من المخابرات المركزية نجده في هذه الدراسة:

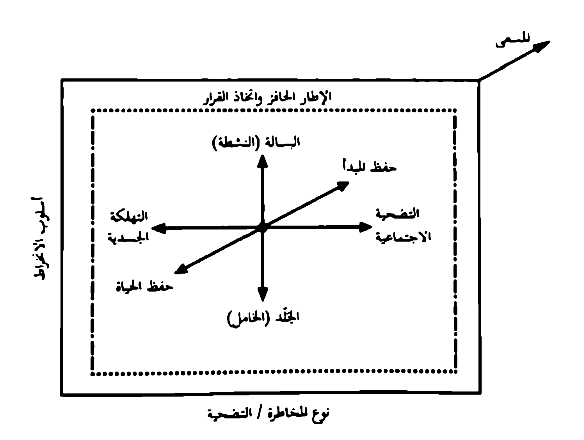
Michael Meires, *Was Jonestown a CIA Medical Experiment? A Review of the Evidence* (Lewiston, NY: E. Mellen Press, 1968). Studies in American Religion Series, vol. 35).

(١) انظر القصة التي اشتركت في كتابتها مع الصحفي دان سوليفان (*Dan Sullivan*) عن ريتشارد كلارك (*Richard Clark*) وديان لوي (*Dinne Louie*):

D. Sullivan and P. G. Zimbardo, "Jonestown Survivors Tell Their Story," *Los Angeles Times, March 9, 1979, part 4, pp. 1, 10-12, 71.*

نموذج رباعي الأبعاد للبطولة

بناء على مفاهيم الشجاعة ونماذج الأعمال البطولية المقدمة هنا يمكننا توليد نموذج أساسي للبطولة. يمكننا ضمن الإطار التحفيزي لشخص معين وصف البطولة على أساس ثلاثة محاور: نوع الخطر ـ التضحية، وأسلوب الاشتباك معه، والمسعى. محور نوع الخطر ـ التضحية مُثبتٌ في أحد طرفيه الخطر الذي يهدد السلامة الجسدية وفي الطرف الآخر الخطر المجتمعي. أسلوب الاشتباك معه أيضًا مُثبتةٌ في طرفه البسالة المؤثرة وفي الطرف الآخر الجَلَد الخامل. فيما يخص المحور الثالث، يُعرّف المسعى بأنه حماية حياة أو فكرة، وعلى الرغم من كونهما مترادفان بطريقة ما ـ فحفظ حياة في حد ذاته هو فكرة نبيلة ـ فالفصل بينهما مهم داخل السياق. الأبعاد الثلاثة الأولية لهذا النموذج مبينة في هذا الرسم التوضيحي:



البعد الرابع الذي يجب أن يضاف إلى هذا النموذج هو الإزمان (Chronicity). ثمة أبطال يمكن أن تصنعهم الأعمال لحظية، أو تتراكم بطولتهم بمرور الزمن. هناك بطولة حادة تظهر في عمل واحد في سياق الجرأة العسكرية مثلًا، عمل شجاع في معركة واحدة. وهناك في المقابل البطولة العسكرية المتأصلة، شجاعة تظهر مرة تلو الأخرى في المعركة وهو ما يسمى بالبسالة. لا توجد حتى الآن مصطلحات بديلة تدلل على المدة في البطولة

المدنية، ربما لأن المستوى الدراماتيكي للبطولة الذي يظهر في مواقف مهلكة لا تسهل رؤيته في المجال المدني.

تباينات بطولية: الاستثنائي مقابل العادي

«الشهرة ليست نبتة تنمو على أرض فانية»

جون ميلتون

يمكن أن نضيف منظورًا جديدًا إلى المفهوم المعروف عن الأبطال بأنهم استثنائيون؛ وهو أن بعض الأبطال هم أناس عاديون لم يقوموا بأي عمل استثنائي. الصورة الأولى هي الأكثر رومانسية والتي تفضلها الأساطير القديمة والميديا الحديثة، وتقترح أن البطل قام بشيء لم يكن ليقدم عليه البشر العاديون إن وضعوا في نفس موقفه، في هؤلاء النجوم جينات البطولة بالضرورة، هم استثناء من القاعدة.

منظور ثانٍ، والذي يمكن أن نسميه «القاعدة هي الاستثناء»، يوجهنا إلى فحص التفاعل بين الظرف والشخص، إلى فحص الحركية التي دفعت بالشخص للتصرف ببطولة في زمن ومكان معينين. يمكن أن يعمل الموقف كمحفز فيشجع التصرف أو يقلل من الحواجز التي تحول دونه مثل تشكيل شبكة دعم مجتمعي. من اللافت أن ثمة رفض متكرر في معظم الأمثلة عن الناس الذين قاموا بأعمال بطولية لتسميتهم بالأبطال كما كان الحال مع كريستينا ماسلاش.

دائمًا ما يقول من يقومون بهذه الأعمال أنهم قاموا بعمل رأوه ضروريًا لحظة قيامهم به، هم مقتنعون بأن أي شخص كان سيفعل نفس الشيء، أو من الصعب عليهم فهم عدم فعل الآخرين لنفس الشيء. قال نيلسون مانديلا: «لم أكن مسيحًا، لكن رجلًا عاديًا أصبح قائدًا في ظروف استثنائية»[1]. يستخدم من قاموا بأعمال بطولية في كل مستويات المجتمع كلمات مشابهة: «لم يكن شيئًا مميزًا»، «فعلت ما وجب فعله». هذه هي ممانعات محاربنا «التقليدي» أو محارب كل يوم، «بطلنا العادي». فلنقارن مثل هذه العادية الإيجابية بما علمتنا حنه آرندت أن نطلق عليه اسم «عاديّة الشر».

عن عاديّة الشر

ظهر المفهوم من ملاحظات آرندت على محاكمة أدولف إيخمان الذي اتهم بجرائم ضد الإنسانية لأنه ساعد في القتل الجماعي لليهود الأوروبيين. في كتابها «إيخمان في القدس» تصوغ آرندت فكرة أننا لا يجب أن نرى أن هؤلاء الأفراد باعتبارهم استثنائيين أو

---

(1) Brink, "Leaders and Revolutionaries".

وحوش قاسية شاذة. تجادل عن أن مثل هذه الميول الشخصية التي تُلحق بشكل نمطي بمرتكبي الأعمال الشريرة تعمل على تمييزهم عن بقية المجتمع الإنساني، في حين يجب تقديم إيخمان ومن هم على شاكلته على أنهم أشخاص جدّ عاديون، كما تقول آرندت. عندما نتبين هذا سنصبح أكثر وعيًا بأن هؤلاء الناس منتشرون وأنهم خطر كامن في كل المجتمعات، كان دفاع إيخمان بمنتهى البساطة أنه كان ينفذ الأوامر. عن دوافع مرتكبي الإبادة الجماعية هؤلاء وضميرهم تقول آرندت:

«بالنسبة لدوافعه الأساسية، فقد كان واثقًا تمامًا من أنه ليس بالوغد القذر في أعماقه، وبالنسبة لضميره، فقد تذكر أنه لن يكون فاسد الضمير إلا إن لم يقم بتنفيذ ما أمر به، أن يقود ملايين الرجال والنساء والأطفال إلى حتفهم بحماس شديد وحرص كبير».

الأمر الأكثر لفتًا للانتباه في تفسير آرندت لكلمات إيخمان هو الكيفية التي بدا بها شخصًا طبيعيًا تمامًا وعاديًا:

«حوالي ستة علماء نفس أجازوه «كشخص طبيعي» - «أكثر طبيعية مني أنا بعد أن فحصته»، قالها أحدهم متعجبًا، في حين وجد آخر أن وضعه النفسي العام، وسلوكه تجاه زوجته وأطفاله وأمه وأبيه وإخوته وأصدقائه كان «طبيعيًا بل ومرغوبًا»»[1].

استنتاج آرندت الحالي والكلاسيكي

«كانت المشكلة مع إيخمان على وجه التحديد هي أن كثيرين يشبهونه، وأن هذه الكثرة لم تكن شاذة ولا سادية، كانت وما زالت طبيعية على نحو مخيف. إن هذه الطبيعية من وجهة نظر مؤسساتنا القانونية ومعاييرنا الأخلاقية في الحكم هي أفظع من معظم الجرائم مجتمعة لأنها عنت. . . أن نوعًا جديدًا من المجرمين، الذين هم في الواقع أعداء للجنس البشري، يرتكبون جرائم في ظروف تجعل إحساسهم بخطأ ما يفعلون يكاد يكون من المستحيل»[2].

ثم يأتي القول الفصل في وصف مشية إيخمان الجليلة إلى المشنقة:

«كان الأمر وكأنما يوجز لنا في هذه اللحظات الأخيرة الدرس الذي علمتناه هذه المسيرة الطويلة من الشرور الإنسانية، درس الخوف، كلمة وفكر تواجه عاديّة الشر»[3].

(١) H. Arendt, *Eichmann in Jerusalem: A Report on the Banality of Evil* (rev. and enlarged edition New York: Penguin, 1994 [1963]) pp. 25-26.

(٢) نفس المصدر، ص٢٧٦.

(٣) نفس المصدر، ص٢٥٢.

طوّر المؤرخ كريستوفر برونينج من مفهوم إمكان ارتكاب «الرجل العادي» جرائم مريعة بشكل أكمل كما ذكرنا سابقًا. كشف عن القتل الممنهج لليهود في قرى بولندية نائية من قبل مئات الرجال في كتيبة الشرطة الاحتياطية ١٠١ الذين أرسلوا إلى بولندا من هامبورج، ألمانيا. هؤلاء الرجال ذوي الأعمار المتوسطة من الطبقة العاملة والطبقة المتوسطة الدنيا أطلقوا النار على آلاف من اليهود العُزَّل رجال ونساء وعجائز وأطفال، ونظموا ترحيل آلاف آخرين إلى معسكرات الموت، ومع ذلك يصر برونينج في كتابه على أنهم كانوا جميعًا «رجالًا عاديين». هو مؤمن بأن سياسات القتل الجماعي للنظام النازي «لم تكن أحداثًا منحرفة أو استثنائية يندر أن تظهر على سطح حياتنا اليومية، فمثلما تثبت قصة الكتيبة ١٠١؛ أصبح القتل الجماعي والروتين شيئًا واحدًا. الطبيعية نفسها أصبحت غير طبيعية بشكل مفْرِط»[1].

يتبنى عالم النفس إيرفين ستوب الرأي نفسه حيث قاده بحثه الموسع إلى استنتاج أن «الشر الذي ينشأ من التفكير العادي ويرتكبه أناس عاديون هو المعتاد وليس الاستثناء»[2]. من الضروري أن نُرجِع السلوكيات الوحشية إلى أصولها الاجتماعية لا إلى «السمات الشخصية» أو «الشخصية الخطّاءة» بطبيعتها وفقًا لتحليلات زيجمونت باومان لفظائع الهولوكوست. كذلك يؤمن باومان بأن الاستثناء لهذه القاعدة هو الشخصية النادرة القادرة على تثبيت الاستقلالية الأخلاقية بمقاومة متطلبات السلطات المدمر، لا يعي مثل هذا الشخص أنه يمتلك هذه القدرة الخفية إلا فيما ندر إلى أن يواجه هذا الاختبار[3].

بعض الخصائص الأخرى لعاديّة الشر تدخل بنا مباشرة إلى قلب عرين ممارسي التعذيب حتى نتدبّر ما إذا كان هؤلاء الأشخاص الذين لا يحرصون إلا على استخدام جميع الوسائل اللازمة لكسر الإرادة والمقاومة وتحطيم كرامة ضحاياهم؛ هم شيء آخر بخلاف كونهم مرضى بالشرّ. يُجمِع من درسوا نفسية ممارسي التعذيب أنهم بشكل عام لا يختلفون عن عامة الناس في خلفياتهم أو سماتهم الشخصية قبل تبني هذا العمل الدنيء. خلص جون كونروي الذي درس عن ممارسي التعذيب في ثلاث مؤسسات مختلفة في إيرلندا وإسرائيل وشيكاغو؛ إلى أنه في كل الحالات ارتكبت أعمالٌ «لا يمكن وصفها بالكلمات» من قبل «بشر عاديين»، ويتمسك بأن ممارسي التعذيب ينفذون إرادة المجتمع

---

(١) C. R. Browning, *Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland* (New York: HarperPerennial, 1992), p. xix.

(٢) E. Staub, *The Roots of Evil: The Origins of Genocide and Other Group Violence* (New York: Cambridge University Press, 1989), p. 126.

(٣) Z. Bauman, *Modernity and the Holocaust* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1989).

الذي يمثلونه في قمع أعدائه[١].

خلصت زميلتنا عالمة النفس اليونانية ميكا هاريتوس - فاتوروس في تحليلاتها الدقيقة عن الجنود الذين دربهم المجلس العسكري اليوناني على يد معذبين مصرحين من قبل الدولة (١٩٦٧ - ١٩٧٤م)؛ إلى أن ممارسي التعذيب لا يولدون بهذه الميول ولكن يُصْنَعُون بالتدريب. «ابن أي شخص قد يصير إلى هذا» هو جوابها على سؤال «من سيصنع معذبًا قويًا؟» في ظرف شهور قليلة تحول شباب عادي صغير السن من قرى نائية يتحولون إلى مسلحين من خلال التدريب على القسوة والتصرف كوحوش همجية قادرة على فعل أشد أنواع الامتهان والألم والمعاناة في أي شخص يسمى «عدوًّا»، والذين هم مواطنون من بلده[٢]. لا تقف مثل هذه الاستنتاجات عند بلد واحد، ولكنها مشتركة في العديد من الأنظمة الشمولية. درسنا «أعمال العنف» في البرازيل، حيث عذّب رجال شرطة المواطنين البرازيليين وقتلوهم لصالح حكم المجلس العسكري، هم أيضًا كانوا «رجالًا عاديين» بناء على جميع الأدلة التي جمعناها[٣].

عن عاديّة البطولة[٤]

يمكننا الآن قبول مفهوم أن معظم مرتكبي الشرور تمكن مقارنتهم مباشرة بمرتكبي الأعمال البطولية من حيث تشابههم في كونهم عاديين. تشترك عادية الشر مع عادية البطولة في الكثير. كلاهما ليسا نتيجة مباشرة لأي ميول شخصية، لا توجد أية سمات داخلية خاصة سواء للشر أو للخير تكمن داخل النفس البشرية أو الجينات. تنشأ كلتا الحالتين في ظروف خاصة في أوقات معينة تفرض دورًا مُلزِمًا بتحريك أشخاص معينين عبر خط فاصل بين عدم الاكتراث والمبادرة. هناك لحظة حاسمة يقع فيها الشخص تحت ضغط قوى شكّلها سياق سلوكي.

تتحد هذه القوى لتزيد من احتمالية تحرك الشخص لإيذاء آخرين أو مساعدتهم، قد يكون قراره غير مخطط له أو غير مقصود؛ فالمؤثرات الظرفية القوية كثيرًا ما تدفع الشخص إلى الفعل. من بين المؤثرات الظرفية الموجهة للفعل نجد الضغط الجماعي وهوية الجماعة، وتفرق مسؤولية التصرف، والتركيز المؤقت على اللحظة الحالية بدون التفكير في العواقب

---

(١) J. Conroy, *Unspeakable Acts, Ordinary People: The Dynamics of Torture* (New York: Knopf, 2000).

(٢) M. Haritos-Fatouros, *The Psychological Origins of Institutionalized Torture* (London: Routledge, 2003).

(٣) M. Huggins, M. Haritos-Fatouros, and P. G. Zimbardo, *Violence Workers: Police Torturers and Murderers Reconstruct Brazilian Atrocities* (Berkeley: University of California Press, 2002).

(٤) قدم مفهوم «عاديّة البطولة» أول مرة في مقال كتبه زيمباردو في حدث سنوي يدعمه جون بروكمان (John Brockman) تحت عنوان إدج (*Edge*) وكان هذا سنة ٢٠٠٦. يدعى لهذا الحدث لفيف من الباحثين للإجابة عن أسئلة مستفزة، وكان سؤال ذلك العام «ما هي فكرتك الخطيرة»: .www.edge.org

التي سيؤدي إليها الفعل في المستقبل، ووجود نماذج في المجتمع، والالتزام بأيديولوجيا ما.

من الممكن أن نلخص مساعدة المسيحيين الأوروبيين لليهود أثناء الهولوكوست بمصطلح (عادية الخير) فحسب. ما يلفت الانتباه مرة تلو الأخرى هو عدد هؤلاء المنقذين الذين فعلوا الشيء الصحيح دون اعتبار أنفسهم أبطالًا، لم يفعلوا ذلك إلا لإحساسهم بالتزام عام، مقدار الخير الذي قاموا به يخطف الانتباه خاصة في سياق الشر الرهيب للقتل الجماعي الممنهج الذي ارتكبه النازيون بمعدلات لم يشهدها العالم من قبل[1].

حاولت عبر رحلتنا أن أظهر أن حراس الشرطة العسكرية الذين تعدوا على السجناء في سجن أبو غريب والحراس في تجربة سجن ستانفورد الذين اعتدوا على السجناء قد مثَّلوا نوعًا من التحول المؤقت في الشخصية والشبيه بما حدث في رواية أمير الذباب، يجب أن نعدهم مع أولئك من أصحاب السلوك الشرير الشامل والمستمر من الطغاة مثل إيدي أمين وستالين وصدام حسين، يقف أبطال اللحظة أيضًا في نفس الصف مع الأبطال الدائمين.

العمل البطولي لروزا باركس عندما رفضت الجلوس في قِسم أصحاب البشرة «الملونة» (غير البيضاء) في المقعد الخلفي لحافلة ألاباما، ولجو داربي عندما فضح أمر التعذيب في سجن أبو غريب، ولأول من لبوا نداء ضحايا أية كارثة هي أعمال شجاعة تحدث في أماكن خاصة في أزمنة معينة. وفي المقابل فإن بطولة ماهاتما غاندي والأم تيريزا هي أفعال شجاعة تكررت طوال حياتهم، البطولة المتأصلة بالنسبة للبطولة اللحظية هي كالإقدام بالنسبة للشجاعة.

يعني هذا: أن أيًا منا يمكنه أن يصبح بطلًا أو شريرًا بسهولة بحسب كيفية تأثير القوى الظرفية فيه. يصبح واجبنا هو اكتشاف كيفية تحديد وتقييد ومنع المؤثرات الظرفية والنظامية التي تدفع البعض منا إلى الإصابة بالأمراض الاجتماعية، لكن من المهم بالمثل أن يوصى كل مجتمع برعاية «المخيلة البطولية» في المواطنين. يتحقق هذا بإيصال الرسالة التي مفادها أن كل شخص هو بطل منتظر سيُعتمد عليه ليفعل الشيء الصحيح عندما تحين لحظة اتخاذ القرار. السؤال الحاسم لكل منا هو هل نساعد الآخرين ونمنع عنهم الأذى، أم أننا لا نتحرك على الإطلاق؟ يجب أن نعدّ الكثير من أكاليل الغار لكل من يكتشفون ذخيرتهم الخفية من نقاط القوة والفضائل التي تسمح لهم بالتقدم للتحرك في وجه الظلم والوحشية والمدافعة عن قيمهم.

---

(١) انظر:

Francois Rochat and Andre Modigliani, "Captain Paul Grueninger: The Chief of Police Who Saved Jewish Refugees by Refusing to Do His Duty," in *Obedience to Authority: Current Perspectives on the Milgram Paradigm*, ed. T. Blass (Mahwah, NJ: Erlbaum, 2000).

هذه المجموعة الضخمة من المحددات الظرفية للسلوك المعادي للمجتمع التي راجعناها هنا والتي تنتهي بتحقيقات ميلغرام عن قوة السلطة والقوة المؤسسية في تجربة سجن ستانفورد؛ تكشف مدى طبيعية هذا السلوك، حيث بشر عاديون يمكن دفعهم للتورط في أعمال وحشية مع آخرين أبرياء[1]، لكن وعلى الرغم من أن أغلبية المشاركين في تلك الدراسات توافقوا وأطاعوا قدومًا ما كانت هناك أقلية قاومت وانشقّت. من معاني البطولة القدرة على مقاومة المؤثرات الظرفية التي تهزم أغلب الناس بسهولة.

هل شخصيات المقاومين مختلفة عن شخصيات ذوي الطاعة العمياء؟[2] كلا، ينص مفهومنا لعادية البطولة على أن من يقومون بأعمال لحظية البطولة ليسوا بالضرورة مختلفين عن أولئك الذين تسهل غوايتهم، لا توجد الكثير من الأبحاث التجريبية التي يمكن أن نؤسس عليها تأكيدات مشابهة لأن البطولة ليست ظاهرة بسيطة يمكن دراستها منهجيًا، فهي ترفض التعريفات الواضحة ويعسر فيها جمع البيانات قرب من الحدث، الأعمال البطولية سريعة الزوال وغير متوقعة، وتقديرها بالتأكيد يجب أن يكون بالرجوع إليها. لا ننتظر دراسات عما يمكن أن يسميه المصور هنري كارتير - بريسون: «اللحظة الحاسمة للعمل البطولي»؛ فالأبطال في الغالب تعقد معهم اللقاءات بعد أشهر أو سنوات من عملهم البطولي[3]. بشكل عام لا نعرف مصفوفة صناعة القرار بالنسبة للأبطال وقت اختيارهم خوض غمار أعمال محفوفة بالمخاطر.

---

(١) Stanley Milgram, *Obedience to Authority: An Experimental View* (New York: Harper & Row, 1974).

وانظر أيضًا:

Philip Zimbardo, Craig Haney, William Curtis Banks, and David Jaffe, "The Mind Is a Formidable Jailer: A Pirandellian Prison," *The New York Times Magazine*, April 8, 1973, pp. 36 ff.

(٢) تقول أبحاث عن الشخصية بأن فصل «المطيعين» عن «العصاة» يظهر في مؤشرات قليلة فقط، فمن يسجلون أرقامًا عالية في الشخصية السلطوية في مقياس الفاشية [*F-Scale*] تزيد احتمالات طاعتهم للسلطة، بينما يسجل العصاة أرقامًا أقل. انظر:

A. C. Elms and S. Milgram, "Personality Characteristics Associated with Obedience and Defiance Toward Authoritative Command," *Journal of Experimental Research in Personality 1 (1966): 282-89.*

المتغير الثاني الذي يمكن أن يؤثر في ميول الطاعة أو العصيان هو الاعتقاد في المؤثرات الخارجية المتحكّمة في الحياة في مقابل المؤثرات الداخلية، وتزداد الطاعة بين من يقبلون بكون سلوكهم تحكمه قوىً خارجية. في نفس الاتجاه، بين المشاركين المسيحيين مثلاً، كانت الطاعة أكبر عند من يؤمنون بالتحكم الإلهي في حياتهم، في حين مال إلى رفض السلطة العلمية - وكذلك الدينية - من كانت درجاتهم أضعف في مقياس الإيمان بوجود التحكم الإلهي الخارجي في حياتهم، انظر:

Tom Blass, "Understanding Behavior in the Milgram Obedience Experiment: The Role of Personality, Situations, and Their Interactions," *Journal of Personality and Social Psychology* 60 (1991): 398-413.

(٣) E. Midlarsky, S. F. Jones, and R. Corley, "Personality Correlates of Heroic Rescue During the Holocaust," *Journal of Personality* 73 (2005): 907-34.

تؤكد البطولة على الروابط الإنسانية

لبعض الأسباب لا نفهم آلاف البشر العاديين حول العالم عندما يوضعون في ظروف خاصة فيتخذون القرار بالتصرف على نحو يخلده التاريخ. في هذا الصدد يبدو المنظور الذي نتبناه هنا وكأنما يقلص من أسطورة البطل ويحوّل شيئًا مميزًا إلى أمر عادي، لكن ليس الأمر كذلك لأن موقفنا ما زال يعتبر أن العمل البطولي نادر بالفعل. تدعم البطولة مثاليات مجتمع ما وتفيد بوصفها مرشدًا استثنائيًا وتقدم القدوة للسلوك الداعم للمجتمع. عادية البطولة معناها أننا جميعًا أبطال مُنتَظَرُون، هو اختيار يمكن أن نُستدعى لتبنيه في أية لحظة. أؤمن بأن تحويل البطولة إلى سمة موجودة في الطبيعة الإنسانية ككل لا أنها سمة نادرة في قلة منتخبة يمكن أن يعزز الأعمال البطولية أكثر في المجتمع. وفقًا للصحفية كارول ديبينو: «لدى الجميع القدرة على أن يصير بطلًا بدرجة أو بأخرى، هو أمر قد لا تتبينه في بعض الأحيان. بالنسبة لشخص ما قد تكون بطولتنا في شيء بسيط مثل الإمساك بالباب حتى يدخل الجميع والترحيب بهم، جميعنا أبطال بالنسبة لشخص ما»[١].

هذا الطرح الجديد لعمومية الأبطال العاديين يشجعنا على إعادة التفكير في الأبطال الموجودين بيننا، أولئك الذين يقدمون تضحيات يومية لإثراء حياتنا.

إن رسالة الوداع التي يمكن أن نستخلصها بعد رحلتنا الطويلة في قلب الظلام هي أن الاحتفاء بالأعمال البطولية ومن يقومون بها واجب، فهم يشكلون روابط أساسية بيننا، يشكلون روابطنا الإنسانية. مواجهة الشر الموجود بيننا واجبة، ومن ثم تجاوزه بالخير الأعظم في قلوب الجميع والعزيمة الشخصية البطولية في كل رجل وكل امرأة. هي ليست مفهومًا مجردًا ولكن كما يذكرنا الشاعر الروسي والسجين السابق في معسكرات العمل التي صنعها ستالين أليكساندر سولجيتسين: «الخط الفاصل بين الخير والشر موجود في قلب كل إنسان»[٢].

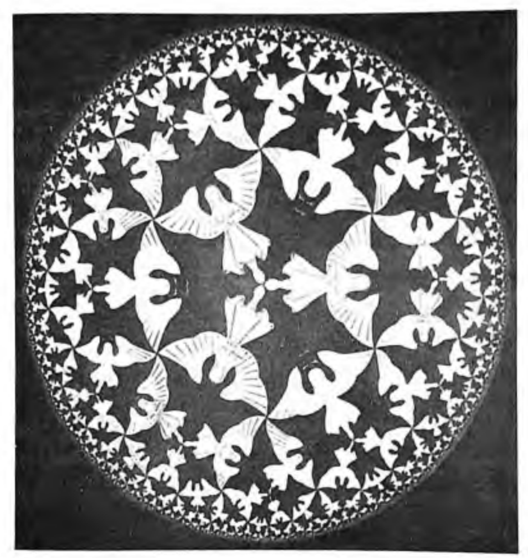
أشكركم على الانضمام لي في هذه الرحلة.

فيل زيمباردو (Phill Zimbardo)

---

(١) Carol S. DePino, "Heroism Is a Matter of Degree." *El Dorado Times.* Www.eldoradotimes.com/articles/2006/01/17/news/news6.txt

(٢) Aleksandr I. Solzhenistyn, *The Gulag Archipelago, 1918-1956* (New York: Harper & Row, 1973).



M. C. Escher's "Circle Limit IV" 2006 The M. C. Escher Company-Holland.

نبذة تعريفية

* المؤلف:

- «فيليب زيمباردو (١٩٣٣ ـ ....) أستاذ علم النفس المتقاعد بجامعة ستانفورد، وسبق له التدريس بجامعات يال (Yale University)، ونيويورك (New York University)، وكولومبيا (Columbia University) بالولايات المتحدة الأمريكية.
- شغل زيمباردو منصب رئيس جمعية الطب النفسي الأمريكية (APA)، وهو مدير مركز ستانفورد للسياسات الانضباطية، والتعليم، وأبحاث الإرهاب. وكان المتحدث في سلسلة وثائقية بث على شبكة الإذاعة العامة الأمريكية (PBS) بعنوان «استكشاف علم النفس» (Discovering Psychology)، وشارك في إعدادها، وقد حازت السلسلة على عدد من الجوائز.
- من كتبه:

ـ كتاب «الطفل الخجول: منع الخجل والتغلب عليه من الطفولة وحتى البلوغ» (The Shy Child: Overcoming and Preventing Shyness from Infancy to Adulthood).

ـ وكتاب «معضلة الوقت: علم النفس الجديد للوقت، والذي سيغير حياتك» (The Time Paradox: The New Psychology of Time That Will Change) (بالمشاركة مع جان بويد).

ـ وكتاب: «الخجل: ما هو، وماذا نفعل حياله» (Shyness: What It Is, What To Do About It).

ـ وكتاب «علم النفس والحياة» (Psychology and Life)، (بالمشاركة مع ريتشارد كريغ).

وقد بلغت مبيعات هذين الكتابين الأخيرين أكثر من ٢.٥ مليون نسخة.

- موقع المؤلف التثقيفي: www.prisonexperiment.org
- الموقع الإلكتروني الخاص بالمؤلف: www.zimbardo.com
- الموقع الإلكتروني الخاص بكتاب «تأثير الشيطان»: www.LuciferEffect.com

* المترجم:

- هشام سمير عناية الله، مترجم وباحث من مصر، تخرج من كُلية اللغات والآداب بجامعة ميلانو، حيث تخصص في اللغتين الإنجليزية والفرنسية، ويستكمل دراساته العُليا في تاريخ اللغة الإنجليزية وتطورها عن طريق الترجمة، من ترجماته:

ـ نوح فيلدمان، الحرب الهادئة ومستقبل التنافس العالمي، مركز تكوين للدراسات والأبحاث (٢٠١٦).

ـ إيفون يازبيك حداد، وجون إسبوزيتو، بنات إبراهيم، الفكر النسوي في اليهودية والمسيحية والإسلام، دار الروافد الثقافية (٢٠١٨).

ـ رولاند سترومبرج، تاريخ فكري لأوروبا الحديثة، عالم الأدب للترجمة والنشر (٢٠١٩).

ـ مايكل كوك، تاريخ مختصر للجنس البشري، عالم الأدب للترجمة والنشر (٢٠١٩).

* المراجعة:

- حالة الجندي، محررة ومترجمة من سوريا، أنجزت تحرير العديد من الإصدارات والمقالات في الحقول الشرعية والفكرية.

تأثير الشيطان



ما الذي يجعل الناس يرتكبون أفعالاً شريرة؟ لدى عالم النفس الشهير فيليب زيمباردو إجابة على هذا السؤال، وفي هذا الكتاب الشهير "تأثير الشيطان" يشرح كيف ولماذا كلنا معرضون لغواية ارتكاب الشر والجريمة، مستفيداً من تجربته الرائدة، ومن نماذج تاريخية متنوعة، فهو صانع تجربة سجن ستانفورد ذائعة الصيت. يحلل زيمباردو تأثيرات الظروف والآليات المختلفة التي تحول الأخيار إلى وحوش مظلة. كما يسلط الضوء على الأساليب التي يتمكن بها الفرد من مقاومة غواية السقوط في الشر

يتيح هذا الكتاب فرصة أكبر لفهم عدد من الظواهر، بدءاً من فساد الشركات، إلى التعدي على السجناء والتعذيب في سجن أبو غريب، وصولاً إلى المجازر الجماعية.
إنه بحث صادم ومثير للتأمل، وسيؤثر على الطريقة التي ننظر بها إلى السلوكيات الإنسانية ويكشف غوامضها

مركز تكوين

• • •

«سيغير تأثير الشيطان نظرتك لدوافع سلوكياتنا والطريقة التي نمارسها وللأبد، ومواجهة طاقة الشر الكامنة في الإنسان. هذا كتاب مربك، لكنه ضروري على نحو استثنائي»

(مالكوم جلادويل، الكاتب والمؤلف المعروف)

«زيمباردو احتجز الشر في مختبر، والدروس التي خرج بها من تجربته تكشف لنا الجانب المظلم في طبيعة كل منا، ولكنها تملؤنا بالأمل إن اعتبرنا بها. تأثير الشيطان يقرأ كما تقرأ الرواية»

(أنتوني براتكانيس، أستاذ علم النفس الفخري، جامعة كاليفورنيا)





www.takween-center.com
info@takween-center.com
@takweencenter
/takweencenter



٦٠ ريال
16 $

مطابع الفسطاط الحديثة
al_fostat@yahoo.com